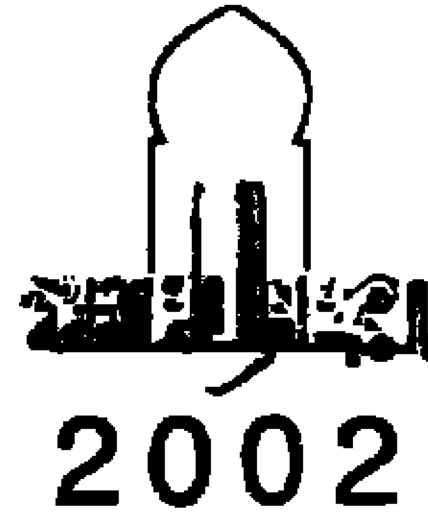
المجلس الأعلى للثقافة

المرشد الأمين للبنات والبنين

رفاعة الطهطاوى

تقديم : عماد بدر الدين أبو غازى



2002

المرشد الأمين للبنات والبنين

رفاعة الطهطاوى

تقديم : عماد بدر الدين أبوغازى

مقدمة

بشير التقدم وصانعه

عماد بدر الدين أبو غازى

يعيد المجلس الأعلى للثقافة إصدار الطبعة الأولى من كتاب «المرشد الأمين للبنات والبنين» لرائد التنوير فى مصر فى العصر الحديث رفاعة رافع الطهطاوى فى إطار الندوة الدولية التى تنعقد بمناسبة مرور قرنين على مولده، وقد حصل المجلس على نسخة من الطبعة الأولى للكتاب من أسرة رفاعة. وقد ألف رفاعة هذا الكتاب، كما يذكر فى مقدمته بناءً على أمر شفاهى صدر له من ديوان المدارس بعمل كتاب فى الآداب والتربية، وربما يكون على مبارك أو الأمير حسين كامل (السلطان حسين فيما بعد) هو الذى كلف رفاعة بإعداد الكتاب، فالأول كان يشغل منصب ناظر ديوان المدارس فى الفترة من مايو ١٨٧١ إلى أغسطس ١٨٧٢ ثم تولاه الثانى حتى أغسطس ١٨٧٣ ، وقد أهدى رفاعة الكتاب إلى الأمير حسين كامل الذى كان يشغل المنصب وقت صدوره.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن هناك خلافًا حول تاريخ صدور هذا الكتاب، فقد أشار السيد صالح مجدى تلميذ رفاعة وكاتب سيرته المعنونة بـ «حلية الزمن بمناقب خادم الوطن» إلى أن الكتاب قد صدر بعد وفاة رفاعة الطهطاوى، وأن نجله على فهمى رفاعة هو الذى أشرف على إنجاز طباعة الكتاب الذى صدر حسب تلك الرواية فى عام ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م، لكن التاريخ المثبت على صفحة العنوان للكتاب يشير إلى غير ذلك، فهناك إشارة إلى أن الكتاب طبع بطبعة المدارس الملكية فى العشر الأواخر من شوال سنة ١٢٨٩ هجرية، ويقابل هذا التاريخ العشر الأواخر من ديسمبر سنة ١٨٧٢م، أى أن الكتاب صدر قبل وفاة رفاعة الطهطاوى بعدة أشهر، حيث رحل عن عالمنا فى ٢٧ مايو ١٨٧٣م. ولاشك فى أن التاريخ المثبت على الكتاب هو الأدق، والكتاب ـ فى كل الأحوال ـ من كتب رفاعة الأخيرة التى تعكس فكره بعد اكتمال نضجه.

وقد نادى فى كتابه هذا بضرورة تعليم البنات مثلهن فى ذلك مثل البنين، وبذلك أكد الطهطاوى أفكاره المتقدمة حول المرأة ودعوته الدائمة إلى الارتفاع بشأنها، وهو ما جسده فى ممارسته الفعلية فى الحياة داخل أسرته، فكان نموذجًا للمثقف المتسق مع ذاته وأفكاره، ولعل عقد الاتفاق الذى كتبه رفاعة بخط يده فى شوال ١٢٥٥هـ عند زواجه من ابنة خاله ووضع فيه شروطًا على نفسه يقدم نموذجًا على هذا السلوك. كتب رفاعة فى العقد: «التزم كاتب الأحرف رفاعة بدوى رافع لبنت خاله المصونة الحاجة كريمة بنت العلامة الشيخ محمد الفرغلى الأنصارى، أنه يبقى معها وحدها على الزوجية دون غيرها من زوجة أخرى أو جارية أيا ما كانت، وعلق عصمتها على أخذ غيرها من النساء، أو تمتع بجارية أخرى، فإذا تزوج بزوجة أيا ما كانت، كانت بنت خاله بمجرد العقد طالقة بالثلاثة، وكذلك إذا تمتع بجارية ملك اليمين، ولكن وعدها وعدًا صحيحًا لا ينتقد ولا ينحل أنها ما دامت معه على المحبة المعهودة مقيمة وعلى الأمانة والحفظ لبيتها ولأولادها ولخدمها وجواريها مساكنة معه فى محل سكناه لا يتزوج بغيرها أصلاً ولا يتمتع بجوار أصلاً ولا يخرجها من عصمته حتى يقضى الله لأحدهما بقضاء. هذا ما انجعلت عليه العهود وشهد الله سبحانه وتعالى بذلك وملائكته ورسوله وإن فعل المذكور خلافه كان الله تعالى هو الوكيل العادل للزوجة المذكور، ويقتص لها منه فى الدنيا والآخرة وهذا ما انجعل عليه الاتفاق وكذلك إن أتعبته فهى الجانية على نفسها».

لقد طرح رفاعة الطهطاوى أفكاره حول المرأة منذ كتابته الأولى، حيث دعا فى كتاب «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز أو الديوان النفيس بإيوان باريس» الذى صدر عقب عودته من فرنسا إلى رفع سن الزواج حتى تتمكن المرأة من أن تتعلم، فكان بذلك صاحب دعوة رائدة لتطوير وضع المرأة المصرية والنهوض بها على قواعد

اجتماعية ثابتة تحرر المرأة من أوضاع التخلف التى ورثتها عن العصور الوسطى، وتتيح أمامها إمكانات حقيقية للرقى بأوضاعها. لقد كان رفاعة دومًا فى كل ما يطرحه مبشرًا بالتقدم وصانعًا له فى آنٍ واحد، وفى هذا الكتاب يطرح قضية تعليم البنات ويتبناها، ورغم أن قرار تعليم البنات فى المدارس كان سابقا على صدور كتاب المرشد الأمين كما يشير الطهطاوى إلى ذلك فى مقدمته، إلا أن الكتاب يظل أول مبادرة للتأصيل الفكرى للقضية. ويذهب الطهطاوى فى كتابه إلى أنه: «ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معًا لحسن معاشرة الأزواج، فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك، فإن هذا مما يزيدهن أدبًا وعقلاً، ويجعلهن بالمعارف أهلاً، ويصلحن به لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى، فيعظمن فى قلوبهم ويعظم مقامهن لزوال ما فيهن من سخافة العقل والطيش، مما ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة لمثلها» ولا يقف الطهطاوى عند هذا الحد فى الدعوة إلى تعليم البنات بل يذهب إلى أبعد من ذلك حيث يطرح بجرأة الدعوة لعمل المرأة، فيقول: «إن التعليم يمكن المرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها، فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن، وهذا من شأنه أن يشغل عن البطالة، فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل، فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ويقربها من الفضيلة، وإذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال فهى مذمة عظيمة فى حق النساء»، ومن الواضح من دعوة رفاعة الطهطاوى إلى عمل المرأة أن تلك الدعوة تنطلق من مبدأ أن العمل قيمة فى حد ذاته، وأن الدافع عنده إلى عمل المرأة ليس الضرورة فقط.

وينقسم كتاب رفاعة إلى مقدمة وسبعة أبواب وخاتمة، ويتناول فى المقدمة التى وضعها لكتابه مفهوم التربية وعلاقتها بالقيم الدينية ودور المنزل فى التنشئة، وربما تكون هذه المقدمة من أول ما كتب فى مجال التربية، وتتناول فى الباب الأول

الإنسان كحيوان ناطق وعلاقته بسائر المخلوقات ثم المساواة بين البشر. ومن الباب الثاني حتى الباب السابع يتعرض لقضية تعليم البنات والبنين ويناقش الآراء المختلفة فى الفوارق بين الجنسين، وفى أهمية التعليم والعمل لكليهما، وفى فضل تعليم البنات والبنين تعليمًا تربويًا سليمًا على رقى الوطن وتمدن الأمة، ويستعين بالشواهد التاريخية المتعددة من تاريخنا المصرى والعربى ومن تاريخ العالم للتعريف بما للمرأة من أدوار فى الحياة العامة للمجتمعات الإنسانية المختلفة، كذلك يتطرق إلى قضايا الزواج والأسرة، ويؤكد على علاقة نجاح الحياة الأسرية بالتعليم السليم للبنات والبنين على حد سواء، أما خاتمة الكتاب فقد عرض فيها لبعض الأمور المتعلقة بحفظ الصحة ثم أورد بعض الأحاديث النبوية التى تدعو إلى الفضائل.

لقد كان رفاعة ابن عصره، ولد مع مطلع قرن جديد شهد تحولات تاريخية حاسمة فى مصر، انتقلت خلاله مصر من مرحلة العصور الوسطى بقيمها إلى عصر التنوير والتحديث، ومن المؤكد أنه كانت هناك إرهاصات فكرية لهذا التحول بدأت منذ القرن الثامن عشر، ودعمتها تحولات اجتماعية واقتصادية وسياسية، لكن هذا التحول لم يكتمل ويأخذ أبعاده إلا فى القرن التاسع عشر. وكان رفاعة أبرز أبناء ذلك القرن الذين انتظموا فى حركة التغيير، لكنه لم يكن مجرد ابنا للعصر بل كان رائدًا أمسك بيديه دفة الأمور وقاد عمليات التحول الفكرى. فكان علمًا على القرن كما كان ابنًا له، وأسهم بجهوده فى عملية التحديث التى بدأت منذ عصر محمد على، واستكملت بعض جوانبها فى عصر إسماعيل، وإسهامه هذا جعله يتبوأ مكان الصدارة بين رواد التنوير فى مصر فى العصر الحديث.

لقد كان رفاعة الطهطاوى صاحب مشروع حضارى وثقافى لتحديث مصر فكريًا، التقى بمشروع محمد على لبناء الدولة الحديثة، فكان نموذجًا إيجابيًا للقاء المفكر بالدولة. وقف معها عندما كان مشروعه الفكرى متوافقًا مع مشروعها السياسى

فـى عصـر محمـد على وإسماعيل، وابتعد بل أُبعد ونفى عندما اصطدم المشروعان فى عصـر عـباس الأول، كـان مـثلاً للمـثقف الـذى ينشـد التغـيير ويـتفاعل مـع المشروع السياسـى لبـناء دولـة حديثة ويعمل من خلال مؤسسات الدولة بل يساهم فى بنائها وتحديثها، دون أن يتخلى عن استقلاله الفكرى وعن آرائه ومبادئه.

لقد كان رفاعة الطهطاوى بحق بشيرًا للتقدم كما كان أيضًا صانعًا له.

(فهرست كتاب المرشد الامين للبنات والبنين)

صحيفة

٢ خطبة الكتاب

٤ مقدمة فى بيان تربية الاطفال من الذكور والاناث وفيها فصول

٤ الفصل الاول فى بيان نفس التربية وفيه خمس مطالب

٨ الفصل الثانى فى محو محبة النفس من الاطفال حال صغرهم وازالتها عن الكبار فى حال كبرهم وفيه مطلب

١٠ الفصل الثالث فى تعويد الاطفال من أول شبوبيتهم على العقائد الدينية والتغذى بألبان الاحكام الشرعية وفيه مطلبان

١٣ الفصل الرابع فى تعليم الاطفال حين تربيتهم احوال المعاد كالمعاش ليجمعوا بين معرفتهما وفيه سبع مطالب

١٩ الباب الاول فى حقيقة الانسان ونسبته الى غيره من المخلوقات و بيان فضائل الذكور والاناث ومايتبع ذلك

١٩ الفصل الاول فى الانسان من حيث ناطقيته وفيه مطلبان

٢١ الفصل الثانى فى سلطنة الانسان بسبب مافيه من الناطقية على جميع المخلوقات وانقياد ماعداه له من الكائنات وفيه مطلبان

٢٢ الفصل الثالث فى قياس الانسان بما عداه من الحيوانات وأنها أقوى منه من بعض الحيثيات وفيه مطلبان

٢٥ الفصل الرابع فى ان بنى آدم بالنسبة لجثمانهم يستوون مع غيرهم فى هذه الدنيا من جماد العالم ونباته وحيوانه ولا تأثير لهم فيما عداه بل التأثير لخالق العالم ومولاه وفيه مطلبان

٢٧ الفصل الخامس فى استواء الانسان فى افراده وأنواعه وعدم اعتبار ألوانه وطباعه وفى ميله للتمدن بالطبع وفيه ثلاث مطالب

٢٩ الفصل السادس فى الكسل المعبر عنه بالدعة والسكون وفيه ستة مطالب

٣٤ الباب الثانى فى الصفات المشتركة بين الذكور والاناث والمخصوصة باحد الفريقين

صحيفة

٣٤ الفصل الاول فى اشتراك المرأة والرجل فى بعض الصفات وافتراقهما فى بعض اخر
وفيه ثلاثة عشر مطلبا
٤٨ الفصل الثانى فى سلطنة النساء على قلوب الرجال وفيه خمسة مطالب
٥٥ الفصل الثالث فى ان المرأة ينبغى أن يكون من اعظم صفاتها حسن المعاملة
والمعاشرة والحلم وفيه مطلب
٥٧ الفصل الرابع فى الاحتياجات الضرورية البشرية وفيه أربع مطالب
٦٠ الباب الثالث فى التعلم والتعليم
٦٠ الفصل الاول فى التعلم وأقسامه وفيه خمسة مطالب
٦٤ الفصل الثانى ينبغى لطالب العلم المشتغل به أن يصفى ذهنه بأكل طيبات الرزق
وفيه مطلبان
٦٦ الفصل الثالث فى تشريك البنات مع الصبيان فى التعلم والتعليم وكسب العرفان
وفيه مطلبان
٦٨ الفصل الرابع فى المدارسة والمطالعه وفيه مطلبان
٧٠ الفصل الخامس فى سعة دائرة المعارف والاطلاع على التليد منها والطارف
وفيه سبعة مطالب
٨١ الفصل السادس فى المنافسة فى كسب المعارف بين الاقران (وطبع غلطا ٧٣)
وفيه مطلب
٨٤ الفصل السابع فى الروح والعقل والقريحة (وطبع غلطا ٧٦) وفيه مطلبان
٨٦ الفصل الثامن فى العلاقة بين الفنون الادبية والعلوم الحقيقية (وطبع غلطا ٧٨)
وفيه ثلاثة مطالب
٨٨ الفصل التاسع فى ذكر الطرق المسهلة لتقدم العلوم والآداب وطريق
الحصول عليها والاكتساب (وطبع غلطا ٨٠) وفيه ثلاثة مطالب
٩٠ الباب الرابع فى ذكر الوطن وتمدينه وبيان ان اعظم اسباب ذلك التربية والتعليم
واستكمال المعارف والتعميم
٩٠ الفصل الاول فى الكلام على الوطن وفيه مطلب
٩٣ الفصل الثانى فى ابناء الوطن وما يجب عليهم وفيه ثلاثة مطالب

صحيفة

٩٥ الفصل الثالث فى الملة والدولة فى العرف وما يتعلق بذلك وفيه أربعة مطالب
١٠٤ الفصل الرابع فى قصر رتبة السلطنة والاعمال السلطانية على الرجال دون النساء وفيه تسعة عشر مطلبا
١٢٤ الفصل الخامس فى تمدن الوطن وفيه سبعة مطالب
١٢٧ الفصل السادس فى الحرية العمومية والتسوية بين أهالى الجمعية وفيه سبعة مطالب
١٣١ الفصل السابع فى الاحكام الطبيعية المستندة قبل التشريع الى العقل وفيه أربعة مطالب
١٣٤ الباب الخامس فى الزواج والتسرى وما يتعلق بذلك
١٣٤ الفصل الاول فى الزواج وفيه ثمانية عشر مطلبا
١٥١ الفصل الثانى فى التسرى وفيه ستة مطالب
١٥٨ الفصل الثالث فى السمرة والبياض وفيه خمسة مطالب
١٦٢ الفصل الرابع فى البكارة والثيوبة وفيه ثلاثة مطالب
١٦٦ الفصل الخامس فى السمن والضمور والسن وفيه ستة مطالب
١٧١ الفصل السادس فى الحسن والجمال وفيه ثمانية عشر مطلبا
١٨٨ الفصل السابع فى استحباب الزينة والطيب للنساء وفيه اثنا عشر مطلبا
١٩٥ الفصل الثامن فى الكلام على المحبة والصداقة بين الزوجين وغيرهما وفيه تسعة عشر مطلبا
٢٠٧ الباب السادس فى اسباب عمارية البيوت والمنازل وما يترتب على حسن تربية النساء من الفضائل
٢٠٧ الفصل الاول فى الاجتماعات من حيث هى وعلى الخصوص اجتماع العائلة وفيه مطلبان
٢١٥ الفصل الثانى فى العفة وأمانة الزوجين وصدقهما فى المحبة وفيه ثمانية وثلاثون مطلبا
٢٥٦ الفصل الثالث فى خطبة الآباء والامهات ووصاياهم للبنين والبنات وفيه احد عشر مطلبا

صحيفه

٢٧٣ الفصل الرابع في ان التوادد والتحابب بين الزوجين مما ينتج حسن العشرة بينهما وبين ذريتهما وفيه ستة مطالب
٢٧٧ الفصل الخامس في بعض حقوق يلزم كلا من الزوجة والزوج مراعاتها وفيه سبعة مطالب
٢٨٤ الباب السابع في عموم القرابة وحقوق بعضهم على بعض
٢٨٤ الفصل الاول في القرابة وفيه خمسة عشر مطلبا
٢٩٨ الفصل الثاني في بر الوالدين وفي فضل العلم والحث على تعليمه وفي آداب كل من المعلم والمتعلم وفيه أربعة وستون مطلبا
٣٧٥ الفصل الثالث في محبة الامهات لابنائهن وبناتهن وما يتعلق بذلك من التوسعة على العيال وحسن التأهيل وفيه مطلبان
٣٧٨ الفصل الرابع في المحبة الاخوية وفيه ثلاثة مطالب
٣٨٦ خاتمة حسنى فيما يتعلق بحفظ الصحة التي هي للانسان أعظم منحه وفي شذرة من كلامه صلى الله عليه وسلم
٣٨٦ الفصل الاول فيما يتعلق بحفظ الصحة التي هي للانسان أعظم منحه
٣٩٣ الفصل الثاني في شذرة من كلامه صلى الله عليه وسلم

(كتاب)

المرشد الامين للبنات والبنين

(تأليف)

حضرة رفاعه بك رافع ناظر قلم الترجمة وأعضاء قومسيون ديوان المعارف



(الطبعة الاولى)

(بمطبعة المدارس الملكية في العشر الاواخر من شوال سنة ١٢٨٩ هجريه)

احمد محمد



(بسم الله الرحمن الرحيم)

حمدا لمن جعل كسب الآداب دأب اولى الالباب وصلاة وسلاما على سيدنا محمد الذى أوتى الحكمة وفصل الخطاب وعلى آله وأحزابه ومن تأدب بآدابه

أما بعد فان مصرنا فى ميدان المعارف سارت فى مدى طويل مديد وفى أمد جليل بعيد بلغت فى وسيع مضماره ما فى ضميرها من النيه ونالت بحزم خديويها وعزمه كمال الامنيه حتى صارت جميع أرجائها مواطن منظمه وأماكن معظمه تبسمت بأنوار العرفان ثناياها وتنسمت بالعدل والاحسان أرواح بكرها وعشاياها فنور أرجاءها نور بدره التمام وبره الذى يأبى ان يساجله الغمام شعر

سعادتنا باحراز المعالى * بها عصر الهنا اضحى ضمينا

نحوز المجد بالهمم العوالى * وصاحب مصر اسمعيل فينا

فانه ابقاه الله لما ورد على موردها الاعذب جلب اليها العيش الاطيب فكم له فيها من مهمة يكفيها وموعود يوفيها وعارفة يبديها وصنيعة يوليها وأرض موات يحييها ومسعاة من مساعى تليد الشرف يبتنيها وذخيرة من ذخائر طريف الطرف يقتنيها وغاية من غايات الفضل يحتويها وصفوة من المعالى يصطفيها وحسنة من حسنات الدهر يرغب فيها وفى ذويها حتى سرت محبة الاوطان منه فى اهاليها فلا يألفون إلا حماها ولا يرشفون الا لماها فكانه المعنى بقول من قال

ما مصر الا غادة زفت على الـ * أملاك والامراء والوزراء

اهرامها تحكى النهود ونيلها * شبه الذؤابة سال فى البطحاء

لم ترض غيرك ان يفوز بحسنها * اذ أنت فى العلياء بدر سماء

بل

بك مفخر لذوى الرياسة والحجا * واولى النهى ابنائك النجباء
يامن له القدح المعلى فى العلى * كم عندنا لك من يد بيضاء

حتى صار للاقطار المصرية زين املاكها ومطلع أفلاكها وشمس ضحاها .وقطب رحاها وبدر دجاها وبيت رجاها له على مصر اليد العليا والفضل الاكبر والمجد الاوفى والجود الاوفر عم احسانه كل شريف ومشروف ومجهول ومعروف وقريب وبعيد حيث هو لمجد مصر مبدئ ومعيد

سألنا معالى مصر هل لك عودة * وهل سابقات الدهر يدنو بعيدها
فقالت باسماعيل أوحد عصره * وجدت لايام الصبا من يعيدها

فهو مليك اقتفى ميامنه كل ناه وآمر وروى محاسنه كل باد وحاضر فضائله لا تعد ولا تحصى وشمائله تجل عن ان تستقصى فأما ذهنه الصائب فقد استوعب لمصره محاسن عصره مما عجز عنه السابقون وتوع من أنواع العمران مالم يتحصل عليه الباحثون المتسابقون اقتحم فى ايجاده عظائم الامور وجاهد فى احرازه مجاهدة السهول والوعور فقد ادخر لاقتنائه بذل المكارم وأيقظ عزمه للاستيلاء على المعالى والزمان مع غيره نائم فكانه يقول بلسان حاله

وبالجوهر الاعلى تعلق مطلبى * فأصبحت لا الوى على العرض الادنى

واما مروءته فقد أصبحت مرآة يطالع فيها محاسن الامور وينال بهمة صفائها جوهر الصنع المحبوب المأثور ويجتلى بها صورة الكامل الباهر ويتجلى فيها صورة النوال الذى اعجز الاوائل والاواخر وأما أبوته فهى التى اتسق أنسها وطهر قدسها وشرف غرسها وطلعت فى برج السعود شمسها

ابوة خير أحرزت كل ماجد * حوى قصبات السبق فى كل مفخر
رجال تجاريب وابطال دولة * وسادة أحكام وفرسان منبر
اذا أبدت الايام يوما جهامة * يقابلها من حسنهم كل مسفر

وكانما قال فيه من ينتقى الشعر ويصطفيه .

مليك تريه قبل ماهو كائن * بصيرته اضعاف ماهو باصره
مليك اذا ماسار كالبدر فى الدجا * فأولاده مثل النجوم تسايره
مليك له فى كل يوم وليلة * بشير يهنى بالهناء بشائره
مليك ترى من حوله كل عالم * يذكره فى العلم ماهو ذاكره

ففى أيام دولته السعيده كم جدد بمصر من محاسن العصر المفيده حتى صار أفقها لجياد العلماء من أشهر الميادين ولفرسان النبلاء حدائق فنون وبساتين يتسابق بأبكار الافكار فى حومتها البنات كالبنين فقد سوّى فى اكتساب المعارف بين الفريقين ولم يجعل العلم كالارث للذكر مثل حظ الانثيين فبهذا سوق المعارف المشتركة قد قامت وطريق العوارف للجنسين استقامت وليل جهل النساء جلاه فجر المعارف ونحر تمتعهن بالطرائف واللطائف فقد احيا فى طباعهن نجاح الآمال ونشر لهن أعلام المقال والفعال وخصهن بمدارس كالصبيان يخرجن بها من حيز العدم الى الوجدان ومن الوهم الى العيان فبهذه الوسائل النفائس صدر لى الامر الشفاهى من ديوان المدارس بعمل كتاب فى الآداب والتربية يصلح لتعليم البنين والبنات على السويه فشمرت عن ساعد الاجتهاد وعملت هذه المجموعة التى جاءت على وفق المراد لم تدع فى هذا المعنى لعين المتمنى مطمعا ولا لقوس الاقتراح منزعا زفت اليها ابكار المعالى وحفت بمبتكرات المعانى وسميتها بالمرشد الامين للبنات والبنين جعلتها برسم دولتلو عطوفتلو أفندم حسين باشا كامل عسى ان يكون نظر عنايته لحسن طبعها شامل فهى واردة على اعتاب مكارم حضرته السنيه وابواب مراحم سعادته البهيه أدام الله على الجميع حصن انظار حضرته الساميه ولا برحت عنايته لسعادة مستشاره ورجاله شاملة وافيه لحفظ الجميع عناية ولى النعم الاكرم ورعاية توفيقه على الوجه الاتم آمين

ورتبتها على مقدمة وابواب مشتملة على فصول وخاتمة وهذا أوان الشروع فى المرام بعون الملك العلام

(مقدمة)

(فى بيان تربية الاطفال من الذكور والاناث وفيها فصول)

(الفصل الاول فى بيان نفس التربية)

مطلب التربية أقسامها

عرف بعضهم التربية بانها تنمية اعضاء المولود الحسية من ابتداء ولادته الى بلوغه حد الكبر وتنمية روحه بالمعارف الدينية والمعاشية * فبهذا انقسمت التربية الى قسمين حسية وهى تربية الجسد ومعنوية وهى تربية الروح ومع ذلك فان لتغذية الطفل ثلاثة انواع من الغذاء مختلفة الموضوع الاولى تغذية المراضع للاطفال بالالبان الثانية

تغذيتهم

تغذيتهم بارشاد المرشد بتأديبه الاولى للاطفال وتهذيب أخلاقهم وتعويدهم على التطبع بالطباع الجيدة والآداب والاخلاق الثالثة تغذية عقولهم بتعليم المعارف والكمالات وهذه وظيفة الاستاذ المربى كما ان ما قبلها وظيفة المرشد المتولى امر الصبى فالنسبة بين الرضاع والتربية الاولية والتربية الانتهائية كالنسبة بين المرضع والمربى المرشد والاستاذ فكلما جاد المربى جادت التربية

فالتربية بأنواعها الثلاثة وان كان يظهر ببادئ الرأى انها سهلة بسيطة لا تحتاج الا الى عمل يسير الا انها فى الحقيقة وعند التامل تستدعى عظيم اهتمام وعناية وسلوك أصول مقرره وآداب محرره ويضاف الى ذلك ما يحتاج اليه المراضع والمربون والاستاذون من قوة محبة الاطفال ومعاملتهم معاملة من طب لمن حب

وقد اتجه هذا ان التربية فن تنمية الاعضاء الحسية والعقلية وطريقة تهذيب النوع البشرى ذكرا كان أو انثى على طبق أصول معلومة يستفيد منها الصبى هيئة ثابتة يتبعها ويتخذها عادة وتصير له دأبا وشأنا وملكة فالتربية المعنوية حينئذ هى فن تشكيل العقول البشرية وتكييفها بكيفية حسنة مألوفة وغايتها ايجاد ملكة راسخة فى الصغير تحمله على التخلق بحسن الاخلاق حسب الامكان بحيث تحصل من هيئة تربيته الافعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا بسهولة ويسر كطلاقة الوجه والحلم والشفقة ولين الجانب وحسن الظن بالناس والاغضاء عن السفهاء وعدم مجاداتهم والسكوت عنهم قال الشاعر

وما شئ أحب الى لئيم * اذا شتم الكريم من الجواب
متاركة اللئيم بلا جواب * أشد على اللئيم من السباب

وكمال التربية حمل المكلف على رعاية الحق للحق والخلق لينال خير الدارين

مطلب التربية لا تفيد الذكا ولا الالمعية

ثم ان التربية لا تفيد الصبى الذكاء ولا الالمعية فان هذه الصفات هى فى الاطفال غريزية طبيعية وانما بالتربية تنمو العقول وتحسن الادراكات فاذا ربى المربى عدة اطفال مختلفين فى الذكاء متحدين فى التربية لا يقدر المربى ان يتوصل الى تسويتهم فى الذكاء بل يختلف ذكاؤهم باختلاف استعدادهم الغريزى فمجرد التربية وحدها لا يترتب عليها ذكاء الصبى حيث هو غريزى لا يزيد بالتربية المتزايدة ومع ذلك فالتربية الحسنة الفاضلة فى حد ذاتها خير من الذكاء المتوسط والذكاء الكامل اذا صحبته التربية الفاضلة كان عظيما كثير النجاح فاذا صحبته التربية المتوسطة كان يسير النتيجة

لا يبلغ صاحبه الرتبة المطلوبة وبالجملة فالغرض من التربية تنمية الصغير جسدا وروحا وأخلاقا فى آن واحد يعنى تنمية جسمانه ومعنوياته بقدر قابليته واستعداده

كل الانام بنو أب لكنما * فى الفضل تعرف قيمة الانسان

والتربية الاولية فائدتها ان يعتاد الصبى على ان ينقاد بطبعه الى ما يريده منه مؤدبه ويختاره له مرشده فغايته المطاوعة وهذا النوع كما يكون فى الانسان يكون أيضا فى الحيوان بترويضه وتمرينه على الاطاعة واما تنمية العقل التى هى غذاؤه بالمعارف كغذاء الجسم بالطعام فهى خاصة بالانسان فكما ان غذاء جسمه بالطعام الطيب ينميه وينعشه ويقوى اعضاءه كذلك غذاء الروح بالمعارف ينميها ويقويها بشرط ان تكون هذه المعارف معقولة مقبولة فالتربية المعنوية تزيد فى تنمية عقول الاطفال بالمعارف وحسن الاخلاق على التناسب من حسن ادارة المرشد والمعلم فبهذا يقال لمن اكتسب المعارف الجيدة والاخلاق الحسنة انه حسن التربية

مطلب ما يترتب على تربية الافراد من تربية الهيئة الاجتماعية

وحسن تربية الآحاد ذكورا واناثا وانتشار ذلك فيهم يترتب عليه حسن تربية الهيئة المجتمعة يعنى الامة بتمامها فالامة التى حسنت تربية ابنائها واستعدوا لنفع أوطانهم هى التى تعد أمة سعيدة وملة حميدة فبحسن تربية أولادها والوصول الى طريقة اسعادها لا تخشى ان تأتمن ابناءها على اسرار الوطن ولا على ما يكسبها الوصف الحسن بخلاف سوء التربية المنتشر فى امة من الامم فان فساد اخلاق بنيها يفضى بها الى العدم حيث يفشو فيهم الانهماك على اللذات والشهوات والانتهاك للمحرمات والتعود على المحرمات

مطلب ان من سوء التربية ترك المرأة تربية أولادها لغيرها

* ومن سوء التربية ان الام تكل تربية أولادها الى غيرها بدون ان تلاحظ تربية أولادها بنفسها فان الام بما أودع فيها من الشفقة والرأفة على أولادها هى أولى وارفق بالتربية ولتعديل مزاج ابنائها وبناتها فاذا ربت المرأة أولادها الى سن التمييز تربية حسية أو معنوية انتقش فى أذهان الابناء اعتدال المزاج والاتصاف بمكارم الاخلاق وتهذيبها وسلوك سبيل الرفق واللين التى هى من صفات التمدن

رأيت صلاح المرء يصلح اهله * ويعديهم منه الفساد اذا فسد
يعظم فى الدنيا بفضل صلاحه * ويحفظ بعد الموت فى الاهل والولد

ففى أوائل حداثة الاولاد ذكورا واناثا ينبغى اناطة تربيتهم بالنساء مع ملاحظة الامهات وبعد ذلك تكون تربية الاولاد بحسب موافقة أحوال الامة وطريقة ادارتها واحكامها لينتقش فى افئدة الصبيان الاحساسات والاصول الحسنة الجارية

فى

في أوطانهم * مثلا اذا كانت طبيعة البلد المولود فيها الانسان عسكرية مائلة للحرب والضرب تكون تربية الاولاد الذكور أيضا تابعة لها اصولا وفروعا وتكون تربية البنات أيضا مائلة لمحبة الشجعان والابطال وفحول الرجال ليشجعن الابناء ويعتبرن النفع للوطن واذا كانت المملكة زراعية أو تجارية أو بحرية وما أشبه ذلك كان مدار التربية الصحيحة للاولاد مبنيا على ذلك وفي هذه الخصوصيات جميعها الاستعدادية تلاحظ المعارف العمومية التي يشترك فيها جميع الامم والملل وكل هذا اجراء الناموس الطبيعي التي اقتضته الحكمة الالهية مجراه فقد فرق الله سبحانه وتعالى همم الناس للصناعات المتفاوتة والمعلومات المتباينة وجعل آلاتهم الفكرية وأدواتهم البدنية مستعدة لها فجعل لمن قيضهم لمراعاة العلم والمحافظة على الدين قلوبا صافية وعقولا بالمعارف وافيه وأمزجة لطيفة وأبدانا لينة

مطلب تكون التربية للاولاد على حسب أحوال البلاد

ان التشاغل بالدفاتر والمحا * بر والكتابة والدراسه

أصل التعبد والتزهـ * ـد والرياسه والسياسه

وجعل لمن قيضه لمعانات المهن الدنيوية والحرف المعاشية كالزراعة والبناء قلوبا قوية وعقولا كثرة وأمزجة غليظة لان اكثر عمله منوط ببدنه لا بعقله وكما ان من المحال ان تصلح حاسة السمع للرؤية وحاسة البصر للسمع فمن المحال أيضا ان يكون من خلق للمهنة يصلح للحكمة ومع ذلك فقد جعل الله سبحانه وتعالى كل جنس من الفريقين نوعين رفيعا ووضيعا فالرفيع من يتحرى الحذق في صناعته ويقبل على عمله طلبا لمرضات ربه بقدر وسعه وطاقته ويؤدى الامانة فيما خلق له بقدر جهده واستطاعته قال ابن عطاء الله مشيرا الى هذا المعنى من علامة اقامة الحق لك في الشيء ادامته اياك فيه مع حصول النتائج انتهى قال الجمهور ان الله تعالى خلق في كل احد استعدادا تظهر عليه علامته في اول أمره كما قال الشاعر

في المهد ينطق عن سعادة جده * أثر النجابة ساطع البرهان

وقال بعضهم انه ينبغي للعاقل ان يتجشم في نيل مطلوبه الشدائد ويجهد نفسه في طلب المعالي ليظفر بالحظ الاوفر كما قيل

سأطلب كل منزلة * تعرض دونها العطب

فان أسلم رجعت وقد * ظفرت وأنجح الطلب

وان اعطب فلا عجب * لكل منية سبب

وبالجملة فمن شمر عن ساعد الجد وجد مفتاح المجد فالامة التي تتقدم فيها التربية بحسب مقتضيات أحوالها يتقدم فيها أيضا التقدم والتمدن على وجه تكون به أهلا للحصول على حريتها بخلاف الامة القاصرة التربية فان تمدنها يتأخر بقدر تأخر تربيتها فان التربية العمومية هي الحصول على تحسين عوائد الجمعية التأنسية ومعرفة آدابها علما وعملا والتأدب بآداب البلاد فالتربية هي اساس الانتفاع بأبناء الوطن لاسيما تربية ابناء الامراء والاكابر والاغنياء بتحسين أحوالهم وتهذيب أخلاقهم وتعويدهم من الصغر على ترك الكبر والاعجاب ومحبة النفس وتكليفهم باستعمال الرفق واللين والتلطف مع غيرهم حتى لا يتجارى أحد من عوام الناس أو خواصهم على لومهم على أفعالهم وأطوارهم وحركاتهم ومن أهم ما ينبغي تجريدهم عنه من المثالب محبة النفس التي أفسدت أخلاق الناس فاجتناب محبة النفس للتربية من أعظم أساس

(الفصل الثاني في محو محبة النفس من الاطفال في حال صغرهم وازالتها عن الكبار في حال كبرهم)

محبة الانسان لنفسه هو احساس فيه يبعثه على ان يجلب جميع ما يقدر عليه لرضاها وشفاء غليلها وقضاء شهوتها فالمتصف بهذه الصفة يجعل نفسه محبوبته وبغيته من الدنيا ومركز دائرة مرغوبه فلا تنبعث أشعة فكره الا اليها وكل ما يتمناه او تشتهيه نفسه من الغنى والزينة والفخار يجعله عائدا عليها وكذلك يقصر بحثه عن ازالة الشر عنها فلا رغبة له في نفع الاخوان ولا الاوطان فجميع ما يجلبه من خير أو يدفعه من شر متولد من هذه المحبة فهي بالنسبة اليه سبب اللذات والآلام ومجلبة الشهوات الجسمية والعقلية فالانسان مطبوع على ان يحسن له حب النفس ما فيه صلاحه الخاص به بما يوافق ميله وضعفه وتولعه بالفخار ويزين له الوصول الى هواه فأحب ما على الانسان التعبير عن نفسه بأنا أو نحن ليشرف نفسه ويزينها بما يستطيعه وأعظم فخر للانسان المحب لنفسه اذا اجتمع بأقرانه وأمثاله ان يظهر عليهم بمظهر الهيبة والاجلال وان يحب منهم ان يدركوا منه قوة عقله وفضائله ومزاياه الخصوصية ليحترمه جميع الناس وهذا ما يرضيه غاية الرضى ويساعد على بلوغه مناه ويعود على حوائجه بسهولة القضا وما هذا كله الا انه يحب نفسه حبا جما وربما تجاوز في حبها الحد مما أعمى وأصمى فلا يحب سواها ويبلغها من جميع ما تشتهيه مناها فهي لمأموله مركز الآمال ومحط الرحال ومن ذلك

مطلب حب النفس المذموم منه والممدوح

ذلك انه يحب العلو على الجميع فكأن عباد الله مخلوقون لجنابه الرفيع ودائما يريد منهم المدحة واستحسان الافعال فهذه الخصلة في الحقيقة خارجة عن حد الانصاف والاعتدال لا يعد صاحبها الا ظالما لنفسه طائعا لهواه جائرا جبارا متملقا حسودا لمن سواه فحب النفس خصلة جامعة لجميع العيوب والذنوب مخلة بالجنس البشري دالة على دناءة النفس حيث إن صاحبها مقصور الهمة على منفعة نفسه لا يعود نفعه في شيء على اخوانه وابناء جنسه وهي منبع الحرص والطمع

اذا ماشئت ان تحيا * حياة سهلة المحيا فلا تحفل بحب النفس أو تغتر بالدنيا

وقد كتب الاسكندر الى ارسطاطاليس أن عظني فكتب اليه اذا صفت لك السلامة فجدد ذكر العطب واذا اطمأن بك الامن فاستشعر الخوف واذا بلغت نهاية الامل فاذكر الموت واذا احببت نفسك فلا تجعل لها في الآثام نصيبا

وعلامة حب النفس ان يكثر الانسان من مدحها ويحكي عنها افعالا عظيمة يطنب في متنها وشرحها فهو حب مذموم وصاحبه ملوم يدل على قلة العقل والادب ودناءة الاصل والحسب وعلى الخفة والطيش ولا يتمتع صاحبه بأهنأ عيش

قال بعضهم انه ينبغي في تربية الاولاد من ذكور واناث ان يعتني مربيهم بان يطفئ من قلوبهم نار حبهم لانفسهم وحرارة حرصهم على جلب كل شيء لخاصيتهم فان حبهم للنفس بهذه الدرجة انما هو عين البغضة لها لانه يجلب لهم بغض من عداهم من الاخوان وكيف ينال السعادة من خص نفسه بالمحبة ولم يجعل لاخيه منها قدر حبه وفي الحديث الشريف لا يؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه وهذا الحديث من أعظم آداب الدين وأسه

ومما يترتب على حب هذا الاختصاص الحزن عند فقده أو عدم الحصول عليه حيث ان الحزن ألم نفساني يعرض لفقد محبوب أو لفوت مطلوب ممن يظن ان ما يحصل له من محبوبات الدنيا يجوز أن يبقى ويثبت عنده أو أن جميع ما يطلبه من مفقوداتها لابد أن يصير في ملكه فاذا علم الحريص ان جميع ما في عالم المحسوسات غير ثابت ولا باق وان الثابت الباقي هو ما يكون في عالم العقل لم يطمع في المحال فاذا لم يطمع فيه لم يحزن بل لا يطلب إلا بمقدار الحاجة وترك الادخار والاستكثار والمباهاة والافتخار فمن طلب بقدر الحاجة أمن فلم يجزع وفرح فلم يحزن وسعد فلم يشق والا لم يزل في جزع دائم وحزن مستمر فان من طمع في المحال لم يزل خائبا والخائب محزون أبدا والمحزون

شقى دائما فما أحسن فرح المتعيشين بمعايشهم على تفاوتها وسرور أصحاب الحرف المختلفة بمذاهبهم على تباينها فليتصفح العاقل ذلك طبقة طبقة من طبقات هؤلاء فلا يخفى عليه فرح التاجر بتجارته والجندى بشجاعته والزارع بزراعته والشاطر بشطارته فاذا لزم صاحب الفضيلة مذهبه وطالت عادته فيه كان أولى بالسرور من هذه الطبقات ولا يعتريه الحزن الذى يجتلبه لنفسه إذ ليس هو من الاشياء الطبيعية بل أسبابه أسباب غير ضرورية وان من جلب لنفسه الحزن فهو غير عاقل ولذلك قال بعض الحكماء ان من أحب أن ينال الشر أعداءه فهو محب للشر ومحب الشر شرير وشر من هذا من أحب الشر لمن ليس له بعدو وأسوأ من هذا حالا من أحب ان لا ينال أصدقاءه خير ومن أحب أن يحرم صديقه الخير فقد أحب له الشر وهذا لا يتصور الا من الحريص الذى يحب اختصاص نفسه بالخير فعلى الانسان ان يرغب اليه تعالى فى التوفيق المقرون بالاجتهاد إذ لا يتم أحدهما الا بالآخر وأما إن كان حب النفس عبارة عن اعتبارها محبة للخير لها وللاخوان واتصافها بالفضائل وتجردها عن النقائص والرذائل مثل أهل العدل والاحسان والميل الى ان تكون فى ميزان الخير راجحة جامعة لانواع الاعمال الناجحة فليس بهذه الصفة من الافعال الذميمة حيث أضيف اليه حب مثل ذلك للاخوان وأهل الاوطان فان هذا يكون من باب علامة الايمان

(الفصل الثالث)

(فى تعويد الاطفال من أول نشوئهم على العقائد الدينية)

(والتغذى بالبان الاحكام الشرعية)

قد كتبت يد القدرة الربانية بغير آلات وسطرت الارادة الصمدانية خطوط المصنوعات وجعلت ذلك وقفا على تلاوة البصائر والالباب ومشاهدة الابصار والعيون عنوان هذا الكتاب فكأنها أمرت العقول بالانتقال من السفليات الى العلويات وبالنظر فى جميع الازمنة والامكنة وما أودع فيهما من خير أو شر أو نفع أو ضر أو سعد أو نحس أو حياة أو موت أو صحة أو سقم مما يجرى من مشيئته تعالى فى سائر الكائنات فكل هذا يرشد الى معرفته تعالى وحكمته وحوله وقوته كما نبه عليه تعالى بقوله أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق ونحو ذلك من الآيات الدالة على بديع صنعته وتدبير ملكه وحكمه

مطلب كون العقل مرآة العارف يميز به الحق من الباطل

ثم ان الله سبحانه وتعالى جعل العقل النوراني في القلب الانساني مرآة للعارف الفاضل يميز به الحق من الباطل كما أرسل رسلا ظاهرة ليبينوا العلم الظاهر الذي تجهله النفس الامارة بالسوء حتى لا تقيسه بقياسها الفاسد بناء على ما يفهمه عقلها الكاسف الكاسد فالعقل النير رسول قبل واسطة النبي المرسل والملك المقرب وأما الرسول الحقيقي المشرع فقد أرسل من عند الله تعالى مبشرا ومنذرا لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل فهو مبين ومعين لما لا تستقل به عقول البشر وان كانت العقول أفادت قبل الشرائع نوعا من التدبير فالعقل الراجح الصحيح النظر الخالي عن الموانع قد يميز الحق من الباطل وهو مؤيد لرسالة المرسلين وقد فرق الله سبحانه وتعالى بين العالمين في العقول ومنحهم منها ما شاء من كثير وقليل وكما فضل بعضهم على بعض في الرزق وكثرة المال فضل بعضهم على بعض في العقل فعقول الانبياء أرجح من عقول العلماء وعقول العلماء أرجح من عقول العوام وبقدر تفاوت العقول والبصائر الشبيهة بالابصار قوة وضعفا يكون التفاوت في ادراك قواعد الدين والدنيا وبهذا يقع الانكار والاعتزال لكثير من الناس في أمور الدين لنقصان العقول كاهل الضلال والمشركين وعبدة الاصنام والوثنيين

ان من أشرك بالله جهول بالمعاني
أحول العقل لهذا * ظن للواحد ثاني

وكمنكري البعث من الحكماء والفلاسفة

قال المنجم والطبيب كلاهما * لن تبعث الاموات قلت اليكما
ان صح قولكما فلست بخاسر * أو صح قولي فالخسار عليكما

قال اعرابي لابي جعفر محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنه هل رأيت الله حين عبدته فقال لم أكن لاعبد من لم أره قال فكيف رأيته قال لم تره الابصار بمشاهدة العيان ورأته القلوب بحقائق الايمان لا يدرك بالحواس ولا يشبه بالناس معروف بالآيات منعوت بالعلامات لا يجور في القضيات ذلك الله الذي لا إله الا هو فقال الاعرابي الله أعلم حيث يجعل رسالاته

وأما من يعرف الواجب والجائز والمستحيل فيعلم ان كل مقدور بالاضافة الى قدرته تعالى قليل فالعاقل اذا سمع معقولا غريبا استحسنه والجاهل اذا سمعه قطع بتكذيب قائله وزيف ناقله لقلة بضاعة عقله وضيق نطاق فضله ولهذا وصف تعالى الجهال بقوله أم تحسب ان أكثرهم يسمعون أو يعقلون

وقد أودع الله سبحانه وتعالى من عجائب المصنوعات في الآفاق والسموات كما قال وكأين من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون وقد ندب الى النظر في عجائب الدنيا بقوله قل سيروا في الارض فانظروا وقال وفي الارض آيات للموقنين وقال الشاعر

في الارض آيات فلا تك منكرا * فعجائب الاشياء من آياته

(وقال آخر)

كم آية للإله شاهدة * بأنه لا اله الا هو

(وقال آخر)

أيا عجبا كيف يعصى الالـه أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شئ له آية * تدل على انه واحد

قال صاحب الجوهرة

فانظر الى نفسك ثم انتقل * للعالم العلوى ثم السفلى
تجد به صنعا بديع الحكم * لكن به قام دليل العدم

ومن شاهد حجر المغناطيس وجذبه للحديد وحجر الماس الذى يعجز عن كسره الحديد ويكسره الرصاص ويثقب الفولاذ ولا يقدر على ثقب الرصاص يعلم ان الذى أودع هذا السر قادر على كل شئ فلا تكن مكذبا بما لا تعلم وجه حكمته فقد قال تعالى فقد كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله فالعاقل هو الذى اذا سمع شيئا أو رآه أو دعى اليه أو أمر به أو نهى عنه وكان ذلك الشئ واردا شرعا مخالفا لطبع نفسه أو موافقا له ولم يدر أن الصواب في الاقبال عليه أو النفور عنه دبره أولا بنظر العقل الذى أودعه الله تعالى فيه وتفكر في عاقبته وما يؤول اليه من الصواب والهدى أو الخطأ والضلال فيحكم به العقل النورانى المودع في القلب الانسانى ولا نظرا الى ما تأمر به النفس الامارة بالسوء أو العقل الضعيف لان كلا منهما في حرب مع العقل النورانى وهذا ما يسمى جهاد النفوس فتقع فيه الموازنة والمغالبة والمحاربة والى ذلك أشار الصادق المصدوق حين رجع من بعض الغزوات بقوله رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر فحينئذ ينبغى ان يبرز الى النفس الامارة ضرغام العقل على جواد والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا فيضربها بسيف الحق القاطع لدروع حجج الجهل المانع فيقول لهذه النفس اللوامة

لم

لم لا تطيعين من خلقك وخلق كل شئ وهو على كل شئ قدير وهو الله الذى لا اله الا هو وحده لا شريك له

مطلب محاورة بين النفس والعقل فى الاستدلال بالتكوين على المكون

فان قالت النفس ما الدليل على ذلك قيل لها انه لا بد لكل مخلوق من خالق لانه لا يخلق نفسه ألبتة فان سلمت هذا والا قيل لها أفأنت خالقة أم مخلوقة فان قالت خالقة عرضت لها ذرة من خلق الله تعالى وقيل لها اخلقى مثل هذه الذرة فضلا عن فيل أو جمل أو جبل أو سماء أو أرض فان عجزت عن خلق ذرة ثبت انها مخلوقة عاجزة مثل تلك الذرة وقامت الحجة عليها وعلى جميع المخلوقات لضعفهم وعجزهم وثبت ان هناك شيئا هو خالقهم ومالكهم ومدبرهم وهو الاله الواحد الموجود القديم الباقى وهو المريد القادر المتصف بصفات الكمال وعلمه القديم فى كل كلى وجزئى حاضر كما قال الشاعر

يامن تعرف لى به فعرفته * وبه المحبة حين أن أحببته
أنت الذى فى كل شئ حاضر * أشهدتنى على فنك شهدته

وفى الحديث القدسى قال الله تعالى ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو شعيرة انتهى وقد وقع السؤال عن حكمة الترقى فأجاب التقى السبكى بديهة بأن صنع الاشياء الدقيقة فيه صعوبة والامر بمعنى التعجيز فناسب الترقى من الاعلى الى الادنى واستحسن ذلك الحافظ ابن حجر والمراد بالاعلى الاعلى فى صعوبة العمل أو فى الخساسة قال تعالى ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب

فقد اقتضت حكمته الالهية من غير وجوب عليه ان يخلق المخلوقات ليدلهم على معرفته باظهار صنعته لقوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون أى يعرفونى ويوحدونى وحيث ان الانسان مخلوق لتوحيد الخالق فينبغى تعليم الصغير ذكرا أو أنثى من مبادى أمره اقامة الدليل على وجود الله ووحدانيته وباقى صفاته الواجب معرفتها تفصيلا فى التفصيلى واجمالا فى الاجمالى

(الفصل الرابع)

(فى انه ينبغى تعليم الاطفال حين تربيتهم أحوال المعاد)

(كالمعاش ليجمعوا بين معرفتهما)

من المعلوم ان قدرة الله سبحانه وتعالى كما فى صفات المعانى وهى الارادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام ثابتة القدم وهى التى أوجد بها المخلوقات بعد العدم وبها

تكون الحياة بعد الممات كما أشار بذلك سبحانه وتعالى بقوله ردا على من أنكر الحياة بعد الفناء فقال الكافرون هذا شيء عجيب أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد وبقوله تعالى أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج والارض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج أى كما أحيينا الارض من بعد موتها بذلك الماء كذلك نحييكم بعد موتكم وكما أخرجنا جواهر المعادن والنبات والحيوان من الارض وأوجدناها بعد عدمها وفنائها كذلك الخروج الذى أنكرتموه يكون بقدرة من يقول للشيء كن فيكون ومن هو على كل شيء قدير وقال بعضهم فى قوله تعالى انما قولنا لشيء اذا أردناه ان نقول له كن فيكون هو كناية عن سرعة الايجاد عند تعلق الارادة وليس هناك أمر حقيقة ولا كاف ولا نون والا لو كان هناك أمر اتوجه أن يقال ان كان الخطاب للشيء حال عدمه فلا يعقل وان كان بعد وجوده ففيه تحصيل الحاصل

مطلب الرد على منكرى البعث

وقد بالغ بعض الملحدين فى الانكار فقال لوان آدميا أكله آدمى آخر فاستحال فيه أيضا لحما ودما وهكذا الى ألف أو أكثر ثم مات الاخير منهم فأكلته الارض حتى فنى وانعدم ولم يوجد له أثر فكيف يكون رجوع كل شيء من ذلك وكيف يكون وجوده بعد عدمه وحياته بعد موته وكيف يخرج ما استحال فى جميع ذلك حتى يتميز كل واحد منهم على حدته بذاته فاستبعد المنكر ذلك بجهله وتمادى على انكاره البعث لضعف عقله وجوابه انه لو استحال جميع المخلوقات بعضها الى بعض واختلطوا كلهم وصاروا دما ولحما واحدا أوماء أوهواء أونارا أو ألطف شيء يكون ثم فنى ذلك كله ولم يوجد له أثر فليس عزيز عليه تعالى أن يوجده بالقدرة بعد عدمه ويرده كما كان أولا فلا يعجز عن تمييز كل واحد على حدته بذاته حتى يعيد اليه دمه ولحمه الذى كان عليه فى حياته الاولى فيثيبه ان كان من أهل الثواب ويعاقبه ان كان يستحق العقاب ولهذا خلق للسعداء دار النعيم وللاشقياء نار الجحيم

والدليل على ذلك ان الله تعالى أوجد الناس أولا بعد ان لم يكونوا شيئا بدون كلفة ولا مشقة ولا استعانة بآلة ولا شيء غير صفاته كالقدرة والارادة والعلم فما أسهل عليه الاعادة وأهونها ألم تر الى قوله تعالى هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا

مذكورا وقوله تعالى الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وقوله تعالى قل سيروا فى الارض ثم انظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة أى كما أوجدهم من العدم أول مرة كذلك يوجدهم بعد الفناء ثانية ان الله على كل شئ قدير

وقد صور الله الانسان فى أحسن صورة وجعله باقى النوع بالتوالد والتناسل الى آخر الدهر وركب فيه العقل النورانى المضاف الى الروح المتصرفة فى الحواس وألهمها بالحركة الاختيارية الصادرة عن ارادة الله بما قضاه من خير أو شر أو طاعة أو معصية حتى ينفذ ما سبق فى علمه وما أبرمه بمشيئته وحكمه ليخرج بذلك من عالم الغيب الى عالم الشهادة وهذا معنى قوله تعالى ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها فيكون ما أراده تعالى قديما فى سابق علمه محكما فى ديوان حكمته وتدبير ملكه محدثا بقدرته دالا على وجوده و وحدانيته شاهدا باتصافه بسائر الصفات التى تجلى بمحاسنها على جميع الموجودات بالفعل والصنعة فانطبعت فى جميع الموجودات آثار وجود البارى تبارك وتعالى أى مظاهر صفاته التى ظهرت من عالم الغيب الى عالم الشهادة فارتسمت فى مرآة قلب الانسان كما يرتسم الشئ المنظور فى المرآة فلهذا كان الانسان أفضل المخلوقات وأكرمها على الله وأحسنها خلقا بما أودع الله سبحانه وتعالى فيه من بديع الحكمة ورفيع الصنعة قال تعالى لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم وقال تعالى ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا

مطلب ان مظاهر الصفات ارتسمت فى مرآة قلب الانسان فكان أكرم الخلق ومكلفا بالاحكام

وعند ظهور الانسان الذى هو عبد مولاه الى عالم الشهادة اقتضى المقام أن يكون الرب آمرا للعبد ناهيا له وان ما أمر به الرب يكون واجبا أو مندوبا وما نهى عنه يكون حراما أو مكروها وما فوض السيد أمره اليه ولم يرتب فيه عليه ثوابا ولا عقابا ولا مدحا ولا ذما كان مباحا فالتكليف بهذه الاحكام الخمسة شرعى وحيث ان العقل النورانى بالقلب الانسانى صدق بوجود الخالق فلابد أن يصدق أيضا بملائكته وكتبه ورسله الذين بينوا الحلال والحرام وعليهم نزلت الشرائع والاحكام وخاتمهم خير البرية الذى أيد بالمعجزات القوية لاسيما معجزة القرآن الباقية الى آخر الزمان والناسخ شرعه جميع الشرائع والاديان والمنزل عليه قوله تعالى وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين أى نصرك فى سائر أيامك فان أمر النبى صلى الله عليه وسلم من أول حياته الى وقت وفاته كان امرا الهيا وتدبيرا علويا وما كان لكسب الخلق

فيه مدخل وكان تأييده صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين والانصار والمهاجرين ومن بعدهم بالخلفاء الراشدين ولازال شرعه مؤيدا منصورا الى يوم الدين بقوم بتأييده صالحوا المؤمنين والملوك والسلاطين فما أحسن الامة التي تهذب اخلاق ابنائها على ما وردت به الشريعة الغرا فهذه الامة هي السعيدة دنيا وأخرى قال بعض الصالحين من لم يدخل في فقم الشريعة ويختم عليه بختام الحقيقة فليس من أحبابنا ولو مشى في ركابنا ولقد أحسن من قال

أيها المدعي سليما سفاها * لست منها ولا قلامة ظفر
انما أنت من سليم كواو * ألحقت في الهجاء ظلما بعمرو

وقال آخر

وكل يدعي وصلا لليلى * وليلى لا تقر لهم بذا كا

مطلب لزوم تعميم التربية كما كان يفعله حكماء اليونان قديما

وبالجملة فتربية أولاد الملة وصبيان الأمة وأطفال المملكة ذكورا واناثا من أوجب الواجبات كيف لا والتربية مطلوبة حتى في غير الآدمي فان كل امة تعتني بتربية ما ينفع الانسان من الحيوانات المنزلية كالخيول النافعة في الجهاد والنحل ودود القز وذوات الاصوات كالببغاوات المفقودة في مملكة الموجودة في أخرى بصير جلبها لتربيتها وتطبيعها وتوليدها في المملكة المجلوبة اليها وكانت أمة اليونان المشهورة بالحكمة في قديم الزمان تحسن تربية ابناء ملوكها غاية الاحسان فلما ظهر افلاطون وانجبته هذه التربية الحسنة وتهذيب الاخلاق بالطريقة المستحسنة التمس من اليونان ان يتخذوا تربية ابناء الملوك نموذجا ينسج على منواله في تربية ابناء كل مالك ومملوك

مطلب سبب كثرة فحول الرجال في بلاد اليونان

قال بعضهم ان السبب الاعظم في كثرة فحول الرجال وكبراء الابطال في بلاد اليونان في أيام جاهليتهم انما هو كان بعد احسانهم تربية الاطفال فكانت صغارهم تربى على طرف المملكة وكانوا يعودونهم وهم أطفال على الشجاعة والقوة وكانت المرضعات لا يجعلن لهم قماطا وكانوا يعودونهم أيضا على عدم الخوف من ظلام الليل وعلى عدم البكاء والتشكي الاحاجة لازمة وكانوا اذا بلغ الطفل سبع سنين أمروا المعلم ان يعلمه التعود على الاشغال والتجلد على المشاق والمبادرة في الطاعة وكان المعلمون يسوون بين سائر الاولاد في التعليم بالمكاتب العمومية بلا تمييز لاحد منهم بتعليم شئ وتقديمه على آخر بل يعلمون الكل مع بعضهم بطريقة واحدة لانهم مستوون في القيام بالواجبات المتحدة في المملكة وكانوا يجعلون كل من ظهرت نجابته في التعلم رئيسا على من عداه ممن لم تظهر

له نجابة فيحكم الانجب فيمن عداه منهم لكن بملاحظة الشيوخ ليرد الشيوخ من اخطأ في حكمه منهم الى الصواب ويجب تأديبه على ذلك بما يليق بخطأه من العقاب

وطريق تعليم الاولاد التفاهم التخاطب عند اليونان ان الاباء كانوا اذا اجتمعوا على مائدة عمومية يحضرون معهم أولادهم ليغتنموا فائدة محاورة تلك المجالس وكانوا يسألونهم عن بعض أشياء مهمة فيقولون للواحد منهم مارايك في هذا الشئ أو في هذا الرجل ويحملونهم على رد الجواب بسرعة مع الاختصار وأدب الكلام والقصد من ذلك ان ينشأوا على عادة حسنة فيعتادوا العبارات الوجيزة وتزيد فطنتهم وذكاؤهم ويسلكوا في كلامهم مسلك البلاغة الدالة على علو همتهم وكان يونان اسبرطه بجزيرة موره ممنوعين من العلوم الدنيوية ومن الصنائع التي هي على الزينة والزخرفة مبنية وانما كانوا يميلون الى الشعر لكونه يهيج نفوسهم ويزيدها شجاعة وحماسة فمن ذلك ما حكى عنهم انه اجتمع شيوخهم وشبانهم وصبيانهم للغناء وشرع كل يغني بشرح حاله فقال الشيوخ ما معناه نحن كنا سابقا منتظمين في سلك الشبان أرباب الشجاعة والرهان فاجابتهم الشبان ونحن كذلك بهذا الوصف الآن ومن اراد البرهان فها هي الشقراء والميدان فرد عليهم صبيانهم بقولهم ونحن سنصير يوما من الايام مثلكم في حومة الفرسان ونفضلنا سيفوق فضلكم في حوزة الشجعان وبهذا هابهم الاجانب في المشارق والمغارب شعر

وسعودهم تثني الاعادي عنهم * ان السعود كتائب لا تهزم

فسعد حسن التربية بنيل المقصود ويبعد العدو عن عدوه خشية صولة الاشبال والاسود فان اشبال اليونان كانوا يدربونهم من أول صباهم كما قيل

بلغت لعشر مضت من سنيـ * ـك لما يبلغ الرجل الاشيب

فهمك فيها جسام الامو * ر وهم لداتك ان يلعبوا

واللدات الامثال في السن

مطلب تربية النساء عند اليونان وتشريكهن مع الرجال في العرفان

وقد انتظم النساء عند اليونان في سلك التربية فاكتسبن من التعليم فضائل الرجال وصحة الابدان فبهذا كان لهن السلطنة العليا على قلوب الرجال بحسن التربية والتعليم فكان يجب عليهن معاناة الرياضات الشاقة واستمرار اللعب والمصارعة فبذلك حصل في تلك البلاد من النساء مدة طويلة من العجائب والغرائب ما ساوى شجاعة الرجال

ولهذا أيضا احترمهن الابطال احتراما بليغا حتى ان سلطنتهن على قلوب الرجال نشأ عنها ميلهم لاعمال الشجعان ليحببنهم فمن ذلك ان بعض الامهات قالت لابنها التسليه وقد جرح جرحا صار به اعرج يابنى لا بأس عليك بذلك فانك الآن ما مرت خطوة الاوذكرت شجاعتك وكذلك كانوا فى مدينة أثينة التى هى مدينة الحكماء يعتنون بتعليم الاولاد لعلمهم ان بقاء عز المملكة انما يكون بذلك ويحثون على الاشتغال بالحرف والصنائع وكل من ثبت عليه من أهالى المدينة انه لم يتعاط حرفة ولا صنعة واتهم بذلك ثلاث مرات فانه يفضح على رؤس الاشهاد وكذلك كل ولد يسرف فى أمواله أو يحرم ابويه من القوت فانه يفضح على رؤس الاشهاد أيضا الا اذا كانا لم يعلماه صنعة فلا عقاب عليه بذلك وأما الوالد اذا بخل بالانفاق على ولده فلا يعاقب بهذه العقوبة

ومن أحكام هذه المدينة انه لا يجب على المرأة ان تجهز زوجها عند الابتناء بها باكثر من ثلاثة أثواب وامتعة قليلة الثمن خوفا على أهلها من الفقر وان من اجتمع بغير زوجته وعاشرها أو خالط النساء المتبرجات لا يكون من أرباب مشورة المدينة لانه لا يؤتمن على مصلحة الاهالى وان من سكر من أرباب مشورة المدينة فعقابه القتل فبهذا صارت تربية عموم اليونان كاملة فاضلة فى أغلب الازمان وناهيك بتربية ارسطاطاليس لاسكندر الاكبر حيث ترشح بتهذيب استاذه له الى ان ملك الدنيا وهزم فى كل الممالك الملوك والعسكر وقد اجتهد الاروباويون الذين بلادهم الآن هى أقوى البلاد فى ان يربوا ابناءهم كتربية الاولاد وكانت عادة الفرنساوية قديما ان يربوا بناتهم فى أديار الراهبات ويمكثن فيها الى حد تأهلهن للزواج وكثيرا من هؤلاء البنات كن يلبسن زى راهبات الكنائس الى ان يخرجن من هذه المكاتب بوصف كونهن عرائس وكل ما كان عند اليونان وعند أهالى أروبا الآن من التمرين على الشجاعة لا يساوى قطرة من بحر بالنسبة لتمرين العرب على اقتحام الخطوب وتحريض الامهات للابناء على الجولان فى ميادين الحروب فقد حكى ان الخنساء بنت عمرو السلمية حضرت حرب القادسية ومعها بنوها أربعة رجال فقالت لهم من أول الليل يابنى والله الذى لا اله غيره انكم لبنو رجل واحد انكم بنو امرأة واحدة ماخنت أباكم ولا فضحت خالكم ولا هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم وأنتم تعلمون قول الله تعالى يا أيها الذين امنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون فاذا اصبحتم ان شاء الله فاغدوا الى قتال عدوكم مستبصرين وبالله على أعدائكم مستنصرين فاذا رأيتم الحرب قد شمرت

مطلب ان تمرين النساء عند العرب قديما لابنائهن على الشجاعة وحماية الوطن أعظم مما عند أهل أوروبا الآن.

شمرت عن ساقها واضرمت لظى على سباقها فتيمموا وطيسها وجالدوا رئيسها عند اختدام خميسها تظفروا بالغنى والكرامة فى دار الخلود والمقامه فلما اضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم وشنوا الاغارة وقاتلوا حتى استشهدوا جميعا فبلغها الخبر فقالت الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم وارجو من ربى ان يجمعنى بهم فى مستقر رحمته فكان عمر بن الخطاب يعطى للخنساء ارزاق أولادها الاربعة لكل واحد منهم مائتا درهم حتى قبض رضى الله عنه

مطلب لياقة تربية الاطفال فى بيت الوالدين

ثم ان تربية الولد ينبغى ان تكون فى بيت أبيه وأمه وهى التربية اللائقة للبيت وكل امراة لم تربها أمها فى صغرها لم ترغب فى تربية أولادها فى كبرها وتربية الامهات لاولادهن قليلة فى اروبا بل يكون أمر التربية موكولا للمرضعة والعادة ان تكون هذه المرضعة عاقلة مستقيمة متقدمة فى السن صاحبة معارف كافية كثيرة اللبن والعادة انها دائما ماسكة بيدها عصا صغيرة تعلم بها الصبى وترضعه وتكلمه بكلمات تناسب سنه وتكتب له فوق التختة حروف الهجاء وجملا قصيرة تناسب حداثة سنه

ثم يدخل كل من الغلمان والبنات المدارس المعدة لهن وفى بعض بلاد جرمانيا دخول المدارس للبنات والغلمان واجب قانونا حتى عدان فى بروسيا سدس الاهالى يتعلمون فى المكاتب ويقرب من هذا تعليم جمهورية السوسة ومملكة بلجيقا والفلمنك وهالك أمريقة المتحدة فلهذا كان ابناء أوربا وأمريقة ذكورا وأناثا يحسنون فى الغالب القراءة والكتابة بالضبط الشافى ويعرفون مبادى المعارف التى يتزين بها عقل الانسان وهذا يشترك فيه عموم الاهالى وأما التربية الوسطى والعالية فهى مخصوصة بأربابها وسيأتى بيان ذلك فى مساق الابواب الآتية

(الباب الاول فى حقيقة الانسان ونسبته الى غيره من المخلوقات وبيان فضائل الذكور والاناث ومايتبع ذلك وفيه فصول)

(الفصل الاول فى الانسان من حيث ناطقيته)

الانسان هو الحيوان الناطق ذكرا كان أو أنثى وهو ذو حواس ظاهرة كغيره من باقى الحيوانات ويتميز عنها بحواس باطنة كما يتميز عنها أيضا بشرف هيكله وناسوته وبتناسب أعضائه الظاهرة والباطنة وبشعر رأسه الذى هو زينة له وبحدة بصره وبيانه عما فى ضميره وبادراكه وفكره وبصفاته الروحانية والجسمانية كالفم الذى هو مظهر

الضحك والكلام وبلطف سمعه الذى يدرك الاصوات المسموعة أيا ما كانت وكيف تشكلت وعما ميزه الله به من الاعضاء كاليدين اللتين يحسن بهما الصناعة الى غير ذلك فالانسان يشترك مع غيره من الحيوانات بالاشياء المحسوسة التى بها يحافظ على حياته بصيانة نفسه من البرد أو الحر ووقايتها من الآفات الجويه ومن تعاطى الغذاء الذى يسد به الرمق كل يوم وقد وهبت الحكمة الالهية للانسان كغيره من الحيوان آلات عضويه ذات وظائف تعينه على حفظ حياته وقد اقتضت الحكمة انه متى اصيب فى هذه الاعضاء وتعطلت مات حالا فهذا ما يشترك فيه الانسان مع الحيوان

وأما ما وهبه الله تعالى للانسان خاصة فهى حياته المعنويه وصفاته العقلية التى يعبر عنها فى تعريفه بالناطقية ويتميز بها عما سواه وهى أيضا توجب حفظه وصونه فقد وهبه الله تعالى الدماغ الذى هو محلس الحواس الباطنة والقوى العقلية التى هى آلة الفكر وأداة النظر وان شئت قلت الناطقية أى الجزء الناطق من الانسان وهو الروح البشرية التى هى عبارة عن الفكر والارادة * فبالادراك يقدر ان يرتب المقدمات لاستخراج النتائج وان ينسب الماضى للحال ويتبصر فى عواقب المستقبل ويتصور أسباب الظواهر الجوية والحوادث السماوية ويميز الحسن من القبيح والضار من النافع وبالادراك والفهم يصلح الانسان الاشياء ويشكلها على الوجه المطلوب وعن الادراك يتولد الرضى والغضب واللذة والالم والفرح والترح والصفا والكدر فهذه الصفات من صفات الروح البشرية بواسطة الادراكات العقلية فتحس بها الروح احساسا سبقيا فادرا كها ضرورى خارج عن تعلق الارادة فلا يتوقف الادراك على الارادة فى شئ من الاشياء * والقوة الثانية للروح هى قوة الارادة وهى الميل النفسى للفعل والترك وهذه القوة فى الانسان قاصرة محصورة فى حدود نظام بنيته فليس الانسان فعالا لما يريد بل له نوع من الاختيار بعمله الخاص به فهو دون غيره ناطقيته يفصح عما فى ضميره بما يختاره من الكلمات والالفاظ الاصطلاحية والتفنن فى العبارات ذوات الروابط القوية

مطلب الادراك

مطلب الارادة

وقد أودع الله فى الانسان حفظ المعلومات ووجودها فى مذكرته وبهذا حصل التفاهم بين الناس بعضهم مع بعض وتربت الملكات وقويت القوى العقلية والادراكات وبهذا أيضا بلغ الانسان مرامه وجعل جميع ما عداه من الكائنات ينقاد له ويطيع أحكامه

*(الفصل

(الفصل الثانى)

(فى سلطنة الانسان بسبب ما فيه من الناطقية على جميع المخلوقات وانقياد ما عداه)

(له من الكائنات)

مطلب ان الانسان لما فيه من الناطقية مستعد لجميع الصنائع البشرية

لاشك ان الانسان بما أودع فيه من القوى العقلية اهتدى الى المعارف والعلوم والفنون والصنائع فبأفكاره الجليلة عرف أن ينتفع بما حوله من المخلوقات ويجلبها اليه ويجعلها طوع يمينه ولما وهبه الله سبحانه وتعالى الشهامة والشجاعة والحماس وكلها من سمات الناطقية كان تارة بصوته الجهورى المطرب ينشد شجاعة الشجعان و يصف فروسية الفرسان فى حومة الميدان وتارة يرسم بيده رسوم الوقائع والنوازل وخرطات المسالك والممالك والمدائن وطورا يشتغل بتطريق المعادن وطورا يبنى قصرا مشيدا وتارة يشتغل برصد النجوم و يقوم الاجرام السماوية بالنظارات الفلكية ويمسح دوائر أفلاكها بالمساحة الهندسية ويمسح الارض و يعرف أطوالها وعروضها ومسافة ما بينها و بين الشمس وأخرى يمعن النظر و يجيل الفكر الى ماوراء الطبيعة فيتكلم على الالهيات ويدخل بعقله فى البحث عن العلويات وقد يتنازل فى البحث الى موادليست علوية الا أنها فى ميزان الاعتبار لها فضل الراجحية يرقى الباحث عنها الى أوج الفخار و يبلغ فى معاناتها شأو الاعتبار كالفنون والصنائع التى يحتاج اليها لتدبير أمره وراحة سره فيميل عقله مثلا الى استحسان الفلاحه التى تفيد النوع البشرى صلاحه ففى كل يوم بعناية الزارع الفلاح وسلوكه بالغرس وخدمة الارض طريق الفلاح يبدو فى الاراضى مغارس جديده ونفائس مفيده فيتحصل لثروة الاوطان محصول النيل والكتان و بتنظيفهما وتبييضهما بالصناعه ينشأ عنهما ثياب بيضاء ذات بريق ولمعان و بتربية الغنم فى المراعى النضره والمروج الخضره تكثر فى الوطن الاصواف الجيده كما بتربية دود القز يكتسب القطر من الحرير أجوده ولا يدى ابن آدم يلين الحديد وتتطرق المعادن وتنتج عنها المصنوعات النافعة لفتح الممالك والمدائن كآلات الحرب وأدوات الطعن والضرب مما يحصل به النصر والتأييد وكل يوم يأخذ فى الترقى والتجديد

لولا بنو آدم بين العالم * ما بان للعقول فضل العالم

أوليس الانسان هو الذى يغرس الاشجار الجافية كالنخيل وغير النخيل واذا اراد توقيع نخلة سقطت بين يديه ونفعها له ليس بقليل فيتخذ منها مصنوعات جليله

ومشغولات جبله ومن فضائل فطنة الانسان الوقاده ان الحيوانات بأسرها اليه منقاده ومستعدة لتوفى له مراده فنهاما يتخذه للغذا والحرث أو الحمل أو ازالة الغذا ومنها ما يستعمله للصيد أو للحرب مع عمرو وزيد ومنها ما يتخذه مطيه أو يعده للسباق والفروسيه ومن أعجب ما يصطنعه الانسان لمنفعة نفسه مما يعود فى الحقيقة على أبناء جنسه أن يفتح طرقا واسعة فى لجج البحور لأسفار السفن واقتحام الاخطار لكل جسور فبهذه الطرق العليا تجرى الجوارى المنشآت فى بحبوحة بحار الدنيا وتستكشف المسالك والممالك وتقتحم مفاوز البحار والمهالك فيطلع أرباب السياحة والتجاره على محصولات بلاد البداوة والحضاره وماهذا الامن بحث الانسان بفطنته الزكيه وقواه العقليه فكلما نظرنا اليه من حيثية اتصافه بهذه الفضائل حكمنا له بأنه الانسان الكامل وانه بقوة ذكائه النافع هو الذى ظهرت على يده هذه المنافع وأما اذا نظرنا اليه من حيث جواهره الماديه وأجزاؤه الحسية الطبيعيه وتأملنا الى كونه لحما ودما وعصبا وعظما وجعلنا مطمح نظرنا صورته الجسمانيه وصرفنا النظر عن ادراكات روحه النورانيه وقابلناه بما عداه من الحيوانات وقسناه بما سواه من هذه المخلوقات علمنا انه من أضعفها لا محالة وانه لولا العقل والفكر لم ينل من الانتفاع منها ما ناله

مطلب انقياد الحيوان للانسان

* * *

(الفصل الثالث)

(فى قياس الانسان بما عداه من الحيوانات وانها أقوى منه من بعض الحيثيات)

قد منحت الحكمة الالهيه الحيوانات الانسية والوحشيه سلاحا تدفع به عن نفسها وتسطو به على أبناء جنسها وغير جنسها وأما الانسان فهو مجرد عن ذلك ومعرض بجميع أعضائه للمهالك فجلده عرضة لحر الشمس و زمهرير البرد ومضار الرياح العواصف والتلافيح القواصف وقد حمى المولى سبحانه وتعالى جميع المواليد فى سائر الهضبات والبطاح حتى جعل للأشجار قشرا عليها وغلافا يقوم عندها مقام السلاح ولم يكن للانسان مثل ذلك و يظهر قوله تعالى وخلق الانسان ضعيفا فى كون الانسان من حال طفوليته على غاية من الضعف وعرضة لما لا يعد ولا يحصى من الامراض والاوجاع وملازمته للآلام مدة حياته بدون انقطاع ومما يفيد أن الانسان أسوأ حالا من جميع خلق الله انه من حال ولادته لا يستطيع أن يقوم بنفسه

وانه

وانه ضعيف المعدة مضطرب العقل الفطري مجرد عن التمييز خرج من بطن أمه لا يعرف شيئا عرضة لان يقاسي ما يقاسي في مدة عمره من الشقاء لا يتمتع بالراحة والسعادة الا ببذل نفيس عمره من مبدئه الى آخر أمره ومع ذلك فهو دائما غير آمن مما يكدره من صروف الزمان وتغير الحدثان فهل نستطيع أن نقول انه ذو قوة متين أشم العرنين اذا قابلناه بأسد العرين وهل يسوغ لنا ان نحكم بأنه سريع العدو في الفلوات والقفار اذا قابلناه بالفرس والابل وكل حيوان عداء وهو أيضا مجرد عما وهبه الله تعالى للطيور من الطيران في الهواء وليس عنده ما عند السمك من سهولة السبح في الماء وليس له من حاسة الشم ما أودع منها في الكلاب ولا من حدة البصر بقدر ما في الصقور ولا من قوة السمع ما في للارانب وليس له من ضخامة الجسم ما للفيل وليس فيه من اللين والانعطاف ومطاوعة الاعضاء ما في القردة وليس فيه من الخفة ما في الظباء والغزلان

مطلب ما خصت به الحكمة كل حيوان كما خصت الانسان بالعرفان

وقد منحت الحكمة الالهيه والقدرة الربانية كل حيوان من تلك الحيوانات بمناسباته وخصته بما يهتدي به لجميع احتياجاته وضروراته فخصت الطيور الجوارح بأظفارها ووهبت لذوات الاربع مخالبها وقرونها لتدفع عن نفسها حتى السلحفاة التي هي اضعف الحيوان فقد جعلت لها درعا يدفع عنها الاذى ويمنع عنها القذى بخلاف الانسان فقد خرج من بطن أمه لا يعلم شيئا ولا يقدر على شئ الا بالتربية والتعليم فوجب تربيته وتعليمه وارشاده للعيشة والتكلم وتعويده على ان يتفكر ويتأمل فبهذا كان محتاجا الى ما لا يعد ولا يحصى من ادوات المعاناة والتمرين والتجربة والممارسة على مدى الزمن حتى يمكنه ان يصل الى أداء ما يحتاج اليه في تعيش نفسه فلا يصل الانسان الى درجة المعرفة الكاملة الا بالمرور والعبور في طرق المشاق والمصاعب أوليس ان أول صوت ظهر من الانسان عند الولادة صياحه بالبكاء والانين وقد خرج من بطن أمه عاريا مقبوض الكفين ومما ينسب للامام الشافعي رضي الله عنه

وفي قبض كف الطفل عند ولاده * دليل على الحرص المركب في الحي
وفي بسطها عند الممات اشارة * ألا فاشهدوا أني خرجت بلا شي

وقال آخر

لما تؤذن الدنيا به من صروفها * يكون بكاء الطفل ساعة يولد
والا فما يبكيه منها وانها * لافسح مما كان فيه وأرغد

اذا ابصر الدنيا استهل كانه * بما سوف يلقى من رداها يهدد

ومع ذلك فيترآى فيه من صغر سنه الميل الى الاعجاب وانه مخلوق لان يأمر وينهى ويدعو فيجاب ويتصرف فيما عداه من المخلوقات فاذا بكى فى مهده لف باللفائف وحرك مهده وضم كأمين الخائف فكان ابتداؤه فى مهده مبدأ عقابه واذاقته طعم عذابه وليس له ذنب سوى انه طفل ممدود وفلذة كبود بخلاف صغار الحيوانات فلا يعتريها شيء عقب ولادتها من هذا الداء ولا تحتاج لعلاج الامهات ولا الاطباء فليس منها ما فيه مخافة بنى آدم ولا رقة بنيته ونحافتها وليس فيها من كبر الآدمى وعجبه فى حال الطفولية وليس فيها ما فيه حين ترعرعه من الوساوس والاوهام والمطامع والحمق والجنون وما أشبه ذلك من العيوب والمثالب التى هو بها مفتون فهى حظه ونصيبه من الدنيا الدنية فيلزم تلطيفها ومحوها من عقله لأنّ الانسان لا يصل الى درجة الكمال ولا يقدر أن يدبر أمور دنياه وأخراه ليخلص من الهلاك والوبال الا اذا عانى ما لابد منه من المصاعب وقاسى ما لامزيد عليه من المتاعب فكانه افتدى صلاح حالة ومآله وكمال سعادته واقباله بأغلى الاثمان واشترى بأنفس ما عنده ما يخلصه من مكاره الزمان فاذا كان هذا حاله وليس مخلوقا الا كالآلة لانتظام العالم وحفظ النوع البشرى من الضياع فلا يعد فى الحقيقة بالنسبة لجثمانه الا من سقط المتاع فلا يقال ان جميع ما خلقه الله انما هو لاجل هذا الانسان من حيث جثمانيته بل من حيثية أخرى امتاز بها وهى عقله وعلمه كما لا يسوغ ان يقال ان جميع الرعايا فى الدنيا مخلوقة لاجل ان تحكمها الملوك وتسترعى الغنى منها والصعلوك اوليس ان رب الارباب هو الذى خلق الذباب وسلطه على البشر وجعل الدود يأكل احشاء بنى ادم وكذلك سلط الحشرات الحقيرة على ان تتمكن فيه من اللحم والدم فهل تنقاد لابن آدم الكواكب والفصول والرياح وهل يتصرف فيها بالتصرف المباح ومع ذلك فهو بعقله ملك ما فى الارض وله سلطنة على من عداه من الكائنات فى طول البسيطة والعرض شعر

مطلب ان وصول الانسان لدرجة الكمال انما هو بتدبير أمر معاشه ومعاده

قل للذى يبتغى دليلا * من غير طول على المهيمن
ماذرة فى الوجود الا * فيها دليل عليه بين

*(الفصل

(الفصل الرابع)

(فى ان بنى آدم بالنسبة لجثمانهم يستوون مع غيرهم فى هذه الدنيا من جماد العالم ونباته)
(وحيوانه ولا تأثير لهم فيما عداه بل التأثير لخالق العالم ومولاه)

من المعلوم ان سعادة الانسان موقوفة على وجود المخلوقات التى لا يتم له راحة الا بها ولكن من حيث ان آفات الدهر كالوبا والقحط والمرض والحرب والحقد والحسد والشقاء والا لم كلها تدل على ان الانسان من حيث مادته الجسمية ليس أسعد من غيره من الموجودات كان يظهر أن المالك العادل سبحانه وتعالى سوى بينه وبين ما عداه حتى يشاركهم فى كونه لم يتم سعده وانه لا فضل له عليها بالنسبة لمادته الجسمية ولو ان ابن آدم فى الحقيقة هو الطبقة الاولى من الكائنات فلم يقه مولاه من المقدورات العرضية بل جعل افراد الانسان تحت أرجوحة القدر لا يدفعون عن انفسهم ما حكم الله به عليهم من الحياة والموت حتى جعل الملوك والرعاة كالازهار تدهشهم الحياة و يطفئهم الذبول حتى يؤل أمرهم للانعدام ليشاركوا الحيوانات والنباتات فى الفناء قال أبو العتاهية فى وعظية له

هل أنت معتبر بمن خربت * منه غداة مضى دساكره
وبمن أذل الدهر مصرعه * وتبرأت منه عساكره
وبمن خلت منه أسرته * وبمن خلت منه منابره
أين الملوك وأين عزهم * صاروا مصيرا أنت صائره
يا مؤثر الدنيا للذته * والمستعد لمن يفاخره
نل ما بدا لك أن تنال من الد * نيا فان الموت آخره

فليس الانسان من حيثية جسمه بالنسبة لما عداه الا مادة مؤلفة من أجزاء منتظمة قابلة للتحويل والاستحالة من حالة الى أخرى كما يشاؤه الملك القادر فليست سلطنة الانسان على الكائنات ولا تدبيره لها فى الحقيقة ونفس الامر الا لما خصه الله به من الصفات المعنوية التى هى اسرار الناطقية فهو واسطة من وسائط التدبير بما أودعه فيه من السر اللطيف الخبير وهو ترجمان لسان القدرة الالهية فتبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير الذى خلق الموت والحياة فى سائر الامكنة والاوقات وقدرهما

مطلب كون سلطنة الانسان على ما عداه لصفاته المعنوية فقط

على الحيوان والنبات وجعل الانسان داخلا فى العموم وكونه أول عبد لمولاه معلوم فهو العالم بما يدبر به العالم فبعيده كما بدا وله صفات الكمال أزلا وأبدا

مبحث عدم تأثير الانسان فى شئ من الكائنات بل التأثير للقادر

فلا تأثير للانسان فيما كان ولا يكون من حركة أو سكون فلا يقدر على تحريك كوكب من الكواكب ولا على تسكين شئ من الارض التى يسكنها ولا على تسيير ماش ولا راكب ولا فعل له أصلا فى شئ من المواليد الحيوانية والنباتية والمعدنية ولا فى تنويع أنواعها ولا فى وضع أعضائها التركيبية بل جميع هذه الاشياء توجد وتتعاقب وتتجدد وتسكن وتتحرك بقدرة إلهية لا تستطيع ان تعارضها فى ذلك القوة البشرية فلا يقدر الانسان ان يسعى فى تخليد نفسه ولا ان يمنع عنه ذات يوم الحلول فى رمسه فبهذا كان النوع البشرى بملازمته للجسمية والمادة مشاركا للمخلوقات فى الحكم الالهى الذى خصها به من التوالد والنمو والانعدام قال بعضهم

اذا شوركت فى أمر بدون * فلا يلحقك عار أو نفور
ففى الحيوان يشترك اضطرارا * ارسطاليس والكلب العقور

ولما كانت بنية الانسان بأجزائها المادية ما يكمل من سائر المخلوقات وانه مخلوق من تراب الارض وراجع اليه وكانت أفراده وأنواعه على حد سواء فى الخلقة والبنية وان اختلفت الالوان والطباع والسمات كان بهذا المعنى لا يخرج عن الوحدة الخلقية وان اختلف اقليم وجوده وقطره وأحوال أنواعه وطريقة معيشته وفطانته فهو انسان يعنى حيوانا ناطقا تستوى أفراده وانواعه فى الحيوانية والناطقية كما يشترك الفرس فى انواعه بالنسبة للحيوانية والصاهلية وكذا سائر الحيوانات وانما يختلف باختلاف المكيفات حسنا وقبحا شرفا وضعة نباهة وسفاهة مع تقارب أرباب النباهة فى جميع البلاد بعضهم من بعض فى الصفات الحميدة ومحاكاة الغوغاء والسفهاء بعضهم لبعض فى المثالب والمعايب فان حكايات ملوك الدنيا وامرائها واشرافها وعظمائها وحكمائها تتقارب فى الوسائل والمقاصد وكذلك حكايات السفهاء والرعاع من جميع البلاد يشبه فيها بعضهم بعضا وربما كان نفعهم فى المآلات عظيما ولذلك ورد فى الحديث المرفوع ان الله ينصر هذا الدين باقوام لاخلاق لهم وكان الاحنف بن قيس يقول اكرموا سفهاءكم فانهم يكفونكم النار والعار أوليس انهم هم الذين يطفئون الحريق ويستنقذون الغريق

الغريق ويسدون الجسور ويبنون الثغور وقال الشافعي رضي الله عنه لابد للفقيه من سفيه يناضل عنه ويحامي عليه وقال الشاعر

وانى لاستبقى امرأ السوء عدة * لعدوة عريض من القوم جانب
أخاف كلاب الابعدين وهرشها * اذا لم تجنبها كلاب الاقارب

يعنى ان غوغاء كل مملكة تدفع غوغاء الاخرى لانه يستعان على الحديد بالحديد وقد ذكر عامة البلدان واصل ابن عطا فقال ما اجتمعوا قط الا ضروا وما تفرقوا الا نفعوا فقيل له قد عرفنا مضرة الاجتماع فما منفعة الافتراق فقال يرجع الحائك الى حياكته والطيان الى تطيينه والفلاح الى فلاحته وهكذا كل صانع الى صنعته وكل ذلك من مرافق المسلمين ومعاونة المحتاجين وقال الجاحظ كانهم أعداد عام يعنى انا سامستوين واحدهم في بواطنهم اشد تشابها من التوأمين في ظواهرهم وكذلك هم في مقادير العقول وفي الاعتزام والمرعة وفي الاسنان والبلدان فقد تشابهت قلوبهم الا ترى انك لاتجد أبدا في كل بلد وكل عصر الحاكة الا على مقدار وجهة واحدة من السخف والخمول والغباوة وكذلك النخاسون على طبقاتهم من اصناف ما يبيعون ويبتاعون وكذلك كل حجام على الارض فهو شديد الحرص وان اختلفوا في البلدان والاجناس والاسنان وكذلك طبقات الشرف يشتركون في علو الهمة والميل الى حفظ ناموس الامه والتباين بين الخواص والعوام لايوجب التباين بين حقيقة الناطقية الجامعة للجميع في وصف الانسانية فهي أحوال وأكوان كالصفات والالوان لاتمنع العامي والنبيه والابيض والاسود من كونه كالآخرين انسان

(الفصل الخامس)

(في استواء الانسان في افراده وانواعه وعدم اعتبار الوانه وطباعه وفي ميله)
(للتمدن بالطبع)

مطلب ان الاقطار الحارة والباردة مدخلية في تكيف أجناس الناس

لاشك ان الانسان سواء كان ملكا أو سوقة شريفا أو مشروفا حضريا أو بدويا فلاحا أو صيادا حرا أو عبدا متمدنا أو متخشنا يتناسل مع سائر أنواعه المنتشرة في الدنيا فيخرج النسل بين الابيض والاسود والعربي والاعجمي والمتمدن والمتبربر وتتناسل امم الاقطار الحارة مع امم الاقطار الباردة فالافراد المتولدة من هذا الاختلاف تحسن اخلاقهم وطباعهم والوانهم وأبدانهم وتنتقل صفاتهم الاصلية عن أصلها حيث تخلفها صفات

التوالد بعضهم مع بعض فيحدث من ذلك أسماء أجناس الامم وهذه الاسماء انما تدل على تكييف الجنس المنقاد لاحكام طباع الاراضي المولود بها ذلك النوع المخصوص بأحوالها وصفاتها وتسمى هذه التكيفات والتشكلات بالالوان والاجناس تسمية عرفية لاصحاب الجغرافية فبهذا قسم بعض العلماء الوان الامم وأجناسهم الى ثلاثة أقسام بعضها متميز عن الآخر الاول الجنس الابيض المسمى بالقوقاسي أي الجركسي والثاني الجنس الاصفر المسمى بالمنغولي أي التتاري والجنس الاسمر المسمى بالسوداني وبعضهم قسمها الى خمسة أقسام فزاد على الثلاثة الاقسام السابقة الجنس الملباري أي الهندي والجنس الامريكاني وبعضهم زاد على ذلك فأكثر الانواع وذكر منها الجنس العربي والجنس الحبشي وهما داخلان عند من لم يزدهما في الجنس القوقاسي حيث ان المعتبر انما هو أصل البياض المقول بالتشكيك أي المختلف الحقيقة مع اعتبار تناسب الاعضاء في الحسن والوضاءة ولا شك ان العرب والحبش موصوفون بذلك

مطلب تقسيم الالوان والاجناس على مذهب أهل الجغرافيا

واذا أمعنا النظر وأنعمنا الفكر في تنظيم بنية الانسان وتركيبه القويم وخلقه في أحسن تقويم وتأملنا أوصافه الجسمية وفضائله العقلية تبين لنا انه مخلوق من أصل فطرته بعقله وحسه لان يعيش بالتأنس والاجتماع مع أبناء جنسه وان قوته البشرية تميل الى الاحتياج الى غيره وانه اذا لم يجتمع بالتأنس والعمران مع أمثاله كان أضعف من الحيوان الذي عند انفراد الانسان يوشك هو أن يهم باغتياله ويذيقه كأس وباله فلولا ما في الانسان من صفة الادراك العقلية لما تسلطن على المواليد الحيوانية والنباتية والمعدنية ولكن شرط تسلطنه على هذه الكائنات صقل ادراكه بتأنسه مع أبناء جنسه والا لما أمن من اغتيال ما عداه في غده وأمسه ولو لم يكن الانسان مخلوقا للتأنس مع اخوانه والاجتماع مع أقرانه ليصنع معهم هيئة اجتماعية وحالة عمران تمدنية لم يكن لتخصيص الحكمة الالهية له بصفة الناطقية كبير مزيه فقد منحه الله سبحانه وتعالى قوة الكلام وخصه بقوة الفكر والفهم والافهام ليدرك ما في الاشياء التي حوله من المشابهة والمباينة ويعرف النسب بين الاشياء الخفية والمعاينة وقد خصه الله سبحانه وتعالى بالنفس المطمئنة التي تسمى بالذمة ليميز بها ما يستحق المدح والمذمة وليتحقق بها ماله وعليه من الواجبات والحقوق لكل انسان مثله

بل

بل لكل مخلوق وكذلك ميزه بالقريحة التي هي مفتاح معالي الامور ليأمر وينهى وهو آمر ومأمور

فالحالة التأنسية للانسان والاجتماعات البشرية للتحضر والعمران هي حالة فطرية للآدمي من أصل ولادته وخلقته وهي فيه جبلة وغريزة طبيعية فبالناطقية الموجودة فيه من أصل الفطرة يمكنه اعمال قواه العقلية بامعان الفكرة فيسعى لما فيه التمدن والحضارة ويبذل جهده بحوز ما ينتج عن التمدن بالبراعة والمهارة لانه لو انفرد وحده ولم يتأنس بغيره ولا اكتسب لوطنه درجة العمران كان دائما منه ميفا خائفا وعن جادة الامن حائفا فباجتماعه ببني جنسه واتحاد تجاربهم وحدسهم بتجربيه وحدسه تتسع القوى العقلية المنضمة الى البحث عن العلوم العقلية والنقلية فبهذا تتسلطن الامة المتمدنة على من سواها وتجلب لنفسها من المنافع جميع ما عند من عداها ومادامت الجمعية التأنسية مائلة الى الحصول على السعادة وراغبة في تحصيل الشرف والسيادة فلا محيص لها من ان تتعاطى الاسباب وتتشبث بالاغتنام والاكتساب فان أهملت التمسك بحبال التمدن والفضيلة واستغنت عنه ورضيت بالخشونة والدعة عاشت مدة عمرها ذليلة فيجب على الانسان ان يدع الدعة التي هي في لوح فؤاده منطبعة وفي زوايا الكسل مودعة

مطلب ان الحالة التأنسية العمرانية ميل كل انسان اليها طبيعي غريزي

(الفصل السادس في الكسل المعبر عنه بالدعة والسكون)

هذا ولو ان الانسان ناطق متفكر وقادر على اعمال فكره في الحقائق والدقائق الا أن الدعة في كل انسان طبيعيه حيث إعمال الفكر لا يخلو من التعب والنصب وقد قيل

فكم دعة أتعبت أهلها * وكم راحة نتجت من تعب

(وقال آخر)

انّ الشباب والفراغ والجده * مفسدة للمرء أي مفسده

فتجد الانسان دائما ينجذب للراحة ويميل اليها كل الميل آناء الليل وأطراف النهار كانجذاب الاجرام بما فيها من الثقل الى المركز حيث عادة الاجرام سقوطها في المراكز وسكونها فيها بدون تحرك مالم يكن هناك في كل وقت من أوقات السقوط قوة دافعة تبعدها عنه وتحركها للدوم على الحركة فقوة الجذب وقوة الدفع اللتان في الاجرام

مطلب تجاذب السكون والحركة بقوتين مختلفتين

الجوية موجودتان فى الحالة الانسانية حيث ان الدعة تجذب الانسان للسكون والارتياح وقوة العمل تدفعه عن مركز الدعة الى حركة النشاط والفلاح وهاتان القوتان متعادلتان لاترجح احداهما على الاخرى ولا تكون احداهما بالخفة والثقل أحرى فهما فى الانسان على حد سواء حيث اتحدت فيه هاتان القوتان احداهما وهى محبة الدعة مسببة عن شهواته الشديدة والثانية وهى الانهماك على العمل ناشئة عن نفوره من البطالة وايثاره للاعمال الرشيدة والقوة الاولى تسمى قوة الملاذ والشهوات فهى قوة فى الحقيقة جسمانية خدمة للجسم قال الشاعر

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته * وتطلب الربح مما فيه خسران
عليك بالنفس فاستكمل فضيلتها * فأنت بالنفس لا بالجسم انسان

والثانية تسمى قوة الامل والعمل قال بعضهم ان طلبت المورد العذب فاسلك طريق الصعب وسر سير الجد الحازم ولا تتكاسل فى العزائم واطلب مطالب الرجال واياك ان تدعى بالبطال لعلك تجد على النار هدى والناس فى النشاط أقسام هذا يسير وهذا يطير فهيهات متى يلحق السائر بالطائر وقال ابن الفارض

وكن صارما كالوقت فالمقت فى عسى * واياك عل فهى أكبر علة
وسر زمنا وانهض كسيرا فحظك الـ * بطالة ما أخرت عزما لصحة

(وقال آخر)

لقتلة نحن فى صف عز * ولا نوم الذليل على الفراش
فمن رضى الحياة بحال ضيم * فذلك نفسه نفس الفراش

وقال بعضهم صعود الآكام وهبوط الغيطان خير من القعود بين الحيطان

ومن كلام لقمان الحكيم الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما فهاتان القوتان متباينتان ومستويتان فى الانسان بدون راجحية ولا مرجوحية فحب الدعة يبعث الانسان على ان يجر لنفسه جميع ملاذ الحواس وأما الآمال فتبعثه على الحصول على راحة الروح وكمال التمدن والائتناس فالاولى تجمع فى الانسان جميع الملاذ البدنية وتسقطه فى حضيض الانسانية وتوصله الى درجة الحيوانية

تزوجت البطالة بالتوانى * فأولدها غلاما أو غلامه
فأما الابن لقبه بفقر * وأما البنت سماها ندامه

(وقال آخر)

كان التوانى زوّج العجز بنته * فساق اليها حين زوّجها مهرا
فراشا وطيئا ثم قال لها اتكى * فلاشك بعد الحمل ان تلدى الفقرا

وآمال الروح النورانية تجمع فيه جميع أنواع السلطنة العقلية وترقيه وتقربه من الدرجة الملكية الكاملة

انهض وسر طالب المعالى * بكل واد وكل مهمه
وان نحا عاذل جهول * فقل له يا عذول مه مه

وهاتان اللذتان المتباينتان يظهر أثرهما فى جميع البشر فترى هذا الاثر فيهم على اختلاف درجاتهم قد انبسط وانتشر فيوجدان على حد سواء فى افراد الملوك والرعايا الان لذة العمل منحة الهية ولذة الدعة محنة شهوانية

مطلب كون وجوه المكاسب والمنافع تعليم والهام من الله تعالى

وقد علمنا سبحانه وتعالى وجوه المكاسب والمنافع وألهمنا دقائق الفنون والصنائع حيث مدح السعى وذم البطالة بقوله تعالى وان ليس للانسان الا ما سعى وقال تعالى فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله أى اطلبوا المعاش الذى فيه قوامكم وفضل الله هو رزقه الذى تفضل به على عباده وأباحه بالبيع والتجارات المشروعة قال سعيد بن جبير رضى الله عنه اذا انصرفت من الجمعة فخرجت من المسجد فساوم بالشئ وان لم تشترا انتهى فلا خلاف فى ان طلب الرزق مشروع قال صلى الله عليه وسلم اطلبوا الرزق فى خبايا الارض وانما الكلام فى ان التكسب بعد الطلب هل يدخل فى حد الفرض وجوابه ما قاله الامام الراغب من ان التكسب فى الدنيا وان كان معدودا من المباحات من وجه فانه من الواجبات من وجه وذلك انه اذا لم يكن للانسان استقلال بالعبادة الا بازالة ضروريات حياته فازالتها واجبة لان كل ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب كوجوبه واذا لم يكن له الى ازالة ضرورياته سبيل الا بأخذ تعب من الناس فلا بد ان يعوضهم تعباله والا كان ظالما فمن توسع فى تناول عمل غيره فى مأكله وملبسه ومسكنه وغير ذلك فلا بد ان يعمل لهم عملا بقدر ما يتناوله منهم والا كان ظالما لهم قصدوا افادته أو لم يقصدوها ومن أخذ منهم المنافع ولم يعطهم نفعا فانه لم يأت بأمر الله تعالى فى قوله عز وجل وتعاونوا على البر والتقوى ولم يدخل فى عموم قوله تعالى والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض

مطلب ذم من يعطل من المتصوفة أبواب المكاسب

ولهذا ذم من يدعى التصوف فيتعطل عن المكاسب ولا يكون له علم يؤخذ عنه ولا عمل صالح فى الدين يقتدى به بل يجعل همه فى قضاء شهواته ولذاته فانه يأخذ منافع الناس و يضيق عليهم معاشهم ولا يرد اليهم نفعا فلا طائل فى أمثالهم الان يكدروا الماء و يغلوا الاسعار اه وقال الجنيد رحمه الله تعالى اذا رأيت الفقير يطلب السماع فاعلم ان فيه بقية من البطالة والله لا يحب الرجل البطال فان من تعطل وتبطل فقد انسلخ عن الانسانية وصار من جنس الموتى وذلك ان الله خص الانسان بالقوى فالقوة الفكرية

مطلب كون القوة الفكرية تطالب صاحبها بالعلوم والصنائع

تطالبه بالعلوم التى تهديه و بالصنائع التى يترتب عليها من المكاسب والمنافع ما يرضيه و يصونه و يحميه فحق الانسان ان يتأمل بقوة فكره و يسير بقدر ما يطيقه فيسعى لما يفيده السعادة و يتحقق ان سعيه سبب انتقاله من الذل إلى العز ومن الفقر الى الغنى ومن الضعة الى الرفعة ومن الخمول الى النباهة وكان النبى صلى الله عليه وسلم يتعوذ بالله تعالى من الكسل وقال بعض الحكماء من تخلق بالكسل فلينسل عن سعادة الدارين وكان أبو مسلم الخراسانى فى مبادى خروجه للدعوة لبنى العباس ينشد هذا البيت

فلا أؤخر شغل اليوم عن كسل * الى غد ان يوم العاجزين غد

ومن كلام ازدشير بن بابك كسرى الفرس شهد الجهد أحلى من عسل الكسل يعنى ان الشهد الحاصل بالجهد أحلى من الكسل الشبيه بالعسل فى ميل النفس اليه والتذاذها به وقال بعض العقلاء راحتى فى جراحة راحتى أى بالشغل ومن شأن البطالة انها تبطل الهيآت الانسانية فان كل هيئة بل كل عضو ترك استعماله يبطل كالعين اذا غمضت واليد اذا عطلت فان الاعضاء خلقت لحكم فى كل شئ فان الله سبحانه وتعالى لما جعل للحيوان قوة التحرك لم يجعل له رزقا الا بسعى ما منه لئلا تتعطل فائدة ما جعله له

مطلب الامر بمباشرة السبب فى حصول السيدة مريم على تناول الرطب

من قوة التحرك ولما جعل للانسان الفكرة ترك له من كل نعمة أنعمها عليه من الاعضاء ما يصلحه حينئذ بفكرته لئلا تبطل فائدة الفكرة فيكون وجودها عبثا

وتأمل حال السيدة مريم عليها السلام وقد جعل لها من الرطب ما كفاها مؤنة الطلب ولم يحن لها النخلة وفيه أعظم معجزة فانه تعالى أمرها بهزها فقال وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا وقد أخذ بعضهم منه اشارة الى ان الرزق من الله تعالى ولكنه مسبب تسببا عاديا عن الطلب من العبد ومباشرة أسبابه فقال

الم تر

ألم تر ان الله قال لمريم * وهزى اليك الجذع تساقط الرطب
ولوشاء أحنى الجذع من غير هزه * اليها ولكن كل شئ له سبب

وعن أبي الاسود الدئلي

وما طلب المعيشة بالتمنى * ولكن الق دلوك فى الدلاء
تجيء بملئها طورا وطورا * تجيء بحمأة وقليل ماء

وقد ورد فى الخبر عن خير البشر انه قال ان الله تعالى يقول يا عبدى حرك يدك أنزل عليك الرزق وكون حركة العبد من الله تعالى لا ينافى طلبها من العبد كيف وهو مأمور بها وحقيقة الامر الطلب وحركة العبد ايضا من الله تعالى ولا ينبغى ان يتوهم ان الامر الوارد فى قوله صلى الله عليه وسلم توكلوا على الله بالتوكل الذى مرجعه الى ان يوكل الامر كله الى مالكه والتعويل على وكالته يستلزم النهى عن التوسل بالكسب وأسبابه لان التوكل اسقاط الاسباب عن حيز الاعتداد بها والاعتماد عليها والاستظهار بادخار الذخائر لا اسقاطها عن حيز الامداد على الوجه المعتاد وقد أشار صلى الله عليه وسلم الى ان التوكل ليس التعطيل بل لابد فيه من التوسل بنوع من السبب حيث قال لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا فان الطير ترزق بالطلب والسعى نعم انه لا ينبغى الافراط فى الكد وصرف النظر عن الاستراحة بعض الاحيان يشهد لذلك حديث ان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى والى هذا أشار بعض الشعراء بقوله

لعمرك ما كل التعطل ضائر * ولا كل شغل فيه للقلب منفعه

ومن جملة حسن السعى طلب تكثير التناسل والتوالد وقضاء اللذة المباحة بالتزاوج والتوالد وهذه المزية هى خلاصة اللذة الشهوانية فهى مزية ممدوحة وليس عنها فى بقاء النوع البشرى مندوحه ومن حكمة هذه اللذة حب الذكر والانثى بعضهما البعض للائتلاف والنسل والتمتع بما أحله الله تعالى فلاشك ان بين الذكر والانثى روابط التلذذ المباح ويشتد الشوق بينهما ولو على بعد التزاوج كما قال الشاعر

مطلب ان اللذة الشهوانية ممدوحة من جهة بقاء النسل والتأنس فقط

يا نسيمات مشكور الربا * أهدت الاشواق مسراه الى
وبريقا لاح من نحوهم * حاكيا ذاك السنا من ثغر مى
آه واشوقى الى من قد غدا * بصرى يلقاهم فى كل شى

واذا لم يجتليسم ناظري * أي نفع لي اذا في ناظري
لو قطعت الدهر وصلا كان لي * قدر ما يثبت للطائر في

فأصل الحب يولد في قلب المتحابين الانبساط والانشراح وفي ميل أحد الزوجين للآخر كمال الارتياح وفيما أودع الله في الانثى والذكر من الذوق والشوق والتوق ما لا ينكر وان اختلفت الرجال والنساء في الفضائل والنعمات والصفات والشمائل

(الباب الثاني في الصفات المشتركة بين الذكور والاناث والمخصوصة)
(بأحد الفريقين وفيه فصول)

(الفصل الاول في اشتراك المرأة والرجل في بعض الصفات)
(وافتراقهما في بعض آخر)

من المعلوم ان فضائل الناس من حيث هم ناس انما هي العقل والعفة والعدل والشجاعة وهي فضائل الانسان الحقيقية الاصولية وغيرها كالوفاء داخل فيها فما هو داخل في جملة العقل ثقابة المعرفة والحياء والبيان والصدع بالحجة والسياسة والعلم والحلم وغير ذلك مما يجري هذا المجرى ومما هو داخل في العفة القناعة وقلة الشره وطهارة الازار وما أشبه ذلك من أقسام العفة ومن أقسام الشجاعة الحماية والاخذ بالثار والدفاع والنكاية والمهابة والنصرة على الاقران والسير في المهامه والقفار وما أشبه ذلك ومن أقسام العدل السخاء والسماحة والصبر على التغابن والانظلام والتبرع بالنائل واجابة السائل وقرى الاضياف وما أشبه ذلك وأما تركيب هذه الاقسام بعضها مع بعض فيحدث منها ستة أقسام فاذا تركب العقل مع الشجاعة حدث عنه الصبر على الملمات ونوازل الخطوب والوفاء بالوعد واذا تركب العقل مع السخاء الذي هو من صفات العدل نشأ عنه انجاز الوعد وما أشبه ذلك واذا تركب العقل مع العفة نشأ عنه التنزه والرغبة عن المساكة والاقتصار على ما يتيسر من المعيشة واذا تركبت الشجاعة مع السخاء الذي هو قسم من أقسام العدل حدث عنه الاخلاف والاتلاف وما أشبه ذلك واذا تركبت الشجاعة مع العفة نشأ عنها انكار الفواحش والغيرة على الحرم واذا تركب السخاء مع العفة حدث عنه الاسعاف بالقوت والايثار على النفس وما أشبه ذلك وكل واحد من تلك الفضائل الاربعة وسط بين طرفين مذمومين كالشجاعة مثلا فانها وسط بين

المجازفة

المجازفة والجبن وهذه الفضائل من حيث هى فضائل انسانية توجد فى الرجال والنساء لكن على وجه مختلف فى طباعهن

وحيث ان هذه الصفات عامة فى جميع أمم الدنيا وقبائلها وأحيائها وذكورها واناثها وان الفضائل الممدوحة منها فى بعض الامم أكمل من غيرها الاان أمة العرب جاهلية واسلاما مشهورة بها فلا ينكر أحد أن السماحة والايثار من خواص العرب وأعظم الايثار مثلا فى قبيلة الانصار الذين أنزل الله سبحانه وتعالى فى حقهم ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة فمما ينقل فى هذا الشأن ماوجده عبد الله بن العباس فى سفره من ايثار بعض نساء الانصار له عن نفسها وعن أولادها بشئ زهيد من القوت لم يكن عندها غيره وذلك ان تميم بن عدى اليربوعى قال كنت مع عبد الله بن العباس عند منصرفه من دمشق فسألته فى بعض الايام وقلت له بماذا يتم عقل الرجل فقال اذا صنع المعروف مبتدئا به وجاد بما هو محتاج اليه وتجاوز عن الزلة وجازى على المكرمة وتجنب مواطن الاعتذار فقد تم عقله فحفظت ذلك منه والصقته بقلبى ثم بعد أيام نزلنا منزلا فطلبنا طعاما فلم نجده ولا قدرنا عليه فان زيادا كان قد نزل بذلك المنزل قبلنا بأيام قليلة فى جمع كثير فأتوا على ما كان فيه من الطعام فقال عبد الله لوكيله اخرج الى هذه البرية فلعل تجد بها راعيا معه طعام فمضى الوكيل ومعه غلمان فأطالوا التوقف فلما كادوا يرجعون لاح لهم خباء فأموه فوجدوا فيه عجوزا فقالوا لها هل عندك طعام نبتاعه منك فقالت أما طعام بيع فلا ولكن عندى أكلة لى وبأولادى اليها أمس حاجة قالوا وأين أولادك قالت فى رعيهم وهذا وقت عودهم فقالوا فما أعددت لهم قالت خبزة هى تحت ملتها أنتظر بها ان يجيئوا قالوا لها فجودى لنا بنصفها قالت لا ولكن بكلها قالوا ولم منعت النصف وجدت بالكل ولا خبز عندك غيرها قالت ان اعطاء الشطر من خبزة نقيصة واعطاء الكل فضيلة فأنا أمنع ما ينقصنى وأجود بما يرفعنى فأخذوا الخبزة لفرط حاجتهم اليها فلما أتوا عبد الله أخبروه خبر العجوز فقال ارجعوا اليها فاحملوها فى دعة وأحضروها فرجعوا اليها وقالوا لها ان صاحبنا أحب ان يراك قالت ومن هو صاحبكم قالوا عبد الله بن العباس قالت ما أعرف هذا الاسم قالوا العباس بن عبد المطلب وهو عم النبى صلى الله عليه وسلم قالت والله هذا الشرف العالى قومى أنصاره قالوا نعم قالت فما يريد منى قالوا يريد أن يكافئك على ما كان منك قالت لقد أفسد الهاشمى ما أثل له ابن عمه عليه السلام والله لو كان مافعلت معروفا لما أخذت عليه ثوابا وانما هو شئ يجب

قوله تحت ملتها بفتح الميم وشد اللام الرماد الحار والجمر اه

على كل انسان ان يفعله قالوا فانه يحب ان يراك و يسمع كلامك قالت أصيراليه لانى أحب ان أرى رجلا من جناح النبي صلى الله عليه وسلم وعضوا من أعضائه فلما سارت اليه رحب بها وأدنى مجلسها وقال ممن أنت قالت من كلب بن وبرة قال كيف حالك قالت لم يبق من الدنيا ما يفرح الا وقد بلغتـه وانى الآن أبيش بالقناعـة وأصون القرابة وأنا أتوقع مفارقة الدنيا صباحا ومساء قال أخبريني ما الذى أعـددت لاولادك عند انصرافهم بعد أخذنا الخبزة قالت أعددت لهم قول العربى

ولقد أبيت على الطوى وأظله * حتى أنال به كريم المأكل

فأعجبـه قولهـا فقال لبعض غلمانه انطلق الى خبـائها فاذا أقبـل بنوها فجـئ بهـم فقالت للغلام انطلق فكن بفناء البيت فانهم ثلاثة فاذا رأيتهم تجد أحـدهم دائم النظر نحو الارض عليه شـعار الوقار فاذا تكلم أفصح واذا طلب أنجح والآخر حديد النظر كثير الحذر اذا وعد فعل وان ظلم قتل والآخر كانه شعلة نار وكانه يطلب بثار فذلك الموت المـائت والداء الكابت فاذا رأيت هـذه الصفة فيهم فقل لهم عنى لا تجلسوا حتى تأتونى فانطلق الغلام فأخبرهم الخبر فـا بعد أمده حتى جاؤا فأدناهم عبـد الله وقال انى لم أبعث اليـكم والى والدتكم الا لاصلح من أمركم وأصنع ما يجب لكم فقالوا ان هذا لا يكون الا عن مسألة أو مكافأة فعل جميل تقدم ولم يصدر منا واحدة منها فان كنت أردت التكرم مبتدئا فعز وفلك مشكور وبرك مقبول مبرور فأمر لهم بسبعة آلاف درهم وعشرة من النوق فقالت لهم العجوز ليقل كل واحد منكم بيتا من قوله فقال الاكبر

شهدت عليك بحسن المقال * وصدق الفعال وطيب الخبر

(فقال الاوسط)

تبرعت بالبذل قبل السؤال * فعال كريم عظيم الخطر

(فقال الاصغر)

وحق لمن كان ذا فعله * بأن يسترق رقاب البشر

(فقالت العجوز)

فعمرك الله من ماجد * ووقيت ما عشت شر القدر

ثم ودعوه وانصرفوا قال تميم اليربوعى فالتفت الى وقال لى يا تمـيم وددت لو وجدت مزيدا فى ابتداء المعروف الى هـذه المرأة وبنيها وجعـل يتأوه من تقصـيره عن مراده

فى

فى ذلك فقلت له لقد أحسنت وأرجحت وقد شهد فعلك بما سبق من قولك فأنت أتم الناس عقلا وأكملهم مروءة

وقد خلق الله المرأة للرجل ليبلغ كل منهما من الآخر أمله ويقتسم معه عمله وجعل المرأة تلطف لزوجها أتراحه وتضاعف أفراحه وتحسن أمر معاشه وتنشط حركة انتعاشه فهى من أجل صنع الله القدير وقرينة الرجل فى الخلقة والمعينة له على أول حركات التدبير والحافظة لاطفاله والقائمة بأمر عياله والمسلية له فى أيام حياته فى اقباله وغير اقباله فالمرأة وان كانت مخلوقة للاذ الرجل فغيما عدا هذه الملاذ مثله سواء بسواء أعضاؤها كاعضائه وحاجتها كحاجته وحواسها الظاهرة والباطنة كحواسه وصفاتها كصفاته حتى كادت ان تنتظم الانثى فى سلك الرجال أوليس ان ناسوت الرجل والمرأة فى الخلقة على حذ سواء وهيكلهما مستو فى الترتيب والتنظيم وتناسب الحركات والاعضاء ومشابهتهما فى الشكل معلومة وفى الهيئة مفهومة فاذا أمعن العاقل النظر الدقيق فى هيئة الرجل والمرأة فى أى وجه كان من الوجوه وفى أى نسبة من النسب لم يجد الا فرقا يسيرا يظهر فى الذكورة والانوثة وما يتعلق بهما فالذكورة والانوثة هما موضع التباين والتضاد

وانما يشق عمل المقايسة بين الذكر والانثى على من لم يعلم تركيب أعضاء كل منهما وتمييز ما يخص جنسهما ولا ما يشتركان فيه من الصفات التى لا تعلق لها بالجنسية فان جميع متعلقات الذكورة والانوثة متباينة وأما الاشتراك فهو وجه المشاكلة ولكل من المباينة والاشتراك تأثير ومىعلى صفاتهما المعنوية ومنها تنتج الافضلية بالنظر للمشاركة أو المباينة

ثم ان للمرأة بقطع النظر عن تباين الجنس صفات أخرى تتميز بها عن الرجل وان كانت أغلبية فان قامتها فى الغالب دون قامة الرجل وخاصرتها أنحف من خاصرته وأرشق منها ورأسها بالنسبة لبدنها أقل حجما من رأسه بالنسبة لبدنه وسعة صدرها دون سعة صدره وبدنها أشد بريقا من بدنه وأنعم وأنور وفيها من اللين واللطف والرخاوة ما ليس فيه وكتفاها وثدياها وجميع اعضائها على العموم تلين وتنعطف وفيها استدارة جميلة وبالجملة فالمرأة ألطف شكلا من الرجل

مطلب تمييز المرأة عن الرجل بصفات غير الجنسية

فهذه الصفات مميزات جنس الانثى عند غالب الامم لاسيما عند أمم الاقاليم المعتدلة التى ليست شديدة الحرارة والبرودة فالرجل يدرك من أول وهلة من المرأة التى تشاركه

فى ملاذه وتدبير معايشه تلطفها وانعطاف حركاتها وميسها وميلها واعتدالها ونظرها اليه بالحاظ لطيفة واشارات خفيفة نظرا مخصوصا واذا تكلمت أدرك من صوتها نغما أرق من صوت الرجال رخيما مع ما فى المرأة عند الخطاب من الخفر والتيه والدلال ورقة الحاشية قال بعضهم

ترى الدر منظوما اذا ما تكلمت * وكالدر منظوما اذا لم تكلم
تعبد أحرار القلوب بدلها * وتملأ عين الناظر المتوسم

(وقال آخر)

فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها * ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

وكل هذا مصحوب منها بنوع من الضعف والتذلل والانكسار يؤذن بوجوب الرفق بها والحنان والعطف عليها فيا حبذا هذه المزايا كما قال الشاعر

لولا عجائب صنع الله ما نبتت * تلك الفضائل فى لحم ولا عصب

مطلب نمو ابدان البنات وادراكهن قبل الاولاد المساوين لهن فى السن

وقد استبان من العادة ان المرأة تصل الى درجة استكمال الانوثة والبلوغ فيها قبل الرجل وتستكمل درجة النمو فى زمن أقل مما ينمو فيه الرجل ففى سن العشرين تحوز المرأة جميع ما يكون به بهاء جمالها ورشاقة قدها واعتدالها وفى هذا السن تبلغ المرأة جميع مناها مما يختص به جنسها ولما كانت الانثى تحفظ مدة طويلة استدارة أعضائها واندماجها من حال صغرها كانت فى غالب الاحيان تبقى أيضا مدة طويلة على جمالها ولطافة شكلها ولين عروقها وأعصابها حافظة لكل ما يعطى لبشرتها اللين واللون والبريق من كل ما يميزها عن الرجل ولكن مجموع عضلاتها قليل الانبساط والتمدد فبهذا لم تكن مستعدة لان تشترك مع الرجل فى الاشغال الشاقة كالحرث والحرب والركض والخبب وأما من حيث قوة أعصابها فهى دقيقة الحواس سريعة الاحساس وبدقة حواسها القوية التأثير السريعة الانفعال لا تطول مدة الاحساس عندها ولا تمكث كاحساس الرجل لان تواتر المحسوسات على الحواس القوية التأثير يمحو بعضه بعضا

مطلب قلة وجود الصفات الحادة فى النساء ما عدا الغيرة فيهن

وأما وجود الدم فى المرأة فليس قويا كما فى الرجال فلهذا قل ان يوجد فى النساء البنية الصفراوية ولما كان النساء مقصورات على الشفقة والرحمة والعطف والحنان والرفق واللين كن غالبا مستعذات للتنزه عن العوائد الخشنة والاخلاق الغليظة والصفات المذمومة المجتمعة فى أمزجة الرجال كالغضب والحقد والبغضاء والشقاق وانما

أعظم

أعظم مافيهن الغيرة التى لا تكاد تخلو منها واحدة وقد يشترك معهن فى الغيرة الرجال والغيرة على العرض ممدوحة ففى الحديث الغيرة من الايمان أورده أبو سعيد الخدرى مرفوعا ولذا قيل من لا غيرة له لا دين له ولا مروءة ولا يتأهل بشئ من أنواع الكمال بوجه من الوجوه لكن الافراط فيها بغلبة القوة الغضبية والتفريط فيها بانعدامها أو ضعفها مذموم جدا قال بعضهم ممن لا يغار على محبوبه

يطالبنى فى حبه كل ماجد * يشاركنى فى مهجتى بنصيب
فلا تلزمونى غيرة ما ألفتها * فان حبيبى من أحب حبيبى

والظاهر ان مثله ليس من ذوى المحبة الصادقة لان المحب غيور وأين هذا المحب من مجنون ليلى حيث يقول

أغار على ليلى لانى أحبها * أغار على شئ يعز على قلبى

(ومن غيرة يزيد بن الاصفر حيث يقول)

أغار على أعطافها من ثيابها * اذا ألبستها فوق جسم منعم

(وقول الآخر)

أغار اذا آنست فى الحى أنة * حذارا وخوفا ان تكون لحبه

(وقول الآخر)

أغار عليك من نظرى ومنى * ومنك ومن مكانك والزمان
ولوانى خبأتك فى جفونى * الى يوم القيامة ما كفانى

وفى الحديث ان الله كتب الغيرة على النساء أى جعلها طبيعة فى قلوبهن فالغيرة غريزة قوية مركوزة فى نفوسهن ويقابلها من المحاسن قوة حبهن للوالدين والاولاد والازواج وفى الغالب ان قوة الغيرة كقوة ذلك الحب تبلغ منهن الى أقصى الدرجات حتى يستحيل كل من هاتين القوتين فيهن مع ماجبلن عليه من الجبن الى شجاعة الرجال وحماسة الابطال وبالجملة فبنية النساء على هذا النظام توجب كونهن ألطف من الرجال طبعا وأرق حاشية وانما يعتريهن التغيير والتبديل من أمور أجنبية تطرأ عليهن من مزاج القطر ومن التربية ومن أحوال المعيشة ومن الترويضات والاعتيادات ومع هذا كله فطباعهن فى القوة والعنفوان دون طباع الرجال

(١) وفى مبدأ شبوبية الذكور والاناث يترا آى انهما يشتركان فى الصفات الخارجة كالحسن والجمال واللطافة والظرافة من كل ما يجذب الانسان للمحبة والميل الى الطرفين

١ مطلب اشتراك الذكور والاناث فى مبادى الشبوبية والحسن والجمال وفقدها من الذكور عند بلوغهم فى الرجولية الكمال

ولكن هذه المشاكلة الظاهرية تكون وقتية تمحى عندما يبلغ كل منهما سنا يبدو منه ما أعده المولى سبحانه وتعالى لكل من الذكر والانثى من الاستعداد الحقيقي والمعنى الصحيح الذي خلق كل منهما لاجله فينقطع عرق التشابه والتشاكل بين الذكر والانثى بالكبر ويرجع كل منهما الآن يتميز بصفاته الشخصية ويتباين بالكلية في السمات والاوصاف ويصير حال كل منهما على طرفي نقيض مع كمال الاختلاف فيختلف ذوقهما ويميل كل الى ما خلق لاجله فينتهي أمر الذكر عما قريب بفقد الشكل الاول الذي كان يتراآى اشتراكه فيه مع الانثى من نحو الوسامة والوضاءة ولذلك قال بعضهم فيمن ذهبت وضاءته بالسن

كان بدرا وكان قلبي أفقا * ومليكا ولا أخالف أمره
فاعتراه الكسوف والملك ولى * عظم الله في المحاسن أجره

وقال آخر ممن كان عنده من الملاحة نصيب فغيره الزمان يخاطب محبوبه المنظوم في سلك الحسان

تتيه علينا مذ رزقت ملاحة * رويدك يكفي بعض صدك يا بدر
فيا طالما كنا ملاحا وطالما * صددنا وتهنا ثم غيرنا الدهر

مطلب ما تقتضيه قوة الصفات العقلية في النساء من صفة جاذبية اختصاصهن بسرعة تمييز الدقائق المعنوية وحسن نادرتهن في لطيف المحاورات

وأما الانثى فانها تستمر على نمو بدنها ونضارته وانضمام بعض أعضائها الى بعض مع التحسين المتزايد على وجه يبهر العقول ويسحر الالباب فلا تزال اشكال أعضائها آ في النضارة والجمال والحسن والاعتدال بما تقتضيه طبيعة الانوثة من استكمال الصفات الذاتية التي خصتها بها الحكمة الالهية حيث أودعت فيها من أصل الفطرة صفة جاذبية

ومما يوجد في الانثى قوة الصفات العقلية وحدة الاحساس والادراك على وجه قوى قويم وذلك ناشئ عن نسيج بنيتها الضعيفة فترى قوة احساس المرأة وزيادة ادراكها تظهر في الاشياء التي تظهر ببادئ الرأي انها أجنبية عنها وانها فوق طاقة فهمها فتجدها على أكمل درجات الادراك من كل ما يوافق ذوقها وملاذها وما يليق بها وتميل اليه طباعها فلا يفوتها ادراك ذلك ولا يعذب عن علمها وفهمها منه مثقال ذرة وأما الرجل فلا يكاد ان يدرك ما تميل اليه طباع المرأة ويوافق ذوقياتها الا بممارسة جسيمة وتجاريب عديدة فهو جدير بان يتلقى ذوق الملاذ والتنعمات عنها فهن أساتيذ الرجال في هذا المعنى وفن المؤانسة والمجانسة المعتاد في مجامع الانس والسرور والتأنس البشري

البشرى واللياقات الدقيقة هوطوع أذنها تفهم جزئياته بأدنى اشارة وأخصر عبارة مما لا يكاد يدركه الرجل الا بصريح العبارة ويصعب عليه ان يفهمه غالبا على حقيقته وسبب ذلك ان ميل النساء بالطبع الى ما يوافق ذوقهن وقوة مزاجهن يسهل عليهن الفهم ويجعلهن فى ذلك أرقى من الرجال أرباب العقول فلهذا كانت التربية الاولية للابناء مخصوصة بهن حتى ان ما يشتهر به فحول الرجال والابطال من العز والفخار وشرف النفس والاعتبار هو فى الاصل مكتسب من تربية ربات الحجال لاسيما جلب رقة المجالس الانسية ومسامرة الجمعيات التأنسية

فعقل النساء الغريزى وسهولة ادراكهن مما يلطف الجمعيات الانتاسية وعقولهن القوية الادراك تسد بعض الاحيان مسد المعارف التى تجهلها النساء فاذا كانت الانثى مع عقلها الغريزى ذات معارف كافية وظرائف شافية زادها عقلها كمالا على ما تعرفه وبما فيها من الذكاء تدرك حقائق الاشارات ودقائق الكنايات ورقائق التوجيهات والتلميحات وتؤول المعنى الذى تسمعه بأحسن التأويلات والتوريات وتقتدر على التلميح والتعريض والتورية فى الخطابات والمحاورات

وليس ذكاؤهن مقصورا على أمور المحبة والوداد بل يمتد على ادراك أقصى مراد وقصة مهلهل أقوى دليل وذلك ان مهلهلا أخا كليب لما قتل أخوه كليب شمر فى أخذ ثاره وقامت حرب البسوس أربعين سنة ثم انه نزل على بنى مذحج فأجاروه من بكر بن وائل وكان الذى أجاره معاوية الخير فلما ان قام فيهم اشترى عبدين يغزوان معه فلما طال عليهما أمره أحبا الراحة منه فأجمعا على قتله فقال لهما ان كنتما فاعلين فأبلغا عنى هذه الرسالة الى أهلى فقالا هات رسالتك فقال

فراسة بنت مهلهل فى فهمها قتل العبدين لابيها

من مبلغ عنى بأن مهلهلا * لله دركما ودر أبيكما

فلما قتلاه وانصرفا قالوا لهما ما فعل سيدكما قالا مات بأرض كذا فدفناه بها الارض سمياها فقيل لهما هل أوصى بشىء حين مات قالا أوصانا بكيت وكيت وأنشدا البيت فلم يدر أحد ما أراد وقالوا ما هذا بشعر مهلهل فقالت ابنته ما كان أبى ردىء الشعر ولا سفاف الكلام وانما أراد أن يخبركم بان العبدين قتلاه فقيل لها من أين لك هذا قالت قال

من مبلغ عنى بان مهلهلا * أضحى قتيلا بالفلاة مجندلا
لله دركما ودر أبيكما * لا يبرح العبدان حتى يقتلا

فقرر العمدان فأقرا فقتلا به فبتكميلها البيتين بالشطرين صح أنها سر أبيها ولو كانت ذكرا نبيها ربما كان يقصر جهده عن ذلك تنبيها

ونظير ذلك مايحكى ان امرأة من نساء بغداد جازت بمحل بين الرصافة والجسر فمرت برجل فقال لها رحم الله علي بن الجهم فأجابته رحم الله المعري ثم تركته وانصرفت ولم يدر من سمع ذلك ما أراد كل منهما بذلك فكانت اشارته الى قول علي بن الجهم

عيون المها بين الرصافة والجسر * جلبن الهوى من حيث أدري ولا تدري

وكانت اشارتها في الرد عليه الى قول أبي العلاء المعري

فيا دارها بالخيف ان مزارها * قريب ولكن دون ذلك أهوال

وقد يخطر للبنات المعاني الرقيقة الموافقة لمقتضى الاحوال موافقة غريبة كما يحكى ان بنتا من بنات اليمن كان لها أخ يسمى ضياء فقاتل في هذه الازمان القريبة العهد في معركة بمحل يقال له العيون فقتل هناك فنعته أخته ببيتين في غاية الحماس والرقة حيث قالت

حماس بيتين لبنت عامية ترثي أخاها

طاح في معرك العيون ضياها * فبكت فقده بدمع هتون

لم يكن عاشقا ولكن تقيا * فلماذا غدا قتيل العيون

فهذا هو السحر الحلال الصادر عن ربة الحجال ومن ذلك مايحكى عن المتلمس الشاعر انه غاب خائفا من بني النعمان بن المنذر غيبة طويلة لانه كان هجاهم فأشيع موته وكانت زوجته أميمة جميلة فأشار عليها أهلها بالزواج فأبت فألحوا عليها حتى زوجوها رجلا من قومها وكانت تحب المتلمس فلما كانت ليلة زفافها قدم المتلمس ليلا فسمع في الحي صوت طبل وهمرجة فرح فسأل عن ذلك فقيل له ان فلانة زوجة المتلمس زوجت من غيره وها هو داخل عليها فتحيل المتلمس حتى دخل في جملة النساء وهي على منصتها فلما رقي العريس اليها لتستملها تنفست الصعداء وقالت

زواج أميمة زوجة المتلمس بآخر حين شاع موته

ألا ليت شعري والحوادث جمة * بأي بلاد أنت يا متلمس

(فاجابها)

بأقرب دار يا أميمة فاعلمي * ومازلت مشتاقا اذا الركب عرسوا

ففطن العريس فنهض خارجا وقال

فكونا بخير ثم بيتا بمثله * خلالكما بيت كريم ومجلس

ومن ذلك مايحكى من تحاكم أبي الاسود الدئلي وزوجته الى القاضي شريح حيث قالت

تحاكم أبي الاسود الدئلي مع زوجته في شأن ولده

في مجلس المحاكمة أيها القاضي اني حملته تسعا ووضعته دفعا وأرضعته شفعا حتى اذا تمت أوصاله ودنا فصاله أراد أن يأخذه كرها ويتركني بعده ورها فقال أبو الاسود اني حملته قبل ان تحمليه ووضعته قبل ان تضعيه فقالت حملته خفا وحملته ثقلا ووضعته شهوة ووضعته كرها ان بطني كانت له حواء وثديي سقاء ويدي وقاء ورجلي حذاء فقال أيها القاضي انما أعطيتها مهرا كاملا ولم أصب منها طائلا الا ولدا خاملا فافعل ما رأيت فاعلا فقضى لها القاضي عليه

حمران الجعدي وزوجته ودقة المحاورة بينهما

وقد اجتمع في كل من حمران الجعدي وزوجته صدوف حسن الادراك وكمال الادب في الدقائق المعنوية وذلك ان حمران كان رجلا لسنا ماردا وانه خطب صدوف وهي امرأة كانت تؤيد الكلام وتسجع في المنطق وكانت ذات مال كثير وقد أتاها قوم كثير يخطبونها فردتهم وكانت تعنت خطابها في المسألة وتقول لا أتزوج الا من يعلم ما أسأله عنه ويجيبني بكلام على حدة لا يعدوه فلما انتهى اليها حمران قام قائما لا يجلس وكان لا يأتيها خاطب الا جلس قبل اذنها فقالت ما يمنعك من الجلوس قال حتى يؤذن لي قالت وهل عليك أمير قال رب المنزل أحق بفنائه ورب الماء أحق بسقائه وكل له ما في وعائه فقالت اجلس فجلس قالت له ما أردت قال حاجة ولم آتك لحاجة قالت تسرها أم تعلنها قال تسر وتعلن قالت فما حاجتك قال قضاؤها هين وأمرها بين وأنت بها أخبر وبنجحها أبصر قالت فاخبرني بها قال قد عرضت وان شئت بينت قالت من أنت قال أنا بشر ولدت صغيرا ونشأت كبيرا ورأيت كثيرا قالت فما اسمك قال من شاء أحدث اسما وقال ظلما ولم يكن الاسم عليه حتما قالت فمن أبوك قال والدي الذي ولدني ووالده جدي فلم يعش بعدي قالت فما مالك قال بعضه ورثته وأكثره اكتسبته قالت فمن أنت قال من بشر كثير عدده معروف ولده قليل صعده يفنيه أبده قالت ما ورثك أبوك عن أوليه قال حسن الهمم قالت فأين تنزل قال على بساط واسع في بلد شاسع قريبه بعيد وبعيده قريب قالت فمن قومك قال الذين انتمي اليهم وأجني عليهم وولدت لديهم قالت فهل لك امرأة قال لو كانت لي لم أطلب غيرها ولم أضيع خيرها قالت كأنك ليست لك حاجة قال لو لم تكن لي حاجة لم أنخ ببابك ولم أتعرض لجوابك وأتعلق بأسبابك قالت انك لحمران بن الاقرع الجعدي قال ان ذلك ليقال فزوجته نفسها وفوضت اليه أمرها ثم انها ولدت له غلاما فسماه عمرا فنشأ ماردا مفوها

مسامرة الجعفاء وصويحباتها في روضة أنيقة يذكرن أوصاف الازواج والزوجات بعبارات رشيقة

*ومن ذلك حكاية الجعفاء بنت علقمة السعدي وذلك انها وثلاث نسوة من قومها خرجن

يطلبن روضة يتحدثن فيها فوافين بها ليلا في قمر زاهر وليلة طلقة ساكنة وروضة معشبة خصبة فلما جلسن قلن ما رأينا كالليلة ليلة ولا كهذه الروضة روضة أطيب ريحا ولا أنضر ثم أفضن في الحديث فقلن أي النساء أفضل قالت احداهن الخرود الودود الولود قالت الاخرى خيرهن ذات الغناء وطيب الثناء وشدة الحياء قالت الثالثة خيرهن السموع الجموع النفوع غير المنوع قالت الرابعة خيرهن التي لاهلها جامعة الوادعة الرافعة لا الواضعة قلن فأي الرجال أفضل قالت احداهن خيرهم الحظي الرضي غير الحظال (الحظال المقتر الذي يحاسب أهله بما ينفق عليهم) ولا النبال قالت الثانية خيرهم السيد الكريم ذو الحسب الصميم والمجد القديم قالت الثالثة خيرهم السخي الوفي الرضي الذي لا يغير الحرة ولا يتخذ الضرة قالت الرابعة وأبيكن ان في أبي لنعتكن كرم الاخلاق والصدق عند التلاق والفلج عند السباق (الفلج بسكون اللام الظفر) ويحمده أهل الرفاق قالت العجفاء عند ذلك كل فتاة بأبيها معجبة

وفي بعض الروايات ان إحداهن قالت ان أبي يكرم الجار ويعظم النار (أي نار القرى) وينحر العشار بعد الحوار ويحمل الامور الكبار فقالت الثانية ان أبي عظيم الخطر منيع الوزر عزيز النفر يحمد منه الورد والصدر فقالت الثالثة ان أبي صدوق اللسان كثير الاعوان يروي السنان عند الطعان قالت الرابعة ان أبي كريم النزال منيف المقال كثير النوال قليل السؤال كريم الفعال. ثم تنافرن الى كاهنة معهن في الحي فقلن لها اسمعي ما قلنا واحكمي بيننا واعدلي ثم أعدن عليها قولهن فقالت لهن كل واحدة منكن ماردة على الاحسان جاهدة لصواحباتها حاسدة ولكن اسمعن قولي خير النساء المبقية على بعلها الصابرة على الضراء مخافة ان ترجع مطلقة الى أهلها فهي تؤثر حظ زوجها على حظ نفسها فتلك الكريمة الكاملة وخير الرجال الجواد البطل القليل الفشل اذا سأله الرجل ألفاه قليل العلل كثير النفل (أي العطاء والهبة) ثم قالت كل واحدة منهن بأبيها معجبة فأرسلته مثلا * وأحسن وصف في الازواج وفي أحوالهن ما ذكره الترمذي في الشمائل في باب السمر من حديث أم زرع الآتي وهو عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت جلس إحدى عشرة امرأة تعاهدن وتعاقدن ان لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئا (١) قالت الاولى زوجي لحم جمل غث على رأس جبل وعر لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل (٢) قالت الثانية زوجي لا ابث

حديث أم زرع ومسامرة إحدى عشرة امرأة تعاهدن ان يذكرن أوصاف أزواجهن

لا أبث خبره انى اخاف ان لا أذره ان أذكره أذكر عجره وبجره (٣) قالت الثالثة زوجى العشنق ان أنطق أطلق وان أسكت أعلق (٤) قالت الرابعة زوجى كليل تهامه لا حر ولا قر ولا مخافة ولا سآمة (٥) قالت الخامسة زوجى ان دخل فهد وان خرج أسد ولا يسأل عما عهد (٦) قالت السادسة زوجى ان أكل لف وان شرب اشتف وان اضطجع التف ولا يولج الكف ليعلم البث (٧) قالت السابعة زوجى عياياء أو غياياء طباقاء كل داء له داء شجك أو فلك أو جمع كلا لك (٨) قالت الثامنة زوجى المس مس أرنب والريح ريح زرنب (٩) قالت التاسعة زوجى رفيع العماد عظيم الرماد طويل النجاد قريب البيت من الناد (١٠) قالت العاشرة زوجى مالك وما مالك خير من ذلك له ابل كثيرات المبارك قليلات المسارح اذا سمعن صوت المزهر أيقن انهن هوالك (١١) قالت الحادية عشر زوجى أبو زرع فما أبو زرع أناس من حلى أذنى وملأ من شحم عضدى وبجحنى فبجحت الى نفسى وجدنى فى اهل غنيمة بشق فجعلنى فى أهل صهيل وأطيط ودائس ومنق فعنده أقول ولا أقبح وأرقد فأتصبح وأشرب فأتقمح أم أبى زرع فما أم أبى زرع عكومها رداح وبيتها فساح ابن ابى زرع فما ابن أبى زرع مضجعه كمسل شطبة وتشبعه ذراع الجفرة بنت أبى زرع فما بنت أبى زرع طوع أبيها وطوع أمها وملء كسائها وغيظ جارتها جارية أبى زرع فما جارية ابى زرع لا تبث حديثنا تبثيثا ولا تنقث ميرتنا تنقيثا ولا تملأ بيتنا تعشيشا قالت خرج أبو زرع والاوطاب تمخض فلقى امرأة معها ولدان لها كالفهدين يلعبان من تحت خصرها برمانتين فطلقنى ونكحها فنكحت بعده رجلا سريا ركب شريا وأخذ خطيا وأراح على نعما ثريا وأعطانى من كل رائحة زوجا وقال كلى أم زرع وميرى أهلك فلو جمعت كل شئ أعطانيه ما بلغ أصغر آنية أبى زرع قالت عائشة رضى الله عنها فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت لك كابى زرع لام زرع

(تفسير الغريب من حديث أم زرع واسمها عاتكة وهى من النساء الاحدى عشرة)

(١) فأما قول الاولى لحم جمل غث بفتح المعجمة وتشديد المثلثة أى هزيل والمقصود المبالغة فى قلة نفعه على رأس جبل وعر أى يصعب وصولها اليه لا ينفعها فى عشرة لانه سيئ الخلق مكر ومتكبر وبينت وجه الشبه بقولها لا سهل فيرتقى أى يصعد اليه ولا سمين فينتقل أى يرغب الناس عن نقله لهزاله مع صعوبة الوصول اليه فلا مصلحة فى عشرته لها

(٢) وقول الثانية اني أخاف ان لا أذره العجر إما المخبر ومعناه انه طويل وأذره حينئذ بمعنى أتمه وإما الزوج وتكون لا زائدة على حدّ ما منعك أن لا تسجد وأذر بمعنى أترك أرادت الطلاق وعجره وبجره بوزن هبل أرادت عيوبه

(٣) وقول الثالثة زوجي العشنق بفتوحتين ثم نون مشددة وقاف هو الطويل النحيف أو السيئ الخلق وأعاق أي يصير في معلقة لا بعل لي يراعي حالي ولا أتوقع ان أتزوج

(٤) وقول الرابعة كليل تهامة الى آخره تريد انه حسن الاخلاق سهل الامر كامل معتدل والقر بفتح القاف البرد ولا مخافة ولا سآمة أي ليس فيه شر يخاف ولا خلق يوجب الملل من صحبته

(٥) وقول الخامسة فهد تريد أنه يتغافل كرما وحلما وهو فعل من باب فرح أي أشبه الفهد في كثرة نومه وأسد من باب طرب صار كالاسد ولا يسأل عما عهد تريد انه كريم الطبع بعيد الهمة حسن العشرة لين الجانب في بيته لا يتفقد شيئا من أحوال منزله

(٦) وقول السادسة لف أي خلط في أنواع الطعام فالمعنى يمنع حق العيال ويؤثر أكل الطعام بالاستقلال وكذلك قولها اشتف معناه على الذم يشرب الشربة وحده ولا يترك منها العياله إذ الشفافة بضم الشين المعجمة بقية الماء في قرار الاناء يقال لمن شربها اشتفها والتف أي في ثيابه تريد نام في عزلة منها ولا يولج الكف ليعلم البث أي الحزن تريد أنه لا شفقة له فاذا وجدها عليلة لم تمس يده جسمها ليعلم ما بها

(٧) وقول السابعة عياياء بمهملة مفتوحة وتحتيتين العاجز عن احكام أمره وقوله أو غياياء أو للشك بالغين المعجمة بمعنى ما قبله وطباقاء بفتح أوله ممدودا الاحمق وكل داء له داء تريد أن أدواء الناس المتشتتة فيهم مجموعة فيه وشجك أو فلك الشج الجرح والفل الكسر تريد أنه ما ضرب إلا جرح أو كسر والخطاب في الفعلين لنفسها أو جمع كلا لك أي كلا من الشج والفل تعني انه تارة يجرح فقط او يكسر فقط أو يجمع بين الامرين معا

(٨) وقول الثامنة المس مس أرنب أي ناعم الجسد والريح ريح زرنب تريد انه طيب الرائحة كهذا النبات حسا أو معنى

(٩) وقول التاسعة زوجي رفيع العماد أي عالي الحسب شريف النسب عظيم الرماد أي كريم جواد طويل النجاد أرادت طول القامة الذي يستلزم طول النجاد تريد وصفه بالشجاعة

بالشجاعة كما وصفته بالكرم وقولها قريب البيت من الناد تريد وصفه بالرئاسة على غيره لان الحاكم لا يكون المجمع والنادى للقوم الاقرب بامنه ويحتمل غير ذلك

(١٠) وقول العاشرة مالك وما مالك هو اسم زوجها والاستفهام للتعظيم وقولها مالك خير من ذلك أى كل زوج سبق ذكره أو زوج التاسعة أو هو ماستذكره هى بعد أى خير من ذلك الذى أقول فى حقه وقولها كثيرات المبارك أى لا تسرح الا قليلا لاحتياج الضيفان لها والمزهر عود الغناء الذى يضرب به فى بيت زوجها تحية للضيفان

(١١) وقول الحادية عشرة وهى أم زرع المسمى بكنيتها هذا الحديث أناس بوزن أقام أى حرك والحلى بضم فكسر ثم ياء مشددة تريد أنه أناس أذنيها ما حلاها به وقولها وملأ من شحم عضدى أى جعلنى بالتربية فى التنعم غير هزيلة وقولها وبجحنى الى آخره أى فرحنى وعظمنى وقولها غنيمة بضم أوله مصغرا تريد ان أهلها كانوا أصحاب غنم لا أصحاب خيل ولا إبل كأبى زرع وقولها بشق بكسر الشين ضيق العيش والجهد وقولها فى أهل صهيل وأطيط بفتح فكسر فيهما أى أهل خيل كنت عنها بالصهيل وابل كنت عنها بالاطيط وهو صوت الابل وقولها ودائس اسم فاعل من الدوس وهو البقر وقولها ومنق بضم الميم وفتح النون وتشديد القاف هو الذى ينقى الحب ويصلحه وينظفه من التبن وقولها فلا أقبح بتشديد الموحدة أى لا أنسب للقبح فى الكلام حتى أكون مبغوضة عنده وأرقد فأتصبح أى أنام الى الصبح تريد أنها متنعمة وفى بيتها من الخدم من يكفيها مؤنة مباشرة خدمة بيتها صباحا وأشرب فأتقمح أى فأروى وأدع الماء لكثرته عنده فى البيت وقولها عكومها أى أعدالها وأوعية طعامها وقولها رداح بفتح أوله وروى بكسره أى عظيمة ثقيلة وقولها فساح أى واسع وقولها مضجعه كمسل شطبة بفتح الميم والسين المهملة وتشديد اللام والشطبة بشين معجمة مفتوحة فمهملة ساكنة هى السعفة المشطوبة من جريد النخل وذلك انه يشق منه قضبان دقاق وينسج منه الحصير فقد كنت عن خفة اللحم ودقة الخصر بأن مضجع ابنها الذى ينام فيه كمسل شطبة واحدة اذا سلت من الحصير فبقى مكانها فارغا بين اخواتها وهو مما يتمدح به رجال العرب كتمدحهم بتشبيه الرجل بالسيف إما لرونقه أو لاستوائه واعتداله او لدقته وقولها وتشبعه ذراع الجفرة هى الشاة وقولها فى حق بنتها وملء كسائها كناية عن ضخامتها وامتلاء جسمها وقولها وغيظ جارتها أى ضرتها وكنوا عن الضرة بالجارة تطيرا من الضرر أرادت أنها تغيظ ضرتها لجمالها وقولها

فى حق جاريتها الاتبث الى آخره أرادت انها أمينة على أسرارهم وقولها ولا تنقث من باب طلب أى لا تنقل والميرة الطعام والمعنى لا تخون فيه ولا تفسده وقولها ولا تملأ بيتنا تعشيشا بعين مهملة أى لا تترك القمامة والكناسة متفرقة فى البيت و يروى بيننا بالنون بدل بيتنا وتغشيشا بالغين المعجمة أى لا تسعى بيننا بالغش والفساد وقولها والاوطاب تمخض الاوطاب جمع وطب بفتحتين أى أسقية اللبن وتمخض أى تحرك لاستخراج الزبد تريد أنه خرج فى وقت كثرة الالبان والخصب وهو وقت سفر العرب للتجارة وقولها كالفهدين أى يشبهان الفهدين فى الوثوب واللعب وسرعة الحركة وقولها برمانتين أى بثديين وانما احتاجت لذكر ولديها التنبيه على ان ذلك كان أحد اسباب تزوج أبى زرع لها لرغبة العرب فى الاولاد وحرصهم على النسل وكثرة العدد وقولها رجلا سريا أى شريفا سخيا وقولها ركب شريا بالمعجمة أى فرسا يستشرى فى سيره أى يلج ويمضى بلا فتور وأخذ خطيا بفتح الخاء المعجمة أو كسرها الرمح وأراح أى رد بعد الزوال أو أدخل فى المراح ونعما بفتح النون وهى الابل والبقر والغنم وثريا اى كثيرة من الثروة وقولها من كل رائحة زوجا الرائحة ما يرجع من الغنم والعبيد وأصناف الاموال بالعشى ويروى ذابحة بمعنى مذبوحة أى ما يحل ذبحه و يروى سائمة والزوج الاثنان او الصنف وقوله وميرى بكسر الميم أى احلى الطعام الى أهلك انتهى

قال بعضهم تعلموا الادب فان كنتم ملوكا تربيتم به وان كنتم وسطا فقتم أقرانكم أعوزتكم المعيشة عشتم بأدبكم فتعلم الادب حسن فى الرجال والنساء جميعا ويحسن الادب فى النساء زيادة لما فيهن من الرقة الطبيعية والمحاسن المعنوية فنسبة ذكاء المرأة الطبيعى الى أخلاقها وعوائدها كنسبة لطافتها وظرافتها الى أعضائها الظاهرة فهى بالادب جميلة حسا ومعنى فهذه محسناتها البديعية الطبيعية والعقلية وكل منهما قابل للاصلاح والاستكمال ويجب الاحتراس والاحتياط فى هذه المحاسن وفى تدبيرها بدون تبذير ولا تقتير فالذكاء فى النساء يكون ابرازه بالقيراط بدون تفريط ولا افراط يعنى مراعى فيه سلوك سبيل الحياء والادب كما اقتضته فى حقهن حكمة المولى عز وجل فبالحياء والادب يتسلطن على قلوب الرجال ويستعبدن الباب الشجعان والابطال

مطلب استحسان حفظ منقبة الحياء فى النساء ومحاماة الرجال لهن لما فيهن من الضعف

(الفصل الثانى فى سلطنة النساء على قلوب الرجال)

من خواص النساء وصفاتهن التى لا يشاركهن فيها الرجال منقبة الحياء وكلما فاقت صفاتها

صفاتها الحسية والمعنوية أكثر مما هو في صاحباتها من النساء كان الحياء فيها أقوى مدحا ولذلك قيل

ويكرمها جاراتها فيزرنها * وتعتل عن إتيانهن فتعذر
وليس لها ان تستهين بجارة * ولكنها منهن تحيا وتخفر

فالحياء صفة ممدوحة فيهن فاللائق بمن يربي البنات ويتعهد بشؤنهن ان يتركهن على حيائهن الذي هو زينتهن فلا تمسه التربية بمحو ولا تخفيف وان لا يجتهد أحد في اعدام الشجاعة لهن وكذلك ما اشتملن عليه عادة من الخوف والوجل مما ينبغي محوه في الذكور فلا بأس بابقائه في النساء فانهن غير مخلوقات لان يحزن شجاعة الرجال وانما وصفهن ان يحملن الرجال على الشجاعة ويلهمنهم الحماس والاقدام ويجب على الرجال ان يصرفوا قوتهم وهمتهم في حماية النساء حيث ان من المركوز في جبلة الرجال وطبيعتهم الميل الى نصرة النساء والاخذ بأيديهن لما فيهن من الضعف وهذه صفة شريفة وهمة علية مركوزة في نفس كل رجل أودع الله في قلبه هيبة المرأة واحترامها ويمدح أيضا زيادة على ذلك من الشجاع ان يجبن عند حرب النساء قال الشاعر

أقول وقد حاولت تقبيل كفها * وبي رعدة أهتزمنها وأسكن
ليهنك أني أشجع الناس كلهم * لدى الحرب الا انني عنك أجبن

(وقال آخر)

ترى الدر منظوما اذا ما تكلمت * وكالدر منظوما اذا لم تكلم
تعبد أحرار القلوب بدلها * وتملأ عين الناظر المتوسم

ومن خواص النساء المتزوجات انهن متى رزقن أولادا يجتهدن في تتويجهم بتاج العز والكرامة ويبذلن الهمة الكاملة في تربيتهم بما يناسب الذكر والانثى من التربية فيحفظن للبنات الصفة الملائمة لطائفتهن التي هي الحياء المصاحبة للتواضع والانكسار واعتدال المزاج * فالحياء صفة ضعف خاصة بالنساء وبها في الحقيقة تقوية قلوبهن فهي عبارة عن سلاح ماض يستعبدن به فحول الرجال فبهذا المعنى كانت شوكة النساء قوية بالحياء فهو يمحو ما فيهن من الضعف وبه يغلبن الاخصام فلا سلاح لحمايتهن الا التدرع بدرع الحياء واشهار سيف الخجل واعتقال رماح الذل والانكسار فمن ذا الذي يرى الدموع تذرف من عين المرأة ولا يرق لحالها ولو كان من اجلاف

مطلب كون الحياء سلاحا للنساء ينتصرن به

البوادي أرباب الجفوة وكيف لا يسمع شكوى المرأة من في قلبه أدنى رأفة ورحمة ولا يأخذ لها حقها من ظلمها وكيف لا يغيث المرأة الملهوفة من تسأله الاغاثة ويكون فيه شهامة الرجال ومروأتهم أم كيف يغضب الرجل على المرأة فتعتذر اليه شاكية باكية ولا يرثى لحالها ولا يصفح عنها الصفح الجميل وبالجملة فيبعد أن الرجل ذا المروءة يفهم من المرأة ربة الحياء انها مظلومة ولا يمحو ظلامتها وينتصر لها ممن ظلمها بل كل انسان في قلبه رحمة لا بد من أن يتقي الله في المرأة ويكفيها ما يهمها ويخفف عنها ما يؤلمها ففي حياء النساء سلطنة على قلوب الرجال تبعثهم على أن يسلكوا دائما طريق الفخار ليمدحوا عند النساء بحسن الافعال فجميع ما يصدر من الرجال مما يستحسنه النساء يقوي سلطنتهن على قلوبهم فان الرجل يتمنى دائما نجاح أفعاله وصلاح أشغاله وثمرة مثبر وعه ليعجب زوجته أو غيرها التشهد له بالفتوة والشجاعة والبراعة فمطمع انظار الرجل في نجاحه وفلاحه وكسبه واغتنامه ارضاء زوجته المحبوبة وذوات قرابته من النساء فهل من ميدان يسلكه الفتى من ميادين الفخار وحلبة يسابق فيها الشهم أقرانه من حلبات الاعتبار إلا ويلاحظ فيها المدح ممن يهواها فنجاحه دائما مقرون باستحسان النساء وربما كن معضدات لحماسته ومهيجات لتنشيط جوده وهمته فان الشهم يفرح كل الفرح ويسر كل السرور وتقر عينه متى بلغه استحسان الجمال لما صدر عنه من منتجات الاعمال فهو يحب دائما ان تكون له منزلة في قلب من يهواها من النساء فيتشبث دائما بتجشم الاخطار لبلوغ الاوطار فتجده اذا تحرى الصدق والامانة أو حصل على كمال المعرفة لما فيه من ملكة الذكاء والفطانة أو نظم القصائد الطنانة الرنانة أو اكتسب النصرة في الحروب أو اخترع شيئا في الصنائع والفنون طبق المرغوب أو برع في الاحكام الشرعية والصناعة القضائية أو أحسن الفتيا في الدرجة العليا أو أتقن علم السلوك والاخلاق أو سار حسن سيرته بممدوح صيته في الآفاق فلا تصدق بهجته ولا تلوح بهجته الا كان بذلك عند النساء مكانة عليه وعقيدة قويه فشهادتهن له شهادة عادلة واعتقادهن فيه بحسن العمل تزكية فاضلة وهذا ما يحمله على كمال الاجتهاد وان يزاول تحصيل المناقب الحميدة ليدرك مرامه ويسكن من قلوب النساء في صميم الفؤاد

مطلب الحرقة بنت النعمان ابن المنذر

ومما يحكى عن أميرة تنقبت بنقاب الحياء واشتهرت بصيت العفاف في العشائر والاحياء وكانت من بيت الملك والسلطنه وحظيت بالابهة والطنطنه ثم عاند بيتها الزمان الخوان

الخوّان وتعدّت عليها صروف الحدثان وزالت عن ذويها النعمة ووقعت فى شرك الهم والوصمه وهى الحرقة (بضم ففتح كهمزة) بنت النعمان بن المنذر فبعقلها وذكائها وما فيها من الجبابرة لما قلب ججمها فما كان فى حقها بمتكبر ولا متجبر وبيان ذلك انه لما فتح سعد بن أبى وقاص القادسية قيل له ان الحرقة بنت النعمان بن المنذر حضرت ومعها جاريتان لها فى مثل زيها فلما وقفن بين يديه قال أيتكن الحرقة بنت النعمان قالت أنا قال أنت قالت نعم كأن الدنيا لا تدوم على حال فانها سريعة الانتقال تنتقل بأهلها انتقالا وتقلبهم بعد حال حالا انا كملوك هذا المصر يجبى الينا خراجه حتى تشتت الامر وصاح بنا الدهر فشق عصانا وشتت ملانا وكذلك الدهر يعثر بالاحرار ويكب على ذوى الاخطار فقال لها سعد أخبرينى عن حالكم كيف كان قالت أطيل أم أقصر فقال بل أقصرى فقالت أمسينا وليس أحد من العرب الا وهو يرغب الينا أو يرهب منا وأصبحنا وليس أحد من العرب الا ونحن نرغب اليه أو نرهب منه ثم أنشأت تقول شعرا

فبينا نسوس الناس والامر أمرنا * اذا نحن فيهم سوقة نتنصف

فأف لدنيا لا يدوم نعيمها * تقلب تارات بنا وتصرف

فاستحسن سعد كلامها وأكثر اكرامها فلما أرادت الانصراف قال لها سلى حاجتك قالت خرابة أعمرها وأعيش بانتفاعها فقال لعماله اطلبوا فى الولاية قرية خرابا فطلبوا فلم توجد فقال لها سعد إنا لم نجد فى الولاية خرابة فاختارى معمورة فقالت الحمد لله على أياديه حيث وفق آبائى للعدل حتى أعمروا الدنيا بعدلهم وسلموها الى غيرهم معمورة فاجتهد أيها الامير فى تسليمها الى غيرك ان تكون عامرة كما أخذتها وتستحق رحمة الخالق ومحمدة الخلق واياك ان تسعى فى خرابها وأما أنا فبعد اليوم لا أرجو سرورا ولا تتدعينى الى زهرة الدنيا ثم دعت له فقالت لا جعل الله لك الى لئيم حاجة ولا زالت لكريم عندك حاجة مقضية أبدا وشكرتك يد افتقرت بعد غنى ولا نالتك يد استغنت بعد فقر ولا أزال الله عن قوم كرام نعمة الا وجعلك سببا لردها

وكان قريبا من سعد بن ابى وقاص أبو ثور فقال له يا أبا ثور احفظ هذه الكلمات حتى تخبر بها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فلما قدم أبو ثور المدينة أخبر عمر بشأنها فقال صدقت ما من قوم الا والدهر يعلى لهم بيوم

فيوم علينا ويوم لنا * ويوم نساء ويوم نسر

فقلب الرجل الرؤف بالشفقة على النساء الضعيفات مألوف ومعروف

ومما ينتظم في سلك من يحب ان تشهد له النبلاء وترغب فيه قطرى بن الفجاءة التميمى

مطلب تشبب قطرى في أم حكيم وتمنيه في ميدان الحرب ان تشاهد وقائعه

الخارجى الذى تشبب في أم حكيم وكان فارسا شجاعا شاعرا مجيدا رئيس الخوارج وسلموا عليه بامارة المؤمنين عشرين سنة في أيام هشام بن عبد الملك فن جيد شعره في وقعة دولاب الذى يذكر فيه أم حكيم

لعمرك انى في الحياة لزاهد * وفى العيش مالم ألق أم حكيم
من الخفرات البيض لم ير مثلها * شفاء لذى لب دواء حكيم
ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت * طعان فتى في الحرب غير ذميم
غداة طفت علماء بكر بن وائل * وعجنا صدور الخيل نحو تميم
فلم أر يوما كان اكثر مقعصا * يمج دما من فائظ وكليم
وضاربة خدا كريما على فتى * أغر نجيب الامهات كريم
أصاب بدولاب ولم تك موطنا * له أرض دولاب وديرحميم
فلو شهدتنى يوم ذاك وخيلنا * تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الاله نفوسهم * بجنة عدن عنده ونعيم

وأم حكيم التى تشبب فيها كانت معه في عسكر الاباضية وكانت من أشجع الناس وأجملهم وجها وأحسنهم تمسكا بدينها وكان قطرى يجلها ويحبها وأخبر من شاهدها في تلك الحروب انها كانت ترتجز وتقول

أحمل رأسا قد سئمت حمله * وقد مللت دهنه وغسله
* ألا فتى يحمل عنه ثقله *

والخوارج يفدونها بالآباء والامهات وخطبها جماعة من أشرافهم فردتهم وقالت

الان وجها حسن الله خلقه * لاجدر أن يلفى لذا الحسن جامعا
واكرم هذا الوجه عن ان ينله * تورك فحل همه ان يضاجعا

ولو ان هذه البديعة الجمال سلكت في الشجاعة مسلك الرجال فلم تخرج عن الحياء والعصمة واشتدت بها العفة حتى رأت ان زواج مثلها في سنها مذمة ووصمة فانظر الى أي درجة يكون احترامها عند الجميع بما حازته من حسن الوجه واحسان الصنيع وكان النساء من عادتهن التلطف والدلال وسلامة الذوق وميلهن الى إعجاب الرجال

وان

وان هذا يجذب لهن القلوب ويوصلهن الى الحصول على المرغوب ففيهن زيادة على ذلك فضائل أخرى عظيمة لو أفنى الرجال العمر فى شكر الله على جمع هذه الفضائل فيهن لم يوفوا حق شكره فان الله سبحانه وتعالى لم يجعل زمن النساء مصروفا على الاشتغال بالحظوظ واللذات ولا جعلهن لمجرد قضاء الاوطار والترفهات بل منحهن شمائل جميلة وجعلهن وسائل للمنافع الجليلة حيث ان سعادة الرجال لا تتم الا بوجود النساء فلم يكسهن حلل الجمال ولا منحهن صفات الدلال الا لامر معنوى لطيف لا يخفى الا على كل ذى عقل ضعيف فقد أودع الله تعالى فى الانثى ما لا يوجد فى الذكور الا نادرا وهو حاسية التأثر بالفرح والسرور والتأثر والتألم والتأسف على ما يحصل للرجال من الهموم والغموم وصروف الازمان فأقل النساء تتأثر بما يحصل للرجال من المبرات والمسرات كما تتأثر من النكبات والمصائب فيقتسمن مع الرجال السعادة والشقاء واليسر والعسر وهذه الاحساسية الممدوحة فيهن غريزية وليس لهن عنها مندوحة فيقع عند الرجال عطف النساء عليهن فى المواطن الضيقة أعظم موقع وهذه الاحساسية الدقيقة كملت ما فى النساء من الضعف حيث ان الرجال يرون من النساء فى الصداقة والاعتناء زيادة عما يؤملون منهن فما كانهن بهذه الاخلاق الحميدة اللطيفة الانفوس ملكية ملهمة بالالطاف الخفية

مطلب ان للنساء غير محاسن التلطف والظرافة فضائل أخرى كثيرة بها سعادة الرجال

وأيضا فقد خصهن الله سبحانه وتعالى دون الرجال بتدبير المعائش الاولية والقيام بالاشغال الضرورية والمتاعب المعاشية ومباشرة فراش المرضى من الازواج والاولاد وغيرهم وتخفيف الآلام والاسقام وما أشبه ذلك مما لا يكاد يدخل تحت حصر وجعل لهن صبرا على تسكين الحركات الوجدانية واخفاء التأثرات النفسانية فبهذا كانت درجة الفضيلة فى النساء كالعفة والعصمة أشد منها فى الرجل بحيث يبلغن فى درجة الحياء أوج الكمال فان المرأة العفيفة الكريمة النفس تتحمل اثقال الحركات النفسانية عند الاحتياج اليها مما يعجز صناديد الرجال الصبر عليه

مطلب ان نصيب المرأة من اللذات دون نصيب الرجل منها

فمن تأمل فى نوع البشر ظهر له ان الانثى لم تقتسم مع الرجل نصيبها مناصفة من اللذات والآلام فهى دونه فى ملاذ الدنيا وأكثر منه فى التعرض للاعراض الخاصة بها لا سيما ما لا يعترى الرجال حتى ان المرأة لا تتمتع بمطلوبها الا اذا ذاقت فى مقابلتها شديد الاوجاع فلذتها المباحة لا تنالها الا ببذل للقوة والصحة وربما فقدت الحياة بقضاء

وطرها كان تنطلق بالطلق الحدار المحق وان كان هذا ليس بكثير في العادة كما قاله بعضهم في مقصورة مشيرا الى ذلك المعنى

أبكى إناء شيبة * من قبل ما امتلأ انكفى
أبكيه من غصن نضير مازهى حتى ذوى

فقد أعدتها الحكمة الالهية لهذه الملاذ الدنيوية وحفظ المصالح المنزلية فلو أرادت المرأة ان تسلك مسلك الرجال وتتروض على تكلف ثقيل الاعمال وتتشبث بمعاناة الفنون والعلوم والدخول في العلوم الادبية من منثور ومنظوم واجتهدت في ذلك حتى وصلت قريحتها في القوة الى قرائح فحول الرجال وتوغلت في ميدان المعارف العالية وبلغت منه أقصى مجال وساوت الرجل في جميع أحواله وضاهته في أقواله وأفعاله فهل تكتسب من ذلك الا المنافسة والمعاداة لاسيما من صويحباتها المحرومات اللاتي يبغضن من يفوق عليهن من أمثالهن في التعليمات ويتهمنهن بالخروج عن الحياء وان كان حكماء الرجال يمدحن ربات الفضائل ويتعظمونهن في سلك الاصفياء الا انهم لا يسوغون لهن الدخول في ميدان فحول الرجال ولا التخلق باخلاق الابطال ولا ممارسة السياسات الملكية ولا الرياسات العمومية فانها ربما أداها ذلك الى التبرج والمخالطة فلا يبرئها أحد مما يقال فيها فهذا كان السبب في حرمان النساء في جميع البلاد من الظهور بمظهر الفضائل العلمية فتعودن على ان يعشن عيشة الخمول ويتباعدون عن الظهور ولم يرضين بالشهرة التي لا تليق بهن فالمرأة دائما أسيرة مستعبدة استعبادا معنويا لا يصح لها عرفا ان تبدى رأيها حتى ان اخلاقها وعوائدها الظاهرة لا تخلو عن بعض تخبئة وان لا تكون جلية فلا تظهر كالرجل في المحافل العامة ولا تتماشى في الشوارع والاسواق والمنتزهات والعادة ان المخدرة لا تخرج من بيتها لشئ من ذلك الا مع من يعتمد عليه من الرجال فلا يسوغ لها ان تدخل محال المنازه والفرجة ولا ان تسافر الا ومعها محرم أو زوج أو من يوثق به فالغالب عليهن ملازمة البيوت لحفظ المسكن ونظافة المجلس وطيب المأكل والانس مع الزوج وتربية الولد وحفظ العين عن المحارم وتعهد من في البيت عند حصول المرض وهذا غير شغل الرجل قال بعضهم

اذا اشتغل الانسان بالبيع والشرا * وفى مكسب يأتى بطول نهاره
وليس له في داره من يسوسها * اذا غاب في أشغاله عن دياره

فذلك

فذلك عندى مهمل أمر نفسه * وما عاقل يرضى به باختياره
ولا بد للانسان من زوجة اذا * تأخر تبقى عينها فى انتظاره
وتصلح مايختاره فى أموره * وتخدمه فى فرشه ودثاره
اذا لم يكن فى منزل المرء حرة * تدبره ضاعت مصالح داره

ومع ان المرأة لها السلطنة على قلوب الرجال بالاستحقاق لما فيها من المنافع الجمة فسلطنتها على قلب الرجل عبارة عن ان يكون أسيرها لما فيها من المعانى المحبوبة وكمال الفضائل المرغوبة فاذا تخلقت باخلاق تغاير رضاه كالغضب وسوء الخلق فانها ان لم تسقط من عينه بذلك تهافت حبه وتناقص وداده واضمحل تأثير سلطنتها على قلبه فهى حينئذ تكون كحاكم ظالم تنفر منه السوقة وتتغير عليه قلوب الرعية فالحلم من النساء وحسن معاشرتهن مع الرجال أول مزية قال الشاعر

اذا نزل الاذى والحب يوما * فان الحب يرحل لا يقيم

وقال بعض الحكماء ان المرأة السيئة الخلق تهرم الرجل قبل هرمه وتذهب بكرمه فلا يتم أمر الرجل الا بحرة شفيقة عفيفة رفيقة حسنة الاخلاق عذبة المذاق وكان بعض الفضلاء يقول أعوذ بالله من غضب من لا يكاد يغضب ومن غضب امرأة قادرة ومن غضب ذى قوة قاهرة

(الفصل الثالث فى ان المرأة ينبغى أن يكون من أعظم صفاتها) *(حسن المعاملة والمعاشرة والحلم)*

حيث ان المرأة مخلوقة للرجل وهو فى الغالب مثلها غير منزه عن المثالب والعيوب التى لا يخلو منها جنس البشر وجب فى حقها ان تتمرن من شبوبيتها على تحمل أعبائه وأثقاله وان تكون مستعدة للصفح عن خلله فتسلك معه مسلك الحلم واللين والرفق وحسن الخلق فان هذا يعود عليها بالمنفعة أكثر مما يعود عليه فان سوء خلق النساء وعنادهن لا يفيدهن الا زيادة النصب والتعب بل ينتج عن ذلك اساءة عشرة الرجال لهن حيث ان الرجل يعلم ان المرأة وان تمادت على اساءة الخلق فهو الغالب لها فان الله سبحانه وتعالى لم يخلق النساء لمغالبة الرجال ولا للآراء والسياسات فالرجال قوامون عليهن ولا عكس ولو شاء لاعطاهن الشجاعة والبسالة والفتوة والشهامة والامر بخلاف ذلك فانه سبحانه وتعالى جعل صوت النساء مقتنا مطربا غير جهورى فكانه لم يجعل فيهن جارحة

السب والشتم ولا آلة لصياح الشديد وأيضا حيث منحهن الحسن والجمال وتناسب الاعضاء ورقة الحاشية واللطافة والظرافة فكأنه لم يجعل فيهن لياقة للغضب ولا مناسبة للحدة والحنق ولا تقطيب الوجوه ولا العبوس فلا تليق منهن ثورة الغضب بل يجب عليهن ان لا ينسين الحلم عند شدة غضبهن نعم ان الغالب ان يكون لهن حق فى الاسباب التى تغضبهن ومع ذلك فلا ينبغى منهن كثرة المشاحنة والهذر فى الكلام بل يلتزمن البشاشة وطلاقة الوجه وكمال الاحتشام حيث ان كل انسان من بنى آدم لا ينبغى له ان ينطق الا بما يليق بجنسه من ذكورة وانوثة فليس للمرأة ان تتخلق باخلاق الرجل فى ارتفاع الصوت

وأيضا لما كان فى النساء مثلبتان من أصل الخلقة وهما الضعف والجبن كان يجب فى تربيتهن حال الصغر تمكين هاتين المثلبتين وتثبيت هاتين النقيصتين اللتين هما فى الحقيقة فضيلتان فان النساء انما فقدن كمال الحرية وكدن أن يكن تحت الحجر وتربين على ذلك من الصغر الا ليدوم فيهن الحلم والانكسار والخضوع ومع ذلك تجدهن دائما يبحثن عن سد خلل هذين العيبين باتقان فن الحيلة والتلطف فيكتسبن بذلك ما ينوب عن القوة والشجاعة المفقودتين منهن ولما كن محرومات من المناصب والمراتب والوظائف من كل ما يكسب النفوذ وكان حرمانهن من ذلك فيه كسر لانفسهن أحببن ان يوجدن لانفسهن شمماء على الرجال أصحاب المناصب عوضا عما فات منها فاستعملن فى ذلك وسائل مختلفة موصلة لاغراضهن بقدر ما يستطعنه ولو ان أصل فن الحيلة وطرق الاحتياط والاحتراس ليس من طباعهن وسلوكها صعب عليهن الا انهن متى تشبثن به وحاولنه لموافقة أغراضهن برعن فيه وغلبن الرجال فان المرأة متى كان لها مأرب من المآرب يشغلها فانها تكتم من أول الامر هذا المرام ثم تتزين بأحسن ما عليها وتحسن الخطاب مع الرجل وتستعمل الالفاظ الساحرة لليه الجالبة لقلبه ولا تزال تبذل المجهود فى التلطف والتدلل والتذلل حتى تتمكن من السلطنة على قلبه وتنال منه ما تشتهيه وتتمناه

وقد خلق الله سبحانه وتعالى فى النساء استعدادا مخصوصا وهو ميل أنفسهن دائما الى اظهار اللطافة والمحبوبية للرجال فجميعهن على الاطلاق يرغبن فى التحبب للرجال وان يكون معلوما عند الرجال ما حزنه من الجمال والكمال والعفة وجميع الفضائل فالانثى من حيث هى أنثى ولو بلغت ما بلغت فى درجة العفة ترغب ان تكون مألوفة

محبوبة

محبوبة بعيدة الصيت فى المعانى الحسان ولا تأنف ان يكون لها فى القلوب موقع استحسان ولو انها مجردة عن الشجاعة الحسية فان حيثياتها ومعنوياتها التى هى عبارة عن اللطف والظرف ولين الكلام والاشارة سلاح لها يسهل عليها تجريده لتسبى به الرجل وتنتصر عليه فنبال عيونهن رسل المنون والبيض والسمر منهن مفاتيح الحصون قال الشريف الرضى يذكر عفته وصون محبوبته فى قوله

مطلب ان سلاح المرأة تلطفها وتوددها وأن ذلك عندها بمقام الشجاعة فى الرجل

ومالى بالمياه فى الشعر طائل * سوى ان أشعارى عليك نسيب

عفافى من دون التقية زاجرى * وصونك من دون الرقيب رقيب

فكل امرأة مستعدة لان تبرز بهذه الصفات لحرب الرجال بحيث لا تخلص للرجال من أسر جمالها المكنون وقهر سلطان حسنها المصون

تلطف لمن تهوى من الناس دائما * لتحمد يوما غب ما تتلطف

ولا تكثر الاعراض عمن تحبه * فتنكر منه بعض ما كنت تعرف

وقد خلق الله سبحانه وتعالى لبنى آدم ذكورا واناثا احتياجات ضرورية ووجدانيات لزومية لقوامه وزوائد تحسينيه لنظامه

(الفصل الرابع فى الاحتياجات الضرورية البشرية)

لا يجهل أحد أن قوام الانسان وانتظام أحواله يستدعى انه خلق لحكمة عجيبة ولم يخلق عبثا قال سلطان العارفين ابن الفارض

فلا عبث والخلق لم يخلقوا سدى * وان لم تكن أفعالهم بالسديدة

فوجب بهذا السعى لاصلاح بنيته المادية وتنمية أجزائه العضوية بمداخلة ما فيه من الوجدانيات النفسانية القوية كالجوع الذى يحسه الانسان من الاحتياج الى الغذاء وهو ألزم الوجدانيات وأقواها وكالاحتياج الى السكنى واللباس والنساء وليست هذه الوجدانيات فيه ولا الحصول عليها لمجرد راحة النفس بل لحفظ هذه النفس النفيسة وبقائها للحصول على ما أراده الله منها فالاحتياج الى السكنى مثلا انما هو للصون من أذى حيوانات الخلاء وهوامها والاحتياج الى الملبس للوقاية من شدة الحر والبرد فهذه وجدانيات طبيعية أولية واحتياجات مقدمة الحصول عليها قبل غيرها ومع ان كلا من المسكن والملبس ليس من الوجدانيات الطبيعية الصرفة الا ان العادة حكمت بعدم الاستغناء عنهما وينتظم فى سلكهما أيضا احتياجات راحة النفس الى توفية

مطلب مافى الانسان من الاحتياجات الحسية والمعنوية

حظوظها ولذاتها المباحة فأن النفس البشرية لم تخلق لان تكون منعزلة وحدها منفصلة عن ابناء جنسها مجردة عن الاجتماع والائتناس مع ميلها الى ذلك طبعا واضطرارها اليه وضعا فهذا دليل على ان الانسان يحتاج الى التأنس العام والاجتماع التام لان الانسان بالانفراد لا يكفى للقيام بأود نفسه فلهذا اقتضت الحكمة الالهية والارادة الربانية ان تبيح له ان يختار ذاتا يرتبط معها ارتباطا اكيدا بعقد وثيق للازدواج والارتفاق وحفظ النسل فاذا لم يحصل على ذلك اعتراه هيجان البدن واصيب بالسوداء وتغير فيه الخلق الحسن فمثل هذا الداء لا يحدث الامن فقد الحاجة التى يستشعر بها الانسان ويحس بأنها من ضرورياته

مطلب انه لا ينبغى للانسان أن يقيد نفسه باحتياجات وهميه

ولا ينبغى للعاقل ان يخترع لنفسه احتياجات تصورية خيالية يظن انها بالنسبة اليه ضرورية ولا يقدر عليها فيعود نفسه على مالا يستطيع دائما ان يستحصل عليه مما لا يقدر أن يستعوضه بغيره اذا فقد فان المرء لا يعتريه النصب ولا يلم به التعب الا بتكليف نفسه مالا يطيق وتمنى نفسه الامانى التى لا يمكنه بلوغها ولو سلك أصعب طريق فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم انه قال تمعددوا واخشوشنوا فأمر بالتمعدد وهو أن يكون الرجل على سنة معد بن عدنان أحد أجداده صلى الله عليه وسلم فكانت سنة معد الكد فى العيش والتعب فيه كان يزرع بيده ويحصد ويتعاطى مصالح الزرع وقوله اخشوشنوا أى لا تسترسلوا فى التنعم بالمأكل والمشرب وتدوموا عليه خوفا من أن تحتاجوا اليه فلا تقدروا عليه فان من ألف الترفه والتنعم يصعب عليه ضده والمنهى عنه الاسترسال والمداومة وهذا لا يمنع من التمتع بالطيبات من الرزق لمن لا يتكلف ذلك قال بعضهم

وجدت القناعة كنز الغنى * فصرت بأذيالها ممتسك
وأورثنى عزها خلعة * عز الزمان ولا تنتهك
وصرت غنيا بلا درهم * أمر على الناس مثل الملك

وقال الشاعر

اقسمت بالبيت العتيق وركنه * والطائفين ومنزل القرآن
ما العيش فى المال الكثير وجمعه * بل فى الكفاف وصحة الابدان

وقال آخر

فمن مخبر حاسدى اننى * وهبت الأمانى لطلابها

تذل الرجال لأطماعها * كذل العبيد لاربابها
فلا تقطفن ثمار المنى * فبئس عصارة أعنابها

وقال آخر

وقائل ما الملك قلت الغنى * فقال لا بل راحة القلب
وصون ماء الوجه عن بذله * في نيل ماينفد عن قرب

ومع ذلك كله فالحاجات تختلف باختلاف الناس واحوالهم قال بعضهم

العيش دار رحبة وحليلة * حسناء قانعة ومهر فاره
فاظفر بهن ولا تبالي فالورى * اما محب مخلص أو كاره

وقال بعضهم ان حقيقة السعادة الابدية دنيوية واخروية بعد أداء الفرائض الشرعية والتأدب بالآداب النبوية السنية ان يكون للمرء مسكن يأويه وضيعة قريبة غلتها تكفيه ولا تزيد على كفايته فتطغيه وزوجة امينة تواسيه وولد بار يليه وجار صالح لا يؤذيه وخادم عن مهنة نفسه يحميه وما وراء ذلك لا حاجة له فيه كما قيل

مطلب سعادة المعاش والمعاد

ما المحب الشيء ارجوه فأحرمه * قد كنت أحسب منه قد ملأت يدي

وكما ان للانسان احتياجات محسوسة لا بد منها فكذلك له احتياجات عقلية معنوية لا محيص عنها كالاحتياج الى التربية التهذيبية والتعليمات الادبية فانه من حيث انه مجبول على التأنس والعيشة مع امثاله يجب ان يحسن خلقه ويروض طبعه فان الخلق عادة النفس التي تصدر من الانسان بلا روية فهو نوعان اساءة واحسان جبل عليهما الانسان فاذا ارتسم في النفس ايهما كان نقله صعبا لانه تطبع فاذا كانت الاخلاق المحمودة غريزية في بعض الناس فلا بد للباقي منهم ان يصبروا النهايا لرياضة والالفة ويرتقوا اليها بالتدرب والاعتناء والكلفة فمن لم يكن منهم على الخير مطبوعا يصير متطبعا والفرق بين الطبع والتطبع ان الطبع جاذب مفتعل والتطبع مجذوب مفتعل وقد يكون في الناس من لا يقبل طبعه العادة الحسنة ولا الاخلاق الجميلة ونفسه مع ذلك تتشوق الى المنقبة وتأنف من المثلبة لكن سلطان طبعه يأباه عليه

مطلب ترويض الخلق وتهذيبه

السيف ما لم يلف فيه صيقل * من نفسه لم ينتفع بصقال

وسبب ذلك في الاخلاق ان الطبع المطبوع ملكة للنفس التي هي محله لاستبطانه اياها وكثرة اعانته لها والادب طارئ على المحل غريب فالانسان بأنسه وبأيتناسه يعلو ازتب وبشيمه الظاهرة ينال أعظم القرب فلابد من الرياضة لكسب الخلق الحسن واستكماله

قال صلى الله عليه وسلم بعثت لاتمم مكارم الاخلاق وهى ما أوصاه به ربه عز وجل بقوله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين فلما امتثل أمر ربه أثنى عليه بقوله تنويها بفضله الجسيم وانك لعلى خلق عظيم فلا اعظم من أدبه صلى الله عليه وسلم الذى قال فى شأنه أدبنى ربى فأحسن تأديبى وأكمل الآداب أدب العلم والعمل وكل ما يخرج الانسان من الزيغ والزلل فالانسان من حيث انه محاط باشياء كثيرة تخصه ومكلف بمعرفتها حق المعرفة للزومها له يعهد من نفسه انه لا بد له من معرفتها والوقوف على حقيقتها وليس لها طريق موصلة الا التعلم والتعليم وهذا موضوع الباب الآتى

(الباب الثالث فى التعلم والتعليم وفيه فصول)

(الفصل الاول فى التعلم وأقسامه)

مطلب تقسيم التربية المعنوية

التعلم هو الوسيلة العظمى التى يكتسب بها الانسان معرفة ما يجهله بالكلية او ما بقى له من تكميل علمه ببعض أشياء جزئية فالتعلم جزء من التربية المعنوية التى هى تهذيب العقل وترويض الذهن وهذه التربية المعنوية تنقسم الى ثلاثة أقسام القسم الاول تربية النوع البشرى يعنى تربية الانسان من حيث هو انسان يعنى تنمية مواده الجسمية وحواسه العقلية القسم الثانى تربية أفراد الانسان يعنى تربية الامم والملل القسم الثالث التربية العمومية لكل انسان فى خاصة نفسه وهى تربية الانسان الخصوصية فالقسم الاول طبيعى ويكون غالبا فى أيام الصبا وزمن الشبيبة التى بفواتها يفوت المرام وتضيع الايام فينبغى ان لا تخلو أيام الصبى والصبية من افادة واستفادة ليتحصل للذكور والاناث من صغر السن اسباب السعادة والسيادة ولا يزال كل منهما بتوفيقه تعالى محصلا للزياده حتى لا يتأسف أحد منهم عند الكبر على ما مضى من الايام وانقضى من الاعوام بدون الحصول على المراد من أحوال المعاش والمعاد وكان الشافعى رضى الله تعالى عنه ينشد ليقتدى به من يسترشد

أليس من الخسران أن لياليا * تمر بلا علم وتحسب من عمرى

وقد تأسف على زمن الشبيبة أقوام كثيرون من الافاضل ورجال أفضلون من الاماثل وسعوا فى كبر سنهم ان يجبروا خلل ما فات فتعلموا بقدر ما استطاعوا ولذلك قيل

اذا ما أول الخطى أخطا * فلا يرجى لآخره انتصار

اذا بلغ الفتى عشرين عاما * ومابلغ المرام فذاك عاز

وبالجملة فالتعلم يكون فى من الشبوبية لكل فرد من افراد المعارف البشريه ويقوى العلم بالممارسة الى ماشاء الله قال الشاعر

فان من أدبته فى الصبا * كالعود يسقى الماء فى غرسه

حتى تراه مورقا ناضرا * بعدالذى ابصرت من يبسه

والقسم الثانى لايحصل الا بتعليم احكام الدين الواجب معرفتها على كل انسان وحقوق القرابة ولا يكون ذلك الا فى الجمعيات التى ابتدأت فى التمدن والعمران كتربية العشائر والعائلات وهذا القسم انما يكون بالهدى الذى انعم الله به على الخلق كافة بعضه بالعقل وأسباب الهدى بهذا المعنى الكتاب والسنة و بصائر العقول وكلها مبذولة لا يمنع منها الا الحسد والكبر وحب الدنيا والتعلق بالاسباب التى تعمى القلوب وان كانت لا تعمى الابصار ومن جملتها استصحاب المألوف والعادة والعرف المعروف وعنه العبارة بقوله تعالى انا وجدنا آباءنا على امة كما ان العبارة عن الكبر والحسد بقوله تعالى وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وبقوله ابشرا منا واحدا نتبعه ويعبر عن الهدى بشرح الصدر كما فى قوله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه وله نتائج شريفة أجلها معرفة الله تعالى التى بها سعادة الدارين وسائر الخصال التى تتفاضل بها الرجال والمتصف بالهدى متصف بالعقل المحمود والذى يرشد الى تزكية النفس هو سياسة الشرع وصدق متابعة الرسول فى سائر ما جاء به من الاحكام والآداب التى نصبها الشارع وجعل مرجعها الكتاب العزيز الذى هو الآية الكبرى والنعمة العظمى فى بيان ما لا تهتدى اليه العقول وفى الاعتصام من الفتن ومصداق ذلك قوله صلى الله عليه وسلم انه ستكون فتن كقطع الليل المظلم قيل فما النجاة منها يارسول الله قال كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم وخبر من بعدكم وحكم ما بينكم وهو فصل ليس بالهزل فهو الجامع لانواع المطلوب من المعقول والمنقول مع ما اشتمل عليه من بيان السياسات المحتاج اليها فى نظام أحوال الخلق كشرع الزواجر المفضية الى حفظ الاديان والعقول والانساب والاموال وشرع ما يدفع الحاجة على اقرب وجه يحصل به الغرض كالبيع والاجارة والزواج واصول أحكامها فكل رياضة لم تكن بسياسة الشرع لا تثمر العاقبة الحسنى فلا عبرة بالنفوس القاصرة الذين حكموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التى ركنوا اليها تحسينا وتقبيحا وظنوا انهم فازوا بالمقصود

مطلب كون العقل يحمد بمتابعة الشريعة والسياسة الشرعية

بتعذى الحدود فينبغى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع لا بطرق العقول المجردة ومعلوم ان الشرع الشريف لا يحظر جلب المنافع ولا درء المفاسد ولا ينافى المتجددات المستحسنة التى يخترعها من ألهمهم الله تعالى العقل وألهمهم الصناعة

مطلب التعليمات العمومية

وأما التربية العمومية المسماة أيضا بالتعليمات العمومية فهى ما يتعلمه الذكور والاناث فى المكاتب والمدارس وفى سائر مجامع المعارف التى يجتمع فيها للتعليم عدد مخصوص من المتعلمين وهذا القسم الثالث ينقسم الى ثلاثة أقسام تعليم أوّلى ابتدائى وتعليم ثانوى تجهيزى وتعليم كامل انتهائى

فالتعليم الاوّلى ما يكون فيه أهل المملكة على حد سواء فهو عام لجميع الناس يشترك بالاشتغال فيه والانتفاع به ابناء الاغنياء والفقراء ذكورهم واناثهم وهو عبارة عن تعلم القراءة والكتابة فى ضمن تعليم القرآن الشريف وأصول الحساب والنحو فالكتابة مندوب اليها فى حديث استعن بيمينك أى بالكتابة بيدك اليمنى بأن تكتب ما تخشى نسيانه اعانة لحفظك ومن لطفه تعالى بعباده ان ألهمهم الكتابة حيث منحهم ما يعينهم على اداء ما ائتمنوا عليه مما يزيل عنهم الريب ومنافع الكتابة لا يحيط بها الا الله تعالى فما دوّنت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الاوّلين ومقالاتهم الا بها ولولاها ما استقام أمر الدين والظاهر ان الكتابة قديمة جدا وان قال بعضهم ان أوّل من اتخذ القراطيس وكتب فيها يوسف عليه السلام وكان يكتب للعزيز صاحب الرؤيا ويقال هو أوّل من بيع من الاحرار

وأما النحو الذى هو من العلوم الاولية فهو لاصلاح اللسان كما قال بعضهم

كلام بلا نحو طعام بلا ملح * ونحو بلا شعر ظلام بلا صبح

(وقال آخر)

يا طالب العلم لا تجهلن * ولذ بالمبرد أو ثعلب
تجد عند هذين علم الورى * فلا تك كالجمل الاجرب
علوم الخلائق مقرونة * بهذين فى المشرق والمغرب

وأما مبادى الحساب والهندسة فنفعهما فى المعاملات معلوم وهذا التعليم الاولى متى تعلمه الآحاد حسن حال الهيئة الاجتماعية وجل كامل الرعية وأرباب الكارات والحرف الصناعية فان الصانع مثلا اذا تعلم ذلك سهل عليه بقراءة كتب صنعته ان يشتغل اشتغالا جيدة بالمراجعة وان يخرج من ورطة مجرد السماع من فم استاذه

وسهل

وسهل عليه أيضا ان يكمل صنعته التى تعلمها من استاذه ويدخل فيها تحسينات جديدة وتكميلات مفيدة وان يقلد جميع ما رآه وسمعه ولا يكون أسير الما نقله عن استاذه الناقل أيضا عن آخر الى ما لا نهاية فبقراءة الصانع كتب الصناعة المتنوعة تتكامل فيها براعته وتحسن وتجود صناعته ويكون أيضا أهلا للتعليم وتسليك تلامذته هذا المنوال القويم فترقى الفنون والصنائع على تعاقب الاجيال الى درجة التحسين والكمال

فالتعليم الاولى الذى هو عبارة عن المبادى التى تقدم ذكرها ضرورى لسائر الناس يحتاج اليه كل انسان كاحتياجه الى الخبز والماء فينبغى للاستاذ المعلم ان يتخذ فى تعليم الصبيان أقرب الطرق وأسهلها للتعلم وكذلك ينبغى للاستاذ الماهر فى الفنون والصنائع ان يسلك سبيل السهولة وينهج أقصر المناهج فى تعليم غلمانه لان العادة جارية بان من يتعلم الصنائع والكارات وحرف المهنة انما هم أولاد الفقراء والمتوسطين وان زمنهم محسوب على آبائهم الذين هم فى الغالب مساكين فلا ينبغى تطويل الزمن فى تعليم الصنائع والمهن

وأما التعليم الثانوى الذى درجته أعلى من درجة ما قبله فهو فى الغالب لا يلتفت الى البراعة فيه غالب الأهالى لصعوبته فينبغى للحكومة المنتظمة ترغيب الاهالى وتشويقهم فيما يخص هذا النوع فهو ما يكون به تمدين جمهور الامة وكسبها درجة الترقى فى الحضارة والعمران وأنواع هذا القسم التعليمى كثيرة فمما ينبغى ان يشتغل به أبناء الاهالى منها المهم فالاهم كالعلوم الرياضية بأنواعها والجغرافيه والتاريخ والمنطق وعلم المواليد الثلاثة والطبيعة والكيميا والادارة الملكية وفنون الزراعة والانشاء والمحاضرات وبعض الالسنة الاجنبية التى يعود نفعها على الوطن

وأما درجة العلوم العالية فهى اشتغال الانسان بعلم مخصوص يتبحر فيه بعد تحصيله علوم المبادى والتجهيزات كعلم الفقيه والطبيب والفلكى والجغرافى والمؤرخ من كل علم يجب تعلمه وجوب كفاية ويريد صاحبه ان يجول فى أصوله وفروعه غاية الجولان حتى يكون كالمجتهد فيه فهو عبارة عن بعض أفراد فى مملكة من الممالك يكون لهم استعداد وقابلية لبلوغ أقصى نهاية المعارف التى بها نظام المملكة ليكونوا كالمجتهدين المجددين فيها

مطلب انه يجب الاقتصاد فى تعلم العلوم العالية

وكان التعليمات الاولية والمعارف العمومية يجب ان تعم جميع أولاد الاهالى فقيرهم وغنيهم يجب أيضا ان يكون التعليم الثانوى كثيرا منتشرا فى أبناء الاهالى القابلين له الراغبين فيه فيباح لهم التعليم والتعلم ليكونوا من الدرجة الوسطى بخلاف درجة العلوم العالية المعدة لارباب السياسات والرئاسات وأهل الحل والعقد فى الممالك والحكومات فانه ينبغى ان يقتصد فى تعليمها والتضييق فى نطاقها بحيث يكون عدد تلامذتها محصورا وعلى أناس قلائل مقصورا بمعنى ان كل من طلب الاشتغال بالعلوم العالية لابد من أن يكون صاحب ثروة ويسار ويكون يساره مقيدا بقيود خاصة فى الغنى والاعتبار بحيث لا يضر تفرغه للعلوم العالية بالمملكة فمن الخطر على من له صناعة يتعيش منها وينتفع به الناس ان يترك هذه الصناعة ليدخل فى دائرة معالى المعارف التى لا تصلح ان تكون له بضاعة فلا ينبغى ان يرخص للتلامذة المتعلمين العلوم الاولية والثانوية ان ينتظموا فى سلك أرباب المعارف القصوى اذا كانت فى حقهم قليلة الجدوى

مطلب توزيع المعلومات على المتعلمين بحسب أذواقهم وميل نفوسهم

فمتى انتهى تعليم الشبان العلوم الابتدائية والتجهيزية وظهر ميلهم الى خصوصيات تناسب أحوالهم من الصنائع والفنون وجب على أهلهم أن يضعوهم فيها فاذا كان ميلهم الى أشياء تضاد أحوالهم الحقيقية ولا منفعة لهم فيما تميل اليه اطماعهم الشهوانية منعهم أهلهم منها ووضعوهم فى لياقتهم من كل ما ينتج لهم المنافع فى الفنون والصنائع لينالوا بذلك الوظائف اللائقة بحالهم وينبغى لاهل الخير ان يساعدوا من يخرج من محال التعليم ببضاعة رابحة على نيل الوظائف الاهلية العمومية الكافية لقوام معاشهم وانتعاشهم لان رب المعارف الراغب للاستخدام فى وظيفة عمومية اذا لم يكن له مساعد ومعين وكان له حق واستعداد فى التقلد بها ولم يتقلد سقط اعتباره وضعف افتخاره وظهر بمظهر الفقر والمسكنة وربما أهلكه اليأس والقنوط بخيبة آماله وعيشته الخشنة ورأى انه ضيع فى طلب العلم ماله وزمنه

(الفصل الثانى)

(فى انه ينبغى لطالب العلم المشتغل به ان يصفى ذهنه بأكل طيبات الرزق)

قال القاضى عياض كان لمالك بن انس رضى الله عنه فى كل يوم فى نجمه درهمان قال مطرف لو لم يجد مالك فى كل يوم درهمين يشترى بهما لحما الا ان يبيع فى ذلك بعض متاعه لفعل وقال مالك لو قيل لى ان دق الجوهر نعينك على هذا الامر أى طلب العلم لدققته

لدقققه ويقال ان يحيى بن يزيد كتب الى الامام مالك بن انس رضى الله عنه بلغنى انك تلبس الرقيق وتأكل الرقاق وتجلس على الوطىء وتجعل على بابك حاجبا وقد جلست مجلس العلم واتخذك الناس اماما ورضوا قولك فاتق الله يا مالك وعليك بالتواضع كتبته اليك كتابا بالنصيحة ما اطلع عليه الا الله تعالى والسلام فكتب اليه مالك وصل الى كتابك فوقع منى موقع النصيحة فى الاشفاق والادب متعك الله بالتقوى وجزاك بالنصيحة خيرا وأما ماذكرت من انى آكل الرقاق وألبس الرقيق وأحتجب وأجلس على الوطىء فنحن نفعل ذلك ونستغفر الله وقد قال عز وجل قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق الآية وإنى لاعلم ان ترك ذلك أفضل من الدخول فيه ولا تدعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا والسلام

مطلب نصيحة يحيى بن يزيد للامام مالك رضى الله عنه فى شأن الرفاهية وتلطف الامام مالك فى الجواب عن ذلك

قال بعضهم ومما يحسن جوابا عن اكل مالك للاشياء الرقيقة ان اكلها يولد الخاط الجيد ويصفى الذهن فيحسن الفهم باكل الطيبات لاسيما اللحم انتهى والمطلوب لطالب العلم البلاغة التى يتبلغ بها وهى احدى وسائل طلب العلم المحصورة فى قول الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه

أخى لن تنال العلم الا بستة * سأنبيك عن أسمائها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة * وصحبة أستاذ وطول زمان

وقال آخر

شروط العلم أربعة * فأولها التفرغ له
وثانى شرطها شيخ * يمهد للفتى سبله
وثالثها وجود فتى * يبلغ ربه أمله
ورابعها مجالسة السـ *ـسراة السادة الكمله

ومع انه ينبغى لطالب العلم أن يبحث عما به صفاء ذهنه وعقله فلا ينبغى له أن يدقق النظر فى الطيبات لينتخب أطيبها قال الامام الغزالى قرب عابد الى بعض اخوانه رغفانا ليختار أجودها فقال له العابد مه أى شئ تصنع أما علمت ان فى الرغيف الذى رغبت عنه كذا وكذا حكمة وعمل فيه كذا وكذا صانع حتى استدار فمن ذلك السحاب الذى يحمل الماء والماء الذى يسقى الارض والرياح وبنو آدم والبهائم حتى صار اليك وبعد ذلك تقلبه ولا ترضى به وفى الاثر لا يستدير الرغيف ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلاثمائة وستون صانعا بين روحانى وآدمى وعنصر وآخر ذلك الخباز وان تعدوا نعمت الله

لا تحصوها فعلى طالب العلم أن يرضى بما يسره الله له فكل شئ يسره ويفرحه قال بعضهم لا سرور يوازى سرور العلم ولا لذة تساوى لذته فان أنواع السرور كثيرة سرور الأبد الجنة وسرور الدهر العلم وسرور السنة العمارة الجديدة وسرور نصف السنة الثوب الجديد وسرور الشهر الزواج وسرور الاسبوع غسل الثياب وسرور اليوم الحمام وسرور الساعة الاجتماع للانس المنزلى ومسامرة الاحباب وما أشبه ذلك وحيث ان من لذات الدنيا لذة أنس الزوجية كان لابد فى حسن هذه المسرات من المناسبة والملاءمة بين الزوجين حتى فى درجة المعرفة والفطنة وكمال الامتزاج وهذا لا يكون الا بالمشاكلة بين الزوجين والمجانسة بين القرينين لاسيما فى الممالك المتمدنة التى يعد فيها تعليم النساء من الشيم المستحسنة فالمرأة على هذا محتاجة للتعليم لارشادها فى أمور الزوجية والعشرة وفى تربية الاولاد الى الطريق القويم

مطلب أنواع مسرات الانسان بتقدير الازمان

(الفصل الثالث)

(فى تشريك البنات مع الصبيان فى التعلم والتعليم وكسب العرفان)

مطلب انه يحسن عدم الفرق فى تعليم البنين والبنات أصول المعارف الحسنة للتربية على حد سواء

ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معا لحسن معاشرة الازواج فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك فان هذا مما يزيدهن أدبا وعقلا ويجعلهن بالمعارف أهلا ويصلحن به لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى فيعظمن فى قلوبهم ويعظم مقامهن لزوال ما فيهن من سخافة العقل والطيش مما ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة لمرأة مثلها وليمكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الاشغال والاعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن وهذا من شأنه ان يشغل النساء عن البطالة فان فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالاباطيل وقلوبهن بالاهواء وافتعال الاقاويل فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ويقربها من الفضيلة واذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال فهى مذمة عظيمة فى حق النساء فان المرأة التى لا عمل لها تقضى الزمن خائضة فى حديث جيرانها وفيما يأكلون ويشربون ويلبسون ويفرشون وفيما عندهم وعندها وهكذا وأما القول بأنه لا ينبغى تعليم النساء الكتابة وانها مكروهة فى حقهن ارتكانا على النهى عن بعض ذلك فى بعض الآثار فينبغى أن لا يكون ذلك على عمومه ولا نظرا الى قول من علل ذلك بأن من طبعهن المكر والدهاء والمداهنة ولا يعتمد على رأيهن لعدم كمال عقولهن

فتعليم

فتعليم القراءة والكتابة ربما حملهن على الوسائل الغير المرضية ككتابة رسالة الى زيد ورقعة الى عمرو وبيت شعر الى خالد ونحو ذلك وان الله تعالى لو شاء أن يخلقهن كالرجال في جودة العقل وصواب الرأي وحب الفضائل لفعل فكان الله تعالى خلقهن لحفظ متاع البيت ووعاء اصون مادة النسل فمثل هذه الاقوال لا تفيد أن جميع النساء على هذه الصفات الذميمة ولا تنطبق على جميع النساء وكم من نهى وردت به الآثار كحب الدنيا ومقاربة السلاطين والملوك والتحذير من الغنى فقد حمل على ما يعقبه شر وضرر محقق وتعليم البنات لا يتحقق ضرره فكيف ذلك وقد كان أزواجه صلى الله عليه وسلم من يكتب ويقرأ كحفصة بنت عمر وعائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهم وغيرهما من نساء كل زمن من الازمان ولم يعهد أن عددا كثيرا من النساء ابتذلن بسبب آدابهن ومعارفهن على أن كثيرا من الرجال أضلهم التوغل في المعارف وترتب على علومهم مالا يحصى من شبه الخروج والاعتزال وليس مرجع التشديد في حرمان البنات من الكتابة الا التغالي في الغيرة عليهن من ابراز محمود صفاتهن أيا ما كانت في ميدان الرجال تبعا للعوائد المحلية المشوبة بحمية جاهلية ولو جرب خلاف هذه العادة لصحت التجربة فانا لو فرضنا ان انسانا أخذ بنتا صغيرة السن مميزة وعلمها القراءة والكتابة والحساب وبعض ما يليق بالبنات ان يتعلمنه من الصنائع كالخياطة والتطريز الى أن تبلغ خمس عشرة سنة ثم زوجها الانسان حسن الاخلاق كامل التربية مثلها فلا يصح انها لا تحسن العشرة معه أو لا تكون له أمينة ومثل ذلك سائر البنات فان تعليمهن في نفس الامر عبارة عن تنويرعقولهن بمصباح المعارف المرشد لهن فلا شك ان حصول النساء على ملكة القراءة والكتابة وعلى التخلق بالاخلاق الحميدة والاطلاع على المعارف المفيدة هو أجمل صفات الكمال وهو أشوق للرجال المتربين من الجمال فالادب للمرأة يغني عن الجمال لكن الجمال لا يغني عن الادب لانه عرض زائل وأيضا آداب المرأة ومعارفها تؤثر كثيرا في اخلاق أولادها اذ البنت الصغيرة متى رأت أمها مقبلة على مطالعة الكتب وضبط أمور البيت والاشتغال بتربية أولادها جذبتها الغيرة الى أن تكون مثل أمها بخلاف ما اذا رأت أمها مقبلة على مجرد الزينة والتبرج واضاعة الوقت بهذر الكلام والزيارات الغير اللازمة حيث تتصور البنت من الصغر أن جميع النساء كذلك فتألف ذلك من صغرها فشتان ما بين هذه وبين

من تعتمد على معارفها وآدابها وتفعل مافيه ارضاء بعلها وتربية أولادها الا انها شبت على ذلك كما قال البوصيرى رحمه الله

والنفس كالطفل ان تهمله شب على * حب الرضاع وان تفطمه ينفطم

وقد قضت التجربة فى كثير من البلاد أن نفع تعليم البنات اكثر من ضرره بل انه لاضرر فيه أصلا فقد روى فى كتب الاحاديث روايات عن النساء كثيرة وقد كان فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم من يعلم القراءة والكتابة من النساء كالشفاء أم سليمان فقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها علمى حفصة رقية النملة كما علمتها الكتاب أى الخط والهجاء وخرج أبو الدرداء رضى الله عنه عن الشفاء بنت عبد الله قالت دخل على النبى صلى الله عليه وسلم وأنا عند حفصة فقال ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتها الكتاب انتهت والنملة بثور صغار مع ورم يسير ثم يتقرح فيتسع وتسميه الاطباء الذباب وهذا الحديث دليل على ان تعلم النساء الكتابة جائز وان اشتراكهن مع الرجال لا بأس به حيث اشتركن معهم فى أصل الطبائع والغرائز وورود النهى عن تعليمهن ينبغى أن يكون ليس على اطلاقه بدليل ما يعارضه باباحة التعليم فليتمسك كل من الفريقين الذكور والاناث بالاحاديث الواردة فى فضل التعلم والتعليم ويتشبثوا جميعا بأذيال المدارسة والمطالعة ليقتطفا من أثمار العلم منافعه

مطالب ان تعليم النساء القراءة والكتابة كان فى عهده صلى الله عليه وسلم

(الفصل الرابع فى المدارسة والمطالعة)

الدراسة هى تمرين العقل على مطالعة عدة علوم أو علم واحد منها ولما كانت فضيلة التعلم والتعليم والقابلية لذلك مشتركة بين جميع الناس لا يستغنى عنها انسان وكان الاحتياج اليها ناشئا من كراهة النفس للجهل الذى لا يمحوه الا المواظبة على الاطلاع وكثرة الدراسة المستمرة التى يحصل بها التمكن من المعارف وكانت مدة الحياة قصيرة لا تكفى فى الحصول على شطر له وقع من المعارف البشرية وجب على الانسان ان يتشبث بالعلوم الضرورية له كما قال الشاعر

ماحوى العلم جميعا أحد * لا ولو مارسه ألف سنه
انما العلم عميق بحره * فخذوا من كل شئ أحسنه

والاولى لطالب العلم ان يتشبث بما يلايم الفن الذى يتخذه له فنا يختص به فدراسة العلم فى حد ذاتها أفضل ما يشتغل به الانسان وأحلى ما يصرف فيه أوقات حياته وأفضل

لذات

لذات الدنيا فلا سرور يوازى سرور العلم والاشتغال به يحسن فى جميع الاوقات وسنى الاعمار وفى جميع الامكنة والبلدان لان مطالعة الكتب لا يضيق منها صدر الانسان فى مدة عمره وفى مبادى وأواخر أمره لانها تصلح حال الشبان وتنفع فى حال الكهولة وتخفف الآلام وتفيد الصبر على نوائب الايام حتى ان الانسان المنهمك على القراءة لايذوق طعم الفاقة وان كان فقيرا وان كان غنيا أغلت قيمة غناه وسعادته فكأنها الاغذاء الاشباح والارواح فى الامساء والاصباح وهى لاهل المدن فكاهة ورفاهة ولاهل الريف مشغلة ونباهه وفى الاسفار تخفف وعثاء السفر كما تلطف أحوال أهل الحضر وهى وقاية تحفظ من القلق والوساوس وينتصر بها الانسان على القلق والارق فهى خير واق وحارس لان القلق داء وخيم وصاحبه سقيم فهو كالنار يرعى بدن الانسان ولو كان رفيع القدر على الشان فعلاجه النظر فى كتاب يزيل الاوصاب عن الالباب

ومن فوائد الدراسة انها تزين العقول بالمعارف الصحيحه والعوارف الرجيحه وتفيد النفس الزكية شرفا ومجاده وترقى الانسان الى أقصى درجات الفخر والسعاده فيها يفقه الانسان أحوال الناس على حقائقها وماهم عليه أوما كانوا عليه أوماينبغى أن يكونوا عليه بالوقوف على حسن طرائقها وبذلك يكتسب التعود على الاشغال وتلطيف النفس وصفاء البال ويقوى عقله ويزول مافيه من الخفة والطيش لرفاهة الحال ولذاذة العيش ويغلب الانسان نفسه وهواه باجتناب البطالة والكسل والفتور ولا يضيع زمنه سدى فى سفاسف الامور ومن فوائد المطالع للكتب الجيدة المفيده أن يصير ناقدا بصيرا وجميع أحواله جيده ولو لم يكن فضائل الدراسة الا الالفة بين الفضلاء والنبلا والتعارف من بعضهم لبعض لكان هذا كافيا لاهل العلى

مطالب فى مزايا الدراسة والاشتغال بطلب وتحصيل المعارف

قال بعضهم كان الناس فيما مضى اذا لقى العالم منهم من هو فوقه فى العلم قال هذه غنيمة أى لكونه ينتهز فرصة التلقى عنه واذا لقى من هو مثله ذاكره واذا لقى من هو دونه لم يزدر عليه واليوم يعيب الرجل من فوقه ويظهر أنه ليس له به حاجة ولا يذاكر مثله ويزهو على من هو دونه وهذا مما يخل بالعالم حيث انه يفضى به الى جحد الحقوق لحب الرآسة والتعظيم ويجعله يتعرض الى ستر الحسنات ويتتبع السقطات لعدم ما شيدته الفضائل بفضوله لا بفضله

مطلب كون الكتاب اعظم سمير

ومما يحكى ان الشعبي دخل على عبد الملك بن مروان وبين يديه كتاب ينظر فيه فقال يا أمير المؤمنين ان الكتاب خير خازن وأنبل جليس وآنس أنيس وأصدق صديق وأحفظ رفيق واكرم مصاحب وأفصح مخاطب وأبلغ ناطق واكتم وامق يورد اليك ولا يصدر عنك ويحكى لك ولا يحكى عنك ان أودعته سرا كتمه وان استحفظته علما حفظه ان فاتحته فاتحك وان فاوضته فاوضك وان جاريته جاراك وان صمت عنه صمت عنك ينشط بنشاطك ويغتبط باغتباطك ولا يرغب عنك عند رغبتك فيه ولا يتخلف عنك عند حاجتك اليه ولا يخفى عنك ذكرا ولا يفشي لك سرا ان نشرته شهد وان طويته رقد وان سألته نطق وان انغلقت عنه انغلق صامت متكلم مستعرب مستعجم يذاكرك بالفلسفة ويبصرك بتقديم المعرفه ويبدى لك أخبار الاول ويشرح لك سير الدول خفيف المؤنه كثير المعونه حاضر كمعدوم وغائب كمعلوم لا تتصنع له عند حضوره فى خلوتك ولا تحتشم له فى حال وحدتك فى الليل نعم السمير وفى النهار نعم المشير ان طويته انطوى وان نشرته احتبى فقال له عبد الملك لقد حببت الى الكتاب وعظمته فى نفسي وحسنته فى عيني انتهى قال بعضهم

نعم المحدث والنديم كتاب * تلهو به ان فاتك الاحباب
لا مفشيا سرا اذا استودعته * ويفاد منه حكمة وصواب

لا سيما كتب التواريخ والسير فقد قال بعضهم فيها لما فيها من العبر

طالع تواريخ من فى الدهر قد وجدوا * تجد خطوبا تسلى عنك ما تجد
تجد أكابرهم قد جرعوا غصصا * من الرزايا بها كم فتت كبد
عزل ونصب وضرب بالسياط وحبـ * ـس ثم قتل وتوريث لمن ولدوا

وبمزاولة المطالعة تتسع دوائر المعارف ونطاق الطرائف واللطائف

(الفصل الخامس)

(فى سعة دائرة المعارف والاطلاع على التليد منها والطارف)

سعة دائرة المعارف عبارة عن كسب جميع حقائق حوادث المعارف البشرية لاتساع عقول ذوى الالباب الزكية وهى ثمرة الاكثار من بذل المجهود فى قراءة كتب العلوم والفنون

والفنون مما تقادم عهده أو تجدد وهى عبارة عن الجولان فى معرفة التاريخ ومعرفة الالسن ومعرفة الكتب المؤلفة فى أى فن من الفنون بأنواعها

فمن المعلوم ان الغرض الاصلى من العلوم والمعارف انما هو الانقياد لامر الله تعالى بما اقتضته الحكمة الربانية فى بعثه للرسل عليهم الصلاة والسلام حيث ان الحكمة فى بعثهم انما هى لانتظام أحوال العباد فى المعاش والمعاد مما لا يحصل الا بعبادة أو معاملة أو مناكحة أو جناية فكل بالغ عاقل مكلف بعلم الحلال والحرام والعمل به لينال سعادة الدارين لكونه عمل وعمل بما فيه السعادة لمعاشه ومعاده ولهذا كان الناس على أربعة أقسام مجموعة فى هذه الابيات وهى

أربعة فى الناس مرتبتهم * أحوالهم مكشوفة ظاهره
فواحد دنياه مقبوضة * تتبعها آخرة فاخره
وواحد دنياه ممدودة * ليست له من بعدها آخره
وواحد دنياه معمورة * كذاك أخراه غدت عامره
وواحد بينهم ضائع * ليست له دنيا ولا آخره

فالقسم الاول والثالث حسن وأحسن والقسم الثانى والرابع قبيح وأقبح ونظم بعضهم الاحسن والاقبح فى قوله

ما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا * وأقبح الكفر والافلاس بالرجل

مطلب ان أولى التعلم العلوم الشرعية لاسيما فهم الكتاب العزيز

ولا يتيسر معرفة امتثال أمر الشارع الا بعلم ما جاء به ولا يحصل العلم الا بالاشتغال به والجد فى طلبه واستجماع أصوله وفروعه ومكملاته ومتمماته فالاشتغال به أولى ما انفقت فيه نفائس الاوقات وهو ينحصر فى جنسين دنيوى وأخروى يعنى علوم المعاش وعلوم المعاد وقد اكرم الله سبحانه وتعالى الانسان وخلق له ما فى الكون من سائر المنافع وزينه بالعقل الذى يميز به بين الحسن والقبيح والضار والنافع والخطأ والصواب وجعل سبحانه وتعالى الانسان المتصف بالقريحة الذكية والملكة القويه موفقا لتحصيل العلم واستفادته واستنباطه وافادته وأولى العلوم بذلك العلوم الشرعية التى عليها مدار أحكام البلاد وراحة العباد وهى معرفة الله تعالى والتفسير والفقه والحديث فهذه هى المقصودة بالذات وما سواها من العلوم والفنون فهى لها كالآلات والاعانات فالعلوم الشرعية هى أهم مما عداها والاشتغال بها أوجب للحاجة اليها

والاضطرار الى معرفة الحلال والحرام واقامة الحدود والاحكام ولهذا كان أهلها أفضل من غيرهم فأما علم الكلام ففضله معلوم كما قيل

أيها المبتدي ليطلب علما * كل علم عبد لعلم الكلام
تطلب الفقه كي تصحح حكما * ثم أغفلت منزل الاحكام

وقيل للقاضي ابن الطيب ان قوما يذمون علم الكلام فأنشد يقول

عاب الكلام أناس لا خلاق لهم * وما عليه اذا عابوه من ضرر
ما ضر شمس الضحى فى الافق طالعة * ان لا يرى ضوأها من ليس ذا بصر

فكيف والقرآن مملوء بعقائد التوحيد وتقرير حججها على أكمل وجه فلهذا كانت عقائد التوحيد لا تقبل من الخلاف بين أهل الحق ما تقبله الفروع الفقهيه ولما لم تكن فى أزمنة الصدر الاول بدع يحتاج الى ردها لم يتكلم على علم الكلام أهل الصدر الاول ما تكلموا فى الفروع اكتفاء منهم بأدلة القرآن الواضحة لكل موفق الى أن ظهر أبو اسحاق الاسفرائينى وهاجت المبتدعة وكان قد صعد الى جبل لبنان كثير من الاولياء والاتقياء يختلون فيه عن الناس حيث كان متعبدا لهم فذهب اليهم أبو اسحاق الاسفرائينى فوجدهم يتعبدون فقال لهم هربتم الى هذا الموضع تتعبدون فيه وتركتم أمة النبي عليه الصلاة والسلام فى أيدى المبتدعة فقالوا له أيها الاستاذ لا قدرة لنا على مخالطة الخلق وأنت الذى قد أقدرك الله على ذلك فأنت أهله فرجع رضى الله عنه واشتغل بازدعاء على المبتدعة وألف كتابه الجامع بين الجلى والخفى فالاشتغال بعلم التوحيد مقدم على كل الواجبات فالسعيد من وفق لتحقيق عقائد إيمانه لما يراه من من النعيم والسرور بواضح برهانه ولكن لا ينبغى التغالى فى الدين كما لا ينبغى التساهل فيه لاسيما من أصحاب الحل والعقد والامر والنهى وقيل من عرى عن ايمانه تلاعب بدينه قال الشاعر

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا * فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع
فطوبى لعبد آثر الله ربه * وجاد بدنياه لما يتوقع

والاشتغال بالعلوم الشرعية أهم العلوم كلها وأما المفسرون فاشتغلوا بتفسير كلام الله تعالى وفهم معانيه واحكام آياته ومبانيه وتبيين مطلقه من مقيده ومبينه من مجمله ومحكمه ومتشابهه وقصصه ومواعظه ومنسوخه وناسخه فهم أساس الدين وأما الفقهاء فانهم خصوا بالاستنباط فى فقه الكتاب والحديث والتعمق بدقيق النظر

فى

فى ترتيب الاحكام وحدود الدين والترتيب بين الناسخ والمنسوخ وغيرهما فهم حكام الدين وأما أصحاب الحديث فانهم تعلقوا بظاهر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لان الله تعالى يقول وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا وقد اشتغلوا بسماعه ونقله وتدقيقه وتمييز صحيحه من سقيمه فهم حراس الدين

وقد جرت عادة الله تعالى فى خلقه على ممر الاعوام والدهور أنه لا يخلو زمن من الازمنة ولا قرن من القرون عن أئمة من العلماء الاعلام أعدهم لاقامة شرائع الاسلام وتقرير الحدود والاحكام وانه اذا انقرضت طائفة خلفتها أخرى كما فى الحديث الشريف لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك قال البخارى أراد طائفة أهل العلم ولا يزال الكتاب والسنة موجودين بين المسلمين ان شاء الله تعالى الى يوم الدين

مطلب انه لا يستغنى فى مملكة من الممالك عن تعلم الفنون والصنائع

ولما كانت عمارية المسالك والممالك لا تستغنى عن الفنون والصنائع وآلاتها وأدواتها يسر الله تعالى لكل زمن من الازمان أناسا أرباب براعة كاملة لاحياء ما به يكون العمران ويتسع التمدن فى البلدان فمن هؤلاء علماء التواريخ والعارفون بالالسن واللغات والمولعون بمطالعة الكتب ومعرفة مؤلفيها من مشاهير الرجال فهم أيضا مجددون للصناعة والبراعة فكل صاحب علم أو صاحب فن لا يتصف بسعة دائرة معرفته الا اذا اطلع على المؤلفات الجليلة من فنه فصاحب التاريخ لا بد أن يعرف جميع السير مما ورد فى الكتاب والاثر وأخبار الماضى والحال ليقيس على ذلك ما عساه ان يكون فى الاستقبال لاسيما تاريخ الملل والدول والنحل وما كان عندهم من التدبير والحيل ولكن لا بد ان يكون صاحب بصيرة نقاده وفكرة وقاده حتى يميز صحيح الوقائع من الاباطيل ولا يلتفت الى كل ما قيل من الاقاويل ولا يهمل معرفة تاريخ بلاده ووقائع مسقط رأسه وميلاده كما لا يهمل تاريخ العلوم والفنون

وأما صاحب الجغرافيا فلا بد أن يعرف كتب المسالك والممالك برية أو بحرية وجميع الاراضى والبلدان والجزائر قديمة أو حديثة ورسومها على خريطاتها واطالسها وعلى الاكر الارضية والسماوية والمسافات بينها وتجاراتها وأحكامها وشرائعها وعوائدها وطبائعها الى غير ذلك ولا بد ان يقف على آثار الاقدمين ويبحث عن تاريخ ازمانها وينبغى لصاحب اللغات ان يعرف اللغات التى تدونت بها علوم المتقدمين والمتأخرين مشرقية أو مغربية مهجورة أو مستعملة بحسب الامكان ليمكنه ان يراجع ما يحتاج

اليه عند الابان فان لم يتيسر له ذلك اطلع على الكتب المترجمة من تلك اللغات وأعظم ما ينفع في سعة الاطلاع والتضلع من العلوم والفنون اتقان صناعة الفصاحة والبلاغة التي هي شيء آخر غير معرفة النحو والعربية لان الكلام لايختص بمزية من الحسن حتى تتصف الفاظه ومعانيه بوصفي الفصاحة والبلاغة فالنظر بحسن الكلام انما هو من هذين الوصفين واما النحو فشيء آخر فلا ينبغي ان يستفتى في حسن الكلام الا الكتاب البلغاء أو الشعراء المفلقون لا علماء العربية فان أهل كل علم اعلم به وكما لا يسأل الفقيه عن مسألة حسابية فكذلك لا يسأل الحاسب عن مسألة فقهية وكذلك كما لا يسأل النحوى عن مسألة طبية كذلك لا يسأل الطبيب عن مسألة نحوية ولا يعلم العلم المخصوص الا صاحبه المتضلع منه فالذي يوثق به في معرفة الفصاحة والبلاغة علم البديع الذي هو فن عزيز في ذاته جميل في معانيه وصفاته شعر

مطلب الفصاحة والبلاغة وما يتعلق بذلك

شيء به فتن الورى غير الذي * يدعى الجمال ولست أدري ما هو

وكانت العرب العرباء يقولون البديع بطباعهم المفطورة على الفصاحة فكل عربي كان ملك القول واميره كامرئ القيس وانظاره ومن لطافته تراه يجرى على ألسنة العوام ويرد في الفاظهم من غير قصد ورب رمية من غير عناية وهو محبوب الى الناس قاطبة وما من أحد الا ويحب ان يتكلم فيه حتى العامة يدعونه وكلهم يخوضون في فن الكتابة والشعر وهم يظنون انهم عالمون به وربما فاضلوا بين الكتاب والشعراء ففضل الفصاحة والبلاغة لا ينكر وهما من أشرف الفضائل وأعلاها درجة ولولا ذلك لما افتخر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله أوتيت جوامع الكلم وهي لاتكون الا فصيحة بليغة وما سمع انه صلى الله عليه وسلم افتخر بشيء من العلوم سوى علم الفصاحة والبلاغة فلم يقل انه أوتي جوامع الحساب والطب ولا غير ذلك فلو لم تكن هذه الفضيلة أعلى الفضائل درجة لما اتصل الاعجاز بها دون غيرها فان كتاب الله تعالى نزل عليها ولم ينزل بمعجز من مسائل العلوم الاخر

ولما كانت هذه الفضيلة بهذه المكانة صارت في الدرجة العالية والمنثور منها أشرف من المنظوم لان الاعجاز انما اتصل بالمنثور دون المنظوم وأرباب النظم اكثر من كتاب المنثور لانا لو شئنا ان نحصي ارباب الكتابة والانشاء من أول الدولة الاسلامية والى الآن لما وجدنا منهم من يستحق اسم الكاتب الا أفرادا قلائل ولهذا قال بعض من انفرد في عصره بهذه الصناعة يحث من اجرى في بحر شربعتها شراعه

مطلب فضل المنثور على المنظوم

يا طالب الانشاء خذ علمه * من فعلي غير منكور
ولا تقف في باب غيري فما * تدخله الا بدستور

بخلاف الشعراء فان عددهم كثير حتى لقد يجتمع منهم في العصر الواحد جماعة كثيرون كل منهم شاعر مفلق وهذا لا نجده في كتاب الانشاء وربما ندر منهم الفرد الواحد في الزمن الطويل وليس ذلك الا لوعورة مسلك النثر وبعد مناله والكاتب المنشئ هو احد دعامتي الدولة فان كل دولة لا تقوم الا على دعامتين من السيف والقلم قال الشاعر

ان يخدم القلم السيف الذي خضعت * له الرقاب ودانت خوفه الامم
فالموت والموت لا شئ يعادله * ما زال يتبع ما يجري به القلم
كذا قضى الله للاقلام مذ برئت * ان السيوف لها مذ أرهفت خدم

والقلم في البيت الاول مفعول مقدم والسيف فاعل مؤخر وجواب الشرط محذوف تقديره فلا عجب في ذلك يدل عليه البيت الثاني وقال آخر

اذا افتخر الاجواد يوما بسيفهم * وعدوه مما يجلب الجود والكرم
كفى قلم الكتاب عزا ورفعة * مدا الدهر ان الله اقسم بالقلم

ومن نظر الى سرعة فصل الخصام بالسيف قدمه على القلم في الفضيلة كقول الشاعر

السيف أصدق أنباء من الكتب * في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في * متونهن جلاء الشك والريب

ولا شك ان الممالك المتمدنة ترى صناعة الكتابة أنفع وان كانت وظيفة السيف أرفع وقال بعضهم في مدح القلم

السيف والرمح خدام له أبدا * لا يبلغان به جدا ولا لعبا
تجري دماء الاعادي بين أسطره * فلا يحس له صوت اذا ضربا

وربما لا يفتقر الملك في ملكه الى السيف الا مرة أو مرتين وأما القلم فانه يفتقر اليه على الايام وكثيرا ما يستغني به عن السيف قال الشاعر

قوم اذا خافوا عداوة بينهم * سفكوا الدما بأسنة الاقلام
ولضربة من كاتب بلسانه * أمضى وأنفذ من رقيق حسام

(وقال آخر)

قوم اذا أخذوا الاقلام عن غضب * ثم استمدوا بها ماء المنيات
نالوا بها من أعاديهم وان قعدوا * ما لا ينال بحد المشرفيات

واذا سئل عن الملوك التى غبرت أيامهم لا يوجد منهم من حسن اسمه الا من حظى بكاتب خطب عنه وفخم أمر دولته وجعل ذكرها خالدا يتناقله الناس رغبة فى فصل خطابه واستحسانا لبديع كلامه فيكون ذكرها فى خفارة مادونه قلمه ورقمته أساطيره وليس الكاتب بكاتب حتى يضطر عدو الدولة ان يروى اخبار مناقبها فى حفله ويصبح ولسانه حامد لمساعيها وقلبه مابه غلة وهذا الذى ذكرناه صدق لا ينكره الا متعسف وبالجملة فانه يجب على صاحب صناعة الكتابة والانشاء ان يتعلق بكل علم وكل صناعة ويخوض فى كل فن من الفنون لانه مكلف ان يخوض فى كل معنى من المعانى لان كلامه يمر على اسماع شتى من خاصة وعامة وذوى افهام ذكية وينبغى ان تكون مفردات ألفاظه مفهومة لانها ان لم تكن كذلك فلا تكون فصيحة وان تكون مركباته مما تفهمه الخاصة والعامة مالم يكن مقصودا للخاصة فانه يتفاوت بدرجات من خوطب به ويكفى فى ذلك النظر فى كتاب الله تعالى فانه أفصح الكلام وقد خوطب به الناس كافة من خاص وعام ومع ذلك فمنه ما يسارع الفهم الى معانيه ومنهم ما يغمض فيعز فهمه الا للخواص وأيضا لا بد للكاتب الناثر من كونه ان لم يحسن الشعر لا بد أن يكون له فى دواوينه سعة اطلاع سواء كان من شعر العرب العرباء أو من شعر المولدين أو المخضرمين

مطلب وجوب تشبث صاحب الانشاء بفنون كثيرة تعينه على صناعته

وأول من شرع فى تقصيد القصائد واستن الشعر للعرب فاتبعوه وفتح لهم بابه فولجوه امرؤ القيس حيث استحسنت الاعراب تشبيهاته وسلكوا مذهبه فمن ذلك الوقت صارت معالم الشعر قائمة لا تلوى واعلامه منشورة لا تطوى ينفع ويضر ويسوء ويسر ويعزل ويولى قال الشاعر

فمن ذا رأى فى الورى خصلة * تقرب نأيا وتنئى قريبا
تميت وتحيى بأقوالها * وتفقر خصما وتغنى حبيبا

ومع ان امرأ القيس هو أول من حسن الشعر فى الجاهلية وجعله باللغة المألوفة فى تلك الازمان الجاهلية القديمة الا ان اشعار الاسلاميين المتقدمين صارت أرق من أشعار أهل الجاهلية وأشعار المحدثين ألطف من أشعار المتقدمين واشعار المولدين أبدع من اشعار المحدثين ثم كانت اشعار العصريين باعتبار التأخر أجمع لنوادر المحاسن واللطائف البدائع من سائر المذكورين ولانتهائها الى بعد غايات الحسن وبلوغها أقصى نهاية الجودة والظرف تكاد تخرج من باب الاعجاب الى الاعجاز ومن حد الشعر الى السحر

فكان

فكان الزمان يدخولنا من نتائج خواطرهم وثمرات قرائحهم وابكار أفكارهم ما نخوض به بحرهم العميق وما يكون لنا رفيقا اذا سلكنا تلك الطريق وأما منفعة الشعر عند العرب فانه كان ديوانهم الوحيد ومجمع سياستهم الفريد لانهم كانوا يرجعون اليه عند اختلافهم في الانساب والحروب فكان مستودع علومهم وحافظ آدابهم ومعدن أخبارهم ولم يزل له عند المتأخرين هذه المزية وقد قيل

الشعر يحفظ ما أودى الزمان به * والشعر أفخر ما ينبي عن الكرم
لولا مقال زهير في قصائده * ما كنت تعرف جودا كان في هرم

وقد تعاطى نظم الشعر من لا يحصى عددا من الخلفاء والملوك والامراء والوزراء والقضاة والزهاد والعلماء حتى ان جماعة من ملوك بني بويه أرشوا جماعة من الشعراء حتى نظموا لهم أشعارا فنسبوها لانفسهم لما زاد في ذلك من المنزلة الرفيعة وقد روى عن جماعة من الصحابة اشعار كثيرة حتى دونوا لامير المؤمنين على رضي الله عنه ديوانا ذكروا فيه أشعارا حسانا نسبوها اليه وقد وجد منها ما هو لعلى بن أبي طالب المغربي كالابيات المتعلقة بمدح العلم

مطلب فضيلة الشعر ونقعه اصحاب الانشاء

الناس من جهة الانساب اكفاء * أبوهم آدم والام حواء

فالشعر ديوان الادب وفخر العرب شرفه مخلد وسودده مجدد تفنى العصور وذكره باق وتهوى الجبال وفخره الى السماء راق ليس لما أثبته ماح ولا لمن أعذره لاح مات سحيم عبد بني الحسحاس وله ذكر أضوع من المسك وأنضر من الآس ولولا الشعر لما عرف ولا بالاجادة وصف وكم في بني حام من مجهول طغام لا يذكر ولا يشكر وقيل ان ابراهيم ابن المهدى لما اعتذر الى المامون وكلامه معروف قال للمأمون في جواب قوله أنت الخليفة الاسود. أما كوني أسود فقد قال عبد بني الحسحاس

أشعار عبد بني الحسحاس قمن له * يوم الفخار مقام الاصل والورق
ان كنت عبدا فنفسي حرة كرما * أو اسودا للون انى أبيض الخلق

فقال المأمون والله لوددت انهما لى بجميع ملكى يعنى البيتين وهذا جرير ابن الخطفى مع ضعة بيته وقلة أهليه وعدم نباهة جده وأبيه قد رفعه شعره وعمره قوله وشهر اسمه وخلد رسمه وضاهى الفرزدق وناواه وجاهره بالاهاجى وعاداه مع شرف الفرزدق وكرم أصله ولولا الشعر لكان بمعزل عن مجاراة مثله ولقد ذهب امرؤ القيس وأبوه

وملكه وأهلوه وبقي شعره وكلامه وحفظ قوله ونظامه وكم من ملك في كندة ذهبت منه العدو والعده مما تحسن نباته ولا يعرف اسمه ولا سماته وبقي امرؤ القيس ولقد ذهب ملك التبابعة والاكاسرة وزال سلطان المقاول والاساوره ولم يبق لهم سوى بيت سائر من مديح شاعر وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ان كعب بن زهير هجاه فهدر دمه فجاء متنكرا حتى دخل المسجد واستأذنه في إيراد مدحته فأذن له فقام بين يديه وأنشد قوله بانت سعاد فلما بلغ الى قوله

نبئت ان رسول الله أوعدني * والعفو عند رسول الله مأمول

قال عفا الله عنك وخلع عليه بردته وطيب نفسه وأمنه ولولا شعره لطاح دمه وحدث أبو غزية الانصاري قال لما أنشد حسان بن ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمته حتى وصل الى قوله

هجوت محمدا فأجبت عنه * وعند الله في ذاك الجزاء

تبسم صلى الله عليه وسلم وقال له جزاك الله الجنة على ذلك ثم أنشده

فان أبي ووالده وعرضي * لعرض محمد منكم وقاء

فقال صلى الله عليه وسلم وقاك الله حر النار

ولما قتل صلى الله عليه وسلم النضر بن الحارث أنشأت ابنته قتيلة تقول

امحمد ولانت نجل نجيبة * في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما * من الفتى وهو المغيظ المحنق
فالنضر أقرب من تركت وسيلة * وأحقهم ان كان عتق يعتق

فلما سمع شعرها قال وما ينطق عن الهوى لو سمعته قبل قتله ما قتلته ومن تأثير الشعر في النفوس ان سديفا دخل على السفاح وعنده بنو أمية على مراتبهم فأنشده

لا يغرنك ماترى من اناس * ان تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع الصوت حتى * لاترى فوق ظهرها امويا

(وأنشد أيضا)

أصبح الملك ثابت الاساس * بالبهاليل من بني العباس

حتى انتهى الى قوله

واذكروا مصرع الحسين وزيد * وشهيدا بجانب المهراس

يريد

يريد حمزة الذى استشهد بأحد بجانب المهراس والمهراس اسم ماء هناك فتأثر السفاح بذلك تأثرا بان فى صفحات وجهه وكان سببا لقتل بنى أمية مع ما كان فى النفس منهم والقول يفعل مالا تفعل الابر وأمر بضرب رقابهم عن آخرهم

وقال يحيى بن خالد سألنى رجل من بنى أمية ان أوصله الى الرشيد فقلت له ان أمير المؤمنين منحرف عن كل منتسب الى أمية فان كانت لك حاجة فأنا أقضيها لك فأبى الا الايصال اليه فعرفت الرشيد بذلك فأمر باحضاره فلم أرتب انه يمسى مقتولا فلما مثل بين يديه أنشد

يا أمين الله انى قائل * قول ذى عقل ودين وأدب
لكم الفضل علينا ولنا * بكم الفضل على كل العرب
عبد شمس كان يتلو هاشما * وهما بعد لام وأب
فصلوا الارحام منا انما * عبد شمس عم عبد المطلب

فقال له الرشيد صدقت متأثرا بقوله وقد عمل الشعر فى نفسه وأمر له بأربعين ألف درهم

ولما أخذ المعز العلوى مصر وجلس للهناء دخل عليه ابن هانئ الاندلسى واستأذنه فى الايراد فأذن له فأنشد قصيدة منها

ألا انما الايام أيامك التى * لك الشطر من نعمائها ولى الشطر

التفت المعز الى وزيره وقال له اكتبوا له بالاسكندرية وسلموها اليه من فيها فهى شطر قد حصصناه به هكذا كانت جوائز الشعراء ودخل بعض الشعراء على حسان بن جراح الطائى صاحب الشام وأنشده قوله

هل الوجد الا ان تلوح خيامها * فيقضى باهداء السلام زمامها

فلما بلغ الى قوله

ألا ان طيا للمكارم كعبة * وحسان منها ركنها ومقامها
تقل لك الارضون ملكا وأهلها * عبيدا فهل مستكثر لك شامها

وهبه جاها وأعمالها

ولما مدح أبو تمام أحمد ولد المعتصم بقصيدته التى أولها

مافى وقوفك ساعة من باس * تقضى زمام الاربع الادراس

حتى وصل الى قوله

إقدام عمرو فى سماحة حاتم * فى حلم أحنف فى ذكاء اياس

قال له بعض الحاضرين وهو يعقوب الكندي كيف تشبه ولد أمير المؤمنين باعراب الاجلاف وهو أشرف منزلة وأعظم محلة فانقطع وأطرق ثم رفع رأسه وأنشد مرتجلا

لا تنكروا ضربي له من دونه * مثلا شرودا في الندى والباس
فالله قد ضرب الاقل لنوره * مثلا من المشكاة والنبراس

فاهتز الامير لذلك طربا ووقع له بالموصل اجازة فهذا تأثير الشعر في النفوس فاذا تأملت في الواقع ونفس الامر رأيت ان الذي نفع أبا تمام في استدراكه معرفته بالكتاب الشريف وهذا من سعة الاطلاع التي هي انفع ما يكون للعلماء والادباء ومن أركان سعة الاطلاع معرفة الكتب المدونة في العلوم والفنون وما اشتملت عليه من المواد المهمة اجمالا ومعرفة حال مؤلفيها واختلاف معلوماتهم ودرجات الوثوق بهم تفصيلا فلابد من معرفة تمييز الكتب الجيدة التأليف المعتمدة النقل والتصنيف من غيرها ليعتمد الانسان على الصحيح منها ويترك غيره حتى يعد صاحب سعة اطلاع وينعقد على كماله في العلوم والمعارف الاجماع

مطلب ان سعة الاطلاع تكون بالوقوف على الكتب النفيسة

ولا شك ان الكتب هي ثمرات العقول وتأليفها نظما ونثرا موضوعه حفظ المعارف البشرية وتوسيع دائرتها وابراز أصول العلوم والفنون والاخلاق والعوائد وكل علم نافع واخراجه الى حيز الوجود فالكتب هي حاملة الشرائع والتواريخ والحوادث والاختراعيات والاستكشافات وماجريات الدنيا وهي عبارة عن معلمين وعاظ ومستشارين يرجع اليهم في جميع الامور تفيد من يرجع اليها جميع ما يجهله واذا فقدت الاساتذة وجدت الكتب فهي ترفع أرباب الحفظ الى درجة عالية وتسلي الانسان وتزيل همومه لا سيما اذا اتخذ مطالعة الكتب الادبية ديدنا كما قيل

واذا الهموم نزلن منك ولم تجد * أنسا ومل فؤادك الاحبابا
فاعمد الى الكتب التي قد ضمنت * أوراقها الاشعار والآدابا
فهي التي تنفي الهموم ولن ترى * أحدا له أدب يمل كتابا

فانظر تجد فرقا عظيما بين مسامرة المجالس المعتادة ومطالعة كتب الآداب والفنون التي ألفها أولوا الاذهان الوقاده فان الذكي يبحث عن الكتب الجيدة المقبولة التي تستنير بها العقول وترتاح اليها النفوس فأرباب الفطن تميل لليها اكثر من السماع من أفواه المتكبرين المعجبين بأنفسهم فمعرفة الكتب والتمييز بين الغث والسمين منها فن مخصوص لا يتصف به الا صاحب المعارف المتينة والمتفنن في العلوم جميعها حيث

لايخفى عليه جميع الكتب المنسوخة والمطبوعة ويعرف أهمية كل كتاب منها ودرجة منفعته وهل هو نادر أو كثير وهل هو غريب فى بابه وما درجة قيمته وهلم جرا

ومن المعلوم ان أصل التعلم انما يكون بالتلقى والاخذ من أفواه الاساتيذ حتى يتحصل الانسان على الملكة الصادقة التى يعتدّ بالحصول عليها التعلم منتهيا فمن قصر عن ذلك واستبد بأخذ العلم من الكتب دون مراجعة الاساتيذ فهو المقصود من قول الشاعر

كل من يطلب العلوم وحيدا * دون شيخ فانه فى ضلال

ليس فى الكتب والقراطيس علم * انما العلم فى صدور الرجال

وكذلك ينبغى ان يكون للعالم الواسع الاطلاع حافظة يستحضر بها القوانين العلمية بدون ان يكتفى بجميع الكتب للرجوع اليها عند الحاجة قال الشاعر

اذا لم تكن حافظا واعيا * فجمعك للكتب لا ينفع

اتحضر بالجهل فى مجلس * وعلمك فى البيت مستودع

ومن يك فى علمه هكذا * يكن دهره القهقرا يرجع

فما أحسن العلماء والحكماء والادباء وأرباب الفنون والصنائع اذا كان لهم سعة اطلاع وحفظ فمثل هؤلاء يحق لهم ان يتنافسوا فى كسب المعارف ليتجدد عندهم ثمراتها بمناسبة هذه الازمان الجديدة واتساع الاطلاع يفيد الكاتب أكثر مما يفيد الامى الحافظ

قال أبو هريرة ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم منى الا عبد الله ابن عمر فانه كان يكتب وأنا لا أكتب استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الكتابة فاذن له فقال يارسول الله أأكتب كلما أسمع منك فى الرضى والغضب قال نعم فانى لا أقول الا حقا

(الفصل السادس فى المنافسة فى كسب المعارف بين الاقران)

التنافس صفة نفسانية تبعث طالب العلم على ان يجتهد كل الاجتهاد ليفوق الاقران أو يساويهم وان يستقرى ويبحث عما يفعلونه من الحسن والطيب والملايم ليشارك الاقران فيه ويبرع فيه بجودة فهمه ودقة نظره فالتنافس غيرة محموده وغبطة معهوده مركوزة فى جميع النفوس الزكية تستحسن فضل الاقران وتذعن به كمال الاذعان فيتحرى صاحبها استسهال المصاعب وركوب متون الاخطار والمتاعب وان تنتقل همته من الثرى الى الثريا ليصعد بالمعارف مكانا قصيا كما قيل

أنى ينال محلة الجوزاء من * لا يستطيع من الصعود صعودا

فيصرف شدّ عزمه في علويات المعالي فيبني بها المباني العوالي كما قيل

شددت من اللوا مالم يشدّوا * وشدت من العلى مالم يشيدوا

بناؤك كله أجر وشكر * وما يبنون آجر وشيد

وينبغي لطالب المعالي ان لا يفوته شيء من فضل اخوانه وان يزاول كل المزاولة ان يتفوق على أقرانه فالمنافس يجتهد بغاية الحماسة والشدة ويجتهد في اجتهاده غاية الحدة ويسلك في بلوغ أمله المناهج الشريفة والمباهج المنيفة فسره ممدوح وصدره مشروح ويغذى بالفضائل الروح وكما حصل له الفتح الممنوح يحصل على يديه لمريديه منح الفتوح فلا يصبر الى ذهاب الشباب ولا اختلاق الاهاب كما قيل

سأنفق ريعان الشبيبة آنفا * على طلب العلياء أو طلب الاجر

أليس من الخسران أن لياليا * تمر بلا نفع وتحسب من عمري

ولا بأس على من تنافس في عرائس المعارف وحلاها باحسن لباس وجلها وجلاها على الناس

من علم الناس كان خير أب * ذاك أبو الروح لا أبو الجسد

(وقال آخر)

كن لاستاذك بالشكر مذ يعا وتحمل * لمربي الجسم فضل * ومربي الروح أفضل

وقال بعضهم الابوة على قسمين صلبية وقلبية وكذلك البنوة وما كان قلبيا أعظم شرفا مما كان صلبيا بدنيا

فالتنافس من حسن شمائل أعضاء الجمعية ومن أكمل فضائلها النفعية فهو صفة قلبية وخلة شديدة قوية ناشئة من حب الخير للوطنية تقوي الحواس الباطنية الممنوحة للانسان من فيض القدرة الالهية فالتنافس يعود على الممالك المتمدنة بمزيد المنافع وعلى سائر أعضاء المملكة بانارة مملكتهم بأنوار عقولهم السواطع وقد يرفع التنافس عقل صاحبه في أعلى عليين ويجعله في جميع درجات سنه على غاية من النشاط يشار له بأطراف البنان ويورث مجده للبنين ويتوجه بتاج القبول بين أقرانه ويجعله كالملك على اخوانه لاظهار حجة سلطانه وقيام حجة برهانه وربما ظهر التنافس لا شيء ببادئ الرأي أن التنافس رفيق الطمع وشقيق الحسد وان المتمسك به في سلك فيه من الحسد في السبيل الاسد مع انه ليس فيه شيء من هاتين الخلتين بل بينه وبينهما بون بعيد

في

فى الاثر والعين اذ ليس الغرض من التنافس حصر الفضل فى صاحبه ولا الاختصاص بمكاسبه ومواهبه بل مجرد التقدم فى المعارف والدخول مع الاقران فى ميدان السباق ليبادر كل منهم بالسعي واللحاق فبهذا يحسن حال المعارف البشرية وتبلغ درجة الكمال فالمنافس كالفارس الذى يدعو قرنه للدخول فى حومة النزال فلا يعلم أمفضول هو أم ناضل ومفضول أم فاضل ولا بأس بالسباق العمومى فى حلقة الفخار ولا بالتشبث فى كسب الاعتبار فمن لم يساعده مجال فطنته على كمال الفوقان فلا تخلو فروسيته عن كسب ثمرة تكافئ جريه فى هذا الميدان فقل ان يخيب تنافس المتنافسين فمن لم يكن من المصلين كان من المجلين

ومما يعد مثابة خسيسة لا منقبة نفيسة المنافسة فى الامور الدنيوية الدنيئة وزوائد الرفاهية الفانية فانه لا تحسن بها المباهاة ولا المفاخرة حيث لا نفع لها دنيا ولا آخرة فليست مما يعود بالنفع العام على أهل الوطن من خاص وعام كما قيل

لعمرك ما التنعم فى رياش * ولا ظبي يلاعب فى الفراش
ولا فى الكاس والاوتار قامت * لماجرد رقيقات الحواشى
ولا فى مرحة وركوب خيل * ولا صيد تراوغ عن خداش
ولكن التنعم فى انبساط * بلا قبض بغم ولا انكماش
وفى علم الامور لذى اطلاع * بصير فى مدى التفكير ماشى
بسوس الحال يفشي فيه نفعا * ويدفع بالتلطف ظلم غاشى
ففى فترات احداث الليالى * يريش وفى تصادمها يراشى
ويغضى عن عيوب أخيه صفحا * كأن لم يبد وهو اليه غاشى

وأما بعض المتفلسفين المتقشفين الذين يرون زينة الدنيا وطيباتها بعين الازدراء والاحتقار حيث ان الدنيا ليست بدار قرار فهم يذمون المنافسة ويرون انها محض طمع كما قال أبو نصر محمد بن محمد التركى الحكيم فيلسوف الاسلام الذى تخرج بكتبه الرئيس ابو على بن سينا وانتفع بكلامه هذه الابيات

أخى خل حيز ذى باطل * وكل الحقائق فى حيز
فما الدار دار مقام لنا * ولا المرء فى الارض بالمعجز
ينافس هذا لهذا على * أقل من الكلم الموجز
وهل نحن الا خطوط وقعـ * ـن على نقطة وقع مستوفز

محيط السموات اولى بنا * فاذا التنفس فى المركز

فالمنافس بقصد نفع وطنه الفاضل هو ما يوصف بالانسان الكامل فكيف وهو المؤثر المعرفة على النزاهة والمروءة على الفكاهة والفضيلة على الاعجاب وبهذا ينتظم فى سلك ذوى الالباب وان جميع نتائج درسه نافعة وثمار غرسه يانعة واذا اتسع عقله بالممارسة والتجربة صار من أرباب القرائح المخترعة المكتسبة

(الفصل السابع فى الروح والعقل والقريحة)

الروح هى أصل الحياة والحركة وأصل الاحساسات والادراكات والشهوات تهدى الانسان فى حركاته وسكناته وأفعاله وأقواله وبها امتاز عما سواه من باقى الحيوانات وهى من أصل الفطرة فى حد ذاتها طاهرة زكية وانما تولدت عنها الشهوات واللذات لما اتصلت بالاجسام الطبيعية ثم ان للروح استعدادات تتميز بها الا ان كنهها مغيب عن البشر لا يعرفون حقيقته وانما غاية ما يقال فيها انها جوهر متميز عن الجسم ومباين له حيث ان لها استعدادات على تجيز عمليات ليس من خواص المادة تجيزها فهى التى تدرك الاشياء بما فيها من المشابهة والمشاكلة والمباينة والمضادة وتجيل فيها الفكر وتقيم عليها الدليل وتنتج النتائج الصحيحة وتتبصر فى عواقب الامور وتقضى وتحكم بما يلزم وهذا لا يوجد فى المواد الجسمية

فهى مشتملة على أصل فعال يحملها على العمل أو الترك تبعا لما تدركه من الملاءمة وهذا الاصل الفعال هو الارادة التى تحمل على الاختيار فتختار ما يليق لها من أسباب السعادة بما تظنه كذلك ومن متعلقات الروح العقل والقريحة فالعقل قوة روحانية بها ادراك حقيقة الاشياء وقياس بعضها ببعض بما فيها من الجامع والحكم عليها بما يقتضى فالعقل فى الانسان هو الجزء الناطق المتفكر وهو عبارة عن قوة روحانية نورانية تدرك ماله وجود فى خارج العيان أو فى الاذهان على حقيقته وتدرك جميع العلاقات والمباينات فى المخاطبات والمحاورات فاذا أعرب المتكلم عما فى ضميره تصور عقل السامع اذا كان سليما قويا صحة الكلام أو فساده من أول وهلة وبقدر ادراك الانسان النسب والعلائق بين الكائنات التى حوله تكون جودة عقله على حسب قوة هذا الادراك

فالعقل

فالعقل هو الوسيلة الوحيدة فى التصور والتصديق وتمييز الحقائق على وجه دقيق عميق واذا كان حادا ذكيا متوقدا يخترع ويبتدع كان قريحة فالعقل الواسع يدرك العلاقات المتولدة بين الاشياء ومن أول وهلة يحفظ فروعها وتشعباتها وينسبها الى أصل واحد ومركز عمومى يجمعها حتى تصير بالنسبة للعقل معلوما واحدا ومستحضرة فيه بصورة واحدة فتنتقش فى مرآة العقل المعلومات تأصيلا وتفريعا فى صورة جلية فالمدرك لهذه الصورة هو القريحة فلا يتصف بالقريحة الا من اتصف بسعة العقل ولكن قد يتصف الانسان بسعة العقل ولا يكون متصفا بالقريحة اذ كل منهما ممتاز عن الآخر لان القريحة دائما نشطة شغالة فعالة ولادة متصورة بخلاف العقل ولو متسعا فانه فى الغالب مثله كمثل التاجر يعطى ويأخذ مع الفتور والكسل وقلة الحماس والسرعة ولا مانع ان يقال ان القريحة هى أعلى درجات أفكار العقل البشرى بقدر ما يستطيع ان يتفكر فهى بهذا المعنى أجل نعم البارى سبحانه وتعالى اذ بها يكون للانسان ملكة الوقوف على الحقائق والدقائق والرقائق وبها ربط التصورات المتجددة العجيبة التى تدركها النفس والاختراعات والابتداعات التى لا على مثال سابق فالقريحة تجمع أطراف التصورات والتصديقات المتفرقة بما تدرك فيها من العلاقات وتصرف التصرف التام فى هذا الجمع

مطلب كون نتائج القريحة عن ارادة واختيار لا بالصدفة والاتفاق

وأكثر الناس ممن لا يمعن النظر فى القريحة يعتقد انها حاسة قوية فى النفس تهديها بالصدفة والاتفاق الى صوب أى شئ من الاشياء فتخبط بها خبط عشواء كالدولاب الذى يتحرك بنفسه حركة قسرية حتى يصل بالصدفة والاتفاق الى عمل يعمله بدون ارادة ولا اختيار أو كمنبع ينصب ماؤه فى أى محل كان ويتركه فلا يعيده اليه وليس الامر كما يعتقدون بل هو كما أسلفناه قوة فعالة تبرز عملها على الاشياء بفن مخصوص وارادة مخصوصة تجرى التصرف فى مفعولها بجميع التصرفات المطلوبة وتشكله بأشكال حقيقية مرغوبة فهى كالخبير بفن التشريح يميز أجزاء الاعضاء التى تبحث عنها وتنظر فيها وتقيس نسب أجزائها المؤتلفة ولو تباعدت فهى كالمرآة الصقيلة التى تنطبع فيها صور الاشياء أو كآلة عمومية نباشة ثاقبة فى بحثها عن الاشياء ومن أفضل وظائفها انها لا تزاول البحث عن المستحيل الذى لا يتصور وجوده ولكن عن استخراج الجائز الممكن الوجود ولو متعاصيا فكل من اتصف بالقريحة المتصرفة هذا التصرف حكم له بقوة روحه واتساع عقله وسرعة حكمه وانتاجه وانه جوهرى العقل

مطلب كون القريحة كامنة فى الانسان كمون المعادن فى باطن الارض تبرز بالبحث والاصلاح

وقد اقتضت الحكمة الالهية ابداع القريحة العقلية فى دماغ الانسان لتكون كابداع المعادن النفيسة فى باطن الارض فان المعادن فى باطن الارض غير مصقولة ولا متشكلة بأشكال منتظمة بل مشوبة باخلاط وأجزاء أجنبية فلا تنظف وتظرف الا بالفن والصناعة وكذلك القريحة فان العلوم والفنون تعمل فيهما ما تعمله تصفية المعادن النفيسة بازالة ما خالطها من المواد الاجنبية ولا تزيد فى جوهرها بل تبرزها على ما أرادته الحكمة الالهية واذا قويت القريحة فى العلوم والفنون والصنائع و بلغت فيها درجة كمال كانت آلة للاختراع والابتداع حتى لا يكون لتصرفها نهاية ولا لحسن تدبيرها غاية وقد سلف لنا انها هى العقل الكامل الذى يدرك العلاقات بين الاشياء ومن هذه العلاقات ما يكون بين الفنون الادبية والعلوم الحقيقية

(الفصل الثامن فى العلاقة بين الفنون الادبية والعلوم الحقيقية)

الفنون الادبية المسماة بعلوم العربية وهى النحو والصرف والبيان والمعانى والبديع والخط والعروض والقوافى وقرض الشعر والانشاء والمحاضرات ولاسيما اللغة وكل ما يعين على تحسين العبارات العلمية كلها آلة للعلوم الحقيقية عقلية أو نقلية فبالتمكن من الفنون الادبية يقتدر الانسان على التعبير عما فى الضمير بأحسن عبارة وأوضح اشارة ويحصل على ملكة تأدية العبارات العلمية بما يقتضيه الحال من اختصار أو بسط فمن هذا يفهم ان المعارف الادبية والعلوم الحقيقية متعلق بعضهما ببعض لكمال ما بينهما من الروابط والمناسبات وان كلا منهما متوقف على الآخر واذا نظرنا الى ما سبق من التقدمات العلمية فى البلاد المتمدنة كبلاد اليونان وبلاد الرومانيين وبلاد الاسلام وجدنا ان دراسة الآداب فى مدن آسيا و رومه وبغداد ومصر وغيرها حسنت دراسة العلوم الحقيقية وان دراسة العلوم الحقيقية كست المعارف الادبية حلل البهجة والرونق وزادتها تحسينا وتكميلا

مطلب التعاون بين العلوم الحقيقية والادبية لمن جمع بينهما من الامم المتمدنة

فكل من النوعين العلميين اقتبس من الآخر مازاده بهجة وكمالا ولما كانت بهجة اليونان لم تكمل الا بالجمع بين النوعين سعدت بذلك وتمتعت بفضل الحكمة والآداب واشتهرت بذلك أكثر من غيرها وصارت العلوم الادبية والعلوم الحكمية متقاربة فى التمكن والتقدم خصوصا فى مدينة اثينه وهى مدينة حكماء اليونان وكذلك الرومانيون فكانت فى زمن القيصر أغسطوس أدباؤهم وحكماؤهم على حد سواء فى التقدم

التقدم والتكامل لاسيما في مدينة رومه وكانت اذذاك رومه حاكمة على أثينه بقوة سلاحها وشوكة حكامها وان تساوى المدينتان في العلوم والآداب وسعة الاطلاع وأما الازمان الحديثة كايام الخلفاء في البلاد المشرقية والمغربية فقد تقدمت الفنون الادبية والعلوم الشرعية النقلية والعلوم الحكمية والعقلية وتولع هؤلاء الخلفاء بالبحث عن ترجمة كتب اليونان في دواوينهم بلغة العرب الفصحى فسارت الآداب والعلوم في الخلافة الاسلامية سيرا واحدا متحد الخطوة وصارت علوم الاقدمين وآدابهم وتواريخهم معلومة للمتأخرين مع ما أضيف الى ذلك من تاليف علماء الاسلام وتصانيفهم وما تجدد من نتائج قرائحهم الذكية وثمرات عقولهم المنيرة مع ما توارثوه في الادبيات من أسلافهم وهم العرب العرباء قال عتبة بن أبي سفيان ان للعرب كلاما هو أرق من الهواء واعذب من الماء مرق من أفواههم مروق السهام من قسيها بكلمات مؤتلفات ان فسرت بغيرها عطلت وان بدلت بسواها من الكلام استصعبت فسهولة ألفاظهم توهمك انها ممكنة اذا سمعت وصعوبتها تعلمك انها مفقودة اذا طلبت بلغتهم نزل القرآن وبها يدرك البيان وكل نوع من معناه مباين لما سواه والناس الى قولهم يصيرون وبهديهم يأتمون أكثر الناس أحلاما وأكبرهم أخلاقا وآباؤنا كانوا كراما وهم على العموم أعز الناس أنفسا لم ينقادوا الى أجنبي من الملوك بل سلكوا في حفظ حريتهم أحسن السلوك ومن أعزهم نفسا وأشرفهم همما الانصار وهم الاوس والخزرج أبناء قيلة لم يؤدوا إتاوة قط في الجاهلية الى أحد من الملوك وكتب اليهم تبع أبو كرب يدعوهم الى طاعته ويتوعدهم ان لم ينقادوا له فكتبوا اليه

مطلب فضل العرب ولسانهم اه

العبد تبع كم يروم قتالنا * ومكانه بالمنزل المتذلل
انا أناس لا ينام بأرضنا * عض الرسول هنا لأم المرسل

فلما دنا لقتالهم كانوا يقاتلونه نهارا ويخرجون اليه القرى ليلا فندم من قتالهم ورحل عنهم فكل عزيز نفس من العرب يرى في نفسه الملوكية وانه سيد حيه وقبيلته وأكرمها

واذا سألت عن الكرام وجدتني * كالشمس لاتخفى بكل مكان

وبالجملة فالعلوم الادبية تكسو العلوم الحقيقية طلاوة وحلية فانه لو صار في التآليف والتصانيف سرد مسائل أي علم كان بعبارة بسيطة مجردة عن التحلي بحلية الانشاء والادب ولم يصر تلطيفها بما يسيغها في ذوق القارئ لكانت مسائلها ركيكة غير رائقة

فلابد لمسائل العلوم من حسن التوقيع وفصاحة العبارة وتحسينها ليمتاز بل عن ذهن القارئ وعساء السآمة فحسن العبارة فى تقرير المسألة العقلية والنقلية هو ذكرها على وجه لطيف مقبول للعقل ليستفيدها السامع وتلتذ بها المسامع فنهاية الآداب تحسين العبارات وتزيينها بالتلطيف والانسجام لتكون بهذا المعنى مفتاحا لابواب العلوم الحقيقية كما ان العلوم الحقيقية تعين بالكلية والجزئية على كمال توسيع دائرة الآداب فى كل لسان لاسيما لسان العرب ولذلك تجد الفنون الادبية عند الامة القليلة الحضارة والعمارية التى دائرة علومها ومعارفها الحقيقية ضيقة النطاق لم تزل فى حالة الطفولية وأدباؤها يشبهون الصغير فى المهد لا يعرف الا المناغاة فلا يستطيع الاديب منهم ان يميز الغث من السمين ولا ان يأتى المعارف العالية من أبوابها فلاجل اجتناء ثمرات المعارف فى تلك البلاد يجب غرس الآداب فيها وتعويد عقول أهلها على التدقيق والترقيق فى الكلام والنظر فى العلاقات التى بين الفنون الادبية والعلوم الحقيقية فبهذا تتقدم الآداب والعلوم وبامتزاجهما يحصل التناسق كما هو معلوم قال الشاعر

مطلب كون العلوم الحقيقية والادبية قليلة التقدم عند الامم القليلة الحضارة اه

اذا ما الفكر ولد حسن لفظ * وأسلمه الوجود الى العيان
ووشاه فنمنمه مجيد * فصيح فى المقال وفى اللسان
ترى حلل البيان منشرات * تجلى بينها صور المعانى

ففنون الآداب آلات قوية لسائر العلوم الحقيقية والتضلع منها يحتاج الى تسهيل الاسباب والوسائل لتنتشر فى الاوطان وتجلب معها أعظم الفضائل وكمال العرفان

(الفصل التاسع)

(فى ذكر الطرق المسهلة لتقدم العلوم والآداب وطريق الحصول عليها والاكتساب)*

أعظم الوسائل والوسائط التى تعين على تقدم العلوم والفنون فى مملكة من الممالك هو تشويق صاحب المملكة للادباء والعلماء بالمكافأة اللائقة والتحف الملائمة لانه ينتج من التشويق المنافسة والمقارنة وينشأ عن ذلك سعادة المملكة بوجود الرجال فى محط الرجال كما ينشأ عن ذلك أيضا اصلاح أحوال الاهالى فالملك العاقل والامير الفاضل والسلطان العادل هو من يسعى دائما فى اسعاد دولته وارشاد سلطنته باسعاد افراد الاهلين المساعدين على نفع وطنهم فالحاكم الذى يعشق علو الشان ويقيم على محبة وطنه

مطلب تشويق ولاة الامور لنشر المعارف

وطنه الحجة والبرهان يتخذ قواعد حكمه وضوابط ملكه تشريف أهل الفضل ومكافأة أهل النبل سواء كانوا من أرباب التأليف والتصنيف أو من أهل التعليم والتفهيم أو من أصحاب الاختراع والابتداع حتى يشهرهم بالشهرة الممدوحة ليبقى ذكرهم وآثار مجدهم معلومة التاريخ لمن يأتي من بعدهم فلا تزال في أوطانه أشجار المعارف مثمرة وأغصان اللطائف مزهرة وتكثر المسابقة والمنافسة وتستمر الدراسة والممارسة وتفيض على المملكة بحار المعارف والعوارف ويبدو صلاح اللطائف والطرائف وتقوى ينابيع العلوم والفنون وتتسع مقالات الشروح والحواشي والمتون

مطلب ان الحكمة الالهية اقتضت ان المعارف والتقدمات البشرية كالماء تفور وتغور على التعاقب وتنتقل

وقد اقتضت الحكمة الالهية ان الكائنات الفطرية قابلة للتغيير والتبديل لاسيما العقول البشرية فانها كالجنود المجندة تجرد دائما الاتساع ممالكتها سيوف الذكاء المهندة فكما أن النور مدى الازمان في حرب مع الظلمة والعلم يحارب الجهل والوحشة فكذلك مصابيح المعارف بهذا المعنى تستنير تارة وتنطفئ أخرى وينتقل نورها الى مملكة يرى وجوده فيها أجدر وأحرى

مطلب الرحلة في العلم

فبهذا صح عند الاقتضاء الانتقال عن الاوطان لاكتساب فضائل العرفان فمن لم يجد معلما يعلمه في بلده أو وطنه ما يحتاج اليه من أمر دينه أو معاشه فليرحل وجوبا في الواجب وندبا في المندوب اقتداء بالسلف الصالح والخلف الناجح فقد رحل موسى الى الخضر عليهما السلام للاستفادة منه ورحل جابر بن عبد الله الانصاري رضي الله عنه مسيرة شهر الى أنيس بن عبد الله في طلب حديث واحد ورحل عقبة بن الحارث من مكة الى المدينة في مسألة واحدة قال القاضي الفاضل في بعض رسائله ما أعلم ان لملك من الملوك رحلة في طلب العلم الا للرشيد فانه رحل بولديه الامين والمأمون لسماع الموطأ على الامام مالك وكان أصل الموطا بسماع الرشيد في خزانة المصريين قال ثم رحل لسماعه السلطان صلاح الدين بن أيوب بولديه الافضل والعزيز الى الاسكندرية فسمعه على ابن طاهر بن عوف ولا أعلم لهما ثالثا فالسياحة أمر عظيم في تكميل النفس لان السياح يلقى أفاضل مختلفين فيستفيد من كل واحد فائدة مخصوصة وقد يبلغ مبلغ الاكابر من الناس فيستحقر نفسه في مقابلتهم وقد يصل الى المدارس الكبيرة

فينتفع بها وقد يشاهد اختلاف أحوال أهل الدنيا بسبب ما خلق الله في كل طرف من الاحوال الخاصة بهم فتتقوى معرفته

وبالجملة فالسياحة لها أمر قوي في أمر الدين والدنيا وبهذا تستنير الممالك بالتناوب فمصابيح العلوم أشبه بالكواكب ذوات الاذناب تنتشر في الافق انتشارا مؤقتا وهي سريعة الزوال ولا تعود الى محلها الا بعد قرون وأجيال فلا بأس اذا ضعف نور التمدن في مملكة من ان تعود الى رتبتها الاولى لا سيما اذا سخر الله لها ملكا مجددا صاحب قريحة عظمى ويدطولى وللآخرة خير لك من الاولى

(الباب الرابع)

(في ذكر الوطن وتمدينه وبيان ان أعظم أسباب ذلك التربية والتعليم واستكمال)
(المعارف والتعميم وفيه فصول)

(الفصل الاول في الكلام على الوطن)

الوطن هو عش الانسان الذي فيه درج ومنه خرج ومجمع أسرته ومقطع سرته وهو البلد الذي نشأته تربته وغذاؤه هواؤه وربأه نسيمه وحلت عنه التمائم فيه قال أبو عمرو بن العلاء مما يدل على حرية الرجل وكرم غريزته حنينه الى أوطانه وتشوقه الى متقدم اخوانه وبكاؤه على ما مضى من زمانه والكريم يحن الى أحبابه كما يحن الاسد الى غابه ويشتاق اللبيب الى وطنه كما يشتاق النجيب الى عطنه فلا يؤثر الحر على بلده بلدا ولا يصبر عنه أبدا قال الشاعر

بلاد بها نيطت على تمائمي * وأول أرض مس جلدي ترابها

(وقال آخر)

بلد صحبت بها الشبيبة والصبا * ولبست ثوب العيش وهو جديد
فاذا تمثل في الضمير رأيته * وعليه أثواب الشباب تميد

وكان الناس يتشوقون الى أوطانهم ولا يفهمون العلة في ذلك حتى أوضحها على بن العباس الرومي في قصيدة لسليمان بن عبد الله بن طاهر يستعديه على رجل من التجار يعرف بابن أبي كامل أجبره على بيع داره واغتصبه على بعض جدرها فقال

ولي وطن آليت ان لا أبيعه * وان لا أرى غيري له الدهر مالكا
عمرت به شرخ الشباب ونعمة * بصحبة قوم أصبحوا في ظلالكا

وحبب

وحبب أوطان الرجال اليهم * مآرب قضاها الشباب هنالكا
اذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم * عهود الصبا فيها فحنوا لذلك
فقد ألفته النفس حتى كأنه * لها جسد إن بان غودر هالكا

ولا يبعد العاقل عن الوطن الا طلب العلى اذا لم يمكن فيه قال صاحب لامية العجم

إن العلى حدثتنى وهى صادقة * فيما تحدث ان العز فى النقل
لو أن فى شرف المأوى بلوغ منى * لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل

وقال من تحير فى الحل والارتحال

وبقيت بين عزيمتين كلاهما * أمضى وأنفذ من شباة سنان
هم يشوقنى الى طلب العلى * وهوى يشوقنى الى الاوطان

وقد جرت العادة ان البعيد عن الوطن الذى قضى فيه جزأ من شبابه يتشوق اليه سواء كان من أهل البدو أو من أهل الحضر فأهل البدو يتأسفون على فراق نجد ويحنون اليها حنين المتأسفين على غوطة دمشق وقصور مدينة السلام وتحف الجزيرة ومستشرف الخورنق وجوسق سر من رأى من كل من بعد منهم عن بلده وطال مقامه بغيره واذا أبدينا بعض محاسن أم الدنيا والنعمة التى هى كائنة الله فى أرضه ظهر لنا أنها تعد أول وطن من أوطان الدنيا يستحق ان تميل اليه قلوب بنيه وانه أحق أن تحن اليه نفوس مفارقيه من ذويه

مطلب ان مصر لاهلها احسن وطن

ولا يشك أحد أن مصر وطن شريف ان لم نقل انها أشرف الامكنة فهى أرض الشرف والمجد فى القديم والحديث وكم ورد فى فضلها من آيات بينات وآثار وحديث فما كأنها الا صورة جنة الخلد منقوشة فى عرض الارض بيد الحكمة الالهية التى جمعت محاسن الدنيا فيها حتى تكاد أن تكون حصرتها اى أرجائها ونواحيها بلدة معشوقة السكنى رحبة المثوى حصباؤها جوهر وترابها مسك أذفر يومها غداة وليلها سحر وطعامها هنىء وشرابها مرىء واسعة الرقعه طيبة البقعه كأن محاسن الدنيا عليها مفروشه وصورة الجنة فيها منقوشة واسطة البلاد ودرتها ووجهها وغرتها بلد كم خرج منه من كبار ملوك وسلاطين وحكماء وأساطين وكم نبعت منه عيون علوم وانجلى به من البلاد سحائب غيوم فمن ذا يضاهى مصر فى كمال الافتخار أو يباريها فى الجمال والاعتبار أمتها أول أمه فى المجد وعلو الهمه

بها الميل فى الاسلام سادوا ولم يكن * كأولهم فى الجاهلية أول

هـم القوم ان قالوا أصابوا وان دعوا * أجابوا وان أعطوا أطابوا وأجزلوا
موصوفة عند الجميع بالشجاعة والحماسة والكياسة والرئاسة فضلا عن الذكاء والفطنة ولطافة العوائد والاخلاق مما سارت به الركبان بسيرتهم الحميدة فى سائر الآفاق فلها الحق فى أن يحترمها جميع الامم والملل وملوك الدنيا والدول فكم اقتبسوا منها فى الازمان الخالية أنوار العلوم والمعارف التى طوقت أجياد الدنيا وصارت بها فى الدرجة العالية

ولم تزل الى الآن فخاركل زمان كما لم تزل آثار محاسنها زينة لكل مكان حظها من التمدن عظيم ورونق تاجها در نظيم فهى الكنانة ذات المنعة والمكانه التى قيل فيها

وكنانة الله التى كم فوقت * منها وان بعد العدو سهام
وقديمة شاب الزمان وحسنها * باق ولم تهرم لها اهرام
واذا سطا حر الهجير فماؤها * وهواؤها برد به وسلام
وغنية بالنيل عن نيل الحيا * وله أياد فى الوفود جسام
وعن المطى المثقلات وحملها * بالمنشئات كانها أعلام
من كل باسطة الجناح كأنها * لما تسير بالرياح غمام
تسرى بمن فيها وهم فى غفلة * وكذا ليالى الدهر والايام
وعزيز مصر على السرير تهابه الـ * دنيا ولم يبعد عليه مرام

يقال ان من خصائص مصر كثرة الدنانير بها وان من دخل بها ولم يستغن فلا أغناه الله ولا عبرة بما قاله بعضهم فى تفضيل بغداد عليها

يقولون مصر أخصب الارض كلها * فقلت لهم بغداد أخصب من مصر
وما مصر الا بلدة مثل غيرها * تعاقبها الايام بالعسر واليسر
ولكنكم تطرونها بهواكم * ولم تخل أرض من محب ومن مطرى
والا فأين الخصب عن معشر بها * يقاسون أنواع العذاب من الفقر
وما خير قوم تجدب الارض عندهم * بما فيه خصب العالمين من القطر
اذا بشروا بالغيث ريعت قلوبهم * كما ريع فى الظلماء سرب القطا الكدرى

وقال بعضهم من خصائص مصر ان المصرى لا يرى مستوطنا فى غيرها الا فى الذل وكانت تحية ملوكها وعظمائها أيها العزيز كما نطق به القرآن الشريف وبالجملة

فالبلاد

فالبلاد تمدح وتذم فقد كان يقال الدنيا بصرة ولا مثلك يا بغداد وكان الحجاج يقول الكوفة جارية جميلة لا مال لها فهي تخطب لجمالها ونحن نقول مصر جارية عروس محلاة بالمال والجمال فهي تخطب لمالها وجمالها فهي الآن مجمع التالد والطارف ومعدن المحاسن واللطائف وبها منافع أرباب النهايات في كل فن باديه وهي حاضرة افريقه وما عداها بادية

قال بعض من سكن سواها وهو يهوى سكناها فآها على الديار المصرية وأوقاتها وسقيا لمعاهد أنسها النفسها ولذاتها الذاتها ورعيا لتلك المنازل التي * لا تخرج الاقمار عن هالاتها * وحفظا لتلك الوجوه التي * للشمس أضواء على جبهاتها * وشكرا للنفوس التي * المجد يغلبها على شهواتها *

ذكر الانام لنا فكان قصيدة * أنت البديع الفرد من أبياتها

(شعر)

قضيت أطيب ليلتي منعما * فيما يلذبه فؤاد العاشق
في ليلة قمر السماء مغازلي * وبليلة قمر الزمان معانقي

فكيف وهي على ممر الليالي والايام منبع السعادة ووارثة دار السلام وزينة بلاد الاسلام مليكها عزيز وأهلها أهل كرامة وتعزيز محبوبة من أبناء الاوطان متمسكة بحديث حب الوطن من الايمان وهي ان شاء الله تعالى في أمان واطمئنان من حوادث الزمان حيث ان عزيزها

أقام منار الحق حتى اهتدت به * وأبصرها من لم يكن قط أبصرا
وعادت على الدنيا عوائد فضله * فأقبل منها كل ما كان مدبرا

(الفصل الثاني)

(في ابناء الوطن وما يجب عليهم)

قد اقتضت حكمة الملك القادر الواحد أن أبناء الوطن دائما متحدون في اللسان وفي الدخول تحت استرعاء ملك واحد والانقياد الى شريعة واحدة وسياسة واحدة فهذا مما يدل على ان الله سبحانه وتعالى انما أعدهم للتعاون على اصلاح وطنهم وان يكون بعضهم بالنسبة الى بعض كاعضاء العائلة الواحدة فكأن الوطن انما هو منزل آبائهم وأمهاتهم ومحل مرباهم فليكن أيضا محلا للسعادة المشتركة بينهم فلا ينبغي ان تتشعب الامة الواحدة الى أحزاب متعددة بآراء مختلفة لما يترتب على ذلك من التشاحن

مطلب لزوم اتحاد الكلمة في أهل الوطن

والتحاسد والتباغض وعدم أمنية الوطن فلا يتمنى بعضهم سعادة نفسه وشقاوة غيره لاسيما وان الشريعة والسياسة سوّت بينهم وأوجبت عليهم ان يكونوا على قلب رجل واحد وان لا يعتقدوا لهم عدوّا الامن يوقع بينهم الفشل بخداعه ليختل نظام ملكهم وينحل انتظام سلكهم فهذا هو العدوّ المبين الذى لا يحب أن يكون أهل الوطن على وطنهم آمنين ولا بحريتهم متمتعين

ثم ان ابن الوطن المتأصل به أو المتجمع اليه الذى توطن به واتخذه وطنا ينسب اليه تارة الى اسمه فيقال مصرى مثلا والى الاهل فيقال أهلى أو الى الوطن فيقال وطنى ومعنى ذلك انه يتمتع بحقوق بلده وأعظم هذه الحقوق الحرّية التامة فى الجمعية التأنسية ولا يتصف الوطنى بوصف الحرّية الا اذا كان منقادا لقانون الوطن ومعينا على اجرائه فانقياده لاصول بلده يستلزم ضمنا ضمان وطنه له التمتع بالحقوق المدنية والتمزى بالمزايا البلدية فبهذا المعنى هو وطنى و بلدى يعنى انه معدود عضوا من اعضاء المدينة فهو لها بمنزلة أحد أعضاء البدن وهذه أعظم المزايا عند الامم المتمدنة وقد كان أهالى غالب الامم محرومين من تلك المزية التى هى من أعظم المناقب وكان ذلك فى الازمان التى كانت فيها أوامر ولاة الامور جارية على هوى أنفسهم يفعلون ما شاؤه وقد كانت الاهالى إذ ذاك لا مدخل لها فى معارضة حكامهم ولا محاماة لهم عن أحكام الشريعة فكان لا يمكنهم أن يخبروا ملوكهم بما يرونه غير موافق أو يكتبوا شيئا فيما يخص السياسات والتدابير ولا يبدوا آراءهم فى شئ فكانوا كالاجانب فى أمور الحكومة وكانوا لا يتقلدون من الوظائف والمناصب الا ما هو دون استحقاقهم والآن تغيرت الافكار وزالت عن أبناء الوطن هذه الاخطار فالآن ساغ للوطنى الحقيقى أن يملأ قلبه بحب وطنه لانه صار عضوا من أعضائه

مطلب توجه ابناء الوطن لكسب وطنهم الفضيلة

فالوطنى المخلص فى حب الوطن يفدى وطنه بجميع منافع نفسه ويخدمه ببذل جميع ما يملك و يفديه بروحه و يدفع عنه كل من تعرض له بضرر كما يدفع الوالد عن ولده الشر فينبغى أن تكون نية ابناء الوطن دائما متوجهة فى حق وطنهم الى الفضيلة والشرف ولا يرتكبون شيئا مما يخل بحقوق أوطانهم و اخوانهم فيكون ميلهم الى ما فيه النفع والصلاح كما ان الوطن نفسه يحمى عن ابنه جميع ما يضره لما فيه من هذه الصفات فحب الاوطان وجلب المصالح العامة للاخوان من الصفات الجميلة التى تمكن من كل

واحد

واحد منهم في جميع أوقاته مدة حياته وتجعل كل انسان منهم محبوبا للآخرين فما اسعد الانسان الذي يميل بطبعه لابعاد الشر عن وطنه ولو باضرار نفسه

فصفة الوطنية لا تستدعى فقط ان يطلب الانسان حقوقه الواجبة له على الوطن بل يجب عليه أيضا أن يؤدي الحقوق التي للوطن عليه فاذا لم يوف أحد من أبناء الوطن بحقوق وطنه ضاعت حقوقه المدنية التي يستحقها على وطنه

مطلب أخذ الرومانيين الايمان من الوطني على محاماة وطنه

وقد كان الرومانيون في قديم الزمان يجبرون الوطني الذي بلغ من العمر عشرين سنة أن يحلف يمينا أنه يحامي عن وطنه وحكومته فيأخذون عليه عهدا بذلك وصيغة اليمين أشهد الله على اني أحمل سلاح الشرف لأمانع به عن وطني وأهله كلما لاحت فرصة أتمكن فيها من مساعدته وأشهد الله على اني لحماية الوطن والدين أحارب منفردا أومع الجيش وأشهد الله على اني لا أكدر صفو وطني ولا أخونه ولا أغدر به واني أركب البحار أيامّا لزم ذلك في جميع الغزوات التي تأمر بها الحكومة وعلى أني أحافظ على امتثال القوانين والعوائد المقبولة في بلادي الموجودة في الحال وما يتجدد منها وأشهد الله ان لا أتحمل أحدا يجسر أن يخل بها وينقص انتظامها انتهى

فمن هذا يفهم ان أمة الرومانيين كانت متشبثة بحب وطنها ولهذا تسلطت على بلاد الدنيا بأسرها ولما انسلخت عنها صفة الوطنية حصل الفشل بين أعضاء هذه الملة وفسد حالها وانحل عقد نظامها بتعدد اختلاف أمرائها وتعدد حكامها فبعد أن كانت محكومة بقيصرة واحدة انقسمت في المشرق والمغرب بين قيصرين قيصر رومة وقيصر القسطنطينية وكانت الشوكة لباع طويل فصار أمرها الى باعين قصيرين فآل أمرها في جميع الحروب الى الانهزام ورجعت بعد كمال الوجود الى الانعدام وهكذا شأن الملة المختلة الحكومة والدولة الغير المنظومة

(الفصل الثالث في الملة والدولة في العرف وما يتعلق بذلك)

الملة في عرف السياسة كالجنس جماعة الناس الساكنة في بلدة واحدة تتكلم بلسان واحد وأخلاقها واحدة وعوائدها متحدة ومنقادة غالبا لاحكام واحدة ودولة واحدة وتسمى بالاهالي والرعية والجنس وأبناء الوطن وينبغي أن تكون الامة المستحقة لأن تتصف بهذه الصفات وتتلقب بهذه الاسماء ذات شهامة وشجاعة وذكاء وميل الى حب المجد والفخار وشرف العرض تحب حريتها وتتولع بقوة رئيس دولتها وتنقاد لقوانين مملكتها وسياستها

ولا جائز أن تستغني الامة عن رئيس يحسن سياستها وتدبير مصالحها فبدونه لا تأمن على التمتع بحقوقها المدنية ومزاياها البلدية ولا تحفظ نفسها ولا مالها ولا عرضها فالرئيس المعنون له بأي عنوان كان من ألقاب رياسة الدولة هو المحافظ على اجراء الاحكام والقوانين وعلى حفظ الشريعة والدين فيلزم لنظام الدولة نوعان من التربية لتكون مهذبة مرتبة احدهما تربية أبناء الملوك أو رؤساء الدولة والثانية تربية أبناء الوطن

مطلب تربية أبناء الملوك والامراء

فأما تربية أبناء الملوك فانها تحتاج الى كثرة الاحتفال بتعليمهم جميع ما يتعلمه أبناء الوطن من العلوم الاولية لاسيما علم اللسان قال أبو عثمان دخلت على أمير المؤمنين المعتصم بالله فقلت له يا أمير المؤمنين في اللسان عشر خصال أداة يظهر بها البيان وشاهد يخبر عن الضمير وحاكم يفصل بين الخطاب وناطق يرد به الجواب وشافع تدرك به الحاجة وواصف تعرف به الاشياء وواعظ يعرف به القبيح ومعز تدرأ به الاحزان وخاصة تزهي بالصنيعة وملهي يونق الاسماع وقال الحسن البصري ان الله تعالى يرفع درجة اللسان فليس من الاعضاء شئ ينطق بذكره غيره

رأيت العز في أدب وعلم * وفي الجهل المذلة والهوان
كفى بالمرء ذما أن تراه * له وجه وليس له لسان

(وقال آخر)

فان كنت ذا عزم ورأي وهمة * فلا تحتقر علما ولا ترض بالدون
فان رداء الجهل أقبح ملبس * وفيه عزيز القوم قد خص بالهون

وقال خالد بن صفوان ما الانسان لولا اللسان إلا ضالة مهملة أو بهيمة مرسلة أو صورة ممثلة وقال بعضهم فيما يعارض ذلك وضمن في البيت الحديث الشريف

الصمت أزين ما يكون وانما * يأتي البلاء من الكثير المنطق
لا تلفظن بما يعيبك نطقه * فتقول ويلي ليتني لم أنطق
واذا أردت سلامة من منطق * فاحبس لسانك في اللهاة وأطرق
واحذر لسانك أن تقول فتبتلى * ان البلاء موكل بالمنطق

وذكر الصمت عند الاحنف فقال رجل الصمت أفضل وأحمد فقال الاحنف صاحب الصمت لا يتعداه نفعه وصاحب المنطق ينتفع به غيره والمنطق الصواب أفضل يعني من الصمت كما ان الصمت أفضل من المنطق الغير الصواب وبالجملة فخير الامور أوساطها والجمع بين الطرفين ممكن لكامل العقل فعلى العاقل الحازم أن لا يكون مهذارا مكثارا

مكثارا كما انه لا يكون صمته من طبع البهائم مستعارا وحسبك من اللسان فضلا أنه آلة لشكر الخالق والخالق وواسطة فى حفظ الروابط والعلائق فقد قال بعض السلف لصانع المعروف اجلال القلوب وثناء الالسن وحسن الاحدوثة وذكر العاقبة وفخر الاعقاب وقال بعضهم

أحسن من كل حسن * فى كل وقت وزمن
صنيعة مشكورة * خالية من المنن

مطلب الحث على تحسين النطق

وروى عن النبى عليه الصلاة والسلام انه قال رحم الله امرأ أصلح من لسانه وسمع عمر بن عبد العزيز رجلا يتكلم فأبلغ فى حاجته فقال هذا والله السحر الحلال وقال مسلمة بن عبد الملك ان الرجل يسألنى الحاجة فتستجيب نفسى له بها فاذا لحن انصرفت نفسى عنها وقال بعض الحكماء لأولاده يا بنى أصلحوا من ألسنتكم فان الرجل لتنوبه النائبة فيستعير الدابة والثياب ولا يقدر أن يستعير اللسان وكان شبيب بن شيبة اذا رأى رجلا يتكلم فأساء القول قال يا ابن أخى الادب الصالح خير من المال المضاعف وقال الشاعر

وكائن ترى من صامت لك معجب * زيادته أو نقصه فى التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وقال أبو عثمان للمعتصم حض يا أمير المؤمنين أولادك بأن يتعلموا من كل الادب فانك ان أفردتهم بشئ واحد ثم سئلوا عن غيره لم يحسنوه فدعا المعتصم مؤدب ولده فأمره أن يأخذهم بتعليم جميع العلوم انتهى

اذا المرء لم يرو العلوم فيعتلى * فابصاره بالعين مثل حجابه
وما ذو الحجا فى درسه العلم ذو حجا * ولكنه ان زاد زاد حجابه

وكذلك يجب على المربى لابناء الملوك والسلاطين ان يهتم بتعليمهم بما يلزم فى تمكينهم من العلوم الادارية وأصول السياسة والرئاسة ليحسنوا التدبير على وجه الذكاء والكياسة فما أسعد الملة التى تمكن رئيسها فى زمن شبابه من المعارف والحكمة وتلقن الادارة الملكية من أرباب الفضائل المجربين المتصفين بالاخلاق الحميدة والآراء السديدة والحائزين لاصول وفروع العلوم السياسية ولا يليق ان تفوض تربية أبناء الملوك لارباب الدناءة ولا لارباب البدع والاوهام ولا لاصحاب الاطماع لان العدوى تسرى فتفسد الطباع ولا ينبغى ان يقتصر فى تعليم أبناء الملوك على خصوص الاحكام

بتفويض أمر تربيتهم الى من لا يعرف آداب الملوك ولا علم تهذيب الاخلاق والسلوك بل ينبغي ان يفوّض أمرهم لاساتيذ متفننين ليكونوا لوطن في اعتقاد فضلهم على يقين وقد ذكر العلماء رحمهم الله تعالى ان الولي ينبغي له تأمل حال الصبي وما هو مستعد له من الاعمال متهيئ له منها فيعلم انه مخلوق له ولا يحمله على غيره ما كان مأذونا له فيه شرعا فانه ان حمله على غيره ما هو مستعد له لم يفلح فيه وفاته ما هو متهيئ له فاذا رآه حسن الفهم صحيح الادراك جيد الحفظ واعيا فهذا من علامات قبوله للعلم وتهيئه له فلينقشه في لوح قلبه ما دام خاليا فانه يتمكن منه ويستقر ويزكو معه وان رآه بخلاف ذلك من كل وجه وهو مستعد للفروسية وأسبابها من الركوب والرمي واللعب بالرمح لاحظ له في العلم ولم يخلق له مكنه من أسباب الفروسية والتمرن عليها فانه أنفع له وللمسلمين وان رآه بخلاف ذلك وانه لم يخلق لذلك ورأى عينه مفتوحة الى صنعة من الصنائع مستعدا لها قابلا لها وهي صناعة مباحة نافعة للناس فليمكنه منها هذا كله بعد تعليمه ما يحتاج اليه في دينه فان ذلك واجب على كل أحد لتقوم حجة الله على العبد فان له على عباده الحجة البالغة كما له عليهم النعمة السابغة

قال صاحب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك أمير الامراء وفخر الكبراء السيد خير الدين باشا التونسي في كتابه عند ذكر المواد المسهلة للعارف في أوروبا مانصه * من عادتهم أن من يبلغ من ابناء العائلة سن التربية ينتخب له رئيس تلك العائلة معلمين مهرة يعلمونه من فنون العلم ما يناسب حاله والمراد منه من كل ما يهذب أخلاقه ويوسع في المعارف نطاقه فاذا بلغ من التعلم أشده يوجه الى الممالك الاجنبية لمشاهدة أحوالها ومطالعة سياستها وأحكامها وما لها من التقدم في العمران وغيره ليتحقق بالمشاهدة ما بينها وبين بلاده من التفاوت ليعتبر أسباب ذلك وقت مباشرته لسياسة المملكة فيجتنب ما تأخرت به بلاده ان رأى غيرها خيرا منها ويعتني بما تقدمت به ان رآه دونها فاذا بلغ من العمر نحو ثمان عشرة سنة يصير من أعضاء المجلس الاعلى يحضره ولا يكون له كلام فيه الا اذا بلغ من العمر خمسا وعشرين سنة وفائدة ذلك التدرب على الامور السياسية ومثافنتها (أي ممارستها وملازمتها) حتى يستكمل الملكة فيها مع ما يحصل له بذلك من الخبرة بطبقات رجال السياسة المتأكد معرفتها على من يترشح للرئاسة التي هي أعظم الخطط البشرية وأصعبها فيجب على متقلدها من الاستعداد والمعرفة بمقتضيات الاحوال المختلفة ما لا يجب على غيره لاسيما

معرفة

معرفة أهل الخبرة والمروءة والنجدة من رجال المملكة لينتخبهم للخطط المعتبرة مع التفطن لدسائس الحساد والمفسدين فان المطلوب من الملوك هو مجرد فصل النوازل الشخصية كما هو مشاهد في بعض الممالك الاسلامية ولا مباشرة جزئيات الادارة التي يمكن اجراؤها بغيرهم من الموظفين وانما المطلوب منهم النظر في كليات الامور من معرفة الرجال اللائقين بالخطط وامتحانهم وتعقبهم بالمراقبة لارشاد جاهلهم وزجر متجاهلهم وتفقد أحوال الرعايا والاعانة على تكثير الصنائع والعلوم الموصلة الى تهذيب الاخلاق ونمو الارزاق والعناية بتنظيم العساكر البرية والبحرية وتحصين الثغور بالعدد المانعة والقوة الدافعة لحفظ الدين والوطن واصلاح أحوال الخالطة السياسية والمتجرية مع الدول الاجنبية بما ينمو به عز المملكة وثروتها الى غير ذلك من الكليات فان سعادة الممالك وشقاوتها في امورها الدنيوية انما تكون بقدر ما تيسر لملوكها من ذلك وبقدر مالها من التنظيمات السياسية المؤسسة على العدل ومعرفتها واحترامها من رجالها المباشرين لها

نقل عن المؤرخ بوليبوس اليوناني الذي تكلم على سياسة الامة الرومانية وما وقع بينها وبين أهل قرطاجنة من الحروب انه قال في معرض الاستدلال على ان المباشر للأمر يلزمه أن يكون عارفاً بأصوله ما معناه اذا كان المريض لا يرتجى له حصول العافية على يد طبيب يجهل نوع المرض والدواء المناسب له فكذلك المملكة لا يرجى خيرها واستقامتها اذا كان وزراؤها المباشرون يجهلون أصول سياستها وقوانين شرائعها وعاداتها ولا يخفى ان حصول خير المملكة اذا كان يمتنع بسبب الجهل بأصول السياسة فامتناعه اذا انضم لذلك عدم وجود تلك الاصول بالكلية أحرى وأولى لان السبب في الحالة الاولى دائر بين الجهل والتجاهل وكلا هما أمر عارض تمكن ازالته بتبديل المباشرين وارشاد جاهلهم والزام متجاهلهم بالجريان على الاصول المحفوظة أما اذا لم يوجد من تلك الاصول شيء يرجع اليه وسند مضبوط يقع التعويل عند الاشتباه عليه فان هاته الحالة يتسع فيها مجال الاغراض والشهوات من الآمر والمأمور وربما يؤول أمر الدولة الى الاضمحلال والدثور ولله عاقبة الامور انتهى

(قوله ولا يكون له كلام فيه الا اذا بلغ من العمر خمسا وعشرين سنة الظاهر ان هذه المدة كانت محددة لابناء أعضاء المجلس العالي بفرانسا حين كان منصب الاعضاء متوارثا وأما أبناء العائلة الملوكية الذين هم أعضاء بالنسب لذلك المجلس فكان رأيهم مقبولا

متى بلغوا من العمر ثمان عشرة سنة لا يناس الرشد منهم فى هذا السن لانه يلاحظ فيهم انهم يلتبسون عادة معلومات ليست فى غيرهم من صغر سنهم فاذا بلغوا الثمانية عشرة سنة كانت لهم هذه المزية فى المجلس الاعلى دون أبناء أربابه)

وأما تربية الاهالى فهى تربية بما يليق بجميعهم على العموم وبالنسبة للياقة كل منهم على الخصوص وقد سبق طرف من ذلك فى الابواب السابقة فى كيفية انقسام العلوم لجميع ابناء الوطن من ذكور واناث وسيأتى لذلك بعض بقايا متفرقة

ومما ينسب للقاضى عياض من رسالة له لا بد لكل حين من بنين يحلون عاطله ويحلون فضائله ولكل مجال رجال يقومون بأعبائه ويهيمون فى كل واد بأنبائه ولئن كانت جمرة الادب خامدة وجذوته هامدة فلن يخليه الله من هلال يشرق بسمائه بدرا ولا زال ينبع فيقذف بفضائله بحرا وشبل يشد وفيزأر من غابه ليثا وطل يبدو من ربابه غيثا انتهى

ويقاس على الادب بقية العلوم التى منها السياسة فلكل زمان من ذلك دولة ورجال قال الشاعر

انما الانسان صفو وقذا * ويوارى نفسه بيض وجون
لا تكن محتقرا شأن امرئ * ربما كانت من الشأن شؤن

(وقال آخر)

اذا ليلة هرمت يومها * أتى بعد ذلك يوم فتى

مطلب تقديم الخديو لمصره بتجليتها بمحاسن عصره

وكما قيض الله سبحانه وتعالى لكل عصر من ينظم محاسن أبنائه فى سطور الطروس وينوه بشرف فضلائه الجالب لاحاديثهم مسرة النفوس وابقاء فضيلة نوع الانسان تذكيرا بمخ القادر الديان وفاء بحق من تقدم على من تأخر وان ينشر من محاسنه ما يؤثر ويسطر قيض الله لهذا العصر العزيز المنفرد فى وقتنا هذا بالحزم والعزم بالقدح المعلى خديو مصر اسمعيل الذى هو لمملكة مصر نعم المولى حيث أعاد اليها معالمها الشريفة وأوجد فيها من المتجددات كل تليدة وطريفه واقتحم فى ذلك الاخطار لنيل هذه الاوطار اذ لولا ذلك لجهل قدر المتقدمين وضاع ما تعب فيه سعيهم فلم يلحق المتأخرين فجزاه الله عن هذا السعى المشكور خير جزاء يرفل به فى حلل السرور حتى جعل مصر دائما تنشده

كسوتنى حلة تبقى محاسنها * فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
ان الثناء ليحيى ذكر صاحبه * كالغيث يحيى نداه السهل والجبلا

قيل علوم الملوك النسب والخبر والشعر وعلوم السلاطين المغازى والسير ولهذا قيل

شرف الملوك بعلمهم وبرأيهم * وكذاك أوج الشمس فى الجوزاء

وعلم التجار الحساب وعلم الكتاب الخط واللغات ومدار العلوم على أربعة النحو لتقويم اللسان والطب لتقويم الابدان والحكايات لتقويم المروءات وحسن التدبير لتقويم المعاشات وهذا كله بعد تقويم الاديان وتمكن أهل الدين الحق من معرفة ما جاءت به الاحاديث الشريفة ونطق به القرآن

والوسيلة فى استجماع هذه الاربعة فن الخط فقد قيل للخط فضل وشرف ومنفعة لا تجهل بل تعرف به تقيد العلوم وتثبت وتزرع فى الصدور فتنبت ألم تسمع ربك الاكرم حيث يقول فى الكتاب المحكم علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم وقال عليه الصلاة والسلام قيدوا العلم بالكتابة وخرج ابن شاهين عن أبى هريرة ان رجلا قال يارسول الله انى لا أحفظ شيئا فقال استعن بيمينك على حفظك يعنى الكتابة ولما عدمت العرب الكتابة فى الجاهلية وكانت أمة أمية جعل لها الشعر العوض فأدركت به الغرض اقامته مقامها فدونت به كلامها وعرفت به أيامها كما يروى الشعر ديوان العرب وفضل الكتابة شهير والكلام فيها وفى مدحها كثير ومن أمدح ما قيل فى كاتب

إن هز أقلامه يوما ليعملها * انساك كل كمى هز عامله
وان أقر على رق أنامله * أقر بالرق كتاب الانام له

والبيت الاخير من الشعر النفيس وفيه ضرب من التجنيس ويكفى صاحب الخط مدحا ما قال عمر بن الخطاب من خط وخاط وفرس فذاكم الغلام

وعلى ذكر القرآن الشريف فقد قال العلماء ينبغى لقارئ القرآن ان يراعى عشرة أشياء الاول ان يفهم أصل القرآن بأن يعلم ان الله تفضل على العباد بانزاله الثانى ان يعظم القرآن ولا يمسه الا بطهارة قال تعالى لا يمسه الا المطهرون وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم من قرأ القرآن ثم رأى ان أحدا أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر ما عظم الله تعالى الثالث ان يحضر قلبه ويترك حديث نفسه الرابع ان يتفهم كل آية وفيم

مطلب آداب قارئ القرآن

أنزلت الخامس ان يتدبره و يستنبط معانيه السادس ان يتبين الاوضح من اختلاف معانيه السابع ان يقدر بأن المخصوص بأحكامه نفسه لاغيره الثامن ان تكون افعاله على وفقه التاسع ان يقدر بأنه يسمع من الله العاشر أن يعلم ان توفيقه لقراءته والعمل به من الله تعالى روى عنه صلى الله عليه وسلم ان الله يريد العذاب بأهل الارض فاذا سمع تعليم الصبيان الحكمة صرف ذلك عنهم قال مروان يعني بالحكمة القرآن وروى عنه صلى الله عليه وسلم أكثروا من تلاوة القرآن في بيوتكم فان البيت الذى لا يقرأ فيه القرآن يقل خيره و يكثر شره و يضيق على أهله (أي يضيق رزقه عليهم لان البركة تابعة لكتاب الله حيثما كان كانت) وورد عنه صلى الله عليه وسلم ان من اجلال الله تعالى اكرام ذى الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالى فيه والجافى عنه واكرام ذى السلطان المقسط

والملوك أحق الناس بتدبير معانى القرآن الذى هو حجة الله على عباده من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر فهو حبل الله المتين وصراطه المستقيم

وقد قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله) أي دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم (ينصركم) أي على عدوكم فانه الناصر لا غيره من عدد أو عدد (و يثبت أقدامكم) أى فى القيام بحقوق الاسلام والمجاهدة مع الكفار

قال ابن مسعود اذا أردتم العلم فاقرؤا القرآن فان فيه علم الاولين والآخرين (أى الاصول) وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه لو طهرت قلوبنا ما شبعت من كلام الله وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه وهو غاية مطلوبه

قال بعض المحققين ان كلام الله رسالة من الله لعباده ومخاطبة لهم وهو البحر المشتمل على جواهر العلم المتضمن لظاهره و باطنه ولهذا قاموا بآداب سماعه ورعوه حق رعايته وقد تجلى لخلقه فى كلامه لو كانوا يعقلون وكذلك كلام رسوله صلى الله عليه وسلم مما يتعين حسن الاستماع اليه لانه صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى انتهى

وقال الشيخ عبد العزيز الديريني ان الله عز وجل أنزل مائة وأربعة كتب فاودع علومها فى أربعة كتب التوراة والانجيل والزبور والقرآن وأودع علم التوراة والانجيل والزبور فى القرآن وأودع علم القرآن فى المفصل وهو من الحجرات الى آخر القرآن واودع ذلك فى الفاتحة ففيها علم كل كتاب أنزله الله عز وجل ومن قرأها فكأنما

قرأ

قرأ جميع الكتب المنزلة وبيان ذلك ان جميع أسماء الله تعالى في ضمن بسم الله هذا هو الاسم الجامع وفيه معنى الجلال وفي الرحمن الرحيم معنى الجمال وكل ما ورد من الثناء الحسن على الله تعالى في ضمن قوله الحمد لله فان الحمد جامع لكل ثناء حسن وكل ما ورد في ذكر المخلوقات في ضمن قوله رب العالمين فان العالم لفظة تدل على كل موجود سوى الله وجل وكل ما ورد من الانعام والاحسان الى سائر الخلق في ضمن قوله الرحمن الرحيم وكل ما ورد في ذكر القيامة والثواب والحساب والعقاب في ضمن قوله مالك يوم الدين وكل ما ورد في الاحكام من الامر والنهي وجميع الفقه في ضمن قوله اياك نعبد وكل ما ورد في التوحيد ورؤية الافعال من الله عز وجل في ضمن قوله واياك نستعين وكل ما ورد في سلوك الطريق الى الله تعالى وذكر المقامات من التوبة والمحاسبة والخوف والرجاء والمراقبة والحياء والزهد والورع في ضمن قوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم وكل ما ورد في ذكر الانبياء والاولياء والصديقين والشهداء والصالحين في ضمن قوله صراط الذين أنعمت عليهم وقد بين الله عز وجل ذلك في قوله الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وكل ما ورد في القرآن مفصلا ورد في الفاتحة مجملا ولذلك سميت أم القرآن وأم الكتاب وفاتحة الكتاب وتسمى الكافية لانها تكفي في الصلاة وسماها الله تعالى صلاة بقوله قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين وهي ركن من أركان الدين وهذه السورة من أجل النعما وأكرم الحسنى انتهى وأول دار فتحت في المدينة المشرفة للعلوم سميت دار القراء فقد قال الواقدي ان عبد الله ابن أم مكتوم قدم مهاجرا الى المدينة فنزل دار القراء انتهى

قال بعضهم فاذا رأيت الرجل ذوقه ووجده وطربه وتشوقه في سماع الابيات دون سماع الآيات وفي سماع الالحان دون سماع القرآن فهذا من أقوى الادلة على فراغ قلبه من محبة الله وكلامه وانه مغرور يعتقد أنه على شئ

فالقرآن الشريف أساس الدين الذي هو أساس المملكة فلا قوام لها الا به ولا تثبت أركانها الا عليه وهو اقامة منار الاسلام واظهار شعائر الحق واتباع أحكام الشرع والعمل بالفرائض والسنن ومندوبات الشريعة واقامة الحدود وامتثال أمر الشارع والانتهاء عن نواهيه وإيصال الحقوق الواجبة الى أربابها والعمل بما يرضي الله سرا وعلانية فانه لا دوام للملك ولا بقاء للسلطنة بدون هذه الاشياء فمعرفتها على الملوك أوجب من غيرهم وتعليم هذه الاشياء على الوجه الاكمل لا يكون غالبا الا من خصائص الرجال

فلهذا تعين ان تكون السلطنة فيهم دون النساء اللاتى فى الغالب لا يستطعن ان يتعلمن هذه المعارف الحكمية المهمة فى المملكة والسلطنة والخلافة حيث ان الخلافة التى هى الامامة العظمى خلافة النبى صلى الله عليه وسلم كانت من خصائص الرجال وكذا نيابا تهافى الخطط الجسيمة وليس عدم استخلاف النساء لعدم وجود من يصلح لذلك فقد قال عروة بن الزبير لذكوان لو كانت إمرة لامرأة بعد النبوة لاستحقت عائشة الخلافة كما سيأتى توضيح ذلك فى الفصل الآتى وكذلك لما لم تكن النبوة الافى الذكور دون النساء لم تكن السلطنة فيهم الانادرا وقد اقتضت الحكمة الالهية انه لم يكن فيهن فى قديم الاحقاب حكيمة اشتهرت بحكمتها ولا من تفلسفت بافراط معرفتها وانما من تولى منهن السلطنة فانما كان أكثر ذلك عن وراثة والحكمة ليست كذلك

(الفصل الرابع فى قصر رتبة السلطنة والاعمال السلطانيه على الرجال دون النساء)

قد قضت الشريعة المحمديه وقوانين غالب الممالك بقصر السلطنة على الرجال دون النساء وان النساء لا يتقلدن بالرتب الملوكية ولا يلبسن التاج الملوكى بل تكون المملكة متوارثة فى سلسلة الذكور الا فيما ندر من الممالك المبيحة لذلك وأما القضاء فليس لهن فيه حظ ولا نصيب قال الشاعر

انما حاكم حكمه ماضى * وأحكام زوجته ماضيه
فياليته لم يكن قاضيا * وياليتها كانت القاضيه

يشير بذلك الى ان النساء لهن النفوذ على أزواجهن وسبب هذا ان النساء فى الغالب وصفهن النقص عن الرجال فى مهمات الامور الحسية والمعنوية فلا يستطعن لما فيهن من الضعف ان يتحملن اعباء المملكة الثقيلة كما قال الشاعر

كتب القتل والقتال علينا * وعلى الغانيات جر الذيول

يقال انه فى حرب الحرة أتى عتاب بن ورقاء بامرأة من الخوارج فقال لها ما الذى حملك على الخروج علينا أما سمعت قول الله تعالى

كتب القتل والقتال علينا * وعلى الغانيات جر الذيول

فقالت جهلك بكتاب الله هو الذى أخرجنى عليك وقبل هذا البيت بيتان وهما

ان من أكبر الكبائر عندى * قتل بيضاء حرة عطبول
قتلت هذه على غير جرم * ان لله درها من قتيل

وهذه الابيات لعمر بن ربيعة رثى بها عمرة زوجة المختار الثقفي لما قتلها مصعب بن الزبير عقب قتل المختار حيث سألها عنه فقالت كان رجلا صالحا ولا شك ان حلية النساء الحناء أي الزينة وحلية الرجال الدم أي الشجاعة كما قلت

ماصفات الفتى كمثل فتاة * لاولا في حلاهما بالسواء
فخضاب الحنا لكف الغواني * ولكف الرجال خضب الدماء

(وقال آخر)

خلقنا رجالا للتجلد والاسى * وتلك الغواني للبكى والمآتم

فعلى مقتضى هذا كن يملن بالطبع للافراح والاتراح ولنفوسهن الى كلا النوعين ارتياح يحكى ان معاوية قال لرجل من اليمن ما كان أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة يعني بلقيس فقال أجهل من قومي قومك الذين قالوا حين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ولم يقولوا ان كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا اليه وهذا من الاجوبة المسكتة ولعل وجه عدم تولية النساء القضاء والامامة والمناصب العامة كونهن عورة لا يقدرن على مخالطة الرجال في الوفاء بفروض المناصب العمومية ولهذا لما كانت الخيزران أم الهادي والرشيد حاكمة في خلافة ابنها الهادي مستبدة بالامور الكبار وكانت المواكب تغدو الى بابها زجرهم الهادي عن ذلك وكلمها بكلام صعب وهو ان وقف بباب أمير لاضربن عنقه أمالك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو سبحة فقامت من عنده وهي لا تعقل شيئا من الغضب وقيل ان ذلك كان سبب موته

قال بعض أهل السياسة ان التعليل بالضعف عن القيام باعباء الملك أمر أغلبي فقد عهد في النساء بعض ملكات أحسن السياسة والرئاسة على عمالكهن واكتسبن قصب السبق في ميادين الفخار وذكر أسماء من تملك من النساء وقام باعباء المملكة فمنهن بلقيس ملكة سبأ باليمن وسميرة ملكة نينوى وبابل والزبا المشهورة بالملكة القاهرة في العرب والملكة أمنسه والملكة طماهوموت والملكة طوسير وقلو بطره ملكة مصر وزنوبيه ملكة تدمر بالشأم التي اتسع ملكها بالشأم وغيره وشجرة الدر أم خليل قرينة الملك الصالح ملكة مصر وبلنشه ملكة فرانسا التي تملكت بعد زوجها لويز الثامن بالنيابة عن ابنها سنت لويز والملكة ايليزابيته والملكة ستورت ملكة الانكليز والملكة كترينه الثانية ملكة الموسقو والملكة ماريه تريزه ملكة المجار

مطلب ذكر عدة من النساء اللاتي تولين الممالك اصالة أو نيابة

والملكة نوستيا انه ملكة اسوج فكانوا أحرزن حسن التدبير والادارة وأقمن البراهين على لياقة النساء لمنصب السلطنة

بلقيس ملكة سبا باليمن

فأما بلقيس فهي بنت هدهاد من ولد يعرب بن قحطان كان أبوها ملك اليمن كلها ومات ولم يخلف من الولد غيرها فجلست بعده على سرير ملك اليمن وأطاعها الملوك وكانت كاتبة قارئة عربية عادلة في أحكامها تجلس من كل أسبوع يوما للحكومة وتحتجب عن الناس ترخي ستورا رقيقة بحيث تراهم ولا يرونها وجميع الناس وقوف في حضرتها مطرقين رؤسهم من هيبتها واذا كان لاحد عندها حاجة سجد لها أولا ثم يعرض حاجته ولما فرغ سليمان بن داود عليهما السلام من بناء بيت المقدس سار الى الحج بمكة ومعه جنوده فأقام بها ماشاء الله ان يقيم ثم خرج من مكة بعد ان قضى نسكه وسار نحو اليمن فرأى أرضا حسنة فأخبر بأمر بلقيس وعرشها وما لها من القوة والبأس فأرسل اليها كتابا كما قال تعالى عنها انه أرسل الى كتاب كريم انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ان لا تعلوا على وائتوني مسلمين فجمعت الملأ من قومها واستشارتهم ففوضوا اليها الامر بعد أن أروها انها ذات قوة وبطش شديد كما حكى عنها هذا القول المولى في قوله تعالى قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والامر اليك فانظري ماذا فلما لمحت من كلامهم انهم يميلون الى حرب سليمان استحسنت ان ترسل اليه وتدفعه عن ملكها وقالت لقومها كما حكاه الله سبحانه وتعالى ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون واني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون فكتبت الى سليمان كتابا وأرسلته مع رجال من أشراف قومها فرد سليمان عليه السلام الهدية وقال للرسول ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها فلما رجع رسول بلقيس اليها وأخبرها بما رآه بعثت الى سليمان عليه السلام تقول اني قادمة عليك حتى أنظرك وما تدعو اليه من دينك ثم أقبلت عليه فدعاها الى الاسلام فأجابت بقولها اني اسلمت مع سليمان لله رب العالمين وحسن اسلامها وتزوجها وأحبها حبا شديدا ثم ردها الى ملكها على الصحيح وقيل انه ولد لسليمان منها ولد سماه داود ومات في حياته وكانت مدة ملكها على اليمن عشرين سنة وتولى ملكها من بعدها عمها ناشر النعم بن شرحبيل وبملك بلقيس تضرب الامثال

وأما

سمـيرة ملكة نينوى وبابل

وأما سميرة ملكة نينوى وبابل فانها كانت قبل ان تتزوج ملك آشور تحت أمير من أمراء جيوشه يسمى ممنو وكانت على غاية من الشجاعة العسكرية مسترجلة كأكابر الرجال وكان الملك نينوس دائما يطمع في توسيع نطاق سلطنته فسار الى ممالك بلاد آسيا واستولى عليها ولم يعجز الا عن أخذ مملكة بلخ ببلاد التتار لشجاعة جنودها فرجع منها مهزوما وفتح أيضا من أفريقه مصر وبرقه والسودان ثم أراد أن يفتخر بالعمارات الملكية فبنى مدينة نينوى وجعلها من عجائب الدنيا ثم عاد لفتح مملكة بلخ وحاصر مدينتها بلا طائل وكاد أن يرجع بالخيبة والعار لانهزامه وفتور همة جنده وكانت في العسكر سميرة فحرضت العساكر على الاقدام وأنعشت حماسهم وهجمت بهم على المدينة حتى فتحتها عنوة فشكر لها نينوس هذا الصنيع واتفق موت زوجها في هذه الحرب فتزوجت نينوس وعاد بها الى مملكته فولدت له نيناس ولما مرض مرض الموت سلمها زمام المملكة وجعلها وصية على ابنها نيناس فبموت زوجها استولت على بلاد نينوى وبابل

فلما صعدت على سرير الملك قبل الميلاد بألف وتسعمائة وستة عشر سنة قصدت ان تفوق في المجد زوجها نينوس باني نينوى مدينة يونس عليه السلام فبنت مدينة بابل وجعلت محيطها أربعة وعشرين فرسخا وعرض السور اثنى عشر ذراعا كبيرة وارتفاعه أربعين ذراعا وشيدت مائتين وخمسين برجا حول أسوار المدينة متباعدة عن بعضها وجعلت لهذه المدينة مائة باب من الحديد الصب وجعلت بيوتها متباعدا بعضها عن بعض بمسافة ولكل بيت بستان وجعلت نهر الفرات يخترق المدينة بين أرصفة عريضة متينة وجعلت فوق هذا النهر قنطرة طولها ستمائة وأربعة وعشرون قدما لتوصل بين جزئي المدينة وجعلت على طرف من طرفي القنطرة قصرا شاهقا متواصلا بالآخر بقبوة محفورة تحت أرض النهر وصورت في احدى القصرين صورة منقوشة فيها تمثال هذه الملكة راكبة على فرس وفي يدها رمح كأنها ترمي به على ذئب وتمثال زوجها نينوس كأنه يطعن أسدا وبنت أيضا هيكلا يسمى هيكل بعل فيه ثلاثة تماثيل من الذهب الابريز طول اثنين منها أربعون قدما وطول الثالث ثلاثون وفي هذا الهيكل برج ارتفاعه ستمائة قدم بقصد رصد النجوم وحفرت أيضا بركة محيطها احدى وعشرون فرسخا وعمقها ثلاثون قدما بقرب بابل وجعلت مسلة عمودية ارتفاعها مائة

وخمسة وعشرون قدما ونحتتها من جبال أرمنية وأحضرتها الى قرب بابل وعملت بساتين معلقة تسمى حديقة سمره وجعلت فوق رأس القصرين قامة لبابل

وكما امتازت بالمبانى والعمائر افتخرت بالفتوحات العظيمة فانها عملت سياحة فى جميع ممالكها وصنعت فى مدنها آثارا ثم سارت الى مصر وكان فتحها زوجها نينوس فرت بأقاليم مصر وأضافت الى أملاكها بجهة مصر جزأ عظيما من بلاد افريقة وذهبت الى واحات سيوه لتطلب جواب الكهانة من هيكل المشترى المسمى جوبتيرأمون فأفهمها الكاهن أنه يأتى اليها من أمم آسيا شرف مخلد اذا تحزب عليها ابنها نينياس ثم انها حاربت بلاد السودان ونظمتها ورجعت انترتاح فى بلاد التركمان وشرعت فى ان تتغلب على الهند وجهزت لذلك جنودا لا تحصى ولا تعد وبعد أن انتصرت بعض نصرات اضطرت الى ان ترجع الى نهر السند ثانيا حيث غلبها ملك الهند وجرحها فى ميدان الحرب فاصطلحت معه على افتداء الاسرى ورجعت الى بلاد التركمان وقد بقى لها من عساكرها نحو الثلث ثم ان ابنها نينياس أراد قتلها وسلب ملكها فتذكرت كهانة هيكل المشترى فصفحت عن ابنها وسلمته سلطنة بلاد أبيه واختفت عن أعين الناس ولم تظهر لها أثر

الزبا وأما الزبا فهى مشهورة بالملكة القاهرة فى العرب وهى بنت عمرو بن الظرب بن حسان العمليقى ملك الجزيرة وأعمال الفرات ومشارف الشام وهى لم تتزوج أصلا بل استمرت بكرا واسمها نائلة وكان أبوها من قبلها ملكا على تلك الممالك وكان فى زمنه جذيمة الابرش بن عامر التنوخى وقيل الازدى ملك الحيرة وأول من ساس العرب وأول من اتخذت له الشموع وأوقدت بين يديه وأول من عمل له المنجنيق من ملوك العرب وأول من اجتمع له الملك بأرض العراق فغزا جذيمة عمرا أبا الزباء فقتله سنة ثلاثين من ميلاد عيسى عليه السلام فطردها فلحقت بالروم وجمعت الجيوش واستخلصت من جذيمة ملك أبيها وبنت مدينتين متقابلتين على شاطئ الفرات من الجانب الشرقى والغربى وهما اليوم خراب وقد قنطرت الفرات وجعلته طريقا بين مدينتيها فحدثت جذيمة نفسه لتزوجها وكانت أجمل أهل عصرها فطمع فيها وفى ملكها فأرسل لها يخطبها فأظهرت له غاية الفرح فشرع فى السير اليها فلما دخل عليها قتلته وأخذت بثار أبيها وكان له ابن أخت يسمى عمرو بن عدى ملك البلاد بعد خاله جذيمة فأخذ فى الحيلة على قتل الزباء لاخذ ثار خاله فاتفق عمرو مع قصير صاحب جذيمة وجدع قصير أنفه

وهرب

وهرب قصير على تلك الحالة على انه مغاضب لعمرو فلما رأته على تلك الحالة أنعمت عليه وقربته وصار من أخصائها وكان قصير يتجر للزباء ويأخذ المال من مولاه ويعطيه الى الزباء على انه كسب متجرها مرة بعد أخرى حتى أتى بثقل نحو ألف جمل من الصناديق وفي داخلها رجال معتدون للحرب فلما شاهدت الزباء ثقل تلك الاحمال ارتابت منها وقالت

ما للجمال مشيها وئيدا * أجندلا يحملن أم حديدا
أم صرفانا تارزا شديدا * أم الرجال جثما قعودا

فلما دخلت الابل الى حصن الزباء خرجت الرجال من الصناديق وأخذوا المدينة عنوة فخرجت الزباء هاربة من قصرها الى سرب كانت اتخذته تحت الفرات الى حصن أختها في الجانب الآخر وكان قصير على طريق السرب فأبصرت قصيرا ومعه عمرو وبيده السيف فلما تمكن منها وعرفت انه قاتلها لا محالة مصت خاتما في يدها كان مسموما وقالت بيدي لا بيد عمرو فسارت مثلا كما ضرب المثل أيضا بجدع قصير أنفه في قول العرب لأمر ما جدع قصير أنفه وقد ذكرها ابن دريد في مقصورته بقوله

وقد سما عمرو الى ارشاده * فاحتط منها كل عالي المستمى
فاستنزل الزباء قسرا وهي من * عقاب لوح الجو أعلى منتمى

زرقاء اليمامة وهي غير زرقاء اليمامة ووهم بعضهم انها هي فان زرقاء اليمامة كانت تسكن في حي جديس باليمامة في ممالك اليمن ويقال انها كانت حادة البصر تبصر من مسيرة ثلاثة أيام ويحكى انها كانت لها قطاة ثم مر بها سرب من القطا بين جبلين فقالت

ليت الحمام ليه * الى حمامتيه
ونصفه قديه * تم الحمام ميه

فنظر فاذا القطا قد وقع في شبكة صياد فعده فاذا هو ست وستون قطاة ونصفها ثلاث وثلاثون فاذا ضم ذلك الى قطاتها كانت مائة فصار يضرب بها المثل في حدة البصر والحكم في الشئ بالدقة قال النابغة يخاطب النعمان بن المنذر

واحكم كحكم فتاة الحي اذ نظرت * الى حمام شراع وارد الثمد
قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا * الى حمامتنا ونصفه فقد
فحسبوه فألفوه كما ذكرت * ستا وستين لم تنقص ولم تزد

فكملت مائة فيها جامتها * وأسرعت حسبة في ذلك العدد

ويحكى انه كان على طسم ملك فعل فعلة شديدة تخل بالعرض والناموس أغضبت جديس فاتفقت جديس على انه اذا جاء الملك وصحبته طسم في وليمتهم يقتلون طسم عن آخرهم فجاءت طسم الى حي جديس وقعدوا يأكلون وكانت جديس قد خبؤا أسلحتهم في الرمل فوثبت جديس على طسم فأبادوهم جميعا الاشخصا يدعى رباح بن مرة فانه فر الى حسان بن أسعد ملك اليمن يستنجده وأخبره بما فعلت جديس بطسم فوعده النصرة ونادى مناديه في حمير بالمسير الى اليمامة فلما كانوا منها على ثلاثة أيام قال رباح أيها الملك ان لي اختا متزوجة في جديس تبصر الراكب من ثلاث ليال وأنا أخاف ان تنذر جديسا بك فمر كل واحد أن يقطع شجرة ويضعها أمامه فأمرهم ففعلوا فنظرت زرقاء اليمامة من مكان مشرف وقالت يا جديس لقد سارت اليكم الشجر فقالوا لها وكيف فقالت اني أرى شجرا من ورائه بشر فكذبوها وغفلوا عن أهبة الحرب فأنشدت تقول

ان تأخذوا حذركم يا قوم ينفعكم * وليس ما قد أرى بالامر يحتقر
اني أرى شجرا من خلفها بشر * فكيف تجتمع الاشجار والبشر
صفوا الطوائف منكم قبل داهية * من الامور التي تخشى وتنتظر
ثوروا بأجمعكم في وجه أولهم * فان ذلك منكم فاعلموا ظفر
وغوروا كل ماء دون منزلهم * فليس من دونهم ورد ولا صدر
أو عاجلوا القوم عند الليل اذ رقدوا * ولا تخافوا لهم حربا وان كثروا

فصبحهم حسان ملك اليمن بعسكره بعد ثلاثة فقتلهم قتلا ذريعا عن آخرهم وأمر بزرقاء اليمامة فنزع عينيها فاذا في داخلهما عروق سود فسألها عن ذلك فقالت اني كنت أكتحل بالاثمد فنبت الى بصري فاستعمل الاثمد من وقته وصلب زرقاء اليمامة بعد قتلها على باب جو وهي بلدة باليمامة وقد أولع الشعراء في ذكرها فقال النمر بن تولب وسماها عنزا

وفتاتهم عنز غداة تبينت * من بعد مرأى في الفضاء ومسمع
ورأت مقدمة الخميس وحولها * ركض الجياد الى الصباح بتبع

وفيها يقول بعضهم وسماها عفراء

لقد نظرت عفرا الى الجذع نظرة * الى مثل موج المفعم المتلاطم

الى

الى حمير إذ وجهوا من بلادهم * تضيق بهم لأيا فروج المخارم

واللأى البطء وفى هذه الواقعة يقول الملك حسان بعد فراغه منهم

أخلق الدهر بجو طللا * مثل ما أخلق سيف خللا

كان طسم وجديس اخوة * صالحا أمرهما فاقتتلا

فبغى ذاك على هذا فلم * أرض من أمرهما ما فعلا

فمن هذا يعلم ان بلد الزباء الموصل و بلد زرقاء اليمامة باليمامة باليمن فهما متباينان و بلد الزباء هو حصن الحضر بشاطئ الفرات صار مملكة ساطرون الذى غزاه كسرى سابور ذو الاكتاف والظاهر أن بلاد ساطرون التى استولى عليها سابور هى التى صارت فيما بعد من جملة ممالك زنوبيه ملكة تدمر التى غلبت فارس واستولت على بلادها فى هذه الجهات وسيأتى ذكر تملكها لهذه البلاد قريبا وأنها أغارت على مملكة مصر واستولت على الاسكندرية مرتين

و يحكى ان كسرى حاصر ساطرون فى هذا الحصن سنتين ولم يقدر على أخذه فأشرفت بنت ساطرون يوما فنظرت الى سابور وعليه ثياب ديباج وعلى رأسه تاج من ذهب مكلل بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ وكان جميلا فأسرت اليه أتتزوجنى ان فتحت لك باب الحصن قال نعم فلما أمسى ساطرون وشرب حتى سكر وكان لا يبيت الا سكرانا أخذت مفاتيح باب الحصن من تحت رأسه فبعثت مع مولى لها الى سابور ففتح الباب فدخل سابور وقتل ساطرون وأشياخ الحصن وخربه فسار بها معه فتزوجها فبينما هى نائمة على فراشها ليلا اذ جعلت تتململ لا تنام فدعا لها بالشمع ففتش فراشها فوجد عليه ورقة آس فقال لها سابور هذا الذى أسهرك قالت نعم قال فما كان أبوك يصنع لك قالت كان يفرش لى الديباج و يلبسنى الحرير و يطعمنى المخ قال أفكان جزاء أبيك ما صنعت به أنت إلىّ بذلك أسرع ثم أمر بها فأربطت قرون رأسها بذنب فرس ثم ركض الفرس حتى قتلها

آمنسه ملكة مصر

وقد حكم مصر من النساء عدة ملكات فمنهن الملكة آمنسه و يقال لها هاتازو وكان ملكها قبل الهجرة بالفين وثلاثمائة وتسعة وسبعين سنة وكانت مدتها مشتملة على الفخار حيث شيدت المبانى بمصر وغزت بلاد العرب ومنهن الملكة طماهوموت بنت الملك هوروس وأخت رمسيس الاول كان ملكها قبل الهجرة بنحو ألفى ومائتى سنة وخمسين ومنهن الملكة طوسير والظاهر انها التى يقال لها دلوكه العجوز حكمت قبل

طماهوموت ملكة مصر

الملكة طوسير لتى يقال لها ادلوكه

قلو بطرة ملكة مصر

الهجرة بنحو ألفي سنة ومنهن الملكة قلو بطره آخر ملوك البطالسة وهي أشهر ملكات مصر في كتب التواريخ فهي بنت بطليموس الحادي عشر الملقب أوليطيس ومعناه الزامر وكان قد أوصى بطليموس الحادي عشر بممالك مصر لاكبر أولاده وكبرى بناته بشرط عقد الزواج بينهما وان يشتركا معا في سلطنة مصر شيوعا وان يكون الوصي عليهما الامة الرومانية فلما مات تولى بعده على مصر ابنه بطليموس الثاني عشر الملقب دنيس أي الخمار عملا بوصية أبيه ولم يكن عمره الاثلاثة عشر سنة فكان قاصرا وكان عمر قلو بطره الموصى لها بالملك بالمشاركة مع أخيها سبع عشرة سنة فكانت اهلية السياسة والتدبير منحصرة فيها دون أخيها لعدم رشده فاشتغلت بتدبير المملكة وأمدت الرومانيين بالاعانات البرية والبحرية ثم لما استرشد أخوها تواطأ مع أعدائها وحصلت فتنة عظيمة فخافت على نفسها وفرت الى الشام فشرع أخوها ان يقتفي أثرها ليحاربها

القيصر الروماني

وجهز عساكره بقرب فرما يريد السفر الى الشام فاتفق حضور قيصر امام اسكندريه يريد خصمه بومبيوس الذي جاء الى مصر مستصرخا من قيصر فلما حضر قيصر على ساحل الاسكندرية أرسل اليه بطليموس برأس بومبيوس على يد وزيره طيودوس ووضعها بين يديه فعامل هذا الرأس بمكارم الاخلاق في الاحتفال لدفنه ثم بعد مدة غزا قيصر بطليموس الثاني عشر وانتصر عليه وأغرقه هو وجنده في النيل وتعلق قلب قيصر بقلو بطرة لانها كانت بديعة الجمال وكان قد أحضرها معه من الشأم الى مصر واعادها ملكة على مصر وحماها كل الحماية وبعد موت أخيها بطليموس الثاني عشر الذي هو زوجها تزوجت ببطليموس الثالث عشر وكان قاصرا ليشترك معها في المملكة ومن هذا الوقت قبضت على زمام مملكة مصر وصار لها دون غيرها في المملكة الحل والعقد وكان زوجها الذي هو أخوها ملكا صورة فقط وقد مات بعد ثلاث سنوات من توليته ثم قتل يولس قيصر محبوب قلو بطرة وكان حاميها فخافت على نفسها فأشركت بعد موت أخيها أصغر أولادها وزعمت انها ولدته من قيصر ولقبته بطليموس قيصرون يعني القيصر الصغير ويسميه بعض المؤرخين بطليموس الرابع عشر وكان انطنيوس أحد الشركاء في القيصرة الرومانية قد أحب قلو بطره بعد موت قيصر وحماها حماية كاملة وشد ازرها واعتمد على ان تعينه على اخصامه وانعقد بينهما عقد الزوجية ثم صار قيصرا على البلاد الرومانية بالشركة مع أغسطوس وبلغ الامنية فالتمست قلو بطرة منه ان يضيف الى المملكة المصرية جميع مدن السواحل الشرقية الواقعة على بحر سفيد

وجزيرة

وجزيرة قبرص وجزء من اناطول وبلاد يهوذا الموصوفة بالسلم فى تلك الازمان وأن يعطى لها بلاد العرب والحجاز الموصلة الى الهند لتكون هذه البلاد مضافة لدولة مصر ليتم للاسكندرية صفة المركزية العمومية فأجاب الى التماسها وجرد رومامن بلادها الطريفة المحاية بها وصارت قلوبطرة من ذلك الوقت بزواج هذا القيصر كانها ملكة الدنيا وعظم مظهرها ثم حصل حرب انطنيوس مع أغسطوس فخرجت قلوبطرة بنفسها للغزو مع انطنيوس وكان محل الحرب فى سواحل روم ايلى وأمدت قلوبطرة انطنيوس وحزبه بمائتى سفينة بحرية فانتصر انطنيوس على شريكه ثم انتصر شريكه عليه ثم سارت ستون سفينة من سفن قلوبطرة بقوة المجاذيف من بين سفن انطنيوس وهربت صوب جزيرة موره وفيها الملكة قلوبطرة هاربة من القتال فاقتفى اثرها انطنيوس لعدم القدرة على فراقها فاقتفى أثرهما خصمهما أغسطوس قيصر فسلمت اليه قلوبطرة مدينة فرما التى هى مفتاح الديار المصرية وقصدها بذلك الغدر بانطنيوس الذى يعتمد على أمانتها والتحبب الى أغسطوس وكان انطنيوس دخل الاسكندرية وقد جردت قلوبطرة انطنيوس من الجنود الذى كان يمكنه ان ينجو بها من خصمه وكل ذلك لم يستشعر انطنيوس بالخيانة والغدر منها ثم أحست بسوء فعلتها وحاك اثم الفعلة فى صدرها وخافت من انتقام انطنيوس اذا علم الحقيقة فاختفت مع أموالها فى مدفن حصين كانت شيدته لتدفن فيه وأشاعت انها تريد قتل نفسها وتواتر الخبر حتى بلغ انطنيوس فعزم أيضا أن يقتل نفسه حتى لا يعيش بعدها فطعن نفسه بخنجره ولم يمت فى الحال وقد علم قبل خروج روحه ان قلوبطرة لم تزل على قيد الحياة فطلب من اتباعه ان ينقلوه اليها ليجتمع بها قبل موته فمات عندها وكان قد بلغ أغسطوس أن قلوبطرة تريد ان تقتل نفسها فأرسل اليها من يمنعها من ذلك فدخل عليها الجند فمنعوها من ذلك ثم لما علمت ان أغسطوس لا يحبها بل يريد ان يوقعها فى أسره ويذهب بها الى رومة فى السلاسل والاغلال قتلت نفسها شر قتلة حتى لا تكون عند أعدائها مثلة وبقتلها نفسها انتهى حكم البطالسة بمصر وصارت مصرا يالة رومانية وكان موتها سنة ٦٥٢ قبل الهجرة ففى تاريخها قرب شبه مما فعلته الزباالا ان الزبا سلكت مسلك الابطال ولم تطمع فيها أحدا من الرجال فشتان بين العصمة العربية والعوائد اليونانية

زنوبيه ملكة الشام ومشارف العراق

وأما سبب تقليد زنوبيه ملكة الشام ومشارف العراق لمملكتها الواسعة واتساع ملكها وامتداد سطوتها انه كان فى أيام الملك غليانوس قيصر الرومانيين قبل الهجرة

بثلاثمائة واحدى وستين سنة حصل لسلطنة الرومانيين ضعضعة بقيام حكام الاقاليم على رومة وكان اذذاك فى المملكة الشامية على مدينة تدمر ملك يسمى أوذيناطوس كان مخالفا للرومانيين وهو الذى هزم سابور ذا الاكتاف ملك الفرس المغير على اقليم الرومانيين وطردهم الى ان أوصلهم الى تخت بلادهم حتى قيل إنه لم يبق للرومانيين من حلفائهم مصادق الا ملك تدمر فقد كان حافظا لبلاد الرومانيين من هجوم العجم وقد كافاه غليانوس قيصر الرومانيين على صداقته له بتلقيبه أغسطس أى قيصر فعظم شانه بهذا العنوان وانتقل هذا العنوان من هذا الملك بالوراثة الى زوجته زنوبية وأولاده بعد موت أوذيناطوس وظهرت زنوبية بعد زوجها بمظهر عجيب فى البلاد المشرقية فى أيام أورليانوس قيصر الرومانيين وقويت شوكتها بالمشرق واستفحل أمرها وانتظم ملكها وصارت تدمر كرسى سلطنتها عامرة آهلة زاهرة بهيجة حتى كأنها جنة من جنات الدنيا واتسعت دائرة ملكها من ساحل بلاد الصور والشأم الى نهر الفرات والعراق برا وبحرا وأعانت التجارات ووسعت دائرة الاخذ والعطاء فابتهجت مدينتها حتى صارت كانها بلقيس زمانها بمدينة تدمر أيام سليمان عليه السلام وقد فاقت زوجها فى الشجاعة والحماس والشوكة والبأس وظهرت بعنوان القيصرة وتمكنت فى مملكتها حيث انها كانت تدعى انها عريقة المجد وان نسبتها تنتهى الى سلاطين مصر وملوكهم وانها تستحق ان تنتظم فى عقد سلوكهم فكانت فى جنس النساء نادرة الزمان تخطب العساكر بأبلغ خطبة وتحرضهم على الحرب وتضمن لهم النصرة بالطعن والضرب وتلبس فى رأسها خوذة الحرب كالابطال حاسرة عن ذراعيها كالفتيان من الرجال وكانت تترقب دائما أن تحكم الممالك الرومانية وتؤمل ان تصير على ممالك الدنيا قيصرة عمومية وكانت اذذاك الديار المصرية تحاول الخروج من قبضة الرومانيين وتزاول الاستقلال بنفسها كما فى زمن الفراعنة الاولين فشرعت زنوبية أن تستولى على مصر ببذل ماعندها من الاموال بدون حرب ولاسجال فلم تنفعها هذه الوسيلة فاستعملت القوة الجبرية وغلبت الجنود المصرية واستولت على سرير الاسكندرية ولكن بعد قليل طردت منها وزحزحت عنها ثم عادت اليها لما أمدتها مملكة تدمر بالجنود العديدة وكان ذلك فى زمن القيصر أوريانوس وكان التغلب على مصر فى عهده دون حرب البسوس فخرج هذا القيصر من رومة الكبرى وحضر الى الشأم فانتصر على زنوبية نصرة عظيمة بقرب حمص ففرت هاربة دون حصون تدمر عقيب الانهزام فضيق

القيصر عليها الحصار ومنع عنها الميرة والذخيرة فحاولت الخروج والفرار وتسليم هذه الدار فقبض الجند على هذه الملكة في أثناء الطريق ووقعت في قبضة فرسان الروم وخانها الرفيق والصديق فلما تمثلت بين يدي القيصر قالت له قد ساعدتك علينا الاقدار بالنصر فيها أنا معترفة لك بالولاء والسيادة علينا فوقعت أسيرة في قبضة هذا القيصر فأذلها وأدخلها رومة من ضمن الموكب المعقود في اليوم المشهود لتكون غنيمة وعلامة على النصرة العظيمة وعوضها عن مملكتها قصرا تتنزه فيه في رومة وقد بقيت ذريتها بهذه المدينة بمحروسة الى قرب فتوح الشأم بالاسلام فانتقلت ذراريها من البلاد الرومانية وكان زوال ملكها من البلاد الشامية وغير الشامية بثلاثمائة وخمسين سنة قبل الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية ورعاتهم انها الزباء وليس كذلك فان تلك الملكة التي هي ملكة الجزيرة متقدمة عليها

شجرة الدر

وأما شجرة الدر زوجة الملك الصالح وأم ولده خليل المتوفى في حياته وبه كانت تلقب فانه لما توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب قامت أم ولده شجرة الدر بالامر وجمعت الامراء وكتمت اشاعة موته وأرسلت الى الملك المعظم تورانشاه ابن الملك الصالح بحصن كيفا تستدعيه الحضور الى مصر وبلغ الافرنج موته فشرعوا في قتال المسلمين فقاتلهم المسلمون وكان أميرهم فخر الدين فانهزم المسلمون وقتل الاتابك فخر الدين ثم أتاح الله النصر بقرب المنصورة ودمياط للمسلمين وانهزم الافرنج ووصل المعظم تورانشاه الى مصر وكانت شجرة الدر عقدت مجلسا وولته السلطنة وتم هزم الافرنج وأسر ملكهم

وبعد هزيمة الافرنج أنف جند الصالح من استعلاء بطانة المعظم تورانشاه عليهم وتحكمهم فيهم فقتلوه ثم اجتمع الامراء المتولون قبل تورانشاه ونصبوا أم خليل شجرة الدر ملكة على ممالك الصالح يوم الخميس ثامن عشر صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة وألبسوها خلعة السلطنة وباس لها الامراء الارض من وراء حجاب فلما تم أمرها في السلطنة أنعمت بالوظائف السنية على الامراء وأقطعت المماليك البحرية الاقطاعات العظيمة وأغدقت على الجند بالاموال والخيول حتى أرضت الكبير والصغير منهم ما يمكن وساست الرعية أحسن سياسة وأرسل الخليفة العباسي يعاتب أهل مصر في توليتها وقال ان كان ما بقي عندكم رجل تولونه نرسل اليكم رجلا وما أحسن ما قيل

ولو ان النساء كمن ذكرنا * لفضلت النساء على الرجال

فما التأنيث لاسم الشمس عيب * ولا التذكير فخر للهلال

وقد يتصف الجنس بأوصاف الجنس الآخر كما قال الشاعر

هززتكم لوان فيكم مهزة * وذكرت ذا التأنيث فاستنوق الجمل

وخطب لها على المنابر بعد الخليفة فكان يقال اللهم احفظ الجهة الصالحية ملكة المسلمين وعصمة الدنيا والدين أم خليل وضربت السكة باسمها ووضعت علامتها على المراسم وكان نص علامتها أم خليل وكانت مشهورة بالخاتون أيضا واليها تنسب نوبة خاتون التي كانت تدور بالقلعة بعد العشاء بالطبل وناب على العساكر بعنوان أتابك عز الدين الجاشنكير أيبك التركماني وخلعت برضاها وكانت آخر دولة الايوبية وبعد خلعها تزوجها ايبك التركماني الذي تولى سلطنة مصر بعدها

بلنشة ملكة فرانسا

وأما بلنشة ملكة فرانسا زوجة لويز الثامن التي ولدت له سنت لويز فانها تولت المملكة بالوصاية عن ابنها من سنة ألف ومائتين وستة وعشرين الى ألف ومائتين وستة وثلاثين ميلادية مدة قصوره فلما صار رشيدا تولى المملكة بنفسه ثم تولت نيابة المملكة مدة غيابه لحرب المقدس وحرب مصر أيام حرب أهل الصليب مع الاسلام ببلاد المشرق وقد انتصرت هذه الملكة على حزب الفرنساوية الذي شن إغارة العداوة لها وللحكومة ومدة حكومتها كانت على غاية من التبصر والعقل وماتت وعمرها خمس وستون سنة وكما كانت مشهورة بالعقل والتدبير كانت مشهورة أيضا بالملاحة والجمال حتى تغزل فيها بعض أمراء بلادها

اليزابيتة ملكة الانكليز

وأما اليزابيته ملكة الانكليز بنت هنري الثامن ملك الانكليز فقد كان أبوها في أول الامر أخرجها من ولاية العهد من بعده لعدم أهليتها ثم نقض الوصية في مرض موته وعهد اليها بعد أختها مارية فتقلدت منصب ملكة الانكليز سنة ألف وخمسمائة وثمانية وخمسين ميلادية وكانت أختها مارية منعت الانكليز من التمسك بالمذهب البروتستاني فأعادت اليزابيته هذا المذهب وجعلت نفسها خليفة هذا الدين وشوقت فن الزراعة ورغبت فيه كل الترغيب وأعانت على تقدم التجارة والملاحة وحسن ادارة الخزينة الملكية وتكثير مالها وكانت عدوة للمذهب القاثوليقي وما فعلته مع مارية ستورد ملكة أقوسيا كان مما يلام به عليها وذلك لانها غضبت على ملكة أقوسيا حيث انها تعنونت بعنوان ملكة الانكليز اغتصابا بالمملكة وليس هذا السبب الاصلي في الغضب وانما

لكون

لكون مارية ستورد قاثوليقية المذهب وأجمل منها ومع ذلك فالحق على مارية حيث انها أوقعت الفتنة والخلل في بلاد الانكليز فسجنتها ملكة الانكليز وتهمتها بأنها تعصبت على قتلها ثم ضربت عنقها فأراد أن ينتقم لمارية فليب الثاني ملك اسبانيا فأرسل عمارة سفن عظيمة الى بلاد الانكليز فهلكت هذه العمارة بالرياح العاصفة وبسفن الانكليز ثم ضبطت هذه الملكة أمة ارلنده التي قومتها أهل اسبانيا وأعانت مملكة الفلنك عدة مرات ونصرتها على الاسبانيول وأعانت ملك فرانسا أيضا في حربه مع أهل بلده وقد رغب في خطبة هذه الملكة عدة من ملوك أوربا وحثتها مشورة الانكليز على ان تختار ملكا منهم للزواج ولكن لم ترض أبدا ان تتزوج ولا زالت على هذه الحالة حتى توفيت وعهدت بمملكة الانكليز بعدها الى جاكس ملك أقوسيا ابن مارية ستورد وكانت حكومة ايليزابيته تكاد أن تكون مطلقة التصرف لانها كانت لا تستشير مجالس المملكة الا نادرا ومع انها كان فيها خصال جيدة من خصال الملوك والسلاطين فكانت لا تخلو من ضعف النساء فانها كانت تتزين وتتبرج وتعجب بنفسها وتغار من حسان النساء وكانت لا تخلو أيضا من التخيلات

مارية ستورد ملكة أقوسيا

وأما مارية ستورد ملكة أقوسيا بنت جاكس الخامس فكان لها أخ من السفاح يسمى موراي فتحزب الاوقوسيون معه على الملكة أخته وقبضوا عليها وأرادوا أن تخلع المملكة على أخيها وان تخرج من دين القاثوليقية فهربت من أقوسيا الى انكلتيرة ظنا منها ان تحتمي عند ايليزابيته بنت عمها ولكن لما كان بينهما منافسة وخصومة قبضت عليها الملكة ووضعتها في السجن ثماني عشرة سنة ثم اتهمتها بأنها مفتنة وانها تحزبت مع أعدائها بقتلها وحكمت عليها بالقتل كما سبق آنفا والحال انها بريئة ومارية هذه معدودة بأنها أجمل نساء وقتها وينضم الى ذلك انها كانت صاحبة قريحة جيدة مزينة بالمعارف والآداب ولم يزل موجودا الى الآن من شعرها الرقيق المنسجم قصائد غراميات ووداعيات وهي أيضا مشهورة عند العيسوية بأنها ماتت في حماية دينها القاثوليقي فلم يزل العيسوية يتذكرونها ويعدونها على ذلك ومع ذلك فاغلب الناس يرون أنها ماتت قتيلة جبتها وتشديدها في الدين القاثوليقي وانها أكثرت من خصام أعدائها

كاترينه الثانية قيصرة الموسقوا

وأما كاترينه الثانية قيصرة الموسقو زوجة بطرس الثالث فانها حببت نفسها لجميع اهل الروسيا ثم خلعت زوجها سنة ألف وسبعمائة واثنين وستين وبعد موت

زوجها البست تاج القيصرية فى مدينة موسقو بموكب عظيم ثم أخذت من الدولة العلية بلاد القرم وقلعة آزوق وأسماعيل وغيرهما ثم عقدت مع البروسية واستريا معاهدة لمقاسمة بلاد اللاهستان المسماة بولونيا ثم وسعت دائرة سلطنتها وأحيت فى بلادها الزراعة والصناعة وقدمت الآداب والفنون والصنائع وشوقت أهلها وكانت دائما تراسل الحكيم وولتير الفرنساوى فكانت ملكة عظيمة ولا يلام عليها فى شئ مما يخص المملكة وانما ذمها بعض الناس ببعض شذوذ فى أخلاقها الخاصة بها وخلفها ابنها بولص على الامبراطورية سنة ألف وسبعمائة وستة وتسعين ميلادية بعد وفاتها بالفالج

ماريه تريزه

وأما ماريه تريزه بنت كارلوس الرابع ملك النمسا فلم يكن لابيها أولاد من الذكور فعهد اليها بالامبراطورية فلما مات فى سنة ألف وسبعمائة وأربعين ميلادية ظهر للسلطنة متطلبون وحارب جميع الملوك المتطلبين هذه الاميرة وأخذ منها فريدريق الثانى وغيره من الملوك بعض أقاليم واستعان ملك باويره بفرانسا وتعنون بعنوان امبراطور واستريا وسمى نفسه كارلوس السابع فلازالت ماريه تريزه تقاوم جميع أعدائها وتحاربهم فى مدينة ويانه الى أن اضطرت ان تترك هذه المدينة فالتجأت الى مملكة المجار فدخلت فيها وجمعت أعيان المملكة وقدمت لهم ولدها الذى كان فى المهد وجذبت الاهالى جميعا الى حزبها حتى صار واجميعا معها على قلب رجل واحد وملكوها عليهم وبذلت جهدها فى طرد الامبراطور وولت الامبراطورية لزوجها فرنسيس الاول واشتغلت بعد صلح العموم بجبر خلل السلطنة فشوقت الصنائع والتجارة وأسست مدارس عمومية وبقيت مملكتها فى الهدو والسلم الى ان وقع بينها وبين البروسية الحرب المسمى حرب السبع سنوات فاتحدت فرانسا معها على البروسيا وحصل الصلح بينهما وعقدت ماريه مع امبراطورة الروسيا مشارطة مقاسمة بلاد اللاهستان وماتت سنة ألف وسبعمائة وثمانين ميلادية وخلفها ولدها المسمى يوسف الثانى على ممالكها وتقلد الامبراطورية

خرستينانة ملكة أسوج

وأما خرستينانه ملكة أسوج فانها خلفت أباها الملك غوسطاف أدولف الذى مات قتيلا فى حرب الموسقو سنة ألف وستمائة واثنين وثلاثين ميلادية فتقلدت بالمصالح سنة ستمائة وأربعة وأربعين الى سنة ستمائة وتسعة وأربعين وأحسنت التدبير والسياسة مع البهجة والرونق الى تلك السنة ومن هذا التاريخ أبعدت الوزراء العقلاء واحتاط بها بطانة السوء من المفسدين فحصل فى الادارة الخلل فتعبت من هذه الحالة القاسية

وجعلت

وجعلت نفسها فى سنة ألف وستمائة وأربعة وخمسين ميلادية وقلدتها لابن عمها كارلوس وستاو ولم يكن عمرها اذذاك الاثمانية وعشرين سنة فساحت فى بلاد أوربا ودخلت فى فرانسا وقتلت ناظر اصطبلها الذى كان معها فى السفر لضمير ثم أقامت فى رومة وماتت فى سنة ألف وستمائة وتسعة وثمانين ميلادية وهذه الملكة كانت حسنة التربية ومدة حياتها كانت تشتغل بالعلوم والآداب والديانة ومدة تملكها على أسوج انجذب اليها مشاهير الرجال من جميع البلاد فكانت تكرمهم وترحب بهم ومع ان هؤلاء النساء تقلدن السلطنة وسلكن مسالك الشجعان نوعا الا انهن كن سيآت العواقب وقل ان خلت احداهن فى بعض الافعال من نقصان قال الشاعر

النساء ناقصات عقل ودين * ما رأينا لهن رأيا سنيا

ولاجل الكمال لم يجعل الله تعالى من النساء نبيا

وهو منقوض بالسيدة مريم على القول بنبوتها فاذا كان حالهن كذلك فكيف يجوز وراثتهن للخلافة والسلطنة ومن تقلد منهن السلطنة وأفلح فيها فلم يكمل له الفلاح واذا كمل فهو من النادر الذى لا حكم له فحديث لن يفلح قوم ولوا عليهم امرأة صادق بالمفهوم مؤيد بالتجاريب وتولية شجرة الدر التى لم يسبق فى الاسلام سلطنة لغيرها كانت لمحض الضرورة التى تبيح المحظور

وقال بعض الحكماء أرباب التحسين والتقبيح العقليين ان النساء كن فى قديم الزمان وأزلى الحدثان فى مصر رئيسات منازلهن يسسن عموم الامور المنزلية بدون مشاركة الرجال ولهن فى تدبير المنزل وتأديب الاولاد الولاية العامة مع ان العقل والطبع لا يستحسنان ولايتهن على منازلهن ولا إناطتهن بتربية وتهذيب أبنائهن لما يكتسبه الاولاد منهن من قلة الشهامة وعدم التعود على شجاعة الشجعان ولكن العقل والطبع لا يأبيان أن يكون للنساء رئاسة المملكة لان ما فيهن من الضعف مما لا يسوغ لهن كمال العناية بالادارة المنزلية هو الذى بعينه يكسبهن الرفق والحلم والتلطف وكل ما يليق برتبة السلطنة من المحسنات التى مبناها الرأفة والشفقة وهما ساكنان فى قلب المرأة لان دأب الرجال الشدة والعنفوان والجبروت وما أشبه ذلك من الاخلاق الجافية التى قل ان يخلو عنها الرجال ولا تليق بالملوك فى تأليف قلوب الرعية فلا موجب لحرمانهن من المناصب الملوكية لاسيما وان كثيرا من الممالك حسنت فيها ملوكية النساء ونجحت وظهر لكثير منهن المآثر وقد فهمت رده وأيضا منعهن من الامامة والقضاء اللذين

هما دون السلطنة لان الامامة والقضاء قد يكون فيهما الاجتهاد وهو مرتبة عليا وقل ان توجد امرأة فيها الاهلية على ان أبواب الشريعة والسياسة التي تخص الملوك واسعة لا تطيقها عقول النساء على ما فيهن من كون جميعهن عورات يتعذر مخالطتهن للوظفين من الامراء الملكية والجهادية ومعاشرتهن لجميع أصحاب المناصب والمراتب من أرباب السيوف والقلم

وأما وجود اللياقة فيهن فليست محل المنع فان السيدة عائشة استجمعت من الامور الشرعية والسياسية كفاءة الخلافة فقد سئل عروة بن الزبير عن علم عائشة فقال والله ما رأيت امرأة أعلم بالفرائض والسنن والتنزيل والتأويل من عائشة رضي الله عنها حتى باشعار العرب وأيامهم وأنسابهم والطب والادوية فقلت لها من أين لك علم الطب والابدان فقالت من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا مرض يتداوى واذا مرضت يصف لي فأبرأ واذا سئل يصف للمرضى فتعلمت منه فقلت ومن أين لك معرفة بأنساب العرب وأيامها واشعارها قالت فوالله يا ابن أختي ما سمعت أذني شيئا فيه نفع للناس الا حفظته ولا أنساه وقال عروة والله ماندمت على شيء قط أشد مني ندما على ما فاتني من علم عائشة رضي الله تعالى عنها وما الذي يمنعها وقد رباها أعلم العلماء وأحكم الحكماء وأفصح الفصحاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوها علامة قريش المفتي في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم والولد سر أبيه وعروة هذا شقيق عبد الله بن الزبير ونسبهما معروف ولما قطعت رجله بسبب الاكلة وهو في الصلاة وكان الوليد بن عبد الملك عنده لم يشعر بقطعها حتى كويت فوجد رائحة الكي على ما ذكره ابن قتيبة ولم يترك ورده تلك الليلة وعاش بعد قطع رجله ثمانين سنة ولما قتل أخوه عبد الله قال لعبد الملك أريد ان تعطيني سيف أخي فقال هو بين السيوف ولا أعرفه فقال اذا حضرت السيوف أنا أعرفه فأمر عبد الملك باحضارها بين يدي عروة فاخذ منها سيفا مفلل الحد وقال هذا سيف أخي فقال له عبد الملك أو كنت تعرفه قبل الآن فقال لا فقال كيف عرفته فقال بقول النابغة الذبياني

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب

وعروة هو الذي احتفر البئر المسماة بئر عروة بالمدينة الشريفة وليس فيها بئر أعذب ماء منها وولادته سنة اثنين وقيل ست وعشرين وقال ابن خلكان وتوفي في قرية له دون المدينة

المدينة يقال لها فرع بضم الفاء وسكون الراء من ناحية الربذة بينها وبين المدينة أربعة أميال وهي ذات نخل ومياه

وأما فصاحة عائشة فما رواه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال دخلت على عائشة رضي الله عنها بعض الايام فرأيتها جالسة وعليها قميص مرقع فحمدت الله تعالى بما هو أهله وثنت بالصلاة على نبيه وذكر بعض ما وهبه الله تعالى من فضله وأثنت على أبي بكر وعمر وعثمان بما كان فيهم من العدل والاحسان ثم حضت بالاقتداء بهم واتباع أمرهم فوالله ما سمعت أذني من سائر النساء أفصح منها وأنظم من كلامها ولا أرشد من رأيها فقلت لها أنت والله أم المؤمنين حقا والعالمة بالله ورسوله الناصحة المشفقة الواعظة المبلغة دللت الناس على الحق وأمرتهم باتباعه ونهيتهم عن حظ أنفسهم وأنت أهل ان يسمع قولك ويطاع أمرك ويقبل نصحك ثم قمت وخرجت واضعا يدي على كتف ذكوان وقلت والله يا ذكوان ما سمعت أذني خطيبا من أكثر الصحابة أفصح من عائشة ولا أبلغ منه وعظتها فلو كانت إمرة لامرأة بعد النبوة لاستحقت عائشة الخلافة وقال عليه السلام عائشة عالمة هذه الامة ولذلك كان أكابر الصحابة يأتون اليها ويسألونها عما أشكل عليهم من الفرائض كما روى عن أبي موسى الاشعري قال ما أشكل علينا أصحاب رسول الله حديث قط وسألنا عنه عائشة الا ووجدنا عندها منه علما وروى الاحنف بن قيس انه قال سمعت كلام أبي بكر رضي الله عنه حتى مضى وكلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى مضى وكلام عثمان بن عفان رضي الله عنه حتى مضى وكلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه حتى مضى ولا والله ما سمعت فيهم أبلغ من عائشة رضي الله عنها

وقد ذكرنا في الفصل الثاني من الباب الثاني سلطنة النساء على قلوب الرجال وهذه السلطنة نفوذها يكفيهم في تحسين أحوال الرجال وترقيق طباعهم فان الحب سلطان قادر وملك قاهر تذل لهيبته الاملاك وتذعن لسطوة سيوفه الفتاك وتنقاد لطاعته الزهاد والنساك يحكى أن عريبة جارية المأمون الذي أظهر في ممالك الدنيا مكنون غرائب العلوم والفنون قالت له يوما

سلطنة النساء المعنوية القلوب

وأنتم أناس فيكم الغدر شيمة * (١) لكم ألسن شتى وألسنة عشر (١)
عجبت لقلبي كيف يصبو اليكم * على عظم ما يلقى وليس له صبر

فقال يخاطبها

أنا المأمون والملك الهمام * خلا أني بحبك مستهام
(٢) أترضى أن أموت عليك وجدا * ويبقى الناس ليس لهم امام (٢)
فقالت له يا أمير المؤمنين أبوك الرشيد أعشق منك حيث يقول
ملك الثلاث الآنسات عناني * وحللن من قلبي بكل مكان
مالي تطاوعني البرية كلها * وأطيعهن وهن في عصياني
ماذاك الا أن سلطان الهوى * وبه قوين أعز من سلطاني

فقدم ذكرهن على نفسه وأنت قدمت نفسك على من تزعم انك تهواها قال لها المأمون اني منفرد بك والرشيد مقسم بين ثلاث قالت أعرفهن الواحدة مقصودة وهي فلانة والثنتان محبوبتان لها فاحبهما لحبها إذ ذاك مما يسرها كما قال خالد بن يزيد بن معاوية في رملة

تجول خلاخيل النساء ولا أرى * لرملة خلخالا يجول ولا قلبا
أحب بني العوام حبا لحبها * ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا

فأين المخرج لامير المؤمنين فسكت وعظم حبه وقال بعضهم في الخلخال ايضا

استكتمت خلخالها ومشت * تحت الظلام به فما نطقا
حتى اذا ريح الصبا نسمت * ملأ العبير بسيرها الطرقا

وقال المستعين بالله الحاكم الاموي أحد خلفاء الغرب

عجبا يهاب الليث حد سناني * وأهاب لحظ فواتر الاجفان
وأقارع الابطال لا متهيبا * منها سوى الاعراض والهجران
وتملكت نفسي ثلاث كالدمى * زهر الوجوه نواعم الابدان
حاكمت فيهن السلو الى الصبا * فقضى بسلطان على سلطان
فأبحن من قلبي الحمى وتركنني * في عز ملكي كالاسير العاني
لا تعذلوا ملكا تذلل في الهوى * ذل الهوى عز وملك ثاني
ما ضر أني عبدهن صبابة * وبنو الزمان وهن من عبداني

ولعبد الله بن طاهر

نحن قوم تذيبنا الحدق النجـل على أننا نذيب الحديدا
وترانا عند الكريهة أحرا * راوفي السلم للغواني عبيدا

والغواني جمع غانية وهي الجارية التي غنيت بزوجها وقد تكون التي غنيت بحسنها وجمالها

وجمالها عن الحلي والزينة كما قيل

ذات حسن لو استزادت من الحسـن قليلا لما أصابت مزيدا
فهي كالشمس بهجة والقضيب الـلدن قدا والريم طرفا وجيدا

فهذه السلطنة المعنوية قوية ولهذا يدعى لها وكثرة سلطنتها بما يدعى به لدولة الملوك ويخاطب خطابهم كما قال شمس الدين بن العفيف التلمساني

أعز الله أنصار العيون * وخلد ملك هاتيك الجفون
وضاعف بالفتور لها اقتدارا * وان تك أضعفت عقلي وديني
وأبقى دولة الاعطاف فينا * وان جارت على القلب الطعين
وأسبل ظل ذاك الشعر يوما * على قد به هيف الغصون
وصان حجاب هاتيك الثنايا * وان ثنت الفؤاد الى الشجون

وأما السلطنة الرسمية على الرعية فهي لا تكون الا في البلاد التي قوانينها محض سياسة وضعية بشرية لان قوانين مثل هذه الممالك تنتج اختلاط الرجال بالنساء بناء على قانون الحرية المؤسس عليه تمدن تلك البلاد والا فتمدن الممالك الاسلامية مؤسس على التحليل والتحريم الشرعيين بدون مدخل للعقل تحسينا وتقبيحا في ذلك حيث لا حسن ولا قبح الا بالشرع

مطلب وجوب الاتباع وحظر الابتداع

ولا يسوغ لمتولي الاحكام ان يحكم في التحريم والتحليل بما يلائم مزاجه مما يخالف الاوضاع الشرعية المنقولة عن الائمة المجتهدين ولا عبرة بالاستكراه النفساني والاستحسان الطبيعي والاخذ بالرأي من غير دليل شرعي بل يعتمد متولي الاحكام على فتاوي العلماء وأقوال المجتهدين في الدين فان الامارة انما تخلف النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا فتقف عند حدود الله تعالى المعضدة بقوله تعالى اليوم أكملت لكم دينكم وكان أبو حنيفة النعمان يقول اياكم والاخذ في دين الله بالرأي وعليكم باتباع السنة فمن خرج عنها ضل وغوى انتهى وانما يجوز للحاكم اذا رأى مصلحة ظاهرة للرعية شرعية مرعية كمخافة ضرر يلحق الرعية في دينها ودنياها ان ينهى عن بعض المباحات التي يترتب عليها الضرر كما اذا خاف من أهل الحل والعقد ان يتفقوا على فتنة فمنعهم الاجتماع الذي هو في الاصل مباح ولكن اذا نهى عنه صار محظورا وكذلك اذا أمر من عنده قوت من قمح أو نحوه زائد عن حاجته ان يبيعه للناس وجب على صاحب القمح ان يبيعه حيث ان الضرورة العامة تزول به فهو من باب جلب

المصالح ودرء المفاسد فبهذا صار واجبا وكما اذا أمر بصدقة أو عتق مما يترتب عليه أمر من الامور المهمة فانه يصير واجبا لأن أوامر الحكام منوطة بمصالح الرعايا دنيا ودينا وانما الممنوع من الحكام انما هو اتباعهم هوى أنفسهم قال تعالى يا داود إنا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله الآية فكل ما يمنعه الشرع صراحة أو ضمنا فغير مباح ولا يعدّ تمدنا بخلاف المباحات اذا تصرف فيها العقل بالتصرفات التحسينية وحولها من حالة الى حالة أحسن منها فهذا عين التمدن الذى نبينه فى الفصل الآتى

(الفصل الخامس فى تمدن الوطن)

تمدّن الوطن عبارة عن تحصيل ما يلزم لاهل العمران من الادوات اللازمة لتحسين أحوالهم حسا ومعنى وهو فوقانهم فى تحسين الاخلاق والعوائد وكمال التربية وحملهم على الميل الى الصفات الحميدة واستجماع الكمالات المدنية والترقى فى الرفاهية وهذا التمدن بالنسبة للامة المقيمة فى الوطن وتختلف افراد هذه الامة المتمدنة بالنسبة للترفه والتحسين فالتمدن بالنسبة للامم وللافراد مقول بالتشكيك ولهذا نجد المملكة أعظم تقدما فى التمدن من الاخرى وكذلك زيد من الناس أرقى تمدنا من عمرو بالنسبة لتحسين حاله ومنزله وضدّ التمدن التخشن وهو الخلوّ عن الترفه فى درجة المعيشة ولاشك ان رسالة الرسل بالشرائع هى أصل التمدن الحقيقى الذى يعتدّ به ويلتفت اليه وان الذى جاء به الاسلام من الاصول والاحكام هو الذى مدّن بلاد الدنيا على الاطلاق وانبعثت أنوار هديه فى سائر الآفاق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتيتكم بشريعة حنيفية بيضاء لم يأت بها نبى قبلى ولو كان أخى موسى وسائر الانبياء فى زمنى لم يسعهم الا اتباع شريعتى ومن زاول علم أصول الفقه وفقه ما اشتمل عليه من الضوابط والقواعد جزم بأن جميع الاستنباطات العقلية التى وصلت عقول أهالى باقى الامم المتمدنة اليها وجعلوها أساسا لوضع قوانين تمدنهم وأحكامهم قل ان تخرج عن تلك الاصول التى بنيت عليها الفروع الفقهية التى عليها مدار المعاملات فما يسمى عندنا بعلم أصول الفقه يسمى ما يشبهه عندهم بالحقوق الطبيعية أو النواميس الفطرية وهى عبارة عن قواعد عقلية تحسينا وتقبيحا يؤسسون عليها أحكامهم المدنية وما نسميه بفروع الفقه يسمى عندهم بالحقوق او الاحكام المدنية وما نسميه بالعدل والاحسان يعبرون عنه بالحرية والتسوية وما

بتمسك

يتمسك به أهل الاسلام من محبة الدين والتولع بحمايته مما يفضلون به عن سائر الامم فى القوة والمنعة يسمونه محبة الوطن على انه عند نامعشر الاسلام حب الوطن شعبة من شعب الايمان وحماية الدين مجمع الاركان فكل مملكة اسلامية وطن لجميع من فيها من الاسلام فهى جامعة للدين والوطنية فحمايتها واجبة على بنيها من هاتين الحيثيتين والغالب جرت العادة بالاقتصار على الدين لقوة أهميته مع ارادة الوطن وقد تكون الغيرة على الوطن الخصوصى محضة لمجرد الجنسية والمنزلية كالقدسى واليمانى والمصرى والشامى مع ان الوطن يستوى فيه النوع الانسانى فتجد الحزبين ولو اختلف البعض مع الآخر يتحدان بالنسبة للاجنبى لحماية الوطن أو الدين أو النوع وفوائد التمدن كثيرة وعليها مدار جميع العلوم المعاشية والمعادية ولذلك قال بعضهم كلما اتسع نطاق تمدن ممالك الدنيا خفت الحروب وقلت العداوة وتلطفت الفتوحات وندرت التقلبات والتغلبات حتى تنقطع بالكلية وينمحى الاستعباد والاسترقاق بغير حق ويزول الفقر والمسكنة

مطلب مزية اتساع نطاق التمدن

ثم ان أسباب التمدن فى الدنيا التمسك بالشرع وممارسة العلوم والمعارف وتقديم الفلاحة والتجارة والصناعة واستكشاف البلاد التى تعين على ذلك واختراع الآلات والادوات من كل ما يسهل أو يقرب الطرق التمدنية باتحاد الوسائط والوسائل فمما أعان على التعليم والتعلم الذى هو ركن عظيم من أركان التمدن المطابع الاهلية يقال ان أول من اخترع طبع الكتب فى أوروبا أمة الالمان وانتقلت منهم الى بلاد فرانسا سنة ألف وأربعمائة وثلاثين ميلادية والا فاختراع الطبع قديم جدا فى بلاد الصين وكان أهل فرانسا اذ ذاك من عماية الجهل فى بحر عميق ومن غواية التخشن فى مكان سحيق فاعتقدوا ان الطباعين سحرة وهموا بقتلهم فأنقذهم منهم لويز الحادى عشر ملك فرانسا وجعل المطابع تحت حمايته ثم انتقلت الى باقى بلاد أوروبا ومنها الى بلاد المشرق ومصر

مطلب اعانة المطا[illegible] الاه[illegible]

اتساع التعليم والتعلم

ومما أعان على سعة دائرة التمدن فى بلاد الدنيا ترخيص جميع الملوك للعلماء وأصحاب المعارف فى تدوين الكتب الشرعية والحكمية والادبية والسياسية ثم توسع فى حرية ذلك بنشره طبعا وتمثيلا وخصوصا جرائد الوقائع لاسيما فى بلاد أوروبا بقانون حرية ابداء الآراء بشرط عدم ما يوجب الاختلال فى الحكومة بسلوك سبيل الوسط بغير تفريط ولا شطط

مطلب ان الترخيص فى تأليف الكتب على اختلافها سبب فى اتساع التمدن

مطلب اعانة حرية الملاحة والسياحة على اتساع التمدن

ومن أعظم معين على التمدن حرية الملاحة والسياحة فى البر والبحر فانها عادت على جميع ممالك الدنيا بالثروة والغنى والاطلاع على عجائب الدنيا وكانت السياحة فى الاحقاب السالفة لعرب الاسلام لاستكشاف البلدان وادخال أهلها فى دين خير الانام فاستكشفوا من البرور والبحور مالا يحصى ومدنوا من أهل جزائر البحر المحيط وسواحله مالا يستقصى ثم حذا حذوهم الحذاق والالبا من أهالى أوروبا فظفروا باستكشاف دنيا جديدة لم تكن معلومة للاقدمين وأعظم ما أعان على الملاحة وهى

مطلب اعانة بيت الابرة على الملاحة

السفر فى البحر اختراع البوصلة التى هى بيت الابرة قيل ان أول مخترع لها عرب الاسلام الذين سافروا فى جميع أقطار البحر المحيط لنشر الاسلام عند الامم المتبربرة فى جميع الاقطار وقيل ان المخترع لبيت الابرة انما هم الاوروباويون والجمع بين القولين أن يقال ان الاختراع لهذه الآلة انما كان للعرب وان الاوروباويين انما اجتهدوا فى تكميلها وتحسينها وتكثيرها وهى عبارة عن علبة مثبت فيها ابرة حديد مسقية بالمغناطيس تحرك دائما صوب القطب الشمالى ولا تنحرف عنه الانحرافا يسيرا ويرسم فيها الجهات الاربع وهى الشمال والجنوب والشرق والغرب لمعرفة مهاب الرياح الاربع الاصلية والريح النكباء فبهذا يهتدى بها الربانون فى البحر الى صوب مقصودهم

مطلب القوة البحرية فى أوروبا وغيرها

ثم ان أغلب ممالك أوروبا أرباب قوة بحرية الاان أعظم الممالك قوة بحرية مملكة الانكليز ثم مملكة فرانسا وللدولة العلية فى القوة البحرية ميسرة قوية ومينات لانظير لموقعها فى الحصانة والامنية وللحكومة المصرية بوغازات ذات أهمية يصح ان تكون أولية وذات أولوية فكل من البحرين الابيض والاحمر لها مساعد وسائر ثغورها مراكز تجارة لكل صادر ووارد

وقال أرباب السياسات انه ينبغى لأى مملكة من الممالك ان تكون قوتها البحرية على النسبة من قوتها البرية وعلى حسب عظام ملكها وان أنفع شئ فى تقديم القوة البحرية فى مملكة من الممالك ان يكون بيرقها مرخص السير فى البحار محترما فى جميع

مطلب فضائل القوة البحرية وما يعين عليها

اجزاء بحار الدنيا ومن فضائل القوة البحرية انها تعين على تقدم الزراعة والتجارة والصناعة لاسيما فى المستعمرات الخارجة عن المملكة ولاجل تكثير السفن والعمارات البحرية يجب على الامة المتشبثة بذلك ان تكثر من غرس الغابات والاورمانات ليكثر عندها الخشب اللائق لابتناء السفن بحيث تتمكن المملكة البحرية من ان تنشئ ترسانات السفن فى بلادها فان تعذر عليها ذلك وجب ان تحصل على

السفن

السفن اللائقة بها بالشراء من البلاد الاجنبية بقدر ما يفي بحاجتها لأن القوة البحرية هي منبع غزير لتوسيع دائرة التمدن الذي مبناه على العدل والحرية العمومية

(الفصل السادس)

(في الحرية العمومية والتسوية بين أهالي الجمعية)

الحرية من حيث هي رخصة العمل المباح من دون مانع غير مباح ولا معارض محظور فحقوق جميع أهالي المملكة المتمدنة ترجع الى الحرية فتتصف المملكة بالنسبة للهيئة الاجتماعية بأنها مملكة متحصلة على حريتها ويتصف كل فرد من أفراد هذه الهيئة بأنه حر يباح له ان ينتقل من دار الى دار ومن جهة الى جهة بدون مضايقة مضايق ولا اكراه مكره وان يتصرف كما يشاء في نفسه ووقته وشغله فلا يمنعه من ذلك الا المانع المحدود بالشرع أو السياسة مما تستدعيه أصول مملكته العادلة ومن حقوق الحرية الاهلية ان لا يجبر الانسان على ان ينفى من بلده أو يعاقب فيها الا بحكم شرعي أو سياسي مطابق لاصول مملكته وان لا يضيق عليه في التصرف في ماله كما يشاء ولا يحجر عليه الا بأحكام بلده وان لا يكتم رأيه في شئ بشرط ان لا يخل ما يقوله أو يكتبه بقوانين بلده

مطلب تقسيم الحرية الى خمسة أقسام

وتنقسم الحرية الى خمسة أقسام حرية طبيعية وحرية سلوكية وحرية دينية وحرية مدنية وحرية سياسية فالحرية الطبيعية هي التي خلقت مع الانسان وانطبع عليها فلا طاقة لقوته البشرية على دفعها بدون أن يعد ظالما كالاكل والشرب والمشي مما يشترك فيه جميع الافراد ولا يستغنون عنه مما لا ضرر فيه على الانسان نفسه ولا على اخوانه فلا يجوز مثلا التخمة ولا أكل السموم ولا أكل طعام الغير بدون إذنه والحرية السلوكية التي هي حسن السلوك ومكارم الاخلاق هي الوصف اللازم لكل فرد من أفراد الجمعية المستنتج من حكم العقل بما تقتضيه ذمة الانسان وتطمئن اليه نفسه في سلوكه في نفسه وحسن اخلاقه في معاملة غيره والحرية الدينية هي حرية العقيدة والرأى والمذهب بشرط ان لا تخرج عن أصل الدين كآراء الاشاعرة والماتريدية في العقائد وآراء أرباب المذاهب المجتهدين في الفروع فان الانسان يأمن على ان يتبع مذهبا من هذه المذاهب يتمسك به في العبادة ومثل ذلك حرية المذاهب السياسية وآراء أرباب الادارات الملكية في اجراء أصولهم وقوانينهم وأحكامهم على مقتضى شرائع بلادهم فان ملوك الممالك ووزراءهم مرخصون في طرق الاجرا آت السياسية

بأوجه مختلفة ترجع الى مرجع واحد وهو حسن السياسة والعدل والحرية المدنية هى حقوق العباد والاهالى الموجودين فى مدينة بعضهم على بعض فكأن الهيئة الاجتماعية المؤلفة من أهالى المملكة تضامنت وتواطأت على اداء حقوق بعضهم لبعض وان كل فرد من أفرادهم ضمن للباقين ان يساعدهم على فعلهم كل شئ لا يخالف شريعة البلاد وان لا يعارضوه وان ينكر وا جميعا على من يعارضه فى اجراء حريته بشرط ان لا يتعدّى حدود الاحكام والحرية السياسية أى الدولية هى تأمين الدولة لكل أحد من أهاليها على أملاكه الشرعية المرعية واجراء حريته الطبيعية بدون ان تتعدّى عليه فى شئ منها فبهذا يباح لكل فرد أن يتصرف فيما يملكه جميع التصرفات الشرعية فكأن الحكومة بهذا ضمنت للانسان ان يسعد فيها مادام مجتنبا الاضرار اخوانه

مطلب ان الحرية بالمعانى المذكورة سبب فى اسعاد الأمة وفى حبهم لاوطانهم وغير ذلك

فالحرية بهذه المعانى هى الوسيلة العظمى فى اسعاد أهالى الممالك فاذا كانت الحرية مبنية على قوانين حسنة عدلية كانت واسطة عظمى فى راحة الاهالى واسعادهم فى بلادهم وكانت سببا فى حبهم لاوطانهم وبالجملة فحرية أهالى كل مملكة منحصرة فى كونهم لهم الحق فى ان يفعلوا المأذون شرعا وان لا يكرهوا على فعل المحظور فى مملكتهم فكل عضو من أعضاء جمعية المملكة يرخص له ان يتمتع بجميع مباحات المملكة فالتضييق عليه فيما يجوز له فعله بدون وجه مرعى يعدّ حرمانا له من حقه فمن منعه من ذلك بدون وجه سلب منه حق تمتعه المباح وبهذا كان متعدّيا على حقوقه ومخالفا لاحكام وطنه ومتى كانت حرية الاهالى مصحوبة بعدل الملوك الذين يزجون اللين بالخشونة للاهابة فلا يخشى منها على الدولة بل يكون التعادل فى الحقين ويسعد الرئيس والمرؤس

مطلب ان من اتصف بالحرية ينبغى له ان يصرف حريته فى اكرام وطنه واخوانه ورئيس دولته

وحيث ان الحرية منطبعة فى قلب الانسان من أصل الفطرة واقتضت الحكمة الالهية عدم تحقيره وذله وكرمته على جميع من عداه فينبغى ان يصرف حريته فى اكرام وطنه واخوانه ورئيس دولته فاذا كان الانسان يكلف بنفع وطنه فلا يعدّ تكليف الحكومة له بجهاد الاعداء أو اعانة الحكومة على مصارفها من التعدّى على حقوقه فان هذا من واجباته لوطنه حيث ان العدوّ الذى يتعدّى بالاغارة على بلد من البلاد يجب على أهلها قتاله وصدّه عنها وماذاك فى الحقيقة الا حماية الحرية فمن محاسن

حرية

حرية الامة انها تفرح أيضا بحرية غيرها من الامم وتتأذى من استعباد أمم الممالك الذين لا حرية عندهم

وأعظم حرية فى المملكة المتمدنة حرية الفلاحة والتجارة والصناعة فالترخص فيها من أصول فن الادارة الملكية فقد ثبت بالادلة والبراهين أن هذه الحرية من أعظم المنافع العمومية وان النفوس مائلة اليها من القرون السالفة التى تقدم فيها التمدن الى هذا العصر وان أصعب ما على العاقل الذى يفهم منافع هذه الفنون أن يرى تضييق دائرتها ولكن قد يكون سبب التضييق فى ذلك ان ملوك المملكة الموجود فيها ذلك يرون رعاياهم ليسوا أهلا لهذه الرخصة لعدم استكمال التربية الاهلية فيها وأنهم ينتظرون تقدم التربية وصلاح حال الاهالى ليبيحوا لهم رخصة اتساع الدوائر الزراعية والتجارية والصناعية لان تهذيب الاهالى وتحسين أحوالهم يكسب عقولهم الرشد والتصرف فى العمليات المتسعة

قال بعض الحكماء ان سمحتم لى بتحسين التربية ألزمت نفسى لكم باصلاح أحوال العالم بأسره فان العقول البشرية متى بلغت مبلغا عظيما فى فهم المعارف المعاشية اتسعت فى المعاملات وتشبثت باختراع ما يعين على المنافع العمومية من الادوات والآلات واهتم أهل العصر بتمامهم فى مزاولة الاعمال والاشغال وصار للماهرين فى الفلاحة والصناعة والتجارة اقتدار على تدوين كتبها وتقييدهم فيها جميع التجديدات فبهذا تتجدد بالمعارف المكاسب الوافرة والمغانم المتكاثرة يوما فيوما فالممالك التى تقدم فيها علم الادارة والاقتصاد فى المصارف وحصلوا فى ذلك على القواعد المكينة والاصول المتينة فليس عجيبا ان فازوا بمنافعها العمومية وثمراتها الحالية والمآلية ولا يبعد أن من نافسهم ممن بجوارهم فى هذه العلوم وعرف أصولها وفروعها تجدد عنده هذه المنافع بعينها وبالممارسة والمزاولة لا تزال تأخذ فى الاتساع حسب الامكان ويقارن الحرية التسوية وكلاهما ملازم للعدل والاحسان

مطلب ان التسوية بين أهالى الجمعية صفة للانسان طبيعية وانها جامعة للحرية المدنية والملكية

وأما التسوية بين أهالى الجمعية فهى صفة طبيعية فى الانسان تجعله فى جميع الحقوق البلدية كاخوانه وهى جامعة للحرية المدنية والحرية الملكية وذلك لان جميع الناس مشتركون فى ذواتهم وصفاتهم فكل منهم ذو عينين وأذنين ويدين وشم وذوق ولمس وكل منهم محتاج الى المعاش فبهذا كانوا جميعا فى مادة الحياة الدنيا على حد سواء ولهم حق واحد فى استعمال المواد التى تصون حياتهم فهم مستوون فى ذلك لا رجحان

لبعضهم على بعض فى ميزان المعيشة ولكن هذا التساوى بينهم إن أمعنا النظر فيه وجدناه أمرا نسبيا لا حقيقيا لان الحكمة الالهية ميزت بعضهم على بعض أزلا حيث منحت البعض أوصافا جليلة لم تمنحها للبعض الآخر فبهذا تباينوا فى الصفات المعنوية بل وفى الصفات الطبيعية كقوة البدن وضعفه ومع ان الله تعالى فضل بعضهم على بعض فى الرزق فقد جعلهم فى الاحكام مستوين لا فرق بين الشريف والمشروف والرئيس والمرؤس كما أمرت به ودلت عليه سائر الكتب المنزلة على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام فليس للتسوية معنى آخر لاشتراكهم فى الاحكام بان يكونوا فيها على حد سواء فحيث اشتركوا واستووا فى الصفات الطبيعية فلا يمكن ان ترفع هذه التسوية من بينهم فى الاحكام الوضعية فمن حيث ثبت انهم مستوون فى الحقوق أنتج ذلك انهم اذا وقعوا جميعا فى خطر عام وجب على سائرهم ان يتعاونوا فى ازالة هذا الخطر لما فى ازالته من منفعتهم العمومية فاذا وقع لوطنهم حادث وجب عليهم ان يصرفوا النظر عن امتيازاتهم المعنوية كانهم مجردون عنها بالكلية ويرجعوا الى صفة التسوية وينسوا كل مزية فبهذا تكون التسوية ملازمة للحرية عند انطواء راية الحرب ولوائه وينضم الى ذلك صفة ثالثة وهى محافظتهم على بقاء الهدء والراحة العامة فى وطنهم ومنع الاختلال الداخلى وحسم عرق الفتن فكل ملة تتخذ أصل قانونها التسوية من أصل الفطرة فى الحقوق ويدومون على مراعاة هذه التسوية فان حريتهم توضع على أساس متين وتكون مملكتهم راسخة القواعد لا يعتريها الخلل من بين يديها ولا من خلفها فبهذا تقوى على المدافعة عن بلادها وتحمى عن حقيقة وطنها وتدفع جور من جاوره من الممالك فهذه هى الامة القوية الشوكة فى الداخل والخارج مهابة عند الجميع فالتسوية فى الحقوق ليست الا عبارة عن تمكن الانسان شرعا من فعل أو نيل أو منع جميع ما يمكن لسواه من اخوانه ان يفعله أو ينساله أو يمنع منه شرعا فكل انسان يتصرف فى أملاكه وحقوقه تصرفا كتصرف الآخرين أيا ما كانت فى المملكة صفته شرفا أوضعة فهو مساو للجميع فى تصرفاتهم ومن البديهى ان استواء الانسان فى حقوقه مع غيره يستلزم استواءه مع ذلك الغير فى الواجبات التى تجب للناس بعضهم على بعض لان التسوية فى الحقوق ملازمة للتسوية فى الواجبات فكما ان الانسان يطلب ان يستوفى ما هو له فعليه ان يؤدى ما عليه فالتسوية عبارة عن تكليف جميع أهالى المملكة بدون فرق بينهم بأن يفوا بما يجب لبعضهم على بعض فالطالب هو

مطلب وجوب تجريد أهل الجمعية عن امتيازاتهم المعنوية عند ما يخشى على وطنهم وقوع الاخطار لحفظ الحقيقة والذمار

مطلب ان التسوية هى عبارة عن تسويغ اجراء ما يباح وحظر ما يمنع شرعا

ذوالحق والمطلوب هوذوالواجب فالواجبات دائما ملازمة للحقوق لاتنفك عنها وعلى كل حال فالتكاليف الشرعية والسياسية التى عليها مدار نظام العالم مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة الخالية عن الموانع والشبهات لان الشريعة والسياسة مبنيتان على الحكمة المعقولة لنا أو التعبدية التى نعلم حكمتها المولى سبحانه وتعالى وانما ليس لنا ان نعتمد على مايحسنه العقل أو يقبحه الااذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه

مطلب ان التكاليف الشرعية والسياسية مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة الخالية عن الموانع والشبهات وان العدل أساس الفضائل

فمن أدى واجباته واستوفى حقه من غيره وكان دأبه ذلك اتصف بصفة العدل والعدل صفة تبعث الانسان على الاستقامة فى أقواله وأفعاله وان يتصف لنفسه ولغيره حتى جعله بعض الحكماء فضيلة قاعدة لجميع الفضائل وانه أساس الجمعية التأنسية والعمران والتمدن فهو أصل عمارة الممالك التى لايتم حسن تدبيرها الابه وجميع ماعدا العدل من الفضائل متفرع منه وكالصفة من صفاته وانما يسمى باسم خاص كالشفقة والمروءة والتقوى ومحبة الوطن وخلوص القلب وصفاء الباطن والكرم وتهذيب الاخلاق والتواضع وماماثل ذلك فهذه كلها نتائج العدل ثم ان الحديث الشريف وهو قوله صلى الله عليه وسلم لايؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه مايحب لنفسه يتضمن الدرجة العليا فى العدل وهو موافق لما نطقت به حكم الحكماء وشرائع الانبياء قبل الاسلام فقد حسنه الشرع والطبع وان كان تحسين النواميس الطبيعية لايعتد به الااذا قرره الشارع

(الفصل السابع فى الاحكام الطبيعية المستندة قبل التشريع الى العقل)

الحكم الطبيعى المستند الى العقل هو فى أصله قبل تشريع الشرائع عليه مدار العالم ومجرى قوامه وهو النظام الذى وضعته الحكمة الالهية فى القوى البشرية وجعلته مشتركا بينهم مستويا فيهم ليميزوا فيه المباحات بدون نظر لبلد دون أخرى ولالقوانين مملكة دون ماعداها

ولما كانت أعمال كل نوع من أنواع المخلوقات وكل عضو من أعضاء فرد ذلك النوع منقادة لنواميس طبيعية عمومية خصته به الحكمة الالهية كان لايمكن مخالفة هذه النواميس بدون اختلال للنظام العام والخاص وهذه النواميس الطبيعية التى خصت بها العالم القدرة الالهية عامة للانسان وغيره فمنها كون

الشمس تضئ على سطح الارض ويسطع نورها على التدريج فى سيرها وان وجودها على البسيطة يستلزم النور والحرارة وان الحرارة يلزمها سخونة الماء ويتكون عنها الابخرة التى تتصاعد فى الجو ويتكون عنها السحاب الذى يستحيل الى الامطار والثلج والبرد ويتسبب عن ذلك مياه العيون والانهار والجداول وليس لهذه الاشياء تأثير فى بعضها وانما هى أسباب عادية والتأثير انما هو للحكيم القادر وتسميتها طبيعية عند الحكماء انما هو نظر للظاهر

مطلب ان التأثير فى الحقيقة للولى سبحانه وتعالى وان اطلاق لفظ المؤثر على السبب انما هو باعتبار الظاهر

ومن يقل بالطبع أو بالعلة * فذاك كفر عند أهل الملة

فمن هذه الاسباب العادية حقيقة الطبيعة ظاهرا أن الماء يجرى من أعلى الى أسفل ويحاول ان يمتد ويستوى فى انائه تسوية واحدة لا يعلو بعض أجزائه على بعض ويكون أثقل من الهواء ومن ذلك ان جميع الاجسام التى فى الجو تميل للسقوط على الارض ماعدا النار فانها تميل للصعود نحو السماء وانها تضر بالمعادن والحيوانات والنباتات وان الهواء ضرورى لمعيشة بعض الحيوان وان الماء الذى به حياة الحيوان والنبات يختنق فى بعض الاحوال بعض الحيوانات ويقتلها وان بعض عصارات النباتات وبعض المعادن تضر بالحيوان وتقتله وبالجملة فالاسباب العادية المسماة عند الحكماء بالنواميس الطبيعية كثيرة كثرة بالغة

فينبغى للانسان ان لا يتجارى على هذه الاسباب ويتعدى حدودها حيث ان المسببات الناتجة عنها منتظمة محققة ولا نظر الى خرق العادة التى لا تكون الا نحو كرامة لولى لان كل ما كانت معجزة لنبى كانت كرامة لولى لا فرق بينهما الا التحدى بالنبوة

مطلب وجوب تطبيق اعمال الانسان على الاسباب العادية من غير نظر الى خوارق العادات

والولى من استولى على طاعة مولاه كاستواء السفينة اذا طاب لها الريح فيجب احترام الاولياء وعدم اهانتهم روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال يقول الله تعالى من أهان لى وليا فقد آذننى بالمحاربة وقد نطق القرآن بكرامات الاولياء ففيه قصة أصحاب الكهف قال تعالى اذ أوى الفتية الى الكهف الآيات وقصة مريم قال تعالى كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله قال المفسرون كان يجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف وقد أثنى عليهم المولى تبارك وتعالى بقوله ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الآية وقال العلامة اللقانى فى الجوهرة

مطلب ثبوت كرامة الاولياء

واثبتن

وأثبتن الأوليا الكرامة * ومن نفاها أنبذن كلامه

فمنهم من يكون ستره بالاسباب ومنهم من يكون ستره بظهور العزة والسطوة والقهر على حسب ما يتجلى الحق تعالى لقلبه فيقول الناس حاشا ان يكون هذا وليا لله تعالى وهو فى هذه النفس وذلك لان الحق تعالى اذا تجلى فى قلب العبد بصفة القهر كان قاهرا أو بصفة الانتقام كان منتقما أو بصفة الرحمة والشفقة كان رحيما مشفقا وهكذا ولم يزل فى كل عصر وأوان أولياء وعلماء

(رجع) فعلى الانسان ان يطبق أعماله على هذه الاسباب التى تقدم ذكرها ويتمسك بها وإلا عوقب عقابا إلهيا المخالفة خالق هذه الاسباب مثلا اذا أراد الانسان ان يبصر المبصرات فى ظلمة الليل الحالك وحاول ذلك كل المحاولة أو خالف ما تقتضيه الفصول الزمانية واستسهل ما يتسبب عنها أو ناقض خواص العناصر كأن أراد أن يعيش فى قرار الماء أو يمس النار بدون ان يحترق أو ان يشرب السم بدون ان يموت فانه يجازى على أفعاله فى الحياة الدنيا بقدر مخالفته للاسباب العادية بان يغرق أو يحترق أو يشرق أو يموت بخلاف ما اذا راعى هذه الاسباب العالم بخواصها على قدر الامكان فانه يصون نفسه على قدر الامكان حيث هى موضوعة بالحكمة الالهية للحفظ والصون والاسعاف والاسعاد الى غير ذلك

وأغلب هذه النواميس الطبيعية لا تخرج عنها حكم الاحكام الشرعية فهى فطرية خلقها الله سبحانه وتعالى مع الانسان وجعلها ملازمة له فى الوجود فكأنها قالب له نسجت على منواله وطبعت على مثاله وكأنما هى سطرت فى لوح فؤاده بالهام الهى بدون واسطة ثم جاءت بعدها شرائع الانبياء بالواسطة وبالكتب التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها فهى سابقة على تشريع الشرائع عند الامم والملل وعليها فى أزمان الفترة تأسست قوانين الحكماء الاول وقدماء الدول وحصل منها الارشاد الى طريق المعاش فى الازمنة الخالية كما ظهر منها التوصل الى نوع من انتظام الجمعيات التأنسية عند قدماء مصر والعراق وفارس واليونان وكان ذلك من لطف الله تعالى بالنوع البشرى حيث هداهم لمعاشهم بظهور حكماء فيهم يقننون القوانين المدنية لاسيما الضرورية كحفظ المال والنفس والنسل وهذا الاخير هو حكمة عظيمة فى الفطرة التى فطر الناس عليها من تأبيده بازدواج النساء والرجال الذى حكم الطبع والشرع بحله وحث عليه شرع كل ملة من الملل

مطلب ان النواميس الطبيعية تأسست عليها قوانين أهل الفترة وجاءت شريعة كل رسول مقررة لاغلبها

مطلب الائتلاف الالهي بين النساء والرجال

وقد اقتضت حكمة الله تعالى ان خلق النساء والرجال من نفس واحدة ليسكن بعضهم الى بعض ومع ذلك فجعل النساء رأس الشهوات التي هي النساء والبنون والذهب والفضة والخيل المسوّمة والانعام والحرث في قوله تعالى زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والانعام والحرث وذلك لتقدم النساء في قلوب الرجال على جميعها وكانت عائشة رضي الله تعالى عنها تقول من شقوتنا ان الله سبحانه وتعالى قدّمنا حين ذكر الشهوات وقال تعالى ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودّة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون وروى ان رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله الرجل يتزوج المرأة لا يعرفها ولا تعرفه فلا يكون الا ليلة حتى لا يكون شئ أحب اليه منها واليها منه فقال صلى الله عليه وسلم ذلك ألفة الله وتلا قوله سبحانه وتعالى وجعل بينكم مودّة ورحمة وروى البخاري عن أسامة بن زيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماتركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون فاتقوا الله واتقوا النساء فان فتنة بني اسرائيل كانت في النساء

ومع ان النساء رأس الشهوات كما تقدم فهن في الحقيقة جعلهن الله سبحانه وتعالى لسعادة الرجال حيث أودع في قلوب الرجال حب النساء وفي النساء حب الرجال للائتلاف بينهما والتمتع بما أحله الله سبحانه وتعالى من الزواج أو التسري ومما يتولد عن ذلك التمتع من الذرية والنسل الذي عليه مدار العمران وبقاء الانسان والنظام العمومي كما سيأتي بيانه في الباب الآتي

(الباب الخامس في الزواج والتسري وما يتعلق بذلك وفيه فصول)

(الفصل الاوّل في الزواج)

عقد الزواج انما يقصد منه ارتباط أحد الزوجين بالآخر وايجاد علاقة الاتحاد بينهما للعفاف والنسل بحيث يكون ذلك على وجه شرعي وكل منهما معان ومجازى عليه بالثواب قال الشاعر

حق على الله عون جمع * وهو لهم في غد يجازى

مكاتب نا كح عفافا * ومن يزريته وغازى

وخير الزوجين من كانا متحابين كما قيل

ما العيش الا ان تحب وأن يحبك من تحبه

وقد وردت أحاديث كثيرة فى الحث على الزواج والتناسل الذى عليه مدار نظام العالم ولا يتم هذا المقصود الا اذا صحبه صدق المحبة وصفاء المودّة وأمانة أحد الزوجين للآخر وصيانة العرض الذى هو محل للمدح والذم منهما ولو أن هذا المعنى ليس صريحا فى العقد الا انه ضمنى سكوتى ولو انه أيضا عام فى الرجال والنساء بدون استثناء الا انه أوكد فى حقوق الزوجية بين الزوجين وتظهر ثمرة الصداقة منهما فى سياستهما المنزلية كما يظهر الاخلال بهذه الفضيلة فى تلك السياسة المنزلية بين العائلة والاولاد الذين هم القصد الاعظم بقوله صلى الله عليه وسلم تزوّجوا الودود الولود فانى أباهى بكم الامم يوم القيامة حتى بالسقط وقال صلى الله عليه وسلم سوداء ولود خير من حسناء عقيم ولا يسن لمن فى دار الحرب التزوّج مطلقا خوفا على ولده من التدين بدينهم والاسترقاق ويتعين حمله على من لم يغلب على ظنه الزنا ولم يتزوّج اذ المصلحة المحققة الناجزة مقدمة على المفسدة المستقبلة المتوهمة

ولم تزل العرب تكره من لا تلد قال صلى الله عليه وسلم بيت لا صبيان فيه لا بركة فيه انتهى فان الولد كله خير فى جميع أحواله ان شاء الله تعالى لانه ان عاش فله رزق على الله تعالى قال تعالى نحن نرزقهم واياكم ولعل والده يسعد به ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لرجل شكا اليه أخاه اعلك به ترزق وشكا رجل الى بعض العلماء كثرة عياله فقال من كان من عيالك رزقه على غير الله فحوّله إلى وقال صلى الله عليه وسلم من كان له مال فليستكثر من العبيد فرب عبد قسم له من الرزق مالم يقسم لمولاه وفى حديث التمسوا الرزق بالنكاح فمن هذا يعلم ان البركة فى العائلة لاسيما الاولاد فان الولد من خيرى الدنيا والآخرة لانه ان عاش كان له رزق على الله وان مات فى صغره كان فرطا لابويه يثقل به ميزانهما والى الجنة يقودهما فقد قال صلى الله عليه وسلم ان الطفل يجرّ أبويه بسرره الى الجنة وروى عن الحسن البصرى رحمه الله تعالى انه جاءه رجل فقال يا أبا سعيد انه كان لى ابن صغير فمات واذا رأيت شيئا مما كان يلعب به جزعت من ذلك جزعا شديدا فقد خفت أن يحبط الله تعالى أجرى فقال له اذا رأيت شيئا من ذلك فقل اللهم اجعل لى أجرا اللهم اجعله

مطلب وجوب صيانة العرض ووجود الالفة بين الزوجين

مطلب استحباب زواج الودود الولود وأن الرزق تحت مزاحمة الاقدام

مطلب الصبر عند البلاء واحتساب من فقد من الذرية والتسليم للقضاء بالرضاء

لى فرطا ومن ذلك ماصح من حديث أم سلمة رضى الله تعالى عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول مامن مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمر الله به انا لله وانا اليه راجعون اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلفنى خيرا منها الا أخلف الله له خيرا منها فلما مات أبو سلمة قلت أى المسلمين خير من أبى سلمة أول بيت هاجر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انى قلتها فأخلفنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل اذا مات ولد العبد يقول الله تبارك وتعالى للملائكة ماقال عبدى عند قبض روح ولده وثمرة فؤاده فيقولون المنا حمدك واسترجع فيقول الله تعالى فانى أشهدكم ياملائكتى انى بنيت له بيتا فى الجنة وسميته بيت الحمد شعر

لايدوم البقاء للخلق لكن * دوام البقاء للخلاق

(وقال بعضهم)

فلسنا وان كان البقاء محببا * بأول من أخنى عليه حمام

(وقيل)

وزهرة الدنيا وان أينعت * فانها تسقى بماء الزوال

وقال ابن عباس رضى الله عنهما أول شئ كتبه الله فى اللوح المحفوظ إنى أنا الله لا اله الا أنا ومحمد رسولى من لم يستسلم لقضائى ويصبر على بلائى ويشكر نعمائى فليتخذ ربا سوائى شعر

سيكون الذى قضى * سخط العبد أم رضى

فدع الهم يافتى * كل هم سينقضى

(وقيل)

ما للرجال مع القضاء محالة * ذهب القضاء بحيلة الاقوام

وقال بعض أهل الاشارة البلاء على ثلاثة أوجه بلاء التعذيب وبلاء التأديب وبلاء التقريب فبلاء التعذيب للعاصين وبلاء التأديب للطيعين وبلاء التقريب للمخلصين وقال بعضهم كل بلاء يقربك الى الله تعالى فهو نعمة وكل نعمة تبعدك عن الله فهى نقمة قال صلى الله عليه وسلم ان الله يتعاهد العبد المؤمن من بلائه كما يتعاهد الوالد ولده بالخير وعن عطاء بن أبى رباح قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصابته مصيبة فليذكر مصيبته فى فانها من أعظم المصائب وقال السرى السقطى رحمه الله الصبر على اربعة أقسام صبر على طاعة الله يقوم بها العبد فلا

يقطعها ولا يهملها ولا يخلطها بالرياء ولا يتبعها بما يحبطها وصبر على معصية الله لا يقربها وصبر على الشدائد لا تحمله على مخالفة ربه وصبر على النعمة لا تبطره

شعر

ان لله فى الانام مرادا * وسوى ما أراده مستحيل
نحن مستعملون فيما خلقنا * ما لنا فى نفوسنا ما نقول

(وقيل)

من عارض الله فى مشيئته * فما من الدين عنده خبر
لا يقدر الناس باجتهادهم * الا على ما جرى به القدر

ويروى ان الاطفال يجتمعون فى موقف القيامة عند عرض الخلائق للحساب فيقولون أين آباؤنا وأمهاتنا فيقال لهم ليسوا امثالكم بل لهم ذنوب يحاسبون عليها فيتصارخون ويصيحون على باب الجنة صيحة واحدة يقولون لا ندخل الجنة الا مع آبائنا فيقول الله تعالى تخللوا الجمع فخذوا بيد آبائكم فأدخلوهم معكم الجنة وروى الامام مالك فى الموطأ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يموت لاحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم الا كانوا له جنة من النار فقالت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أو اثنان قال واثنان

وقيل عزى أعرابى عمر بن عبد العزيز على ابن له فقال

تعز أمير المؤمنين فانه * لما قد ترى يغزى الصغير ويولد
هل ابنك الا من سلالة آدم * لكل على حوض المنية مورد

والاسلام عند أهل الحقيقة تسليم الامور كلها لله والرضى بقضاء الله والصبر على بلاء الله وترك التعرض فى جميع ما جاء عن الله ورسوله واتباعه وان تعتقد وتتيقن ان حركات الخلق وسكونهم فعل الله وحده لا شريك له ولا دافع لما قضاه ولا رادّ لما أمضاه ولا مانع لما أعطى ولا مضل لما هدى ولا مهدى لمن أضل لقوله تعالى من يهدى الله فهو المهتد الآية وقال صلى الله عليه وسلم من بركة المرأة سرعة تزويجها وسرعة رحمها يعنى ولادتها ويسير مهرها قال أحمد بن عبد الله بن سيف أبو بكر السجستانى سمعت المزنى وقد سئل عن رجل تزوج امرأة على بيت شعر فقال يجوز على معنى قول الشافعى اذا كان مثل قول القائل

مطلب سرعة تزويج المرأة واستحباب القليل من الصداق وذكر ما يتيمن به فى المرأة

يريد المرء أن يعطى مناه * ويأبى الله الا ما أرادا

يقول العبد فائدتي ومالي * وتقوى الله أفضل ما استفادا

فالمهر اليسير للزوجة أولى ويروى اليمن في المرأة قلة مهرها وحسن خلقها وكثرة ولدها وفي الفرس رخصها وقلة علفها وكثرة نسلها وفي الدار رخصها وسعتها وصلاح جيرانها وقال بعضهم في الجار

يلومونني ان بعت بالرخص منزلي * ولم يعرفوا جارا هناك ينغص

فقلت لهم كفوا الملام فانها * بجيرانها تغلو الديار وترخص

وقد ورد في الجار السوء قوله عليه الصلاة والسلام لا يدخل الجنة عبد لا يأمن جاره بوائقه أي غوائله وشره والبائقة الداهية يقال أعوذ بالله من بوائق الدهر ومصيبات الليالي والايام وقال صلى الله عليه وسلم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن الى جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت وقال صلى الله عليه وسلم انما النساء لعب فاذا أخذ أحدكم لعبته فليستحسنها وقال صلى الله عليه وسلم من تزوج من بلدة فهو من أهلها وقال النووي والقرابة غير القريبة أولى من الاجنبية وذات الدين أولى ومع الدين ذات الجمال والعقل أولى وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم اذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سداد من عوذ وحكى عن المأمون انه ذكر الحديث المذكور وفتح سين سداد فأعاد النضر الحديث وكسر السين فاستوى المأمون قائما وقال تلحنني يا نضر فقال انما عن هشيم وكان لحانا فتبع أمير المؤمنين لفظه قال فما الفرق بينهما قال السداد بالفتح القصد في الدين والسبيل والسداد بالكسر البلغة وكلما سددت به شيئا فهو سداد بكسر السين وأنشد

أضاعوني وأي فتى أضاعوا * ليوم كريهة وسداد ثغر

والنضر من أصحاب الخليل بن أحمد والبيت لعبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان رضي الله عنه المعروف بالعرجي نسبة الى العرج عقبة بين مكة والمدينة

مطلب ان الاقتصار على الزواج بواحدة مندوب اذا كان لم تدع الحاجة وسياق أشياء تناسب ذلك

وندب ان لا يزيد على امرأة من غير حاجة ظاهرة وان لا يتزوج من معها ولد من غيره من غير مصلحة وان لا يتزوج المرأة الا بعد بلوغها وبعد النظر اليها ليكون أحرى ان يدوم الحب بينهما وتزويج البكر أولى من الثيب لقوله صلى الله عليه وسلم عليكم بالابكار فانهن أعذب أفواها وانتق أرحاما وأرضى باليسير

مطلب خطبة المغيرة بن شعبة لهند بنت النعمان وان تزاوج القرينين مما ينبغي لكل انسان

وينبغي لمن أراد الزواج ان يقصد عراقة المولد وطهارة المنشأ وان يتخير من يأنس اليها ولا يرى غيرها وذكروا ان المغيرة بن شعبة لما ولي الكوفة سار الى دير هند بنت النعمان وهي فيه عمياء مترهبة فاستأذن عليها فقالت من أنت قال المغيرة بن شعبة الثقفي قالت ما حاجتك قال جئت خاطبا قالت انك لم تكن جئتني لجمال ولا لكمال ولكنك أردت ان تتشرف في محافل العرب فتقول تزوجت بنت النعمان بن المنذر والا فأي خير في اجتماع عمياء وأعور

وينبغي ان يتزوج الرجل قرينته في السن ويحكى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال ما معناه لا ينكحن أحدكم من النساء الا قرينته يعني من كانت في سنه كانه رضي الله تعالى عنه كره للشاب ان يتزوج المسنة وللمسن ان يتزوج الشابة وما تقدم من قصد عراقة المولد فدليله قوله صلى الله عليه وسلم اياكم وخضراء الدمن قيل يارسول الله وماذا قال المرأة الحسناء في المنبت السوء والمعنى انه صلى الله عليه وسلم كره نكاح الفاسدة وقال ان اعراق السوء تنزع أولادها وتفسير حقيقته ان الريح تجمع الدمن وهو البعر في البقعة من الارض ثم يركبه السافي فاذا أصابه المطر نبت نبتا غضا ناعما يهتز وتحته الاصل الخبيث فيكون ظاهره حسنا وباطنه قبيحا فاسدا والدمن جمع دمنة وهي البعرة قال زفر بن الحارث

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى * وتبقى حزازات النفوس كما هيا

مطلب تخير الانسان للمادة التي يخلق منها ولده وان العرق دساس

يعني ان الرجلين قد يظهران الصلح والمودة وينطويان على البغضاء والعداوة كما ينبت المرعى على الدمن ومن الآثار الواردة عن العرب أيضا اياك وعقيلة الملح يكنون بذلك عن المرأة الحسناء في منبت السوء فان عقيلة الملح هي اللؤلؤة تكون في البحر فهي حسنة وموضعها ملح قال عبد الملك بن عمير المرأة السوداء بنت السيد أحب الي من الحسناء بنت الرجل الدنيء وقيل عليك بمن تربت في النعيم ثم أصابها فاقة فشرفها الغنا وأدبها الفقر وفي حديث مسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الدنيا متاع وخير متاعها الزوجة الصالحة وفي الحديث أيضا انظر في أي نصاب تضع ولدك فان العرق دساس وقال الشاعر

وكل الى طبعه راجع * وان صده الضد عن قصده
ترى الماء من بعد اسخانه * يعود سريعا الى برده

(قال الراجز)

ان الاصول تجلب الفروعا * والعرق دساس اذا أضيعا

(وقال آخر)

ماطاب فرع أصله خبيث * ولا زكا من مجده حديث

(وقال آخر)

وكل من تمايلت أطرافه * فى فيئها وكرمت اسلافه
كان خليقا بالعلاء والكرم * حيث يرى فى أصله حسن الشيم

وقد يخبث الفرع الذى طاب أصله كما قيل

اذا طاب أصل المرء طابت فروعه * ومن عجب جادت يد الشوك بالورد
وقد يخبث الفرع الذى طاب أصله * ليظهر سر الله فى العكس والطرد

(قال بعضهم)

واذا جهلت من امرئ اعراقه * وقديمه فانظر الى مايصنع

(وقال آخر)

وكل انسان له جوهر * ينبيك عن جوهره فعله
لاتطلب المشموم من حنظل * فانه يغلبه أصله

(وقال آخر)

الخلق مختلف جواهره * ولقل من تزكو عناصره
ولقل من تصفو سرائره * ويصح باطنه وظاهره

وقال بعضهم فيمن ينبغى تخيرها للازواج شرعا

صفات من يستحب الشرع خطبتها * جلوتها لاولى الابصار مختصرا
حسيبة ذات دين زانه أدب * هذى الصفات التى تحلو لمن نظرا
بها الاحاديث جاءت وهى ثابتة * أحاط علما بها من فى العلوم قرا

مطلب ذم الزوجة السوء

وفى حكمة داود عليه السلام المرأة السوء لبعلها كالحمل الثقيل على الرجل الكبير والمرأة الصالحة له كالتاج على رأس الامير

وقال بعضهم ان المرأة السوء مثل شرك الصياد لاينجو منها الا من رضى الله عنه وعن الاصمعى عن أبى عمرو بن العلاء قال قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه النساء ثلاثة هينة لينة عفيفة وأخرى وعاء للولد وثالثة غل يلقيه الله فى عنق من يشاء من عباده

عباده وقال بعضهم فى زوجته

لقد كنت محتاجا الى موت زوجتى * ولكن قرين السوء باق معمر
فياليتها صارت الى القبر عاجلا * وعذبها فيه نكير ومنكر

(وقال آخر)

خليلى لا والله ما الدهر منصف * وليس له يوما على جميل
يقرب منى كل شخص كرهته * ويبعدنى من اليه أميل

ويقال ان المرأة اذا كانت مبغضة لزوجها فان علامة ذلك عند قربه منها تكون مرتدة الطرف عنه كانها تنظر الى انسان غيره وان كانت محبة له لا تقلع عن النظر اليه

وفى حكمة سليمان عليه السلام المرأة العاقلة تبنى بيت زوجها والسفيهة تهدمه

وقالت الحكماء لم تنه امرأة عن شئ الا فعلته كما قال بعضهم

ان النساء متى ينهين عن خلق * فانه واقع لا بد مفعول

وقال عمر رضى الله عنه أكثروا لهن من قول لا فان نعم يغريهن على المسألة وقال حكيم اعص النساء وهواك واصنع ماشئت

قال بعضهم العيش كله مقصور على الخريدة الصالحة والزوجة الموافقة والبلاء كله موكل بالقرينة السوء التى لا تسكن النفس الى عشرتها ولا تقر العيون برؤيتها

وفى الحديث ثلاثة لا تمسهم النار المرأة المطيعة لزوجها والولد البار بوالديه والعبد القاضى حق الله وحق مولاه

وروى أيضا عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كنت آمرا أحدا ان يسجد لاحد لأمرت المرأة ان تسجد لزوجها

وقال حكيم الانس فى ثلاثة الزوجة الصالحة والصديق المصافى والولد البار

وقال بزرجمهر ستة خصال تعدل نعيم الدنيا الزوجة الموافقة والولد الصالح والطعام المرئ والكلام المحكم وكمال العقل وصحة البدن وقال المأمون لجلسائه من أطيب الناس عيشا فقال بعضهم من كانت له زوجة ترضيه وبيت يأويه ومال يكفيه واخوان تواسيه فقال المأمون ويحتاج مع ذلك ان لا يعرفنا فنؤذيه

شعر

سعادة المرء ان يكون له * وبيت نوى كسوة حسنه

وعنده زوجة موافقة * موصوفة بالجمال مؤتمنه
وجاه قوته ببلدته * ولم يفارق لقوته وطنه
وعاش تسعين في رفاهية * كان كن عاش ألف سنة

ولما كان الجمال محبوبا ومعظما في القلوب كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الناس الى الجمال الباطن بجمال الظاهر كما قال لجرير بن عبد الله البجلي وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسميه يوسف هذه الامة قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت امرؤ قد حسن الله خلقك فحسن خلقك وقال بعض الحكماء ينبغي للعبد أن ينظر كل يوم في المرآة فان رأى صورته حسنة لم يشنها بقبيح فعله وان رآها قبيحة لم يجمع بين قبح الصورة والفعال وقد نظم بعضهم هذا فقال

مطلب تعظيم الجمال الحسي والمعنوي في القلوب واستيلائه عليها

ياحسن الوجه توق الخنا * لاتبدلن الزين بالشين
ويا قبيح الوجه كن محسنا * لاتجمعن بين قبيحين

مطلب فصاحة النساء

ومن أعظم أوصاف النساء الفصاحة ليتمكن بها عن السؤال عن الدين فمن فصاحة النساء ماروى عن أسماء بنت يزيد الانصارى رضي الله عنها انها أتت للنبي صلى الله عليه وسلم وهو بين أصحابه فقالت يارسول الله انى وافدة النساء اليك ان الله بعثك بالحق للرجال والنساء فآمنا بك واتبعناك وانا معاشر النساء محصورات قواعد في بيوتكم مقضى شهواتكم وحاملات أولادكم وانكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمعة والجماعة وعيادة المرضى وشهادة الجنائز وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله تعالى وان الرجل منكم اذا خرج حاجا أو معتمرا أو مرابطا حفظنا لكم أموالكم وغسلنا لكم أثوابكم وربينا لكم أولادكم أفما نشارككم في الاجر يارسول الله فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم الى أصحابه بوجهه الكريم ثم قال هل سمعتم مقالة امرأة أحسن من هذه عن أمر دينها فقالوا يارسول الله ماظننا ان امرأة تهدى الى مثل هذا فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم اليها ثم قال انصرفى أيتها المرأة وأعلمى من خلفك ان كل شئ حسن تفعله احداكن لزوجها طلبا لمرضاته وابتغاءها موافقته يعدل ذلك كله فأدبرت المرأة وهى تهلل وتكبر استبشارا أخرجه البيهقى

قال

قال الامام أبو حنيفة النعمان رحمه الله خدعتني امرأة وفقهتني امرأة وزهدتني امرأة اما الاولى فكنت مجتازا فأشارت الي امرأة الى شيء مطروح في الطريق فتوهمت انها خرساء وان الشيء لها فلما رفعته دفعته اليها فقالت لي احفظه حتى تسلمه لصاحبه وأما الثانية فان امرأة سألتني عن مسألة في الحيض فلم أعرفها فقالت قولا تعلمت الفقه من أجله وأما الثالثة فاني مررت ببعض الطرقات فقالت امرأة هذا الذي يصلي الفجر بوضوء العشاء فتعمدت ذلك حتى صار دأبي انتهى

وروي ان امرأة دخلت على مسجد أبي حنيفة فأخرجت تفاحة أحد جانبيها أحمر والآخر أصفر فوضعتها بين يديه ولم تتكلم فأخذها وشقها نصفين فقامت المرأة وخرجت فلم يعلم أصحابه مرادها فسألوه عن ذلك فقال انها أرادت انها ترى في أيام حمرة وتارة ترى صفرة كحمرة التفاحة وصفرتها فشققتها وأريتها باطنها وأردت انك لا تطهرين حتى ترى البياض الخالص ففهمت وخرجت انتهى

مطلب ورع أخت بشر الحافي

وقال الشيخ الأكبر في حديث استفت قلبك وان أفتاك المفتون ان في هذا الحديث لمقام المتورعين فانهم اذا بحثوا عنه عرفوا به كما اشتهرت أخت بشر الحافي لما سألت الامام أحمد عن الغزل على ضوء مشاعل الولاة اذا مرت في الليل وقال لها الامام أحمد من بيتكم يخرج الورع الصادق لا تغزلي فيها ولو علمت معنى حديث استفت قلبك ما سألت عن ذلك فكأنها ما سألت عن ذلك حتى زادها فكانت تدع ذلك الغزل من غير سؤال وتستر مقامها ولا يثني عليها بذلك فانه صلى الله عليه وسلم انما أعطانا ذلك الميزان في قلوبنا ليكون مقامنا مستورا على الناس خالصا مخلصا لا يعلمه الا الله اللهم الا أن يكون أحدنا مقتدى به فله ان يظهر ورعه ليتبع انتهى يعني ان هذه المرأة الصالحة تعلم ان البر ما يطمئن له القلب وان الاثم ما حاك في الصدر وان الغزل على ضوء مشاعل الولاة فيه الشبهة وانما سألت عن ذلك ليشتهر عنها ذلك ويقتدي بها غيرها من أهل الصلاح من رجال ونساء وهذا أيضا يفهم منه شيآن الأول انها كانت تشتغل بالغزل وتحترف به الثاني انها كانت تجتهد ان يكون كسبها حلالا طيبا انتهى

مطلب مخاطبة الحرقة بنت النعمان لسعد ابن أبي وقاص

ومن الفصاحة والفطنة أيضا ما ذكر عن الحرقة بنت النعمان بن المنذر فيما حكي عنها انه لما فتح سعد بن أبي وقاص القادسية قيل له ان الحرقة بنت النعمان بن المنذر

حضرت ومعها جاريتان لهما في مثل زيها فلما وقفن بين يديه قال أيتكن الحرقة بنت النعمان قالت أنا قال أنت قالت نعم كان الدنيا لا تدوم على حال فانها سريعة الانتقال تنتقل بأهلها انتقالا وتعقبهم بعد حال حالا انا كنا ملوك هذا المصر يجبى الينا خراجه حتى تشتت الامر وصاح بنا الدهر فشق عصانا وشتت ملانا وكذلك الدهر يعثر بالاحرار ويكب على ذوى الاخطار فقال لها سعد خبريني عن حالكم كيف كان قالت أطيل أم أقصر فقال بل أقصرى فقالت أمسينا وليس أحد من العرب الا وهو يرغب الينا أو يرهب منا ثم أنشأت تقول شعرا

فبينا نسوس المال والامر أمرنا * اذا نحن فيهم سوقة نتنصف
فأف لدنيا لا يدوم نعيمها * تقلب تارات بنا وتصرف

فاستحسن سعد كلامها وأكثر اكرامها فلما أرادت الانصراف قال لها سلى حاجتك قالت خرابة أعمرها وأعيش بانتفاعها فقال لعماله اطلبوا فى الولاية قرية خرابا فطلبوا فلم توجد فقال لها سعد انا لم نجد فى الولاية خرابة فاختارى معمورة فقالت الحمد لله على أياديه حيث وفق آبائى للعدل حتى أعمروا الدنيا بعدلهم وسلموها الى غيرهم معمورة فاجتهد أيها الامير فى تسليمها الى غيرك ان تكون عامرة كما أخذتها وتستحق رحمة الخالق ومحمدة الخلق واياك أن تسعى فى خرابها وأما أنا فبعد اليوم لا أرجو سرورا ولا تمتد عينى الى زهرة الدنيا ثم دعت له فقالت لا جعل الله لك الى لئيم حاجة ولا زالت لكريم عندك حاجة مقضية أبدا وشكرتك يد افتقرت بعد غنى ولا نالتك يد استغنت بعد فقر ولا أزال الله عن قوم كرام نعمة الا وجعلك سببا لردها قال الراوى لهذه الحكاية فالتفت الى سعد وقال يا أبا ثور احفظ هذه الكلمات حتى تخبر بهن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال فلما قدمت المدينة أخبرت عمر بشأنها فقال صدقت ما من قوم الا والدهر على لهم بيوم يسرهم وقال

فيوم علينا ويوم لنا * ويوم نساء ويوم نسر

مطلب موافقة شن لطبقة

وكان شن من دهاة العرب وكان ألزم نفسه ان لا يتزوج الا بامرأة تلائمه فكان يجوب البلاد فى ارتياد طلبته فصاحبه رجل فى بعض اسفاره فلما أخذ منهما السير قال له شن أتحملنى أم أحملك فقال له هل يحمل الراكب الراكب فأمسك وسار حتى أتيا زرعا فقال له شن أترى هذا الزرع أكل أم لا فقال أما تراه فى سنبله فأمسك الى ان

استقبلتهما

استقبلتهما جنازة فقال له أترى صاحبها حيا أم لا فقال له صاحبه أتراهم حملوا الى القبور حيا ثم انهما وصلا الى قرية الرجل فصار به الى منزله وكان له بنت تسمى طبقة فاخذ يطرفها بحديث رفيقه فقالت له ما نطق الا بالصواب أما قوله أتحملني أم أحملك فانه أراد تحدثني أم أحدثك حتى نقطع الطريق بالحديث وأما قوله أترى هذا الزرع أكل أم لا فانه أراد هل استسلف ربه ثمنه وأما استفهامه عن حياة صاحب الجنازة فانه أراد به أخلف عقبا يحيا به ذكره أم لا فلما خرج الى شن حدثه بتأويل ابنته كلامه فخطبها اليه فزوجه اياها وسار بها الى قومه فلما خبروا ما فيها من الدهاء والفطنة قالوا وافق شن طبقة فصارت مثلا وهذا أحد الاقوال فى تفسير هذا المثل وقد قيل فى تفسيره ما هو أشهر من هذا وهو مردود فى كتاب مجمع الامثال للميدانى انتهى

وحكى بعضهم ان عدة فوارس وجدوا رجلا فى بلاد الحرب معه جارية لم ير مثلها شبابا وجمالا فصاحوا واخل عنها ومعه قوس له فرمى بعضهم فجرحه فهابوا الاقدام عليه ثم عاد ليرمى فانقطع وتره فأسلم الجارية واستعصم بجبل كان قريبا منه فابتدروا الجارية وفى أذنها قرط فيه درة فانتزعه بعضهم من أذنها فقالت وما قدر هذه فكيف لو رأيتم درتين فى قلنسوته فاتبعوه فقال مالكم ألم أدع لكم بغيتكم قالوا ألق ما فى قلنسوتك فرفع قلنسوته فاذا فيها وتر القوس قد كان أعده وأنسيه من الدهش فلما رآه عقد فى قوسه فولى القوم ليس لهم الا النجاء بأنفسهم وخلوا عن الجارية كما قيل

قهرت العدا لا مستعينا بعصبة * ولكن بأنواع الخديعة والمكر

وقال حسن بن على بن الحسين لامرأته عائشة بنت طلحة أمرك بيدك يعنى طلاقك بيدك فقالت له قد كان بيدك عشرين سنة فأحسنت حفظه فلن أضيعه إذ صار فى يدى ساعة واحدة وقد صرفته اليك فأعجبه ذلك منها وأمسكها وطلق رجل امرأته فلما أرادت الارتحال قال اسمعى وليسمع من حضر انى والله اعتمدتك برغبة وعاشرتك بمحبة ولم أجد منك زلة ولم يدخلنى عنك ملة ولكن القضاء كان غالبا فقالت المرأة جزيت من صاحب ومصحوب خيرا فما استقللت خيرك ولا شكوت ضيرك ولا تمنيت غيرك قيل أراد حاتم الطائى سفرا فدخل على أمه يودعها فقالت له يا بنى اعتصم بالتقوى تكن فوق الذى أنت دونه وكن ممن اذا نزلت به النوائب قام اليها ثم قام بها واجعل مالك وقاية لعرضك وقولك دون فعلك امض مصاحبا فالى الله أرغب

في حياطتك واياه اسأل أن يحيي بك الشرف ويظهر بك المروءة ويجعل لك من كل حسن شاهدا ومن كل جميل رائدا انتهى

وقال علي كرم الله وجهه من سعادة المرء خمسة أشياء ان تكون زوجته موافقة وأولاده أبرارا واخوانه أتقياء وجيرانه صالحين ورزقه في بلده وقد نظم بعضهم هذا

سعادة المرء في خمس قد اجتمعت * فلاح جيرانه والبر في ولده
وزوجة حسنت أخلاقها وكذا * خل أمين ورزق المرء في بلده

قال بعضهم في التزويج تسعة فوائد حفظ المسكن ونظافة المجلس وطيب المأكل والانس عند كرة النساء والمباشرة والولد وحفظ العين عن المحارم والتعهد عند الامراض وزيادة القرابة بوصلتهن

وليس نفع المرأة مقصورا في راحة زوجها بل هي نافعة لارحامها وغيرهم فيما يخص مكارم الاخلاق كما يحكى عن عمرو بن العاص انه دخل على معاوية رضي الله عنهما وعنده ابنته عائشة فقال من هذه يا أمير المؤمنين قال هذه تفاحة القلب قال انبذها عنك فانهن يلدن الاعداء ويقربن البعداء ويورثن الضغائن قال لا تقل كذا يا عمرو فوالله ما لازم المرضى ولا ندب الموتى ولا أعان على الاحزان إلا هن وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يمن المرأة تبكيرها بالانثى قال بعضهم

أحب البنات فحب البنا * ت فرض على كل نفس كريمه
لان شعيبا لاجل البنا * ت أخدمه الله موسى كليمه

(وقال الشاعر)

رأيت رجالا يكرهون بناتهم * وفيهن لاتكذب نساء صوالح
وفيهن والايام تعثر بالفتى * خوادم لا يمللنه ونوائح

وقال بعضهم في صديق رزق بنتا فسخطها

قالوا له ماذا رزقتا * فأصاخ ثمت قال بنتا
وأجل من ولد النسا * ء أبو البنات فلم جزعتا
ان الذين تود من * بين الخلائق ما استطعتا
قالوا بفضل البنت ما * كتبوا به الاعداء كبتا

مطلب انه ينبغي سرور الوالدين بالبنات كسرورهما بالبنين

وهنأ بعضهم صديقا له ببنت فقال أهلا وسهلا بعقيلة النساء وأم الابناء وجالبة الاصهار والاولاد الاطهار المبشرة باخوة يتناسقون ونجباء يتلاحقون قال الشاعر

فلو

فلو كان النساء كمثل هذي * لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيب * ولا التذكير فخر للهلال

والله يعرفك يا مولاي البركة في مطلعها والسعادة بموقعها فادرع اغتباطا واستأنف نشاطا فان الدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها والذكور يعبدونها والارض مؤنثة وفيها البرية ومنها كثرة الذرية والسماء مؤنثة وقد زينت بالكواكب وحليت بالنجم الثاقب والنفس مؤنثة وهي قوام الابدان وملاك الحيوان والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الاجسام ولا عرف الكلام والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون وفيها ينعم المرسلون فهنيئا هنيئا لك وأوزعك الله شكر ما أسداه اليك

فقد استبان مما سبق كله انه سبحانه وتعالى خلق الزوجين الذكر والانثى وخلق النطفة في الصلب وهيأ لها عروقا ومجارى وجعل لها الرحم قرارا ومستودعا وسلط الشهوة على الزوجين لتعريف ما أعدت له وهو التوصل الى الولد تحقيقا لما سبقت به المشيئة وحقت به الكلمة وفي التوصل الى الولد قربة من وجوه الاول حب الله تعالى في السعي لتحصيل الولد لبقاء جنس الاولاد الثاني طلب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في تكثير من يباهي به الانبياء الثالث طلب التبرك بدعاء الولد الصالح بعده الرابع طلب الشفاعة بموت الولد الصغير قبله أما الوجه الاول وهو تحصيل الولد لبقاء جنس الانسان فهو أدق الوجوه وأقواها عند ذوي البصائر في عجائب صنع الله تعالى

مطلب ما أودع الله في الانسان من ميله الطبيعي الى ما يوجب بقاء النوع

وبيان ذلك ان السيد اذا أسلم الى عبده البذر وآلة الحرث وهيأ له الارض للحراثة وكان العبد قادرا عليها فوكل به من يتقاضاه فتكاسل وعطل آلة الحرث وترك البذر ضائعا حتى فسد ودفع الموكل به عن نفسه بنوع من الحيلة كان مستحقا للعقوبة من سيده فهذه الافعال والآلات التي اقتضت الحكمة الالهية فيها ترتيب المسببات على الاسباب تشهد بلسان حال فصيح وتنادي أولي الالباب بالتلميح والتصريح لتعرفهم ما أعدت له فكل ممتنع من النكاح وسالك سلوك الرهبانية فهو معرض عن الحراثة مضيع للبذر لما خلق الله تعالى من الآلات المعدة لذلك وأما المتزوج فهو ساع في اتمام ما أحب الله اتمامه بخلاف غيره المترهبين فهو معطل

ومن الغريب ان مدينة من مدن مورة ببلاد اليونان تسمى اسبرطه كانوا يحتقرون الرجل الاعزب ويستخفون به حتى انه اتفق ان شابا من جند اليونان استحقر أمير

مطلب ما كان من عادة أهل اسبرطه من احتقارهم للرجل الاعزب

جنده لكونه أعزب ولم يرض ان يقف امامه ولا يعظمه فسأله أمير الجند عن سبب ذلك فقال له انه ليس لك أولاد تكافئني في مقابلة تعظيمي لك بوقوفهم أمامي اذا تقلدت برياسة الجند وقال اعرابي يمدح قبيلة منجبة

كم قد ولدتم من رئيس قسور * دامي الاظافر في الخميس الممطر
سدلت أنامله بقائم مرهف * وبنشر فائدة وذروة منبر
ما ان يريد اذا الرماح تشاجرت * درعا سوى سربال طيب العنصر
يلقى السيوف بوجهه وبنحره * ويقيم هامته مقام المغفر
ويقول للطرف اصطبر لشبا القنا * فعقرت ركن المجد ان لم تعقر
واذا تأمل شخص ضيف مقبل * متسربل سربال محل أغبر
أوما الى الكوماء هذا طارق * نحرتني الاعداء ان لم تنحر

مطلب اباحة تعدد الزوجات ووجوب العدل بينهن

ولمحبة الله تعالى في بقاء النفوس أمر بالزواج وحث عليه واباح التعدد لطفا منه تبارك وتعالى على خلقه خشية ان تتجاوز بهم الرغبة لكن بشرط العدل بين الزوجات فقال فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم من كان له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه مائل وفي رواية ساقط وقال الحكماء من الحزم ان لا يغتر الرجل بما تظهر له المرأة من عدم غيرتها والرضى بأن يتزوج عليها وكان الشيخ عبد العزيز الديريني أحد الصوفية يقول اياك ان تتزوج على امرأتك أو تتسرى عليها الان وطنت نفسك على نكد الدهر ولما وقع هذا الشيخ فيما كان يحذر الناس منه وتزوج على امرأته أنشد

تزوجت اثنتين لفرط جهلي * وقد حاز البلا زوج اثنتين
فقلت أعيش بينهما خروفا * ينعم بين أكرم نعجتين
فجاء الحال عكس الحال دوما * عذابا دائما ببليتين
رضى هذي يحرك سخط هذي * فلا أخلو من احدى السخطتين
لهذي ليلة ولتلك أخرى * نقار دائم في الليلتين
اذا ما شئت ان تحيا سعيدا * من الخيرات مملوء اليدين
فعش عزبا فان لم تستطعه * فواحدة تلاقي عسكرين

قال بعضهم صحبت الحسن البصري ثلاثين سنة ما سمعته خاض في شيء مما تخوض فيه الناس من أمر الدنيا حتى أتته امرأة يوما ناهيك بها من امرأة شبابا وجمالا فجلست بين

يديه

يديه وقالت ياشيخ أيحل للرجل أن يتزوج على امرأته وهي شابة جميلة ولود قال نعم أحل الله له أربعا فكشفت عن وجه لم ير مثله حسنا وقالت وعلى مثلي قال نعم قالت سبحان الله بعيشك يا ابا سعيد لا تفت الرجال بهذا ثم قامت منصرفة وأتبعها الحسن بصره ثم قال ماضر امرأ كانت عنده هذه ما فاته من دنياه انتهى

مطلب الغيرة على النساء

وقال الحسن رضي الله تعالى عنه لا تدعون نساءكم يزاحمن العلوج في الاسواق قبح الله تعالى من لا يغار وورد عنه صلى الله عليه وسلم الغيرة من الايمان (بفتح الغين المعجمة) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اني لغيور ومامن امرئ لا يغار الا منكوس القلب والطريق المغنية عن الغيرة ان لا يدخل عليها الرجال وهي لا تخرج الى السوق والغيرة في الريبة محمودة يحبها الله تعالى وفي غيرها مذمومة ويبغضها الله تعالى وكان الصحابة رضي الله تعالى عنهم يسدون الكوات التي في الجدران لئلا يطلع منها النساء على الرجال

وكان شريح بن الحارث الكندي القاضي ولي الكوفة لعمر فمن بعده وعاش مائة سنة وولي القضاء خمسا وسبعين سنة منها واستعفى من القضاء قبل موته بعام فأعفاه الحجاج وكان أعظم الناس بالقضاء وهو أحد السادات الطلس أي الذين لا شعر في وجوههم وهم أربعة عبد الله بن الزبير وقيس بن سعد والاحنف بن قيس وكان للقاضي شريح مزاح فمنه انه دخل عليه عدي بن ارطاه فقال أين أنت أصلحك الله فقال له أنا بينك وبين الحائط قال اسمع مني ما أقول قال قل أسمع قال اني رجل من الشأم قال مكان سحيق قال وتزوجت عندكم قال بالرفاء والبنين قال وأردت أن أرحلها قال الرجل أحق بأهله قال وشرطت لها دارها قال الشرط لها أوقال المؤمنون عند شروطهم قال فاحكم الآن بيننا قال قد فعلت قال فعلى من حكمت قال على ابن أمك قال بشهادة من قال بشهادة ابن أخت خالك انتهى وتزوج شريح امراة يقال لها زينب فنقم عليها فضربها ثم ندم وأنشد

رأيت رجالا يضربون نساءهم * فشلت يميني يوم أضرب زينبا
أأضربها من غير ذنب أتت به * فما العدل في ضرب لمن ليس مذنبا
وزينب شمس والنساء كواكب * اذا طلعت لم تبصر العين كوكبا

ومع اباحة تعدد الزوجات وجواز التسري شرعا فانه منهي عن كثرة المباشرة الا ان منافع مباشرة الرجل زوجته كثيرة منها انه اذا كان للزوج هم زال همه عنه بذلك واذا كان قلبه متعلقا بالحرام وأتى زوجته ذهب عنه التعلق وبذلك أيضا يزول الوسواس عن القلب وقد يؤدي ترك المباشرة الى الصرع والماليخوليا واختلاط الذهن وكثرة التخيلات وقد يحدث عن ترك الوقاع مع شدة الاحتياج اليه ما يعمي عين القلب ويسد باب التفكر ويسيء التدبير فاستعماله يبرئ من هذه الامراض وكثرته في الصيف والخريف أعظم ضررا وفي الشتاء والربيع أقل ضررا

وقيل خمسة تقتل البدن دخول الحمام على الشبع وأكل المالح والمواقعة على الامتلاء ومواقعة العجوز والمريضة المنهوكة وقيل ان مواقعة العجوز تأخذ القوة وتسقم البدن وتعجل الشيب وتجلب الهرم وتورث الموت فجأة وقالوا إن آخر عمر الرجل خير من أوله يكثر حلمه ويعظم عقله وتحمد سريرته وآخر عمر المرأة شر من أوله يذهب جمالها ويشأم لسانها ويعقم رحمها ويسوء خلقها قال بعض الحكماء أطيب المواصلة يحتاج الى خمس ان تكون المرأة صغيرة السن مليحة الخد جميلة القد بارزة النهد كريمة الجد فهذه هي التي تزيد القوة في البدن وتذهب الهم والغم والحزن

ومن مضاره انه يضعف البدن والبصر ويحدث وجع الظهر والرأس لان طبيعته البرودة أو اليبوسة وكثرته تضعف الكلى وتوبس الدماغ وتضر بالروح وقد قيل في ذلك

ثلاث هن مهلكة الانام * وداعية الصحيح الى السقام
دوام مدامة ودوام وطء * وادخال الطعام على الطعام

وسئل مالك عنه فقال هو نور عينيك ومخ ساقيك فأقل منه أو أكثر وقالوا من قل وقاعه فهو اصح بدنا وأنقى جلدا وأطول عمرا وتعتبرون ذلك بذكور الحيوان وذلك انه ليس في الحيوان أطول أعمارا من البغال ولا أقصر أعمارا من العصافير وهي أكثر سفادا والوقاع حال خلو المعدة أقل ضررا وحال امتلائها أكثر ضررا ويظهر ذلك في الولد

وقد أمر صلى الله عليه وسلم المباشر عند مباشرته ان يحضر في قلبه ارادة صلاح المولود ويدعو الله بذلك قال الغزالي في كتاب الأربعين عرف بالتجربة ان المباشر حال مباشرته لو أدمن النظر الى بياض مشرق أو حمرة قانية حتى غلبت تلك الصورة على نفسه

نفسه مال لون المولود الى ذلك اللون الذى غلب عليه قال وان الجنين وقت ما يتحرك فى البطن تميل صورته الى الحسن ان كانت الام مشاهدة تلك الحالة بصورة حسنة بحيث غلبت تلك الصورة على نفسها قال الغزالى أيضا وان الرجل اذا غشيها وهى مذعورة فأكرهها أذكرت فجاءت به لا يطاق ثم ان الولد ربما أشبه أخواله والاكثر ان يشبه أباه أو أمه شعر

مطلب ان الولد يخرج شبيها بأحد والديه أو بمن فى نسبه من جهة الاب أو الام

فانظر الى الولدين من أدناهما * شبها بوالده فذاك الماجد

وروى ان النطفة اذا استقرت فى الرحم أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم فى أى صورة ما شاء ركبك أى فى أى شبه من أب أو أم أو خال أو عم أو غيرهم انتهى قال بعض العرب يتمدح بأصالة الخال

خالى لانت ومن جرير خاله * ينل العلاء ويكرم الاخوالا

وأما قول بعض العرب

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا * بنوهن أبناء الرجال الاباعد

فانما المراد به انهم ينسبون الى قبائل آبائهم عند شن الغارات والحروب والا فالقرابة موجودة فيهم ولا تنقطع أنسابهم الى آباء أمهاتهم أو يقال ان قائل هذا البيت يرى كغيره من العرب ان الانساب انما تعتبر من جهة الاب فبها يتعارفون وبها يتفاخرون ولا يرون للبطون نسبا على انهم ليسوا وحدهم مختصين بهذا المذهب بل اختلفت بعد ظهور الاسلام المذاهب الاربعة فى ذلك فبعضهم لا يرى اثبات الشرف من جهة الام وبعضهم يرى خلافه وألف فى كلا المذهبين كتب ولو نظرنا الى ان نسبة الولد لامه هى أنفى له من الريبة بخلاف الاب كما روى ان الانسان يدعى يوم القيامة بفلان ابن فلانة لما قدرنا ان نقول أن نسبته الى أبيه أرجح فضلا عن التساوى بين النسبتين وانما القصد من ترجيح نسبته الى ابيه انما هو ثبوت عمود النسب والتعارف بالآباء أعلى من التعارف بالامهات

ويقال ان أبناء السرارى ولو أفلحوا لا يكونون مثل أبناء الحرائر ولنذكر هنا ما يتعلق بالسرارى وأبنائهن

(الفصل الثانى فى التسرى)

الاصل فى التسرى قوله تعالى فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم

ونقل بعضهم عن شيخ الاسلام شمس الائمة الكردى من علماء الحنفية فى كتابه الفتاوى البزازية انه يستحب التسرى عملا بالسنة ومخالفة لاهل الكتاب فانهم لا يرون ذلك وقال كان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الاولاد حتى نشأ فيهم السادة الغر وهم على بن الحسين بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه المعروف بزين العابدين والقاسم بن محمد بن ابى بكر الصديق رضى الله عنه وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ففاقوا أهل المدينة علما وتقى وعبادة وورعا وما منهم الا ابن سرية فرغب الناس حينئذ فى السرارى وكان اتخاذهم على قلة فان أم زين العابدين سلافة بنت يزدجرد آخر ملوك الفرس وأم سالم بن عبد الله بن عمر وأم القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهم أختان لسلافة فالثلاثة أبناء خالة وسبب ذلك ان الصحابة لما أتوا المدينة لسبى فارس فى خلافة عمر كان فيهم ثلاث بنات الملك الفرس وأمر عمر ببيعهن فقال له على ان بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن فقال كيف الطريق الى بيعهن قال يقومن ومهما بلغ ثمنهن يقوم به من يختارهن فقومن وأخذهن على رضى الله عنه فدفع واحدة لعبد الله بن عمر وأخرى لولده الحسين وأخرى لمحمد بن أبى بكر الصديق فأولدوهن النجباء

مطلب مدح أبناء السرارى

وينقل عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال ليس قوم أكيس من أبناء السرارى لانهم يجمعون عز العرب ودهاء العجم وقيل الجارية الوسيمة من النعم الجسيمة وقيل لا تتخذ السرية الا سرية أى ماجدة قال الشاعر

سقيا لدهر سرورى * والعيش بين السرارى
اذ طير سعدى جوار * مع امتلاك الجوارى
أيام عيشى كعودى * وقد ملكت اختيارى
أجرى بغير عذار * أجنى بغير اعتذار

مطلب أن خلفاء بنى العباس أبناء سرارى الا ثلاثة منهم

وكل الخلفاء من بنى العباس أبناء سرارى وليس فيهم من أبناء الحرائر الا الثلاثة السفاح والمخلوع والمنصور وأكثرهم من النجابة بمكانة ولاشك ان السرارى البيض فى الجمال بموقع الان نساء العرب ربات وغاء أكثر منهن قال الشاعر

لم تترك الترك فى شمس ولا قمر * حسنا لغيرهم يعزى و ينتسب
لكنهم لم يفوا ان عاهدوك على * ودّ وما هكذا فى فعلها العرب

وقال

وقال بعض الحكماء من أراد النساء والذرية فعليه بالاصيلات من الحرائر ومن أراد الفراش وطيب المعاش فلا يعدل عن الحبشيات انتهى ولعل هذا بالنسبة لامزجة أشراف مكة والمدينة وغيرهما من البلاد الحجازية وقال بعضهم فى حبشية ذات شروط طوال عراض

سمراء تسبي الورى بشرط * كخنجر هم بالرقيب
(٢) أقامها عشقها طريقا * تسير فيه الى القلوب (٢)

(وقال آخر)

لى من الحبش غادة * وصفها ليس يدرك
ملك القلب حبها * وكذا الشرط أملك

(وقيل)

وفتاة زنت بحسن قوام * وعيون مفترات مراض
أسرتنى وأطلقت دمع عينى * بشهود قد أثبتت عند قاضى
بعد دعوى على أنى عبد * ورقيق بحكم عقد التراضى
فتوقفت كى يطول التداعى * بيننا والكلام عند التقاضى
ثم عند الثبوت والحكم بالمو * جب قالت يا قاضى حكى ماضى
وشروطى فى أصل عقد مبيعى * فاسألوه اذ ذاك هل كان راضى
قلت هات الشروط أنظرها * فأرتنى بسرعة وانتهاض
فلثمت الشروط ألفا فقالت * سجل الحكم واقض ما أنت قاضى

ولا يخفى ما فى الشروط من التورية ومن قبيل التورية بالشرط قول الصلاح

بروحى خده المحمر أضحت * عليه شامة شرط المحبه
كأن الحسن يعشقه قديما * فنقطه بدينار وحبه

وذكر النساء عند معاوية رضى الله عنه فقال من أراد النجابة فعليه بالمشرق ومن أراد الخدمة فعليه بالمغرب ومن أراد اللذاذة فعليه بالبربر قيل له والمولدات قال اذا شبعت احداهن فليس همتها الا الشوق

وعلى كل حال ينبغى ان يجتنب الزنجيات وعليهن يحمل ذم السود وأبنائهن كما قال الشاعر

في الهند طير ناطق * سبحان من قد ألهمه
يقول في تسبيحه * ابن الامه ما الأمه

قال بعضهم ان نساء الزنج دون غيرهن في جودة الذهن ورقة الطبع والبشرة واذا وجدت منهن الحسناء الناعمة البدن فلا بأس بها وعلى مثلها يحمل قول الشاعر

رب سوداء وهي بيضاء معنى * نافس المسك عندها الكافور
مثل حب العيون يحسبه النـاس سوادا وانما هو نور

وقال آخر في سوداء

علقتها حسناء مصقولة * سواد قلبي صفة فيها
ما انكسف البدر على تمه * ونوره الا ليحكيها
لاجلها الازمان أوقاتها * مؤرخات بلياليها

وانما كان التاريخ بالليالي دون الايام لان الهلال انما يبدو ليلا وهذا التخيل في مدح السواد كالتخيل في مدح الخال في قول الشاعر

لك خال كأن كفي خطه * بنقط تمله آمالي
فيه معنى من البدور ولكن * نفضت صبغها عليه الليالي

قال هشام بن عبد الملك لزيد بن علي رضي الله تعالى عنه في كلام خاطبه به بلغني انك تريد الخلافة ولا تصلح لها لانك ابن أمة فقال زيد ان الامهات لا تضعن من الابناء شيئا وليس أحد أولى بالله ولا أرفع منزلة عنده من نبي بعثه وقد كان اسماعيل بن ابراهيم من سرية وأخوه اسحاق من سارة فاختاره الله وأخرج من صلبه سيد البشر وما على أحد جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ان تكون أمه من كانت فقال هشام لقد أعطيت جدالا على رغمي أي أوقعت نفسي في جدال من انتصر علي

مطلب ذكر خالد ابن صفوان أنواع السراري أمام أبي العباس السفاح

وفي قصة أبي العباس السفاح وخالد بن صفوان ما يفيد بيان أنواع السراري وصفات الحسن وذلك انه كان عند أبي العباس السفاح أم سلمة بنت يعقوب بن عبد الله المخزومي وكان قد أحبها حبا شديدا ووقعت في قلبه موقعا الطيفا فحلف لها ان لا يتخذ عليها سرية ولا يتزوج عليها امرأة فوفى لها بذلك فخلا به خالد بن صفوان يوما فقال يا أمير المؤمنين فكرت في أمرك وسعة ملكك وانك قد ملكت نفسك امرأة واقتصرت عليها فان مرضت مرضت وحرمت نفسك التلذذ بالسراري واستطراف الجواري ومعرفة اختلاف حالاتهن واجناس التمتع بما يشتهي منهن فمنهن يا أمير المؤمنين الطويلة

الطويلة الغيداء والبيضة البيضاء والعقيقة الادماء والذهبية السمراء والبربرية العجزاء والمولدات المدنيات اللاتى يفتن بمحاورتهن ويجذبن بحلاوتهن ولو رأيت يا أمير المؤمنين السمراء والعساء من مولدات البصرة والكوفة وذوات الالسن العذبة والقدود المهفهفة والاوساط المختصرة والثدى والنهود المحققة وحسن زيهن وشكلهن لرأيت فتنا ومنظرا حسنا وأين أنت يا أمير المؤمنين من بنات الاحرار والنظر الى ما عندهن من الحياء والخفر والدلال والتعطر وأقبل خالد يجتهد فى الوصف ويكثر فى الاطناب بحلاوة لفظه وجودة كلامه فلما فرغ قال له العباس ويحك يا خالد والله ما سلك سمعى قط أحسن مما سمعته منك فأعده على فأعاده عليه وزاد فيه ثم انصرف خالد وبقى أبو العباس مفكرا مغموما فدخلت عليه أم سلمة وكانت تبره كثيرا وتعمن مسرته وموافقته فى جميع ما أراد فقالت له مالى أراك مغموما يا أمير المؤمنين فهل حدث أمر تكرهه أو أتاك خبر ارتعت له قال لم يكن شئ من ذلك قالت فما قصتك فجعل يكتم عنها فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد قالت فما قلت له قال سبحان الله ماذا أقول لمن ينصحنى فخرجت من عنده وأرسلت إلى خالد عبيدا لها وأمرتهم بالتنكيل به قال خالد ولما انصرفت الى منزلى مسرورا بما رأيت من اصغاء أمير المؤمنين لكلامى واعجابه بما ألقيت اليه وأنا لا أشك فى الصلة فلم ألبث ان جاء أولئك العبيد فلما رأيتهم أقبلوا نحوى أيقنت بالجائزة فوقفوا على وسألوا عنى فعرفتهم بنفسى فأهوى الى أحدهم بعمود كان فى يده فبادرت الى الدار وأغلقت الباب ومكثت لا أخرج من منزلى وطلبنى أمير المؤمنين طلبا شديدا فلم أشعر ذات يوم إلا بقوم قد هجموا على فقالوا أجب أمير المؤمنين فقلت فى نفسى لم أر دم شيخ أضيع من دمى وركبت فلم أصل الى الدار حتى استقبلنى عدة رسل فدخلت على أمير المؤمنين فوجدته جالسا فأومأ الى بالجلوس فثاب الى عقلى فجلست وفى المجلس باب عليه ستور قد أرخيت وخلفه حركة فقال لى يا خالد لم أرك منذ ثلاث قلت كنت عليلا يا أمير المؤمنين قال انك وصفت لى آخر خلة من أمر النساء والجوارى مالم يخرق سمعى قط كلام أحسن منه فأعده على قلت نعم يا أمير المؤمنين أعلمتك ان العرب انما اشتقت اسم الضرة من الضرر وان أحدا عنده امرأتان الا كان فى ضرر وتنغيص قال ويحك لم يكن هذا من حديثك قلت نعم يا أمير المؤمنين وأخبرتك ان الثلاث من النساء كأثافى القدر يغلى عليها أبدا وأن الاربع شر مجموع لصاحبه يهرمنه ويسقمنه ويضعفنه فقال برئت من قرابتى من رسول الله

صلى الله عليه وسلم ان كنت سمعت منك شيئا من هذا قط قال خالد بلى يا أمير المؤمنين وعزفتك ان بني مخزوم ريحانة قريش وان عندك ريحانة الرياحين وأنت تطمح بعينك الى الاماء والسرارى فقال و يحك أتكذبني وتكذبني فقلت أفتقتلني يا أمير المؤمنين قال فسمعت ضحكا من وراء الستر وقائلا يقول صدقت والله يا عماه بهذا حدثته ولكنه بدل وغير ونطق على لسانك بما لم تنطق به قال خالد فقمت عنهما وتركتهما يتراوضان في أمرهما فما شعرت الا برسل أم سلمة ومعهم المال ونحو ثياب فقالوا لي تقول لك أم سلمة اذا حدثت أمير المؤمنين فحدثه بمثل حديثك هذا انتهى

مطلب طلاق رجل خمس نسوة في يوم واحد

وعن عبد الرحمن بن محمد بن أخ الاصمعي قال قال عمي للرشيد في بعض حديثه يا أمير المؤمنين بلغني ان رجلا من العرب طلق في يوم خمس نسوة قال كيف ذلك وانما يجوز للرجل الملك على أربعة قال يا أمير المؤمنين كان متزوجا بأربعة فدخل عليهن يوما فوجدهن متنازعات فقال الى متى هذا التنازع فقال لامرأة منهن اذهبي فأنت طالق فقالت له صاحبتها عجلت عليها بالطلاق ولو أدبتها بغير ذلك لكان أصلح فقال لها وأنت طالق أيضا فقالت له الثالثة قبحك الله فوالله لقد كانتا اليك محسنتين فقال وأنت أيتها المعددة أياديهما طالق أيضا فقالت الرابعة وكانت هلالية ضاق صدرك عن أن تؤدب نساءك الا بالطلاق فقال لها وأنت طالق أيضا فسمعت جارة له وأشرفت عليه وقالت والله ماشهدت العرب عليك وعلى قومك بالضعف الا لما بلوه منكم ووجدوه فيكم أبيت الا طلاق نسائك في ساعة واحدة قال وأنت أيتها المتكلمة لما لا يعنيك طالق ان أجازني بعلك فأجابه بعلها هيه فقد أجزتك وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم لا خير في النساء ولا صبر عنهن يغلبن كريما ويغلبهن لئيم فأحب أن أكون كريما مغلوبا ولا أحب أن أكون لئيما غالبا

مطلب استحصال امرأة من العرب على حب زوجها مما يتعلمها الغنا

قال اسحاق بن ابراهيم الموصلي حدثني أبو السمراء الشاعر قال حججت فبدأت بالمدينة فبينما أنا منصرف من قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أنا بامرأة بفناء المسجد ممن يبيع طرائف المدينة فاذا هي في ناحية وحدها وقد قام عنها من كان قعد اليها فاذا هي ترجع بصوت فالتفت فرأيتها فوقفت فقالت هل من حاجة قلت تزيدين في السماع قالت وأنت قائم فلو قعدت فقعدت كالخجل فقالت فكيف علمك بالغناء قلت علم لا أجحده قالت فعلام أنفخ في غير نار ما منعك من معرفته فوالله انه لسحوري وفطوري فقلت وكيف وضعته بهذا الموضع العالي قالت وهل له موضع يوضع فيه من رفعته وعلوه

دون السماء الشاهقة قلت فهؤلاء النسوة اللاتى أرى فى مثل حالك قالت فيهن وفيهن ولى قصة قلت وما هى قالت كنت وأنا شابة فى مثل هذه الخلقة التى ترى من الدمامة وعدم الحسن وكان زوجى شابا وضيئا وكان لا يقبل على حتى أطيبه وأتحفه فأضر ذلك بى وكانت امرأة قصار قد علقت به فزاد ذلك فى حسرتى فشكوت ذلك الى جارتى وأعلمتها ما أنا فيه من غلبة امرأة القصار على زوجى قالت أدلك على ما ينهضه اليك ويرد قلبه عليك بلا غرامة قلت اذا تكونين أعظم الخلق على منة قالت اختلفى الى مجمع مولى آل الزبير فتعلمى من ألحانه عشرة أصوات ثم غنى بها زوجك فانه يقبل عليك بجوارحه كلها قالت فرجوت فى مشورتها البركة فتلطفت لمجمع المغنى فلم أفارقه حتى رضينى حذاقة ومعرفة فكنت اذا انصرف زوجى من مهنته وحضر رفعت صوتى فغنيت فحظيت بذلك عما لا مزيد عليه من الاقبال على فكنا كما قال الشاعر

وكنا كندمانى جذيمة حقبة * من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

قلت وما ظننت ان الله خلق مثلك وما كان أحد أعظم عليك منة من صاحبة المشورة قالت حسبك بها منعمة وحسبك بى شاكرة فلما ان نهضت لاقوم قالت على رسلك لا تنصرف خائبا ثم ترنمت بصوت خفى فغنت

ولى كبد مقروحة من يبيعنى * بها كبدا ليست بذات قروح
أباها على الناس ان يشتروها * ومن يشترى ذا علة بصحيح

ثم قالت انطلق صحبتك العافية والبقاء قال أبو السمراء فوالله لو جاز لى أن لا أفارقها ما كنت فى الدنيا ما اخترت بها مؤنسا وما ذكرتها وأنا فى حزن الا سرى عنى

قال بعض الحكماء فضل الغناء كفضل النطق على الخرس والدينار المنقوش على القطعة من الذهب وفى كلام بعضهم ان الغناء يحرك الهوى الساكن ويسكن ألم الهوى المتحرك وفى كلام بعضهم الصوت الشجى يوصل الى نعيم الدنيا والآخرة لانه يؤنس الوحيد ويروح التعبان ويسلى الكئيب ويحض على الشجاعة واصطناع المعروف قال افلاطون هذا العلم يعنى علم الموسيقى لم يضعه الحكماء للهو واللعب بل للمنافع الذاتية ولذة الروح الروحانية وبسط النفس وترطيب اليبوسات وتعديل السوداء وترويق الدم وقال بعضهم سميت الانغام والالحان بالغناء لان النفس تستغنى به عن الملاذ البدنية فى حال سماعه

مطلب مدح الغناء

رجع الى ذكر محاسن النساء

(رجع الى ذكر محاسن النساء) ولاهل كل عصر ألفاظ جاذبة فى محاسن النساء كالفاظ

خالد بن صفوان التي ألقاها على أبي العباس السفاح في الحكاية المتقدمة وقال بعض الظرفاء يصف محاسن امرأة هي روضة الحسن وضرة الشمس وبدر الارض هي من وجهها في صباح شامس ومن شعرها في ليل دامس كأنها فلقة قمر على برج فضة بدر التم يضي وتحت نقابها فهي غير داخلة في قول القائل

ليت النقاب على النساء محرم * كي لا تغر قبيحة انسانا

وغصن البان يهتز تحت ثيابها ثغرها يجمع الضريب والضرب كأنه نثر الدر كما قال البحتري

اذا نضون شفوف الريط آونة * قشرن عن لؤلؤ البحرين أصدافا

قد أنبت صدرها ثمر الشباب وخطت لها يد الشباب حقين من عاج كما قال بعضهم

طلبوا حفاظ عهود أرباب الهوى * فاستودعوها في حقاق نهود

كأنها البدر قرط بالثريا ونيط بها عقد من الجوزاء أعلاها كالغصن ميال وأسفلها كالدعص منهال لها عنق كابريق اللجين نطاقها معرب وازارها مخصب مطلع الشمس من وجهها ونبت الدر من فمها وملقط الورد من خدها ومنبع السحر من طرفها ومبادي الليل من شعرها ومغرس الغصن من قدها وهذه الاوصاف تصلح لكل حسناء من الحرائر والسراري وان اختلفت الالوان التي تختلف في الحسن باختلاف مذاهب العشاق

(الفصل الثالث في السمرة والبياض)

مطلب الاختلاف في تفضيل السمر على البيض والبيض على السمر

قد توسع الناس فيما يخص السمرة والبياض وأطنبوا في هذا المبحث وبسطوا القول في التفضيل بين السمر والبيض وخاضوا بسبب ذلك في كلام عريض فخرجوا منه الى التفضيل وعدم التفضيل وبيان ذلك ان منهم من ذهب الى تفضيل السمر مطلقا وآخرون قدموا البيض عليهم لان الحق أبيض أبلج وآخرون فصلوا فقالوا ان كلا يميل الى عكس لونه وهذا تحكم وحكم على الطبائع والامزجة بلا دليل والصحيح ان الميل إما بداعية التلذذ أو النفع ولا ضبط للاول لاختلافه كالاشخاص وأما الثاني فالقول فيه اما بحسب معتدل المزاج فالرومية حينئذ في نحو الحجاز أنفع كما ان الحبشيات في نحو الروم أجود لان حرارة الابدان تختبئ في الاغوار زمن البرد وبالعكس في الانجاد واما

بحسب

بحسب المرضى فالسود للبرودين أجود والبيض للحرورين أنفع وأما الميل الى نفس اللون فذهب

ومن يك مغرما ببنات كسرى * فانى مغرم ببنات حام

قال بعضهم ان المصريين الى الحمرة أميل وليس هذا على عمومه بل هم أميل الى البياض المشرب بحمرة ومما قيل فى البيض

مطلب ما قيل فى مدح البيض

بيضاء تحلو الفم عن ناظرى * بعين حق لا بعين انتقاص

فقل لمن يرغب فى سمرة * ما الفضة البيضاء مثل الرصاص

قالت عائشة رضى الله تعالى عنها البياض نصف الحسن وقال المؤمل أبى أميل

شهد المؤمل يوم يلقى ربه * ان البياض طراز كل جميل

وقال آخر

فضل السود جاهل * قوله ليس ينهض

كيف تخفى فضائل البيض * والحق أبيض

وقال آخر

بيضاء فى حمر الثياب كوردة * بيضاء مثل شقائق النعمان

تهتز فى غصن الشباب اذا مشت * مثل اهتزاز نواعم الاغصان

وقال أبو القاسم الزاهى

وبيض بألحاظ العيون كأنما * هززن سيوفا واستللن خناجرا

تصدين لى يوما بمنعرج اللوى * فغادرن قلبى بالتعتب غادرا

سفرن بدورا وانتقبن أهلة * وماسن غصونا والتفتن جآذرا

ولا يخفى ما فيه من التقسيم البديعى البديع

وعن أنس رضى الله تعالى عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبيض كأنما صيغ من فضة خرّجه الترمذى فى الشمائل ووصف على بن أبى طالب رضى الله عنه النبى صلى الله عليه وسلم فقال كان أبيض اللون مشربا بحمرة ولا معارضة بين حديث أنس ووصف على له بالحمرة لان الحمرة كانت فى وجهه وبياض الفضة كان فى جسده وتطلق الحمر على حسان النساء قيل لاعرابى تمنّ فقال حمراء مكسال من بنات الاقيال قيل وأصل الحمرة فى البياض بالوجه ظهور الدم فيه فانه يزيد البياض حسنا وهذا معنى قولهم فى المثل الحسن احمر قال الشاعر

مطلب البياض المشرب بالحمرة

هجان عليها حمرة في بياضها * تروق بها العينين والحسن أحمر

مطلب ان اللون الازهر هو البياض مع الصفرة

وقد تعترى البيض الصفرة لاستتارتهن وملازمتهن السكن والنعمة والخفض والدعة بل وللازمتهن التضمخ بالطيب كما تعترى الصفرة الدرة الزهراء والعاج الابيض بكثرة مماسة الطيب ولهذا قال الشاعر

وما تعشقت من بيضاء حالية * كالعاج صفرها الا كان والطيب

ويقال ان المرأة اذا كانت عتيقة الحسن ناعمة البدن فان لونها يكون من أول النهار الى ابتداء العشية ضاربا بالحمرة ومن العشية الى آخر النهار ضاربا للصفرة ومعنى هذا ان المرأة الرقيقة البشرة الصافية اللون تتلون بتلون الهواء والهواء عند الطفل يصفر باصفرار الشمس ويتوضح بالغداة لبياضها وهذا كله مبالغة في وصف المرأة بالصفاء والشفافية قال ذو الرمة

بيضاء في دعج صفراء في نعج * كأنها فضة قد مسها ذهب

وقال آخر

بيضاء صفراء قد تنازعها * لونان من فضة ومن ذهب

وقال آخر

هيفاء مثل الشمس عند طلوعها * في الحسن أو كدنوها الغروب

وكان على رضي الله عنه يبالغ في محبة البياض حتى روى عنه انه قال من تزوج امرأة سمراء ثم طلقها فعلي مهرها فكان يكره السمر

مطلب مدح كل صنف من النساء بخاصة فيه

وقال بعضهم ان الحبشيات ألطف من عداهن مزاجا وأرق بشرة وأعدل حرارة فهن أوفق لسائر الجهات مطلقا قيل من أراد حسن السكن والعشرة فعليه بالعراقيات ومن أراد نجابة الولد فعليه بالفارسيات وأما المصريات فنجبات وهن أحسن منظرا وأعذب محادثة وألطف ذاتا وأكمل ملثما وأجل زينة وأظرف شمائل وألوان الحبش كلها مقبولة ظريفة لانها في مرتبة الاعتدال بين السواد والبياض وخير الامور أوساطها وذلك لانها إما صفرة أو خضرة أو سمرة وكلها من موجبات الفرح والمسرة أما شرف السمرة فانها لون العرب ولونهم أشرف الالوان وأحسنها كما قال مسكين الدارى

أنا مسكين لمن يعرفني * لوني السمرة ألوان العرب

وأما شرف الخضرة فلانها لون سندس الجنة وعلامات الابراق في الثمار والاشجار

وعلامات

وعلامات الاشراف على الرؤس والتيجان على الملوك ومن موجبات الفرح والسرور كما فى الخبر المأثور والمنظوم من المنثور

ثلاثة يذهبن بالقلب الحزن * الماء والخضرة والوجه الحسن

وفى الجامع الصغير أحب الالوان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخضرة وأما شرف الصفرة فلانها من أسباب الفرح والسرور كما صرح بذلك بعض المفسرين لقوله تعالى صفراء فاقع لونها تسر الناظرين وقال الحكماء النظر الى الاصفر الخالص يورث الفرح والسرور بالخاصية فهذه ألوان السرارى الحبشيات التى يفضلهن بعض أهل الذوق على الروميات وقد تغزلت الشعراء فى ذلك عموما فقال بعضهم فى الاسمر

عشقته أسمر حلوا اللمى * لسلوانه الصب لم يستطع

بقطع قلبى ومارق لى * ودمعى يرق وما ينقطع

وقال آخر

دعنى وحالى فى هوى أبيض * كالبدر أو أحسن من ذلك

وعش معنى فى هوى أسمر * أومت اذا ماشئت فى حالك

ولا تخفى التورية هنا وفى الاخضر الزيتى اللون قال بعضهم

ومخضرة اللون زيتية * تحير فيها جميع الانام

وقد كتب الشرط فى خدها * كلاما أتى فاتقا فى انسجام

أيا ناظرا لمحياى قل * بهذا المليك يتم النظام

وفى الاصفر الذهبى اللون يقول بعضهم

وبى ذهبى اللون صيغ لحيرتى * يطيل امتحانا لى كانى زائف

يذيب فؤادى وهو لا غش عنده * فيا ذهبى اللون انك حائف

وقال فى الالوان من أنصف ولم يتعسف وهو البهاء زهير

اسمع مقالة صب * وكن بحقك عونى

* ان المليح مليح * يحب فى كل لون

وقال ابن مطروح نحو ذلك فزاد وأفصح عن المراد

أعشق البيض ولكن * خاطرى بالسمر أعلق

ان فى البيض لمعنى * غير ان السمر أرشق

وظلال الايك عندى * من هجير الشمس أوفق
وشذا العنبر والمسك من الكافور أعبق
واذا أنصفت فالانصاف بالانسان أليق
فبديع الحسن يهوى * كيفما كان و يعشق

وبالجملة فكم فى سائر الالوان من درة يتيمه وجوهرة ثمينة كريمه والبالغة منهن الغاية فى الجمال والدين أعزمن الكبريت الاحمر وأطيب من المسك الاذفر فعلى من ظفر بها ان يتمسك بحبل عصمتها فى كل وقت وآن يسمح الزمان بحور الجنان وكما اختلف أهل الاذواق فى حب الالوان وتفضيل بعضها على بعض اختلفوا فى الابكار والثيبات والفضل بينهما وفصل هذه القضية بحكم فيها قوله تعالى فى وصف نساء أهل الجنة إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا عربا أترابا

(الفصل الرابع)
(فى البكارة والثيوبه)

مطلب فضل الابكار على الثيبات

امتنانه سبحانه وتعالى على أهل طاعته بالابكار فى قوله تعالى فى وصف نساء أهل الجنة انا أنشأناهن انشاء فجعلناهن أبكارا عربا أترابا يفيد فضل البكر على الثيب حيث أنشأهن لهم أبكارا لم يعرفن غيرهم كما قال تعالى فى آية أخرى لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان والطمث الافتضاض ولا يكون إلا مع دم فلا يقال فى الثيب طمثت وروى البخارى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنكحت يا جابر قلت نعم يارسول الله قال أبكرا أم ثيبا قال بل ثيبا قال فهلا بكرا تلاعبها وتلاعبك وتضاحكها وتضاحكك وروى هشام بن عروة عن أبيه قيل لعائشة رضى الله عنها ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع اذا خلا فى بيته قالت والله ما كان الا بشرا ولكن الله اكرمه وأكرم به والله انه كان ليخصف نعله ويرقع ثوبه ويحدث آحاد الناس ولقد قلت له يوما يارسول الله لو أنك وجدت روضتين فى احداهما شجر ونبات قد رعى واكل وفى الاخرى شجر ونبات أنف لم يرع فى أيهما كنت مرسلا بعيرك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الانف التى لم ترع فقلت يارسول الله ذلك مثلى ومثل نسائك كلهن ليس منهن واحدة الا كانت عند غيرك قبلك

اختصره البخاري فأخرج بعضه وقال تعني ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتزوج بكرا غيرها

قال الغزالي في الاحياء في البكر خواص لا توجد في الثيب منها انها لا تحن أبدا إلا الى الزوج الاول فان الطباع مجبولة على الانس بأول مألوف وآكد الحب ما يقع مع المحب الاول غالبا كما قيل

نقل فؤادك ما استطعت من الهوى * ما الحب الا للحبيب الاول
كم منزل في الارض يألفه الفتى * وحنينه أبدا لاول منزل

وقال آخر

لا يترك الحق القديم لحادث * هذا مقال أجلة الجمهور

ومنها إقبال الرجل عليها وعدم نفوره عنها فان طبع الانسان ينفر عن التي مسها غيره ويثقل ذلك عليه مهما تذكره وبعض الطباع في هذا أشد نفورا من بعض ومنها انها ترضى في الغالب بجميع أحوال الزوج لانها انست به ولم ترغيره وأما التي اختبرت الرجال ومارست الاحوال فربما لا ترضى بعض الاوصاف التي تخالف ما ألفته فتقلى الزوج بسبب ذلك قال أبو الفرج في كتاب النساء عن علي رضي الله عنه قال لا تنسى المرأة أبا عذرها ولا قاتل بكرها وأبو عذرها هو الذي افتضها أول مرة فأزال عذرتها والعذر والعذرة بمعنى وهو البكارة وبكرها أول ولد يولد لها

وقال صاحب كتاب عقلاء المجانين أراد رجل النكاح فقال لأستشيرن أول من يطلع ثم لأعملن برأيه فكان أول من طلع عليه هبنقة القيسي وهو راكب على قصبة فقال اني أردت النكاح فاشر علي قال البكر لك والثيب عليك وذات الولد لا تقربها واحذر جوادي أن يرمحك وممن يعد من عقلاء المجانين بقرة المجنون كان بحلب وله شعر حسن قال سفيان بن الحسين اجتزت في بعض أسواق حلب فاذا ببقرة المجنون قد استقبلني خارجا من خربة فقال مرحبا يا أبا عبد الله قلت وبك يا ثور قال بالله عليك يا سفيان أنشدني شيئا من شعر عبد الرحمن بن الحكم بن العاص فقلت وأيه تريد فقال ان كنت تحفظ قوله * هيفاء فيها اذا استقبلتها عجب * فقلت نعم وأنشدته

هيفاء فيها اذا استقبلتها عجب * غراء غامضة الكعبين معطار
من الاوانس مثل الشمس لم يرها * بساحة الدار لا بعل ولا جار

فقال والله ان هذه لمنية المتمنى ثم لفت بوجهه وفرك أصابعه ثم قال ياأخى أنا والله يعجبنى قول من قال فأحسن قلت ما الذى قال فأعجبك قال

أحسن من منية التمنى * ونيل وصل بلا تعنى
قول فتاة لمستهام * يلثم فاها انح عنى
لاخير فى عاشق عجول * ما أحسن الصبر والتأنى

فقلت يابقرة أنشدنى شيئا لنفسك قال نعم وأنشد

حرام عليكم لومنتم بزورة * فأوجبتم وفيها على التطولا
فان لم تكونوا مثلنا فى اشتياقنا * فكونوا أناسا يحسنون التجملا

مطلب ماقاله الحريرى فى البكر مدحا وذما

ثم أخذه ما كان يأخذه فقط لوجهه فانصرفت عنه

وللحريرى فى احدى مقاماته وهى المقامة الثالثة والاربعون فى تفضيل البكر على الثيب قال أما البكر فالدرة المخزونه والبيضة المكنونه والباكورة الجنيه والسلافة الهنيه والروضة الانف والطوق الذى ثمن وشرف لم يدنسها الامس ولااستغشاها لابس ولامارسها عابث ولاأوكسها طامث ولها الوجه الحيي والطرف الخفى واللسان العيي والقلب النقى ثم هى الدمية الملاعبه واللعبة المداعبه والغزالة المغازله والملحة الكامله والوشاح الطاهر القشيب والضجيع الذى يشب ولايشيب (وله فى ضد ذلك) وهى المهرة الابية العنان والمطية البطية الاذعان والزندة المتعسرة الاقتداح والقلعة المستصعبة الافتتاح ثم ان مؤنتها كثيره ومعونتها يسيره وعشرتها صلفه ودالتها مكافه ويدها خرقاء وفتنتها صماء وعريكتها خشناء وليلتها ليلاء وفى رياضتها عناء وعلى خبرتها غشاء وطالما أخزت المنازل وفركت المغازل وأحنقت المازل وأضرعت الفنيق البازل ثم انها التى تقول أنا أجلس وألبس فأطلب من يطلق أو يحبس

مطلب ماقاله الحريرى أيضا فى الثيب مدحا وذما

(وله فى تفضيل الثيب قوله) أما الثيب فالمطية المذلله واللهنة المعجله والبغية المسهله والطبة المعللة والقرينة المتحببة والخليلة المتقربة والصناع المدبره والفطنة المختبره ثم انها عجالة الراكب وأنشوطة الخاطب وقعدة العاجز ونهزة المبارز عريكتها لينة وعقلتها هينه ودخلتها متبينة وخدمتها مزينة (وله فى ضد ذلك) هى فضالة المآكل وثمالة المناهل واللباس المبتذل والوعاء المستعمل والذواقة المتطرفة والخراجة المتصرفة والوقاح المتسلطة والمحتكرة المتسخطة

المستخطة ثم كلتها كنت وصرت وطالما بغى على فنصرت وشتان بين اليوم وأمس وأين القمر من الشمس وان كانت الحنانة البروك والطماحة الملوك فهى الغل القمل والجرح الذى لا يندمل

وقوله فى البكر ثم ان مؤنتها كبيرة ومعونتها يسيرة وفى الثيب هى عجالة الراكب وأنشوطة الخاطب اشارة الى قول عمر رضى الله عنه البكر كالبرة تطحن ثم تعجن ثم تخبز ثم تؤكل والثيب عجالة الراكب تمر وسويق يشير بذلك الى سهولة أمر الثيب وان البكر تحتاج فى تزوجها والبناء بها الى كلف شديدة وكانت العرب تمر بها الراكب المستعجل فيعرض عليه النزول للقرا فيمتنع لعجلته فتخرج ما استيسر فيأكله وهو راكب فذلك هو عجالة الراكب

وعلى ذكر الثيوبة يحسن من لطائف كنايتهن عنها ماوقع لبثينة وقد جازت على بعضهم فقال لها أبكر أنت قالت نعوذ بالله من الكساد فانظر كيف دلت على الثيوبة بأحسن عبارة وما أحسن قول جميل فيها متغزلا وزاد عليه بعضهم أبياتا ولم يلتزم فيها ما التزمه

خليلى ان قالت بثينة ماله * أتانا بلا وعد فقولا لها لها
سها وهو معذور لعظم الذى به * ومن بات طول الليل يرعى السها سها
بثينة تزرى بالغزالة فى الضحى * اذا برزت لم يبق يوما بها بها
دهتنى بود قاتلى وهو متلفى * وكم قد دهت بالود من ود هادها
لها مقلة كحلاء نجلاء خلقة * كأن أباها الظبى أو أمها مها
وماست بأعطاف لطاف تهزها * فعاينت غصن البان من هز هازها
وأبصرت طرفا بالصبابة آمرا * وطرفا عن السلوان أهل النهى نهى
وقالت وقد أسرعت فى السير نحوها * وجبت قفارا دونها ومهامها
مدامة ريقى عتقت ثم روقت * فمن ذقت بالسكر من صفوها وها
وفى شفتى اللعس اشفا كل مدنف * فان كنت مشتاقا الى رشفها فها
لها طالعة من شعرها وجبينها * تعانق فيها ليلها ونهارها
لها من مهاة الرمل جيد ومقلة * وليس لها استيحاشها ونفارها
ولا سكنت وادى العقيق ولا الغضى * ولكن بقلبى وبعينى دارها
انا ما الثريا والهلال تقارنا * أشكك هل ذا قرطها وسوارها

وما كنت أدرى قبل لؤلؤ ثغرها * بأن نفيسات اللآلى صغارها

وكما اختلفت أذواق الناس فى البياض والسواد اختلفت أيضا فى السمن والضمور وهو مفاد الفصل الخامس

(الفصل الخامس فى السمن والضمور والسن)

مطلب اختلاف الاذواق فى السمن والضمور

اختلفت أذواق الناس فى السمن والضمور ماهو الافضل منهما وأكثر الشعراء بجراهر النساء الذين هم جهابذة النقد يقدمون المجدولة التى تكون بين السمينة والممشوقة فقالوا انها غصن بان وقضيب خيزران لا يمكن تثنى مشى المرأة التثنى الا اذا كانت مجدولة ولاشك ان التثنى فى مشى المرأة الذى هو أحسن مافيها الا يكون مع السمن قال الشاعر فى حسن المشى

ظباء أعارتها المها حسن مشيها * كما قد أعارتها العيون الجآذر

فمن حسن ذاك المشى قامت فقبلت * مواطن من أقدامهن الغدائر

وقال آخر

طارقت والليل مسبول الجناح * مرحبا بالشمس من قبل الصباح

غادة تحمل فى أجفانها * مرضا فيه منيات الصحاح

كالقضيب اهتز والبدر بدا * والكثيب ارتج والعنبر فاح

وقال بعضهم

رنا وانثنى كالسيف والصعدة السمرا * فما أكثر القتلى وما أرخص الاسرى

وقال بعضهم

رنا ظبيا وغنى عندليبا * ولاح شقائقا ومشى قضيبا

مطلب فضل السمن على الضمور

والاشعار فى هذا المعنى الدقيق الرشيق كثيرة

وقال مصعب بن الزبير النساء فرش فأطيبها أوثرها يعنى أسمنها وكان يقول استأثروا فى فرشكم الشبرمة أى السمينة فانى مارأيت لباسا على رجل أزين من فصاحة ولا رأيت لباسا على امرأة أزين من شحم وقال الشاعر

وما حب الهزيلة من مرادى * ولست أروم الا ذات شحم

أبالتنعيم أعدل ذات عرق * وهل تحكى قامة بيت لحم

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت أرادت أمى أن تسمننى لدخول رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أقبل على شئ مما تريده حتى أطعمتنى القثاء بالرطب فسمنت عليه كأحسن السمن

السمن وروى أبو سلمة عن عبد الرحمن عن عائشة رضي الله عنها قالت تسابقت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا جويرية فسبقته فلما حملت اللحم قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم تعالى أسابقك فقالت وكيف أسابقك يا رسول الله وأنا على هذه الحال قال لا بد فسابقته فسبقني فقال هذه بتلك

ويحكى عن الحسن البصري انه قال لا تسمنوا نساءكم فان كنتم ولا بد فاعلين فاحفظوهن أي من افراط السمن والانتهاء في الضخامة وكان للفرزدق زوجتان إحداهما تسمى خدراء والثانية تسمى النوار وكانت خدراء عربية هيفاء مجدولة وكانت النوار حضرية ضخمة فكان يفضل خدراء عليها فقال في ذلك

لعمري لاعرابية في مظلة * يظل برو في بيتها الريح يخفق

كأم غزال أو كدرة غائص * تكاد إذا مرت بها الارض تشرق

أحب الينا من ضناك ضفنة * اذا وضعت عنها المراوح تعرق

والضناك بكسر الضاد المرأة المفرطة السمن وكذلك الضفنة المرأة الضخمة المتناهية في الضخامة وذلك كعبدة بنت عبد الله بن يزيد زوجة هشام بن عبد الملك فانها كانت مفرطة في السمن لا تستغني في القيام عن الاستعانة بثلاث أو أربع من الجواري فيحكى انه أهديت الى هشام يوما الدرة اليتيمة المتوارثة وكان وزنها فيما يقال ثلاثة مثاقيل وكانت قد حازت جميع الصفات المستحسنة من الصفاء والنقا والاستدارة فقال لعبدة ان قمت بنفسك من غير استعانة بأحد فهي لك فحاولت القيام بشدة ومشقة وما تم نهوضها حتى خرت على وجهها وسال الدم من أنفها وقام هشام يغسل ما أصابها من الدم وأعطاها الدرة فبقيت عندها الى ان أخذها منها عبد الله بن علي بعد انقضاء دولة بني أمية وكان عبد الله بن علي غير راغب في النساء ولكنه لما رأى عبدة رأى جمالا رائعا وحسنا بارعا فطلب منها التزويج فأبت فكان ذلك من أكبر الدواعي على قتلها وقيل قتلها خوفا من أن تنم للسفاح بالدرة وفي عبدة يقول عمر بن أبي ربيعة

أعبدة ما ينسى تذكرك القلب * ولا عنه يسليه رخاء ولا كرب

وعبدة بيضاء الترائب طفلة * منعمة تصبي الحليم ولا تصبو

ومثل عبدة فى الضخامة والسمن هند بنت اسماعيل بن خارجة زوجة الحجاج بن يوسف الثقفى فقد روى أبو الفرج فى الاغانى عن أبى موسى قال وجهنى الحجاج لأخطب له هندا بنت اسماعيل بن خارجة فلما خطبتها من أبيها وزوجتها منه وكانت حاضرة قامت مبادرة وعليها مطرف خز أسود فوالله لقد رأيته دخل بين ظهرها وكفلها ولم تستقل قائمة حتى انثنت ومالت لاحد شقيها من شحمها فعرفت الحجاج بذلك فوجه لها ثلاثين غلاما مع كل غلام عشرة آلاف درهم وثلاثين جارية مع كل جارية تخت ثياب وقال لها انى أكره أن أبيت خلوا ولى زوجة فقالت وما احتباس امرأة عن زوجها وقد ملكها وأتاها صداقها وكرامتها فأتت من ليلتها قال المدائنى بلغنى عن المرأة التى تولت زفافها اليه انها قالت دخلنا على الحجاج وهو فى بيت عظيم فى اقصاه ستارة وهو دون الستارة على فرشه فلما دخلت عليه سلمت فأومأ الى بقضيب كان فى يده فجاست عند رجليه ومكث ساعة لا يتكلم ونحن وقوف فضربت هند بيدها على فخذه وقالت ليس هذا وقت سوء الخلق فتبسم وأقبل عليها واستوى جالسا فدعونا له وأرخينا الستور عليهما

وقد علمت مما سبق ان أفضل النساء المجدولة التى ليست بالسمينة ولا الضامرة فخيار الامور أوساطها الا ان المرأة اذا فاتت حد الشبوبية ربما ضمرت قال أبو الفرج فى كتاب النساء بنت عشر سنين تشمس وتلين وبنت عشرين تسر الناظرين وبنت ثلاثين لذة للمعانقين وبنت أربعين ذات رخاوة ولين وبنت خمسين ذات بنات وبنين وبنت ستين عجوز فى الغابرين وقال بعضهم فى اعمار النساء من الشعر ما حسن به وصفهن مما لم يسبق اليه

مطلب أدوار العمر بالنسبة للنساء

متى تلق بنت العشر قد بض ثديها * كلؤلؤة الغواص يهتز جيدها
تجد لذة منها لخفة روحها * وعزتها والحسن بعد يزيدها
وصاحبة العشرين لا شئ مثلها * فتلك التى يلهو بها مستفيدها
وبنت الثلاثين الشفاء حديثها * هى العيش ما دقت ولا رق عودها
وان تلق بنت الاربعين فغبطة * وخير النساء ودها وولودها
وصاحبة الخمسين فيها بقية * من الحسن نوع الحسن صلب عمودها

وصاحبة

وصاحبة الستين لا خير عندها * وفيها متاع والحريص يريدها

وقال بعضهم قالت امرأة لأخرى ماتقولين في ابن عشرين قالت ريحانة تشمين قالت فابن ثلاثين قالت شديد متين قالت فابن أربعين قالت أبو بنات وبنين قالت فابن خمسين قالت يجوز في الخاطبين قالت فابن ستين قالت صاحب سعال وأنين

ومن هذا ومما تقدم يفهم ان بلوغ الستين من الرجال والنساء هو حد فقدان الارب غالبا وان الخير في كل من الرجال والنساء هو فيما دون ذلك من الاعمار وذكر بعضهم الاعمار وصفاتها في النساء فقال ان منهن الكاعب وهي التي كعب ثدياها أي برزا وظهرا ومن طباعها الصدق في كل ما تسأل عنه وقلة الكتمان لما علمته وقلة التستر والحياء والتساهل ومنهن الناهد أي الذي نهد ثدياها واستدارا ولم يتكامل شبابها فتستتر بعض الاستتار وتظهر بعض محاسنها وتحب أن يتأمل ذلك منها ومنهن الممتلئة شبابا التي قد استكمل خلقها وعظم ثدياها فيحدث عندها دلال وأدب وتحلو ألفاظها ويعذب كلامها ويتخلق فيها الميل لجنسها ومنهن العانس وهي المتوسطة الشباب التي تهيأ ثدياها للانكسار فتحسن مشيتها ومنطقها وتبدي محاسنها بخفر ودلال ولعب وأحب الاشياء اليها مفاكهة الرجال وهي في هذه الحالة قوية الميل لما تقتضيه انوثتها مستحكمة العشق ومنهن المتناهية الشباب ولا شيء أشهى اليها من الاتصال بالرجال ومنهن النصف وهي التي يأخذ ماء وجهها في النقص ولحمها في الاسترخاء وذلك بعد مجاوزة الاربعين وهي التي قيل فيها

مطلب ذكر الأعمار وصفاتها في النساء

وإن أتوك فقالوا انها نصف * فإن أحسن نصفيها الذي ذهبا

فتكون ملاطفة للرجال مدارية لهم شديدة الحرص عليهم وما فوق ذلك فالعجوز (أي المسنة) التي يجب على العاقل ان يرغب عن زواجها قيل خاصم رجل امرأته الى زياد وكانت قد أسنت فاشتد زياد على الرجل فقال الرجل أصلح الله الامير ان خير ما في عمر الرجل آخرهما يذهب جهله ويثوب حلمه ويجتمع رأيه وان شر ما في عمر المرأة آخرهما يسوء خلقها ويحتد لسانها فحكم له عليها والمسنة تحاول ان ترى لزوجها ما يرى من الشباب

يحكى ان رملة بنت عبد الله بن خلف لما أسنت وكانت ضرة لعائشة بنت طلحة عند عمر ابن عبد العزيز جعلت تتجنب في مثل أيام أقرانها تريدانها في سن من يحيض وقد تحمل المرأة العربية لخمسين سنة ويقال انها ان كانت قرشية حملت لستين

فقد ولدت هند بنت أبي عبيدة بن عبد الله بن زمعة موسى بن عبد الله بن الحسن بن علي ابن أبي طالب ولها ستون سنة ولا يعلم امرأة ولدت وهي بنت ستين الا قرشية قال الاطباء مواقعة المسنة سم من السموم ينضي البدن ويورث الهم والحزن قال الشاعر

لا تقربن عجوزا ان دعوك لها * وانفض ثيابك عنها متعاهر با
وان أتوك فقالوا انها نصف * فان أحسن نصفيها الذي ذهبا

وقد تغزل أبو الاسود الدئلي في عجوز فقال كما أنشده أبو تمام في الحماسة

مطلب من تغزل في عجوز

أبى القلب الا أم عوف وحبها * عجوزا ومن يحبب عجوزا يفند
كسحق يمان قد تقادم عهده * ورونقه ما شئت في العين واليد

وقال آخر في مليحة أسنت

قالوا اسلها قد ذوى عناب راحتها * وأنت رهن صبابات وتضليل
فقلت لست بسال حبها أبدا * وكلما كرنش العناب يحلو لي

وهذا من باب قولهم يبلى القميص وفيه عرف المندل فان الانسان الصادق في حب من يهواه يستصحب الاصل ويرى ابقاءما كان على ما كان فكل ما انمحى من خارج العيان فهو موجود في الاذهان فالمحب يتصور دائما حسن الحسان ويديم معاملتهن بالبر والاحسان

فقد حكى أن خرقاء صاحبة ذي الرمة أرسلت الى بعض الشعراء ليشبب بها فقال لا أشبب بعجوز فبرزت له وقد أماطت قناعها فأخذت بمجامع قلبه ورأى منها أحسن النساء فقال

لقد أرسلت خرقاء نحوي رسولها * لتجعلني خرقاء ممن أضلت
وخرقاء لا تزداد الا ملاحة * ولو عمرت تعمير نوح وجلت

فالجميلة المعمرة كالثوب اليماني ذهبت جدته ومع ذلك فهو يروق العين مرأى واليد ملمسا حتى بالغ بعضهم حيث قال

ويزيدها مر الليالي جدة * وتقادم الازمان حسن شبابي

مطلب ذم نكاح ست من النساء

قال بعض العرب لا تتزوج من النساء ستا الأنانة ولا المنانة ولا الحنانة ولا الحداقة ولا البراقة ولا الشداقة أما الأنانة فهي كثيرة الانين فنكاح المريضة لا خير فيه وأما المنانة فهي التي تمن على زوجها وأما الحنانة فهي التي تحن الى زوج آخر وأما الحداقة فهي التي ترنو بحدقتها الى كل شئ تشتهيه وتكلف الرجل شراءه وأما البراقة فهي

التي

التي تمكث طول النهار تشتغل في وجهها حتى يصير له بريق انتهى وليس هذا البريق في شيء من الحسن فان الحسن مازين الزينة واستحسن دونها وهذا هو الحسن العام

(الفصل السادس في الحسن والجمال)

مطلب ان الحلم من محاسن الاخلاق

مما أنعم الله به على العبد تحسين خلقه وخلقه فلا ينبغي للعبد اذ احسن الله وجهه ان يضيف اليه قبيح المعاصي أو قبح وجهه أن يجمع بين قبيحين كما قيل

اذا فات الفتى أمرين أضحى * بعيدا عن ممازجة القلوب
جمال الوجه أو خلق جميل * يزينك في الحضور وفي المغيب
فحسن الوجه يشفع في المساوي * وحسن الخلق يشفع في الذنوب

وقيل

فلا تحسبن الدر في البحر وحده * فقد تخرج الأفواه من لفظها درا

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الرجل المؤمن ليدرك درجة الصائم القائم بالخلق وقال أمير المؤمنين على كرم وجهه أول عوض الحليم عن حلمه ان الناس أنصاره على الجاهل وقال بعض العلماء من نفاسة الحلم وارتفاع قدره ان الله سبحانه وتعالى لم يسم به في كتابه أحدا الا ابراهيم خليله واسحاق ذبيحه حيث قال ان ابراهيم لحليم أواه منيب وفي قوله وبشرناه بغلام حليم وكان يقال جمع الله مكارم الاخلاق في آية واحدة خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وقال بعضهم

خذ العفو وأمر بعرف * وأعرض عن الجاهلينا
وان كنت من أهل جاه * فضم الى الجاه لينا

ودخل محمد بن عباد على المأمون فجعل يعممه بيده وعلى رأسه جارية تضحك فقال لها المأمون لم تضحكين فقال محمد بن عباد أنا أخبرك يا أمير المؤمنين انها تعجبت من قبحي واكرامك لي فقال لها المأمون لا تعجبي من قبحه ان تحت عمامته كرما ومجدا لا يوجد في غيره ثم أنشد يقول

وهل ينفع الفتيان حسن وجوههم * اذا كانت الاعراض غير حسان
فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى * فما كل مصقول الحديد يماني

وعن وصية لبعض العلماء قال حق على العاقل ان يخالق من لقيه وان يتزيا بزي من ساكنه قال بعض الشعراء

ان جئت أرضا كلهم عور * فغمض عينك الواحده

قيل لا يسود الرجل حتى لا يبالي في أي ثوب ظهر ودخل بعضهم على معاوية وعليه عباءة فازدراه فقال يا أمير المؤمنين ان العباءة لا تكلمك وانما يكلمك من فيها ودخل بعضهم أيضا على الرشيد فأنشده

ترى الرجل النحيف فتزدريه * وفي أثوابه أسد هصور

وقيل

لو كانت النار للياقوت محرقة * لكان يشتبه الياقوت بالحجر

فلا يغرنك اطماري وقيمتها * فانما هي اصداف على درر

ولا تظن خفاء النجم من صغر * فالذنب في ذاك محمول على النظر

والبيت الاخير ينظر الى قوله

والنجم تستصغر الابصار رؤيته * والذنب للطرف لا للنجم في الصغر

قال صلى الله عليه وسلم إن الله لا ينظر الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم قال بعض الامراء لحاجبه أدخل علي عاقلا فأتاه برجل فقال بم عرفت عقله قال رأيته يلبس الكتان في الصيف والقطن في الشتاء والملبوس العتيق في الحر والجديد في البرد

مطلب الحسن الحسي

وكان صلى الله عليه وسلم يختار لحاجته صبيح الوجه حسن الاسم طلبا لاجتلاب القلوب وفي حديث قتادة عن أنس ما بعث الله نبيا إلا حسن الوجه حسن الصوت وكان نبيكم صلى الله عليه وسلم أحسنهم وجها وأحسنهم صوتا وقد حاز يوسف عليه السلام شطر الحسن وحاز نبينا عليه الصلاة والسلام كل الحسن قال أبو هريرة رضي الله عنه ما رأيت أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن الشمس تجري في وجهه واذا ضحك يتلألأ في الجدر النور وقالت أم معبد في بعض ما وصفته به أجمل الناس من بعيد وأحلاهم وأحسنهم من قريب وفي حديث أبي هالة يتلألأ وجهه كتلألئ القمر ليلة البدر انتهى فهو كما قيل

لبست رداء الفخر في صلب آدم * فلا تنتهي الا اليك المفاخر

ولله بدر في السماء منور * وأنت لنا بدر على الارض ظاهر

وفي الحديث كما رواه البخاري في تاريخه وابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج اطلبوا الخير عند حسان الوجوه وقيل في معناه

لقد قال الرسول وقال حقا * وخير القول ما قال الرسول
اذا الحاجات عزت فاطلبوها * الى من وجهه حسن جميل

وقيل لفيلسوف أي الرسل أنجح قال الذي له جمال وعقل وفكر وقيل اذا أرسلتم رسولا فابعثوه حسن الوجه حسن الاسم قال لقمان لابنه لا تبعث رسولا جاهلا فان لم تجد حكيما فكن رسول نفسك شعر

اذا أبطا الرسول فقل نجاح * ولا تفرح اذا عجل الرسول

وقال آخر

اذا أرسلت فارسل ذا وقار * كريم الطبع حلو الاعتذار
يوفق بين نيران وماء * ويصلح بين سنور وفار

ويروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله جميل يحب الجمال وقيل في هذا المعنى

خلقت الجمال لنا فتنة * وقلت لنا يا عبادي اتقون
وأنت جميل تحب الجمال * فكيف عبادك لا يعشقون

فالحسن صفة تميل اليها الطباع السليمة والاذواق المستقيمة وتنجذب الى عشقه أرباب العقول وفي المثل شفيع الحسن مقبول ولقد أحسن من أنشد يقول

واذا المليح أتى بذنب واحد * جاءت محاسنه بألف شفيع

ومثله قول الآخر

اذا جاء المليح بألف ذنب * محاها من محاسنه شفيع

وقال أبو فراس

أساء فزادته الاساءة حظوة * حبيب على ما كان منه حبيب
تعد علي الواشيات ذنوبه * ومن أين للوجه المليح ذنوب

مطلب اجماع الحكماء على ان النظر الى الوجه الحسن مفرح للنفس وان النظر الى ضده يأتي بضد ذلك

وقد أجمع الحكماء قاطبة على ان النظر الى المرأة الجميلة الحسنة الخلق تفرح النفس وتنشطها وتزيل عنها الافكار والوساوس السوداوية وتقوي القلب قوة لا مزيد عليها بسبب ازالة الافكار الرديئة لاسيما اذا انضم مع حسن الصورة حسن المحادثة لان لحاسة السمع مدخلا عظيما في تطييب كلام القلوب بكلام المحبوب وأما أحلى قول بعضهم في هذا المعنى

وحديثه كالغيث يسمعه * راعي سنين تتابعت جدبا
فيصيح من طرب مسامعه * ويقول من فرح هيا ربا

وهذا هو المعنى المقصود من قول أبي نواس وقل لي هي الخمر في قوله

ألا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر * ولا تسقني سرا اذا أمكن الجهر

واذا كان المحبوب يتلذذ بتكرار اسم محبوبه على لسانه فكيف لا يكون ذلك والوجهان متقابلان والقمران متحادثان وكان الحكماء أجمعوا على ذلك فقد أجمعوا أيضا على ان النظر الى المرآة القبيحة السيئة الخلق كمجالسة الثقيل تثير الهموم وتجلب الغموم وتؤلم القلب وتميت النفس وتذهب النشاط وتطوى الانشراح كما قيل

وجليس حديثه * للمسرات طارد * مثل ليل الشتاء فـ * ـهو طويل وبارد

وكانت لبابة بنت عبد الله بن عباس من أجمل الناس وجها وكانت تحت الوليد بن عتبة ابن أبي سفيان فكانت تقول ما نظرت الى وجهي في المرآة مع أحد الا رحمته من حسن وجهي الا الوليد فاني كنت اذا نظرت الى وجهي مع وجهه رحمت نفسي من حسن وجهه ونضارته قال بعضهم

نظرت اليه نظرة فتحيرت * دقائق فكري في جليل صفاته
فأوحى اليه الوهم اني أحبه * فأثر ذاك الوهم في وجناته

وعلى ذكر المرآة يحسن قول بعضهم

رأى حسن صورته في المراة * فأصبح صبا بها مدنفا
وصير يعقوب اسما له * يشير بأن قد رأى يوسفا

وقال بعضهم ان المرأة اذا كانت حسنة الصفات حسنة الأخلاق نجلاء العين سوداء الحدقة متحببة لزوجها قاصرة الطرف عليه فهي على صفة الحور العين كما قيل

حور رحائرما همن بريبة * كظباء مكة صيدهن حرام
يحسبن من لين الكلام فواحشا * ويصدهن عن الخنا الاسلام

وقال آخر وهو ممن كاثر بمحبوبه وفاخر

لم يبق لي أمل سواك فان يفت * ودعت أيام الحياة وداعا
لا أستلذ لغير وجهك منظرا * وسوى حديثك لا أريد سماعا

وقال آخر

يا حسنه

يا حسنه اذ قال ما أحسنى * ويا لذاك اللفظ ما أعذبه

مطلب الحسن العام والخاص وكشف النقاب عن معناهما

ثم ان الحسن العام هو ما يزين الزينة ويستحسن بدونها وأما الحسن الخاص فهو ما يختص به كل عضو من الصفات ولهذا قالوا الحلاوة فى العين والملاحة فى الفم والجمال فى الانف والظرف فى اللسان وقالوا اذا حسنت العين فتمامها الدعج والفم تمامه الفلج وطلاوة الجبين تمامها البلج وأحسن ما تكون المرأة اذا طال منها الاطراف والعنق والشعر والقامة وقصر منها العين واللسان واليد والرجل والمراد بالقصر القصر المعنوى كعدم الطموح بالعين والفم وأخذ شئ فوق الحاجة والخروج من بيتها وابيض منها اللون والفرق والثغر أى الاسنان نفسها أما اللثة فقد مدحت العرب سوادها واسود منها العين والهدب والشعر واحمر منها اللسان والشفة مع اللعس يعنى يسير السواد ودق منها الحاجب والانف والبنان والخصر وغلظ منها المعصم وما يقعدها عند النهوض والساق واتسع منها الجبين والجبهة والعين والصدر وضاق منها الانف والاذن والفم وما عدا ذلك راجع الى ما ذكر وتفنن فى الاوصاف وأهل الفراسة يجعلون الجمال الظاهر دليلا على اعتدال المزاج

مطلب ان من أعطى صفة الجمال لا يليق به التهتك والابتذال ودليل ذلك من قصة سيدة بنت أحمد بن جعفر الصالحية مع ابن أحمد ابن المظفر الصليحى

فمعتدل المزاج لا يتهافت على التهتك والابتذال فانه بهذا يذهب ما فى جماله من البهاء والجلال فقد حكى ان سيدة بنت أحمد بن جعفر بن أحمد الصالحية كانت بعيدة الصيت بالجمال والكمال والادب وكانت تسمى بلقيس الاسلام وكان زوجها المكرم الصليحى لما مات عنها تركها بدار العز التى بناها محمد بنته من بلاد اليمن فلما استولى ابن أحمد بن المظفر الصليحى على الملك أراد أن يتزوجها ليكمل له ملكه فامتنعت منه فعزم على قتالها ثم أشير عليه بان يكاتب فى أمرها المستنصر العبيدى صاحب مصر اذ كان أهل اليمن قائمين بدعوته فامتثل ذلك وأرسل اليه رسولين من قبله فى هذه القضية فرجع اليه بقضاء حاجته ومعهما خصى برسم الكلام معها فدخل الخصى اليها وقد حضر وجوه أهل الدولة قائمين لقيامه فقال أمير المؤمنين يسلم على الجهة المالكة السيدة الرضية الطاهرة الزكية وحيدة الزمن وسيدة ملوك اليمن عمدة الاسلام خلاصة الانام ذخيرة الدين ولية أمير المؤمنين ويقول لها وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا وقد زوجك مولانا أمير المؤمنين من أمير الامراء أبى

جبر بأن أجد على ما حضر من المال وهو مائة ألف دينار ذهباً عيناً وخمسون ألفاً أصناف تحفاً وألطافاً فقالت أما كتاب مولانا أمير المؤمنين فانى أقول فيه إنى ألقى الىّ كتاب كريم وأما أنتما فوالله ما جئتما الى مولانا من سبأ بنبأ يقين بل حرّفتما القول عن مواضعه وسوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون وتم عقد النكاح بينهما واستأذنها زوجها الامير فى الدخول بها بدار العز فأذنت له فدخل ومدّ يده اليها أول مرّة فلم تمتنع عليه أول مرّة مما يكون بين الرجل وزوجته ثم أراد المعاودة فمنعته وغضبت وخرجت من البيت الذى كانت معه فيه ولم يجتمع بها الا تلك الليلة خاصة وبعض أهل اليمن يقولون انه لم يرها وانما أجلست له تلك الليلة جارية من جواريها فعلم بذلك وكتم الامر ولم يفشه فهذه هى المرأة العفيفة والجهة الشريفة وبالجملة فلباس ثوب العفاف من أجمل الأوصاف وقلت فى هذا المعنى

أصبو الى كل ذى جمال * ولست من صبوتى أخاف
وليس بى فى الهوى ارتياب * وانما شيمتى العفاف

مطلب طواف عبد الله ومصعب وعروة أولاد الزبير ابن العوام بالكعبة ودعا كل منهم لنفسه ما أراد وتحقق ذلك فيما بعد

ومن النساء المشهورات أم حكيم التى تشبب بها قطرى رئيس الخوارج الذين خرجوا على الخلافة فى أيام هشام بن عبد الملك وقد سبق ذكرها فى الفصل الثانى من الباب الثانى وقيل ان عبد الله ومصعب وعروة أولاد الزبير بن العوّام طافوا بالكعبة وتعلقوا بأذيالها فقال عبد الله اللهم انى أسألك الخلافة وقال عروة اللهم انى أسألك الجنة وقال مصعب اللهم انى أسألك ان تكون سكينة بنت الحسين بن على وعائشة بنت طلحة بن عبد الله من أزواجى فأعطى الله كلا منهم مراده فكان عبد الله ابن الزبير خليفة على الحرمين والحجاز واليمن والعراق ومصر وغير ذلك ما عدا الشأم

مطلب مفاخرة عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين زوجى مصعب ابن الزبير

وتزوج مصعب عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين وأصدق عائشة بنت طلحة كصداق سكينة بنت الحسين وكانا يتغايران وكان الشرف لسكينة والجمال لعائشة قيل طلع البدر ليلة فلما توسط السماء بعثت عائشة وصيفة لها الى سكينة تقول من أشبه بهذا البدر وجهى أم وجهك فلم تجبها سكينة وأذن المؤذن فلما قال أشهد أن محمداً رسول الله بعثت سكينة وصيفة لها اليها تقول هذا جدّى أو جدّك فلم تعد عائشة تفاخرها بعد بشئ وكانت عائشة أبدع امرأة بالمدينة وأجمل وأكمل نسائها

وهى

وهى أول من خضب من نساء العرب أطراف الاصابع وأول من لبس العصائب الديباج المنسوجة بالذهب والجوهر وأول من اتخذت لشعرها طرة ومشطته بماء الورد والمسك وأول امرأة رآها الناس فى الموقف فى هودج وأول امرأة أقام معها زوجها سبعة أيام لا يطهر وأول امرأة رأى الناس الصرر المختومة تخرج الى المستورات من جيرانها فيها الدراهم يوم أسبوعها وأول امرأة سهرت على زوجها من الغيرة حتى طلع الفجر

مطلب محادثة على بن الجهم مع جارية له فى ليلة مقمرة

ومما يناسب تشبيهها وجهها فى الحسن بالبدر ما يحكى عن على بن الجهم انه قال لجاريته أتجعلين الليلة مجلسنا فى القمر قالت له ما أولعك فى الجمع بين الضرائر فاستدعى بجلة ليفرغها عليها ويستجلى قمر وجهها فيها فقالت اليك عنى انها تغطى المحاسن كما تستر القبائح فغاب عنهما القمر فاهتم فقالت لا تهتم لفقده فقد احتشم من محاسنى واستخلفنى من بعده ويحسن هنا قول بعضهم

اذا ما غاب وجه البدر عنا * فوجهك عندنا البدر المقيم
وان أفلت نجوم السعد يوما * فوجهك نجم سعد مستديم

مطلب ما قالته فاطمة بنت محمد بن المنجا الدمشقية من الشعر عند طلاق زوجها اياها

وقول الشاعر

أرخت ثلاث ذوائب من شعرها * فى ليلة فأرت ليالى أربعا
واستقبلت قمر السماء بوجهها * فأرتنى القمرين فى وقت معا

ولبعض النساء فضل لا سيما فى الشعر قال الشهاب الحجازى أنشدنى شيخ الاسلام حافظ مصر والشام شهاب الدين أحمد ابن الامام العلامة نور الدين على بن حجر قال أنشدتنى اجازة من نظمها المحجبة المخدرة المسندة فاطمة بنت محمد بن المنجا الدمشقية الاصل وقد فارقت بعلها

لما غدا لوثيق عهدى ناقضا * وأراد حبل الود أن يتمزقا
فارقته وخلعت من يده يدى * وتلوت لى وله وان يتفرقا

مطلب ما قالته زينب بنت ابراهيم العثمانى الشافعى وقد اعتدى عليها بعض الناس فى وقفها

ومن ذلك ما أنشدتنيه من لفظها لنفسها المحجبة المصونة والدرة المكنونة العريقة الحسب الاصيلة النسب العالية المقام الكثيرة التهجد والقيام حافظة أهل زمانها فائقة أقرانها صاحبة السند العالى واللفظ الفصيح الغالى الست زينب ابنة الامام العالم العامل والبحر الوافر الكامل برهان الدين أبى اسحاق ابراهيم

العثمانى الشافعى وقد اعتدى عليها بعض الناس فى وقفها وتجوه عليها بشيخ الاسلام
وقاضى القضاة عز الدين أحمد الحنبلى فكتبت اليه بهذين البيتين وهما

قسما بحقك لا انضام ضعيفة * وتكون عز الدين حيا باقيا
فقهاو قيت أذى عدو أحمق * لك ربها لازال كهفا واقيا

ومن النساء من اشتهر بالصيانة والديانة ودخل فى زمرة أفاضل العلماء بحيازة الفضل
والامانة فمن حاز هذه الرتبة خديجة بنت أحمد بن عبد العزيز بن القاسم بن عبد
الرحمن أم الفضل بن شهاب الدين النويرى القرشية العقيلية المكية أمها وأم
أخويها قاضى القضاة كمال الدين أبى الفضل محمد ونور الدين على كمالية ابنة قاضى
القضاة نجم الدين محمد بن محمد الطبرى المكى كانت من ثروات النساء دينا وعفة وكرما
وعبادة وكانت تخلو عدة ليال للعبادة وتلازم الاوراد دائما ولا ترغب فيما يميل اليه
النساء وكانت تكتب وتقرأ ولها أفضائل وتنظم الشعر الجيد وبينها وبين علماء عصرها
وصلحائه مكاتبات ولها قصيدة نبوية أولها

مطلب ان من أفاضل العلماء خديجة بنت أحمد زوج شهاب الدين النويرى

حمل الغرام على ما لا أحمل * فرثى لحالى من يلوم ويعذل

وكتبت الى الشيخ بهاء الدين أحمد ابن السبكى وقد أهدت له عقيدا وهى وهو سائران فى
رفقة من مكة الى المدينة النبوية للزيارة

بعثت لكم شئ من عقيد * هديته لقلته فضيحه
ولكنا لنخبركم بأنا * عقيدتنا فيكم صحيحه

فأجابها بأبيات منها

بركات أم المؤمنين خديجة * عمت قوافلنا وفاض نداها
ولها قصائد فى النبى محمد * ستنال فى الجنات طيب جناها
فالله يقبلها ويشكر سعيها * ويدوم فى طيب المنا أخواها
ويعز للاسلام هذا البيت اذ * عمت مكارمه وطاب حلاها

توفيت بمكة سنة سبع وسبعين وسبعمائة وكانت صالحة عالمة انتهى
ومن اشتهر بالادب والتصوف والغزل والتعفف من النساء بالاندلس حمدة بنت زيد
ابن تقى العوفى يحكى انها خرجت متنزهة بالرملة من وادى آش فرأت ذات وجه وسيم
أعجبها فقالت

مطلب حمده الاندلسية وما اشتهرت به من الادب والتصوف والغزل والتعفف

أباح الدمع أسرارى بواد * له للحسن آثار بوادى

فن

فمن نهر يطوف بكل روض * ومن روض يطوف بكل وادى
ومن بين الظباء مهاة رمل * سبت لبى وقد ملكت قيادى
لها لحظ ترقده لامر * وذاك اللحظ يمنعنى رقادى
اذا سدلت ذوائبها عليه * رأيت البدر فى جنح السواد
كأن الصبح مات له شقيق * فمن حزن تسربل بالحداد

ومن كلامها أيضا

ولما أبى الواشون إلا فراقنا * ومالهمو عندى وعندك من ثار
وشنوا على اسماعنا كل غارة * وقلت حماتى عند ذاك وأنصارى
غزوتهمو من مقلتيك وأدمعى * ومن نفسى بالسيف والسيل والنار

وكانت علية العباسية بنت المهدى أخت هارون الرشيد فائقة فى الجمال والأدب والعلم تزوجها موسى بن عيسى العباسى وكان الرشيد يبالغ بإكرامها واحترامها ولها ديوان شعر عاشت خمسين سنة وتوفيت سنة عشر ومائتين وكان سبب موتها ان المأمون سلم عليها وضمها الى صدره وجعل يقبل رأسها ووجهها مغطى فشرقت من ذلك وحمت وماتت لأيام يسيرة

مطلب علية العباسية بنت المهدى

ولما خرج الرشيد الى الرى أخذها معه فلما وصل الى المرج نظمت قولها

ومغترب بالمرج يبكى لشجوه * وقد غاب عنه المسعدون على الحب
اذا ما أتاه الركب من نحو أرضه * تنشق يستشفى برائحة الركب

وكانت حاذقة فى الغناء وضرب العود فغنت بهما فلما سمع الرشيد الصوت علم انها قد اشتاقت الى العراق والى أهلها فأعادها ومن شعرها

كتمت اسم الحبيب عن العباد * ورددت الصبابة فى فؤادى
فواشوقى الى ناد خلى * لعلى باسم من أهوى أنادى

ومن كلامها أيضا

تجنب فان الحب داعية الحب * وكم من بعيد الدار مستوجب القرب
تبصر فان حدثت ان أخا الهوى * نجا سالما فارج النجاة من الحب
وأطيب أيام الفتى يومه الذى * يروع بالهجران فيه وبالعتب
اذا لم يكن فى الحب سخط ولا رضى * فأين حلاوات الرسائل والكتب

وكانت علية تساجل الأدباء وتناظر العلماء فكانت بالمشرق كولادة بنت

مطلب ولادة بنت المستكفى

المستكفى بالله بالمغرب وكانت صيانتها بقدر شرفها بخلاف ولادة المذكورة فانها قد برعت فى الحسن والجمال والبهاء والكمال واللطف والدلال وكانت عالمة كاتبة شاعرة لها مجلس تمد فيه الموائد ويجتمع بها فيه العلماء والفضلاء والشعراء والادباء وكانت بدون تكليف لكنها عفيفة وكانت كثيرا ما تقول

انى وان نظر الانام لبهجتى * كظباء مكة صيدهن حرام
يحسبن من لين الكلام فواحشا * ويصدهن عن الخنا الاسلام

وكانت بقرطبة جالسة لاستجلاء محاسن النظم والنثر وقد ولع بها ابن زيدون وصدرت بينهما المراسلات وأنشأ فيها رسالته الزيدونية فتكلم الناس فيها وما أحسن كلام ابن زيدون فى خطابه لها بقوله

انى ذكرتك بالزهراء مشتاقا * والأفق طلق ووجه الارض قد راقا
والروض عن مائه الفضى مبتسم * كما حللت عن اللبات أطواقا
وللنسيم اعتلال فى أصائله * كأنه رق لى فاعتل اشفاقا
لا سكن الله قلبا عن ذكركم * ان لم يطر بجناح الشوق خفاقا
لو شاء حملى نسيم الريح نحوكم * وفاكم بفتى أضناه مالاقى
الآن أحمد ما كان العهد كم * سلوتم وبقينا نحن عشاقا

وقد ساعده الدهر أن زارته وذهبت بعد أن ودعته فقال

ودع الصبر محب ودعك * ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على ان لم يكن * زاد فى تلك الخطا اذ شيعك
يا أخا البدر سناء وسنا * حفظ الله زمانا أطلعك
ان يطل بعدك ليلى فلكم * بت أشكو قصر الليل معك

قال صاحب الخريدة وكانت ولادة هذه غريبة الدهر فريدة العصر قل ان يسمح الزمان بمثلها أو يجود الحسن بعدها بجمالها قال صاحب قلائد العقيان إن شعر ولادة أستحى ان أقول انه شعر امرأة فانه تعجز عنه فحول الرجال وهو

ولما أبى الواشون إلا افراقنا * ومالهمو عندى وعندك من ثار
وشنوا على اسماعنا كل غارة * وقل حماتى عند ذاك وأنصارى
غزوتهمو من مقلتيك وأدمعى * ومن مهجتى بالسيف والسيل والنار

وقد

وقد تقدم نسبة هذه الابيات لحمدة الاندلسية ومن شعرها خطابا لابن زيدون وكانت تميل اليه أيضا

ترقب اذا جن الظلام زيارتي * فاني رأيت الليل أكتم للسر
فبي منك مالو كان بالشمس لم تنر * وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر

قيل ومن شعرها

ألحاظكم تجرحنا في الحشا * ولحظنا يجرحكم في الخدود
جرح بجرح فاجعلوا ذا بذا * فما الذي أوجب جرح الصدود

قال بعضهم مثل هذا الشعر كثير على امرأة وقال العماد في الخريدة ان بعض الكنديين من أهل مصر يقول ان هذين البيتين لمحمد بن علي بن أبي الغمر المنعوت أنجب الدين الهاشمي الاسنائي الذي قال في الخمر

عذراء تفترعن درعلى ذهب * اذا صببت بها ماء على لهب
وافى البها سنان الماء يطعنها * فاستلأمت زردا من فضة الحبب

انتهى وفي بعض الدواوين عزو البيتين للقاضي عبد الوهاب المالكي وتشبه ابيات ولادة أيضا أبيات سلمى بنت القراطيسي من أهل بغداد وكانت مشهورة بالجمال والادب

مطلب سلمى بنت القراطيسي وانعام المكتفي عليها بمال جزيل

عيون مها الصريم فداء عيني * وأجياد الظباء فداء جيدي
أزين بالعقود وان نحري * لأزين للعقود من العقود
ولا أشكو من الاوصاب ثقلا * وتشكو قامتي ثقل النهود

ولما بلغت هذه الابيات المكتفي قال اسألوا عنها هل تصدق صفتها أقوالها فقالوا مايكون أجمل منها فقال اسألوا عن عفافها قالوا هي أعف الناس فأرسل اليها مالا جزيلا فقال تستعين به على صيانة جمالها ورونق أدبها فانعام المكتفي عليها من غيران ينظرها مكتفيا بسماع أوصافها هو من قبيل قول الشاعر

مطلب عائشة البيعونية صاحبة البديعة المشهورة

عشقتكم من قبل رؤياكم * لحسن وصف منكم قد جرى
كذلك الجنة معشوقة * لوصفها من قبل أن تبصرا

وقول الآخر

ياقوم أذني لبعض الحي عاشقة * والاذن تعشق قبل العين أحيانا

وأما عائشة البيعونية الفاضلة العالمة فكانت من أكابر النساء المتصوفات مشغولة

بالعبادة والزهد والورع تقول الشعر الغريب على لسان الصوفية أو في مدح الرسول الحبيب وتذكر ذلك في معرض الغزل الرقيق وكلاهما مقبول وبحسن القبول حقيق فمن ذلك بديعيتها التي عدت من البدائع وفاقت بمطلعها على أكثر المطالع حيث قالت في الاستهلال وأجادت في المقال لاسيما وانها في مدحه صلى الله عليه وسلم

في حسن مطلع أقمار بذي سلم * أصبحت في زمرة العشاق كالعلم
اقول والدمع جار جارح مقلى * والجار جار بعذل فيه متهم
باللهو في الهوى روح سمحت بها * ولم أجد روح يسرى منهم بهم
وفي بكائي لحال حال من عدم * لفقت صبرا فلم يجد لمنع دمى
ياسعد إن أبصرت عيناك كاظمة * وجئت سلعا فسل عن أهلها القدم
فثم أقمار تم نازلين على * طويلع حيهم وانزل بحيهم

الى آخرها وكلها ملح وقالت في الغزل

كأنما الخال تحت القرط في عنق * بدا لنا من محيا جل من خلقا
نجم بدا في عمود الصبح مستترا * تحت الثريا بقرب الشمس فاحترقا

فانظر الى اختراع هذا المعنى في الخال تجده كالمعجز من ربات الجمال

وما أحسن قولها من قصيدة تقفو فيها قصيدة ابن زريق البغدادى في البحر والقافية التي مطلعها

لا تعذليه فان العذل يولعه * قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه

الى أن قال فيها

ودعته وبودى لو يودعنى * صفو الحياة وانى لا أودعه

فقالت

ودعته وجميل الصبر ودعنى * اذذاك والقلب منى سار يتبعه
وصرت لا صبر لى حتى أوديه * ولا فؤادى أرجى العذل ينفعه
أذرى الدموع فتذكى في الحشا لهبا * النأى أسعره والشوق نوعه
وما يئست ولكنى على طمع * بأن شملى بهم مولاى يجمعه
نذر على لئن وافى البشير بهم * لابذلن له مالى وأخلعه
وأجعل الروح منى من منائحه * ان نلت ما أرتجى صاحى توقعه

وقالت

وقالت من بحر وقافية عينية ابن الفارض فى مدحه صلى الله عليه وسلم

سحائب جفني بالدموع هوامع * اذا لاح من تلقاء يثرب لامع
وصبري مغلوب وشوقي غالب * وحبي مطبوع ووجدي طابع
ودمعي مطلوق وقلبي مقيد * ولبي منزوع وفكري ينازع
وأصل حديثي في الغرام مصحح * وفي الناس مشهور وفي الخلق شائع
ولي سيرة في الحب سار بسيرها * حليف ولوع بالمحبة والمع
وأصبحت فيها في المحبين قدوة * وكل لاثري مقتف ومتابع
وشوقي سمير والهيام مصاحب * ووجدي قرين والغرام مضاجع

الى أن قالت في التخلص

وهذا غرام ليس فيه تصنع * عليه دليل ليس فيه تنازع
بأعظم محبوب وأشرف مرسل * وأفضل مبعوث له الله رافع

وهي قصيدة طنانة وقالت محاكية لتائية ابن الفارض قصيدة مطلعها

سقاني حميا الحب من قبل نشأتي * ومن قبل وجداني طربت بنشوتي
وأشهدني لطف الجمال كما يشا * عياناً لما شاء أخذ شهادتي
وأودع سري سر سر يجل عن * احاطته بالفهم أو بالبصيرة
فجل علواً عن احاطة حادث * وعز جلالاً عن فهوم الخليقة
وأسمعني منه خطابا يجل عن * تألف أنواع الحروف بنغمة
خطابا اليه مابرحت مشوقة * أعلل قلبي بالسماع ومهجتي
وصيرني في جامع الحب والهوى * أحيعل للعشاق أهل المحبة
ومن عرفات الحب قت بموقف * تأخر عنه كل صاحب علة
ووادي منى منه بلغت المنى به * بجمع بلا فرق بمنية منيتي
نحرت له نفسي خلافا لأمرها * فسلمها من كل سوء وفتنة
ولما تبدى للبصيرة ماسوى * حبيبي فان باطل في الحقيقة
وان ليس إلا ذاته وصفاته * وأفعاله والغير آثار قدرة
وان فعال الخلق من بعض خلقه * ولم يملكوا من أمرهم بعض ذرة
تلاشى سواه في عيان بصيرتي * ولم أر إلا هو بعين الحقيقة
ولي فيه قلب مع ذنوبي واثق * بعفو ليجليها وان هي جلت

وهى قصيدة طويلة جدا ولها مقطعات رائقة منها

من لى برايات سعد فى ورودى من * عين الحياة بوصل فيه رآت
روح وراح وراوق وروضة * ورؤية ورياحين وراحات

ومنها

متى يقال الى الحانات لى هيا * وأنظر الوصل للكاسات لى هيا
ومنية القلب بالملا آن لى حيا * وأصبح الميت منى بارو حيا

ومنها

لقد بلغت الاملا * ممن له كل ملا
أجلسنى فى حانه * لما سقانى وملا
مدامة أقداحها * خزائن الله الملا

ومنها

أجد التذلل فى هواك لذاذة * والبعد قربا والشقاء نعيما
والبؤس نعمى والتقاطع وصلة * والموت محيا والبلا تكريما

ومنها

ألا حبذا من خمرة معنوية * بها فى قلوب الشاربين لها نهب
وان تبغ إيضاحا لخذها بقوة * هى الشمس الان مطلعها القلب

ومنها

عذولى لو علمت بما يعانى * فؤادى فى الهوى أوضحت عذره
ولو ذقت الوصال وذقت هجرا * لصرت بحالة للناس عبره

ولها ديوان شعر سلكت فيه مسلك أهل التصوف وأكثرت فيه بمدح شيخها الجيلانى ويستفاد منه انها كانت متزوجة وان لها أولادا

مطلب رابعة العدوية وما سارت فيه من الزهد بالسيرة الجنيدية

وبالجملة فكم لها من فتوحات الهية ومنحات صمدانية ذكرت أهل عصرها الذى هو بها فريد الفتوح على رابعة العدوية التى فيض بحرها بسيط مديد بعد أن كانت مثقلة بالذنوب مكبلة بقيود العيوب ولنذكر هنا قصة رابعة العدوية وسبب توبتها لما فيها من الموعظة لذوات الالباب من النسا ولكل من تمادى قلبه على الذنوب وقسا فنقول

حكى

حكى عن ذى النون المصرى رحمه الله تعالى انه قال بينا أسير فى بعض السياحة فى الجبال والأودية والقفار اذ رمتنى المقادير الى واد يقال له وادى المستضعفين بأرض مصر فتمشيت فيه حتى انتهيت الى ساحل البحر وكان زمن النيل فاشتقت الى الركوب فى المراكب فجلست الى الارض ساعة واذا بسفينة سائرة فقمت وناديت يا أهل السفينة عسى ان تحملونى معكم فلم يلتفت الى احد منهم فجلست واذا بسفينة ثانية مقلعة فقمت اليهم وناديتهم فقالوا يا شيخ ان كان معك دراهم حملناك والا فاجلس مكانك قال فجلست واذا بسفينة ثالثة مقلعة أيضا واذا فيها حس أوتار ونغمة مزمار قال وكانت معهم رابعة بنت اسماعيل العدوية البصرية وهى تشرب الخمر قبل توبتها قال فقمت اليهم وقلت عسى أن تحملونى معكم فعرفنى رجل منهم وقال لى يا شيخ ما أنت ذو النون فقلت نعم فقال أنت رجل صالح ونحن قوم عصاة نشرب الخمر فكيف ركوبك معنا فقالت رابعة يا قوم احملوه معكم وأنا أفتنه بحسنى وجمالى قال فحملونى معهم وساروا حتى توسطنا البحر فقام شاب منهم فملأ كأسا من الخمر ووقف به على رأسى وأنشأ يقول

وخمار دخلت اليه ليلا * وجنح الليل مسود الجناح
فقال من الفتى فأجبت ضيف * تسربل بالمكارم والسماح
فقام الى دنان مترعات * مقدمة بكافور رباحى
وفض ختامها فجلا فلاحت * على الظلماء أنوار الصباح

قال ثم شرب الكاس وجلس وقام من بعده شاب آخر فملأ الكاس ووقف مثله وأنشأ يقول

وصحنا بباب الدير يا سعد يا فتى * وقد جاءنا بالراح نحلو نفائسا
طرقنا عليه الدير فى غسق الدجا * سكارى بكاسات الهوى وتناعسا (٧)

وشرب ذلك الكاس ثم جلس فقامت رابعة وقالت ما تقدرون على ذى النون أنا أفتنه بحسنى وجمالى ثم قالت يا ساقى املأ الكاس فملأه فأخذته من يده ووقفت على جانب السفينة ونظرت الى ذى النون وجعلت تقول

يا ليلة بات نديمى بها * مليحة الردف كعوب رداح
شبهتها والكاس فى كفها * بدر الدجى يحمل شمس الصباح

ثم قالت يا ذا النون اشرب بكاسنا فقال ويحك لقد شربت بكاس اذا شرب به العليل

لم يحتج الى طبيب واذا شربه الصادق لم يفتر عن الخالق فنادت ياذا النون ان لم تشرب من شرابنا والا فاسقنا أنت من شرابك فقلت ياجارية أو تشربين من شرابنا قالت إي والله قلت فاذا أبطلوا الأوتار واتركوا المزمار واسمعوا ما أقول ثم قمت ونفضت مرقعتي وأنشأت أقول

أحسن من قينة ومزمار * فى غسق الليل نغمة القارى
ياحسنه والجليل يسمعه * بطيب صوت ودمعه جاري
وخده فى التراب منعفر * وقلبه فى محبة البارى
يقول ياسيدي وياسندي * أشغلني عنك ثقل أوزاري

قال فزعقت رابعة ووقعت مغشيا عليها فلما أفاقت نادتنى ياذا النون والله لقد وقع دواؤك على دائى فاسقنى من شرابك وزدنا من أشعارك فوقفت على جانب السفينة وقلت

أفق من رقدة السكر * وداو القلب بالذكر
فهذا الليل قد ولى * ولاحت أنجم الفجر
ترفق أيها الساقى * قتلت القوم بالسكر
شربنا ليلة الجمع * وكانت ليلة القدر

فعند ذلك قامت رابعة وقطعت ما كان عليها من الحلى والحلل وعمدت الى قلع السفينة فقطعت منه قطعة وتسترت بها ورمت بنفسها فى البحر فى ظلام الليل فقال ذو النون واأسفى عليها وظننا انها غرقت فاذا بها تنادى على البر وهو معكم أينما كنتم قال ذو النون وسارت السفينة الى ان أتينا الى مسجد موسى عليه السلام فأقمت فيه عامين ثم اشتقت الى الحج فبينا أنا أطوف اذ رأيت جارية متعلقة بأستار الكعبة وهى نحيلة الجسم دقيقة العظم عليها أطمار من الصوف وهي تنادي وتقول بحبك لى الا ما غفرت لى قال ذو النون فقلت لها كيف تقولين بحبك لى كيف تعرفين أنه يحبك فنادت ياذا النون لولا ان مولاى يحبنى ما منّ على بتوبته وواصلنى الى بيته الحرام فقلت من أعلمك باسمى فقالت لا اله الا الله وقع التناكر بعد المعرفة أنا الجارية التى تبت على يديك فى السفينة قال فسلمت عليها وقلت لها وأين ذلك الحسن والجمال فقالت

ذهبت لذة الصبا فى المعاصى * وبقى بعد ذاك أخذ القصاص
ومضى الحسن والجمال ومالى * عمل أرتجيه يوم الخلاص

غير

غيرظني بالله وهو جميل * فيه أخلصت غاية الاخلاص

ثم قالت ياذا النون أنت اليوم ضيفي فهل تشتهي شيأ من الفاكهة فقلت لها من أين لك هذا في غير أوانه فقالت اجلس ولا تعترض حتى آتيك بما طلبت فجلست ثم مضت الجارية الى شعاب مكة فما كان بأسرع ان جاءت وعلى يديها مائدة عليها عنب وتين ورمان فوضعته بين يدي وقالت كل بسم الله فمددت يدي لآكل فاختلج في قلبي وقلت لي في عبادة الله اثنتان وسبعون سنة ما نلت هذه المنزلة ولهذه الجارية عامان فنالت فبكت الجارية فقلت لم تبكين قالت كيف لا أبكي وقد اختلج في صدرك كذا وكذا فقلت سبحان الله ومن أعلمك بهذا قالت ياذا النون والله ما نلت هذه المنزلة الا ببركتك لاني أتيت مقام أبينا الخليل عليه السلام وصليت ركعتين وقلت الهي بحرمة ذي النون لا تخجلني بين يديك فلم أشعر الا وهذا الطبق عن يميني واذا النداء يارابعة خذي هذا الطبق وانطلقي الى ولينا

وهذه الحكاية على كل حال لا تخلو عن التعريف بقدر ذي النون ورابعة وانهما من أكابر الزهاد الذين لهم قدم في العلوم اللدنية فارعه ومما ينسب الى رابعة العدوية قولها

فليتك تحلو والحياة مريرة * وليتك ترضى والانام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر * وبيني وبين العالمين خراب
اذا صح منك الود فالكل هين * وكل الذي فوق التراب تراب

ومما ينسب اليها ايضا

أحبك حبين حب الهوى * وحبا لانك أهل لذاك
فأما الذي هو حب الهوى * فكشفك للحجب حتى أراك
وأما الذي أنت أهل له * فتجريد قلبي عمن سواك

وقد اجتمع عندها علماء وزهاد وتفاوضوا في ذم الدنيا وهي ساكتة فلاموها فقالت من أحب شيأ أكثر من ذكره إما بحمد أو ذم فان كانت الدنيا في قلوبكم لاشئ فلم تذكرون لاشئ أي الدنيا

وقد تسمى برابعة عدة نساء غير أن الاعيان منهن ثلاث الاولى رابعة العدوية بنت اسماعيل البصري وهي صاحبة الترجمة والثانية رابعة بنت اسماعيل الدمشقية القدسية وقد شاركت الاولى في اسمها واسم أبيها والثالثة رابعة بنت ابراهيم بن

عبد البر البغدادية وتسمى رابعة بغداد وقبر رابعة العدوية رضي الله عنها بالبصرة وهو معروف ومشهور هناك ورابعة الدمشقية بالقدس دفنت على رأس جبل هناك معروف بالطور وانما عرفت بالقدسية لدفنها هناك ورابعة البغدادية دفنت ببغداد وكانت وفاة رابعة العدوية البصرية سنة خمس وثلاثين ومائة في خلافة السفاح وقيل سنة خمس وثمانين ومائة

فجميع هؤلاء النساء مجموع فيهن معنى الحسن والجمال باطنا وظاهرا من كل ما يتكفل لمن يوصف الكمال فليست المعارف والآداب في النساء الامحامد كالرجال فلا يعاب قول الشعر بجميع أنواعه من ربات الجمال فكيف لا وانه يروى عن أبي تمام أنه قال لم أنظم الشعر حتى حفظت سبعة عشر ديوانا للنساء دون الرجال وهذا مما اطلع عليه من الدواوين القديمة فما بالك بغير ذلك من المقطعات والقصائد فالادب في النساء جمال ثان معنوي وهو مكمل لجمالهن

مطلب ان تحصيل الكمال انما يكون بضم الجمال الباطن الى الجمال الظاهر

لان الاصل في المحاسن والمطلوب عند العقلاء في جميع المواطن انما هو اصلاح السرائر لا مجرد الجمال الظاهر وانما ضم اصلاح الظاهر الى اصلاح الباطن لتحصيل الكمال ولما فيه في الاغلب من الدلالة على الاعتدال وتتمته تحسين المقاصد واصلاح العقائد والانقياد الى الاوامر الالهية وتلقي ما في الصحف السماوية كما أشار اليه صاحب المراتب الباطنة والظاهرة وقطب دائرة الكائنات في الدنيا والآخرة ألا ان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد واذا فسدت فسد الجسد ألا وهي القلب وصلاحه بملازمة الشريعة المطهرة والتخلق بأخلاق صاحبها المضيئة النيرة وأما المحاسن الظاهرة التي فيها غالب النظم والنثر فهي الحسن الصريح وهو ما استنطق بالتسبيح والصحيح انه معنى لا يدرك اختلفت فيه العبارات وكثرت فيه الاستعارات والخلاف انما هو في الالفاظ والمعنى المطلوب واحد في سائر الموارد كما قيل

عباراتنا شتى وحسنك واحد * وكل الى ذاك الجمال يشير

ولذلك قال بعضهم

فكم بين حذاق الجدال تنازع * وما بين عشاق الجمال منازع

ومما يستحسنه الطبع والشرع في الجمال الظاهر التزين والطيب

(الفصل السابع في استحباب الزينة والطيب للنساء)

من

من المعلوم أنه مما يليق بالمرأة استعمال الزينة فى الملبس ويكون ذلك بأحسن الالوان المألوفة فى كل عصر بحسبه وأما عند العرب فأحسن ألوان الزينة الباس المصبغات بالحمرة والصفرة وكانت العرب تستعمل ذلك للعروس عند هدائها وعنهم أخذها الناس والازمتهم استعمال ذلك صارت ثياب العروس عندهم علما على الثياب المصبوغة روى عن عائشة بنت سعد بن أبى وقاص قالت أدركت نساء من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وما جل لباسهن الا العصب والمعصفر والعصب نوع من الوشى قال الشاعر

مطلب ان أحسن الالوان عند العرب لونا الحمرة والصفرة

نغذى ملابس زينة * ومصبغات هن أفخر
واذا خرجت تقنعى * بالحمر إن الحسن أحمر

ومن الزينة للنساء التحلى بالذهب والفضة وأنواع الجواهر وان كان بعضهم يفضل العاطلة على المتحلية قال الشاعر

مطلب ان من الزينة التحلى بالذهب والفضة وأنواع الجواهر وان بعضهم يفضل العاطلة من النساء على المتحلية

واذا الدرّ زان حسن وجوه * كان للدرّ حسن وجهك زينا
وتزيدين أطيب الطيب طيبا * أن تمسيه أين مثلك أينا

وقال آخر

وأنق من عقد العقيلة جيدها * وأحسن من سربالها المتجرّد

وقال آخر

لعمرك ماشوهاء بحلى تزينت * كحسناء وان كانت عن الحلى عاطله
اذا ما ادّعت حسنا وتزوير حليها * شهود فدعوى صاحب الزور باطله

ومن أبيات الحماسة

لعب النسيم بهنّ فى اظلاله * حتى لبسن ثياب عيش غافل
يأخذن زينتهنّ أحسن ماترى * فاذا عطلن فهنّ غير عواطل
واذا خبأن خدودهنّ أرينني * حدق المها وأخذن نبل القاتل
يرميننا لا يستترن بجنة * الا الصبا وعلمن أين مقاتلى
يلبسن أردية الشباب لاهلها * ويجرّ باطلهنّ ذيل الباطل

وقال آخر

أنى عاطل الجيد يوم النوى * وقد جان موعدنا للفراق
فقلدته بلآلى الدموع * ووشحته بنطاق العناق

مطلب استحباب الطيب للرجل كالمرأة وتفسير حديث حبب الى من دنياكم ثلاث

ومما يستحب للمرأة بل وللرجل استعمال الطيب فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم حبب الىّ النساء والطيب وفى رواية حبب الى من دنياكم ثلاث النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة ونظم ذلك بعضهم فى قوله

الىّ من دنياكم * أضحت ثلاث مشتهاه
الطيب والنساء مع * قرة عينى فى الصلاه

وأشار بقوله حبب الى أنه ما أحبها بنفسه بل حببها اليه الله سبحانه وتعالى ولم يذكر الفاعل تعظيما له أو لتطهيره عن اللسان غيرة عليه كما قيل

واياك واسم العامرية اننى * أغار عليها من فم المتكلم

أو لكونه معلوما لكل أحد وانما قال من دنياكم فأضافها لغيره اشارة الى انه فيها كالغريب المسافر ولها أهل سواه وهو من أهل الله لا من أهلها وانما حبب له هذه من أمور الدنيا ليستقر بها ويتقيد بقيود ها مدة سكناه فيها لاداء الامانة وتبليغ الرسالة دعوة للعالمين وتكميلا لهم فقد قيدت نفسه بالنساء وقيد قلبه بالطيب ووجهه بالصلاة وخصت هذه الاشياء بالذكر وان كانت دنيوية معينة على الامور الاخروية لان النكاح سنة أكيدة حتى قال عليه الصلاة والسلام النكاح سنتى فمن رغب عن سنتى فليس منى وأما الطيب فلأنه يقوى القلب والروح فيلطف السر ويعين على ادراك المغيبات والالهام وأما الصلاة فعماد الدين ومعراج المؤمنين وهذه الثلاثة من نعيم الجنان فهى دنيوية ظاهرا أخروية باطنا وكان النبى صلى الله عليه يتطيب لقدوم الملائكة والملائكة تحب الطيب وكان عليه الصلاة والسلام لا يأكل الثوم والبصل فيقول انى أناجى مالا تناجون وقال صلى الله عليه وسلم من أكل ثوما أو بصلا فليعتزلنا أو فليعتزل مسجدنا وأكلهما يبيح ترك الجمعة والجماعة وفى معناهما الكراث والفجل ولما كان عليه الصلاة والسلام ظاهره فى الدنيا وباطنه فى الآخرة كان محبوبه كذلك مناسبا له وقدمت النساء لانها أمهات وأصول فرتبتهن التقديم ولأن بهن يتخلى العارف عن الشواغل النفسانية والطيب تحلية والتخلية مقدمة عليها والنساء والطيب مقدمتان والصلاة نتيجة فأخرت وان كانت أشرف

مطلب الثلاثيات التى نطق بها الخلفاء الاربعة عند سماعهم هذا الحديث وكذلك الائمة الاربعة عند سماعهم ذلك

ويقال انه عليه الصلاة والسلام لما ذكر هذا الحديث قال أبو بكر رضى الله عنه يارسول الله وأنا حبب الى من الدنيا ثلاث النظر اليك وانفاق مالى عليك والجهاد بين يديك وقال عمر رضى الله عنه وأنا حبب الى من الدنيا ثلاث الامر بالمعروف والنهى عن

المنكر

المنكر واقامة حدود الله وقال عثمان رضي الله عنه وأنا حبب الي من الدنيا ثلاث اطعام الطعام وافشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام وقال علي رضي الله عنه وأنا حبب الي من الدنيا ثلاث اكرام الضيف والصوم في الصيف والضرب بالسيف فنزل جبريل فقال وأنا حبب الي من الدنيا ثلاث اغاثة المضطرين وارشاد الضالين والمؤانسة بكلام رب العالمين ونزل ميكائيل فقال وأنا حبب الي من الدنيا ثلاث شاب تائب وقلب خاشع وعين باكيه وقد حسده اليهود على حب النساء فقالوا ما همه الا ذلك فنزل قوله تعالى أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله الآية فلما بلغ ذلك الامام أبا حنيفة قال وأنا حبب الي ثلاث تحصيل العلم في طول الليالي وترك التعاظم والتعالي وقلب من أمور الدنيا خالي فلما بلغ الامام مالكا قال وأنا حبب الي ثلاث مجاورة الرسول في روضته وملازمة تربته وحجرته وتعظيم أهل بيته وعترته فلما بلغ الامام الشافعي رضي الله عنه قال وأنا حبب الي ثلاث عشرة الناس بالتلطف وترك ما يؤدي الى التكلف والاقتداء بطريق التصوف فلما بلغ الامام أحمد بن حنبل رضي الله عنه قال وأنا حبب الي ثلاث متابعة النبي صلى الله عليه وسلم في أخباره والتبرك بعظيم أنواره وسلوك الادب في سننه وآثاره

(عود لبدء) ثم ان الطيب مندوب اليه في الشرع لمن قصد المقاصد الشرعية من تعظيم أيام الجمع والاعياد مثلا وأن يدفع عن نفسه ما يكره من الروائح الخبيثة وأن يدخل على الناس بشم ذلك راحة وان يظهر نظافته ومروءته بين اخوانه وأهله وأن يقوى دماغه وقلبه لتأثير الطيب في تقوية هذه الاعضاء فالطيب كله من أعظم لذات البشر وأقواها الدواعي قضاء الوطر وقولهم في المثل لا عطر بعد عروس يضرب لتأخير الشئ عن وقت الحاجة اليه قيل إن أصل المثل أن رجلا تزوج امرأة فوجدها شعثة فقال لها أين عطرك فقالت خبأته لوقت غير هذا وقيل في تفسيره غير هذا وقال يزيد بن معاوية في أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر

مطلب قولهم في الامثال لا عطر بعد عروس

انها بنت عامر بن لؤي * حين تدعى وبنت عبد مناف
ولها في المطيبين جدود * ثم نالت ذوائب الاخلاف
لا تراها على التعطر والبذ * لة الا كدرة الاصداف

وسئلت عائشة رضي الله تعالى عنها عن الزينة الظاهرة فقالت هي الكحل

مطلب ان من الزينة التكحل وان الاثمد أفضل

والخضاب وورد الحرص على التكحل بالاثمد فى غير ما حديث وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم انه خير اكحالكم يجلو البصر و ينبت الشعر وما أحسن قول بعضهم

وأحور يصطاد القلوب وماله * من الريش الازعفران و إثمد
وما كنت أخشى القتل ممن سلاحه * سوار وخلخال وطوق منضد

مطلب زينة الخضاب

وخضاب البنان عند العرب ممدوح بل وخضاب اليد كلها أيضا قال بعضهم رأيت قينة خضبت يدها بالحمرة ونقشت فيها بالسواد وهى تنشد هذا البيت

ليس حسن الخضاب زين كفى * حسن كفى مزين للخضاب

وما أحسن قول بعضهم فى وصف مليحة جامعة لاوصاف الحسن

تبدت فهذا البدر من كلف بها * وحقك مثلى فى دجى الليل حائر
وماست فشق الغصن غيظا ثيابه * ألست ترى اوراقه تتناثر
وعاجت فألقى العود فى النار نفسه * كذا نقلت عنه الحريق المجامر
وقالت فغار الدر واصفر لونه * كذلك مازالت تغار الضرائر

وقال آخر

بذلت لها من أدمع العين جوهرا * وقدما حكاها فى الصيانة والستر
فقالت وأبدت مثله اذ تبسمت * غنيت بهذا الدر عن ذلك الدر

مطلب ان استعمال السواك من السنن المطلوبة فى حق الرجل والمرأة

ومن السنن المطلوبة والآداب المرغوبة لكل من الرجل والمرأة استعمال السواك لانه يجلو الاسنان ويقويها ويطيب النكهة ويجلو البصر ولم يكن فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم أكثر استعمالا للسواك من نسائه صلى الله عليه وسلم وسواك الاراك من أحسن ما يستاك به ومن أحسن ما قيل فيه

هنيئا على رغمى لعود أراكة * تسوك بها الزلفاء مبسمها العذبا
لئن شبعت منه لقد زار ثغرها * أراكا بيدها فانثنى منه لارطبا

وقال آخر

سقتنى بكاس الحب صرفا مروقا * رقاق الثنايا عذبة المترنق
وحصانة تفتر عن متنسق * كنور الاقاح طيب المتذوق
اذا امتضغت بعد امتناع من الضحى * أنابيب من عود الاراك المخلق
سقت شعب المسواك ماء غمامة * فضيضا بخرطوم الرحيق المروق

وقال آخر

ويجلو

وتجلو بفرع من أراك كأنه * من العنبر المندى والمسك يصبح
ذرى أقحوان واجه الليل وارتقى * اليه الندى من رامة المتروح
هجان الثنايا معرب لو تبسمت * لأخرس عنه كاد بالقول يفصح

ومما يحسن هنا على ذكر السواك قوله

بالله ان جزت بوادي الاراك * وقبلت أغصانه الخضر فاك
فابعث الى المملوك من بعضها * فانني والله مالي سواك

ولبعضهم

عجبت من المسواك يرشف ريقها * مدى الدهر لم يمنعه من ذاك مانع
ويبقى جمادا كيف لم يحي بالحيا * وتفنى الليالي وهو أخضر يانع
رضاب يقوم الميت ان شم عرفه * ولو قطعت أوصاله والاضالع
فقال خشيت الهجر منها فعاقني * فحسبك عذر في جوابي قاطع
بنفسي ثغر قلت اذ لاح نوره * أبرق بدا من جانب الغور لامع
وبرد رضاب قلت عند وداعه * زمان اللقا بالخيف هل أنت راجع

وقال الصلاح الصفدي

يا ثغره ليس الثنايا التي * تضيء غير الانجم الغرّ
فلينقل المسواك ما عنده * يروى عن الضحاك والزهر

وقال آخر

نقل الاراك بأن ريقة ثغره * من قهوة مزجت بماء الكوثر
قد صح ما نقل الاراك لانه * يرويه حقا عن صحاح الجوهر

ومما يحكى من النوادر أن بعض الظرفاء حج سنة فلما رجع تاه يوما عن الطريق فمر بخباء على بابه امرأة لم ير أحسن منها وجها فأعرض بوجهه عنها فنادته لا تعرض عني فانا التي لا يتم حجك الا بي فقال لها ومن أنت فقالت أنا التي قال في الشاعر

تمام الحج أن تقف المطايا * على لمياء واضعة النقاب
تصدق حين تبصرها بحور * وعدت بهن في أم الكتاب

تقول لوجهها سبحان مولى * يصوّر مثل هذا من تراب

قال فقلت لها حمى الله هذا الوجه من العار ولا عذبه فى الآخرة بالنار وأخرجت سوا كا فناولتها اياه وقلت هذا السواك هدية الحجاج فقالت لا تقل سواك بل قل أراك ورفعت وجهها الى السماء وقالت

لا أقول السواك من أجل أنى * ان ذكرت السواك قلت سوا كا
بل أقول الاراك من أجل أنى * ان ذكرت الاراك قلت أراكا

قال فصرخت وأغمى على ووضعت رأسى على مقدّم الكور فما رفعت رأسى الا وناقتى على الطريق المسلوك فذهبت وكنت أدعو الله كثيرا أن يرزقنى مثلها فى الدنيا والآخرة انتهى

مطلب ان الزينة من الرجل ممدوحة كالمرأة الا أنها فى كل بحسب مايلائمه

وقد أكثر الشعراء من التشبيهات الغريبة فيما يخص النساء وزينتهن وما يتحلين به مما هو معلوم فى كتب الادب

وكما أن الزينة من المرأة ممدوحة فكذلك هى ممدوحة من الرجل بما يلائمه فقد روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها كان نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه فخرج يريدهم فجعل يسوّى شعر رأسه ولحيته قالت فقلت يارسول الله رأيتك تفعل هذا قال نعم اذا خرج الرجل الى اخوانه فليهيء من نفسه فان الله جميل يحب الجمال انتهى والنساء يحببن من رجالهن التزين لهن كما يحبون أن يتزين لهن قال بعض المفسرين فى قوله تعالى ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف اى يتزين الرجل للمرأة كما يحب أن تتزين له والمرأة تحب وجاهة زوجها

مطلب ان المرأة تحب وجاهة زوجها

وذكر بعض شراح المقامات أن معن بن زائدة بينما هو جالس ذات يوم اذ أتته امرأة من بنى سهم أحسن الناس وجها فقالت أصلح الله الامير ان عمى زوّجنى من ليس لى بكف فقال معن على بزوجها فأدخل عليه رجل من أقبح الناس فقال من هذه منك فقال امرأتى فقال خل سبيلها ففعل الرجل ذلك وأطرق معن ساعة ثم قال

أتيت بها مثل المهاة تسوقها * فيا حسن مجلوب ويا شر جالب
لعمرى لقد أصبحت غير محبب * لديها ففارقها فراق الاجانب

ولبعضهم

ألا رب حوراء المحاجر طفلة * تساق إلى وغد من القوم تنبال
يقولون جئنا إليه قرابة * فويح العذارى من بنى العم والخال

والوغد الرجل الدنىء والتنبال القصير ومما يحكى فى مثل هذا أن عمران بن قحطان دخل على امرأته جدة وقد تزينت له وكانت جميلة وكان عمران قصيرا قبيحا فلما نظر إليها ازدادت فى عينه حسنا فلم يستطع أن يصرف بصره عنها فقالت مالك قال أصبحت والله جميلة فقالت له أبشر فانى وإياك فى الجنة قال من أين علمت هذا قالت أعطيت مثلى فشكرت وأعطيت مثلك فصبرت والشاكر والصابر فى الجنة فخجل ونهاها أن تعود لمثل ماقالت وبالجملة فما أحسن قول من قال

مطلب محاورة جدة لزوجها عمران بن قحطان وإجماله

ليت الملاح وليت الراح قد قرنا * فى جبهة الليث أو فى قبة الفلك
كى لا يرشف من خمر سوى أسد * ولا يقبل معشوقا سوى ملك

فمشاكلة الطبع لا الطبع توجب محبة الزوجين بدون أن يكون أحدهما فى الباطن متحملا ثقلا من الآخر لاسيما النساء فانهن أشد ميلا للتزين والتبرج والتنافس فى الملاحة على طبقا لمن يمدحهن بالجمال فهذه الصفات عندهن موانع قوية من بلوغ درجة الكمال فى التربية بدليل محاورة جدة مع زوجها عمران بن قحطان وإجماله فلو كانت مؤدبة صادقة لم يسمع منها مثل هذا الكلام لان المحبة تأباه والصداقة تستره

مطلب ان مشاكلة الطبعين توجب محبة الزوجين

(الفصل الثامن)

(فى الكلام على المحبة والصداقة بين الزوجين وغير الزوجين)

مطلب اطلاق المحبة على ما يرادف العشق أو المودة وأن هناك أسبابا لحصوله وأسبابا لزواله

تطلق المحبة على ما يرادف العشق والمودة والصداقة فتعرف على الاول بانها الانجذاب الطبيعى الحاصل من تصور أوصاف المحبوب من الحسن ونحوه فيتولد العشق فجأة بدون فكر ولا نظر على حسب مزاج العاشق قوة وضعفا فقد يعشق الانسان المرأة لوسامتها أو لتبسمها أو لسماع صوتها أو لرشاقة قدها قال الشاعر

أتاح لك الهوى بيض حسان * سبينك بالعيون وبالشعور
نظرت الى النحور فكدت تقضى * وأولى لو نظرت الى الخصور

وقال آخر

صادتك من بعض القصور * بيض نواعم فى الخدور
حور نحور الى صبا * ك بأعين منهن حور

* وكأنما بثغورهن جنى الرضاب من الخمور

يصبغن تفاح الخدو * د بماء رمان الصدور

وقال آخر أيضا

ان الخدود اذا بدا توريدها * نار قلوب العاشقين تزيدها

كادت تسير مع النسيم نفوسنا * شغفا بها لولا الجفون تقودها

ثم يقوى العشق تارة بنفسه وتارة بأسباب جديدة جاذبة كما أنه قد ينقطع بأسباب نادرة كقساوة قلب المعشوق وهجره وإساءته والغيرة عليه قال الشاعر

ولقد شكرت مفارقى * اذا ساء فى أخلاقه

لو كان أحسن عشرتى * لهلكت يوم فراقه

وقال آخر

ان خلا مل منا * خلنا بالله منه

هو لا يسأل عنا * ما النا نسأل عنه

مطلب ان مذهب المحبين التمسك بعدم الشريك فى المحبة

ومما لا يسامح فيه فى مذهب المحبين التشريك فى المحبة والتبديل والتغيير فيها قال بعضهم فى المعنى الاول

تركت حبيب القلب لا عن ملالة * ولكن جنى ذنبا يؤدى الى الترك

أراد شريكا فى المحبة بيننا * وإيمان قلبى لا يميل الى الشرك

وقال آخر يخاطب من يحب

عمرك الله لا تمل لسوائى * وتحكم ولو بما فيه فتكى

وانظر الحق فى على علاه * كل شئ يمحوه غير الشرك

وما أحسن قول بعضهم من قصيدة

كم مهل خدك وجه رضى * والحاجب منك يعقده

ما أشرك فيك القلب فلم * فى نار الهجر تخلده

وقال آخر فى المعنى الثانى يخاطب محبوبته

ان كنت أزمعت على هجرنا * من غير ما ذنب فصبر جميل

وان تبدلت بنا غيرنا * فحسبنا الله ونعم الوكيل

وهذا فى معرض التشريك والتبديل وهناك إعراض يصدر عن المحبوب لمحض الدلال والخفر فليس بمذموم قال الشاعر

ايها

للبنات . (١٩٧ ا) . والبنين

أيها المعرض عنا * اننا نهوى الدلالا
أترانا قط قلنا * حسبك الله تعالى

ولعله عرض بقول الشاعر

يا رائحا بعد ما سبانى * يهديك رب السما تعالى

والغالب أن هذا المعرض الاخير قد يكون سببا لبقائه ورسوخه فمن هذا يفهم ان الحب فى مبدئه اختيارى و بعد ذلك يصير اضطراريا وذلك لان الرجل تمر به المرأة فيكون ظاهر هيئتها وشكلها مشاكلا لطبعه فتتحرك نفسه وتنبعث همته من أول نظرة فهذا لا يكون عشقا لانه يمكنه ان لا يكرر النظر فى الاوصاف فاذا كرر النظر ازداد الحب كما قيل

مطلب ان الحب فى مبدئه اختيارى و بعد ذلك يصير اضطراريا وقيل بالعكس

لا تكثرن تأملا * واحبس عليك عنان طرفك
فلربما أرسلته * فرماك فى ميدان حتفك

وقال آخر

يزيدك وجهه حسنا * اذا ما زدته نظرا

وان حصلت مخالسة أو رؤية أو حصل من المحبوب نظر تيه و إعجاب افتتن المحب بالجمال ووقع من الحب فى أسر الحبال ودخل فى عداد المحبين فلا يعد على هذا عاشقا الا بعد تلك المقدمات فكان يمكنه حسم المادة بعد النظرة الاولى فيفهم من هذا انه فى مباديه اضطرارى ثم يصير اختياريا وان شئت قلت ان ابتداءه اضطرارى واستمراره اختيارى ولذلك قال بعض العرب انه نبت بذره النظر وماؤه المزاورة ونماؤه الوصل وقتله الهجر وحصاده التجنى ويقال أيضا أول الحب النظر وأول الحريق الشرر قال بعضهم

كل الحوادث مبداها من النظر * ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم أثرت نظرة فى قلب صاحبها * فعل السهام بلا قوس ولا وتر
والمرء ما دام ذا عين يقلبها * فى أعين العين موقوف على الخطر
من سر مقلته قد ساء مهجته * لا مرحبا بسرور جاء بالضرر

وقال الاصمعى كنت فى بعض مياه العرب فسمعت الناس يقولون قد جاءت فتحرك الناس فقمت معهم فاذا جارية قد وردت الماء ما رأيت مثلها قط فى حسن وجهها وتمام

خلقتها فلما رأت كثرة تشوف الناس اليها أرسلت برقعا فكانه سحابة غطت شمسا فقلت لها لم تمنعين النظر الى وجهك الحسن فقالت

وكنت متى أرسلت طرفك رائدا * لقلبك يوما اتعبتــه النواظــر
رأيت الذي لا كلــه أنت قادر * عليــه ولا عن بعضه أنت صابر

ثم نظر اليها أعرابي وقال أنا والله ممن قل صبره

أوحشية العينين أين لك الاهل * أبالحزن حــلوا أم محلهم الســهل
وأية أرض أخرجتــك فانني * أراك من الفردوس ان فتش الاصل
ففي خبرينا ما طعمت وما الذي * شربت ومن أين استقل بك الرحل
لان عــلامات الجنان مبينة * عليك وان الشكل يشبهه الشكل

قال الاصمعي قلت هذا والله هو السحر الحلال والعذب الزلال والبدر السامي فكاني بها وقد ذكرت له الاهل ووصفت له المحل من الحزن والسهل هنالك يأتيها سعيا على الرأس لاسعيا على القدم وتكون وجناتها الحمر أحب اليه من حمر النعم انتهى يعني أن شعره أثر في قلبها فيرجى له منها الوصال

مطلب ان العشق قسمان عشق الحواس وعشق القلب

والعشق قسمان عشق الحواس وعشق القلب فعشق الحواس المجرد عن عشق القلب شهواني ينتهي بالوصال ولذة الاتصال وأما عشق القلب الذي هو العشق الحقيقي فهو حب قلبي يرسخ في النفس مادامت أسبابه التي جذبت القلب الى المعشوق راسخة فاذا عشق الانسان صفات محبوبه وكانت هــذه الصفات خيالية ومجرد استحضارات تصورية كان العشق محض خيال وتصور فاذا انجذب القلب لمحاسن وجودية ثم انقضت فان العاشق يستصحب الأصل نوعا يعني أن العقل يدرك الحقيقة ويسكت عنها فكل عاشق يمدح معشوقه بصفات الجمال الكاملة والمحاسن الشاملة وكان قد فات زمانها فانه انما يشاهدها بعين الاستحضار ويبصرها ببصيرة التذكار فاذا وصف محبوبه بما ليس فيه لاينسب الى الكذب واذا تمدح بشمائل محبوبه لا يعد من أرباب السخافة والطيش وانما عقول السامعين تقبل منه ما يقوله ولا تحكم بوجوده

مطلب ان الحب يعمي بصيرة العاشق ويشوش ذهن الوامق

وبالجملة فالحب يعمي بصيرة العاشق ويشوش ذهن الوامق ويملك روحه ويتسلطن عليها كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم الحب يعمي ويصم ومن ثم كان للعاشقين أوهام لاتحصى ووساوس لا تستقصى تجلب اليهم ملامة اللوام وعذل العواذل في جميع الوقائع

الوقائع والنوازل ومع أنه بهذه المثابة لايخلو من المثالب ولايخلص من الشوائب الا أنه يختلف فى كل انسان باختلاف طبعه واستعداده الخاص به ووضعه فيكون على حسب قابلية عقله وأصول تربيته وعقائده وعرف بلده وعوائده فيتبع طبيعة الانسان المستحكمة فيه ويطاوع ميله الغريزى فى باطنه وخافيه فقد كانت طبيعة بوادى بلاد اليونان فى قديم الاحقاب والازمان ساذجة وعوائد أهلها بسيطة وعيشتهم مستوية وأفكارهم دائما فى الراحة والاطمئنان فكانوا يحسون بالعشق احساسا لطيفا ويتظمون فيه الشعر ويتغنون به بخلاف الرومانيين فان أهل مدينة رومة دار سلطنتهم كانوا قديما أرباب زينة ورفاهية خارجة عن حد العادة واخلاقهم فاسدة فكانوا يحتفلون بالعشق الشهوانى ويطرونه وينهمكون فيه فلذلك كانت اللذات مسلطة على حواسهم فكأنهم مخلوقون الا للشهوات وما كأن الشهوات مخلوقة الا لأجلهم

وأما قدماء العرب فكانوا أشبه بقدماء اليونان فى بساطة عوائدهم واستواء عيشتهم وراحة قلوب أهلهم الا أن احساسهم بالعشق مع العفة كان عنيفا قويا لاسيما بنى عذرة الذين ينسب اليهم الهوى العذرى فكانوا غالبا شهداء العشق قتلى المحبة ولايخلو قلب أحدهم من الحب قال الشاعر

أنا أفتى إن ترك الحب ذنب * آثم فى مذهبى من لايحب
ذق على امرى مرارات الهوى * فهو عذب وعذاب الحب عذب
كل قلب ليس فيه ساكن * صبوة عذرية ماذاك قلب

حضر أعرابى بمجلس بعض الوعاظ فقال له ممن الرجل قال من قوم اذا عشقوا ماتوا فقال عذرى ورب الكعبة ثم سأله علة ذلك فقال لان فى نسائنا صباحة وفى فتياننا عفة فكان من العرب فى القديم من هو متفرغ للعشق بالذات وهم أهل البادية لعدم اشتغالهم بالعوائق ومن ثم كانوا أكثر الناس موتا وكان الفرس أيضا يرغبون فى العشق ويحثون عليه كما حكى أن بهرام جور لم يرزق سوى ولد فأخذ فى ترشيحه للملك وهو ساقط الهمة الى أن اتفق المعلمون من الحكماء وغيرهم على ان لانافع له غير العشق فسلط عليه الجوارى يعبثن به الى أن علق بواحدة منهن فأمرها الملك بالتجنى عليه وأنها لا تطلب الا رفيع الهمة وأرغبته فى العلم والملك فكان بسبب ذلك من أجل ملوك الفرس وأعلمهم قال بعضهم

مطلب ان احساس اليونان قديما بالعشق كان احساسا لطيفا لما كان فى بواديهم من الساذجية الخ وان الرومان كانوا بعكس ذلك

مطلب ان قدماء العرب كانوا أشبه شئ بقدماء اليونان فى بساطة عوائدهم واستواء عيشتهم وراحة قلوبهم الا فى العشق فان احساسهم به كان أقوى منهم

مطلب ان بادية العرب كانوا متفرغين للعشق بالذات لعدم اشتغالهم بالعوائق وان الفرس أيضا لهم رغبة فى العشق

وماسرني أني خلي من الهوى * ولو أن لي ما بين شرق الى غرب

قيل لبعضهم هلا عشقت حتى تكاتب وتراسل فقال لا فقيل له لن تفلح والله أبدا وقالت امرأة في العشق

رأيت الهوى حلوا اذا اجتمع الشمل * ومرا على الهجران لا بل هو القتل

ومن لم يذق للهجر طعما فانه * اذا ذاق طعم الحب لم يدر ما الوصل

وقد ذقت طعميه على القرب والنوى * فأبعده قتل وأقربه خبل

قال بعضهم

قرب النساء بلذناء ملسه * ويفت في عظم القوى الراسي

مثل الحلاوة للسان صديقة * لكنها حرب على الاضراس

مطلب ان للعشق مكارم اخلاق تتفرع منه وتنتسب عنه

وقال بعضهم ان أقل مزايا العشق تعليم الكرم والشجاعة والنظافة وحسن الأخلاق وذلك أن غاية العشق رضى معشوقه ورضى المعشوق اتصاف العاشق بما يوجب المدح ويحسن المرتبة في القلب وايضاح ذلك ان العاشق وان بخل جدا فلا يمكن بخله على المعشوق واذا بخل على غيره ربما أوصل الغير الأمر الى معشوقه فيجود العاشق فيؤدي الحال الى مطلق الكرم وكذا باقي السجايا المذكورة ولذلك جاء الناموس الشرعي بمطابقة القانون الحكمي كما هو شأن الشرع في غير هذا أيضا فقد روى عن ابن عباس

مطلب ان العاشق العفيف الصابر الكاتم اذا مات نال الشهادة

رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم من عشق فصبر فعف فكتم فمات فهو شهيد وشرط الشهادة الكتم والعفة والى هذا المعنى أشار أبو القاسم القشيري بقوله

ان المحب اذا توفي صابرا * كانت منازله مع الشهداء

مطلب ان الحب ليس بمستنكر في الدنيا ولا بمحظور في الشرع

قال الحافظ مغلطاي وقد أجمع العلماء على أن الحب ليس بمستنكر في الدين ولا بمحظور في الشرع قال أبو محمد بن حزم وقد أحب من الخلفاء والأئمة كثير وقال رجل لعمر بن الخطاب يا أمير المؤمنين رأيت امرأة فعشقتها فقال له عمر ذاك مالا يملك انتهى ولذلك قال الشاعر

يلومونني في حب سلمى كأنما * يرون الهوى شيئا تيممته عمدا

الا انما الحب الذي صدع الحشا * قضاء من الرحمن يبلو به العبدا

وسئل بعض الاطباء عن ماهية العشق فقال ان وقوعه بأهله ليس باختيار منهم ولا بحرص لهم عليه ولا لذة لأكثرهم فيه ولكن وقوعه بهم كوقوع العلل المدنفة

والامراض

والامراض المتلفة فلا ينبغي انكاره على من ابتلى به بل يستحب مساعدته من غير تعنيف ولا زجر كما فعله الصحابة والخلفاء الراشدون وقال بعضهم المحبة أخذ جمال المحبوب بحبة القلب حتى لا يجد مساغا للالتفات لسواه ولا يمكنه انفكاك عنه ولا مخالفة لمراده ولا وجود الاختيار عليه لوجود سلطان الجمال القاهر للحقيقة بتخلية المستفيض عليه دون اختيار منه ولا مهلة ولا روية فان مغازلة الجمال لا يشعر بها واخذته لا يقدر عليها وحقيقة مايتولد عنه لا يعبر عنها فتنتفى الاغراض وتفنى الحقائق والاعراض فلا يبقى مع غير المحبوب قرار ولا مع سواه اخبار وقد قيل ان من العناية ان تحب ويحبك من تحب ومن الشقاء أن تحب ولا يحبك من تحب كما قيل

ومالى أنصار سوى فيض أدمعى * اذا بانت من أهواه وهو مهاجرى

ويروى ان أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز وكانت من العابدات قالت لعزة مامعنى قول كثير قضى كل ذى دين فوفى غريمه * وعزة ممطول معنى غريمها

ما كان هذا الدين قالت عزة وعدته قبلة ومطلته بها فقالت أم البنين أنجزيها وعلى اثمها ففعلت ثم ان أم البنين ندمت على هذه المقالة على مايقال وأعتقت أربعين عبدا عند الكعبة وقالت اللهم انى ابرأ اليك مما قلته لعزة

لو كان للعشاق فى الحب حاكما * اتيت اليه واشتكيت مطاله

واثبت فى شرع المحبة حجة * عليه بأنى استحق وصاله

وذهب بعض المحبين الى استعذاب المطل والتسلى به عن الوصل كما قال سلطان العاشقين الامام شرف الدين ابن الفارض

مطلب ان من مذهب بعض المحبين استعذاب المطل

عدينى بوصل وامطلى بنجازه * فعندى اذا صح الهوى حسن المطل

حتى ان بعض المحبين يعد الوعد والامانى سبب الحياة ولولا ذلك لمات كما قال العفيف

لولا مواعيد آمال اعيش بها * لمت يا أهل هذا الحى من زمن

وكان ذلك يختلف باختلاف رتب المحبين فى المحبة

مطلب دعاء أبى السائب المخزومى أحد الورعين للعشاق وهو متعلق بأستار الكعبة

وكان أبو السائب المخزومى أحد القراء الورعين والظرفاء الصالحين يصلى فى اليوم والليلة ألف ركعة وقد رئى متعلقا بأستار الكعبة وهو يقول اللهم ارحم العاشقين وقو قلوبهم وعطف عليهم قلوب المعشوقين فقيل له فى ذلك فقال والله الدعاء لهم أفضل من عمرة فى رجب من الجعرانة ثم أنشأ يقول

ياهجر كف عن الهوى ودع الهوى * للعاشقين يطيب ياهجر

ماذا تريد من الذين قلوبهم * جرحى وحشو حشاهم جمر
متلذذين من الهوى ألوانهم * مما تجن قلوبهم صفر
وسوابق العبرات فوق خدودهم * درر تفيض كأنها قطر

وبالجملة فان من الانصاف التسربل بسربال العفاف فحينئذ يكون المقصود من معنى الوصل ما قابل الهجران مادام القصد انما هو تمتع النظر بحسان الشمائل وشمائل الحسان كما حكى بعضهم عن امرأة هويها وهويته أنه قال لها يوما هل لك أن نحقق ما قيل فينا فقالت معاذ الله أن أفعل ذلك وأنا أقرأ الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين وقال بعضهم

أهوى الحسان وأهوى ان أخالطهم * وليس لى فى حرام منهم وطر
فذلك الحب لا إتيان معصية * لا خير فى لذة من بعدها سقر

ولله در القائل حيث يقول

أنزه فى روض المحاسن مقلتى * وأمنع نفسى أن تنال محرما

وقلت

أقول لما بدا والكاس فى يده * وجوهر الخمر فيها مثل خديه
حسبى نزاهة طرفى فى محاسنه * ونشوتى من معانى سحر عينيه

مطلب ان أسباب العفاف فى العرب انما هو ميلهم لحفظ الناموس والشرف

وسبب هذا كله ميل العرب لحفظ الناموس والشرف فى الازمان القديمة وكذلك فى الحديثة فان دين الاسلام يمنع جميع الآثام شعر

وحلاوة الايمان من قد ذاقها * لم يخش من شرق بماء ملام

ففى الازمان المتأخرة أفكار الاهالى لاسيما فى البلاد المتمدنة متجهة صوب الشجاعة والحماسة ونظافة العرض وحفظ الناموس مع ماهم عليه من التعلق بالجمال مع الصون والكمال فيتوصلون الى جلب القلوب بالتلطف والاستعطاف وينالون من نسائهم كمال الميل والانعطاف وان اختلف ذلك باختلاف الاقطار والاقاليم جنوبا وشمالا وشرقا وغربا بل ربما رأيناه يختلف أيضا باختلاف الحكومات العادلة والظالمة وربما اختلف باختلاف مراتب الامم والدول والملل والنحل فى درجات التمدن والعمران

مطلب ان تشبيه بعض أهل الظرف العشق بالشراب يختلف باختلاف المواطن والجهات

وقد شبه بعض الظرفاء العشق بالشراب فانه يختلف تعاطيه فى المشرق والمغرب وفى البدو والحضر فالبدوى يروى منه الصدى وربما صار الحضرى بشربه معربدا

ففريق

ففريق منهما مقل والآخر مكثر وأما المتمدن المتأدب فمقتصد
قال بعضهم ان العاشق ينعشه آثار معشوقه ورؤيته فى المنام وتذكاره كما قال الشاعر

براها بعين العشق قلبي على النوى * فيحظى ولكن من لعيني برؤياها
اذا استوحشت عيني أنست بأن أرى * نظائر تصبيني اليها وأشباهها
وأعتنق الغصن الرطيب لقدها * وأرشف ثغر الكاس أحسبه فاها

وقيل

وهيفاء وافت بعد وصل والفة * وعادت الى المضنى طريح غرام
أسائلها يامن سبى القلب حسنها * متى تشتفي بالوصل منك سقامى
فقالت متى الوصل الذى كان بيننا * وأنت أخو وجد بنا وهيام
ويكفيك أن تلقى خيالى نائما * فقلت لها هيهات أين منامى

وقيل

ويوم الكثيب استشرفت لى ظبية * مولهة قد ضل بالقاع خشفاها
فما ارتاب طرفى فيك يا أم مالك * على صحة التشبيه أنك اياها

وقال كثير عزة فى ظبية

أياشبه ليلى لاتراعى فاننى * لك اليوم من وحشية لصديق
أقول وقد أطلقتها من وثاقها * فأنت لليلى ماحييت طليق
فعيناك عيناها وجيدك جيدها * ولكن عظم الساق منك دقيق

وقال آخر

يامن سبى أنفس البرايا * بما بجفنيه من فتور
أشبهك الظبي فى ثلاث * فى اللحظ والجيد والنفور

وقال آخر وتشطيره لمؤلفه

بالله ياظبيات القاع قلن لنا * هل استعرتن من ليلى بها الحور
فقلن منها فقلت الجنس مختلف * ليلاى منكن أم ليلى من البشر

وقال بعضهم فى التذكار

مطلب تذكار آثار الاحباب

وجرت أحاديث الحمى فكأنما * دارت هنالك عندذاك كؤوس
ياسائق الوجناء الاعدت لى * ذكر الحمى كمايز ول البوس
وعمى بذكرى أهله وأثيله * ترتاح أرواح لنا ونفوس

واذا القصائد طرزت بمديحه * يوما فعقد نظامهن نفيس

وقال آخر

عد للحمى ودع الوسائل * وعن الاحبة قف وسائل
فالدمع من فرط البكا * ء عليهم بحر وسائل
واسأل مراحمهم فهن لكل محروم وسائل

وقال آخر

واحزنى من قولها * خان عهودى ولها
وحق من صيرنى * عبدا لديها ولها
ماخطرت بخاطرى * الا كستنى ولها

وقال آخر

وبالجذع حى كلما عن ذكرهم * أمات الهوى منى فؤادا واحياه
تمنيتهم بالرقتين ودارهم * بوادى الغضى يا بعدما أتمناه

مطلب ان العاشق يغلب عليه الضعف

والعاشق يرى دائما مصفر اللون نحيف الجسم أدق من خلال وأخفى من طيف خيال ويعهد منه المحبوب وغيره ذلك كما قال بعضهم

تقول لما رأتنى * نضوا كمثل الخلال
هذا اللقاء منام * وأنت طيف خيال
فقلت كلا ولكن * أساء بينك حالى
فليس تعرف منى * حقيقتى من محالى

مطلب ان بعض قدماء الامم صوّر العشق بصورة امرأة بديعة الجمال

وشبه بعض النساء العاشق المهجور بالورد الذابل الذى ذهب زهوه وبقيت رائحته من باب (يبلى القميص وفيه عرف المندل) وصوّر بعض قدماء الامم العشق بصورة امرأة بديعة الجمال ظريفة الشكل كاملة الاعتدال يخضع لها جميع العشاق ويتخذها أرباب الاشواق وتميل اليها كافة الاذواق وتهواها الارواح والنفوس فهى فى فكرة كل انسان كالعروس يصفرّ وجه من أمعن النظر فى ورد خدها الاحمر كما قيل

يصفرّ وجهى اذا تأمّله * طرفى فيحمرّ وجهه خجلا
حتى كأنّ الذى بوجنته * من دم قلبى اليه قد نقلا

وقريب منه قول ابن النبيه

الليل من شعوره مسبل * والشمس من طلعته تطلع
تزرع عيناى على خده * وردا ولا أجنى الذى أزرع

وقول آخر

ألحاظكم تجرحنا فى الحشى * ولحظنا يجرحكم فى الخدود
جرحا بجرح فاجعلوا ذا بذا * فما الذى أوجب جرح الصدود

ومما ينبغى أن يكون الحب الموجود فى قلب المرأة والرجل بعضهما البعض عبارة عن وداد خالص وصفاء فؤاد خلى من تجربة الغرام مشوب بحرارة الشبوبية فى غالب الاحوال فتى تمكن الحب فى قلب كل منهما جميع وسائل اللذة توجد فيهما فالمحبة هنا مشوبة بالصداقة الاكيدة كما قال بعضهم

مطلب انه ينبغى أن يكون الحب بين المتحابين ودادا خالصا صافيا من الشوائب

غرضى من الدنيا صديـ * ـق لى صدوق فى المقة
يرعى الجميل وعينه * عن كل عيب مطرقة
واذا تغير من تغيـ * ـر كنت منه على ثقة

وقال آخر

اذا ما صديق أسا مرة * وقد كان فيما مضى مجملا
ذكرت المقدم من فعله * فلا ينقض الآخر الاولا

وقال آخر

وكنت اذا الصديق أراد غيظى * وأشرقنى على حنق بريقى
غفرت ذنوبه وصفحت عنه * مخافة أن أعيش بلا صديق

مطلب ان الصداقة بين الاهل من نتائجها كمال الاتحاد

فالصداقة هى التى ينتج عنها بين الرجل وأهله كمال الاتحاد والائتلاف فى جميع الحركات والسكنات والاحوال والاطوار مع ما ينشأ من ذلك من تقوية الجذب بالمسامرة والمحادثة والتبسم واظهار التلطف والتعطف من كل ما يؤثر فى النفس تأكيد المحبة فتستحيل الى عشق الشمائل المعنوية التى تبقى فى المرأة دائما وأبدا فتخلف الجمال الظاهرى الزائل وانما يستحضر فقط ما كان عليه المعشوق حتى ان بعض الرجال يرى زوجته بالعين التى رآها بها يوم عرسها فان المرأة لا ترضى أن تتنازل عن الوصف بصفة الجمال أصلا ولا تتعلق بزوجها غاية التعلق الا اذا فهمت منه ذلك وهذا فى حق النساء الكاملات واما النساء من حيث أنوثتهن فقل منهن من يتوقعن تمييز رجالهن لهن ولا وفاءهم لهن ولا ينوين الوفاء والصداقة كما قال بعضهم

ومن صفات النساء قدما * أيدس فى الود من صفاة
وما يبين الوفاء الا * فى زمن الفقد والوفاة

يعنى أن النفس تأسف على مافات قال من أسف على فراق الاحباب

قل لمن نحو أرضكم مدّعينا * وادّعى فى هواكم ماادّعينا
أين آثار عهدكم ان دمعى * مثل صوب الوادى اذا مدّعينا
لو تحلت حور الجنان لطرفى * كف كفى عنهن مامدّعينا
لو ترا آى يوما السلب قلوب * ورآه العذول ارمد عينا

مطلب ان من صفات الكمال بين الزوجين ان يحترم كل منهما الآخر وان ينظر اليه بعين الكمال

وكما ان الرجل الكامل يرى زوجته بعين الاجلال والاحترام كذلك الزوجة الكاملة المتحببة الى زوجها الا ترى أن فى الدنيا رجلا يساوى زوجها وربما أحبته حبين حبا لذاته وحبا لحقوق الزوجية فهذه هى المحبة الراشدة جليلة الفائدة المنزهة عن الهوى وهى لداء الشقاق فى العائلة كالدوا

لم يبق لى أمل سواك فان يفت * ودّعت أيام الحياة وداعا
لا أستلذ لغير وجهك منظرا * وسوى حديثك لا أريد سماعا

فمن ذلك يعلم أن الواسطة الوحيدة فى استدامة الود بين الزوجين ولو فقدت المحاسن الظاهرية هى وجود الاحترام والاجلال بين النساء والرجال وهناك شروط مؤكدة وأسباب لدعائم المحبة موطدة وهى أن يجتهدا فى تحببهما لبعضهما حبا تامّا وأن لا يذم أحدهما الآخر فى غيبته وأن لا يغضبا فى وقت واحد وأن لا يكلم أحدهما الآخر بصوت عال وأن يخضع كل منهما لارادة الآخر الرجل بالحب والمرأة بالطاعة وأن لا يلوم أحدهما الآخر على زلة مالم يتأكد وجودها فيه وأن لا يلوم أحدهما الآخر على خطأ ماض وأن لا يحوج احدهما الآخر الى تكرار الطلب فى حاجة وأن يتمسك أحدهما بالآخر ولو كلفه فوات كل من سواه وأن لا يبكت أحدهما الآخر وأن لا يفارق احدهما الآخر ولو يوما واحدا من دون أن يودّعه بكلمة محببة لكى يتفكره بمامدة الغياب وأن لا يلتقيا من دون ترحيب وأن لا يدعا الشمس تغرب على غضب او زلة وأن لا يدعا زلة ارتكباها تمضى من دون اقرار بها وطلب السماح عنها وأن لا يتأوها على مافات بل يرضيان بما يوجد وأن يجعلا الصدق دأبهما فى معاملة احدهما الآخر وأن لا يقول الزوج للزوجة كانت

المرحومة

المرحومة كذا وكذا ولا الزوجة للزوج كان المرحوم كذا وكذا اذا كانت زيجتهما بعد الترمل

فهذه النصائح لا ينبغي للزوج أن يزدرى بها لانها موجهة الى الزوجة ولا للزوجة أن تستهين بها لانها موجهة الى الزوج واتباعها هو من اكبر أسباب الراحة فى العائلة وهى توجب كون الزواج انما يكون بين قوم يراعون الحقوق العمومية التى لكل من الزوجين على الآخر والا فلا فائدة لها بالنظر اليهم الا فيما ندر

(الباب السادس فى أسباب عمارية البيوت والمنازل وما يترتب على حسن تربية النساء من الفضائل وفيه فصول)

(الفصل الاول فى الاجتماعات من حيث هى وعلى الخصوص اجتماع العائلة)

مطلب الاجتماعات الخاصة والعامة ومشروعيتها شرعا

لما كان الانسان مدنيا بالطبع مستأنسا بالوضع وسمى انسانا لأنسه وائتلافه مع أبناء جنسه جعل الشارع للهيئة التأنسية الاجتماعية محافل جامعة ومجامع عمومية فسن الجماعة فى الاوقات الخمس ليتم التأنس بين اهل الاعيان فى اليوم والأمس وفرض الجمعة فى يوم الجمعة من كل أسبوع وجعل صلاة العيد فى كل عام من الاجتماع العام المشروع وندب لصلاة الكسوفين والاستسقاء جماعة الناس عسى أن ينتفعوا جميعا باستجابة دعاء الأتقياء وفرض الحج والاعتمار ليجتمع على الشعائر الاسلامية فى حرمه الشريف جمع من سائر الاقطار وأوجب فى وليمة العرس إجابة الدعوة لتجديد مجامع الانس بين اهل النخوة وقضى بين اصحاب الاحوال والاوضاع وأرباب الاخلاق السليمة والطباع أن يجتمعوا للأذكار مع حفظ الحشمة والوقار ولم ينه عن مجامع الألعاب المشتملة على الرياضة التى لا تعاب ولا عن المحافل والمواكب المؤذنة بتبجيل أولى المناصب والمراتب ثم استحسنت بعد ذلك الاحتفالات للموالد السلطانية لاسيما مولد أشرف البرية فى المدائن والقرى لما يبذله فى ذلك اهل الخير من الكرم والقرى

ولذلك قال بعض اكابر الصوفية ان الله سبحانه وتعالى لما أراد أن ينشئ صورة آدم من زمن تقادم ابتناها على صورة مدينة محكمة المبانى وأتقن فيها ما يدل على قدرة البانى وحرك فيها مثالث ومثانى تشير بأنه ليس له ثانى ثم نصب وسط هذه المدينة قصر المملكة وسماه بالقلب إذ هو بيت الرب وفيه اليمن والبركة ومنه ينشأ

السكون والحركة وجعل مدارهذه المدينة عليه ومرجع الكل اليه بمصداق ألاوإن فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب ووضع سبحانه وتعالى فى هذا القصر سرير العز والسلطان وأجلس عليه ملكا يقال له الايمان وبث الجوارح فى خدمته كالغلمان فقال اللسان أنا الترجمان وقالت العينان نحن الحارسان وقالت الأذنان ونحن الجاسوسان وقالت القدمان ونحن الساعيان وقالت اليدان ونحن العاملان وقال الملكان ونحن الكاتبان وقال صاحب الديوان كما تدين تدان ثم اتخذ الملك لنفسه وزيرا وهو العقل فقال الوزير أيها الملك لا بدلك من خاصة تصطفيهم لنفسك خلاصة يؤثرونك على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة فأول ما تحتاج الى تاج وهو الولاية والى معراج وهو العناية والى دليل وهو الهداية ثم لابدلك من مركوب وهو الصدر ومن حلة وهو السكينة ومن صاحب وهو العلم ومن بواب وهو الورع ومن سياف وهو الحق ومن كاتب وهو المراقبة ومن سجان وهو الخوف ومن ميدان وهو الرجاء ومن سراج وهو الحكمة ومن نديم وهو الفكر ومن خزانة وهو اليقين ومن كنز وهو القناعة ومن صاحب بريد وهو الفراسة ثم تنظر أيها الملك فى رعيتك بعين الرحمة وتفتح لهم خزائن النعمة وتعدل بينهم فى القسمة وتبعث لكل واحد قسمه ليقيم بذلك رسمه فقال الملك انظر أنت فى الرعية وأزل عنهم الشكية وتول تفرقة الجامكية فقالت اليدان على جمع الآلة وقالت الأسنان وأنا أطحن وأعزل النخالة وقال الريق وأنا أعجن وأتولى الى المعدة ارساله وقالت المعدة وأنا أطبخ ولا أريد على ذلك جعالة وقال الكبد وأنا آخذ ماصفا وأترك الحثالة وقالت القدرة وأنا أتولى تفرقتها وقسمتها بالعدالة فأبعث لكل عضو ما يطيق احتماله فلما فرقت الجامكية نقدا لا حوالة صحح الملك أحواله فقال الوزير ما بعد النفقة الا العرض وأداء الفرض فناد فى جيشك بالطول والعرض لينذر البعض منهم البعض قبل أن تبدل الارض غير الارض فنادى مناديه فى ناديه يامعشر الرعية ان الملك قد أقسم بالألية ان من عدل عن الطريق بالسوية وكفر نعمة العطية وأنفقها فى الخطية فقد أفسد النية ونقض الأمنية وأولئك هم شر البرية ألا وإن للملك عدوا قد سكن جواره يقال له النفس الأمارة قد نازعته الامارة واستنصرت عليه بالدنيا الغدارة

وظاهرها

وظاهرها الهوى وبعث اليها انصاره وجاءها الشيطان وكتبت له منشور الوزارة وقد شنوا في أرض الملك الغارة فيا خيل الله اركبي ومن الأعداء فلا تهي فركب الملك عن يساره خوفه وعن يمينه رجاه ومقدمته توكله وساقته النجاه متحملا اثقال إياك نعبد متمسكا بأذيال و إياك نستعين فلما فصل بجنوده الى معبوده بصدق النية نادى مناديه في ناديه ان الله مبتليكم بنهر الدنيا الدنية فمن شرب منه فليس مني ومن عوّل عليه فليتنح عني فقال أهل الضرورة لا بدّ لنا من اقامة الصورة فجاءت مروحة الراحة بالاباحة إلا من اغترف غرفة بيده فأمّا من عدم الفطنة ووقع في شرك الفتنة فشربوا وطربوا فلما قابلهم القوم قالوا لا طاقة لنا اليوم فقال الذين صبروا ابتغاء وجه الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله فالتقيا بجيشيهما في مجمع بحريهما هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج فكان التوكل موكلا بالحرص والزهد محاذيا للدنيا والتواضع مدافعا للعجب والاخلاص ماحيا للرياء والتقى منافيا للدعوى والخوف موافقا للهوى والتسبيح والتقديس في محاربة ابليس فتقدّم حزب الله وشعارهم اللهم بك إقدامنا فثبت أقدامنا فانا لا ندري ما قدّامنا فهزموهم باذن الله وما النصر إلا من عند الله وأصبحت منازل الهوى والنفس كأن لم تغن بالأمس ومازالت النفس بأسرها في أسرها حتى انصفت بكسرها واعترفت بخسرها وناداها من له المنة يا أيتها النفس المطمئنة انتهى

ولما كان الانسان من أصل خلقته في شكل مدينة عامرة كان مدنيا بالطبع تميل افراده الى الائتناس والاجتماع وأصل الجمعيات الانسية الحائزة لأوفر خير وأوفى مزية جمعيات العائلات والعشائر التي هي الى حسن العمران أفضل أشائر وبالخير العاجل والآجل اكمل بشائر وهي أولى الاجتماعات والأولى بالانتفاعات بل هي دلائل الخيرات وأمائر المبرات ولا تكتسب الاحسن تربية الآباء والأمهات تتوارث كابرا عن كابر وتنتقل من الأصاغر الى الاكابر وأساسها صلاح القرين والقرينة متى صدقت بينهما المحبة المتينة لاسيما المرأة الصالحة التي هي لزوجها ريحانة طيبة الرائحة ويقال أحسن زوجين في الاسلام عثمان بن عفان ورقية بضعة سيد الانام وأمّا جمع علي بفاطمة فهو أصح الجموع السالمة

وأصل تشبيه النساء بالرياحين قول الامام علي رضي الله عنه لا تملك المرأة من أمرها ماجاوز نفسها فانها ريحانة وليست بقهرمانة

مطلب المقصود من تشبيه النساء بالرياحين وان الاصل فيه قول علي كرم الله وجهه

وقال بعضهم وقع خالد بن يزيد بن معاوية يوما فى عبد الله بن الزبير يصفه بالبخل وزوجته رملة بنت الزبير أخت عبد الله حاضرة فأطرقت ولم تتكلم بكلمة مع زوجها خالد بن يزيد فقال لها خالد مالك لا تتكلمين أرضى بما قلته أم تنزها عن جوابى فقالت لا هذا ولا ذاك ولكن المرأة لم تخلق للدخول بين الرجال وانما نحن رياحين للشم والضم فما لنا والدخول بينكم فأعجبه قولها فقام فقبل بين عينيها وحكى ابن الجوزى فى كتاب الاذكياء قال مر شاعر بنسوة فأعجبه حسنهن فأنشأ يقول

ان النساء شياطين خلقن لنا * نعوذ بالله من شر الشياطين

فأجابته احداهن بقولها

ان النساء رياحين خلقن لكم * وكلكم يشتهى شم الرياحين

فلله درها حيث كان قولها أقرب لما فى الآية الشريفة فقد قال تعالى فى مقام الامتنان ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون

وروى أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله الرجل يتزوج المرأة لا يعرفها ولا تعرفه فلا يكون الا ليلة حتى لا يكون شئ أحب اليه منها والهما منه فقال صلى الله عليه وسلم تلك ألفة الله وتلا قوله سبحانه وتعالى وجعل بينكم مودة ورحمة ومع ذلك فقد يكن أيضا فتنة فقد روى البخارى عن اسامة بن زيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تركت فتنة أضر على الرجال من النساء

ومما يحسن هنا إيراده ما ذكره بعضهم فى مقامة أدبية تحاور فيها مع بعض الاتراب والامثال وهى مبنية على طريق المثال والخيال كشف فيها عن وجه الحسن القناع وجمع فيها من الذم والمدح لصفات النساء على طبقاتهن ما انعقد على حسنه الاجماع ونصه بتصرف يسير ولا ينبئك مثل خبير قال فقلت له لقد قدمت فى كلامك ان المتيم من صيره الحب مملوكا وان كان ملكا فكيف قال السلطان محمد بن الاحمر الاندلسى فى أحد جواريه

أيا ربة الخال التى حسنت هتكى * على أى حال كان لا بد لى منك

فاما بذل وهو أليق بالهوى * وإما بعز وهو أليق بالملك

فقال لقد خطأه الصلاح الصفدى فى قوله هذا ورد عليه بقوله

تمسك بذل فهو أليق بالهوى * لتنتظم مع أهل المحبة فى سلك
متى لاق بالعشاق عز وسطوة * كأنك من ذل المحبة فى شك

وقد انتصر ابن حجر فى شرح بانت سعاد لابن الاحمر ورد على الصلاح الصفدى فيما اعترض به عليه وأنكر حيث قال

اذا لم يكن وصل من الحب مسعف * وأمسيت تحت الضيق فى الحب والضنك
ولم تستطع صبرا على الذل والهوى * فبالعز وصل الخود أولى من الترك

فقلت فى كلام ابن حجر ما يقتضى عدول المحب عن الذل الذى هو مقامه وقد فاته كالصلاح الصفدى قصد ابن الاحمر ومرامه لان ابن الاحمر قد أشار الى مرمى أخفى من السها وأبعد من سدرة المنتهى وهو أن كل شخص اذا أحب آخر فلا بد أن يحبه الآخر بمقدار ما احبه فكل من المحب والمحبوب محب من وجه ومحبوب من آخر فاذا طلب المحب وصل حبيبه من حيث كونه محبا طلبه بذل وهو أليق بالهوى واذا طلبه من حيث كونه محبوبا طلبه بعز وهو أليق بالملوك وهذا مما كشف الله لى عنه فى هذا الوقت الغطا وصير فهمى اليه أهدى من القطا ومما يشهد بميل المحبوب الى المحب حديث ان أحدا جبل يحبنا ونحبه واذا كان الجماد يميل الى من يحبه طبعا فما بالك بالانسان الذى هو أشرف افراد العالم قطعا وأما قولهم المحبوب لا يملك فرادهم لا يملك من وجه كونه محبوبا فلا ينافى أن يملك من وجه كونه محبا كثيبا وقد أشرت الى ذلك بقولى

سأطلب وصل الحب فى كل حالة * لأبلغه من غير ريب ولا شك
فاما بكونى عاشقا ذا صبابة * فأطلبه بالذل فى الوسع والضنك
وإما بمحبوبيتى أطلب اللقا * بعز وذاك العز أليق بالملك

فقال والله ما سمعت أذناى أحق بالصواب من هذا التحقيق ولا أدق ادراكا من هذا التدقيق فلا عدمتك رياض الادب التى أنت غيث خضرتها وأبكار المعانى التى أنت أبو عذرتها فقلت أيها الشيخ حيث حلبت أشطر المحبة ولم تدع فى ضرعها من داعى اللبن لغيرك وزن حبه فاخبرنى أيها اليعسوب والبحر الخضم اليعبوب بألطف جواب اتفق لك سماعه من محبوب فقال مما اتفق لى أننى كنت شغفت بجارية كانت مياه الحسن فى جميع أعضائها جارية قد قرنت بجمالها عذوبة الالفاظ وقرأت ما فى ضمائر الناس من الالحاظ وكانت مع شغفى بحبها قد تمكن حبى من حبة قلبها

وكانت كأنها اللبوة اذا سطت والقطاة اذا قطت والظبية اذا التفتت أوعطت لها ردف مقعد وندى مقعد وبنان يكاد من اللطافة واللين أن يعقد فاشتهيت يوما ان ارتضع لى ثغرها المعسول فقالت لاسبيل لما أردت ولا وصول فقلت بأبى أنت وأمى كيف تبخلين على هذا المريض بدوائه وتحولين بينه وبين شفائه فقالت أيها المغرم الكئيب والاريب الاديب أما علمت أن المراضعة تحرّم المباضعة فقلت يا قرّة العين ولكن التحريم مشروط بعدم بلوغ الرضيع حولين فقالت يا شقيق النفس أما أنت ابن أمس على ان الحب أضعفك حين ألقاك فى كل هوّه فأنت ما بلغت حولا ولا قوّة فقلت لها وعلى تسليم ما اليه السيدة تذهب فأقول إنى شافعى المذهب وعندى لا تحريم الا بخمس رضعات بشرط كونها متفرّقات فقالت والله ان مذهبك لواسع الحضرة وقد سمحت لك بشربة من رضابى فاياك ان تتبع الشربة بالجرة * وقد اتفق لى مع جارية أخرى ماهو أعذب من هذا واهنأ وأمرا وقد كنت همت بها هيام توبة فى ليلى و جميل فى بثينة وعروة فى عفرا وكان قد وخطنى المشيب وبلى ثوب شبابى القشيب وكانت ذات خدر لا ذات بعل وهى لكل جمال وكمال أهل فطالت بينى وبينها الصحبة وعرّضت لها يوما بالخطبة فتألمت منها وتغافلت عنها ثم دعتنى يوما بلطافتها الى ضيافتها فلما وصلت الى دارها العامرة بمحاسنها الباهرة تلقتنى بالترحيب والتأهيل والتعظيم والتبجيل وأقبلت علىّ بحديث لو سمعه الميت لعادت اليه الحياه أو الظمآن لاكتفى به عن زلال المياه فلما حضر وقت الطعام مدّت لنا مائدة الاكرام فتأملت مافيها من الازواد فلم أرفيها غير ضباب مقلية وجراد فسئمت نفسى من ذلك وغثت واشمأزت وجاشت وخبثت فلما رأت أن طبعى من ذلك قد نفر قالت بسم الله هلم الى ما حضر فقلت ان على صيام يوم من رمضان هذا العام وقد نويته الليلة البارحة قبل المنام وانما أجبت السيدة المصونة لدعوتها امتثالا لامرها وحفظا لحرمتها فقالت لا والله وانما أظنك استقذرت ماقدمته اليك ولو علمت منك ذلك لما كلفتك لما يشق عليك فكيف تتقذر من أكله وأنت معتقد لطيبه وحله فقلت يا سيدتى ما كل حلال يشتهى ولا كل ما يشتهى حلال والغزال مع ظرفته يأكل الحنظل و يشرب الماء الملح ولا يشرب العذب الزلال فقالت الآن برح الخفاء وذهب الجفاء فدع الاعتساف واحكم بالعدل والانصاف والعدل أن تعدل عن الهوى عدالك عن غير جنسك وتحكم للغير كما تحكم لنفسك

فعند

فعند ذلك زال الشك والريب وعلمت أنها تعرض بكراهة نكاحي لكراهتها للشيب فنهضت من عندها والقلب كالجفن منكسر والدمع كالغيث ينهمر أعثر في ذيول الخجل وآسف على خيبة الامل وها أنا الى الآن كلما ذكرتها ينكسر فؤادي ويذهب رقادي وتطول حسرتي وتزيد زفرتي ثم قال وأنت فاخبرني بألطف جواب سمعته من الاحباب فقلت مما اتفق لي انني استنهضت يوما همة رئيس من السودان في حاجة عجزت عن قضائها أعيان الزمان فقضاها في أسرع من مضغ تمرة وحلب شاه ومن وميض البرق وانحدار المياه فتوجهت الى محله لأشكره على حسن فعله فلما رأيته قلت له ماذا أقول في مدحكم من بليغ الاقوال ومنكم لقمان الحكيم و بلال وحسبكم من الفخر أنتم ومن كان من أمثالكم ان الله تعالى لا يكمل حسن الحور العين الا بسواد بلالكم فقال الاسود مع شهرته بفرط الذكاء بين العباد كيف يكمل الله تعالى حسن الحور العين بذلك السواد وكان هناك غلام قد راهق البلوغ وأخجل الورد والبدر حتى ظهرت فيهما حمرة الخجل هذا حال الخروج من الكمام وذلك حالة البزوغ كأن رضابه العسل وقوامه العسال يشهد فتك ألحاظه بأنه أسد ومسك خاله بأنه غزال قد جمع ثغره بين الشهد والرحيق والدر والعقيق كما جمع غصن قده بين التفاح والرمان والورد والريحان والماء والنار والمطوق والهزار تشرق الشمس من وجهه والبدر من صدره ويود الهلال أن يكون قلامة ظفره تبيه يترك قس البيان سطيحا ويرى الكناية والاشارة والايماء تصريحا لو رأته النسوة اللاتي قطعن أيديهن لجمال يوسف بن يعقوب لعدلن عنها الى تقطيع الاكباد والقلوب يغار من خاله قلب الشقيق ويعلو حاجبه على العيون علو الاحرار وهو الاسود الرقيق فلما رأى تعجب ذلك الاسود من تكميل حسن الحور بسواد بلال واستغرابه لذلك الامر والحال قال له ياسيدي لا تعجب من ذلك فهو أيسر مراد للباري ومقدور وذلك بأن يجعل سواد بلال شامات تفرق في خدود الحور فلما سمع الاسود منه ذلك نعق من طربه نعقة الغراب وقال له أعيذك من عيون الحاسدين بآيات الكتاب فما سمعت أذناي ألطف من هذا الجواب ومثل ذلك ما اتفق لي مع محبوب أجمل من هذا في وصفه وأكثر منه في رقته ولطفه وذلك أنني جالسته يوما وأطلت معه الجلوس وتمتعت منه بما يميت الهموم ويحيى النفوس ثم أطلعت ساعة لأنظر فيها الى ما مضى من أجزاء النهار في مجالسته واغتنام رقائقها فأخرج الآخر من عبه ساعة وصار يتأمل

فى دوائبها فقلت له أقسم عليك بالذى جعل اللحاظ سيوفك والرمح السمهرى قدك الا أخبرتنى بما عندك فقال عندى مثل ماعندك فعندذلك رغبت فى اقترابه وذهلت من سحر جوابه فقال الشيخ ماسمعت ألطف من هذين الجوابين المرقصين المطربين وتالله لا يكمل جمال الانسان الا اذا كان فصيح اللسان وماالمرء ذاتاته فصاحة اللسان الاصورة ممثلة أو بهيمة مهملة واللطيف لا يؤثر فيه الاسحر البيان لامافى الصور من الاتقان وألوان الدهان قال سيدنا الشيخ الاكبر والكبريت الاحمر الشيخ محي الدين بن عربى بلغنى الله به أربى

أحب مليح الحس ليس ببارع * جمالا ولا أهوى المليح بلاحس
عليك تصاوير الكنائس لذ بها * اذا كنت ميالا الى الصور الخرس

وحكى أن حكيما مر بمليح فاستنطقه فلم يحمد منطقه على مافيه من المحاسن بل قال نعم البيت لو كان به ساكن يشير بذلك الى ان السر فى السكان لا فى الاماكن فقلت بالله أنشدنى بعض غزلك أونسيبك ليكمل عقد سرورى بفرائد تغزلك وتشبيبك فقال والله انى لا أحفظ من كلامى غير النزر اليسير ولم يحضرنى الآن منه غير مقطوعة جاش بها الضمير وهى قولى

بأبى التى أمست تشير الى * قومى بأن يصغوا الى ملحى
بيد من الجمار معصمها * وأنامل تروى عن البلح

فقلت أعيذك بالله من شر البغاة والغواة فافدنى هل كان البلحى من الرواة فقال نعم هو أبو العباس أحمد بن طاهر بن محمود من رواة الحديث الذين امتازوا معقولا ومنقولا ذكره ابن نقطة فى كتاب الاستدراك الذى استدرك فيه مافات ابن ماكولا فقلت وأنا أنشدك بيتين من غزلى الحديث وجهت فيهما بذكر راو من رواة الحديث ثم أنشأت أقول

عصفور قلبى رماه الحب فى قفص * من الضلوع فلم يبرح من الدورى
وقد أخذت حديث الحسن عن رشأ * ورود وجنته تروى عن الجورى

فقال نعم الجورى شيخ النيسابورى (رجع) وروى مسلم عن أبى سعيد الخدرى قال ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون فاتقوا الله واتقوا النساء فان فتنة بنى اسرائيل كانت فى النساء قال بعضهم يجب على العاقل أن ينظر ثلاثة أشياء بعين ثلاثة وهى أن ينظر الفقير بعين التواضع لا بعين التكبر وأن ينظر الى

الى الاغنياء بعين النصح لا بعين الحسد وان ينظر الى النساء بعين العفة لا بعين الشهوة وقال الاسود الخاقاني وقد عتبته امرأة على هوى له

ويك ان الملام يغرى الملوما * ليس جرمي كما زعمت عظيما
إن أكن عاشقا فلم آت الا * ما أتته الرجال قبلي قديما
انما يكثر التعجب ممن * كان من فتنة النساء سليما

فلذلك قال صلى الله عليه وسلم كما رواه البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما لا يخلون رجل بامرأة الا مع ذى محرم انتهى ومن المعلوم انه لا أنفع لا من فتنة النساء من العفاف والتصون ورجاء الثواب لمن منع النفس عن هواها

(الفصل الثانى فى العفة وأمانة الزوجين وصدقهما فى المحبة)

العفة التى هى أمانة كل من الزوجين لصاحبه فضيلة دقيقة تفيد أن لا يصدر من أحد الزوجين ما يخدش صداقته للآخر وفى الحقيقة وجود هذه الفضيلة ينبغى أن يحرص عليها ولو كانت عزيزة وقل من يتصف بها فى أعلى درجات كمالها مع دقة النظر اللازمة لذلك فهى عفة معنوية وهى أساس روابط الجمعية البشرية لأن عقد الزواج بمجرد انتهائه رابط أحد الطرفين بالآخر ومشروط فيه الامانة ضمنا على الوجه الذى قضته الحكمة الالهية فتقصير أحد الزوجين فى تأدية حقوق الزوجية يعد مضادا للامانة الواجبة على كل من الزوجين على حد سواء وبالنظر للعرف يقتضى أن تكون الامانة فى المرأة آكد وان كانا مشتركين فيها وسبب ذلك أن عوائد جميع البلاد وطبائع جميع المدن وعرف أرباب السياسة والدول والملل كل ذلك يقضى بأنه لا يليق من النساء الا كمال الصيانة والعفة وسلوك سبيل الحياء أكثر مما يطلب من الرجال فان الحياء ممدوح وعدمه مذموم وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم ان الله اذا أراد أن يهلك عبدا نزع منه الحياء (أى لا يستحى من الله أو من الخلق أو منهما) فاذا نزع منه الحياء لم تلقه إلا مقيتا (بكسر الميم وكسر القاف المشددة فعيل بمعنى فاعل او مفعول من المقت وهو أشد الغضب) وقد قال صلى الله عليه وسلم ان لكل دين خلقا وخلق هذا الدين الحياء

مطلب فى أن الامانة فى الزوجة آكد منها فى الزوج كما يقتضيه العرف وفى مدح الحياء وذم عدمه

وقال الشعبى رحمه الله تعالى حلية الرجال السماحة والفصاحة وحلية النساء العفة والقناعة وعند العرب افضل النساء أطولهن اذا قامت وأصدقهن اذا قالت التى

مطلب ان الحياء نوعان نفساني وايماني وان خلع ثوب الحياء من المرأة علامة قوية على خدش ما ائتمنت عليه من حقوق الزوجة وحفظ نسب الذرية

اذا غضبت حلمت واذا ضحكت ابتسمت التي تلزم بيتها ولا تعصي بعلها العزيزة في قومها الذليلة في نفسها وقال بعضهم الحياء نوعان نفساني وهو المخلوق في النفوس كلها كالحياء عن كشف العورة بحضرة الناس وإيماني وهو الامتناع عن فعل ما يذم شرعا خوفا منه تعالى انتهى وقال صلى الله عليه وسلم ان الله يحب الحيي الحليم ويبغض الفاجر البذي فالمرأة متى خلعت ثوب الحياء فكأنها تنازلت عن سلوك سبيل العفاف والصون حيث ان خلع ثوب الحياء منها علامة قوية على نية خدش الامانة التي يترتب عليها من العواقب الوخيمة ما لا نهاية له فان الله سبحانه وتعالى اقتضت حكمته الربانية وضع النسل في بطون الامهات فلا يباح للنساء هتك حرمة هذا النسب فاذا تخلت المرأة عن العصمة فربما دست في العائلة ما ليس منها فلا تكون أعضاء العائلة في الواقع ونفس الامر بينهم قرابة حقيقية ينبني عليها صدق المحبة بينهم بل يكونون في الحقيقة أباعد وكالاعادي الذين عداوتهم كامنة فالمرأة في هذه الحالة انما تسعى بينهم في التوادد الظاهري وهي في الحقيقة أعطت العائلة عدوا في ثياب صديق فالواجب على الزوجين أن يعيشا على الامانة كما يقتضيه عقد الزواج وبالجملة فينبغي أن يتمسك كل منهما مع غاية الدقة والانتباه بفضيلة الامانة التي يترتب عليها صحة النسب فبهذا تمتنع الوساوس والشك والحيرة وطهارة الانساب في العشيرة ويجمع العفة والتصون آية وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن فقد نهيت المرأة أن تنظر الى غير زوجها كما أن الرجل كذلك لصدق المحبة وما أحسن قول بعضهم

قالت لطيف خيال زارني ومضى * بالله صفه ولا تنقص ولا تزد
فقال خلفته لو مات من ظمأ * وقلت قف عن ورود الماء لم يرد
قالت صدقت وفاء الحب عادته * يا برد ذاك الذي قالت على كبدي

وقال آخر وفيه لزوم ما يلزم

واحزني من قولها * خان عهودي ولها
وحق من صيرني * وقفا عليها ولها
ما خطرت بخاطري * إلا كستني ولها

وقد سبقت هذه الابيات ومن حافظ على وفاء العهد وصدق المحبة لابنة عمه ابن زريق الكاتب البغدادي قال يخاطب المنزل

في ذمة الله من أصبحت منزله * وجاد غيث على مغناك يمرعه

من عنده لي عهد لا يضيع كما * عندي له عهد صدق لا أضيعه

وهذان البيتان من قصيدته المشهورة التي قالها بعد أن قصد أبا الخير عبد الرحمن الاندلسي وكان ذلك لفاقة عرته فارق بسببها ابنة عمه وكان يحبها حبا شديدا وتوجه الى بغداد فمدح عبد الرحمن بقصيدة فأعطاه شيئا قليلا فاعتل غما ومات وكان عبد الرحمن اشتغل عنه اياما ثم سأل عنه فتفقدوه في الخان الذي كان فيه فوجدوه ميتا وعند رأسه رقعة مكتوب فيها هذه القصيدة ولكونها بين زوجين متحابين ناسب ذكرها ههنا وهي

لا تعذليه فان اللوم يولعه * قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه
جاوزت في لومه حدا أضر به * من حيث قدرت ان اللوم ينفعه
فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلا * من عنفه فهو مضنى القلب موجعه
قد كان مضطلعا بالخطب يحمله * فضلعت لخطوب البين أضلعه
يكفيه من لوعة التشتيت ان له * من النوى كل يوم ما يروعه
ما آب من سفر إلا وأزعجه * رأي الى سفر بالرغم يجمعه
تأبى المطامع الا ان تجشمه * للرزق كدا وكم ممن يودعه
كأنما هو في حل ومرتحل * موكل بفضاء الارض يذرعه
اذا الزمان أراه في الرحيل غنا * ولو إلى السد أضحى وهو يزمعه
وما مجاهدة الانسان واصلة * رزقا ولا دعة الانسان تقطعه
قد قسم الله بين الخلق رزقهم * لم يخلق الله من خلق يضيعه
لكنهم ملئوا حرصا فلست ترى * مسترزقا وسوى الغايات تقنعه
والحرص في الرزق والارزاق قد قسمت * بغي ألا ان بغي المرء يصرعه
والدهر يعطي الفتى من حيث يمنعه * دأبا ويمنعه من حيث يطمعه
أستودع الله في بغداد لي قمرا * بالكرخ من فلك الازرار مطلعه
ودعته وبودي لو يودعني * طيب الحياة واني لا أودعه
كم قد تشفع اني لا أفارقه * وللضرورات حال لا تشفعه
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى * وأدمعي مستهلات وأدمعه
لا أكذب الله ثوب العذر منخرق * عني بفرقته لكن أرقعه
رزقت ملكا فلم أحسن سياسته * كذاك من لا يسوس الملك يخلعه
ومن غدا لابسا ثوب النعيم بلا * شكر عليه فان الله ينزعه

اني أوسع عذري في جنايته * بالبين عني وجرمي لا يوسعه
كم قائل لك ذنب البين قلت له * الذنب والله ذنبي لست أدفعه
الا أخذت مكان الرشد أجمعه * لواني حين بان الرشد أتبعه
والله ماوقعت عيني على بلد * في سفرتي هذه الا وأقطعه
ما اعتضت عن وجه خلي عند فرقته * كأسا أجرع منها ما أجرعه
يا من اقطع ايامي وانفدها * حزنا عليه وليلي لست أهجعه
لا يطمئن بجنبي مضجع وكذا * لا يطمئن له مذغبت مضجعه
ما كنت أحسب ان الدهر يفجعني * به ولا خلت بي الايام تفجعه
حتى جرى الدهر فيما بيننا بيد * عسراء تمنعني حظي وتمنعه
وكنت من ريب دهري خائفا قلقا * فلم أوق الذي قد كنت أجزعه
بالله يا منزل القصف الذي درست * اياته وعفت مذ بنت أربعه
هل الزمان معيد فيك لذتنا * أم الليالي التي امضته ترجعه
في ذمة الله من أصبحت منزله * وجاد غيث على مغناك يمرعه
من عنده لي عهد لا يضيع كما * عندي له عهد صدق لا أضيعه
ومن يصدع قلبي ذكره واذا * جرى على قلبه ذكري يصدعه
لأصبرن لدهر لا يمتعني * به ولا بي في حال يمتعه
علما بأن اصطباري معقب فرجا * فأضيق الأمر إن فكرت أوسعه
عسى الليالي التي أضنت بفرقتنا * قلبا ستجمعني يوما وتجمعه
وان ينل احد منا منيته * فالذي بقضاء الله يصنعه

(رجع) قيل لا عفة كالامانة ولا غنى كالقناعة ولا سعادة كالتدبير ولا ورع كالكف ولا حسب كحسن الخلق ولا إيمان كالحياء ولا راحة كالتوكل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث خصال من كن فيه نشر الله عليه رحمته وعمه وأدخله جنته من آوى المسكين ورحم الضعيف وأنفق على والديه ورحم مملوكه ورفق به وملك نفسه حين يغضب وحين يرغب وحين يرهب وحين يشتهي وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم ان الله يحب الرفق في الامر كله

قال ابو الفرج في كتاب النساء سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا رضي الله تعالى عنه وجماعة من الصحابة رضوان الله عليهم عما هو خير للنساء فلم يدروا ما يقولون

فانصرف

فانصرف على رضى الله عنه الى فاطمة رضى الله عنها فذكر لها ذلك فقالت ان خير النساء الذين لا يرين الرجال ولا يرونهن فأخبر على بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أعنك هذا أم عن غيرك قال بل أخبرتنى به فاطمة فأعجب ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال انما فاطمة بضعة منى

وقال بعضهم خرجت فى ليلة مظلمة فاذا أنا بجارية كأنها علم فعطفت عليها فقالت أمالك يا هذا زاجر من عقل اذا لم يكن لك ناه من دين قلت يا هذه والله مايرانا الا الكواكب فقالت وأين مكوكبها ثم ذهبت عنى قال الشاعر

اذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل * خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة * ولا ان ما تخفيه عنه يغيب

وقيل لبعض الأعراب وقد طال حبه لجارية ما كنت صانعا لو ظفرت بها ولا يراكما الا الله تعالى قال لا والله لا أجعله أهون الناظرين ولكن أصنع معها ما اصنع بحضرة أهلها حديث طويل ولحظ كليل وترك ما يكرهه الرب ويقطع به الحب قال نفطويه

ليس الظريف بكامل فى ظرفه * حتى يكون عن الحرام عفيفا
فاذا تعفف عن محارم ربه * فهناك يدعى فى الانام ظريفا

(وقيل)

وأفضل الناس حرليس يغلبه * على الحجا شهوة فيه ولا غضب

وقال بعضهم لرجل من بنى عذرة غلب عليه الهوى مابال العشق يقتلكم معاشر بنى عذرة من بين أحياء العرب فقال فينا جمال وتعفف ونرى محاجر لا ترونها
وكان الرشيد يستحسن قول ابن مطير هذين البيتين

وقد تغدر الدنيا فيضحى غنيها * فقيرا ويغنى بعد بؤس فقيرها
فلا تقرب الامر الحرام فانه * حلاوته تفنى ويبقى مريرها

قال اليزيدى دخلت على الرشيد وفى يده ورقة فكان تارة ينظر فيها وتارة ينظر إلى عنها فقال بيتان وجدتهما فاضفت اليهما ثالثا

اذا سد باب عنك من دون حاجة * فدعه لأخرى ينفتح لك بابها
فان قراب البطن يكفيه ملؤه * ويكفيك سوآت الامور اجتنابها
ولا تك مبذالا لعرضك واجتنب * ركوب المعاصى يجتنبك عقابها

وما أحسن البيت الاخير الناهي عن بذل العرض الذى هو صفة معنوية وفضيلة جامعة تبعث صاحبها على اعتبار نفسه وان يفي مع النية الخالصة والشجاعة الفاضلة والهمة العالية بما يجب عليه من كل ماينتج عنه الاعتبار والاحترام ويعبر عنه بشرف النفس وهو أحد الاشياء التى يجب حفظها وباقيها الدين والنفس والمال والنسب والعقل وعرف بعضهم العرض بأنه موضع المدح والذم من الانسان وهو يحمل صاحبه على أن يفعل مايكتسب به الاعتبار عند الناس وعند نفسه وان يجتنب مايخل بمقام الانسان واعتباره وهو اللؤم فانه مذموم كما قيل.

مطلب تعريف العرض وانه يحمل صاحبه على كرم النفس ويبعده عن لؤمها

ألم تعلموا انّ الزمان موكل * بمدح كرام أو بذم لئام

وقال آخر

انّ الكريم اذا تمكن من أذى * أنسته رأفته الحقود فأقلعا
وترى اللئيم اذا تمكن من أذى * يطغى فلا يبقى لصلح موضعا

وقال بعضهم سياسة الكرام بالرغبة وسياسة اللئام بالرهبة وان أقرب شئ على سياسة اللئام أن يعاملوا بالرهبة ويؤخذوا بالعنف فما دام احدهم خائفا من سطوتك فهو مقيم على الوفاء بعهدك ومتى أمن ذلك عاد الى طبعه وقال الشافعي رضى الله عنه ثلاث ان اكرمتهم اهانوك وان اهنتهم اكرموك المرأة واللئيم والمملوك وقيل

الحر بالبر والاحسان تملكه * والنذل بالضد أفعالا وأخلاقا
يزداد لؤما اذا مازدته كرما * كالنفط يزداد بالتكريم احراقا

وقالوا من امارات الكريم الرحمة ومن امارات اللئيم القسوة ومن كرم اصله لان قلبه وورد عنه صلى الله عليه وسلم لاينزع الله الرحمة الامن قلب شقى ومن علامات الكريم حب الانصاف ومن علامات اللئيم عدم الانصاف وقال بعضهم من علامات اللئيم افشاء السر واعتقاد الغدر وغيبة الاحرار وسوء الجوار

مطلب ان كل ماشتمل على محامد الاخلاق ومكارمها فهو أساس للعرض

فكل ماشتمل على محامد الاخلاق ومكارمها فهو أساس للعرض فصاحب العرض يبحث دائما عن حسن الصيت والشهرة الجيدة بالوفاء بما كلفه به الطبع والشرع بشرط أن لايتشبث فى الحصول على ذلك بالوسائل التى يأباها الصلاح الحقيقى فصاحب هذه الفضيلة الشريفة يرجى له أن يورثها الذريته وللخلف من بعده وان يبقى ذكراه مخلدا بدون عيب ولادنس وكما يشرف ذريته بصيته الحسن يشرف وطنه طول الزمن ومن علامة شريف العرض والناموس اخلاص الايمان وبغض النفاق وكراهة

مطلب العلامات الدالة على شريف العرض والناموس

الموالسة والنفور من أهل الغش والخداع ومجالسة أهل الخروج والابتداع وعدم التلون فلا يكون داخلا فى قول القائل

يامن تلون فى الطباع أماترى * ورق الغصون اذا تلون يسقط

وقيل كل يوم تتلون * غير هذا بك أجمل

وقيل من جالس أهل البدع تعلق بقلبه شئ مما يسمع وقيل لا تمكن زائغ القلب من أذنك فانا رأينا قوما استهواهم تهاتر ابن الخطيب الرازى حتى تزندقوا ولا غيبة فيمن كان بهذه الصفة لأن ذمه مأمور به وروى قولوا فى الفاسق ما فيه ليعرفه الناس والبدعة ما كان مخترعا على غير مثال سابق ومنه بديع السموات والارض أى موجدهما على غير مثال سبق وشرعا ما أحدث على خلاف أمر الشارع ودليله الخاص والعام بأن يكون الحامل عليه مجرد الشهوة وقال صلى الله عليه وسلم أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وان تأمر عليكم عبد وانه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ واياكم ومحدثات الامور فان كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار وورد عنه صلى الله عليه وسلم ستفترق أمتى ثلاثا وسبعين فرقة اثنان وسبعون فى النار وواحدة ناجية وهى ما أنا عليه وأصحابى قال اللقانى

مطلب تعريف البدعة لغة وشرعا ومدح الاتباع وذم الابتداع

وكل خير فى اتباع من سلف * وكل شر فى ابتداع من خلف

وورد عنه صلى الله عليه وسلم أبى الله أن يقبل عمل صاحب بدعة حتى يدع بدعته ومن دعائه صلى الله عليه وسلم اللهم زدنى علما ولا تزغ قلبى بعد اذ هديتنى وهب لى من لدنك رحمة انك أنت الوهاب

(د جع) ومن علامة شريف العرض أن يعرف وضع الاشياء فى موضعها وأن يميز الغث من السمين وان يؤثر العفاف كما قيل

دعينى ونفسى والعفاف فاننى * جعلت عفافى طول عمرى ديدنى

وأصعب من قطع اليدين على الفتى * صنيعة برنالها من يدى دنى

وان يبذل نفسه فى حب الخير والبر وان يأتمر بما تأمره به النفس المطمئنة فبهذا يكتسب سعادة الدارين ولا يجدها الا فى الصدق والبر ومن علاماته أن يعترف بالفضل لأربابه ولا يدعى أكثر مما عرفه كما قيل

ومن البلوى التي ليس لها في الناس كنه
أن من يعرف شيئا * يدعي اكثر منه

وقيل
من تراه يدعي ما ليس فيه * كذبته في دعاويه الشواهد

مطلب أن من علامات شريف النفس عدم الحرص

ومن علاماته عدم الحرص لانه يسلب فضائل النفس لاستيلائه عليها فيمنع من التوفر للعبادة ويبعث على التورط في الشبهات لقلة تحرزه منها مع أن الحريص لا يستزيد بحرصه زيادة على رزقه سوى الاذلال لنفسه واسخاط خالقه كما قيل

لا تطلبن معيشة بتذلل * فليأتينك رزقك المقسوم
واعلم بأنك آخذ كل الذي * لك في الكتاب مسطر مرقوم

ومن المستحسن هنا قول بعضهم

أمطري لؤلؤا جبال سرنديب * وفيضي آبار تكرور تبرا
أنا ان عشت لست أعدم قوتا * واذا مت لست أعدم قبرا
همتي همة الكرام ونفسي * نفس حر ترى المذلة كفرا

وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصبح يشكو من ضيق المعاش فكأنما يشكو ربه ومن أصبح لامور الدنيا حزينا فقد أصبح ساخطا على ربه ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به فانما يشكو الله ومن تواضع لغني لاجل غناه أحبط الله ثلثي عمله ومن أهان فقيرا لاجل فقره ذهب ثلثا دينه ومن أعطي القرآن فلم يعمل به أدخل النار وأبعده الله من رحمته وفي الصحيح ذاق طعم الايمان من رضي بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا فأخبر أن للايمان طعما وان القلب يذوقه كما يذوق الفم طعم الطعام والشراب وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم يأتي على الناس زمان القابض على دينه كالقابض على الجمر رواه الترمذي عن أنس كناية عن عدم المساعد والمعاون على الدين وقيل مثل الايمان مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق قال الله تعالى فأنجيناه ومن معه الآية وقال بعضهم عليكم بدين العجائز وقد أنشد الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد رحمه الله

تجاوزت حد الاكثرين الى العلى * وسافرت واستبقيتهم في المراكز
وخضت بحارا لا قرار لجحها * وألقيت نفسي في فسيح المفاوز
ولجت بي الافكار ثم تراجع اختياري * الى استحسان دين العجائز

وقال الامام الشافعي رضي الله عنه

يا طالب الرزق فى الدنيا بحيلته * عليه من بلد تسعى الى بلد
تبغى الزيادة والارزاق قد قسمت * بين الخلائق لم تنقص ولم تزد
أتعبت نفسك فيما لست تدركه * أفنيت نفسك فى هم وفى نكد
أقصر عناك فان الرزق منقسم * فالرزق يأتى ولو فى جبهة الاسد

مطلب ان الرزق مقسوم ازلا لا يزيد باجهاد النفس فى طلبه

ويقال انه وجد فى كتاب لجعفر بن يحيى خمسة أسطر مكتوبة بالذهب الرزق مقسوم والاجل محتوم والحريص محروم والبخيل مذموم والحسود مغموم ومن كلام المتنبى

وأظلم أهل الارض من بات حاسدا * لمن بات فى نعمائه يتقلب

مطلب ذم الحسد

وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال أربعة جواهر تزيلها أربعة أشياء أما الجواهر فهى العقل والدين والحياء والعمل الصالح فالغضب يزيل العقل والحسد يزيل الدين والطمع يزيل الحياء والغيبة والنميمة يزيل العمل الصالح وفى المثل صحة الجسد ترك الحسد وقال بعضهم الناس على قسمين ان رأوا غنيا حسدوه وان رأوا فقيرا مقتوه وقيل الحاسد غضبان على من لا ذنب له وقال أبو العتاهية

حسدوا الفتى اذلم ينالوا سعيه * فالناس أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها * حسدا وبغضا انه لدميم

وخير الناس من يحسد كما قيل

ولا خلاك الدهر من حاسد * فان خير الناس من يحسد

مطلب الفرق بين الحسد والغبطة

والحسد تمنى زوال نعمة المحسود سواء تمنى انتقالها اليه أم لا فيشترك مع الغبطة فى أنهما طلب بالقلب غير أنهما يفترقان من حيث ان الحسد تمنى زوال النعمة عن الغير والغبطة تمنى حصول مثل نعمة الغير من غير تعرض لزوالها عن صاحبها وحكم الحسد التحريم وحكم الغبطة الاباحة لعدم تعلقها بمفسدة ودليل تحريم الحسد قوله تعالى ومن شر حاسد اذا حسد أم يحسدون الناس الآية والسنة قوله صلى الله عليه وسلم لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله اخوانا وهو أول معصية عصى الله بها فى السماء حين حسد ابليس آدم عليه السلام فلم يسجد له وفى الارض حين قتل أحد ابنى آدم وهو من لم يقبل قربانه الآخر وهو من تقبل قربانه ولجمال الدين محمد بن نباتة

زد كل يوم فى العلى رفعة * وليصنع الحاسد ما يصنع
الدهر نحوى كما ينبغى * يدرى الذى يخفض او يرفع

وقيل وما الجود يفنى المال قبل فنائه * ولا البخل فى مال البخيل يزيد
فلا تلتمس مالا تعيش بكدّه * لكل غد رزق يعود جديد

مطلب مدح الكرم وذم البخل وما يحكى فى ذلك عن قيس بن عاصم عند تزوجه بابنة زيد الفوارس

وحكى أنّ قيس بن عاصم كان كريما جدا فتزوج ابنة زيد الفوارس فأتته فى الليلة الثانية بطعام فقال وأين أكيلى فلم تعلم مايريد فأنشأ يقول

أيابنت عبد الله وابنة مالك * ويابنت ذى البردين والفرس الورد
اذا ما صنعت الزاد فالتمسى له * أكيلا فانى لست آكله وحدى
أخا طارقا أو جار بيت فاننى * أخاف مذمات الاحاديث من بعدى
وانى لعبد الضيف من غير ذلة * ومابى الا تلك من شيم العبد

وعن أبى الدرداء أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مامن يوم غربت شمسه الا بعث الله ملكين يناديان يسمعهما خلق الله كلهم الا الثقلين اللهم أعط منفقا خلفا واعط ممسكا تلفا ويشهد لذلك قوله تعالى فأمّا من أعطى واتقى الآيات وقيل

بقدر الكدّ أنفق كل يوم * ومدّ الرجل فى حذ الكساء
وشاور فى أمورك أهل فضل * وحاذر من مشاورة النساء

ووقف على على سائل فقال للحسن قل لامّك تدفع له درهما فقالت انما عندنا ستة دراهم للدقيق فقال على لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يكون بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده ثم أمر للسائل بالستة دراهم كلها فما برح حتى مرّ به رجل يقود بعيرا فاشتراه بمائة وأربعين درهما وأنسأ أجله ثمانية أيام فلم يحل عقاله حتى مرّ به رجل آخر فقال له بكم فقال بمائة وأربعين درهما قال آخذه بمائتى درهم ودفع له الثمن فدفع على منه مائة وأربعين درهما الذى ابتاعه منه ودخل بالستين الباقية على فاطمة رضى الله عنها فسألته من أين هى فقال هذا تصديق لما جاء به أبوك من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها

وروى عن ابى هريرة رضى الله عنه انه قال جاء ثابت بن قيس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انى مجهود فأرسل الى بعض نسائه فقالت والذى بعثك بالحق نبيا ماعندنا الا الماء ثم ارسل الى الاخرى فقالت مثل ذلك ثم قلن كلهنّ مثل ذلك ماعندنا الا الماء فقال من يضيف هذا هذه الليلة فقام رجل من الانصار يقال له ابو المتوكل وقيل ابو طلحة فقال أنا يارسول الله فانطلق الى رحله فقال لامرأته هل عندك شئ فقالت لا الا قوت صبيانى قال فعلليهم بشئ فاذا دخل ضيفى فأطفئ السراج ونومى الاطفال

مطلب الايثار على النفس

وقدمى

وقدمي للضيف ما عندك ففعلت وأظهرا له انهما يأكلان معه فنزل قوله تعالى ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة الى قوله فأولئك هم المفلحون فلما اصبح غدا الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال قد عجب الله من صنيعكما الليلة بضيفكما فان قيل اذا لم يكن ثم عندهما إلا قوت الصبيان وهو يدل على أن الصبيان كانوا جياعا فيجاب بأن الصبيان لم تشتد حاجتهم للاكل وانما خشيا ان الطعام لو جيء به للضيف وهم مستيقظون لا يتركون الاكل منه ولو كانوا شباعا على عادة الصبيان فيشوشون على الضيف

وقال ابن عمر أهدى لرجل من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء فقال ان اخي فلانا وعياله احوج الى هذا منا فبعثه اليهم فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها سبعة ابيات حتى رجعت الى الاول وروى ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخذ اربعمائة دينار فجعلها في صرة ثم قال للغلام اذهب بها الى ابي عبيدة بن الجراح ثم تلكأ ساعة في البيت حتى تنظر ما يصنع بها فذهب بها الغلام اليه فقال يقول لك امير المؤمنين اجعل هذه في بعض حاجتك فقال وصله الله ورحمه ثم قال تعالى يا جارية اذهبي بهذه السبعة الى فلان و بهذه الخمسة الى فلان حتى انفدها فرجع الغلام الى عمر فأخبره فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل وقال اذهب بها الى معاذ بن جبل وتلكأ في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع فذهب بها اليه فقال يقول لك امير المؤمنين اجعل هذه في بعض حاجتك فقال رحمه الله و وصله وقال يا جارية اذهبي الى بيت فلان بكذا و بيت فلان بكذا فاطلعت امرأة معاذ وقالت ونحن والله مساكين فاعطنا ولم يبق في الخرقة الا ديناران فرمى بهما اليها فرجع الغلام الى عمر فأخبره بذلك فسر وقال انهم اخوة بعضهم من بعض وقيل

أولئك قوم أتلفوا مهجاتهم * لاحياء دين الله بالطعن والضرب
بكل طويل من رماح ردينة * وكل حسام مرهف ذكر عضب
على كل مخماص من الخيل اعوج * يمر كمر الريح في أثر السحب
غيوث اذا أعطوا ليوث اذا التقوا * معانون منصورون بالرهب والرعب

مطلب محاورة أبي يزيد البسطامي مع شاب في معنى الزهد

وقال ابو يزيد البسطامي ما غلبني احد ما غلبني شاب من اهل بلخ قدم علينا حاجا فقال لي يا ابا يزيد ما حد الزهد عندكم فقلت اذا وجدنا اكلنا واذا فقدنا صبرنا فقال هكذا كلاب بلخ عندنا فقلت له ما حد الزهد عندكم فقال اذا فقدنا شكرنا واذا وجدنا آثرنا والايثار

بالنفس فوق الايثار بالمال وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ذات يوم لاصحابه كيف اصبحتم قالوا أصبحنا مؤمنين بالله قال وما علامة إيمانكم قالوا نصبر على البلاء ونشكر على الرخاء ونرضى بالقضاء فقال انتم مؤمنون بالله حقا ورب الكعبة

وكان هشام بن المغيرة المخزومى من أجاويد العرب حتى اتخذت قريش يوم موته تاريخا فقيل فيه من الرثا

واصبح بطن مكة مقشعرا * كأن الارض ليس بها هشام

وقيل المال ينفد والثناء يخلد * والجود فى كل المواطن يحمد
واخو السماحة فى البلاد جميعها * بين العباد على الدوام مسوّد

وقيل انه لما حج جعفر اجتاز فى طريقه بالعقيق وكانت سنة مجدبة فاعترضته امرأة من بنى كلاب وانشدته

انى مررت على العقيق وأهله * يشكون من مطر الربيع نزورا
ما ضرهم إذ جعفر جارلهم * ان لا يكون ربيعهم ممطورا

مطلب ان بقاء الذكر الحسن بعد الموت حياة ثانية

وقيل يسقط الطير حيث يلتقط الحب * وتغشى منازل الكرماء

وقيل ثمن الاحسان شكر * ويد المعروف ذخر
وثناء الحى بعد الموت للميت عمر

وقال بعضهم ولعمرى ان الزمان الذى يثنى فيه على الميت بعد موته احسن عمريه وأطولهما واشرفهما كما قيل

ردت صنائعه اليه حياته * فكأنه من نشرها منشور

وقيل وماضاع مال اورث المجد أهله * ولكن اموال البخيل تضيع

وقيل أنفق فان الله كافل عبده * فالرزق فى اليوم الجديد جديد
المال يكثر كلما انفقته * كالبئر ينزح ماؤها فيزيد

وقيل اذا درّت نياقك فاحتلبها * فما تدرى الفصيل لمن يكون
اذا ظفرت يداك فلا تقصر * فانّ الدهر عادته يخون

وروى الامام ابو حنيفة رحمه الله عن ثوبان رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزيد فى العمر الا البر ولا يردّ القدر الا الدعاء وانّ العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه وقال صلى الله عليه وسلم جبلت القلوب على حب من احسن اليها

و بغض

و بغض من أساء اليها عن ابن مسعود وله ـذا الحديث قصة اخرج العسكرى قيل للاعمش ان الحسن بن عمارة ولى القضاء فقال الاعمش يا عجبا من ظالم ولى المظالم ما للمساكين والمظالم فبلغ الحسن فقال على بمنديل واثواب فوجه بها اليه فلما كان من الغد سئل الاعمش عنه فقال بخ بخ (كلمة تقال عند المدح للرضى بالشئ) هذا الحسن بن عمارة زان العمل وما زانه فقيل له قلت بالامس ما قلت واليوم تقول هذا فقال دع عنك هذا حدثنى خيثمة عن ابن عمر عن المصطفى صلى الله عليه وسلم انه قال جبلت القلوب الى آخره وقيل أبت النفس الخبيثة ان لا تخرج من الدنيا حتى تسىء الى من أحسن اليها وقيل

تنح عن القبيح ولا ترده * ومن أوليته حسنا فزده

وقيل دار جار الدار إن جار وإن * لم تجد صبرا فما أحلى النقل

مطلب حفظ حق الجار واكرامه

أراد مطلق الجار فى دار أو دكان مسلما أو غيره ـسلم وقيل الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق وقيل

اذا طال الطريق عليك يوما * فليس دواءه الا الرفيق
تحادثه وتشكو ما تلاقى * فيقصر بالحديث لك الطريق

وقال صلى الله عليه وسلم ما زال حبيبى (أى جبريل) يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه وقال صلى الله عليه وسلم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ولا يجوز للجار إحداث ما يكشف حرم الجار من شباك وطاقات لانه يضر به وقال بعضهم كل امرئ يعرف بقوله ويوصف بفعله فقل سديدا وافعل حميدا من عرف شانه وحفظ لسانه وأعرض عما لا يعنيه وكف عن عرض أخيه دامت سلامته وقلت ندامته كن صموتا وصدوقا فالصمت حرز والصدق عز من كثر مقاله شتم ومن أكثر سؤاله حرم ومن استخف باخوانه خذل ومن اجترأ على سلطانه قتل ما عز من أذل جيرانه ولا سعد من حرم اخوانه أجل النوال ما وصل قبل السؤال وقال صلى الله عليه وسلم رحم الله امرأ عرف قدر نفسه ولم يتعد طوره

مطلب ان المقادير الغالبة لا تنال بالمغالبة وان الارزاق المكتوبة لا تنال بالشدة والمكالبة

(رجع) وقال بعض البلغاء المقادير الغالبة لا تنال بالمغالبة والارزاق المكتوبة لا تنال بالشدة والمكالبة كما قيل

ان الامور اذا ما الله يسرها * أتتك من حيث لا ترجو وتحتسب
وكل ما لم يقدره الاله فما * يفيد حرص الفتى فيه ولا النصب

ثق بالاله ولا تركنن الى أحد * والله أكرم من يرجى ويرتقب

وقيل

انى أرى من له قنوع * يدرك ما نال من تمنى
والرزق يأتى بلا عناء * وربما فات من تعنى

وقيل

وقد يجد الحريص فى طلب الرز * ق فيشقى ويرزق المستريح
ويعاد العليل حينا من الدهـ * ـر فيبرا وقد يموت الصحيح

وقيل

ومن ظن ان الرزق يأتى بحيلة * فقد كذبته نفسه وهو آثم

وقال بعضهم من قصيدة نبوية

فبالاقدار يرزق غير عان * بلا سعى ويحرم من تعنى
ولم يفت الفتى بالعجز حظ * ولا بالسعى يدرك ما تمنى

والسعيد من توكل على رازق الطير فى عشه والمريض فى فرشه والدود فى الصخرة الصماء والجنين فى ظلمة الاحشاء قيل

لازمت دارى مثل ما * لازم ضب نفقه
فلم يدعنى خالق * سبحانه من نفقه

ويحسن هنا إيراد شذرة من ضمن مقالة خطابية تحاور بها شيخ مع تلميذه فقد ينتفع منها فى هذا المسلك السبيل وها هو عقدها البهى الجميل (فقلت)

(أى التلميذ) له (أى شيخه) فقلت له أعيذ شيبك من الشوائب ونفسك من النوائب

فيم اقتحامك لج البحر تركبه * وأنت تكفيك منه مصة الوشل

فقال

أريد بسطة كف أستعين بها * على أداء حقوق للورى قبلى

وتالله ما سعيى على نفسى التى ترضى باليسير ولكن على عيال يعتقدون ان وليهم على كل شئ قدير والفتى من يرجى دوام نفعه وخيره ولم يهتم فى سعيه لنفسه كالسعى لغيره كما قلت سابقا

انّ الفتى من لم يزل * يحنو على أبناء جنسه
أبدا تراه لغيره * يسعى ولا يسعى لنفسه

ولله در من قال

ظل الفتى ينفع من دونه * وماله فى ظله نفع

فقلت له هلا كان ذلك قبل ارتحال شبابك وتفريق اهابك وذهاب أطيبيك ونفاذ

ونفاد أعذبيك واجتماع قواك واعتدال شواك وكيف لزمت في ذلك الوقت الدعة والوطن حتى استوجبت أن يقال لك الصيف ضيعت اللبن وأصبحت قحلا محلا تحكي الهلال دقة وشكلا فقال كان لي حينئذ أهل معونة يكفونني الثقلة والمؤنة فلما اجتثتهم المنية وانقطعت منهم الامنية ومات منهم من يعاش في أكنافهم ويحتفلون باخوانهم وأضيافهم وتشعث حالي ومرّ منه ماهو حالي تحشمت عرق القربة وتكلفت تعب الغربة وتالله ماخرجت من الوطن الذي الفؤاد به معلق الا بعد وصولي الى حالة أعظم من حالة ابن المذلق ثم استعبر وأنشأ يقول

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا * من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلغ عذرا أو يصيب رغيبة * ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

ويرحم الله من قال

اذا لم يكن إلا الاسنة مركبا * فلا رأى للمضطر الا ركوبها

(وفي المعنى قول الآخر)

ويركب حد السيف من أن تضيمه * اذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل

وبعد هذا فاني على ظن قد لا يحقق ورجاء قد تذروه رياح الاقدار فيتمزق ولكن قد أمر الله بالسعي وترك الدعة فقال تعالى ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الارض مراغما كثيرا وسعه وقال تعالى حاثا على السعي لخلقه فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وفي حديث من صلى الله وملائكته عليه وسلموا سافروا تصحوا وتغنموا وقال الشاعر

ان خانك الدهر فكن لائذا * بالبيد والظلماء والعيس
ولا تكن عبد المنى فالمنى * رؤس أموال المفاليس

(وفي المعنى قول أبي الاسود الدئلي حيث يقول)

وماطلب المعيشة بالتمني * ولكن ألق دلوك في الدلاء
فان مقادر الرحمن تجري * بأرزاق العباد من السماء

وقال آخر

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه * ويقضي الله الخلق ما كان قاضيا

ومن زعم ان مباشرة الاسباب تنافي التوكل فقد عمي عن أسباب الشر والخير والتحقيق ان حق التوكل مباشرة الاسباب مع عدم الاعتماد عليها كما يشير اليه حديث الطير

وانما يباشرها العبد أدبا وامتثالا لرب الارباب وليرتقي بها الى معرفة ذاته التي هي السبب الاعظم المشار اليها بقوله تعالى فليرتقوا في الاسباب فقلت وما حكمة أمر العبد بمباشرة السبب ولو شاء الله رزقه من غير تعب لان السبب أمر عادي عند كل منتبه بخلق الله المسبب عنده لا به فقال تلك حكمة باهرة وآية ظاهرة أمرك بمباشرة السبب في الدنيا لينبهك على انك لا تنال الا بشق الانفس ما فيها من الشهوات الفانية فكيف تنال مع الراحة نعيم الآخرة الباقية فقلت صدقت وبالحكمة نطقت فكيف يلتئم ما قدمت من مدح السفر مع حديث السفر قطعة من العذاب فقال اعلم ان السفر كالافعى فيه السم والترياق وكالماء فيه الحياة والاغراق فقوله سافروا تغنموا تعرض لخيره وقوله السفر قطعة من العذاب تعرض لضره ومثله ما ورد في المال من المدح والمذام ومنه نعم البيت الحمام وبئس البيت الحمام وهذا نوع من أنواع البديع تسميه أهله بالمغايرة لا يقتدر عليه الا كل ذي قريحة غير قريحة وفكرة ذكية غير فاترة لكن لا بد أن يمدح فيه الشئ من غير الوجه الذي ذمه وبالعكس وذلك مما تنشرح له الصدور وتطيب به النفس قال ثم أعود الى بقية جواب كلامك وما عرضت لي به فيه من ملامك فأقول وماذا على من أذهب أطايبه وأعذبيه الزمان اذا حفظ الله عليه القلب واللسان وقد عرفت ان المرأ بأصغريه لا بأكبريه وأما الشيب فهو ثوب الوقار وزهرة الاعمار وزبدة حيات المرء التي مخضتها يد التهذيب والتأديب وسبيكة الفضة التي سبكتها راحة التجريب وفجر الوسنان وأفضل الالوان ونجوم الهدى ورجوم العدى ونذير الابرار وبطاقة العتق من النار ففي الزبور يقول البارى الشيب نوري وأنا أستحي ان أحرق نوري بناري على ان ما نقص من المرء من شبابه يزيد في عقله وآدابه كما قال ابن المعتز

وما ينتقص من شباب الرجال * يزد في نهاها وألبابها

وقال على رضي الله عنه بقية عمر المرء ليس لها ثمن يستدرك بها ما فات ويحيا بها ما مات وقلت سابقا من فصل اذا رحل عن المرء شبابه ووقع نسره وطار غرابه ذهبت لذة عمره ولم يبق منه غير دردى خمره لكن ما أحسن تلك البقية اذا استدرك بها من التقصير وصرفها في طاعة مولاه السميع البصير فهنالك يبدل الله حركات نفسه سكنات وسيآتها حسنات فيسمع هواتف الحق تنادى نفسه بأذن تصغي الى

الحق وهى يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى فترجع الى سعة رحمة الرحيم وتسبح فى بحار كرم الكريم وانما الاعمال بالخواتيم

وأما الصبا فهو شعبة من الجنون ومطية المغرور المفتون تسلك به أضيق المسالك وتقحم به فى حفر المهالك وهو سكران من خمر الشهوات غارق فى بحار اللذات فلا يستفيق من سكرته الا بسكرة تقطع الوريد ويقول مدبرها عليه وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد وأما قولك انى فحل نحل نفسك قوله تعالى وأوحى ربك الى النحل أما بلغك ياذا اللسن أن امامنا الشافعى قال ما أفلح سمين قط الا أن يكون محمد بن الحسن أما علمت ان لحم الآدمى وشحم كلاه لا يربوا الا لعدم همه بأمر آخرته ودنياه ومن لم يهتم باحداهما خرج عن الانسانية وتمحض للحيوانية ثم قال سبحان الله لقد رأيت منك عجيبا وأمرا غريبا قلت وماذاك جعلت فداك فقال رأيتك تتحلك وتحك وتقرب وتعزب وتطلع وتغرب وتطفو وترسب وتغنى وتنوح وتكتم وتبوح وتتصابى وتتشيخ وتتواضع وتتبزخ وتارة أراك صديقا وأخرى أحسبك زنديقا حتى كأنك فى تلونك الغول أو الحرباء أو أبو براقش أو أبو قلمون مع علمك ان التلون يسقط الانسان من العيون كما يسقط أوراق الغصون كما قيل

اياك تظهر للانام تلونا * فيضيع قدرك عنده وتلام
أوما ترى الاوراق تسقط مذ بدا * تلوينها فتدوسها الاقدام

وقال آخر

كم أنت فى حق الصديق تفرط * ترضى بلا سبب عليه وتسخط
يا من تلون فى الوداد أما ترى * ورق الغصون اذا تلون يسقط

فقلت والله ما اقتدحت زندك الا لأرى ما عندك ولا قرعت مروتك الا لأرى مروءتك وما اختبرتك الا لأتخذك صاحبا وخليلا وظلا ومقيلا فقد أوصى الحكماء بالاختبار قبل الاصطفاء والاختيار

(رجع) وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة مكتوبة على ساق العرش لا راحة فى الدنيا ولا شفاعة فى الموت ولا حيلة فى الرزق ولا سلامة من ألسنة الناس ولا رادّ لامر الله وقالوا مثل الدنيا مثل ظل الانسان ان طلبه هرب منه وان ولى عنه تبعه وأنشدوا

مثل الرزق الذى تطلبه * مثل الظل الذى يمشى معك

أنت لا تدركه طالبا * واذا وليت عنه تبعك

وليس للحريص غاية مقصودة ولا نهاية معدودة يقتنع بها ولو صدق الحريص نفسه واستنصح عقله لعلم ان من تمام السعادة الرضى بالمقدور والقناعة بالميسور

سأل رجل الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه أن يعظه فقال له الامام ان كان الله تعالى تكفل بالرزق فاهتمامك لماذا وان كان الرزق مقسوما فالحرص لماذا وان كان الخلف على الله فالبخل لماذا وان كانت الجنة حقا فالراحة لماذا وان كانت النار حقا فالمعصية لماذا وان كانت الدنيا فانية فالطمأنينة لماذا وان كان الحساب حقا فالجمع لماذا وان كان كل شئ بقضائه وقدره فالحزن لماذا و ورد عنه صلى الله عليه وسلم لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها ومصابها وأجلها وعنه صلى الله عليه وسلم اتقوا الله وأجملوا فى طلب الدنيا (اى الحلال) فان كلا ميسر لما خلق له فمع النظر لذلك لا فائدة فى سؤال الخلق مع التعويل علىهم فان قلوبهم كلها بيد الله يتصرف فيها على حسب ارادته فوجب أن لا يعتمد فى أمر من الامور الا عليه فانه المعطى المانع لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع له الخلق والامر وبيد قدرته الضر والنفع وهو على كل شئ قدير وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم ليس الغنى عن كثرة العرض وانما الغنى غنى النفس (ففقر النفس لا ينسد أبدا) وقال صلى الله عليه وسلم لا تنظر الى من هو أكثر منك فتتعب وانظر الى من هو أقل منك فتستريح وقال مجاهد فى تأويل قوله تعالى فلنحيينه حياة طيبة (أى القناعة) وقيل فى تفسير قوله تعالى ان الابرار لفى نعيم وان الفجار لفى جحيم النعيم القناعة والجحيم الطمع وفى تفسير البغوى الابرار الذين بروا وصدقوا فى ايمانهم بأداء فرائض الله تعالى واجتناب نواهيه وقال تعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا (أى حبا فى قلوب الخلق) وقيل

واذا افتقرت الى الذخائر لم تجد * ذخرا يكون كصالح الاعمال

وقال بعض الادباء القناعة رضى والحرص سخط والعايش راضيا أحسن من العايش ساخطا وقيل

اقنع بما ترزق ياذا الفتى * فليس ينسى ربك النمله

ان أقبل السعد فقم مسرعا * وان تولى مدبرا فنم له

قال

قال بعضهم يجب على العاقل أن يفعل فى دنياه خمسة أشياء أن يهجر الحرص والأمل وأن يواصل العلم بالعمل وأن يجتنب ارتكاب الزلل وأن يلاحظ قدوم الأجل وأن يكون واقفا بين الرجاء والوجل وعلامة الخوف قصر الأمل وعلامة الرجاء أن تحسن الظن بالله تعالى

و يسن للانسان أن يكثر من ذكر الموت لخبر أكثروا من ذكر هاذم اللذات يعنى الموت فانه ما يذكر فى كثير إلا قلله ولا قليل الا كثره اى كثير من الامل والدنيا وقليل من العمل وهاذم اى قاطع وقيل لبعضهم

قد قلت اذ مدحوا الحياة وأسرفوا * فى الموت ألف فضيلة لا تعرف

منها أمان عذابه بلقائه * وفراق كل معاشر لا ينصف

وقال اكثم بن صيفى من باع الحرص بالقناعة ظفر بالغنى والثروة وقيل

ولم أر بعد الدين خيرا من الغنى * ولم أر بعد الكفر شرا من الفقر

قال بعضهم من كان له مال ولم يكن له واحد من عشرة أشياء فهو شقى الدار الوسيعة والخدم الملاح والجوارى الصباح والملابس الفاخرة والمراكب السنية والبساتين النزهة والخلان الفكهة والاطعمة اللذيذة والاشربة الهنيئة والعوارف الجزيلة وقيل الدار الضيقة العمى الاصغر وقيل

ولم يستقم للمرء يوم وليلة * بلا شمس دينار ولا بدر درهم

وقيل الدراهم مراهم تجبى من النوائب الدواهم

وكان احمد بن يوسف الكاتب يقول مجالسة الثقلاء تثير الهموم وتجلب الغموم وتؤلم القلب وتميت النفس وتذهب النشاط وتطوى الانشراح وقيل

وما غربة الانسان فى شقة النوى * ولكنها والله فى عدم الشكل

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال اذا أتى الرجل القوم فقالوا مرحبا فرحبا له يوم القيامة واذا قالوا سخطا فسخطا له يوم القيامة (ومرحبا اى صادفت او لقيت رحبا بضم الراء سعة وهى كلمة إكرام واظهار مودة ومحبة وتلقى الاحباب بها مندوب للحديث) وقال صلى الله عليه وسلم مجالسة الثقيل أثقل من سكرات الموت وقيل الموت الاحمر ولا مجالسة الثقيل

(رجع) وقال بعض البلغاء اذا طلبت العز فاطلبه بالطاعة واذا طلبت الغنى فاطلبه

بالقناعة فمن اطاع الله عز وجل نصره ومن لزم القناعة أزال فقره وقال بعض الادباء القناعة عز المعسر والصدقة حرز الموسر كما قيل

قنعت بالقوت من زماني * لصون عرضي من الهوان
مخافة الناس ان يقولوا * فضل فلان على فلان
فمن رآني بعين فضل * رأيته كامل المعاني
ومن رآني بعين نقص * رأيته مثل ما يراني
من كنت عن بابه غنيا * فلا أبالي اذا جفاني

مطلب تتميم ما بقي متفرقا في القناعة وشرف النفس

وروى عنه صلى الله عليه وسلم عليكم بالقناعة فانها كنز لا ينفد وورد عنه صلى الله عليه وسلم لا يحل لمسلم أن يذل نفسه وعن علي رضي الله عنه تفضل على من شئت فانك أميره واستغن عمن شئت فانك نظيره واسأل من شئت فانك أسيره

وقيل من يكرم الناس يكرموه * ومن يهنهم يجد هوانا

وقيل أفادتني القناعة كل عز * وهل عز أعز من القناعة
فصيرها لنفسك رأس مال * وصير بعدها التقوى بضاعة

وقيل والنفس راغبة اذا رغبتها * واذا ترد الى قليل تقنع

وقيل وما هي الا جوعة قد سددتها * وكل طعام بين جنبي واحد

وقيل اذا قنعت كثر عندك القليل واذا طمعت دق عندك الجليل

قيل اذا ما شئت ان تحيا سعيدا * حبيبا للغني وللفقير
فظن بمعشر الاسلام خيرا * وراع الوقت واقنع باليسير

وقيل تسربلت سربال القناعة والغنى * صبيا فكانا في الكهولة ديدني
وقد كان ينهاني أبي حف بالرضى * وبالعفو أن أولي يدا من يدي دني

وقيل تجنب كرام الناس واستغن عنهم * ولا تطلبن في الدهر فضل كريم
فذ اليدين للكريم مذلة * فكيف اذا مدت يد للئيم

وقيل الحاجة تلجئ السيد الى الاتذال وربما أحوج المرض الى شرب الابوال وورد عنه صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع وعن علي رضي الله عنهما للكع العبد أو الاحمق أو اللئيم أي حتى يكون اللئام أو الحمقى أو العبيد رؤساء الناس وقيل

اذا

اذا امتلأت كف اللئيم من الغنى * ثنى عطفه كبرا وقال أنا أنا
وأما كريم الاصل كالغصن كلما * تحمل من خير تواضع وانحنا

وقيل لأعرابى ما السقم الذى لا يبرأ والجرح الذى لا يندمل قال حاجة الكريم الى لئيم فان فوت الحاجة أهون من طلبها من غير أهلها وعليه قول الشاعر

لا تطلبن الى لئيم حاجة * واثت الكريم بخيره ميسور

ومن كلام بعض الحكماء اذا سألت كريما حاجة فدعه يتفكر فانه لا يتفكر الا فى الخير واذا سألت لئيما حاجة فعاجله لئلا يشير طبعه ان لا يفعل وقيل

أى شئ أذل من بذل وجه * لجواد فكيف من لا يجود

وقيل وقائل ما الملك قلت الغنى * فقال لا بل راحة القلب
وصون ماء الوجه عن بذله * فى نيل ما ينفد عن قرب

وقال صلى الله عليه وسلم الذل فى السؤال ولو أين الطريق وقيل فى معنى ذلك

لا تكن طالبا لما فى يد النـــاس فيزورّ عن لقاك الصديق
انما الذل فى سؤالك للنـــاس ولو فى السؤال أين الطريق

وقيل بلوت الناس قرنا بعد قرن * فلم أرغير ختار وقال
وذقت مرارة الأشياء طرا * فما شئ أمر من السؤال
ولم أر فى القلوب أشد وقعا * وأنكى من معاداة الرجال

وقيل لا تحسبن الموت موت البلى * وانما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا * أشد من ذاك بذل السؤال

وروى ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو بعد صلاة الضحى ثلاث مرات بدعاء وهو اللهم انى أسألك اللطف عند القضاء والسلامة فى الدين والبركة فى الرزق والغنى بك عن خلقك وورد عنه صلى الله عليه وسلم عز المؤمن استغناؤه عن الناس قال الفضيل بن عياض رحمه الله أحب الناس الى الناس من استغنى عن الناس ولم يسألهم شيئا وأبغض الناس من احتاج اليهم وأحب الناس الى الله تعالى من احتاج اليه وسأله وأبغض الناس الى الله تعالى من استغنى عنه ولم يسأل منه شيئا وقيل

فلا تيأس اذا أعسرت يوما * فقد أيسرت فى دهر طويل

فلا تظنن بربك ظن سوء * فان الله أولى بالجميل

ومن كلام أبي السعود الجارحي رضي الله عنه

سلم له الامر على تسلم * واصبر على الدهر ان تمادى

لا تخش نارا ذكت بليل * فربما أصبحت رمادا

مطلب الحث على احراز صفة العدل حفظا للحقوق وتجنب الظلم ارضاء للخالق والمخلوق

وقال صلى الله عليه وسلم اليد العليا خير من اليد السفلى قال ابن قتيبة العليا هي المعطية والسفلى هي السائلة وقال صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله بعبد خيرا الهمه الطاعه والزمه القناعه وفقهه في الدين وعضده باليقين فاكتفى بالكفاف واكتسى بالعفاف واذا أراد به شرا حبب اليه المال وبسط منه الآمال فشغله بدنياه ووكله الى هواه فركب الفساد وظلم العباد وقيل

عليك بالعدل تنال المنى * وترتجي الفوز بيوم الوعيد

فالظالم المغرور بين الورى * من أسخط المولى وأرضى العبيد

يقال ان موسى عليه السلام قال يارب ان فرعون جحدك مائتي سنة وادعى انه أنت مائتي سنة فكيف أمهلته فأوحى الله اليه أمهلته لخلال فيه اني أحببت اليه العدل والسخاء وحفظته لتربيتك وورد عنه صلى الله عليه وسلم من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله شرهم ومن ارضى الناس بسخط الله وكله الله اليهم ومن احسن فيما بينه وبين الله أحسن الله فيما بينه وبين الناس ومن أصلح سريرته اصلح الله علانيته ومن عمل لآخرته كفاه الله امر دنياه وقيل

لا تظلمن اذا ما كنت مقتدرا * فالظلم آخره يأتيك بالندم

تنام عيناك والمظلوم منتبه * يدعو عليك وعين الله لم تنم

مطلب انه ينبغي للانسان أن تكون علانيته مطابقة لسره في أقواله وأفعاله

وروى عنه صلى الله عليه وسلم دعوة المظلوم لا تحجب وقال الامام على كرم الله وجهه ما اضمر أحد شيئا الا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه ويقال حسن المقال ما صدقه حسن الفعال وقال زهير في كلامه

ومهما يكن عند امرئ من خليقة * وان خالها تخفى على الناس تعلم

وقيل كل امرئ راجع يوما لشيمته * وان تخلق اخلاقا الى حين

وقيل حقيقة النفاق اختلاف السر والعلانية ومخالفة القول العمل وقيل أشر الناس من هو في الظاهر صديق موافق وفي الباطن عدو منافق وعليه قول الشاعر

صديق اذا زرته ساعة * يود من الملق بوس القدم

يريك البشاشة عند اللقا * ويبريك ان غبت برى القلم
فبت حبالك من وصله * ولا تكثرن عليه الندم

ولابي حيان عليه من الله الرحمة والرضوان

تغير اخوان هذا الزمان * وكل صديق عراه الخلل
وكانوا قديما على صحة * وقد داخلتهم حروف العلل
قضيت التعجب من أمرهم * فصرت أطالع باب البدل

وله الناس مثل ظروف حشوها صبر * وفوق أفواهها شئ من العسل
تغر ذائقها حتى اذا كشفت * له تبين ما يحويه من دخل

وقال رحمه الله

صبرت على غدر الزمان وحقده * وطاب لى السم الزعاق بشهده
وجربت إخوان الزمان فلم أجد * صديقا جميل الغيب فى حال بعده
وكم صاحب عاشرته وألفته * فما دام لى يوما على حسن عهده
وكم غرنى من حسن ظنى به فلم * يضئ لى على طول اقتداحى لزنده
واغرب من عنقاء فى الدهر صاحب * أخو ثقة يسقيك صافى وده
بنفسك صادم كل أمر تريده * فليس مضاء السيف الا بحده
وعزمك جرد عند كل مهمة * فما نافع مكث الحسام بغمده
وكن ذا اقتصاد فى أمورك كلها * فأحسن أحوال الفتى حسن قصده
وما يحرم الانسان رزقا لعجزه * كما لا ينال الرزق يوما بكده
حظوظ الفتى من شقوة وسعادة * جرت بقضاء لا سبيل لرده

(رجع) وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم ان الله اذا أحب عبدا جعل رزقه كفافا فان الغنى مبطرة والفقر مبذلة وقال أيضا اللهم ارزق آل بيتى كفافا ومن كلام بعضهم

لاشئ أخسر صفقة من عالم * لعبت به الدنيا مع الجهال
فغدا يفرق دينه أيدى سبا * ويزيله حرصا بجمع المال
لاخير فى كسب الحرام وقلما * يرجى الخلاص لكاسب لحلال
فخذ الكفاف ولا تكن ذا فضلة * فالفضل تسأل عنه أى سؤال

وفى تاريخ ابن عساكر عن أبى الرضى العيش فى ثلاثة أشياء الاستغناء عن الناس

العدو والصديق وصحة البدن والامن من الدين وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم الذين هم بالليل ومذلة بالنهار وقيل

سل الله ربك ماعنده * ولا تسأل الناس ماعندهم
ولا تبتغي من سواه الغنى * وكن عبده لا تكن عبدهم

وقيل أرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه بصرة فيها نفقة الى أبي الدرداء رضي الله عنه على يد عبد له وقال ان قبلها فأنت حر لوجه الله تعالى فأتاه فلم يقبلها فقال العبد اقبلها فان فيها عتقي قال ان كان فيها عتقك ففيها رقي فعاوده بها وأبى أن لا يقبلها وقيل

اذا ترخص في قوم مكاسبهم * بكل وجه ذميم واقتطاعات
فلا قضى لي أمراذ بعوقني * عن كسب مكرمة أو وقت طاعات

وقال الحسن البصري رضي الله عنه لا يزال الرجل كريما على الناس حتى يطمع في دنياهم فيستخفون به ويكرهون حديثه وقيل لبعض أهل البصرة من سيدكم قالوا الحسن قال بم سادكم قالوا احتجنا لعلمه واستغنى هو عن دنيانا وقيل

كذ كذا العبد إن آ * ثرت ان تصبح حرا
لا تقل ذا مكسب يز * ري فسؤال الناس أزرى

ومن دعاء بعض السلف اللهم اجعلها في أيدينا ولا تجعلها في قلوبنا وعنه صلى الله عليه وسلم ان الفاقة لاصحابي سعادة وان الغنى للمؤمن في آخر الزمان سعادة وسبب ذلك ان جل الناس الآن ناظرون الى الدنيا وأهل الصدر الاول كان نظرهم الى الدين وقد شحت أهل الدنيا حتى بالقدر الواجب فاحتاج أهل العلم والصلاح ليستغنوا بها عن أهلها فان من احتاج اليهم هان قدره لديهم وقال بعضهم نحبها للانفاق لا للامساك وروى عنه صلى الله عليه وسلم كرم الدنيا الغنى وكرم الآخرة التقوى

وقيل ولابد من مال به العلم يعتلي * وجاه من الدنيا يكف المظالما
وقيل حياة بلا مال حياة ذميمة * وعلم بلا جاه كلام مضيع

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه المرء حيث وضع نفسه يعني ان أعز نفسه علا قدره ومن لا يكرم نفسه لا يكرم وان أهان نفسه وذلها ذل وهان قدره فينبغي أن يرفع قدره باعزاز نفسه فان أنفة القلب من همم الاكابر لانهم يعرفون قدر أنفسهم وقيل

اذا ما أهان امرؤ نفسه * فلا أكرم الله من يكرمه

وقال عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله أبو البركات النحوي كمال الدين بن الانباري

العلم أوفى حلية ولباس * والعقل أوفى جنة الاكياس
كن طالبا للعلم تحيا دائما * جهل الفتى كالموت فى الارماس
وصن العلوم عن المطامع كلها * لترى بأن العز فى اليأس
والعلم ثوب والعفاف طرازه * ومطامع الانسان كالادناس
والعلم نور يهتدى بضيائه * وبه يسود الناس فوق الناس

وقيل
عجبت للمرء فى دنياه تطمعه * فى العيش والاجل المحتوم يقطعه
يمسى و يصبح فى عشواء يخبطها * أعمى البصيرة والآمال تخدعه

مطلب لن العلم خير بضاعة وان التكسب من الحلال رأس مال القناعة

وعن على رضى الله عنه من كان فى طلب العلم كانت الجنة فى طلبه ومن كان فى طلب المعصية كانت النار فى طلبه وروى عنه صلى الله عليه وسلم منهومان (أى حريصان) لا يشبعان طالب العلم وطالب الدنيا فأما طالب العلم فيزداد فى رضى الرحمن وأما طالب الدنيا فيزداد فى الطغيان وعن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أفضل الاعمال على ظهر الارض ثلاثة طلب العلم والجهاد والكسب لان طالب العلم حبيب الله تعالى والغازى ولى الله تعالى والكاسب صديق الله تعالى وروى عن سالم بن أبى الجعد أنه قال اشترانى مولاى بثلاثمائة درهم وأعتقنى فقلت فى نفسى بأى حرفة أحترف فاخترت العلم على كل حرفة فلم تمض مدة حتى أتانى الخليفة زائرا وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ان الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة فاذا سمع العلم خاف واسترجع على ذنوبه فانصرف الى منزله وليس عليه ذنب فلا تفارقوا مجالس العلماء وورد عنه صلى الله عليه وسلم العلم ميراثى وميراث الانبياء من قبلى وورد عنه صلى الله عليه وسلم الناس رجلان عالم ومتعلم ولا خير فيما سواهما

فعلماء الشريعة هم الزمام وبانتظام أحوالهم يكمل الانتظام فاذا تكسبوا من الحلال بصنعة استغنوا عن الشبهة المتوسطة بين الحرام والحلال واكتفوا شر السؤال كما قيل

ان حزت علما فاتخذ حرفة * تصون ماء الوجه لا يبذل
ولا تهنه ان ترى سائلا * فشأن أهل العلم أن يسألوا

وقيل
ست عيون من تأتت له * كانت له كانية شافيه
العلم والعلياء والعفو والعشرة والعفة والعافيه

مطلب ان كلا من التكسب والعلم على أربعة أنواع فرض ومستحب ومباح وحرام

قال بعضهم وطلب الكسب لازم كطلب العلم وهو أنواع أربعة فرض وهو كسب أقل الكفاية لنفسه وعياله وقضاء دينه ومستحب وهو كسب الزائد على الكفاية ليواسى به فقيرا أو يصل به قريبا وهو أفضل من نوع العبادة ومباح وهو كسب الزائد على ذلك للتنعم والتجمل وحرام وهو كسب ما أمكن للتفاخر والتكاثر وان كان من حل وأفضل المكسب الجهاد ثم التجارة ثم الزراعة ثم الصناعة والعلم أيضا أنواع أربعة فرض وهو تعلم ما يحتاج اليه لأداء الفرائض ومعرفة الحلال والحرام فى أحوال نفسه ومستحب وهو تعلم الزائد على ما يحتاج اليه وليعلمه من يحتاج اليه وهو أفضل من نفل العبادة ومباح وهو تعلم الزائد على ذلك للزينة والكمال وحرام وهو التعلم ليباهى به العلماء ويمارى به السفهاء و يجب على العالم تعليم غيره اذا طلب منه الى أن يبلغ الى المرتبة الاولى ولا يجب على العالم أن يجيب عن كل ما يسأل عنه الا اذا علم ان ما يسأل عنه لا يعلمه غيره ولو طلب غير مسلم منه أن يعلمه القرآن والفقه فلا بأس به رجاء ان يطلع على محاسنه فتكون سببا فى غرس شجرة اليقين الايمانى فى قلبه

وقال بعضهم يجب على العبد أن يحمد الله تعالى من ثمانية أوجه الاول أن اوجده من العدم الثانى ان خلقه حيوانا ولم يخلقه جمادا الثالث ان خلقه ناطقا ولم يخلقه صامتا الرابع ان خلقه ذكرا ولم يخلقه أنثى الخامس ان جعله مسلما ولم يجعله كافرا السادس ان جعله عالما ولم يجعله جاهلا السابع ان جعله طائعا ولم يجعله عاصيا الثامن ان وفقه لمعرفته ونعم الله لا تحصى قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها (رجع) ومن علامة شريف العرض عدم الشح والبخل فالشحيح هو الذى يبخل بماله ومعروفه والبخيل هو الذى يبخل بماله فقط فكل شحيح بخيل ولا عكس

وسئل معاوية رضى الله تعالى عنه عن السفلة فقال الذى ليس له معروف ولا نسب موصوف فاذا ارتفعت الاسافل هلكت الأفاضل وقال بعضهم فى ذلك

ولقد عجبت من الزمان وفعله * فى حط ذى شرف ورفعة أرذل
كطبيعة الميزان فى أفعالها * تضع الراجح والنواقص تعتلى

وقيل
الدهر مع الانام كالميزان * لا يرفع الا صاحب النقصان

وقيل
قد رمينا من الزمان بسهم * قدم النذل والكريم تأخر
مات من عاش بالفضيلة جوعا * وحظى مازح ومن يتمسخر

وقيل
ومازال هذا الدهر يرفع ناقصا * كذوبا ويخفض فاضلا طيب الذكر

كما

كما شاع سب النور فى الناس جهرة * وقد أخفيت من فضلها ليلة القدر

وفى الحديث القدسى عن النبى داود عليه السلام قال الله تعالى ياداود لا تقوم الساعة حتى تذل الأشراف وترتفع الأراذل ويهجر كتابى فلا يتلى ويكثر فيه رزق العاصى والفاجر ويقل فيه رزق المؤمن الطائع الفاضل فاذا صار الامر الى ذلك الزمان حبب الدنيا الى اهل ذلك الزمان ومنعتهم من محبة الآخرة فاذا فعلوا ذلك سلطت عليهم سيف النقمة وأغليت أسعارهم وجعلت الصغير لا يوقر الكبير وابتليتهم بالفسق والفجور وذلك جزاؤهم عندى وقال بعضهم

سل الفضل اهل الفضل قدما ولا تسل * بخيلا رجا نيه وخذ عنه معزلا

وهم كريما عاش فى العز واطرح * غلاما ربى فى الذل ثم تمولا

فلو جادت الدنيا عليه بأسرها * ومقداره للفرقدين قد اعتلى

وجئت اليه فى اضطرار رسألته * تذكر ماقاسى من الذل أولا

وقيل مستحدث النعمة لا ترجه * فكفه مملوءة فقرا

وورد عنه صلى الله عليه وسلم لان تعطى يدك الى التنين فيقضمها خير من ان تسأل ذا نعمة حدثت عليه (والتنين ضرب من الحيات وقوله فيقضمها بضاد معجمة اى يعضها) وورد عنه صلى الله عليه وسلم من عظمت نعمة الله عليه عظمت مؤنة الناس اليه فمن لم يتحمل تلك المؤنة فقد عرض نعمته للزوال وقيل

اذا كنت فى نعمة فارعها * فان المعاصى تزيل النعم

وداوم عليها بشكر الاله * فان الاله سريع النقم

وقال صلى الله عليه وسلم السخى قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار وقال صلى الله عليه وسلم طعام السخى دواء وطعام البخيل داء وقال صلى الله عليه وسلم لكل شئ زكاة وزكاة الدار بيت الضيافة وقال صلى الله عليه وسلم ان من السنة أن يخرج الرجل مع ضيفه الى باب الدار

ومن الخصال المذمومة الفجور والكذب والخيانة والبخل والسخافة والفظاظة والحقد والحسد والبذاء والشره والطمع والتملق والظلم والجحد والجهل والنفاق والبلادة والكبر والعجب والجبن وقال صلى الله عليه وسلم التملق ليس من أخلاق المؤمن وعن أبى بكر رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال المؤمن

حافظ الحدود دائم الفكر طالب العلم كامل العقل طيب اللسان حسن الخلق قليل الضحك قليل اللهو تارك الشهوات مخالف الشيطان طائع الرحمن زاهد في الدنيا راغب في الآخرة وقيل

عليك بتقوى الله في كل حالة * فتقواه مما يرفع الناس أرفع
هي العز في الدنيا بغير عشيرة * وزينتها يوم القيامة أنفع

وورد في الحديث الصحيح خمس بخمس ما نقض العهد قوم الا سلط الله عليهم عدوهم وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر وما ظهرت فيهم الفاحشة (اى الزنا) إلا فشا فيهم الموت ولا طففوا الكيل الا منعوا النبات وأخذوا بالسنين من القحط ولا منعوا الزكاة الا حبس عنهم القطر وروى حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يامعشر الناس اتقوا الزنا فان فيه ست خصال ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة اما اللاتي في الدنيا فيذهب البهاء ويورث الفقر وينقص العمر واما اللاتي في الآخرة فسخط الله سبحانه وتعالى وسوء الحساب وعذاب النار أعاذنا الله من النار وما قرب اليها من قول وعمل ورزقنا عفوه ومغفرته بمنه وكرمه

مطلب النهي عن ارتكاب الخنا واقتراف مثلبة الزنا

وورد عنه صلى الله عليه وسلم يقول الانسان مالي مالي وإنما له من ماله ثلاث ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى أو أعطى فأبقى وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس وقيل

مطلب انه ليس للانسان من ماله الا ما انتفع به في دنياه وآخرته

يغتر بالدهر مسرور بصحبته * وقد تبين ان الدهر يصرعه
ويجمع المال حرصا لا يفارقه * وقد درى انه للغير يجمعه
تراه يشفق من تضييع درهمه * وليس يشفق من دين يضيعه
وأسوأ الناس تدبيرا لعاقبة * من أنفق العمر فيما ليس ينفعه

وقال صلى الله عليه وسلم ان الصعلوك كل الصعلوك الذي له مال لم يقدم منه شيئا يعني لم يتصدق منه بشئ قال ابن دريد في مقصورته

وللفتى من ماله ماقدمت * يداه قبل موته لا ما اقتنى
وانما المرء حديث بعده * فكن حديثا حسنا لمن وعى

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه أول من يدخل الجنة مني من أمتي سبعون الفا مع كل ألف سبعون ألفا ليس عليهم حساب وهذا تخصيص لقوله صلى الله عليه وسلم كما عند مسلم من حديث أبي برزة الاسلمي لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع

عن

عن عمره فيما أفناه ومن جسده فيما أبلاه وعن علمه ماعمل فيه وعن ماله من اين اكتسبه وفيما أنفقه وقيل

ونحن فى غفلة عما يراد بنا * نمسى لشقوتنا من ليس ينسانا

وقيل المال ينفد حله وحرامه * يوما وتبقى بعده آثامه

مطلب فضل كل من القرض والصدقة وما لكل من الحسنات الثابتة المحققة ومقابلة الجميل بالجميل كما هو من شيم كل ماجد نبيل

وعن بعض الحكماء من اعتصم بعقله زل ومن استغنى بماله قل ومن اعتز بمخلوق ذل وقال صلى الله عليه وسلم ان الصدقة ولو قلت تطفئ غضب الرب وتدفع ميتة السوء وعنه صلى الله عليه وسلم الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وعنه صلى الله عليه وسلم ان الصدقة تطفئ عن أهلها حر القبور وقال صلى الله عليه وسلم كل امرئ فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس وقال صلى الله عليه وسلم الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر قال بعضهم وذلك ان الصدقة قد تقع فى يد غنى فى الباطن والقرض لا يأخذه الا المحتاج وعنه صلى الله عليه وسلم من سره ان ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه وعنه صلى الله عليه وسلم من أنظر معسرا أمهله الله بذنوبه الى أن يتوب وعنه صلى الله عليه وسلم لا يشكر الله من لا يشكر الناس وقال صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل عبدى لم تشكرنى اذا لم تشكر من أجريت النعمة على يديه وعنه صلى الله عليه وسلم من صنع اليه معروف فقال لفاعله جزاك الله خيرا فقد أبلغ فى الثناء وقال صلى الله عليه وسلم صنائع المعروف تقى مصارع السوء وقيل

فلا كانت الدنيا اذا لم ترد بها * سرور محب أو اساءة مجرم

مطلب ان الانسان ظالم لنفسه ولغيره من أبناء جنسه إلا من شمله الله من هدايته بانوار قدسه

وقال بعضهم نحن فى زمان لا يزداد الخير فيه الا إدبارا والشر الا اقبالا والشيطان فى هلاك الناس الا اطماعا اضرب بطرفك حيث شئت فلا تبصر الا فقيرا يكابد فقرا وغنيا بدل نعمة الله كفرا وبخيلا اتخذ حق الله وفرا ومتمردا كأن فى سمعه من سماع الموعظة وقرا وقيل مازال ابليس يضل فى الدين القويم والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم وقيل

يقولون الزمان به فساد * وقد فسدوا وما فسد الزمان

وللامام أبى حنيفة رضى الله عنه

نعيب زماننا والعيب فينا * وما لزماننا عيب سوانا

ونهجو فى الزمان بغير عيب * ولو نطق الزمان بنا هجانا

وليس الذئب يأكل لحم ذئب * ويأكل بعضنا بعضا عيانا

مطلب الحديث القدسي يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر

وعن سعيد عن أبي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال عن الله عز وجل يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الامور أقلب الليل والنهار ولفظ البخاري في التفسير والتوحيد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى يؤذيني ابن آدم الى آخره وفي رواية فان الله هو الدهر وقد أخرجه الطبراني عن أبي عيينة بهذا الاسناد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كان أهل الجاهلية يقولون انما يهلكنا الليل والنهار فقال الله تعالى في كتابه وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا الآية فيسبون الدهر قال الله تبارك وتعالى يؤذيني ابن آدم فذكره قال القرطبي معناه يخاطبني بالقول الذي يتأذى منه من يجوز في حقه التأذي والله تعالى منزه عن أن يصل اليه الأذى وانما هذا من التوسع في الكلام والمراد أن من وقع منه ذلك تعرض لسخط الله تعالى وقوله وأنا الدهر قال الخطابي معناه أنا صاحب الدهر ومدبر الأمور التي ينسبونها الى الدهر فمن سب الدهر من أجل انه فاعل هذه الامور عاد سبه الى ربه الذي هو فاعلها وانما الدهر زمان جعل ظرفا لمواقع الامور وكانت عادة الجاهلية اذا أصابهم مكروه أضافوه الى الدهر فقالوا بؤسا للدهر وتبا للدهر وقال النووي قوله وأنا الدهر بالرفع في ضبط الاكثرين والمحققين ويقال بالنصب على الظرف أي أنا باق أبدا والموافق لقوله ان الله هو الدهر بالرفع وهو مجاز وذلك ان العرب كانوا يسبون الدهر عند الحوادث فقال لا تسبوه ان فاعلها هو الله وقال بعضهم خلق الله الخلق ليظهر قدرته ويعذبهم ليظهر نقمته ويدخلهم الجنة ليظهر رحمته

(رجع) وقال بعض الحكماء عشرة خصال يبغضها الله تعالى لعشرة البخل في الاغنياء والكبر في الفقراء والطمع في العلماء وقلة الحياء في النساء وحب الدنيا على الشيوخ والكسل في الشبان والحدة في السلطان والجبن في الغزاة والعجب في الزهد والرياء في العبادة وقيل

اثنان بغضهما على فريضة * متكبر في نفسه وبخيل

وقال صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل الكبرياء ردائي والعظمة إزاري من نازعني فيهما قصمته في النار ولا أبالي

وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو على سرير قد أثر الشريط بجنبه الشريف فبكى عمر رضي الله عنه فقال صلى الله عليه وسلم

وسلم ما يبكيك يا عمر فقال ذكرت كسرى وقيصر وما كانا فيه من الدنيا وأنت رسول رب العالمين وقد أثر بجنبك الشريط فقال صلى الله عليه وسلم أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا ونحن قوم أخرت لنا طيباتنا في الآخرة وكان صلى الله عليه وسلم في سفر فأمر باصلاح شاة فقال رجل يا رسول الله على ذبحها وقال آخر وعلى سلخها وقال آخر وعلى طبخها فقال صلى الله عليه وسلم وعلى جمع الحطب فقالوا يا رسول الله نحن نكفيك ذلك فقال قد علمت ولكني أكره أن أتميز عليكم فان الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه وقام فجمع الحطب وهذا لكمال زهده وتواضعه صلى الله عليه وسلم

مطلب ذم الكبر ومدح التواضع

وحكى رجاء بن حيوة الكندي انه بات ليلة عند عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فهم السراج ان يخمد فقام اليه ليصلحه فأقسم عليه عمر لتقعدن وقام هو فأصلحه وقال قمت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر وقال صلى الله عليه وسلم رب الشئ أحق بشيئه مالم يعجز عنه وهذا لنفي الكبر وقيل

تواضع اذا نلت العلى تعل رتبة * وتكتسب الشكر الجميل من الورى
فلن يشكر الغيث الرفيع محله * قرين الثريا أو يصير من الثرى

وقيل

عجبت للانسان في فرحه * وهو في غد في قبره يقبر
مابال من أوله نطفة * وجيفة آخره يفخر
أصبح لا يملك تقديم ما * يرجو ولا تأخير ما يحذر

والتواضع من أجل الاوصاف وأشرفها قال الله تعالى وبشر المخبتين يعني أهل التواضع وقال تعالى وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا معناه متواضعين وقال صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر فقال رجل يا رسول الله ان الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا فقال عليه الصلاة والسلام ان الله يحب الجمال * المتكبر من بطر الحق وغمص الناس وكان صلى الله عليه وسلم يعود المرضى ويشيع الجنازة ويجيب دعوة العبد ويركب الحمار مخطوما بحبل من الليف ويعلف البعير والشاة ويخصف النعل ويرقع الثوب ويأكل مع الخادم ويحمل حاجته من السوق الى أهله ويصافح الغني والفقير ويبدؤهما بالسلام وقال صلى الله عليه وسلم طوبى لمن تواضع في غير منقصة وأذل نفسه في غير مسكنة وأنفق مالا جمعه في غير معصية وقال عليه الصلاة والسلام لا يفخر أحد على أحد فانكم عبيد الرب والرب

واحد وقيل ليس لمتكبر صديق وقال مسلم بن قتيبة ما تكبر أحد في ولاية الامن كبرت عنه ولا تواضع فيها الامن كبر عنها وقيل

مطلب ان المتكبر في ولايته دليل على صغر همته والمتواضع فيها دليل على علوها

ومعتقد أن الرياسة في الكبر * فأصبح ممقوتا بها وهو لا يدري
يجر ذيول العجب يطلب رفعة * ألا فاعجبوا من طالب الرفع بالجر

وقيل
لم ألق مستكبرا الا تلبس بي * عند اللقاء به الكبر الذي فيه
ولا حلالي من الدنيا ولذتها * الا مقابلتي للتيه بالتيه

وقال صلى الله عليه وسلم أكرم الكرم التقوى وأشرف الشرف التواضع وقيل

أقول له إذ طيشته رياسة * اليه أتت مهلا فقد غلط الدهر
ترفق براجع فيك دهرك نفسه * فما سدت إلا والزمان به سكر
ألم تر للبقطين عند طلوعه * يطول ولكن لا يطول له عمر

وقال عمر رضي الله عنه حسن التودد الى الناس نصف العقل وحسن السؤال نصف العلم وحسن التدبير نصف المعيشة وقيل

ان المناصب لا تدوم لاهلها * ان كنت تنكر ذا فأين الاول
فاغرس من الفعل الجميل مكارما * فاذا عزلت فانها لا تعزل

وقيل
ان الامير هو الذي * أضحى أميرا يوم عزله
ان زال سلطان الولاية * لم يزل سلطان فضله

قال أبو عثمان الحيري لا يكمل الرجل حتى يستوي في قلبه أربعة أشياء المنع والعطاء والعز والذل وقال صلى الله عليه وسلم ليس الشديد من غلب الناس انما الشديد من غلب نفسه وورد عنه صلى الله عليه وسلم أشدكم من ملك نفسه عند الغضب وأحلمكم من عفا عند القدرة

مطلب انه لا يتحلى الانسان من صفة الكمال بالمراد الا اذا استوت عنده على اختلافها الاضداد

وقال بعضهم ان الله خلق النفس شر الاشياء وهي مطيتك وأنت محتاج اليها ومثلها كمثل السارق الواقف على متاع البيت وهي قرينة الشيطان ومأوى كل سوء ولها صفات مذمومة تحب الشر وتبغض الخير تخالف العقل وتوافق الهوى وهي في الشبع مثل السبع وفي الجوع مثل الطفل الضعيف وفي الغضب مثل الملوك الجبابرة وفي الشهوة مثل البهائم وفي الخوف مثل الهر وفي الأمن مثل الاسد والنمر ومن سوء عاداتها تخاف من الفقر والقلة ولا تخاف من الله تعالى ومن أليم عذابه وهي مسخرة الشيطان ولها أعوان وأنصار مثل الدنيا وزهرتها والهوى والشيطان ولكل واحد

من أعوانها جنود ووفود وحشم من زينة الحياة الدنيا مثل كثرة النوم وكثرة الاكل وكثرة الضحك ومحبة حكايات الفساق وحب الدنيا والكبر والحسد والنميمة والعداوة الذميمة وارتكاب المعاصي واللعب وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم ان الله كتب الاحسان في كل شئ ففي أهله يحسن عشرتهم ولا يكلفهم مالا يطيقون ولا يضيعهم قال صلى الله عليه وسلم كفى بالمرء إثما ان يضيع ما يعول والى خدمه بأن لا يكلفهم من العمل مالا يطيقونه ولا يضيعهم والى اخوانه بأن لا يغشهم بل ينصح لهم ويحسن صحبتهم ويحمل أذاهم ويكرم مثواهم والى سائر الناس بأن يعلمهم ما ينفعهم لمعاشهم ومعادهم وارشاد سبيل الخيرات واجتناب المنكرات ويحب لاخيه ما يحب لنفسه من الطاعات والمباحات الدنيوية وسواء كان ذلك في الامور الحسية كالغنى أو المعنوية كالعلم فيكون معه كالنفس الواحدة كما حث صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله في الحديث الصحيح أيضا المؤمنون كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر وقال ابن عباس رضي الله عنهما اني لأمر على الآية من كتاب الله تعالى فأود أن الناس علموا منها ما أعلم وكذلك يرفق بالحيوان بأن لا يجيعه ولا يعطشه ولا يضر به ولا يكلفه من العمل مالا يطيقه ولا يستمر راكبا على الدابة وهي واقفة الا لحاجة وقد كان عمر رضي الله عنه يخرج الى الحوائط يخفف عمن أثقل في عمله من الرقيق والاحرار والبهائم ويزيد في رزقه لان كف الاذى ودفع الضرر من المصالح المطلوبة وقد قال صلى الله عليه وسلم لاضرر ولاضرار وقال صلى الله عليه وسلم خياركم خياركم للسائليك

مطلب حسن عشرة الانسان لاهله وخدمه واخوانه وسائر بني اوطانه

مطلب ان من اوفق التوفيق الرفق بالحيوان والرفيق

(رجع) وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم لا تسأل الامارة فانك ان سألتها وكلت اليها وان سئلت لها أعنت عليها وقال الامام ابن عطاء الله السكندري رحمه الله تعالى ما تعسر مطلب أنت طالبه بربك ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك وعن علي كرم الله وجهه لا يغرنك حر الشتاء وضحك الامراء وتملق الاعداء وزهد النساء كما قيل

ان العدو وان أبدى مسالمة * اذا رأى منك يوما فرصة وثبا

وقال الحسن لولا الابدال لخسفت الارض ولولا الصالحون لهلك الطالحون ولولا العلماء لصار الناس كالبهائم ولولا الريح لانتن كل شئ

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة يظلهم الله يوم

لاظل الاظله إمام عادل وشاب نشأ فى طاعة الله عز وجل ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من خشية الله تعالى ورجل قلبه معلق بالمسجد اذا خرج منه حتى يعود اليه ورجل تصدق بصدقة فأخفاها فلم تعلم شماله ماتنفق يمينه ورجلان تحابا فى الله فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال الى نفسها فأبى عنها وقال انى أخاف الله رب العالمين قال الله تعالى ان تبدوا الصدقات فنعما هى وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيآتكم والله بما تعملون خبير وقد كان الامام زين العابدين رضى الله تعالى عنه ينفق سرا ويتصدق سرا حتى كان غالب أهل المدينة الشريفة يرمونه بالبخل فلما مات وجدوه كان يقوت مائة بيت من أهل المدينة وكذلك كان شيخ الاسلام ذكريا الانصارى يسر بصدقته حتى كان غالب الناس يعتقدون انه بخيل وما كان فى علماء مصرا كثر صدقة منه وكان إذا أراد أن يعطى أحدا شيئا يقول له صافحنى لاجل السنة ويضع له ماقسم له وتارة يقول هل هنا أحد فان قيل نعم يقول لمن يريد أن يعطيه شيئا يافلان عد إلينا مرة أخرى فان لى بك حاجة وورد عنه صلى الله عليه وسلم لايجنى على المرء الا يده وفى لفظ لايجنى جان الا على نفسه والمراد انه لايؤخذ انسان بجناية غيره ان قتل أو جرح أو زنى وانما يؤخذ

مطلب ان الانسان لايؤخذ بجناية غيره وان الاصل فى الدماء العصمة عقلا ونقلا

بما جنته يده فيده هى التى أدته الى ذلك والاصل فى الدماء العصمة عقلا ونقلا اما الاول فلان فى القتل افساد الصورة الانسانية المخلوقة فى أحسن تقويم والعقل يأباه واما نقلا فلقوله تعالى ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق وقوله تعالى ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم وقول المصطفى عليه الصلاة والسلام لايحذر أحدكم ان يحول بينه وبين الجنة ملء كف من دم يهريقه بغير حق وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال من خرج من ذل المعصية الى عز الطاعة أغناه الله من غير مال وأيده من غير جند وأعزه الله من غير عشيرة

مطلب ان امور الدنيا خمسة اشياء اعتقادات وعبادات وعمليات وزواجر وآداب وان كلا منها تحته أنواع

قال بعضهم اعلم ان أمور الدنيا خمسة أشياء وهى الاعتقادات والعبادات والعمليات والزواجر والآداب أما الاعتقادات فخمسة أنواع الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر واما العبادات فخمسة أنواع الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد واما المعاملات فخمسة أنواع المعاوضات المالية والمناكحة والمخاصمات والامانات والشركات وأما الزواجر فخمسة أنواع زاجر عن قتل النفس وهو القصاص وزاجر عن هتك الستر وافساد الفراش واضاعة النسب وهو حد الزنا وزاجر عن أخذ المال

المال وهو حد السرقة وزاجر عن سلب العرض وهو حد القذف وزاجر عن إزالة العقل وهو حد الشرب واما الآداب فأربعة أنواع الاخلاق الحميدة والشيم الحسنة والسياسات والمعاشرات وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال سألت جبريل عليه السلام أتنزل بعدى الى الارض قال نعم أنزل عشر مرات أرفع جواهر الارض الاولى أنزل مرة أرفع البركة الثانية أرفع الشفقة من قلوب العباد الثالثة أرفع الحياء من النساء الرابعة أرفع العدل من الامراء الخامسة أرفع المحبة من قلوب الخلق السادسة أرفع الصبر من قلوب الفقراء السابعة أرفع السخاء من الاغنياء الثامنة أرفع العلم من صدور العلماء التاسعة أرفع القرآن من المصاحف العاشرة أرفع الايمان من أهل الايمان نسأل الله تعالى العافية بفضله وكرمه

قال الامام على كرم الله وجهه طلبت الرفعة فوجدتها فى التواضع وطلبت الرياسة فوجدتها فى العلم وطلبت النصرة فوجدتها فى الصبر وطلبت العبادة فوجدتها فى الورع وطلبت الغنى فوجدته فى القناعة وطلبت الشكر فوجدته فى الرضى وطلبت الراحة فوجدتها فى ترك الجهد وطلبت ترك الغيبة فوجدتها فى الخلوة وطلبت الملك فوجدته فى الزهد وطلبت الصاحب فوجدته فى العمل الصالح وطلبت العافية فوجدتها فى الصمت وطلبت الانس فوجدته فى تلاوة القرآن وطلبت ثقل الميزان فوجدته فى ذكر الله دائما وطلبت البر فوجدته فى السخاء وطلبت المروءة فوجدتها فى الصدق وقال صلى الله عليه وسلم من اشتاق الى الجنة سارع الى الخيرات ومن أشفق من النار لها عن الشهوات ومن ترقب الموت هانت عليه اللذات ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات وقيل

الموت لابد منه فاستعد له * ان اللبيب بذكر الموت مشغول
وكيف يلهو بعيش أو يلذ به * من التراب على خديه مجعول

وورد عنه صلى الله عليه وسلم علامة حب الله حب ذكره وعلامة بغض الله بغض ذكره وقال صلى الله عليه وسلم عليكم بلا إله الا الله والاستغفار فأكثروا منهما فان ابليس قال أهلكتهم بالذنوب وأهلكونى بلا إله الا الله والاستغفار وقال صلى الله عليه وسلم اذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا قيل وما رياض الجنة يا رسول الله قال حلق الذكر وقال بعضهم المروءة والفتوة رضيعا لبان وشريكا عنان وفرسا رهان وقال الحسن بن على رضى الله عنه المروءة حفظ الرجل دينه وإحرازه نفسه عن الدنس وقيامه

لضيفه وأداء الحقوق وافشاء السلام وروى أبو هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير وزاد ابن المثنى والصغير على الكبير وقيل الفتوة حسن الخلق لمن تبغضه وبذل المال لمن تكرهه وقيل لبعضهم ما الفتوة فقال ان لا تميز بين ان يأكل عندك ولي أو كافر وقيل استضاف مجوسي ابراهيم الخليل على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام فقال له بشرط أن تسلم فمر المجوسي لحال سبيله فأوحى الله الى ابراهيم منذ خمسين سنة أطعمه على كفره فلو ناولته لقمة من غير أن تطالبه بتغيير دينه لكان خيرا لك فمضى ابراهيم الخليل في أثره حتى أدركه واعتذر له فسأله عن السبب فذكر ذلك له فأسلم المجوسي وقد سماه الله فتى لذلك

ومن وصايا بعض الكبار إياك وكثرة الكلام فانه يظهر من عيوبك ما بطن ويحرك من عدوك ما سكن وقيل

النطق زين والسكوت سلامة * فاذا نطقت فلا تكن مكثارا
ما ان ندمت على سكوتك مرة * لكن ندمت على الكلام مرارا

مطلب ذم كثرة الكلام الا ما يكون كالدر في سلك النظام

وعن بعضهم عفة اللسان صمته فان اللسان سبع ضار فان لم توثقه عدا عليك وعن علي ابن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في وصيته لابنه الحسين رضي الله تعالى عنه يا بني امسك عليك لسانك فان تلاف المرء منطقه والكلام على ثلاث مراتب مستحب كالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ومباح وهو قول الانسان لغيره قم واقعد ونحو ذلك وحرام وهو الكذب والغيبة والنميمة والشتيمة والتملق والنفاق ونحو ذلك ويستثنى من الكذب الكذب في الحرب للخديعة وفي الصلح بين اثنين وفي ارضاء الرجل أهله وفي دفع الظالم عن المظلوم وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه من جلس مجلسا فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا اله الا أنت أستغفرك وأتوب اليك الا كان كفارة لما بينهما أخرجه الترمذي

وقيل الصمت منام اللسان والكلام يقظته وقال الاصمعي سمعت اعرابيا يقول دع من الكلام ما تعتذر منه وتكلم بما شئت وعنه صلى الله عليه وسلم من صمت نجا وقيل

اذا ما اضطررت الى كلمة * فدعها وباب السكوت اقصد
فلو كان نطقك من فضة * لكان سكوتك من عسجد

وقال

وقال بعض الحكماء دبر كلامك كما تدبر سهامك وقيل ان اللسان سهم يخطئ ويصيب وقيل لا تفتح بابا يعجزك سده ولا ترم سهما يعجزك رده واغتنم السكوت فان أدنى نفعه السلامة وان أشقى الناس من ابتلى بلسان مطلق وقلب مطبق فلا يحسن أن ينطق ولا يقدر أن يسكت

وقال صلى الله عليه وسلم كل لهو يلهو به المؤمن باطل إلا رميته عن قوسه وتأديبه فرسه ومداعبته امرأته

مطلب قوله تعالى ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء

وقال رجل لابي بكر الوراق أوصني فقال كن في الدنيا كالنخلة أصلها ثابت وفرعها في السماء اذا فرعت فرعت واذا فرعت أثمرت وكذلك المؤمن اذا أدب تأدب واذا هذب تهذب قال الله تعالى ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ولما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم ائتوني بشجرة تشبه المسلم لا يتحات ورقها تؤتي اكلها كل حين باذن ربها فوقع الناس في شجر البوادي قال ابن عمر فسكت القوم فوقع في قلبي انها النخلة فقال عليه الصلاة والسلام هي النخلة فقلت لابي لقد كان وقع في قلبي أنها النخلة قال فما منعك أن تكون قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأن تكون قلتها أحب الي من كذا وكذا فقلت كنت في القوم وأبو بكر وعمر فلم يقولا شيئا فكرهت ان أقول وفي هذا الحديث فوائد منها استحباب إلقاء العالم المسألة على أصحابه ليختبر أفهامهم ويرغبهم في الفكر والاعتناء وفيه ضرب الأمثال والأشباه وفيه توقير الكبار كما فعل ابن عمر لكن اذا لم يعرف الكبار المسألة فينبغي للصغير الذي يعرفها أن يقولها لاظهار شرفه بالنجابة وحسن فهمه قال العلماء وشبه النخلة بالمسلم في كثرة خيرها ودوام ظلها وطيب ثمرها ووجوده على الدوام فانه من حين يطلع ثمرها لا يزال يؤكل منه حتى ييبس وبعد أن ييبس ويتخذ منها منافع كثيرة من خشبها وأوراقها وأغصانها فيستعمل جذوعا وحطبا وعصيا وحصرا وحبالا ونواها ينتفع به علفا للابل ثم جمال نباتها وحسن هيئة ثمرها فهي منافع كلها خير وجمال كما ان المؤمن خير كله من كثرة طاعته ومكارم أخلاقه فيواظب على صلاته وصيامه وقراءته وذكره والصدقة والصلة وسائر الطاعات وغير ذلك فهذا هو الصحيح في وجه التشبيه وقيل وجه التشبيه اذا قطع رأسها ماتت بخلاف باقي الشجر وقيل انها لا تحمل حتى تلقح

قال بعضهم وهي أول شجرة استقرت على وجه الارض وهي شجرة مباركة لا توجد في كل

مكان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكرموا عمتكم النخلة وانما سميت عمة لانها كما روى خلقت من فضلة طينة آدم عليه السلام لانها تشبه الانسان فى حسن استقامة قدها وطولها وامتيازذكرها من بين النبات واختصاصها باللقاح ورائحة طلعها كرائحة النطفة واطلعها غلاف كالمشيمة التى يكون الولد فيها ولوقطع رأسها ماتت وان أصاب جمارها آفة هلكت والجمار من النخلة كالمخ من الانسان وعليها الليف كشعر الانسان وان تقاربت ذكورها وإناثها حملت حملا كثيرا لانها تستأنس بالمجاورة وان كانت ذكورها بين إناثها ألقحتها الريح وربما قطع إلفها من الذكور فلا تحمل لفراقه واذا دام شربها بالماء المالح أوطرح الملح فى أصولها حسن ثمرها ويعرض لها أمراض مثل الانسان ومن أمراضها سقوط الثمرة بعد الحمل وقال صاحب كتاب الفلاحة اذا نقعت النوى فى بول بغل وزرعت منها ما زرعت جاء نخله كله ذكورا وان نقعت النوى فى الماء ثمانية ايام وزرعته جاء بسره كله أحمر وان نقعت النوى فى بول البقر أياما وجففته ثلاث مرات وزرعته جاءت كل نخلة تحمل حملا قدر نخلتين واذا أخذت نوى البسر الاحمر وحشوته فى التمر الاصفر وزرعته جاء بسرها أصفر وكذلك بالعكس وكذلك فلاحة النوى المتطاول والنوى المدور وكيفية غرسه أن تجعل طرف النوى الغليظ مما يلى الارض وموضع النقير الى جهة القبلة وقيل

مطلب ما يوجد فى النخل من العجائب وكيفية الصناعة فى غرسه

فشرط الفلاحة غرس النبات * وشرط الرياسة غرس الرجال

وعن بعض ملوك الروم انه كتب الى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قد بلغنى ان ببلادك شجرة تخرج ثمرها كأنه آذان الحمر ثم ينشق كأحسن اللؤلؤ المنظوم ثم يخضر فيكون كالزمرد ثم يحمر ويصفر فيكون كشذور الذهب وقطع الياقوت ثم ينقع فيكون أطيب من الفالوزج ثم ييبس فيكون قوتا ويدخر فلله درها من شجرة فكتب اليه عمر رضى الله تعالى عنه صدقت رسولك وانها الشجرة التى ولدت تحتها المسيح عليه السلام وقال انى عبد الله فلا تدع مع الله إلها آخر ووصف خالد بن صفوان النخل فقال هى الراسخات فى الوحل المطعمات فى المحل الملقحات بالفحل اليانعات كشهد النحل تخرج اسفاطا اغلاظا وأوساطا كأنها ملئت حللا ورياضا ثم تنشق عن قضبان لجين وعسجد كشذر الفضة ثم تصير ذهبا أحمر بعد أن كانت كالزبرجد الاخضر

ومن خواص النخلة اذا مضغ خوصها يقطع رائحة الثوم وكذلك رائحة الخمر وقد قيل فيه

شعر

شعر كأن النخيل الباسقات وقد بدت * لناظرها حسنا قباب زبرجد
وقد علقت من قبلها زينة لها * قناديل ياقوت بأعراش عسجد

مطلب ان أفضل الحرف بعد الجهاد حرفة الزراعة ثم حرفة الخياطة ثم التجارة

ولاشك أن حرفة الزراعة التي من ضمنها زراعة النخل أفضل الحرف بعد الجهاد ثم حرفة الخياطة ثم التجارة وقيل التجارة شطارة والصناعة لصاحبها ربح من غير خسارة والزراعة من اجل الصنائع والعطارة من اكمل الحرف والبضائع وكل صنعة لها فضيلة أخروية فهي أفضل وكل صنعة يحتاج اليها في أمور الدين واقامة ركنه كالزراعة والخياطة ففيها فضيلة لتعلمها وتعلمها لان التغذي وستر العورة من أمور الدين واقامة ركنه فأي حرفة أشد احتياجا اليها من أمور الدين والدنيا فهي أحرى وأولى من أختها قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه من خط وخاط وفرس وعام فذا كم الغلام ولما كان من أهم صفات شرف العرض العفة أطلق عليها عرفا والا فهو أعم منها وأحسن ما قيل في ذلك قول السموأل بن عاديا الذي خمسه الصفي الحلي

مطلب قصيدة السموأل الحماسية وتخميسها للصفي الحلي

قبيح بمن ضاقت عن الرزق أرضه * وطول الفلا رحب لديه وعرضه
ولم يبل سربال الذي فيه ركضه * اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل

اذا المرء لم يحجب عن العين نومها * ويغلي من النفس النفيسة سومها
أضيع ولم تأمن معاليه لومها * وان هو لم يحمل على النفس ضيمها
فليس الى حسن الثناء سبيل

وعصبة غدر أرغمتها جدودنا * فباتت ومنها ضدنا وحسودنا
اذا عجزت عن فعل كيد بكيدنا * تعيرنا أنا قليل عديدنا
فقلت لها ان الكرام قليل

رفعنا على هام السماك محلنا * فلا ملك إلا تفيأ ظلنا
وقد خاف جيش الاكثرين أقلنا * وما قل من كانت بقاياه مثلنا
شباب تسامى للعلى وكهول

يوازي الجبال الراسيات وقارنا * وتبني على هام المجرة دارنا
ويأمن من صرف الزمان جوارنا * وماضرنا أنا قليل وجارنا
عزيز وجار الاكثرين ذليل

ولما حللنا الشام تحت أموره * لنا وحبانا ملكه وأميره
وبالمغرب الاعلى الذى عز طوره * لنا جبل يحتله من نجيره
منيع يرد الطرف وهو كليل

يريك الثريا من خلال شعابه * وتحدق شمس الافق حول هضابه
وتقصر خطو السحب دون ارتكابه * رسا أصله تحت الثرى وسما به
الى النجم فرع لا ينال طويل

وقصر على الشعراء قد فاض نهره * وفاق على فخر الكواكب فخره
وقد شاع ما بين البرية شكره * هو الابلق الفرد الذى شاع ذكره
يعز على من رامه ويطول

اذا ما غضبنا فى رضى المجد غضبة * لندرك ثارا أو لنبلغ رتبة
تزيد عداة الكر فى الموت رغبة * وانا القوم لا نرى القتل سبة
اذا ما رأته عامر وسلول

أبادت ملاقاة الحروب رجالنا * وعاش الاعادى حين ملوا قتالنا
لانا اذا رام العداة نزالنا * يقرب حب الموت آجالنا لنا
وتكرهه آجالهم فتطول

ومنا معيد الليث فى قبض كفه * ومورده فى أسره كاس حتفه
ومنا مبيد الالف فى يوم زحفه * وما مات منا سيد حتف أنفه
ولا طل منا حيث كان قتيل

اذا خاف ضيما جارنا أو جليسنا * فمن دونه أموالنا أو رؤسنا
وان أججت نار الوقائع شوسنا * تسيل على حد الظبات نفوسنا
وليست على غير الظبات تسيل

جنى نفعنا الاعداء طورا وضرنا * فما كان أحلانا لهم وأمرنا
ومذ خطبوا قدما صفانا وبرنا * صفونا فلم نكدر وأخلص سرنا
اناث أطابت حملنا وفحول

لقد وفت العليا فى المجد قسطنا * وما خالفت عن منشأ الاصل شرطنا
فمذ حاولت فى ساعة العز هبطنا * علونا الى خير الظهور وحطنا
لوقت الى خير البطون نزول

نقر

تقرّ لنا الاعداء عند انتسابنا * وتخشى خطوب الدهر فصل خطابنا
لقد بالغت أيدى العلى فى انتخابنا * فنحن كما المزن مافى نصابنا
كهام ولا فينا يعدّ بخيل

نغيث بنى الدنيا ونحمل هولهم * كما يومنا فى العز يعدل حولهم
نطاول أناسا تحسد السحب طولهم * ونشكر إن شئنا على الناس قولهم
ولا يشكرون القول حين نقول

لا شيا خناسعى به الملك أيدوا * ومن سعينا بيت العلاء مشيد
فما زال منا فى الدسوت مؤيد * اذا سيد منا خلا قام سيد
قوول بما قال الكرام فعول

سبقنا الى شأو العلى كل سابق * وعم عطانا كل راج ووامق
فكم قد خبت فى المحل نار منافق * وما خمدت نار لنا دون طارق
ولا ذمنا فى النازلين نزيل

علونا فكان النجم دون علوّنا * وسام العداة الخسف فرط سموّنا
فما ذا يسر الضدّ من يوم سوّنا * وأيامنا مشهورة فى عدوّنا
بها من قراع الدارعين فلول

أبدنا الاعادى حين ساء فعالها * فعاد عليها كيدها ونكالها
بيض جلاجيل العقال صقالها * معوّدة ان لا تسل نصالها
فتغمد حتى يستباح قتيل

هم هوّنوا فى قدر من لم يهنهم * وخانوا غداة السلم من لم يخنهم
فان شئت خبر المال منا ومنهم * سلى ان جهلت الناس عنا وعنهم
فليس سواء عالم وجهول

وقال شميلة من أشراف مكة وكان نجدا شجاعا شاعرا

ليس التعلل بالآمال من شيمى * ولا القناعة بالاقلال من هممى
ولست بالرجل الراضى بمنزلة * حتى أطا الفلك الدوّار بالقدم

هكذا تكون النخوة الهاشمية والشهامة القرشية ولا يحسن الافتخار والحماس من عموم الناس ولئن حسن فهو من أهل البيت أحسن جعلنا الله ممن أنعم عليهم بحبهم وأحسن

لحفظ العرض الذى هو أساس الفضائل تدخل فيه العفة التى ينبغى ان تكون وصفا للذكور والاناث فمن شرف المرأة وفاؤها بحقوق زوجها بحفظ عرضه وماله بأن تكون لزوجها راعية ومحبة لطاعته سرا وعلانية ولهذا كان الآباء والأمهات يوصون البنات بطاعة الازواج

* (الفصل الثالث فى خطبة الآباء والامهات ووصاياهم للبنين والبنات وغير ذلك) *

جرت العادة عند العرب الذين هم خيار الناس بان الآباء والأمهات يصطفون لابنائهم الازواج والزوجات مع مراعاة الاصالة والاعراق والنباهة وحسن الاخلاق وكرم الاصل والفعال وظرف المعانى ولطف الخصال ووضاءة البهاء والجمال وجميع الصفات الباعثة على عدم الشقاق الجالبة للوداد والوفاق فمن ذلك ما حكى عن الحارث بن عوف سيد قبيلته انه قال لبعض اخوانه أترى أنى أخطب الى أحد فيردنى قال نعم قال ومن هو قال أوس بن حارثة بن لام الطائى الذى قال فى مدحه الشاعر

الى أوس بن حارثة بن لام * ليقضى حاجتى فيمن قضاها
فما وطئ الحصى مثل ابن سعدى * ولا لبس النعال ولا احتذاها

مطلب تزويج الحارث بن عوف هنيسة ابنة أوس بن الحارث

فقال اركب بنا اليه فركبا وسارا حتى أتيا أوس بن حارثة فى بلاده فوجداه فى فناء منزله فلما رأى الحارث بن عوف قال مرحبا بك يا حارث ما جاء بك قال جئت خاطبا فأساءه فى الجواب فانصرف ولم يكلمه ودخل أوس الى زوجته مغضبا فقالت من الرجل يسلم عليك فلم تكلمه فقال ذلك سيد العرب الحارث بن عوف الطائى قالت فمالك لم تستنزله قال انه استحمقنى قالت وكيف ذلك قال جاء خاطبا قالت أفتريد أن تزوج بناتك أم لا قال نعم بل أزوجهن ولابد من الزواج قالت فاذا لم تزوج سيد العرب فى زمانه فمن تريد لهن قال كان ذلك وندم قالت له فتدارك ما كان منك قال بماذا قالت بأن تلحقه وترده قال وكيف ذلك وقد فرط منى اليه ما فرط قالت تقول له انك لقيتنى وأنا مغضب لأمر فلك المعذرة فيما فرط منى فارجع فلك عندى كل ما أحببت قال فركب فى أثرهما فوالله إنا لنسير إذ حانت منى التفاتة فرأيته فقلت للحارث وهو لا يكلمنى غيظا هذا أوس فى أثرنا فقال وما أصنع به فلما رآنا لا نلتفت نادى يا حارثة اربع قليلا على فوقفا له وكلمه بذلك الكلام الذى علمته له زوجته فرجع مسرورا فلما دخل أوس منزله قال لزوجته ادعى بفلانة أكبر بناته فأتته فقال لها أى بنية

هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب قد جاء فى خاطبا وقد أردت ان أزوجك منه فما تقولين قالت لا تفعل قال ولم قالت انى امرأة ذات خلق وفى خلقى رداءة وفى لسانى حدة ولست بابنة عمه فيرعى حقى و رحمى ولا أنت مجاوره فى البلد فيستحى منك وأخاف ان يرى منى ما يكره فيطلقنى فيكون ذلك على سبة وحسرة قال قومى بارك الله فيك ثم دعا بابنته الثانية فقال لها مثل قوله لاختها فأجابته بمثل ذلك فقال قومى بارك الله فيك ثم دعا بهنيسة وكانت أصغرهن سنا وأحسنهن جمالا وأدبا وأرجحهن عقلا فقال لها مثل ذلك فقالت له والله انى الجميلة وجها الرفيعة خلقا الحسنة رأيا فان طلقنى فلا أخلف الله عليه وان أرادنى كنت له معينا على مضض الزمان وحوادثه فقال لها بارك الله فيك ثم خرج من عندها الينا فقال زوجتك يا حارث بنتى هنيسة قال قد قبلت فأمر أمها ان تهيئ حالها وتصلح شأنها ثم أمر ببيت فضرب لها وأنزله اياه ثم بعثها اليه فلما دخلت عليه لبث هنيهة ثم خرج الى فقلت له أفرغت من شأنك قال لا والله ما وصلت الى شئ قلت وكيف ذلك قال لما مددت يدى اليها قالت مه أعند أبى واخوتى انى لاستحى منهم هذا والله لا يكون أبدا ثم أمر بالرحيل فارتحلنا بها معنا وسرنا الى مأمننا ثم قال لى تقدم فتقدمت فعدل بها عن الطريق فما لبث قليلا ولحقنى فقلت أقضيت حاجتك قال لا قلت ولم ذلك قال قالت لى أتفعل بى كما يفعل بالسبية الأخيذة لا والله إلا حتى تنحر الجزور وتذبح الغنم وتدعو العرب وتعمل ما يعمل مثلك لمثلى فقلت والله انى لأرى همة وعقلا وأرجو الله ان تكون المرأة النجيبة ان شاء فسرنا الى حينا فأحضر البقر والغنم والابل ونحر وأولم ثم دخل عليها وخرج الى فقلت أقضيت حاجتك فقال لا والله قلت ولم ذلك قال دخلت عليها اريدها وقلت لها قد أحضرت من المال فخذى ما تريدين فقالت والله لقد ذكرت من الشرف بما ليس فيك قلت ولم ذلك قالت أتتفرغ للنساء وبلغنى ان العرب يقتل بعضهم بعضا وذلك فى أيام حرب عبس وذبيان قلت فماذا تريدين قالت اخرج الى القوم فأصلح بينهم ثم ارجع الى أهلك فلن يفوتك ما تريد وتفوز بالسيادة على قومك فقلت والله انى لارى عقلا ورأيا ما ركا سديدا قال فاخرج بنا فخرجنا حتى أتينا القوم فأمرناهم بالصلح ودخلنا بينهم فاصطلحوا على ان يحسبوا القتلى ثم يأخذوا واحدا فى واحد وما زاد يأخذوا ديته فكانت الزيادة على فريق منهم ثلاثة آلاف دينار فوزنوها وانصرفنا بأجمل ذكر وأعظم سيادة ثم دخل عليها فقالت نعم

الآن فأقامت معه فى ألذ عيش وأطيبه وولدت له بنين وبنات وكان من أمرهما ما كان

مطلب وصيه أسماء بن خارجة الفزاري ابنته عند زواجها وساق بعض أشياء مشابهة لذلك

قال الغزالى فى الاحياء زوّج أسماء بن خارجة الفزارى ابنته فلما أراد هداءها قال لها انك خرجت من العش الذى فيه درجت وصرت الى فراش لا تعرفينه وقرين لا تألفينه فكونى له أرضا يكن لك سماء وكونى له مهادا يكن لك عمادا وكونى له أمة يكن لك عبدا ولا تلحفى به فيقلاك ولا تتباعدى عنه فينساك ان دنا فاقربى منه وان نآى فابعدى عنه واحفظى أنفه وسمعه وعينه فلا يشم منك الا طيبا ولا يسمع منك الا حسنا ولا ينظر الا جميلا وكونى له كما قلت لامك

خذى العفو منى تستديمى مودتى * ولا تنطقى فى ثورتى حين أغضب

فانى رأيت الحب فى الصدر والاذى * اذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

مطلب زواج الحارث بن عمرو ملك كندة بابنة عوف بن محلم الشيبانى وابداع امرأة من كندة يقال لها عصام فى أوصاف جمالها ووصية امها لها عند زواجها

وقالت أخرى لابنتها كونى له فراشا يكن لك معاشا وكونى له وطاء يكن لك غطاء واياك والاكتئاب اذا كان فرحا والفرح اذا كان كئيبا ولا يطلعن منك على قبيح ولا يشمن منك الا طيب ريح ولا تفشين له سرا لئلا تسقطى من عينه وعليك بالماء والدهن والكحل فانها أطيب الطيب وعلى ذكر النهى عن إفشاء السر قول عمرو ابن العاص مااستودعت رجلا سرا فأفشاه فلمته لانى كنت أضيق صدرا حيث استودعته اياه وقيل

اذا المرء أفشى سره بلسانه * ولام عليه غيره فهو أحمق

اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه * فسر الذى يستودع السر أضيق

وقيل لا تفش سرك مااستطعت الى امرئ * يفشى اليك سرائرا تستودع

فكما تراه بسر غيرك صانعا * فكذا بسرك لا محالة يصنع

وقيل اذا المرء لم يحفظ سريرة نفسه * فاياك ان تفشى اليه حديثا

وقال صلى الله عليه وسلم استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فان كل ذى نعمة محسود وقيل من كتم سره ملك أمره وقيل كلما كثر خزان الاسرار ازدادت ضياعا (رجع) وقال شخص لابنته ليلة الهداء كونى لزوجك أمة يكن لك عبدا وعليك باللطف فانه أبلغ من السحر وبالماء فانه رأس الطيب

ولما بلغ الحارث بن عمرو ملك كندة جمال ابنة عوف بن محلم الشيبانى وكمالها وقوة عقلها دعا امرأة من كندة يقال لها عصام ذات عقل ولسان وأدب وبيان وقال لها

اذهبى

اذهبي حتى تعلمي لي علم ابنة عوف فمضت حتى انتهت الى أمها وهي أمامة ابنة الحارث فأعلمتها ما قدمت له فأرسلت أمامة الى ابنتها وقالت أي بنية هذه خالتك أتتك لتنظر اليك فلا تستري عنها شيئاً ان أرادت النظر من وجه أو خلق وناطقيها ان استنطقتك فدخلت اليها فنظرت الى ما لم ترقط مثله فخرجت من عندها وهي تقول ترك الخداع من كشف القناع فأرسلتها مثلاً ثم انطلقت الى الحارث فلما رآها مقبلة قال لها ما وراءك يا عصام قالت صرح المخض عن الزبد رأيت جبهة كالمرآة المصقولة يزينها شعر حالك كأذناب الخيل ان أرسلته خلته السلاسل وان مشطته قلت عنا قيد جلاها الوابل وحاجبين كأنما خطا بقلم أو سوّدا بحمم (بوزن حبر الفحم) تقوسا على مثل عين ظبية عبهرة (أي ممتلئة الجسم) بينهما انف كحد السيف الصنيع حفت به وجنتان كالارجوان في بياض كالجمان شق فيه فم كالخاتم لذيذ المبتسم فيه ثنايا غر ذات أشر (تأشير الاسنان تحزيزها وتحديد أطرافها) يتقلب فيه لسان ذو فصاحة وبيان بعقل وافر وجواب حاضر يلتقي فيه شفتان حمراوان تحلبان ريقا كالشهد في رقبة بيضاء كالفضة ركبت في صدر كصدر تمثال دمية وعضدان مدمجان يتصل بهما ذراعان ليس فيهما عظم يمس ولا عرق يجس ركبت فيهما كفان دقيق قصبهما لين عصبهما تعقدان شئت منهما الانامل نتأ في ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يخرقان عليها ثيابها تحت ذلك بطن طوي طي القباطي المدمجة كسرعكنها كالقراطيس المدرجة تحيط بتلك العكن سرة كالمدهن المجلو خلف ذلك ظهر فيه كالجدول ينتهي الى خصر لولا رحمة الله لانبتر لها كفل يقعدها اذا نهضت وينهضها اذا قعدت كأنه دعص الرمل لبده سقوط الطل يحمله فخذان لفا كأنما قلبا على نضد جمان تحتهما ساقان خدلتان (أي ممتلئتان) يحمل ذلك قدمان كحذو اللسان فتبارك الله مع صغرهما كيف تطيقان حمل ما فوقهما فأرسل الملك الى أبيها فخطبها فزوجها اياه وبعث بصداقها فجهزت وقيل

ذات حسن لو استزادت من الحسن اليه لما أصابت مزيدا
فهي كالشمس بهجة والقضيب الـلدن قدا والريم طرفا وجيدا

فلما أرادوا أن يحملوها الى زوجها قالت لها أمها أي بنية ان الوصية لو كانت تترك لفضل أدب أو مكرمة حسب لتركت ذلك معك ولكنها تذكرة للعاقل ومنبهة للغافل أي بنية لو استغنت ابنة عن زوج لغناء أبويها لكنت أغنى الناس عنه ولكنا خلقنا

للرجال كما خلق الرجال لنا أى بنية انك فارقت الوطن الذى منه خرجت والعش الذى منه درجت الى وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه أصبح بملكه اياك عليك ملكا فكونى له أمة يكن لك عبدا واحفظى له خلالا عشرا أما الاولى والثانية فالصحبة بالقناعة والمعاشرة بحسن السمع والطاعة فان فى القناعة راحة القلب وفى المعاشرة بحسن السمع والطاعة رضى الرب وأما الثالثة والرابعة فالتعهد لموقع عينه والتفقد لموقع أنفه فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم أنفه منك الا طيب ريح واعلمى أن الكحل أحسن الحسن الموجود وان الماء أطيب الطيب المفقود وأما الخامسة والسادسة فالتعهد لوقت طعامه والهدء عند منامه فان حرارة الجوع ملهبة وتنغيص النوم مغضبة وأما السابعة والثامنة فالاحتفاظ ببيته وماله والرعاية لحشمه وعياله فان أصل المال من حسن التقدير والرعاية على الجسم والعيال من حسن التدبير وأما التاسعة والعاشرة فلا تفشين له سرا ولا تعصين له أمرا فانك ان أفشيت سره لم تأمنى غدره وان عصيت أمره أوغرت صدره واتقى مع ذلك الفرح ان كان ترحا والاكتئاب ان كان فرحا فان الخصلة الاولى من التقصير والثانية من التكدير وأشد ما تكونين له اعظاما أشد ما يكون لك اكراما وأكثر ما تكونين له موافقة أحسن ما يكون لك مرافقة واعلمى انك لا تقدرين على ذلك حتى تؤثرين هواه على هواك ورضاه على رضاك فيما أحببت أوكرهت ثم ودعتها وصرفتها بعد أن نبهتها وعرفتها

مطلب وصية ابن المعلى المخزومى لابنه بما يخص التأدب بالآداب الحسنة التى من جملتها عشرة الازواج

ومن الوصايا للرجال فيما يخص التأدب بالآداب الحسنة ومن جملتها العشرة مع الازواج وصية خطاب بن المعلى المخزومى القرشى لابنه حيث قال عليك بتقوى الله تعالى وطاعته وتجنب محارمه وباتباع سنته ومعاملته حتى يصح عيبك وتقر عينك فانه لا يخفى على الله خافيه فانى قد رسمت لك رسما ووسمت لك وسما ان أنت حفظته ووعيته وعملت به ملئت بك أعين الملوك فأطع أباك واقتصر على وصيته وفرغ لذلك ذهنك واشغل به قلبك ولبك واياك وهذر الكلام وكثرة الضحك والمزاح ومهارات الاخوان فان ذلك يذهب البهاء ويوقع فى الشحناء وعليك بالرزانة والوقار من غير كبر يوصف منك ولا خيلاء تحكى عنك والق صديقك وعدوك بوجه الرضى وكف الاذى من غير ذلة لهم ولا مهابة منهم وكن فى جميع أمورك أوسطها فان خير الامور الوسط واقلل الكلام وافش السلام وامش متمكنا ولا تخط برجلك

ولا

ولا تسحب ذيلك ولا تلق رداءك ولا تنظر في عطفك ولا تكثر الالتفات ولا تقف على الجماعات ولا تتخذ السوق مجلسا ولا الحوانيت متحدثا ولا تكثر المراء ولا تنازع السفهاء وان قضيت فاختصر وان مدحت فاقتصر واذا جلست فتربع وتحفظ من تشبيك اصابعك وفرقعتها والعبث بلحيتك وخاتمك وذؤابة سيفك وتخليل اسنانك وادخال يدك في أنفك وطرد الذباب عن وجهك وكثرة التثاؤب والتمطي واشباه ذلك فان ذلك مما تستخفه الناس منك ويغتمزون به فيك وليكن مجلسك هادئا وحديثك مقسوما واصغ الى الكلام الحسن ممن يحدثك بغير اظهار عجب منك ولا تسأله اعادة وغض عن الفكاهات من المضاحك والحكايات ولا تحدث عن اعجابك بولدك ولا خادمك ولا عن فرسك وسيفك واياك وأحاديث الرؤيا فانك ان أظهرت الفرح بها طمع فيك السفهاء فولدوا لك الأحلام واغتمزوا في عقلك ولا تبدل العبد وغب بامتشاط لحيتك وتوق نتف الشيب وكثرة الكحل والاسراف في الدهن وليكن كحلك غبا ولا تلح في الحاجات ولا تخشع في الطلبات ولا تعلم أهلك وولدك فضلا عن غيرهم بعدة مالك فانهم ان راوه قليلا هنت وان رأوه كثيرا لم تبلغ به مرضاتهم واجفهم من غير عنف منك واذا خاصمت فتوقر وتحفظ من جهلك وتجنب عجلتك وتفكر في حجتك وأر الحاكم بينكما حلمك ولا تكثر الاشارة بيدك وتوق حمرة الوجه وعرق الجبين وان سفه عليك فاحلم واذا هدأ غضبك فتكلم وأكرم عرضك وألق الفضول عنك وان قربك السلطان فكن منه على حد السنان واذا استرسل اليك فلا تأمن انقلابه عليك وارفق به كل رفقك وكلمه بما يشتهي ما لم يضيع حقا من حقوق الله تعالى ولا يحملنك ماترى منه من الطافه اياك وخاصته بك ان تدخل بينه وبين أحد من أهله وولده وحشمه الا بخير وان كان لذلك منك مستمعا وللقول منك فيه مطيعا فان سقطة الداخل بين الملك وأهله صرعه واذا وعدت فحقق واذا حدثت فاصدق ولا تجهر بمنطقك كمنازع الاصم ولا تخافت به كمخافت الاخرس وتخير محاسن القول بالحديث المقبول واذا حدثت بسماع فانسبه الى أهله واياك والاحاديث الغريبة المستبشعة التي تنكرها القلوب وتقف بها الجلود واياك ومضاعف الكلام نعم نعم ولا ولا والعجل والعجل وما أشبه ذلك واذا توضأت فأجد عرك كفيك ولا تنخع في الطست وليكن طرحك الماء من فيك مسترسلا لا تمجه فينضح على أقرب جلسائك ولا تعض بعض اللقمة ثم تعيد ما بقي منها في الفم فان ذلك مكروه ولا تكثر

الاستقاء على مائدة الملوك ولا تعبث بالمشاش (أى العظام) ولا تعب طعاما ولا شيئا مما يقرب على المائدة من بقل أو خل أو تابل أو عسل فان الصحابة صيرت لنفسها المهابة بذلك ولا تمسك امساك المسكين المثبور ولا تبذر تبذير السفيه المغرور واعرف فى مالك واجب الحقوق وحرمة الصديق واستغن عن الناس يحتاجون اليك واعلم ان الجشع يعنى الطمع يدعوالى الطبع والرغبة كما قيل تدق الرقبة والاكلة تمنع الاكلات والتعفف مال جسيم وخلق كريم ومعرفة الرجل قدره تشرف ذكره ومن تعدى القدر هوى فى بعيد القفر والصدق زين والكذب شين والصدق يسرع عطب صاحبه خير وأحسن عاقبة من كذب يسلم صاحبه ومعاداة الحليم خير من مصادقة الاحمق والزوجة السوء الذ من داء العضال وطاعة النساء تزرى بالعقلاء تشبه بأهل الفضل تكن منهم واتضع للشرف تدركه واعلم ان كل امرئ حيث وضع نفسه وانما ينسب الصارم لصانعه والمرء يعرف بقرينه واياك واخوان السوء فانهم يخونون من رافقهم ويحزنون من صادقهم وقربهم أعدى من الجرب ورفضهم من استكمال الادب وجفوة المستجير لؤم والعجلة شؤم وسوء التدبير وهن والاخوان اثنان محافظ عليك عند البلاء وصديق لك فى الرخاء واحفظ صديق البلية وتجنب صديق العافيه فانه أعدى الاعادى ومن اتبع الهوى مال به الى الردى ولا يعجبنك الظريف من الرجال ولا تحقرن ضئيلا كالخلال وانما المرء بأصغريه وتوق الفساد وان كنت فى بلاد الاعادى ولا تفرش عرضك لمن دونك ولا تجعل مالك أكرم عليك من عرضك ولا تكثر الكلام فتثقل على الاقوام وامنح البشر جليسك والقبول وكن منتهبا فى فرصتك رفيقا فى حاجتك متثبتا فى مجلتك والبس لكل دهر ثيابه كما قيل

من شاء أن يصفو له عيشه * يمشى مع العميان والطرش
ماشيمتى الذل ولكننى * أمشى مع الدهر كما يمشى

وقيل فاقسم لكل زمان ما يليق به * فان للزند حليا ليس للعنق

وكن مع كل قوم فى سلكهم ولا تعجل فى أمر حتى تنظر الى عاقبته وعليك بالتنوير فى كل شهر واياك وحلق الابط بالنورة وليكن السواك من طبعك واذا اشتكت فعرضا وعليك بالعمارة فانها أنفع من التجارة وعلاج الزرع خير من اقتناء الضرع ومنازعة اللئيم تطمعه فيك ومن أكرم عرضه أكرمه الناس ومعرفة

الحق

الحق من اخلاص الصدق والرفيق الصالح ابن عم من أيسر عظم ومن افتقر احتقر قصر في المقاله مخافة عدم الاجابه والساعي عاتب عليك وطول السفر ملاله وكثرة المنى ضلاله وليس للعاتب صديق وأدب الشيخ عياء والأدب للغلام شفاء والدين أزين الامور والشماتة سفاهة والسكران شيطان وكلامه هذيان والعادة طبيعة لازمة ان خيراً فخير وان شراً فشر ومن حل عقدا احتمل حقدا والفرار عار والتقدم مخاطرة وكثرة العلل مع الموجود من البخل وشر الرجال الكثير الاعتلال (يعني في القول) وحسن اللقاء يذهب الشحناء ولين الكلام من اخلاق الرجال الكرام

أبني ان زوجة الرجل سكنه ولا عيش له مع خلافها فاذا هممت بزواج امرأة فاسأل عن أهلها فان العروق الطيبة تنبت الثمار الحلوة واعلم ان النساء أشد اختلافا من أصابع الكف فتوقى منهن كل ذات يد محمولة على الاذى فمنهن المعجبة بنفسها المزرية ببعلها ان أكرمها رأت فضلها ولا تشكره على جميل ولا ترضى منه بالقليل لسانها عليه سيف صقيل قد كشفت الوقاحة ستر الحياء عن وجهها هذاره عقاره زوجها مكلوم وعرضه مشتوم لا ترعى له دينا ولا دنيا ولا تحفظه لصحبته ولا لكبر سنه حجابه مهتوك وسره منشور وخيره مدفون يصبح كئيبا ويمسي عاتبا شرابه مر وطعامه غيظ وبيته مستهلك وثوبه وسخ ورأسه شعث ان تكلم فكاره وان ضحك فراهب نهاره ليل وليله نهار تلدغه مثل الحية وتكرشه مثل العقرب تهب مع الرياح وتطير مع كل ذي جناح ان قال لا قالت نعم وان قال نعم قالت لا محتقرة لما في يديه تضرب له الأمثال وتقصر به دون الرجال وتنقله من حال الى حال قلى بيته وملّ ولده وغشه عرسه وهانت عليه نفسه حتى أنكره اخوانه ورحمه جيرانه

ومنهن الحمقاء ذات الدلال في غير موضعه الماضغة للسانها التاركة لشانها قد قنعت من زوجها بحبه ورضيت بكسبه تأكل كالاتان الراتع ترتفع الشمس ولم يسمع لها صوت ولم يكنس لها بيت طعامها بائت وماؤها فاتر وماعونها ممنوع وخادمها مضروب ومنهن العطوف الودود المباركة الولود المأمونة على الغيبة المحبوبة في جيرانها الحافظة لسرها واعلانها الكريمة التبعل الكثيرة التفضل الخافضة صوتا النظيفة بيتا خادمها مؤتمن وابنها مزين وخيرها دائم وزوجها

ناعم موصوفة بالخير والعفاف معروفة بخير الاوصاف جعلك الله يابنى فيمن يقتدى بالهدى ويأتم بالتقى ويجتنب السخط ويحب الرضى والله خليفتى عليك انتهى وقال بعضهم

اذا كنت أعلم علما يقينا * بأن جميع حياتى كساعة
فلم لا أكون ضنينا بها * واجعلها فى صلاح وطاعة

وقيل

معاصيك العظام عليك دين * ويوم الحشر تبديها جميعا
فكن متجافيا من كل ذنب * فخير الناس من أمسى مطيعا

وقيل

تزود جميلا من فعالك انما * قرين الفتى فى القبر ما كان يفعل
ألا انما الانسان ضيف لاهله * يقيم قليلا عندهم ثم يرحل

مطلب ما أوصى به العلامة السهروردى ابنه

ومن الوصايا ما أوصى به العلامة السهروردى ابنه قال يابنى لا عقل لمن لا وفاء له ولا مروءة لمن لا صدق له ولا علم لمن لا رغبة له ولا كرم لمن لا حياء له ولا توبة لمن لا توفيق له ولا كنز أنفع من العلم ولا مال أربح من الحلم ولا حسب أرفع من الأدب ولا رفيق أزكى من العقل ولا دليل أوضح من الحق ولا شفيع أبهى من التوبة ولا غائب أقرب من الموت ولا كرم أنفع من ترك المعاصى ولا حمل أثقل من الدين ولا عبادة أفضل من الصمت ولا شر أشر من الكذب ولا كبر أكبر من الحمق ولا فقر أضر من الجهل ولا ذل أذل من الطمع ولا عار أقبح من البخل ولا غنى أغنى من القناعة يابنى من نظر فى عيب غيره استعظم زلة نفسه ومن سل سيف البغى قتل به ومن حفر حفرة لغيره وقع فيها

يابنى من صارع الحق صرع ومن تعرض لهتك مسلم هتك الله عورته ومن أعجبه رأيه ضل ومن تكبر على الناس ذل ومن شاور لم يندم ومن جالس العلماء وقر ومن جالس السفهاء حقر ومن قل كلامه حمدت عاقبته ومن عرف بالكذب لم يصدقه أحد ومن طاوع نفسه فى شهواتها فضحته ومن لم يعرف مقادير الرجال فألحقه بالبهائم يابنى انى ذقت الطيبات كلها فلم أجد ألذ من العافية وذقت المرارة كلها فلم أجد أمر من الحاجة الى الناس ونقلت الحديد والصخر فلم أجد شيئا أثقل من الدين يابنى جهاد البلاء فى الدين ست خصال سلطان يظلم رعيته ورجل يضرب امرأته من غير ذنب وكثرة العيال مع قلة المال وانتظار شخص على المائدة وصديق يمشى بهلاك صاحبه وجار سوء يدفن حسناتك

ويفشى

ويفشي سيئاتك يابني لاخير في النساء ولا تركن اليهن ولا تبح اليهن بسرك وكن من خيارهن على حذر يابني اذا جاورك قوم فغض نظرك عن محارمهم يابني من أساء اليك فأحسن اليه وازرع الجميل تحصد الجزيل واصحب الاشراف وتجنب الاطراف لان الاشراف ان صحبتهم رفعوك وان ظلمت نصروك وان تكلمت سمعوك والاطراف ان صحبتهم وضعوك وان أمنتهم خدعوك وان اطلعوا على سرك فضحوك وان استغنوا عنك تركوك يابني عليك بالندامة على الذنب واذكر الله بالعشي والابكار واهرب من رفيق السوء يابني لا تصاحب ستة من الرجال الاحمق والفاسق والنمام والكذاب والبخيل والخائن وقال صلى الله عليه وسلم الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها وورد عنه صلى الله عليه وسلم المجالس بالامانة وقال الاعمش جواب الاحمق السكوت والتغافل يطفئ شرا كثيرا ورضى المتجني غاية لا تدرك والاستعطاف عون للظفر وقيل

عوّد لسانك صدق القول تحظ به * ان اللسان لما عوّدته اعتادا

وقيل

وعد الفتى بلسانه * دين على احسانه

فاذا وفى ميعاده * انحل عقد لسانه

وكان عليه الصلاة والسلام يقول الحق ولو كان مرّا

وقال بعض الحكماء لا تصحب من الناس إلا من يكتم سرك ويستر عيبك ويكون معك في النوائب ويؤثر الرغائب وينشر حسنتك ويخفي سيئتك فان لم تجد فلا تصاحب إلا نفسك وقيل

واذا صاحبت فاصحب ماجدا * ذا حياء ووفاء وكرم

قوله للشئ لا ان قلت لا * واذا قلت نعم قال نعم

وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه مثل الجليس الصالح كمثل حامل المسك ان لم يعطك منه أصابك من ريحه ومثل الجليس السوء كمثل القين ان لم يحرق ثيابك أصابك من ريحه ودخانه ووصف بعض البلغاء اخوانا له فقال اخطأ الناس لديهم من أحسن اليهم فان قصر عنهم رفضوه وبغضوه وان حضر واعند ه داهنوه وان غابوا عنه شاحنوه وان رأوا خيرا دفنوه وان سمعوا شرا أعلنوه وقيل

اذا رأوا سيئة طاروا بها فرحا * مني وما سمعوا من صالح دفنوا

وقيل

وعين الرضى عن كل عيب كليلة * كما أن عين السخط تبدي المساويا

وعنه صلى الله عليه وسلم ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها وقال بعض الحكماء ليس الاخوان من جلس على الخوان انما يصحب امرؤ ودّه غير ممنون وعقبه مأمون فهذا هو الخليل الذي ماله عديل وما عنه اذا غاب بديل والخوان ما يؤكل عليه وهو فارسي معرب وجمعه اخونة واخوان ولا يسمى خوانا إلا اذا كان الأكل عليه وقال الزجاج الخليل هو الذي ليس في خلته خلل والخلة هي الصداقة وهي مأخوذة من تخلل المودة في القلب وشرطه ان يكون لك نافعا وعنك مدافعا تعده لنائبات الدهر اذا نزلت وللمسرة اذا حصلت فكل حبيب خليل ولا عكس سئل بعض الحكماء عن الصديق ما هو فقال هو الذي اذا زرته سرك واذا زارك سرك وسمي صديقا لصدقه اياك وسمي العدو عدوا لعدوانه عليك اذا ظفر بك وذلك مما يستدل به على لؤمه وخبث طويته فقد قيل الكريم اذا قدر غفر واذا رأى زلة ستر وقالوا ليس من عادات الكرام سرعة الغضب والانتقام وقال الماوردي

مطلب تعريف الخليل والصديق وسبب تسمية الصديق صديقا

وصاحب خاته خليلا * وما جرى غدره ببالي
لم يعص الا القبيح مني * كأنه كاتب الشمال

ومن كلام بعضهم

تنح عن الدنيا وصحبة أهلها * وباينهم ما دمت في الدهر باقيا
فما منهم الا حسود وشامت * تراه بأقوال النميمة عاديا
اذا نلت خيرا أظهروا لك ودهم * وأبدوا سرورا كلما دمت واليا
وان ساءك الدهر الخؤون بصرفه * ترى منهم الشيء الذي كان خافيا
وصار الصديق المظهر الود والرضى * يجرد سيفا بالعداوة ماضيا
فما في بني الدنيا الدنية صاحب * يدوم على عهد اذا كنت نائيا
فشمر الى التقوى ودع كل حاسد * وراع حقوق الله ان كنت راعيا
فما الخير الا في الخمول مع التقى * وما الغنم الا ان تقوم الليالياً

وقيل

جزى الله الشدائد كل خير * عرفت بها عدوي من صديقي

وللامام الشافعي رضي الله عنه

المرء في زمن الاقبال كالشجره * وحوله الناس ما دامت بها الثمره
حتى اذا ما عرت عن حملها انصرفوا * عنها عقوقا وقد كانوا بها برره

وحاولوا

يحاولوا فيمها من بعد ماشذبوا * ددراعليها من الارباح والغبرة
كذلك الناس ان صاحبت أكثرهم * فاصفى الكل ربع السدس من عشرة

وقيل الناس معادن كمعادن الذهب والفضة وقيل

لا تحمدن امرأ حتى تجربه * فربما لا يوافى خبره خبره

وقيل

وقد كان حسن الظن بعض مذاهبي * فأدبني هذا الزمان وأهله

وفي الخبر ان الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض فجاء بنو آدم على قدر الارض فجاء منهم الاحمر والابيض والاسود والخبيث والطيب رواه الحاكم وقيل

الناس أطوار اذا جربتهم * كالنبت فيه طيب وخبيث

وقيل

كل امرئ راجع يوما لشيمته * وإن تخلق اخلاقا الى حين

وقيل

وما سامني ضيما ولا شفني أذى * من الناس الا من أود وآلف
وما ضرني الا الذين عرفتهم * جزى الله خيرا كل من لست أعرف

قال الامام الشافعي رضي الله عنه

لك في العزلة فاعلم * نعم توجب شكرا
قل من يصف فاجعل * لك من بيتك قبرا
لا تخف ضيقة عيش * ان بعد العسر يسرا

وقال بعضهم

لو قيل لي خذ أمانا * من أعظم الحدثان
لما أخذت أمانا * الا من الاخوان

وقيل

اهرب بنفسك واستانس بوحدتها * تلق السرور اذا ما كنت منفردا

وقال ذو النون لا تصحب الا من اذا مرضت عادك واذا أذنبت تاب لك وعلى ذلك قول الشاعر

اذا مرضتم أتيناكم نعودكم * وتذنبون فنأتيكم ونعتذر

وقيل

اذا اعتذر المسيء اليك يوما * تجاوز عن مساويه الكثيره
فان الشافعي روى حديثا * باسناد صحيح عن مغيره
عن المختار ان الله يمحو * بعذر واحد ألفي كبيره

مطلب تخفيف عيادة المريض وزيارة الاصدقاء والاخوان

ومن السنة تخفيف العيادة قيل مرض بكر بن عبد الله المزني فعاده أصحابه فأكثروا عنده الجلوس فقال المريض يعاد والصحيح يزار وكذلك زيارة الاصدقاء والاخوان وسائر الصالحين ينبغي ان تكون خفيفة لقوله صلى الله عليه وسلم زر غبا تزدد حبا ولقوله صلى الله عليه وسلم من زار أخاه خاض في الرحمة حتى يرجع لانهما من الاخلاق العلية ومحاسن الاداب السنية وأجمل المزايا وأجل السجايا بحيث لا تكون المدة التي بين الزيارتين طويلة مملة ولا قصيرة مخلة وهذا في زيارة الاحياء أما زيارة قبور الانبياء والاولياء والعلماء والصالحين فتستحب مطلقا من غير نظر الى طول أو قصر أو قلة أو كثرة لانتفاء العلة المذكورة وقيل

عليك باغباب الزيارة انها * اذا كثرت كانت الى الهجر مسلكا
فاني رأيت الغيث يسأم دائما * ويسأل بالايدي اذا هو أمسكا

وقيل

لا تزر من تحب في كل شهر * غير يوم ولا تزده عليه
فاجتلاء الهلال في الشهر يوم * ثم لا تنظر العيون اليه

وقيل

لا تنكرن عدم الزيارة سيدي * فمحبتي طبع بغير تردد

ولكن ما أحسن ما قيل

اذا آنست من خل ودادا * فزره ولا تخف منه ملالا
وكن كالشمس تطلع كل يوم * ولا تك في محبته هلالا

مطلب في طلب التعزية وفي كونها بعد الدفن افضل من كونها قبله وفي الالفاظ التي يعزى بها

ومرض انسان فكتب اليه بعض أصدقائه كشف الله ما بك من السقم وطهرك بالعلة من الخطايا ومتعك بانس العافية وأعقبك دوام الصحة وفضل العيادة مشهور وشرفها مذكور وبها تعظم الاجور وعاد بعض الناس مريضا فأطال عنده الجلوس فدعا الله فقال اللهم علمنا كيف نعود المرضى ففهم منه انه أطال عنده الجلوس فقام وقال صلى الله عليه وسلم اذا مرض الغريب فنظر عن يمينه وعن شماله وعن أمامه وعن خلفه فلم ير أحدا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وروى عنه صلى الله عليه وسلم

وسلم ثلاثة في ظل العرش عائد المرضى ومشيع الموتى ومعزي الثكلى والثكلى فالتعزية
الولد ومن لوازمها الحزن روى البيهقي وردى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من
عزى ثكلى كسي بردا في الجنة وروى عنه أيضا قال ما من مؤمن يعزي أخاه بمصيبة
الا كساه الله عز وجل من حلل الكرامة يوم القيامة والتعزية هي الحمل على الصبر
وذكر ما يسلي المصاب ويخفف حزنه ويهون مصيبته وهي مستحبة فانها مشتملة على الامر
بالمعروف والنهي عن المنكر وهي داخلة في قوله تعالى وتعاونوا على البر والتقوى
وتستحب التعزية قبل الدفن وبعده قيل وتكره بعد ثلاثة أيام لانها قد تجدد الحزن
وقيل انها لا تفعل بعد ثلاثة أيام الا في صورتين وهما اذا كان المعزي أو صاحب
المصيبة غائبا حال الدفن واتفق رجوعه بعد ثلاثة والتعزية بعد الدفن أفضل منها
قبله لان أهل الميت مشغولون بتجهيزه ولان وحشتهم بعد دفنه لفراقه هذا اذا لم ير منهم
جزعا فان رآه قدم التعزية ليسكنهم واما لفظ التعزية فلا حجر فيه فأي لفظ عزى به
حصلت واستحب أصحاب الشافعي ان يقال في تعزية المسلم بالمسلم أعظم الله أجرك
وأحسن عزاك وغفر لميتك وفي المسلم بالكافر أعظم الله أجرك وأحسن عزاك وفي
الكافر بالكافر أخلف الله عليك ولا نقص عددك وأحسن ما يعزى به ما روى في
صحيحي البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال أرسلت احدى بنات النبي
صلى الله عليه وسلم اليه تدعوه وتخبره أن صبيا لها أو ابنا في سكرات الموت فقال للرسول
ارجع اليها فأخبرها فان لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شئ عنده بأجل مسمى فمرها فلتصبر
ولتحتسب قال تعالى الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم
صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون وقال صلى الله عليه وسلم ما من مسلم
يصاب بمصيبة وان قل عهدها فأحدث لها استرجاعا الا أحدث الله له أجرا وأعطاه
الله مثل أجر ذلك يوم أصيب بها وقال ابن المبارك المصيبة واحدة فاذا جزع منها صاحبها
فهي اثنان احداهما المصيبة بعينها والثانية ذهاب أجر المصيبة وقيل ان الجزع لا يرد
ميتا ولا يدفع حزنا وورد عنه صلى الله عليه وسلم ان المعونة تأتي العبد من الله على قدر
المؤنة وان الصبر يأتي العبد على قدر المصيبة وكان صلى الله عليه وسلم اذا عزى قال آجركم
الله ورحمكم

وكتب بعضهم الى صديقه يعزيه بأخيه ويسليه ما تصنع يا أخي والقضاء نازل والموت
حكم شامل وان لم تلذ بالصبر فقد اعترضت على مالك الأمر وأنت تعلم أن نوائب

الدهر لا تدفع الا بعزائم الصبر فاجعل بين هذه اللوعة الغالبة والدمعة الساكبة حاجبا من فضلك وحاجزا من عقلك ودافعا من دينك ومانعا من يقينك فان المحن اذا لم تعالج بالصبر كانت كالمنح اذا لم تقابل بالشكر فصبرا صبرا فحول الرجال لا تستفزها الايام بخطوبها كما أن متون الجبال لا تهزها العواصف بهبوبها فعزيز على أن أخاطب مولاى معزيا وأكاتبه سليا عن كبير أو صغير ممن يتعلق بذمته أو ينتمى الى جنته فكيف بالسند الاكرم والذخر الاعظم والركن الاشد والسهم الاسد والشهاب الاسطع والحسام الاقطع لكن التعزية سنة سائرة وسنة ماضية وقدر الله هو المقدر وأجل الله اذا جاء لا يؤخر ولولا ان الذكرى تنفع والتعزية يستوى فيها الاشرف والاوضع لاجللت مولاى أن أواجهه معزيا وأخاطبه مسليا ولكن بحمد الله العالم لا يعلم والسابق لا يتقدم

وروى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان اذا عزى امرأ قال ليس مع العزاء مصيبة ولا مع الجزع فائدة والموت أشد مما قبله وأهون مما بعده فاذكروا فقد رسول الله صلى الله عليه وسلم تهون عليكم مصيبتكم صلى الله على محمد وأعظم أجركم

وعزى عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلا فقال له ان صبرت مضى أمر الله وأنت مأجور وان جزعت مضى امر الله وأنت مأزور وورد عنه صلى الله عليه وسلم اذا قضى الله لرجل ان يموت بأرض جعل له اليها حاجة وأنشدوا

اذا ما حمام المرء كان ببلدة * دعته اليها حاجة فيطير

وقال صلى الله عليه وسلم من دفن ثلاثة من الولد حرم الله عليه النار رواه الطبرانى وقال صلى الله عليه وسلم من كفن ميتا كان له بكل شعرة منه حسنة وقال العلامة الاجهورى من علامة البشرى للميت ان يصفر وجهه ويعرق جبينه وتذرف عيناه ومن علامة السوء ان تحمر عيناه وتغبر شفتاه وينبغى للجار أن يهيئ لاهل المصاب طعاما لانه قام بهم ما يشغلهم

خطاب وصية بعض الصلحاء لابنه بوصية عامة

وقد أوصى بعض الصلحاء وصية لابنه ونفعها عام لجميع الناس حيث قال ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا يا بنى أرشدك الله وأيدك أوصيك بوصايا ان أنت حفظتها وحافظت عليها رجوت لك السعادة فى دينك ومعاشك بفضل الله ورحمته ان شاء الله تعالى أولها وأولاها مراعاة تقوى الله العظيم بحفظ جوارحك كلها من معاصى الله عز وجل حياء من الله تعالى والقيام بأوامر الله عبودية لله وثانيها ان

ان لاتجزع من المصيبة وثالثها أن تنصف من نفسك ولا تنتصف لها الا لضرورة ورابعها ان لا تعادى مسلما ولا ذميا وخامسها ان تقنع من الله بما رزقك من جاه ومال وسادسها ان لا تستهين بمن الناس عليك وسابعها ان تحسن التدبير فيما في يديك استغناء به عن الخلق وثامنها ان لا تطمع نفسك في الفضول بترك استعلام مالم تعلم والاعراض عما قد علمت وتاسعها ان تلقى الناس مبتدئا بالسلام محسنا في الكلام منطقا صادق الوعد متواضعا باعتدال مساعدا بما تجد اليه السبيل محببا الى أهل الخير مداريا لاهل الشر مبتغيا في ذلك السنة وعاشرها ان لا تستقر على جهل ماتحتاج اليه في مصلحة دينك ومعاشك الهم أهله في ذلك لامتثالنا وقيل

على المرء ان يسعى لما فيه نفعه * وليس عليه ان يساعده الدهر
فان نال بالسعي المنى تم أمره * وان غلب المقدور كان له العذر

وقيل

وكن فاعلا مثل فعل الزمان * فان الزمان فعول فعول

وقال بعضهم في تدبير اليقظة اعلم ان الانسان لا يصلح ان يضيع زمانه بطالة فيمضي كله سدى وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه انى أكره ان أرى احدكم لا في عمل دنيوى ولا في عمل أخروى وقال الامام الشافعي رضي الله عنه * فاضيعة الاعمار تمشي سبهللا وقال الكسائي السبهلل الذى لا شئ معه وذلك ان الانسان قد مضى عليه وقت الدرم بغير فائدة فينبغي ان لا يخلى نفسه من عمل ديني ولا من عمل دنيوى فمن عرف الزمان أكثر من الاستعداد وقيل

ان مقام المرء في بيته * مثل مقام المرء في لحده
فواصل الرحلة نحو الفلى * فالسيف لا يقطع في غمده

فان الله تعالى لم يجمع منافع الدنيا في أرض بل فرقها وأحوج بعضها الى بعض وقيل المسافر يجمع العجائب ويكتسب التجارب وقيل ليس بينك وبين البلاد نسب فخير البلاد ما حملك وقيل

مطلب وصية عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على لابنه بوصية مختصرة جامعة

سافر اذا حاولت قدرا * سار الهلال فصار بدرا
والماء يكسب ماجرى * طيبا ويخبث ما استقرا
وبنقلة الدر النفيسة بدلت بالبحر نحرا

وأخصر وصية جامعة نافعة وصية عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على قال لابنه يا بنى

انى مؤد حق الله فى تأديبك فأد إلى حق الله. أى بنى كف من الاذى وارفض البذا واستعن على الكلام بطول الفكر فى المواطن التى تدعوك فيها نفسك الى الكلام فان للقول ساعات يضر فيها الخطأ ولا ينفع فيها الصواب واحذر مشورة الجاهل وان كان ناصحا كما تحذر مشورة العاقل اذا كان غاشا لانه يرديك بمشورته واعلم يا بنى ان رأيك اذا احتجت اليه وجدته نائما ووجدت هواك يقظانا فاياك ان تستبد برأيك فانه حينئذ هواك ولا تفعل فعلا الا وأنت على يقين ان عاقبته لا ترديك وان نتيجته لا تخفى عليك واياك ومعاداة الرجال فانك لن تعدم مكر حليم أو معاداة لئيم انتهى

مطلب ان المشاورة تفيد ازدياد البصيرة ومثل ذلك المشاركة زاد العلم

والمشاورة فى الامور تفيد ازدياد البصيرة ومثل ذلك المشاركة فى العلم كما قيل

اذا اجتمعوا جاؤا بكل عزيمة * فيزداد بعض القوم من بعضهم علما

وقيل

شاور صديقك فى الخفى المشكل * واقبل نصيحة حازم متفضل

فالله قد أوصى بذاك نبيه * فى قوله شاورهم وتوكل

وقد أمر الله تعالى نبيه بمشاورته أصحابه فى قوله تعالى وشاورهم فى الامر وفى الحديث ماندم من استشار ولا خاب من استخار ومن استخار الله ليرشده الى مصالحه فليعلم ان الذى قدره له هو الخير فى نفس الامر والاصلح له وان جاء على خلاف ما يريد فان الله خبير بمصالح عبده وبما يؤل نفعه اليه وما يندفع ضرره عنه فالخير له فيما قدره الله له وان كرهه العبد كما فى الحديث القدسى عن الله وان من عبادى من يصلح له الفقر ولو أغنيته لفسد حاله وان من عبادى من يصلح له الغنى ولو أفقرته لفسد حاله فارادة الله مع عباده مبنية على الحكم والمصالح قال بعض الحكماء من استعان بذوى العقول فانه يدرك المأمول وقال بعضهم لا تصلح الامور الا برأى أولى الالباب ولا تدور الا على الاقطاب قال على كرم الله وجهه نعم الموازرة المشاورة وقال بعض الحكماء لا يستغنى العاقل عن المشورة كما لا يستغنى الفرس عن السوط وقال بعض الحكماء كفى بالتجارب تأدبا وبتقلب الايام عظة وقالوا التجربة مرآة العقل والغيرة ثمرة الجهل ولذلك قالوا المشايخ ينابيع الاخبار لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم وهم وقال آخر عليكم بآراء المشايخ فانهم لو عدموا ذكاء الطباع أفادتهم الايام حنكة وتجربة وقد قيل فى ذلك

اذا طال عقل المرء فى غير آفة * أفادت له الايام فى كرها عقلا

وقول عبد الله بن الحسن بن الحسين فى وصيته واستعن فى الكلام بطول الفكر محله

اذا

اذا لم تفت بذلك فرصة ولذلك لما قال بعضهم للخليفة المنصور حين عزم على قتل أبي مسلم الخراساني

اذا كنت ذارأى فكن ذا تدبر * فان فساد الرأى أن يتعجلا

أجابه المنصور

اذا كنت ذارأى فكن ذا عزيمة * فان فساد الرأى أن يترددا
ولا تمهل الاعداء يوما بقدوة * وبادرهم أن يملكوا أمنها غدا

وهذا كقول الامام علي رضي الله عنه من فكر في العواقب لم يشجع فلكل من العجلة والتأني مواقع قال تعالى وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا الآية قال في الكشاف ان هذا تعليم من الله تعالى وارشاد في ان يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى وقالت الحكماء اذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلا في نفسك ومنه أخذ الامام الشافعي رضي الله عنه

اذا ما شئت إرغام الاعادي * بلا سيف يسل ولا سنان
فزد في مكرماتك فهي أعدى * على الاعداء من نوب الزمان

(الفصل الرابع)

(في أن التوادد والتحابب بين الزوجين مما ينتج حسن العشرة بينهما وبين ذريتهما)

مطلب فوائد الزواج الأصلية وما يعرض له من الآفات وافضلية العزبة في أماكن وهي عليه في أخرى

قال الامام الغزالي رحمه الله في كتاب الاحياء فوائد الزواج خمس النسل والتحصين لكسر الشهوة وترويح القلب بالمعاشرة والمحادثة ونحوها ومجاهدة النفس ورياضتها برعاية الاهل والقيام بهن وآفاته ثلاثة التخليط في الاكتساب بسبب العجز عن الحلال والقصور عن القيام بحقوقهن واحتمال أخلاقهن والاشتغال بهن وبأولادهن عن الله تعالى وبعد هذا بتطرقي وجدت فيه الفوائد أو بعضها وانتفت عنه الآفات فلاشك ان الزواج في حقه أفضل ومن انتفت عنه الفوائد واجتمعت عليه الآفات فالعزبة في حقه أفضل وان تعاظمت الفوائد والآفات كما هو الغالب فليزن الامرين بميزان الاعتدال فاذا غلب على ظنه رجحان أحدهما عمل بموجب الراجح انتهى قال بعضهم وأما اذا لم تدع الحاجة الى الزواج كالعجز عن المهر أو الاهبة أو الانفاق فلا ينبغي له الزواج وعلى ذلك يحمل قوله صلى الله عليه وسلم خيركم بعد المائتين الخفيف الحاذ (أي الظهر) الذي لا أهل له ولا ولد والامر كذلك فمن تركه فقد أراح نفسه واستبرأ لدينه

ومرضه وكان عزيزا بين أقرانه جليلا بين اخوانه رفيعا عما سواه من مكانه ومن تزوج وهو فاقد لما ذكر فقد أتعب نفسه فيما لا طائل تحته وجلها مالا طاقة لما به من الذل والاحتياج ونحوه أما اذا دعت الحاجة لذلك بأن تاقت نفسه الى الزواج وكان واجد الأهبة وما يحتاج اليه الحال فالافضل له الطلب لقوله صلى الله عليه وسلم تناكحوا تناسلوا تكثروا فانى مباه بكم الامم يوم القيامة وقوله صلى الله عليه وسلم شراركم عزابكم

مطلب كون التوادد بين الزوجين مما ترتب عليه جلب المنافع وكثرة الرزق والثروة وتحسين تربية نسلهما وخدمهما

ومتى صح التوادد بين الزوجين ترتب على ذلك ان عائلة البيت تجلب له خصائص نافعة لكثرة رزقه وثروته وحفظه من جميع آفات التباين والمشاجرات فان الزوجين المجتمعين فى بيت واحد المتحدين قلبا وقالبا بالمحبة والالفة يتوطنان فيه ويحبانه ولا يخرج أحدهما الا لعذر فهذا يسارعان فى تحصيل ما يلزم لهذا المنزل من الاثاث والمتاع والأهبة وجميع الخيرات ويحسنان ادارته فتجد كلا من الزوجين مجتهدا فى تربية ما يرزق به من الذرية وهذا كله يجعل الخدم والحشم وغيرهم مجبولين على احترام هذا المنزل وعلى الوفاء بالامانة لاهله وساكنيه وان يمنعوا عنه جميع الاسباب المفضية الى الخلل والكسل فتى سلك الزوجان مسلكا حسنا فى تحسين أحوال منزلهما وعائلتهما عاشا فى السعة والاعتبار بخلاف ما اذا نقض أحدهما أو كلاهما عهد المحبة والوداد وزالت الامانة من بينهما فان البركة تذهب من البيت ويكثر فيه التشاجر والشقاق وتشويش الخواطر والبغضاء والشحناء حتى يسرى ذلك من الآباء للابناء والخدم والحشم وتتعود الذرية والخدم على ارتكاب القبائح والمثالب المنزلية فكل عضو من أعضاء البيت يسهل عليه أن يسرق وينذر ويسلب وينهب ويتصرف فى جميع ما وقع فى يده فتذهب أموال المنزل هباء منثورا ويرتكب رب المنزل الديون من كل جانب وربما كان ذلك سببا لتشتت العائلة والخدم لما يعتريهم من ضيق الحال وربما حصل بين الزوجين المرافعات والمحاكمات من كل ما يوقع أمر العائلة فى الفقر والمسكنة والذل ومد اليد للسؤال وقيل

ومن لم يكن فى بيته قهرمانة * فذلك بيت لا أبا لك ضائع

وقال آخر

اذا لم يكن فى منزل المرء حرة * تدبره ضاعت مصالح داره

وقال بعضهم ثمانية أشياء أربعة منها سعادة وأربعة منها شقاوة فمن السعادة الزوجة الصالحة

الصالحة والجار الصالح والمسكن الواسع والمركب الهني ومن الشقاوة المرأة السوء والجار السوء والمركب الصعب والمسكن الضيق وقيل الدار الضيقة العمى الاصغر وقد ورد في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أيما رجل صبر على سوء خلق زوجته أعطاه الله من الاجر مثل ما أعطى أيوب عليه السلام على بلائه وأيما امرأة صبرت على سوء خلق زوجها أعطاها الله من الاجر مثل ما أعطى آسية بنت مزاحم زوجة فرعون وقيل ان رجلا جاء الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشكو اليه سوء خلق زوجته فوقف ببابه ينتظره فسمع الرجل امرأة عمر رضي الله عنه وهي تغلظ عليه بالقول وهو ساكت لا يرد عليها فانصرف الرجل وهو يقول اذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته فكيف حالي فخرج عمر رضي الله عنه فرأى الرجل موليا فناداه ما حاجتك فقال يا أمير المؤمنين جئت أشكو اليك سوء خلق زوجتي واستطالتها على بلسانها فسمعت زوجتك تغلظ عليك بالكلام وأنت ساكت فرجعت وقلت اذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته فكيف حالي فقال عمر رضي الله عنه يا أخي اني أتحملها لحقوق لها على إنها طباخة لطعامي خبازة لخبزي غسالة لثيابي مرضعة لولدي ويسكن قلبي بها عن الحرام فأنا أتحملها لذلك فقال له الرجل يا أمير المؤمنين وكذلك أنا أتحمل زوجتي قال فتحملها فانها مدة يسيرة وتنقضي وقال عليه الصلاة والسلام من لم يكن فيه ثلاث خصال لم يجد طعم الايمان علم يرد به جهل الجاهل وورع يحجزه عن المحارم وحسن خلق يداري به الناس وقال حكيم أربعة أشياء من أعظم البلاء كثرة العيال مع قلة المال والجار السيئ الجوار والمرأة التي ليس لها وقار وصحبة الفجار وقال صلى الله عليه وسلم سوء الخلق شؤم وشراركم أسوأكم خلقا وعنه صلى الله عليه وسلم سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل وقيل ان العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة القائم الصائم وقال صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل يا معاذ حسن خلقك مع الناس أي عاملهم بطلاقة الوجه وجبر الخواطر وكف الاذى فان ذلك يؤدي الى اجتماع القلوب وانتظام الاحوال فلا أحسن من الزوجين المتمتعين في منزلهما بالسعادة والهناء وبحسن ادارة المنزل ولا أحسن من الزوج الذي يحسن ارضاء زوجته ولا من الزوجة التي تحسن ارضاء زوجها كما قيل

مطلب حث الزوجين على أن يصبر كل منهما على سوء خلق الآخر وذكر بعض ما يحكى في ذلك

اذا كنت عني يا مني النفس راضيا * أرى كل ما في الكون لي يتبسم

وان كنت عني ياضيا العين نائيا * تذكرلي في الدهر ما كنت أعلم

مطلب ان معرفة ارضاء أحد الزوجين للآخر فن نفيس وان كان صعبا في حد ذاته

فمعرفة ارضاء أحد الزوجين للآخر فن نفيس وان كان صعبا في حد ذاته لانه يستدعي كمال التربية والاتصاف بالعدل وقوة العقل وذكاء الفطنة واعتياد كل من الزوج والزوجة على تحسين أحوال المنزل المشترك بينهما وتنظيمه وتربيته وتنظيفه بقدر ما يمكن ومعرفة الاعتناء بالوسائل التي تستدعيها الصداقة بين الزوجين لاشتراكهما في المنفعة العمومية فروابط الوداد الاكيدة بين الزوجين يتولد منها اعتمادية أكيدة في أفعالهما وأقوالهما وجمع قلوب بعضهما على بعض فيكون كل منهما قوي الوداد شريف الفؤاد فاذا حصل بينهما التناسل والذرية تأكدت هذه المحبة التي قضت بثبوتها الزوجية واقتدى الاولاد بالوالدين في المحبة العمومية وفي الاشغال المنزلية الموجبة للعمارية وينبغي ان يكون لنساء هذه الاعصر في خدمتهن

مطلب أنه ينبغي لنساء هذه الاعصر ان يقتدين بنسائه صلى الله عليه وسلم وذكر طرف من اخبارهن في ذلك

المنزلية اقتداء بنساء النبي صلى الله عليه وسلم ونساء أصحابه فان نساء النبي ونساء اصحابه كن يسعين على عيالهن ويخدمن ازواجهن ويعتقن أنفسهن قالت عائشة كنت أفتل قلائد هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقلده هديه وقالت ما رأيت صانعا للطعام مثل حفصة وقالت في زينب بنت جحش لم أر امرأة قط خيرا منها في الدين وأتقى لله وأصدق حديثا وأوصل للرحم وأعظم صدقة وأشد ابتذالا لنفسها في العمل وفي صحيح البخاري ان أبا أسيد الساعدي دعا النبي صلى الله عليه وسلم لعرسه واصحابه فما صنع لهم طعاما ولا قربه اليهم الا امرأته وبلت تمرات من الليل في تور من حجارة فلما فرغ صلى الله عليه وسلم من الطعام ماثته له فسقته تتحفه بذلك فكانت امرأته خادمهم يومئذ وهي عروس وفي الصحيح قالت أم الربيع كنا نغزو مع النبي صلى الله عليه وسلم فنسقي القوم ونخدمهم ونرد القتلى الى المدينة ونداوي الجرحى وقالت أم عطية غزوت معه صلى الله عليه وسلم سبع غزوات أخلفهم في رحالهم وأصنع لهم الطعام وأداوي الجرحى أقوم على المرضى وفي حديث انس كن يسقين الماء ويداوين الجرحى

التور الاناء والمورث الخلط اه

وقالت أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها امرأة الزبير وهي أخت عائشة رضي الله عنها كنت أعلف فرسه يعني فرس الزبير وأسقي الماء وأخرز غربه وأعجن ولم أكن أحسن أن أخبز وكان يخبز جارات لي من الانصار وكن نسوة صدق وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعها النبي صلى الله عليه وسلم وأحمله على رأسي وهي على ثلثي فرسخ من المدينة فجئت يوما والنوى على رأسي فلقيت النبي صلى الله عليه وسلم

ومعه

ومعه نفر من الانصار فدعاني ثم قال اخ اخ ليحملني خلفه فاستحييت ان أسير مع الرجال وذكرت الزبير وغيرته فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم انى استحييت فمضى قالت ثم أعطاني صلى الله عليه وسلم خادما فكفتنى سياسة الفرس فكل هذه دلائل مصرحة بان نساءهم كن يشتغلن بالخدمة وبالمهنة رضى الله عنهم

مطلب ان الغزل مما يستحسن فى حق النساء

وروى ان آدم عليه السلام ذبح كبشا ثم أخذ صوفه فغزلته حواء ونسجت هى وآدم فجعل منه جبة لنفسه وجعل لحواء درعا (أى قميصا) وخمارا وعن ابن عباس رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال نعم لهو المرأة المغزل وعن سهل بن سعد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال عمل الابرار من الرجال الخياطة وعمل الابرار من النساء الغزل وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مروا نساءكم بالغزل فانه خير لهن وأزين وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يأكل من غزل أمه وسمع بعضهم عليا رضى الله عنه يقول ان الغزل من طيبات الرزق وهو صنع العابدات الزاهدات ولهذا قيل لعائشة يوم الجمل ان صرير المغزل خير لها من السيف وهذا يدل على استحسان مباشرة كل صنعة تليق بالمرأة

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال قال النبى صلى الله عليه وسلم لأم سلمة اذا أدت المرأة فريضة ربها واطاعت بعلها وحركت المغزل كانت كانها تسبح ومادام المغزل فى يدها كانت كانها تصلى جماعة واذا طبخت القدر لاجل أطفالها تساقطت ذنوبها وغزل المرأة بمغزلها مثل عمارة القناطر والربط وثلاثة أصوات تبلغ تحت العرش أحدها قسى الغزاة المجاهدين فى سبيل الله والثانى صرير أقلام العلماء والثالث أصوات مغازل المصونات من النساء وقال صلى الله عليه وسلم شربة يشربها الرجل من يد امرأته خير له من ألف بدنة تنحرها المساكين تسبيحا والمرأة اذا كست زوجها أعطاها الله ثواب من حج واعتمر فان رضاء الله لا ينقطع عن امرأة أصبحت وأمست فى رضى الزوج واذا باتت المرأة هاجرة محل زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح وأيما امرأة خففت عن زوجها مهرها الا كتب الله لها بكل درهم حجة مبرورة متقبلة وكانت من القانتات الذاكرات التائبات العابدات فتبين من هذا ان حمل النساء بالنسبة للرجال ثقيل ولهن أيضا تكاليف غير ماذكر

(الفصل الخامس)

(فى بعض حقوق يلزم كلا من الزوجة الزوج مراعاتها)

مطلب ان من حقوق الزوجة حفظ مال الزوج وسرد بعض حقوق زوجته

من حقوق الزوجة حفظ مال الزوج فانها الراعية وطاعته فيما أمر به سرا وعلانية وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أعظم النساء بركة أقلهن مؤنة وخيركم خيركم لاهله وأكمل المؤمنين أحسنهم خلقا مع زوجته وكلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته والرجل راع على أهل بيته وأهله وولده وهو مسئول عنهم والمرأة راعية على بيت زوجها هي مسئولة عنه وقال صلى الله عليه وسلم استوصوا بالنساء خيرا فانما هن عندكم وديعة لا يملكن لانفسهن ضرا ولا نفعا وانما هن كاسرى بين أيديكم وانما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتموهن بكلمات الله فعاشروهن بالمعروف ولا تظلموهن وقوموا بحقهن وقال الاحنف بن قيس ان أردتم ان تحبكم النساء فعاشروهن بأحسن الاخلاق وقال الاصمعي كانت أشياخنا وعجائزنا يقولون عاشروا الناس بخلق حسن ان غبتم حنوا اليكم وان متم ترحموا عليكم وقيل

كل الامور تبيد عنك وتنقضي * الا الثناء فانه لك باقي

ولو انني خيرت كل فضيلة * ما اخترت غير مكارم الاخلاق

ومن حقوق الزوج على الزوجة ان لا تحنث قسمه ولا تكفر نعمه ولا تخرج من بيته الا باذنه وعليها الرفق بأقاربه والادب مع اخوته وأعمامه وأخواله والرعاية لذريته بعد موته وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيما امرأة خرجت من بيت زوجها بغير اذنه الا لعنتها الملائكة حتى ترجع منزلها فان رضي عنها زوجها رضي الله عنها وزالت اللعنة وان غضب عليها وماتت دخلت النار

وقال بعضهم ان ولها أن تأخذ من ماله ما تعلم رضاه به فقد رخص لهن الرطب يأكلنه ويهدينه وفي الصحيحين انه صلى الله عليه وسلم قال اذا أنفقت المرأة طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت ولزوجها أجره بما كسب وللخازن مثل ذلك لا ينقص بعضهم أجر بعض شيئا فهذه هي الحقوق الواجبة لاحد الزوجين للآخر فيجب عليها ان تفي بما يجب لزوجها كما يجب عليه ان يفي بما عليه لها وكثير من الرجال يرى ان له حقا على زوجته وليس لها عليه حق وان جميع ما يفعله معها جميل وقد وبخ مثل هذا بعضهم بقوله

له حق وليس عليه حق * ومهما قال فالحسن الجميل
وقد كان الرسول يرى حقوقا * عليه لغيره وهو الرسول

مطلب ما يحرم في حق النساء وما يكره وما قاله يحيى ابن الحكم لملك الروم عند ما نظر زوجته

ويحرم سفر المرأة بلا زوج لها أو محرم أو نسوة ثقات ويحرم تشبيههن بالرجال في الملبس والمشية كما يحرم تشبيه الرجال بهن في ذلك ويكره لهن ترك الحلي تشبها بالرجال ومن المعلوم ان التزين المطلوب من النساء انما هو لازواجهن أو لهن في بيوتهن في أنفسهن لا يتبرجن به للرجال الاجانب كعادة الاعجام المبنية على اختلاط الرجال بالنساء فان هذا لا يخلو من الاستحسان الذي يترتب عليه الافتتان كما يحكى ان الامير عبد الرحمن بن الحكم المرواني أحد ملوك الاندلس وجه شاعره يحيى بن الحكم المعروف بالغزال الى ملك الروم فأعجبه حديثه وخف على قلبه وطلب منه ان ينادمه فامتنع الغزال من ذلك واعتذر بتحريم الخمر وكان يوما جالسا معه واذا بزوجة الملك قد خرجت وعليها زينتها وهي كالشمس الطالعة حسنا فجعل الغزال يميل بطرفه اليها وجعل الملك يحدثه وهو لاه عن حديثه فأنكر ذلك وأمر الترجمان بسؤاله فقال له عرفه انه قد بهرني من حسن هذه الملكة ما قطعني عن حديثه فاني لم أر قط مثلها وأخذ في وصفها والتعجب من جمالها وانها شوقته الى الحور العين فلما ذكر الترجمان ذلك للملك تزايدت حظوته عنده وسرت الملكة بقوله والآن عندها الى أوربا من آكد الواجبات في الجمعيات التأنسية ملاطفة النساء والبنات

ومن حقوق الزوج عليها الصيانة والستر وترك المطالبة بما وراء الحاجة وتحسين خلقها وحسن معاشرتها والعفو عن زلته والصبر عليها ان ضعف أو خرف ومن حقها عليه ان يعلمها ما تحتاج اليه من أحكام الوضوء والصلاة والصوم والحيض وما يلزم أن تعتقده من قواعد الاسلام وما يجب عليها من مهمات دينها ونحو ذلك مما لا بد لها من معرفته ويطعمها من الحلال ولا يظلمها شيئا مما يجب لها من الحقوق ولا يكلفها فوق طاقتها من الخدمة فانها غير واجبة عليها ولا يفعل ما يؤذيها وقال صلى الله عليه وسلم اكمل المؤمنين أحسنهم خلقا والطفهم بأهله وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم (ان الله رفيق) أي لطيف بعباده فلا يكلفهم فوق طاقتهم (يحب الرفق) وهو لين الجانب بالقول والفعل والاخذ بالاسهل ويعطي عليه في الدنيا من الثناء الجميل ونيل المطالب وتسهيل المقاصد في الآخرة من الثواب الجزيل ما لا يعطي على العنف (وهو بالضم المشقة) وكل ما في الرفق من الخير ففي العنف من الشر مثله قال السبكي مجامع

مطلب حديث ان الله رفيق يحب الرفق

السعادة سبعة أشياء الدين والدنيا والعقل والادب وحسن السمت والتودد الى الناس ورفع الكلفة عنهم

وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه ان داود عليه السلام قال يارب أخبرني بأحبابك من خلقك قال ذو سلطان يرحم الناس ويحكم للناس كما يحكم لنفسه ورجل آتاه الله مالا فهو ينفق منه ابتغاء وجه الله وفي طاعة الله عز وجل ورجل يفني شبابه وقوته في طاعة الله

وفي رواية النسائي مرفوعا ان رجلا لم يعمل خيرا قط وكان يداين الناس فيقول لرسوله خذ ما تيسر واترك ما تعسر وتجاوز لعل الله يتجاوز عنا فلما مات قال الله له هل عملت خيرا قط قال لا الا انه كان لي غلام وكنت أداين الناس فاذا بعثته يتقاضى قلت له خذ ما تيسر واترك ما تعسر وتجاوز لعل الله يتجاوز عنا قال الله تعالى تجاوزت عنك

وروى الامام احمد وغيره من أنظر معسرا قبل أن يحل الدين فله بكل يوم مثله صدقة فاذا حل فأنظره فله بكل يوم مثلاه صدقة

وكان صلى الله عليه وسلم مخصوصا بجوامع الكلام أي الكلم الجامع لمعان كثيرة بالفاظ قليلة قال صلى الله عليه وسلم أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارا وسماحة الدين لخلوه من الآصار والتكاليف التي كانت على اليهود من نحو وجوب قرض محل النجاسة ومن التخفيف المفرط المفوت لمحاسن الآداب قال صلى الله عليه وسلم بعثت بالحنيفية السمحة السهلة والحنيف الطريق المستقيم وسمي ابراهيم حنيفا لانه مال الى الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم الدين يسر ولن يشاد أحد الدين الا غلبه فسددوا وقاربوا وقال صلى الله عليه وسلم ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض الى نفسك عبادة الله تعالى فان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى قال ابو عبيدة أوغل أي سر فيه برفق والايغال السير الشديد والمنبت هو الذي يعدو في السير المنقطع به يتعب نفسه حتى تعطب دابته فيبقى منبتا منقطعا به لم يقض سفره ولا بلغ وطره وقد أعطب ظهره فشبهه بالمجتهد في العبادة حتى يكل ويمل

وقال عمرو بن معدي كرب الزبيدي الكلام اللين يلين القلوب التي هي أقسى من الصخر والكلام الخشن يخشن القلوب التي هي أنعم من الحرير وقيل لبعض الفضلاء من أضيق الناس طريقا وأقلهم صديقا فقال من عاشر الناس بعبوس وجهه واستطال

واستطال عليهم بنفسه وروى عن عائشة رضي الله تعالى عنها انها قالت اذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق وقال الله عز وجل فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب (أي سيئ الخلق) لانفضوا من حولك وقال الله تعالى ادفع بالتي هي أحسن وقال صلى الله عليه وسلم اليمن حسن الخلق والشؤم سوء الخلق وقال الحسن البصري حقيقة حسن الخلق بذل المعروف وكف الاذى وطلاقة الوجه وقال القاضي عياض هو مخالطة الناس بالجميل وقال العسقلاني هو اختيار الفضائل واجتناب الرذائل وقيل

مطلب حقيقة حسن الخلق

من عاش بين الناس فليلتزم * سماحة النفس وترك اللجاج
وليحفظ المعوج من خلقهم * أي طريق ليس فيها اعوجاج

(وقيل)

ولست بمستبق أخا لا تلمه * على شعث أي الرجال المهذب

قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما ادع الله أن يغنيني عن الناس فقال ان حوائج الناس متصل بعضها ببعض كاتصال الاعضاء فمتى يستغني المرء عن بعض جوارحه ولكن قل اغنني عن شرار الناس وحكي عن معاوية رضي الله عنه اني لآنف أن تكون في الارض حاجة لا يسعها مالي أو ذنب لا يسعه حلمي وجاءته امرأة تغلب ابن سليمان بن مهران فقالت يا امير المؤمنين مشت جرذان بيتي على العصا فقال لادعنها تثب وثب الفهود كما أطفت بالسؤال فملأ لها البيت حنطة وغيرها وحكي عن ابن عباس رضي الله عنه انه كان يقول من قصدني كان له الفضل علي حيث رآني أهلا لحاجته وقيل

ان العظيم يحمل العظيما * كالجسم يحمل الجسيما

وقال بعضهم سعة الاخلاق كنوز الارزاق وقال بعض الحكماء ثمرة حسن الخلق الاحسان وثمرة سوء الخلق الاساءة وقيل من ساء خلقه قل صديقه وقال الحسن ان حسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الاعمار وقال بعضهم عقل موفور يهدي الى مراشد الامور فان الحمق لا تثبت معه مودة ولا تدوم لصاحبه استقامة ومن لانت كلمته وجبت محبته وسئل حكيم ما اللبيب العاقل قال الفطن المتغافل فان التغافل من شيم الكرام وقيل الكرم شيء هين بشاشة وجه وكلام لين وقال بعضهم الجامع للاخلاق ومحاسن الشريعة على الاطلاق الخلق الحسن والأدب

والاتباع والاحسان فهذه أمهات الاخلاق وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أربعة يسود بها العبد العلم والادب والعفة والامانة وقواعد الاخلاق أربعة الحكمة والشجاعة والعفة والعدل وقال صلى الله عليه وسلم ان الله يحب الشجاعة ولو على قتل ثعبان وقيل انما تعرف الشجاعة عند اللقاء والامانة عند الاخذ والعطاء والاهل والولد عند الفقر والحاجة والاصدقاء عند الشدائد

قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه ثمانية أشياء هن زينة لثمانية العفاف زينة الفقر والصبر زينة البلاء والتواضع زينة الحسب والحلم زينة العلم والتذلل زينة المتعلم وكثرة البكاء زينة الخوف وترك المن زينة الاحسان والخشوع فى الصلاة زينة الصلاة انتهى فالمن مذموم كما قيل

لنقل الصخر من قلل الجبال * أحب الى من منن الرجال
يقول الناس هل فى الكسب عار * فقلت العار فى ذل السؤال

مطلب تتميم ذكر ما يسن للزوج وما يكره فى حقه وما يحرم عليه

(رجع) ويسن للزوج أن لا يمنع زوجته من زيارة والديها ولا الخروج الى المسجد ونحوه الا لعذر ويسن ملاعبتها إيناسا وتلطيفا لها وان يتزين لها كما يحب ان تتزين له ويكره ان يتحدث بما جرى بينه وبين زوجته أو أمته ويكره ان تخبر المرأة زوجها أو غيره بحسن بدن امرأة من غير حاجة شرعية ويكره للرجل وصال زوجته وهناك من يسمع حسه من امرأة أو نحوها ويجب على المرأة الاحتجاب من الاجانب ويحرم على الرجل النظر الى شئ من المرأة الاجنبية ولو زوجة لاخيه أو اخت الزوجته ولو فى حالة أمن الفتنة وكذلك نظر المرأة الى الاجنبى حرام ولو زوجا لاختها مالم يكن محرما ويحرم ان يخلو رجل بأجنبية

قال أبو المختار لقيت امرأة من قومى بمكة فجلست أحدثها وعبد الله بن عباس يصلى فسمعنى أقول لها يا فلانة استوحش لفراقك القلب وجاورنى من لا أهوى فكنت كما قال الاول

أيبعد من أهوى وتسعفنا النوى * بمن لا أبالى ان يفارقه أهلى

فأقبل على ابن عباس فقال من هذه المرأة منك قلت من العشيرة وبنات العم فقال قم والا وقعتما فى فتنة ان النساء حبائل الشيطان فاياك ان تخلو بامرأة الا ان تكون محرما وروى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لايخلون رجل الامع ذى محرم ولا بأس ان يخلو رجل أو عدة رجال بنسوة ثقات لارجل

أو عدة رجال بواحدة واماذوو المحارم من النسب والرضاع والمصاهرة وهم الذين لايحل تزوج بعضهم بعضا أبدا فتجوز لهم الخلوة ولايجوز النظر فيما لايحل الا باسباب أحدها النظر للمداواة بقدر الحاجة ثانيها النظر للوجه والكفين لمن يريد أن يتزوجها ثالثها النظر في المعاملة المفتقرة للشهادة عليها والتعريف لها ونحو ذلك مما تدعو اليه ضرورة المعاملة فينظر الشاهد الى الوجه لاغير رابعها المعلم ينظر بقدر الحاجة والضرورة ويجوز سماع صوتها والاصغاء اليه عند أمن الفتنة على الاصح ويجوز لها ان تستفتي وتستشير الرجال وقالت عائشة رضي الله عنها رحم الله نساء الانصار لم يكن الحياء يمنعهن ان يتفقهن في الدين وروى مسلم عن أنس رضي الله عنه ان أم سليم حدثت انها سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن المرأة ترى في منامها مايرى الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا رأت ذلك المرأة فلتغتسل فقالت أم سليم واستحييت من ذلك وهل يكون هذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم فمن أين يكون الشبه الحديث ولبعضهم

وليس العمى طول السؤال وانما * تمام العمى طول السكوت على الجهل

وقال عمر رضي الله عنه من رق وجهه رق علمه وقال مجاهد لن ينال العلم مستحي ولا متكبر وكان سفيان الثوري يقول حياة العلم بالسؤال والعمل وموته بتركهما وقد ورد في كتم العلم مارواه ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كتم علما من أهله ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار أي الممسك عن الكلام يمثل من ألزم نفسه بلجام وتنكير علم يوهم شموله لكل علم وخصه كثير بالعلم الشرعي واحترز بقوله عن أهله عن كتمه عن غير أهله فمطلوب وقوله تعالى ولا تؤتوا السفهاء أموالكم شاهد على ان حفظ العلم عمن يفسده أو يضر به أولى وجعل بعضهم حبس كتب العلم من صور الكتم أيضا لاسيما ان عزت كتبه وقد قال تعالى واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه الآية وقال عليه الصلاة والسلام بلغوا عني ولو آية

مطلب ان حياة العلم بالسؤال والعمل وموته بتركهما وانه لاينبغي كتم العلم عن غير أهله

وكان ابراهيم بن عيينة يقول أطول الناس ندما يوم القيامة عالم يتعاظم بعلمه على الناس وقيل العلم حرب للمتعالي كما ان السيف قاطع للمكان العالي وأسباب التكبر سبعة الاول التكبر بالعلم فالمتكبر يسرع الى العالم لانه يرى الناس دونه فيستجهلهم ويتوقع منهم خدمته وتقديمه وهذا أولى بان يسمى جاهلا لان العلم الحقيقي هو الذي يعرف الانسان

مطلب اسباب الكبر

به ربه ونفسه السبب الثاني الزهد والعبادة وذلك لان الزهاد والعباد يتزينون للناس باخلاق الصلاح ويرون ان غيرهم بزيارتهم أولى وينظرون أنفسهم بعين النجاة والناس بعين الهلاك ومن اعتقد ذلك فهو الهالك جاء في الصحيح ان رجلا قال والله لا يغفر الله لفلان فأوحى الله الى نبي ذلك الزمان ان قل لفلان قد غفرت له واحبطت عملك الثالث النسب فالذي نسبه شريف قد يستحقر غيره وربما ظهر ذلك على لسانه وافتخر رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما للآخر انا فلان بن فلان فمن أنت لا أم لك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم افتخر رجلان عند موسى عليه السلام فقال أحدهما للآخر انا فلان بن فلان حتى عد تسعة فأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام قل للذي افتخر بأن التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم الرابع الجمال واكثر ما يجري ذلك بين النساء وذلك يدعو الى التنقيص والغيبة الخامس التفاخر بالغنى حتى يستحقر الغني الفقير ويتكبر عليه ومن ذلك قوله تعالى قال لصاحبه وهو يحاوره أنا اكثر منك مالا وأعز نفرا ثم بين الله تعالى عاقبة أمره فقال ولم يكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا السادس التكبر بالقوة كما حكى الله تعالى عن قوم عاد وقالوا من أشد منا قوة السابع التكبر بكثرة الاتباع فمن حق من عرف الكبر ودواهيه وما يترتب عليه من الهلاك أن يتواضع لله ولعباده فان التواضع من أشرف الخصال قال صلى الله عليه وسلم الكرم التقوى والشرف التواضع وقال صلى الله عليه وسلم من تواضع لغني لغناه ذهب ثلثا دينه وانما ذهب ثلثا دينه لان المرء بثلاثة أشياء قلبه ولسانه وبدنه فاذا تواضع بلسانه وبدنه ذهب ثلثا دينه فلو اعتقد بقلبه ما حصل منه بلسانه وبدنه للغني من أجل غناه لذهب دينه كله ومن عرف أن العزة لله فلا يتعزز على خلق الله فان العزة لله ولمن تعزز به قال الله تعالى من كان يريد العزة فلله العزة جميعا وقال تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين فعزة الرسول صلى الله عليه وسلم وعزة المؤمنين لله ملكا وخلقا وعزته سبحانه له وصفا فاذن العزة كلها لله عز وجل واذا عرف العبد أن العزة لله تعالى فلا يطلب العزة من غيره فقد قيل من استعز بغير الله ذل

(الباب السابع)

(في عموم القرابة وحقوق بعضهم على بعض وفيه فصول)

(الفصل الاول في القرابة)

القرابة

القرابة هم الآباء والامهات والبنون والبنات والاخوة والاخوات والاعمام والعمات والاخوال والخالات وأولاد العم والعمة وأولاد الخال والخالة فالعصبات وأولو الارحام قرابات مشتبكة وفي سلسلة النسب مشتركة ولهذا كان الولد الذي يشبه في الاكثر أباه وأمه قد يشبه أخواله فقد روي ان النطفة اذا استقرت في الرحم أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم في أي صورة ما شاء ركبه أي في أي شبه من أب أو أم أو خال أو عم أو غيرهم وربما أشبه الولد الخال في الخمايل والطباع والاحوال والاوضاع ولذلك تمدح العرب باصالة الخال كما تمدح باصالة العم فيقال فلان معم مخول قال الشاعر

خالي لأنت ومن جرير خاله * ينل العلاء ويكرم الاخوالا

وقال آخر

فكيف ولم ينسب زعيم عشيرة * الى المجد الا كان خالي أو عمي
فان أشبهتهم في الفخار خلائقي * فعلي فهذا الراح من ذلك الكرم

وقال آخر

اذا مضر الحمراء كانت أرومتي * بنصري فاني حازم وابن حازم
عطست بأنفي شامخا وتناولت * بناني الثريا قاعدا غير قائم

وأما قول بعض العرب

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا * بنوهن أبناء الرجال الاباعد

فانما المراد به نسبتهم الى قبائل آبائهم وعشائر رجالهم وانتظامهم في سلكهم عند شن الاغارات واثارة الحروب وحماية الحقيقة لا لنفي القرابة بالكلية ولا قطع النسب الى أمهاتهم فالعرب تمدح بشرف النسب من الجهتين وان قويت لحمة العصوبة فقد كان العلويون يدعون بني العباس أبناء عمهم وقال بعضهم رأيت بطريق مكة اعرابية ومارأيت أحسن منها فقعدت انظر اليها وأتعجب من جمالها فجاء شيخ قصير فأخذ بأذنها فسارها ومضى فقلت لها ماهذا الشيخ قالت زوجي فقلت كيف يرضى مثلك بمثله فقالت شعر

أيا عجبا للخود يجري وشاحها * تزف الى شيخ من القوم تنبال
دعاني اليه انني ذو قرابة * يعز علينا من بني العم والخال

(التنبال الوغد القصير الدني) وقال بعضهم

ولازادنا بغيا على ذى قرابة * غنانا ولا أزرى باحسابنا الفقر

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يارسول الله ان لى ابنة جاهة لا تريد التزويج وكلما أتيت برجل اليها تأبى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ائتنى بها بعد العشاء الاخيرة فى بيت عائشة رضى الله عنها فلما حضرت قال لها ما لك وبمخالفة ما أحل الله لك وأمر به فقالت انى أحب ابن عمى زيد بن أرقم وأبى لا يرضى به فقال أطيعى أباك فانه ما من امرأة عصت أمر والدها الا عذبها الله بالنار فقالت يارسول الله كيف أفعل بالقلب فلما علم النبى صلى الله عليه وسلم تمكن الحب من قلبها أرسل خلفها الى ابن عمها وأعلمه فقال يارسول الله وأنا لها بالحب أزيد فزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ابن عمها وقال له أنت كفؤ

ومن أحسن ما كتب فى القرابة التى لا تنفع كتابة بعضهم الى صديق له أما بعد فان قرابتك من قرب منك خيره وابن عمك من عمك نفعه وعشيرتك من أحسن عشرتك والسلام

مطلب ان أمور الدنيا خمسة وعشرون قسما وكلها ترجع الى خمسة أقسام

قال بعضهم الدنيا خمسة وعشرون قسما ترجع الى خمسة أقسام فمنها خمسة بالقضاء والقدر وخمسة بالاجتهاد وخمسة بالعادة وخمسة بالجوهر وخمسة بالوراثة فأما التى بالقضاء والقدر فهى الاهل والمال والولد والسلطنة والعمر وأما التى بالاجتهاد فهى الثواب والعقاب والعفة والفروسية والكتابة وأما التى بالعادة فهى الاكل والشرب والنوم والمشى والجماع وأما التى بالجوهر فهى التواضع والصدق والوفاء والسخاء والحب وأما التى بالوراثة فهى الهيبة والذهن والذكاء والحياء وقال آخر مجامع الهوى خمسة وهى قوله تعالى انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد والاعيان التى تحصل منها هذه الخمسة ستة يجمعها قوله تعالى زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث

مطلب ان من حسن بخت الانسان رزقه بأفضل البنين والبنات والاخوات

ثم ان الانسان بالنسبة للاقارب ملعبة البخت فاذا حسن بخته رزق بأفضل البنين يعنى بالشاب البار وبأفضل البنات يعنى الخالية من العار وبأفضل الاخوات أى التى لا تفضح أخاها بالشنار ومن فضائل الولد الصالح ذكرا كان أو أنثى انه يلحق أبويه بركة دعائه والبركة كما قال الراغب ثبوت الخير الالهى فى الشئ والمبارك ما فيه ذلك

الخير

مطلب اذامات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث

الخير كما في حديث اذامات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية أوعلم ينتفع به أو ولد صالح يدعوله وهذا الحديث يشتمل على أساس الدنيا والدين فكأنه حاصر لما يمدح به العامل بعد موته من دوام عمله ثوابا أودوامامجازيا كأنه عامل دائم العمل مثاب دائم الثواب والثلاثة الفضائل المخلدة لذكره وأجره الباقيات بعد انقضاء عمره جامعة لمعالي الامور فان الصدقة الجارية هي الصدقة التي لا ينقطع نفعها ولا يمتنع من الدر ضرعها وهذا معنى جريانها كحفر الآبار وغرس الاشجار واجراء الانهار وتسليك الطرقات للاسفار وحاجة التجار وما أشبه ذلك من الاوقاف المخلدة والاموال المرصدة على المصالح الخيرية فالصدقة الجارية اسم جامع لاكثر عموم المنافع وهي الفضيلة الاولى من المخلد للعمل بعد انقضاء الاجل والفضيلة الثانية العلم النافع سواء كان اجتهادا كاجتهاد المجتهدين وعلومهم المخلدة عنهم أو تدوين المدونين الواضعين للعلوم الشرعية والآلية والفنون وكل علم نافع لله ولو صنعة فانها ذات قواعد وموضوعات فانها تدخل في العلم فيدخل فيه كتب الزراعة والتجارة ونحوها اختراعا أوتكميلا فكل هذه الاشياء اختراعها وتدوينها والتأليف فيها وتكثير كتبها بكتابة أوطباعة مما يحتمله فحوى العلم النافع والاحسن التعميم لا التخصيص لان كلام النبوة يبين دائما مكارم الاخلاق والفضيلة الثالثة الولد الصالح وهذا اشارة منه صلى الله عليه وسلم الى النسل فهذه الفضائل الثلاثة جامعة لكل خير لا يخرج منه شيء من الامور المعاشية والمعادية باعتبار العمل والغاية مادام العمل صادرا عن نية فان المباح بنية القربة يعقبه الثواب قال البرهان البقاعي رحمه الله

للعبد يجري الاجر بعد الموت في * تسع كما قال النبي المصطفى
إجراء نهر حفر بئر غرس نخل * نشر علم والتصدق في الشفا
وبناء بيت ابن السبيل ومسجد * وبتركه ابنا صالحا أو مصحفا

وكلها ترجع للثلاثة وروى مسلم عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مسلم يغرس غرسا الا كان ما أكل منه له صدقة وما سرق منه له صدقة وما أكل السبع فهو له صدقة وما أكلته الطير فهو له صدقة ولا يرزأه أحد الا كانت له صدقة وروى جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يغرس رجل مسلم غرسا ولا زرعا فيأكل منه سبع أو طائر أو شيء الا كان له فيه أجرا وقال صلى الله عليه وسلم لاتحل الصدقة لغني ولا لذي مرة (أي قوة وشدة) وقال

بعض الاعيان أزمنى أحمد بن طولون صدقاته فقلت ربما مدت الى اليد المطوقة بالذهب والسوار والمعصم والكم الناعم أفامنع هذه الطبقة قال هؤلاء المستورون الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف احذر أن ترد يدا مدت وأعط من استعطاك وكان يتصدق فى كل أسبوع بثلاثة آلاف دينار وقال صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة أعرى ما كانوا قط وأجوع ما كانوا قط وأظمأ ما كانوا قط فمن كسا لله عز وجل كساه الله عز وجل ومن أطعم لله عز وجل أطعمه الله عز وجل ومن سقى لله عز وجل سقاه الله عز وجل وقال صلى الله عليه وسلم ان الله يباهى ملائكته بالذين يطعمون الطعام من عبيده وقال صلى الله عليه وسلم من حفر ماء لم يشرب منه كبد حراء من جن أوانس أوطائر الا آجره الله يوم القيامة وقال صلى الله عليه وسلم من موجبات الرحمة اطعام المسلم المسكين والولد فلذة الكبد قال بعض السلف أولادنا اكبادنا قال الشاعر

واغما أولادنا بيننا * اكبادنا تمشى على الارض

مطلب ان الولد فلذة من الكبد وانه ينبغى للوالدان يحسن تربيته

فينبغى ان يرحمه باحسان تربيته لحديث ان لكل شجرة ثمرة وثمرة القلب الولد ان الله لا يرحم من لا يرحم ولده والذى نفسى بيده لا يدخل الجنة الا رحيم قلنا يارسول الله كلنا رحيم قال ليست الرحمة ان يرحم أحدكم خاصته حتى يرحم الناس أجمعين قال الشاعر

ابغ للناس من الخير كما تبغى لنفسك
وارحم الناس جميعا * انهم ابناء جنسك

وورد عنه صلى الله عليه وسلم الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الارض يرحمكم من فى السماء وورد عنه صلى الله عليه وسلم كونوا رحماء فان الله رحيم يحب كل رحيم وقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم رأى فى النار امرأة حميرية تعذب بسبب هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تسقها ولم تدعها تاكل من خشاش الارض حتى ماتت وان تلك الهرة اذا أقبلت تنهشها واذا أدبرت تنهشها (وخشاش الارض بمعجمات حشراتها)

وكان عائذ بن عمرو المزنى لا يخرج من داره ماء الى الطريق لا من مطر ولا غيره وكان اذا مات له سنور دفنه فى داره ولا يخرجها اتقاء اذاه الناس من رائحته ومعنى الاذى ما يؤذى المارة كالقاء قذر وشوك وحجر وحيوان مخوف وردم بناء وعظم وقزاز وغير ذلك مما

مما يؤذي المار في الطريق فاذا رأى الانسان شيئا من ذلك وأزاله من طريق المسلمين كتبت له بذلك صدقة وغفر له لما ورد أن رجلا رأى غصن شوك في الطريق فقطعه فغفر له ورأى رجل فرخا وقع من عشه فرده الى عشه فغفر له ورأى رجل كلبا يأكل الثرى من العطش فسقاه فغفر له وامرأة رأت كلبا يلهث عطشا فنزعت خفها وأخرجت له ماء وسقته فغفر لها وقد ورد الايمان بضع وسبعون شعبة اعلاها شهادة ان لا اله الا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم ان الله يحب الرفق في الامر كله وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لعلي يا علي اربع خصال من الشقاء جمود العين وقساوة القلب وبعد الامل وحب الدنيا

مطلب ان الايمان بضع وسبعون شعبة

قيل ان عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة فقال لهم قد ابتليت بهذه البلايا فأشيروا على فقال له سالم ان أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أبا وأوسطهم أخا وأصغرهم ولدا فبر أباك وارحم اخاك واحن على ولدك وقال رجاء ان أردت النجاة من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك وهذا هو الانصاف وورد عنه صلى الله عليه وسلم لا تزال امتي بخير ما وقر صغيرهم كبيرهم وقال صلى الله عليه وسلم البركة في أكابرنا فمن لم يرحم صغيرنا ويجل كبيرنا فليس منا وقيل

ارحم بني جميع الخلق كلهم * وانظر اليهم بعين اللطف والشفقه
وقر كبيرهم وارحم صغيرهم * ثم ارع في كل خلق حق من خلقه

وما يحكى عن صلاح الدين من شفقته على امرأة عيسوية وعدم حرمانها من ولدها فيه عبرة فينبغي ان يقتدى به في ذلك قال العماد وقد كان للمسلمين لصوص يدخلون في خيام الافرنج فيسرقون فاتفق ان بعضهم أخذ صبيا رضيعا من مهده ابن ثلاثة أشهر فوجدت عليه أمه وجدا شديدا واشتكت الى ملوكها فقالوا لها ان سلطان المسلمين رحيم القلب فاذهبي اليه فجاءت الى السلطان صلاح الدين فبكت وشكت أمر ولدها فرق لها رقة شديدة ودمعت عيناه فأمر باحضار ولدها فاذا هو بيع في السوق فرسم بدفع ثمنه الى المشتري ولم يزل واقفا حتى جيء بالغلام فدفعه الى أمه وحملها على فرس الى قومها مكرمة انتهى

وقد جاء في الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم كان في بعض غزواته وامرأة تطوف على ولدها ضيع فلما وجدته حنت عليه وألقمته الثدي فنظر الصحابة اليها متعجبين فقال

صلى الله عليه وسلم الله أرحم بعبده المؤمن من الام على ولدها وقال صلى الله عليه وسلم أحب الاعمال الى الله من أطعم مسكينا من جوع أو دفع عنه مغرما أو كشف عنه كربا وعنه صلى الله عليه وسلم أحب الاعمال الى الله بعد الفرائض ادخال السرور على المسلم وقال صلى الله عليه وسلم من أدخل السرور على مسلم فقد أسرني وعن أنس رضي الله عنه انه عليه الصلاة والسلام قال لو جاء العسر ودخل هذا الجحر لجاءه اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه وروى الحاكم انه عليه الصلاة والسلام قال لن يغلب عسر يسرين كما دل على ذلك قوله تعالى فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا قال ابن ابي جمرة كان علي رضي الله عنه اذا كان في شدة استبشر وفرح واذا كان في رخاء أي سعة قلق فسئل عن ذلك فقال ما من ترحة الا ويتبعها فرحة وما من فرحة الا ويتبعها ترحة ثم تلا هذه الآية فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا

مطلب ان الحيلة في حفظ الاموال أداء الزكاة

وقيل لا تشغل قلبك بما ذهب منك ولكن احفظ ما بقي لك وقال آخر حفظك لما في يدك أولى بك من طلب ما في يد غيرك والحيلة في حفظ الاموال أداء الزكاة قال صلى الله عليه وسلم ما ضاع مال في بر ولا بحر الا بمنع الزكاة فالشدائد والمحن بتقدير الله وقضائه قال الله تعالى ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل ان نبرأها الآية

مطلب ان العاقل اذا أصابته نكبة ينبغي له ان ينام لها حتى تنقضي مدتها

وقال بعضهم ان للنكبات نهايات لا بد لاحد اذا نكب ان ينتهي اليها فينبغي للعاقل اذا أصابته نكبة أن ينام لها حتى تنقضي مدتها فان في رفعها قبل انقضاء مدتها زيادة في مكروهها وقيل لا ثناء مع الكبر ولا صحة مع الهم والتخم ولا شرف مع سوء الادب ولا راحة مع الحسد وقيل

اذا ما أتاك الدهر يوما بنكبة * فهيئ لها صبرا ووسع لها صدرا
فان تصاريف الزمان عجيبة * فيوما ترى عسرا ويوما ترى يسرا

قال بعضهم ومن العوارض النفسانية الحزن على فائت فينبغي ان لا يكثر التأسف فان الدنيا بأسرها فانية وليعز نفسه بأنه لو اصيب بمصيبة أعظم منها لكان أعظم حزنا مثل ان يقع الحزن على فائت من المال فيقول لو وقع هذا في الولد كان اكثر مصيبة أو وقع في الولد فيقول لو وقعت هذه المصيبة في روحه لكان اكثر مصيبة ونحو ذلك مما يهون عليه الحزن وقال عمر رضي الله عنه ما أصبت بمصيبة الا ونظرت ان الله أنعم علي فيها بثلاث نعم الاولى ان الله هونها علي ولم يصبني بأعظم منها وهو قادر على أعظم منها والثانية

ان

ان الله تعالى جعلها فى دنياى ولم يجعلها فى دينى وهو قادر على ذلك والثالثة ان الله تعالى يأجرنى بها يوم القيامة وقيل

اذا أراد الاله أمـــرا * فضاؤه فى النفوس مبرم
فوضت أمرى وقلت خيرا * مادفـع الله كان أعظم

وقيل
ولرب نازلة يضـيق بها الفتى * ذرعا وعنـد الله منها المخرج
كملت فلما استحكمت حلقاتها * فرجت وكان يظنها لا تفـرج

وقال تقى الدين ابن حجة

وفى الخطوب تظهر الجواهر * ماغلب الايام الا الصابر
لا تيأسن من فرج ولطف * وقوة تظهر بعد ضعف

وقيل
اذا اشتملت على اليأس القلوب * وضاق بما لك الصدر الرحيب
وأوطنت المكاره واطمأنت * وأرست فى مناكبها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضر وجها * ولا أغنت بحيلتـه الاريب
وكل الحادثات وان تناهت * فمقـرون بهـا فرج قريب

وقال الشيخ زكريا الانصارى رضى الله عنه

كفى مقلتى قـرحا وفى القلب قلبها * عسى يا الهى تنقط القاف واحده
وان تنقط الاخرى الى الحاء بعدها * بفضـلك يامن لا يخيب قاصده

وقيل
عسى فرج يكون غدا * وقبل غد عسى الفرج
فلا تجـزع لنـازلة * وان ذابت بها المهج
ودم للبـاب تقرعـه * فـكم من قارع يلج

وأخرج ابن عساكر عن محمد بن عمر أنه قال أمر الحجاج باحضار رجـل من السجن فلما أحضر بين يديه أمر بضرب عنقه فقال له الرجـل أيها الامـير أخرنى الى غـد فقال له الحجاج ويحك وأى فرج فى تأخير يوم ثم أمر برده الى السجن فسمعه الحجاج يقول

عسى فرج يأتى به الله انه * له كل يوم فى خليقته أمر

فقال الحجاج والله ما أخذه الا من القرآن العظيم يعنى من قوله تعالى كل يوم هو فى شان فأمر باطلاقه وقيل اذا اشتدت الازمة انحلت الحزمة أول الفرج آخر الضيق وأشد الاعداء أقرب صديق ولكل باطن ظاهر ولكل أول آخر وكان صلى الله عليه وسلم يقول اشتدى أزمة تنفرجى وعن أبى بن كعب رضى الله عنه فى قوله تعالى واذ

مطلب تفاوت الناس فى درجاتهم

أخذ ربك من بنى آدم الآية قال جمعهم فجعلهم أرواحا ثم صورهم فاستنطقهم وآدم ينظر اليهم فرأى الغنى والفقير والمبتلى وحسن الصورة ودون ذلك فقال يارب لم لا سويت بين عبادك قال انى أحببت ان أشكر فهذا نص من الله تعالى على الحكمة فى خلق الناس متفاوتين فى صفة الكمال والنقص حتى انه جعل أنواع البلاء متفاوتة ارادة الشكر فلا ترى ذا بلاء الا وهو يرى أشد بلاء منه ولا ذا حال سيئ الا وهو يرى من هو أسوأ حالا منه ولو من نوع آخر فترى مثلا الفقير الذى لا يجد قوته ويبيت الليالى طاويا يرى من هو دنف ملازما للوسادة وهو كثير المال فيشكر الله على العافية وذلك الدنف يرى هذا الفقير وهو يتمنى القوت فلا يجده فيشكر الله ان رزق الغنى مع سقمه ولم يجعله يتكفف الناس وينظر الملك الى ما خوله من النعيم ونفوذ الامر فيشكر الله أن جعله أميرا لا مأمورا ومالكا لا مملوكا وتنظر آحاد الرعية الى ما يقاسيه الملك من أنكاد الدنيا وهمومها وخروج الخوارج عليه وانتشار المفسدين والقطاع وخوفه على نفسه من يغتاله أو يسلب منه ملكه ويقصده بأنواع المكائد ثم ما يتبع ذلك من الحساب يوم القيامة على كل فرد فرد من رعاياه وهل قام فيهم بما أمر الله من العدل وتخليص مظلومهم من ظالمهم وانفاذ أوامر الله فيهم وايصال حقوقهم اليه وعلى كل ذرة من مال قبضها أو صرفها هل أخذها كما أمر الله وصرفها فيما أمر الله فيحمد الله ذلك المسكين اذ لم يجعله ملكا فحينئذ لا ترى أحدا من الناس الا شاكرا كل بحسب حاله وانظر الى هذه الحكمة البديعة فى جعل الناس مع تباين أحوالهم متفاوتين فى الحال الواحد مقولين بالتشكيك لا بالتواطئ فذو والفقر متفاوتون ليرى كل دونه وكذا ذو والبلاء الى غير ذلك ومما يعزى للامام الشافعى رضى الله عنه

من ذا الذى قد حاز راحة سره * فى يسره ان كان أو فى عسره
فلربما يلقى الغنى بماله * اضعاف ما يلقى الفقير بفقره
وأخو التجارة خائف مترقب * مما يلاقى من نوائب دهره
وأخو الوزارة واجد متحير * مما يلاقى من نوائب عصره
وكذلك السلطان فى أحكامه * رهنا لهموم على جلالة قدره
ولقد حسدت الطير فى أوكارها * فوجدت أكثرها يصاد بوكره
تالله لو عاش الفتى فى أمره * ألفا من الاعوام مالك أمره
متلذذا فيها بكل عجيبة * ومبلغا فيها مآرب فخره

لا

لا يعتريه السقم فيها مرة * أبدا ولم تجر الهموم بفكره
وصفت له الايام حتى انه * لم تنطق الاصوات عند مقره
وله طوال الارض تخضع ذلة * مستشهدين له جلالة قدره
ما كان ذلك كله مما بقى * بمبيت أول ليلة فى قبره

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام خيرة الله فيما يكرهه العبد أحسن من خيرته فيما يحب وقد يكون الشئ أبدع فى وقت وخلافه أبدع فى وقت آخر وكذلك الحياة والموت واليسر والعسر والامن والخوف والصحة والسقم وذلك لعلم الله بحكمته البالغة ان الابدع فى هذا الوقت ايجاد احد الضدين الى وقت كذا فاذا حل ذلك الوقت فالابدع ايجاد ضده فيوجده على حكمته ومن قدح فى شئ من هذا فقد قدح فى الحكمة وعارض حكمة الحكيم برأى من عنده ويرجح ذلك قصة المنسوخ من الشرائع والاحكام فان الله تعالى عالم بحكمته البالغة ان الابدع شرع هذا الحكم فى هذا الوقت فشرعه الى وقت كذا فاذا جاء ذلك الوقت فالابدع شرع خلافه فيشرعه

مطلب ان خيرة الله فيما يكرهه العبد أحسن من خيرته فيما يحب

حكى عن رجل من الراضين انه كان يقول فى كل ما يصيبه الخيرة فيما قدره الله وكان فى بادية ومعه أهله وليس له الا حمار يحمل عليه أمتعته وكلب يحرسهم وديك يوقظهم فجاء ثعلب أخذ الديك فقال خيرة وجاء ذئب فقتل الحمار فقال خيرة ثم أصيب الكلب فمات فقال خيرة فتعجب أهله من ذلك حتى أصبحوا وقد سبى من حولهم واسترقت أولادهم وكان قد عرف مكان بعضهم بصوت الديك ومكان بعضهم بنهيق الحمار فقال قد رأيتم ان الخيرة فيما قدره الله فلو لم يهلكهم لملكتم وهلكنا

وما ثم الا الله فى كل حالة * فلا تعتمدوما على غير لطفه
فكم حالة تأتى ويكرهها الفتى * وخيرته فيها على رغم أنفه

وروى ان نبيا كان يتعبد فى جبل وكان بالقرب منه عين ماء فاجتاز بها فارس وشرب ونسى عندها صرة فيها دنانير فجاء اخر وأخذ الصرة ثم جاء فقير على رأسه حزمة حطب فشرب واستلقى يستريح فرجع الفارس فى طلب الصرة فلم يرها فأخذ الفقير فصابه وعذبه حتى قتله فقال النبى الهى ما هذا آخذ الصرة سلطت هذا الظالم على هذا الفقير حتى قتله فأوحى الله اليه ان اشتغل بعبادتك فليس معرفة ذلك من شأنك ان هذا الفقير كان قتل أبا الفارس فمكنته من القصاص وان أبا الفارس كان أخذ ألف دينار

من مال آخذ الصرة فرددته اليه من تركته فمن أتقن امثال هذه الاسرار لم يتعجب من افعال الله وتعجب من جهل نفسه ولم يقل وكيف فرضى بما دبر الله في ملكوته وقيل

دع الاعتراض فما الامر لك * ولا الخوض في لج بحر الفلك
ولا تسأل الله عن فعله * فمن خاض لجة بحر هلك

وقال تعالى الله لطيف بعباده يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر و يعفو عن كثير من سيآتهم ولا يؤاخذهم بجميع جناياتهم ويجزيهم بالحسنة عشر أمثالها ولا يجزيهم بالسيئة إلا مثلها ويكتب لهم الهم بالحسنة ولا يكتب عليهم الهم بالسيئة وقال الحليمي لطيف بالبر والفاجر حيث لم يقتلهم جوعا بمعاصيهم وقال بعضهم الرحمة خاصة والبلاء عام وهذا من جملة رحمة الله بالعصاة اذ لو نزل البلاء كله على الذين يستحقونه بالمعصية لمحق الله تعالى أثرهم وانما يوزع على الناس فيصيب كل واحد منهم قدر يسير لا يكاد يحس به و يحصل للعاصي مثل أحد الناس من باب سبق رحمته تعالى غضبه وإما المطيع فينزل عليه اكثر الرحمة بطاعته لانه محبوب لله فلا يحصل لغيره من الرحمة الا اليسير ومن لم يحسن جوار نعم الله نفرت عنه ان الله لا يغير ما بقوم من الكروب حتى يغيروا ما بأنفسهم من الذنوب

ومن لطفه ان جعل الرزق من الطيبات ولم يدفعه اليك جملة لئلا تسرف فيه ومن لطفه بعباده ان أعطاهم فوق الكفاية وكلفهم دون الطاقة ومن لطفه ان يسر لهم الوصول الى سعادة الأبد بسعي خفيف في مدة قصيرة وهو العمر ومن لطفه اخراج اللبن من بين فرث ودم واخراج الجواهر النفيسة من الاحجار الصلبة واخراج العسل من النحلة الضعيفة والابريسم من الدودة النحيفة والدرة اليتيمة من الصدفة المهينة وأعجب من ذلك كله ان ركب فيك الشهوة وخلق من النطفة القذرة مستودعا بمعرفته وحاملا لأمانته ومشاهد الملكوت سمواته وهذا لا يمكن احصاؤه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها

(رجع) وقال بعض الحكماء الولد ريحانتك سبعا وخادمك سبعا ثم بعد ذلك شريكك أو عدوك و بشر الامام عمر الفاروق رضي الله عنه بولد فقال ريحانة أشمها برهة من الزمان وعما قليل إما ولد بار و إما عدو ضار وأنشد بعضهم

مطلب ان الولد يكون أولا ريحانة أبيه ثم يكون خادمه ثم يكون شريكه أو عدوه

هذا الزمان الذى كنا نحاذره * فى قول كعب وفى قول ابن مسعود

ان

ان دام هذا ولم يحدث له غير * لم يبك ميت ولم يفرح بمولود

وقال بعض من لم يأنس في ولده الرشد بعد أن حاول رشده

كم فرحة لي في الحشا * بولد لي قد نشا
كنا نشاء رشده * فما نشا كما نشا

وقال آخر في سوء حظه من ولده وعبده

ليهنك ان لي ولدا وعبدا * سواء في المقال وفي المقام
فهذا سابق من غير سين * وهذا عاقل من غير لام

ولكون الولد فلذة الكبد كما سبق يتنافس فيه أبوه وأمه ويطالب كل منهما ان يستحوذ عليه ويتحاوران في شأنه فقد وقعت محاورة أبي الاسود الدئلي وزوجته في ولدهما امام القاضي شريح فقد قالت أيها القاضي اني حملته تسعا ووضعته دفعا وأرضعته شفعا حتى اذا تمت أوصاله ودنا فصاله أراد أن يأخذه كرها ويتركني بعده ورها فقال أبو الاسود اني حملته قبل أن تحمليه ووضعته قبل أن تضعيه فقالت حملته خفا وحملته ثقلا ووضعته شهوة ووضعته كرها ان بطني كان له حواء وثديي سقاء وبدي وقاء ورجلي حذاء فقال أيها القاضي اني أعطيتها مهرا كاملا ولم أصب منها طائلا الا وليدا خاملا فافعل ما رأيت فاعلا فقضى لها القاضي شريح رحمه الله

مطلب محاورة أبي الاسود الدئلي وزوجته أمام القاضي شريح في ولدهما

وقد جرت العادة ان أعز الاقارب الولد لاسيما بالنسبة لمحبة أمه له وشفقتها عليه وقد تؤثر المرأة أخاها على ولدها كما حكى انه قيل لامرأة قد أسر الحجاج زوجها وابنها وأخاها اختاري أيهم شئت فقالت أختار الاخ فان الزوج موجود والابن مولود والاخ مفقود فقال الحجاج قد عفوت عنهم بحسن كلامها وبعض النساء يؤثر الزوج على الاب والاخ كما حكى المدائني ان رجلا مات عن زوجته وكانت مليحة فصيحة محبة له فبينما هي تمشي في بستان أبيها اذ ذكرت زوجها فبكت وأنشأت تقول

مطلب ان أعز الاقارب الولد لاسيما بالنسبة لشفقة أمه عليه وايثار بعض النساء الزوج على الاب والاخ وسياق حكاية أدبية في ذلك

انما أبكي لالف * خانه الدهر فاتا
قلت للدهر بحزن * أيها الدهر أساتا
لم تركت الاب والاخ * وبالزوج بداتا

ثم التفتت فاذا بأبيها وأخيها خلفها فسمعا ما قالت فقالا لها ما هذا الذي تقولين فقالت لما رأيت شجرة الخوخ جفت قلت

انما أبكى لخوخ * خانه الدهر فاتا
قلت للدهر بحزن * أيها الدهر أساتا
لم تركت الزرع والكر * م وبالخوخ بداتا

فقالا لها ماهذا الكلام فقالت ما كان الا هذا فتعجبا من فصاحتها ووهبا لها البستان والظاهر أن انشادها الشعر انما هو لمجرد شفاء غليلها فقط وأنها لو خيرت لم تختر موت أبيها أو أخيها على زوجها وان ماصدر منها انما هو نفثة مصدور كما يحكى عن بعضهم انه قال خرجت الى مقابر البصرة فاذا امرأة واقفة على قبر زوجها تنشد أبياتا آخرها

يا موت ماذا أردت مني * حققت ما كنت أتقيه
دهر رماني بفقد إلفي * أذم دهري وأشتكيه
أمنك الله كل روع * وكل ما كنت تتقيه
أسكنك الله في محل * يقصر عن وصف ذاكريه

مطلب منزلة الزوج عند الزوجة وحنينها اليه بعد موته وانشاد بعض النساء أبياتا ورثائية حماسية في زوجها وكان بجاما

فأثر في قلبي منظومها عند انشادها وكانت لي ابنة لطيفة المحل من قلبي نفيسة المنزل في نفسي ذات محاسن كثيرة وفضائل غزيرة ورزقت حظا من التلاوة والآداب الدينية والصناعية مع عقل رصين وبراعة ودين فسلمت للرب جل جلاله قضاءه فيها وعرفت حسن اختياري لي ولها اذ كان خالقها أملك لها من والدها ورضيت ثواب الله عوضا منها ولهجت بما في هذه الأبيات ومكثت أقطع ليلي ونهاري بترجيعها وبالجملة فالرجل لزوجته ملك وسلطان تبكيه زوجته المحبة له طول الزمان ولا تزال تصفه بصفات الكمال كما يحكى ان بعضهم قال مررت على قبر ببغداد وعليه امرأة تنوح على زوجها وتنشد

فمن للسؤال ومن للنوال * ومن للمقال ومن للخطب
ومن للحماة ومن للكماة * اذا ما الكماة جثوا للركب
اذا قيل مات أبو مالك * فتى المكرمات قريع الكرب

مطلب ان ذوي القربى يجب بينهم المحبة العمومية ومافي صلة الرحم من الخصال المحمودة

فقلت لها من هو أبو مالك الذي ترثينه بذلك فقالت هذا أبو مالك الحجام الذي ختن الخليفة المنصور فقلت لها ماظننت بسماع كلامك الا انه سيد من سادات العرب قال بعضهم لا حرمة لنائحة لانها تأمر بالجزع وقد نهى الله عنه وتنهى عن الصبر وقد أمر الله به وتبكي شجو غيرها وتأخذ الاجرة على دمعها وتحزن الحي وتؤذي الميت وبالجملة فالقرابة عصبة أو رحما والمصاهرة التي هي أيضا نوع من القرابة يجب بينهم المحبة العمومية

العمومية وحفظ التوادد والتواصل ولذلك كانت صلة الرحم فيها خصال محمودة أولها رضاء الله تعالى لانه أمر بتقواه وصلة الرحم فقال تعالى اتقوا الله الذى تساءلون به والارحام الثانى ادخال السرور عليهم وأفضل الاعمال ادخال السرور على المؤمن الثالث حسن الثناء وزيادة العمر والبركة فى الرزق

وفى صلة الرحم سرور الاموات أيضا لان الآباء يسرون بصلة القرابة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرض الاعمال يوم الاثنين والخميس على الله وتعرض على الانبياء وعلى الآباء والامهات يوم الجمعة فيفرحون بحسناتهم وتزداد وجوههم بياضا واشراقا فاتقوا الله ولا تؤذوا أمواتكم وفى صلة الرحم أيضا زيادة فى المروءة لانه اذا وقع لواصل الرحم سرور أو حزن اجتمعوا عليه وأعانوه أوسلوه فيكون له زيادة فى المروءة وزيادة بعد موته لانهم يدعون له كلما ذكر بره

وأقسام المروءة سبعة ثلاثة فى الحضر وأربعة فى السفر أما التى فى الحضر فغض البصر وامساك الفرج وأداء الامانة واما التى فى السفر فبذل الزاد ومراعاة الرفيق واحسان الخلق وإدلال الدال الى الطريق والرحم هو القرابة من قبل الاب أو الام من غير تقييد بمحرمية وقيل بتقييدها ورجحه الشهاب الرملى وقيل كل قرابة الى ثمانية عشر جدا وقيل من تجب نفقته وللاقارب حقوق يقدم فى البر الاحوج فالاحوج والصلة والاحسان اليهم وقد وردت أحاديث كثيرة فى صلة الرحم منها من سره أن يمد له فى عمره ويوسع له فى رزقه ويدفع عنه ميتة السوء فليتق الله وليصل رحمه ومنها الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله ومنها يقول الله عز وجل أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى فمن وصلنى وصلته ومن قطعنى قطعته وقال صلى الله عليه وسلم ان الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم وقال صلى الله عليه وسلم ان صلة الرحم تقرب العبد الى رحمة الله تعالى وتباعده من عقوبته وقال صلى الله عليه وسلم بروا أرحامكم ولو بالسلام وما ذكر من الآيات مثل قوله تعالى وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب ان معناه كل من طال عمره أو قصر فهو مكتوب فى الكتاب وقوله تعالى ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ان الاجل المسمى عنده هو الاجل الذى قضاه وقوله تعالى يمحو الله ما يشاء ويثبت على عمومه حتى الشقاوة والسعادة والاجل والرزق والخلق لكن باعتبار متعلق الكتاب والعلم لان المشاهد أن الشخص يكون كافرا وذلك مكتوب فى اللوح المحفوظ لانه من جملة الحوادث ثم يسلم ومسلما ثم يكفر

مطلب تقسيم المروءة الى سبعة أقسام ثلاثة منها فى الحضر وأربعة فى السفر

وفقيرا ثم يستغنى وعكسه ولاريب ان كل ذلك والحوادث كلها مكتوبة فى اللوح المحفوظ فبالضرورة حصل المحو والاثبات وان علم الله بذلك أزلى لا يتغير ولا يتبدل فقد ثبت بالدلائل القطعية ان الله عالم بالآجال والارزاق وغيرها وحقيقة العلم معرفة المعلوم على ما هو عليه فاذا علم الله ان زيدا يموت بوقت معين استحال ان يموت قبله أو بعده فلا يتغير علمه تعالى بذلك وان المعلوم هو الذى يتغير ويتبدل على وفق علمه وينتقل من حال الى حال وذلك معلوم بضرورة المشاهدة وانه لا يمحو شيئا ولا يثبت الا ما سبق علمه به وان صلة الرحم ونحوها تزيد فى العمر وأن الدعاء يدفع البلاء وروى عنه صلى الله عليه وسلم اثنان لا ينظر الله اليهما قاطع الرحم وجار السوء وهو الذى ان رأى حسنة كتمها أو سيئة أفشاها

فصلة القرابة هى ان يفعل القريب معهم ما يعد به واصلا غير منافر ولا مقاطع فيصلهم بالهدية ونحوها فان لم يقدر على الصلة بالمال وكانوا غير محتاجين اليه وصلهم بالزيارة والاعانة على أعمالهم ان احتاجوا الى ذلك وان كان غائبا عنهم وصلهم بالكتاب وارسال السلام ولين الكلام ونحو ذلك فان قدر على السعى اليهم بالحضور لمشاهدتهم فهو أفضل ثم ان حقوق الاقارب من حيث البر والصلة مختلفة فى القوة كما سيأتى

(الفصل الثانى)

(فى بر الوالدين وفى فضل العلم والحث على تعليمه وفى آداب كل من المعلم والمتعلم)

مطلب فى بر الوالدين

بر الوالدين واجب شرعا وعقلا قال الله تعالى واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا الآية وقال تعالى ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا وهذه الآية والتى فى العنكبوت وسورة الاحقاف نزلت فى سعد بن أبى وقاص وأمه حمنة بنت أبى سفيان لما أسلم وكان بارّا بأمه فقالت أمه ما هذا الدين والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع الى ما كنت عليه أو أموت فكنت كذلك أياما فجاءها سعد فقال يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت دينى فكلى واشربى ان شئت أو اتركى فلما يئست منه أكلت وشربت فأنزل الله هذه الآية وأمره بالبر والاحسان اليهما وان لا يطيعهما فى الشرك وقال تعالى وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا الآية ويسمى برهما أيضا بالمحبة البنوية أى صداقة الولد والبنت للاب والام علوا وسفلا فى كليهما

وجاء

وجاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ان لي والدة أنفق عليها وهي تؤذيني بلسانها فكيف أصنع فقال النبي صلى الله عليه وسلم أدحقها فوالله لوقطعت لحمك ما أديت ربع حقها اما علمت ان الجنة تحت أقدام والدتك فسكت الرجل وقال والله لا أقول لها شيئا ثم أتى الرجل الى والدته وقبل أقدامها وقال ياوالدتي بذلك أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم

مطلب ان تكليف الابناء ببر آبائهم لثلاثة أسباب أصلية

وقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى بتكليف الابناء ببر آبائهم لثلاثة أسباب أصلية السبب الاول الاحساس والشعور فان الاطفال يدركون من صغر سنهم بادراك غريزي اعتناء والديهم بشؤنهم وتعهد أحوالهم وأطوارهم ومعاناة آبائهم وأمهاتهم حسن تربيتهم فيرتسم في ذهن الاطفال من المهد هذه التربية فيصير حب الآباء والتعلق بهم طبيعيا للابناء ويتعودون عليه ويصير من جملة الوجدانيات السبب الثاني ان العدل والانصاف مركوز في طبيعة الانسان فالطفل متى استشعر من أبويه تعهد شؤونه لمحبته اياه عامله بالمثل اجراء على قانون العدل والانصاف فلهذا تجد الاطفال يحسنون معاملة آبائهم بمثل ما عاملوهم به بل يجب عليهم ان يعوضوهم شيئا جزاء لتربيتهم اياهم وفي نظير ما أنفقوه عليهم من الاموال في صباهم فبرهم واجب في مقابلة ذلك وقد قال تعالى هل جزاء الاحسان الا الاحسان
السبب الثالث وهو نتيجة الاول ان المصلحة الخصوصية تقتضي سبق حسن المعاملة من الآباء لاولادهم بقطع النظر عن البنوة لان الآباء اذا أساؤا تربية أبنائهم ولم يحسنوا معاملتهم كأنهم جعلوا لهم وسيلة للتأسي بهم حيث عودوهم على العوائد السيئة المنتجة للعقوق فكأنما الصغير شب بسوء تربيته على عقوق والده وعصيانه وكفران نعمه فمتى صار كبيرا واحتاج اليه أبوه عامله عند الاباء بالمثل فاذا أحسن الآباء تربية أبنائهم وعاملوهم بالاكرام كانت مصلحة الاولاد في محبة آبائهم وبرهم لاسيما في حالة شيخوختهم التي تكاد أن تكون عودا الى الطفولية
وحكي ان عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه رأى ولدا له يوم عيد وعليه قميص خلق فبكى فقال له ما يبكيك فقال يا بني أخشى ان ينكسر قلبك في يوم العيد اذا رآك الصبيان بهذا القميص الخلق فقال يا أمير المؤمنين انما ينكسر قلب من أعدمه الله رضاه أو عق أمه وأباه واني لارجو أن يكون الله راضيا عني برضاك فبكى عمر رضي الله عنه وضمه اليه وقبل ما بين عينيه ودعا له فكان ازهد الناس بعد أبيه وقيل

دنوت تواضعا وعلوت مجدا * فشأناك انضاع وارتفاع

ولما افضت الخلافة الى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه اتته الوفود فاذا فيهم وفد الحجاز فنظر الى غلام صغير السن وقد أراد أن يتكلم فقال ليتكلم من هو أسن منك فانه أحق بالكلام فقال له صدقت ولكن يا أمير المؤمنين إنا قدمنا عليك من بلد نحمد الله الذى من بك علينا ماقدمنا عليك رغبة منا ولا رهبة أما الرغبة فقد أمنابك فى منازلنا وأما الرهبة فقد أمنا جورك بعدلك عنا فنحن وفد الشكر والسلام فقال له عمر عظنى ياغلام فقال يا أمير المؤمنين ان ناسا غرهم حلم الله وثناء الناس عليهم فلا تك ممن غره حلم الله وثناء الناس عليه فتزل قدماك وتكون من الذين قال فيهم ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون فنظر فى سن الغلام فاذا له اثنتا عشرة سنة

مطلب ان من الزهد النظر فى الدنيا والتفكر فى سرعة انصرافها

ومن الزهد دوام النظر فى الدنيا والتفكر فى سرعة انصرافها وقلة الحاصل منها وغرور اكثر الخلق بالاقبال عليها ومفارقتها لهم عند كمال محبتهم لها واقبالهم عليها وكون كل لذة منها مقترنة بآفة تلازمها فكم من لذة فى مأكل ومشرب كانت سبب هلكة وكم من لذة فى شهوة بجماع كانت سبب هم وغم وزيادة كلفة وكذلك سائر أقسامها من جاهها ومالها فأرباب الجاه فيها معذبون بحفظ جاههم والصيانة عن نزول قدرهم وأرباب المال مشغولون بحفظه عما يتلفه عليهم وبتنميته طلبا للزيادة مع مالديهم عمال فى نهارهم سكارى فى ليلهم فالفكرة فى الدنيا فى هذه الجهات مع فراغ القلب من المشغلات تدل اللبيب على حقارة الدنيا وتزرع فى قلبه الزهد فيها والاعراض عنها فلا تغرنك زهرتها ولا تفتننك زينتها فانها سلابة للنعم أكالة للامم وقيل

لعمرك ما الدنيا بدار اقامة * ولكنها دار انتقال لمن عقل

اذا أضحكت أبكت وان هى أقبلت * تولت وان أعطت فأيامها دول

مطلب مخاطبة دراوس بن حبيب لهشام

وحكى ان البادية أقحطت على أيام هشام فقدمت عليه العرب وهموا أن يكلموه وكان فيهم دراوس بن حبيب وهو ابن ست عشرة سنة وله ذؤابة وعليه شملتان فوقعت عليه عين هشام فقال هشام لحاجبه ماشاء أحد أن يدخل علىّ الا دخل حتى الصبيان فوثب دراوس حتى وقف بين يديه مطرقا برأسه فقال يا أمير المؤمنين ان فى الكلام طيا ونشرا وانه لا يعرف مافى طيه الا بنشره فان أذن لى أمير المؤمنين ان أنشره نشرته فأعجبه كلامه وقال انشره لله درك فقال يا أمير المؤمنين انه أصابتنا سنون ثلاثة السنة الاولى اذابت الشحم والثانية اذابت اللحم والسنة الثالثة اذابت العظم وفى أيديكم فضول مال فان

كانت

كانت لله ففرقوها على عباده وان كانت لهم فعلى م تحبسونها عنهم وان كانت لكم فتصدقوا بها عليهم ان الله يجزى المتصدقين فقال هشام لمن عنده ماترك الغلام فى واحدة من الثلاث عذرا فأمر للبوادى بمائة ألف دينار وللغلام بمائة ألف درهم ثم قال له ألك حاجة فقال مالى حاجة لنفسى دون عامة المسلمين فخرج من عنده وهو من أجل القوم

مطلب وقوف سعد بن ضمرة بين يدى النعمان واحتقار النعمان له ومخاطبته للنعمان

وقيل ان سعد بن ضمرة الاسدى لم يزل يغير على النعمان بن المنذر يسلب أمواله حتى عيل صبره فبعث اليه يقول ان لك عندى ألف ناقة على انك تدخل فى طاعتى فوقف عليه وكان صغير الجثة فاقتحمته عينه وانتقصه فقال مهلا أيها الملك ان الرجال ليسوا بعظم أجسامهم وانما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ان نطق نطق ببيان وان صال صال بجنان ثم أنشد يقول

يا أيها الملك المرجو نائله * انى لمن معشر شم لذى بطر
فلا تغرنك الاجساد إن لنا * أحلام عاد وان كنا الى قصر
فكم طويل اذا أبصرت جثته * تقول هذا غداة الروع ذا ظفر
فان ألم به أمر فأفظعه * رأيته خاذلا للأهل والزمر

فقال صدقتنا هل لك بالامور علم قال انى لا نقض منها المفتول وأبرم منها المحلول وأجيلها حتى تحول ثم أنظر فيها الى ما تؤول وليس للامور بصاحب من لم ينظر فى العواقب فتعجب من فصاحته وعقله ثم انه أمر له بألف ناقة ثم قال يا سعد ان أقمت عندنا واسيناك بالعطاء وان رحلت واصلناك بالاحسان فقال سعد قرب الملك أحب الى من الدنيا وما فيها فأنعم عليه وأدناه وجعله من خواص ندماه

مطلب ان مما جرت به العادة ان الصبى الشريف النفس يرى من الواجب عليه شكر النعمة لابيه وأمه

وقد جرت العادة ان الصبى الشريف النفس الكريم الاخلاق الحسن التربية يرى من أوجب الواجبات عليه لأبيه وأمه شكر النعمة حيث هما أصل وجوده وسبب حفظه وصونه فقد جبلت الطبيعة البشرية على دوام الاحسان لمن أحسن اليها وحماها وصانها فارتباط الأبناء بالآباء ارتباط صحيح يستدعيه الذوق السليم والطبع المستقيم فلا تخرج الابناء من ربقة هذا التعلق لاسيما بالآباء فحسب الرجل أن يهذب ابنه ويحسن تربيته حتى يكون بذلك أبا منصفا فبهذا يستحق على ولده البر والمحبة فمن الناس من كان ديدنه مدح أبيه فى حياته ورثاؤه بعد مماته ومنهم من أدته الحسة

وقلة التربية لمجد والده فمن القسم الاول ابن سناء الملك حيث يقول فى مدح أبيه الرشيد

انا الغوى بهمى والرشيد أبى * هو الرئيس على الدنيا بهمته

أحيى وأشرفت المجد مجتهدا * فى لم لمته أو رم رمته

أصبحت اختال فى حالى ونضرتها * به وأرتع فى عيشى وخضرته

وأسعد الناس من لاقى بلا تعب * مبدأ السعادة فى مبدا شبيبته

وقال فيه أيضا

يكفيك انى بك ياسيدى * قد طاب أصلى وزكا محتدى

جاوزت حد البر فى صاعدا * فقف فما أبقيت من مصعد

ومن القسم الثانى من هجا والده ابن الرومى بقوله

لو كان مثلك فى زمان محمد * ما جاء فى القرآن بر الوالد

مطلب ان من أسباب زوال الايمان أربعة أشياء

وذكر السمهودى فى كتاب النور بن ان من أسباب زوال الايمان والعياذ بالله تعالى أربعة أشياء ترك الشكر على الاسلام وترك الخوف على ذهاب الاسلام وظلم أهل الاسلام عقوق الوالدين وروى عنه صلى الله عليه وسلم ان من اكبر الكبائر الشرك بالله وعقوق الوالدين ويمين الغموس وقال أبو العيناء أنا أول من أظهر العقوق لوالده بالبصرة قال لى أبى ان الله قرن طاعته بطاعتى فقال اشكر لى ولوالديك فقلت يا أبت ان الله أمننى عليك ولم يؤمنك على قال تعالى ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقكم واياهم وقال بعضهم اذا أتت الجفوة من موضع المبرة تضاعف ايلامها وايجاعها كما ان المبرة اذا أتت من موضع العقوق حسن موقعها واعجب أمرها قال الشاعر

وما يوجع الحرمان من كف حارم * كما يوجع الحرمان من كف رازق

ومن علامات الساعة أن يكون الولد غيظا والمطر قيظا وأن يفيض الاشرار فيضا أى يكون الولد غيظ أبيه وأمه أى يعمل ما يغيظهما بعقوقه لهما ولا يكون فى طوعهما ويكون المطر فى الصيف فلا ينبت شيئا وهذا قريب من ان من أشراط الساعة كثرة القطر وقلة النبات وفيض الاشرار كثرتهم وورد عنه صلى الله عليه وسلم دعاء الوالد يفضى الى الحجاب وعنه أيضا دعاء الوالد لولده كدعاء النبى لامته وورد عنه صلى الله عليه وسلم الجنة تحت أقدام الامهات وقال صلى الله عليه وسلم طاعة الله فى طاعة الوالد ومعصيته فى معصية الوالد

ومن

مطلب حقوق الولد على والده

ومن أعظم حقوق الولد على والده أن يتخير أمه لئلا يعير بها وظئره أي مرضعته وان يعيش الأب معها بكمال الوداد والمحبة وسلوك طريق الانصاف والعدل لتكون المحبة مشتركة بين الأب والأم والولد واذا كان للزوج والزوجة عدة أولاد سوى بينهم في تعهد شؤونهم وتقويم أودهم لينشأ الاخوة على التحابب والتوادد بعضهم لبعض وهذا ما يسمى بالمحبة الاخوية وسيأتي ذكرها في الفصل الرابع من هذا الباب

ومن حقوق الولد أيضا على والده أن يحسن اسمه وأدبه و يعلمه القرآن اذا عقل و يزوجه اذا بلغ وأن يعلمه السباحة والخط والحساب وان كانت أنثى زوجها جميلا تقيا و ينفق على ولده و يكسوه اذا احتاج قال صلى الله عليه وسلم أكرموا أولادكم واحسنوا آدابهم ومن حقوق الاولاد على الوالد أن يسوي بينهم في العطية غنيهم وفقيرهم وذكرهم وأنثاهم قال صلى الله عليه وسلم ساووا بين أولادكم في العطية فاني لو كنت مؤثرا أحدا لآثرت النساء على الرجال وفي رواية اتقوا الله واعدلوا في أولادكم كما تحبون أن يبروكم وقال صلى الله عليه وسلم ان في الجنة دارا يقال لها الفرح يدخلها من فرح الصبيان رواه ابن عدي عن عائشة وقال صلى الله عليه وسلم رحم الله والدا أعان ولده على بره وروى أبو هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤتى بأول الثمر فيقول اللهم بارك لنا في مدينتنا وفي ثمارنا وفي مدنا وفي صاعنا بركة مع بركة ثم يعطيه أصغر من يحضره من الولدان

ومن حقوق الولد على الوالد أن يعق عنه بشاتين وعن الجارية بشاة في اليوم السابع ومنها أن يحلق شعر رأسه ويتصدق بوزنه ذهبا فان لم يجد ففضة كما روي عن سلمان ابن عامر الضبي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الغلام مرتهن بعقيقته ومنها أن يختنه لان الختن من الفطرة أي الخلقة الاسلامية والختان للذكور سنة والخفاض للنساء مكرمة واختتن ابراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام بالقدوم وهي قرية من قرى كنعان اختتن ابراهيم فيها بنفسه لا ما ذهب اليه بعض الناس من الآلة التي تجري مجرى الفاس فاذا بلغ المولود سن التمييز أوصاه أن يتمسك بأخلاق الصالحين وان يصان عن مخالطة الفسقة واتفقت الامة على فضيلة التقوى وطلبها حتى قال بعضهم

ولا تمش الامع رجال قلوبهم * تحن الى التقوى وترتاح للذكر

ومنها أن يعلمه أحكام الدين والعربية و يأمره بالصلاة والنحو جمال الالسنة وكمال العلماء يعلم به معاني الكتاب والسنة النبوية ومخاطبة العرب بعضهم بعضا ولهذا

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبوا العرب لثلاث لانى عربى والقرآن عربى وكلام أهل الجنة عربى وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلموا العربية وعلموها الناس والاصل فيه ماقيل ان أبا الاسود الدؤلى رحمه الله تعالى سمع قارئا يقرأ قوله تعالى ان الله برىء من المشركين ورسوله بالجر عطفا على المشركين فذهب الى أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وأخبره بذلك فقال له ذلك بمخالطتهم يعنى صاروا يلحنون فى الكلام بسبب مخالطتهم لابناء العجم ثم قال يا أبا الاسود أقسام الكلام ثلاثة اسم وفعل وحرف فالاسم ماأنبأ عن المسمى والفعل ماأنبأ عن حركة المسمى والحرف ماأوجد معنى فى غيره والفاعل مرفوع وماسواه فرع عليه والمضاف اليه مجرور وماسواه فرع عليه الى آخره انح لهم هذا النحو يا أبا الاسود فلهذا سمى هذا العلم نحوا ثم خلف ابا الاسود ميمون الاقرن فزاد فيه أمورا كثيرة الى ان جاء سيبويه والكسائى فأخذ عن كل واحد منهما فرقه فعن سيبويه البصريون وعن الكسائى الكوفيون فهذبوا الفن ورتبوا الترتيب الخاص المشاهد الآن

وكان معاوية أرسل الى الاحنف بن قيس فقال له يا أبا الحسن ماتقول فى الولد قال يا أمير المؤمنين ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا ونحن لهم أرض ذليله وسماء ظليلة وبهم نصول على كل جليلة فان طلبوا فأعطهم وان غضبوا فأرضهم يمنحوك ودهم ويحبوك جهدهم ولاتك عليهم ثقيلا فيملوا حياتك ويحبوا وفاتك ويكرهوا قربك فقال له معاوية لله أنت يا أحنف لقد دخلت على وأنا مملوء غضبا على يزيد فلما خرج الاحنف من عنده رضى عن ابنه يزيد وبعث اليه بمائتى ألف درهم ومائتى ثوب فأرسل يزيد الى الاحنف بمائة ألف درهم ومائة ثوب قاسمه اياها

مطلب ان من دعا لابويه كل يوم خمس مرات فقد أدى حقهما

قال بعض التابعين من دعا لابويه كل يوم خمس مرات فقد أدى حقهما لان الله تعالى قال اشكر لى ولوالديك فشكر الله ان يصلى كل يوم خمس مرات فكذلك شكر الوالدين ان يدعو لهما كل يوم خمس مرات وقال صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعو الله لهما بعد موتهما فيكتبه الله من البارين وقال صلى الله عليه وسلم بر الوالدين أفضل من الصلاة والصوم والحج والعمرة والجهاد فى سبيل الله وقال لايجزى ولد والده الا ان يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه وقال بعضهم من فاته بر والديه فليصل ليلة الخميس ركعتين يقرأ فى كل منهما فاتحة الكتاب ويقرأ فى كل واحدة آية الكرسى والاخلاص

والاخلاص والمعوذتين خمسا فاذا سلم يستغفر الله خمس عشرة مرة ويهب ثواب ذلك لهما فانه يقوم مقام برهما ان شاء الله تعالى

مطلب ان عمل الانسان لغيره ينفعه كعمل نفسه

روى عن ابن عباس يرفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا دخل أهل الجنة الجنة يسأل أحدهم عن أبويه وعن زوجته و ولده فيقال له انهم لم يدركوا ما ادركت فيقول يارب انى عملت لى ولهم فيؤمر بالحاقهم به قال تعالى والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شئ

وروى سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والحاكم والبيهقى وابن مردويه عنه مرفوعا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى ليرفع ذرية المؤمن اليه وفى لفظ معه فى درجته فى الجنة وان كانوا دونه فى العمل لتقر بهم عينه ثم قرأ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقناهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شئ قال ما نقصنا الآباء بما أعطينا البنين

وروى ابونعيم عن سعيد بن جبير انه سئل عن أولاد المؤمنين قال هم مع خير آبائهم ان كان الأب خيرا من الأم فالولد مع الاب وان كانت الام خيرا من الاب فهو مع الام وأما قوله تعالى وان ليس للانسان الا ما سعى فقد قال ابن عباس رضى الله عنهما هذا منسوخ الحكم بقوله تعالى والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذرياتهم الآية أو كان هذا الحكم فى شريعة ابراهيم وموسى وأما هذه الامة فلهم ما سعوا وما سعى لهم غيرهم من قراءة وصدقة وغيرهما لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم فى ذلك قولا وفعلا قال أبو العباس أحمد بن تيمية من اعتقد أن الانسان لا ينتفع الا بعمله فقد خرق الاجماع وذلك باطل انتهى وروى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه ان الله ليصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ولا يزالون فى حفظ الله ما دام فيهم وقال صلى الله عليه وسلم ان الله ليرفع درجة العبد فى الجنة فيقول أنى هذا فيقال باستغفار ولدك لك وقيل

مطلب الحث على الدعاء للوالدين بعد موتهما والمستجاب من الدعاء

رأيت صلاح المرء يصلح أهله * ويعديهم عند الفساد اذا فسد
يعظم فى الدنيا بفضل صلاحه * ويحفظ بعد الموت فى الاهل والولد

وقال بعض العلماء ترك الدعاء للوالدين يضيق العيش على الولد واذا كان كذلك فالدعاء لهما يوسع العيش عليه وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قالت اليهود للنبى صلى الله عليه وسلم كيف يسمع ربنا دعاءنا وأنت تزعم ان بيننا وبين السماء خمسمائة

عام وغلظ كل سماء مسيرة خمسمائة عام كذلك الى السماء السابعة والارضون مثل ذلك وما بين السماء السابعة الى العرش مثل جميع ذلك فنزلت هذه الآية واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداعي اذا دعان الآية والاجابة بمعنى القبول وقال قوم ان الله يجيب كل الدعاء فاما ان تظهر الاجابة في الدنيا واما ان يكفر عنه سوأ واما ان يدخر له في الآخرة لما روى أبو سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن مسلم يدعو بدعوة ليس فيها اثم ولا قطيعة رحم الا أعطاه الله بها احدى ثلاث اما ان يعجل له دعوته واما ان يدخر له واما ان يكف عنه من السوء مثلها وقال بعضهم فيمن تعجل دعوتهم

وسبعة لا يرد الله دعوتهم * مظلوم والد ذو صوم وذو مرض
ودعوة لاخ بالغيب ثم نبي * لامة ثم ذو حج بذاك قضي

وقال صلى الله عليه وسلم اتقوا دعوة المظلوم فانها ليس بينها و بين الله حجاب وقيل

ورب ظلوم قد كفيت لحربه * فأوقعه المقدور رأي وقوع
وليس معي الاسلاح تهجد * وأدعية لاتتقي بدروع
وهيهات ان ينجو الظلوم وخلفه * سهام دعاء من قسي ركوع
مهذبة بالريش من جفن ساهر * وأنصالها مسقية بدموع

مطلب التنزه من سؤال الخلق والاقتصار على سؤال الخالق وذكر شروط الدعاء وأركانه

وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم من لم يسأل الله يغضب يسأل أحدكم ربه حاجته حتى شسع نعله اذا انقطع فكما يسأل منه سبحانه وتعالى الشئ الجليل يسأل منه الشئ القليل وعنه صلى الله عليه وسلم قال ان الله يحب الملحين في الدعاء أي والمخلوق يغضب وينفر عند تكرر السؤال وأنشدوا

الله يغضب ان تركت سؤاله * وبني آدم حين يسأل يغضب

فشتان ما بين هذين ومن ثم قال من تعلق بالاثر وأعرض عن العين فاذا سألت فاسأل الله أن يعطيك إياه ولا تسأل غيره فان خزائن الوجود بيده وأزمتها اليه اذ لا قادر ولا معطي ولا متفضل غيره فهو أحق ان يقصد سيما وقد قسم الرزق وقدره لكل أحد بحسب علمه القديم الازلي وان كان يقع في ذلك تبديل في اللوح المحفوظ بحسب تعليق على شرط ومن ثم كان للسؤال فائدة لاحتمال ان يكون اعطاء المسؤل معلقا على سؤاله وقال طاوس لعطاء اياك ان تطلب حوائجك ممن يغلق بابه دونك وعليك بمن بابه مفتوح الى يوم القيامة أمرك أن تسأله ووعدك ان يجيبك وقال عامر بن قيس قرأت آيات من

كتاب

كتاب الله تعالى فاستغنيت بالله عن الناس قرأت قوله تعالى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو فلم أسأل غيره كشف ضري وقرأت قوله تعالى وان يردك بخير فلا راد لفضله فلم أرد الخير والفضل الا منه وقرأت قوله تعالى وما من دابة في الارض الا على الله رزقها فلم أطلب الرزق من غيره وقال صلى الله عليه وسلم سلوا الله من فضله فان الله يحب ان يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج

وقال بعضهم اجابة الدعاء لا بد لها من شروط فشرط الداعي ان يكون عالما بان لا قادر الا الله وان الوسائط في قبضته ومسخرة بتسخيره وان يدعو بنية صادقة وحضور قلب فان الله تعالى لا يقبل دعاء من قلب لاه قال صلى الله عليه وسلم ادعوا الله وأنتم موقنون بالاجابة وان يكون متجنبا الاكل الحرام وان لا يمل من الدعاء ومن شروط المدعو فيه ان يكون من الامور الجائزة الطلب والفعل شرعا وأما اذا كان الدعاء غير جائز الطلب والفعل شرعا كما اذا كان باثم أو قطيعة رحم فلا يستجاب فيدخل في الاثم كل ما يأثم به من الذنوب ويدخل في الرحم جميع حقوق المسلمين وقال سهل بن عبد الله التستري شروط الدعاء التضرع والخشوع وأكل الحلال وحفظ اللسان وحفظ العين من النظر الى ما لا يحل وحفظ الفرج من الحرام وقال ابن عطاء ان للدعاء أركانا وأجنحة وأسبابا وأوقاتا فان وافق أركانه قوي وان وافق أجنحته طار في السماء وان وافق مواقيته فاز وان وافق أسبابه نجح فأركانه حضور القلب والخشوع وأجنحته الصدق ومواقيته الاسحار وأسبابه الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فالابتهال الى الله بالتضرع والدعاء والاستغفار أولى وأحسن فان الله تعالى لا يرد سائله ولا يخيب قاصده ولا يضيع أجر العاملين ورحمته قريب من المحسنين وعفو الله واسع ورحمته واسعة ولطفه بخلقه وكرمه بهم جل عن إحصائه وقال أبو العطاء الوفائي الكبير في دعائه

الهي لئن عذبت بالنار عاصيا * فوعدك بالغفران ليس له خلف
وان كنت ذا بطش شديد وقوة * فمن شأنك الافضال والجود واللطف
ركبنا خطايانا وسترك مسبل * وليس لستر أنت ساتره كشف
اذا نحن لم نرفع اليك أكفنا * فمن ذا الذي نرجو ومن ذا الذي يعفو

قال بعضهم وقد دل العقل والنقل وتجارب الامم على اختلاف أجناسها وملها ونحلها على ان التقرب الى رب الارباب بطلب مرضاته والاحسان الى خلقه من أعظم

مطلب دلالة العقل والنقل والتجارب على ان التقرب الى الله تعالى بطلب مرضاته والاحسان الى خلقه من الاسباب الجالبة للخير والضد للضد وذكر شيء من آداب الدعاء

الاسباب الجالبة لكل خير واضدادها من اكبر الاسباب الجالبة لكل شر فما استجلبت نعم الله واستدفعت نقمه بمثل طاعته والتقرب اليه والاحسان الى خلقه وقد رتب الله سبحانه وتعالى حصول الخيرات فى الدنيا والآخرة وحصول الشرور فى الدنيا والآخرة فى كتابه العزيز على الاعمال ترتب الجزاء على الشرط والعلة على المعلول والمسبب على السبب فقال جل من قائل ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيآتكم ويغفر لكم وقال ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم الآية وقال لئن شكرتم لأزيدنكم وقال فلولا انه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون وبالجملة فالقرآن من أوله الى آخره صريح فى ترتب الجزاء بالخير والشر وأحكام الشريعة على الاسباب بل أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الاسباب انتهى وان يخفض الداعى صوته لقوله تعالى أدعوا ربكم تضرعا وخفية وعن أبى عبد الرحمن الهمدانى قال صليت مع أبى اسحاق الغداة فسمع رجلا يجهر بالدعاء فقال لكن زكريا نادى ربه نداء خفيا وينبغى للداعى ان لا يتكلف ويأتى بالكلام المطبوع غير المسجوع لقوله عليه الصلاة والسلام إياكم والسجع فى الدعاء فحسب أحدكم ان يقول اللهم انى أسألك الجنة وما قرب اليها من قول وعمل وقيل ان من شروط الدعاء ان يكون سليما من اللحن كما قال بعضهم

ينادى ربه باللحن ليث * لذاك اذا دعاه لا يجيب

وقد قال الامام الشعرانى وأما زبدة علم النحو والبيان فهى كلها ترجع الى ما يعرف به اصلاح اللفظ من اللحن المؤدى الى فساد المعنى عند أهل هذه العلوم وذلك لا يحتاج اليه أحد ممن يريد اللحوق بأهل الله عز وجل لان أهل الله عز وجل قد عمدوا الى اصلاح قلوبهم بأكل الحلال وحفظ القلوب والجوارح فنارت هياكلهم فأدركوا الشرائع ودقائقها بذلك النور الذى جعله الله فى قلوبهم فمن عمل على طريقهم أدرك جميع العلوم المستنبطة من الكتاب والسنة بالنور لا بقواعد أهل النحو والمعانى والبيان ولم يشتغل ولى منهم قط فى علم النحو ومن قال انما يتعلم النحو خوفا من ان يبدل أحد شيئا من القرآن باللحن قلنا له القرآن معصوم من التبديل والتغيير الى يوم القيامة فهو محفوظ بالعصمة الالهية لا بعلم النحو والمعانى فلولا ظلمة الباطن ما احتاج عبد الى آلات يفهم بها كلام أفصح الخلق صلى الله عليه وسلم وفصحاء أمته من العلماء رضى الله عنهم أجمعين

وقال

وقال بعضهم اعلم ان مبنى أمر الولى على الاكتفاء بالله والقناعة بعلمه والاعتناء بشهوده قال الله سبحانه وتعالى ومن يتوكل على الله فهو حسبه وقال تعالى أليس الله بكاف عبده وقال ألم يعلم بأن الله يرى وقال أولم يكف بربك انه على كل شئ شهيد فبنى أمرهم فى بدايتهم على الفرار من الخلق والانفراد بالملك الحق واخفاء الاعمال وكتم الاحوال تحقيقا لفنائهم وتثبيتا لزهدهم وعملا على سلامة قلوبهم وحبا فى اخلاص أعمالهم لسيدهم حتى اذا تمكن اليقين وأيدوا بالرسوخ والتمكين وتحققوا بحقيقة الفناء وردوا الى وجود البقاء فهنالك ان شاء الحق أظهرهم وان شاء سترهم ان شاء أظهرهم هادين لعباده اليه وان شاء سترهم فاقتطعهم عن كل شئ اليه وظهور الولى ليس بارادته لنفسه لكن بارادة الله له بل مطلبه ان كان له مطلب الخفاء لا الجلاء فلما لم يكن الظهور مطلبهم وأراد سبحانه اظهارهم فأظهرهم تولاهم فى ذلك بتأييده وواردات مزيده لقوله صلى الله عليه وسلم يا عبد الرحمن بن سمرة لا تطلب الامارة فانك ان أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها وان أعطيتها عن مسألة وكلت اليها ومن تحقق منهم بالعبودية لله لم يطلب ظهورا ولا خفاء بل ارادته وقف على اختيار سيده

مطلب تحقيق الولاية وذكر ماعليه الاولياء

ولما علم الله عز وجل ان كل نبات لا ينبت ويثمر الا بجعله تحت الارض تعلوه الارجل جعلوا أنفسهم أرضا للخلق ليعطيهم الله تعالى ما أعطى أولياءه الاماجد حتى تواضعوا للعباد ولذلك قال ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه ادفن وجودك فى أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لم يتم نتاجه فنفوسهم عندهم حقيرة ذليلة كسيرة لا يشتغلون بما لا يعنيهم ولا يلتفتون لما يلهيهم قد تخلقوا بكل خلق سنى وتنزهوا عن كل وصف دنى فارقوا الاخلاق الطبيعية وخرجوا عن الصفات البشرية وتخلقوا بالصفات الروحانية تخلقوا بأخلاق الله وبأخلاق حبيبه ومصطفاه لم يكن لهم مع الله اختيار الا ما اختار ومن ثم جانبوا من هذه الدنيا الدنية الاقتار والاستكثار والادخار

وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه من أحب الظهور فهو عبد الظهور ومن احب الخفاء فهو عبد الخفاء ومن كان عبد الله فسواء عليه أظهره أو أخفاه انتهى قال بعضهم معرفة الاولياء بين الناس بلطائف ألسنتهم وحسن أخلاقهم وبشاشة وجوههم وقلة اعتراضهم وقبول عذر من اعتذر اليهم وبتمام الشفقة على جميع الخلق بارهم وفاجرهم وصفتهم ان يكون الفقر كرامتهم وطاعة الله حلاوتهم وحب الله لذتهم ومع الله تجارتهم وعليه اعتمادهم وبه يقينهم وعليه توكلهم والجوع

طعامهم والزهد ثمارهم وحسن الخلق لباسهم وطلاقة الوجه حليتهم وسخاء النفس حرفتهم وحسن المعاشرة صحبتهم والعلم قائدتهم والصبر سائقهم والهدى مركبهم والقرآن حديثهم والذكر نزهتهم والرضى راحتهم والقناعة مالهم والعبادة كسبهم والشيطان عدوهم والحياء قميصهم والخوف سجنهم والنهار فطنتهم والليل فكرتهم والحكمة سيفهم والحق حارسهم والرجاء مرحلتهم والقبر حصنهم والفردوس مسكنهم والنظر الى رب العالمين منيتهم قال الله تعالى وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما

مطلب ما أجاب به النجم الغيطي من أن الولاية عامة وخاصة

وقد سئل العلامة النجم الغيطي عن كون العلماء أولياء الله تعالى العامل منهم وغيره أم لا فأجاب رحمه الله تعالى بقوله الولاية عامة وخاصة فالعامة ولاية الايمان فمن آمن بالله ورسوله وما جاء به فهو ولي قال الله تعالى الله ولي الذين آمنوا ثم ولاية القيام بالمأمورات واجتناب المنهيات قال الله تعالى ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة الآية والولاية الخاصة محبة الله للعبد وحفظه له لقوله صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل ولا يزال عبدي يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به الحديث وسيأتي فالايمان بداية الولاية والصديقية القصوى غايتها وبين الغاية والبداية مراتب ومقامات وأحوال تتفاوت فيها أقدام الرجال وهي بكل ممدوحة ومطلوبة لكن المراد حيث أطلقت في كلام القوم وكتبهم الخاصة فالعلماء العاملون وغيرهم يطلق عليهم أولياء الله تعالى من حيث دخولهم في الولاية العامة وأما الولاية بمعنى القيام بالمأمورات والولاية الخاصة فلا تطلق الا على العلماء العاملين فقد روى البيهقي في مناقب الشافعي رضي الله عنه من طريق الربيع بن سليمان قال سمعت الشافعي يقول ان لم تكن الفقهاء أولياء الله تعالى فما لله ولي ومراد الشافعي رضي الله عنه بذلك الفقهاء العاملون

مطلب الاستدلال على ان كرامة الاولياء من الممكنات وليست من المستحيلات أو الواجبات

وقال بعضهم في الكلام على الكرامات اعلم ان الكلام في الكرامات ينحصر في طرفين الاول الجواز والثاني الوقوع أما الجواز فلا خفاء ان ظهور الكرامة من الاولياء من الممكنات لانه ان لم تكن من الممكنات فاما ان تكون من الواجبات واما ان تكون من المستحيلات وباطل ان تكون من المستحيلات فان المستحيل هو الذي لو قدر وجوده لزم منه محال عقلي ولا يلزم من تقدير وجود الكرامات محال عقلي وباطل ان تكون

من

من الواجبات اذ الطائفة مجمعة على انه قد يكون الولى وليا وان لم تخرق العادة له فتعين ان تكون من الجائزات وكل شئ كان من الجائزات فلا يحيله العقل وكل ما لا يحيله العقل ولم يرد بعدم وقوعه نقل فجائز ان يكرم الله به أولياءه ثم ان هذه الكرامة قد تكون اطلاعا على كوائن كانت وكوائن ستكون من غير طريق العادة أو تكثيرا لطعام أو شراب أو اتيانا بثمرة فى غير أوانها أو انباع ماء من غير حفر أو تسخيرا لحيوانات عادية أو اجابة دعوة باتيان مطر فى غير وقته أو صبرا عن الغذاء مدة تخرج عن طور العادة أو إثمار الشجرة يابسة وهذه كلها كرامات ظاهرة حسية وهناك كرامات هى عند أهل الله أفضل منها وأجل وهى الكرامة المعنوية كالمعرفة بالله والخشية له ودوام المراقبة له والمسارعة لامتثال أمره ونهيه والرسوخ فى اليقين والقوة والتمكين ودوام المتابعة والاستماع من الله والفهم عنه ودوام الثقة وصدق التوكل عليه الى غير ذلك

وقال بعضهم اعلم ان اطلاع أولياء الله على بعض الغيوب لا يحيله العقل وقد ورد به النقل قال أبو بكر فى مرض موته وزوجته حامل ان فى بطنك جارية وكان كما قال رضى الله عنه وقول عمر رضى الله عنه يا سارية الجبل وسارية بأقصى العراق فسمع سارية صوته وكان قد أطلعه الله على سارية وقد أحاط به العدو فأمره بالانحياز الى الجبل فانحاز هو والجيش الذين معه فانتصروا وظفروا وكان قال ذلك وهو فى أثناء خطبته على المنبر فترك الخطبة وقال يا سارية الجبل وعاد لخطبته فجاء بعض الصحابة الى على رضى الله عنه فقالوا له ينفما عمر اليوم يخطب اذ ترك الخطبة وقال يا سارية الجبل ثم عاد الى خطبته فقال على و يحكم دعوا عمر فانه ما دخل فى شئ الا كان له المخرج منه فبعد ذلك قدم سارية وأخبر عن ذلك اليوم انه سمع نداء عمر فى الوقت الذى نادى عمر وقول عثمان رضى الله عنه لداخل دخل عليه وكان قد نظر الى محاسن امرأة فى الطريق يدخل أحدكم وآثار الزنى بادية فى وجهه وأما على بن أبى طالب رضى الله عنه فقد جاء عنه فى هذا الباب العجب العجاب حتى انه ذكر أهل الاخبار انه أرجفه بالكوفة ان معاوية قد مات فقال على رضى الله عنه اذ بلغه والله ما مات ولن يموت حتى يملك ما تحت قدمى هاتين فن يومئذ كاتب أهل الكوفة معاوية وعلموا ان الامر صائر اليه وحكايات الاولياء فى كل زمن وقطر تتضمن ثبوت ذلك بما بلغ حد التواتر فلا يمكن جحده ثم أنا أدلك رحمك الله على أمر يسهل عليك التصديق بذلك وهو أن

اطلاع العبد المخصوص على غيب من غيوب الله بعد أن يشهد له الرسول صلى الله عليه وسلم انه انما ينظر بنور ربه لا بوجود نفسه وكذلك قوله فى الحديث فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به الحديث الى آخره ومن كان الحق بصره فليس الاطلاع على الغيب عليه مستغربا وفى بعض طرق هذا الحديث فاذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ولسانا وقلبا وعقلا ويدا ولله تعالى خمس حضرات وهى حضرة الذات وحضرة الصفات وحضرة الاسماء وحضرة الافعال وحضرة الآثار فمن أحب ذات الله وحدها فمحبته ذاتية ومن أحب لطفه ورحمته ونحوهما من صفات كماله فمحبته صفاتية ومن أحب سماءه كالحليم والكريم ونحوهما فمحبته أسمائية ومن أحب ايجاده وامداده فمحبته افعالية ومن أحب بعض الصور التى خلقها فمحبته آثارية ومحب آثاره محب له وأبين لك أمورا تسهل عليك الايمان بكرامات أولياء الله وان لا تستكثرها عليهم الاول ان تعلم ان قدرة الله التى لا تكبر عليها شئ هى التى أظهرت الكرامات فى هذا الولى فلا تنظر الى ضعف العبد ولكن انظر الى قدرة السيد فجحد الكرامة فى الولى جحد لقدرة القدير وعمى عن شهود عظمة وصفه سبحانه وتعالى الثانى انه ربما كان سبب انكارك الكرامات استكثارها على ذلك العبد الذى أضيفت اليه مع ان تلك الكرامة التى ظهرت على يدى هذا العبد شاهدة بصدق من العبد تابع له وهو النبى صلى الله عليه وسلم فهى بالنسبة لمن ظهرت على يديه كرامة وبالنسبة الى من ظهرت ببركة متابعته معجزة ولذلك قالوا كل كرامة لولى فهى معجزة لذلك النبى الذى الولى تابع له فلا تنظر الى التابع ولكن انظر الى عظم قدر المتبوع الثالث ان تعلم ان الذى أعطاه الله سبحانه وتعالى لاوليائه من الايمان واليقين مما أنت مصدق به ومثبت له أعظم مما استغربته أو نكرته من الاطلاع على الغيب ونحو ذلك فمثلك اذا استغربت ذلك على المؤمن كمثل من يستغرب على عبد من خواص الملك أعطاه الملك سفطا مملوأ ياقوتا ثمينا علمت أنت به وكل ياقوتة تضمنها ذلك السفط تساوى عشرة آلاف دينار ثم قال ذلك العبد الذى هو من خواص الملك أو قيل عنه ان الملك قد أعطاه مائة دينار فاستغربت أنت ذلك فهل يستصوب استغرابك هذا ذو فهم ولب وما أكرم الله العباد فى الدنيا كرامة بمثل الايمان والمعرفة بربوبيته لان كل خير من خيرى الدنيا والآخرة فانما هو فرع الايمان بالله من أحوال ومقامات وأوراد وارادات ونور وعلم وفتح ونفوذ الى غيب وسماع مخاطبة وجريان كرامة وما تضمنته الجنة من حور وقصور وأنهار وثمار

مطلب ان الله تعالى خمس حضرات حضرة الذات وحضرة الصفات وحضرة الاسماء وحضرة الافعال وحضرة الآثار ونسبة محبة المحب اليها

وثمار ورضى الله ورؤيته ونحو ذلك انما هو نتائج الايمان ووجود آثاره وإمداد نوره انتهى وقد نظم بعضهم الأمر الخارق للعادة فقال

اذا ما رأيت الامر يخرق عادة * فمعجزة إن من نبي لنا صدر
وان بان منه قبل وصف نبوة * فالارهاص سمه تتبع القول في الاثر
وان جاء يوما من ولي فانه الكرامة في التحقيق عند ذوي النظر *
وان كان من بعض العوام صدوره * فكنوه حقا بالمعونة واشتهر
ومن فاسق ان كان وفق مراده * يسمى بالاستدراج فيما قد استقر
والا فيدعى بالاهانة عندهم * وقد تمت الاقسام عند الذي اختبر

وقال بعضهم اعلم ان من الناس من أدركه الخذلان فأنكر كرامات الاولياء أصلا فنعوذ بالله من هذا المذهب قال الله تعالى ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا وقيل اذا أراد الله أن يضل عبدا لم ينصره عقل ولم ينفعه وفور علم وقال سبحانه وتعالى فان زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم ومن الناس فرقة أخرى صدقوا بكرامات الاولياء الذين ليسوا في زمنهم وكذبوا بكرامات اولياء زمنهم فهم كما قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه وما هي إلا إسرائيلية صدقوا بموسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام وكذبوا بمحمد صلى الله عليه وسلم لانهم أدركوا زمنه وقال بعضهم

مطلب الرد على منكر الكرامات وان منهم من يصدق بكرامات الاولياء الذين ليسوا في زمنه ولا يصدق بكرامات أولياء عصره

أتقدح فيمن شرف الله قدره * ومازال مخصوصا به طيب الثنا
رجال لهم سر مع الله صادق * ولا أنت من ذاك القبيل ولا أنا
وقيل احذر احذر أهل القلوب وسلم * انهم سادة فحول رجال
لايكن منك ذرة بتكبر * فسوف الاحوال فيها مقال

وقيل الاعتقاد طيبة والانتقاد حرمان كما قيل ان المرء ينتفع حسب اعتقاده ويحرم بسوء رأيه وانتقاده وقال بعضهم عليكم بحفظ لسانكم مع أهل الشرع فانهم بوابون لحضرات الاسماء والصفات وعليكم بحفظ قلوبكم من الانكار على أحد من الاولياء فانهم بوابون لحضرة الذات واياكم والانتقاد على عقائد الاولياء بما علمتموه من أقوال المتكلمين فان عقائد الاولياء مطلقة متجددة في كل آن على حسب الشؤن الالهية وقال العارف بالله سيدي علي وفاء قدس الله سره امتهان العباد المكرمين بعد معرفتهم سم ساعة فاذا خالط القلب مات لوقته قال الله تعالى وكان حقا علينا نصر المؤمنين ولاشك ان الصوفية قدس الله أسرارهم كاملوا الايمان فنصرهم مقطوع به لانهم لاينتصرون لانفسهم

رضى الله عنهم تسليما وتفويضا لله تعالى فيغار الحق سبحانه وتعالى لهم ويكون هو المحارب عنهم فقد ورد فى الحديث القدسى من آذى لى وليا فقد آذنته بالحرب ولا شك فى هلاك من حاربه الله تعالى

مطلب ان للولى شروطا أربعة معرفة الدين وأحكام الشرع والتخلق بالخلق الحسن والخوف

وقال بعضهم من الشهوة الخفية للولى ارادته النصرة على من ظلمه وقد قال تعالى للمعصوم الاكبر فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم أى فان الله تعالى قد لا يريد اهلاكهم انتهى وقال بعضهم للولى أربعة شروط أحدها ان يكون عارفا بأصول الدين حتى يفرق بين الخالق والمخلوق الثانى ان يكون عالما باحكام الشريعة الثالث أن يتخلق بالخلق المحمود الذى يدل عليه الشرع أو العقل الرابع ان يلازم الخوف أبدا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اتخذ الله من ولى جاهل ولو اتخذه لعلمه قال القشيرى رحمه الله أصول مذهبنا ثلاثة الاقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم فى الاقوال والافعال والاكل من الحلال وصدق النية فى جميع الاعمال

العود على البدء بالحث على الوالدين

(رجع) وقال بعضهم فى الوصية بالوالدين

قضى الله ان لا تعبدوا غيره حتما * وبالبر والاحسان فى ذكره أوما
وأوصاكم بالوالدين فبالغوا * ببرهما فالاجر فى ذاك والرحمى
فكم بذلا من رأفة ولطافة * وكم منحا عند احتياجك من نعمى
وأمك كم باتت بثقلك تشتكى * تواصل مما شفها البؤس والغما
وفى الوضع كم قاست وعند ولادة * أمورا تذيب اللحم والجلد والعظما
وكم سهرت وجدا عليك جفونها * وأكبادها حزنا بجمر الاسى تحمى
وكم غسلت عنك الاذى بيمينها * حنوا واشفاقا وأكثرت الضما
وأنت قرير العين ريان ناعم * مكب على اللذات لا تسمع اللوما
فبالوالدين البر أوجب واجب * ويا ويح من يعصى أباه أو الاما

مطلب ان البغى وعقوق الوالدين يعجل الله عقوبتهما فى الدنيا لفاعلهما

وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم (اثنان يعجل الله تعالى عقوبتهما فى الدنيا لفاعلهما البغى) أى مجاوزة الحد يعنى التعدى بغير حق (وعقوق الوالدين) أى ايذاؤهما وعصيانهما وقال بعضهم خمسة أشياء من داوم عليها تزيد فى حسناته مثل الجبال الرواسى ويوسع الله عليه رزقه من داوم على الصدقة قليلها وكثيرها ومن وصل رحمه ومن دوام على الجهاد فى سبيل الله ومن داوم على الوضوء ولم يسرف فى الماء ومن أطاع والديه وداوم على طاعتهما وقال صلى الله عليه وسلم من زار قبر والديه أو أحدهما يوم الجمعة

مطلب زيارة قبر الوالدين وسائر القبور وما يترتب على ذلك من الثواب

الجمعة فقرأ عنده يس غفر الله له وفي الاحياء قال صلى الله عليه وسلم من زار أبويه كل جمعة غفر له وكتب بارا وقال بعضهم ان الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعو الله لهما من بعدهما فيكتبه الله عز وجل من البارين ثم ان الشخص اذا زار الموتى أو زار أبويه يخاطبهم خطاب الحاضرين فيقول كما في خبر أبي داود السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا ان شاء الله بكم لاحقون وكنى بالدار عن أهلها وعن أبي شيبة عن الحسن انه قال من دخل المقابر فقال اللهم رب هذه الاجساد البالية والعظام النخرة التي خرجت من الدنيا وهي مؤمنة بك أدخل عليها روحا من عندك وسلاما مني استغفر له كل من مات منذ خلق الله آدم (والروح بفتح الراء)

ومن أبي الاسود الدئلي قال قدمت المدينة وقد وقع بها مرض فجلست الى عمر بن الخطاب فمرت به جنازة فأثنى على صاحبها خيرا فقال عمر وجبت ثم مرت أخرى فأثنى على صاحبها شرا فقال وجبت قال أبو الاسود وما وجبت يا أمير المؤمنين قال قلت كما قال عليه الصلاة والسلام أيما مسلم يشهد له أربعة بخير الا أدخله الله الجنة قلنا وثلاثة قال وثلاثة قلنا واثنان قال واثنان ثم لم نسأله عن الواحد أخرجه البخاري والنسائي وفي خبر آخر فقال عمر يا رسول الله ما وجبت فقال عليه الصلاة والسلام أنتم شهداء الله في الارض فمن أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة ومن أثنيتم عليه شرا وجبت له النار و روى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه عز وجل مامن عبد مسلم يشهد له ثلاثة أو اثنان بخير الا قال الله عز وجل قد قبلت شهادة عبادي على ما علموا وغفرت له ما أعلم رواه الامام أحمد بن حنبل في مسنده وعن ابن عباس انه مات ابن له بقديد أو عسفان فقال لبعض أصحابه انظر ما اجتمع له من الناس قال فخرجت فاذا أناس قد اجتمعوا فأخبرته فقال هم أربعون قلت نعم قال أخرجوه فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول مامن رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا الا شفعهم الله فيه رواه مسلم وعنه صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى عجبت لمن أيقن بالموت كيف يجمع وعجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك وعجبت لمن أيقن بالآخرة كيف يستريح وعجبت لمن أيقن بالدنيا وزوالها كيف يطمئن اليها وعجبت لمن هو عالم باللسان جاهل بالقلب وعجبت لمن يطهر بالماء وهو غير طاهر القلب وعجبت لمن يشتغل بالناس وهو غافل عن عيب نفسه وعجبت لمن يعلم ان الله مطلع عليه كيف يعصيه وعجبت لمن يعلم أنه يموت وحده و يدخل القبر

وحده ويحاسب كيف يستأنس بالناس قال القرطبي في تذكرته من اكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء تعجيل التوبة وقناعة النفس والنشاط في العبادة ومن نسي ذكره عوقب بثلاثة أشياء تسويف التوبة وترك الرضا بالكفاف والتكاسل في العبادة والكفاف الحالة الوسطى ما بين الغنى والفقر

قيل وجدت رقعة تحت وسادة الامام حجة الاسلام الغزالي رحمه الله فيها هذه الابيات

قل لاخوان رأوني ميتا * فبكوني ورثوني حزنا
لا تظنوني باني ميتكم * ليس ذاك الميت والله أنا
أنا في الصور وهذا جسدي * كان بيتي وقميصي زمنا
أنا كنز وحجابي طلسم * من تراب قد تخلى للفنا
أنا عصفور وهذا قفصي * طرت عنه فتخلى رهنا
أحمد الله الذي خلصني * وبنى لي في المعالي سكنا
كنت قبل اليوم ميتا بينكم * فحييت وخلعت الكفنا
وأنا اليوم أناجي ملأ * وأرى الله جهارا علنا
عاكفا في اللوح أقرا وأرى * كل ما كان ويأتي ودنا
وطعامي وشرابي واحد * هو رمز فافهموه حسنا
ليس خمرا سائغا أو عسلا * لا ولا ماء يرى أو لبنا
فافهموا السر فيه نبأ * أي معنى تحت لفظي كمنا
لا تظنوا الموت موتا انه * لحياة هو غايات المنى
حي هذا الدار ميت نائم * فاذا مات أماط الوسنا
لا ترعكم هجمة الموت فما * هو الا من هنا الى هنا
اجهدوا في الزاد والسير فما * ليس بالعاقل منا من ونى
أحسنوا الظن برب راحم * يشكر السعي ويولي مننا

مطلب ترجمة الامام الغزالي

والغزالي هو الامام محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الجليل أبو حامد الغزالي حجة الاسلام ومحجة الدين التي يتوصل بها الى دار السلام ولد بطوس سنة خمسين وأربعمائة وكانت وفاته بها يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة وقد أطال السبكي في طبقاته بما يليق بمقامه الكريم وذكر كرامات له لا ينكرها الا حاسد أو زنديق لئيم ومما أنشده أبو حفص عمر بن عبد العزيز لنفسه يمدح الغزالي

هذب

هذب المذهب حبر * أحسن الله خلاصه
بسيط ووسيط * ووجيز وخلاصه

ونقل المناوى فى طبقات الاولياء ان كتب الامام الغزالى التى صنفها وزعت على عمره فخص كل يوم أربعة كراريس ومن كلامه رضى الله عنه جلاء القلوب وأبصارها يحصل بالذكر ولا يتمكن منه الا الذين اتقوا فالتقوى باب الذكر والذكر باب الكشف والكشف باب الفوز الكبير وقال مهما رأيت انسانا سيئ الظن بالناس طالبا للعيوب فاعلم انه خبيث فى الباطن والمؤمن سليم الصدر فى حق كافة الخلق وقال من الذنوب مايورث سوء الخاتمة وهو ادّعاء الرجل الولاية مع فقدها منه وعن الشاذلى رضى الله عنه من كانت له الى الله حاجة فليتوسل اليه بالغزالى ونقل فى المصباح عن سبط الامام الغزالى انه أخبره ان الامام المذكور منسوب الى غزالة قرية من قرى طوس قال لى أخطأ الناس فى تثقيل اسم جدنا وانما هو مخفف نسبة لما ذكر ومن بر الوالدين بعد موتهما أن يأتى بما يسرهما من الطاعات لله تعالى وغيرهما مما ليس بمنهى عنه ومنه الاحسان الى صديقهما قال صلى الله عليه وسلم ان من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه قال الشاعر

خالل خليل أبيك وارع وداده * واعلم بأن أخا أبيك أخوكا
وبنوك ثم بنو أبيك فكن بهم * برا فان بنى أبيك بنوكا
والطف بجدك عطفة وترحما * وارحم فان أبا أبيك أبوكا

وللوالد حقوق على ولده زيادة على ما ذكر الاول اذا احتاج الى الطعام أطعمه الثانى اذا احتاج الى الكسوة كساه أن قدر عليها الثالث اذا احتاج الى الخدمة خدمه الرابع اذا دعاه أجابه وحضره الخامس اذا أمره بأمر غير معصية أطاعه السادس أن يتكلم معه باللين وخفض الصوت ولا يتكلم معه بالغلظ السابع والثامن أن لا يدعوه باسمه فيقول يا فلان بل يا أبت أو يا والدى ولا يستسب له ولا يمشى أمامه ولا يجلس قبله ويدعو له بالمغفرة كما يدعو لنفسه ويرضى له ما يرضى لنفسه وروى أبو هريرة عنه صلى الله عليه وسلم لا تمشين امام أبيك ولا تجلس قبله ولا تدعه باسمه ولا تستسب له (أى لا تعرضه للسب وتجره اليه بأن تسب أبا غيرك فيسب أباك مجازاة لك) وقد جاء مفسرا فى الحديث الآخر ان من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه قيل وكيف يسب والديه قال يسب الرجل فيسب أباه وأمه

مطلب ان الولد لايدخل على والدته الابعد الاستئذان

ومن حقوق الوالدة على الولد ان لايدخل عليها إلا باذن فقد روى الامام مالك فى الموطأ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأله رجل فقال يارسول أستأذن على أمى فقال نعم قال الرجل انى معها فى البيت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم استأذن عليها فقال الرجل انى خادمها فقال صلى الله عليه وسلم استأذن عليها أتحب أن تراها عريانة قال لاقال فاستأذن عليها والاستئذان ثلاث مرات فقد روى الامام مالك عن بكير بن عبدالله بن الاشج عن أبى سعيد الخدرى عن أبى موسى الاشعرى أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستئذان ثلاث مرات فان أذن لك فادخل والافارجع

مطلب ذكر بعض حقوق للناس على بعضهم

وأما الحقوق التى للعباد بعضهم مع بعض فهى ان يسلم عليه اذا لقيه ويجيبه اذا دعاه ويعوده اذا مرض ويشهد جنازته اذا مات ويبر قسمه اذا أقسم عليه وينصحه اذا استنصحه ويحفظه بظهر الغيب اذا غاب ويحب له مايحب لنفسه ويكره له مايكره لنفسه وقال صلى الله عليه وسلم عائد المريض يمشى فى مخرفة الجنة حتى يرجع رواه مسلم والمخرفة البستان وسكة بين صفين من نخل يخترق المخترق من أيهما شاء وقال صلى الله عليه وسلم عائد المريض يخوض فى الرحمة ومن تمام عيادة المريض أن يضع أحدكم يده على وجهه أو على يده فيسأله كيف هو وتمام تحيتكم بينكم المصافحة رواه أحمد عن أبى أمامة وقال صلى الله عليه وسلم عودوا المرضى ومروهم فليدعوا لكم فان دعوة المريض مستجابة وذنبه مغفور

مطلب مايجوز للاب أن يعمله مع ابنه من استخدام وتأديب وغيرهما

وقيل فى المرض ست خصال ما ينبغى للعبد أن يجحدها فمنها تنقية الجسم وتمحيص الذنوب وتذكير بالنعم فى حال الصحة واستدعاء بالتوبة وحث على الصدقة وقال بعضهم الذل فى ثمانية أشياء فى العليل والمحزون والكذب والغربة والمديون والفقير بين الاغنياء والجاهل بين العلماء ومن ترادفت عليه المصيبات

ويجوز للوالد استخدام ولده الصغير وضربه فيما فيه تدريب له وتأديب وتعليمه فى صغره مايلزم لاصلاح حاله وقال بعضهم عند قوله صلى الله عليه وسلم فغطنى الثالثة فى حديث بدء الوحى انه لايجوز للمعلم الزيادة على ثلاث ضربات ونهى صلى الله عليه وسلم أن يضرب المعلم الصبيان بالعود وباليد فوق ثلاث ومازاد على ذلك فهو قصاص يوم القيامة ولا يضرب بالدرة الاثلاثا وقيل

ان حق التأديب حق الابوه * عند أهل الحجا وأهل الفتوه
وأحق الرجال ان يحفظوا ذا * ك ويرعوه أهل بيت النبوه

وقيل

وقيل بني استقم فالعود تنمو عروقه * قويما ويغروه اذا ما التوى التوى
وعاص الهوى المردى فكم من محلق * الى النجم الا ان أطاع الهوى هوى

المحلق بكسر اللام المشددة العالى الرفيع الذى وصل الى مالم يصل له غيره وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم التعلم فى الصغر كالنقش فى الحجر والتعلم فى الكبر كالنقش على الماء

وقيل تعلم يا فتى والعود رطب * وجسمك لين والطبع قابل
فحسبك يا فتى شرفا وفضلا * سكوت الحاضرين وأنت قائل

ومن الاخلاق المذمومة فى الشيوخ والصبيان عدم الحياء فربما تقوى قلة الحياء فى الطفل اذا لم يجد من يردعه عن ذلك لتزول عنه هذه الصفة ان كانت طارئة عليه وتضعف ان كانت عنصرية فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم ان شر الناس عند الله من خافه الناس اتقاء فحشه

وروى البخارى عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى اذا لم تستح فاصنع ماشئت والامر فيه للتهديد والتوبيخ فاذا ارتفع الحياء صنعت النفس ما تهوى ومعنى الحياء شرعا خلق يبعث الانسان على ترك القبيح ويمنعه من التقصير فى حقه تعالى قال العلماء رحمهم الله ان قوله مما أدرك الناس من كلام أى شرائع النبوة الاولى يعنى ما اتفقت عليه الانبياء لانه جاء فى شريعة آدم واتفقت عليه بقية الشرائع فما من نبى من الانبياء الا وندب اليه وحث عليه ولم ينسخ فى شريعة من الشرائع لانه أمر قد علم صوابه وظهر فضله واتفقت عليه العقول وتلقته جميع الامم بالقبول ويدخل فى جملة الحياء من الله ثم من الناس ستر العورة فقد روى البيهقى عن أنس أنه قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما الى غنم له وفيها أجير له يرعاها واذا بالاجير متجرد من ثيابه فى الغنم فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له كم لك عندنا من الاجرة فقال يارسول الله لم أحسن الرعاية والولاية قال لا أحب أن يكون فيها من لا يستحيى من الله ودخل محمد بن عبد الرحمن الحمام فرأى بعض اخوانه عريانا فغمض عينيه فقال له العريان مذ كم عميت فقال له منذ هتك الله سترك وقال صلى الله عليه وسلم ان الله يستحيى من عبد يشيب فى الاسلام ان يعذبه أفلا يستحى الشيخ من الله تعالى أن يذنب وقد شاب فى الاسلام وقال صلى الله عليه وسلم ان الله يبغض الفاحش المتفحش وقيل

فلا تفخر على أحد بظلم * فان الظلم مرتعه وخيم
ولا تفحش وان ملئت غيظا * على أحد فان الفحش لوم
ولا تقطع أخالك عند ذنب * فان الذنب يغفره الكريم
وما جزع بمغن عنك شيئا * ولا ما فات ترجعه الهموم

مطلب ان اعتزاز الناس واهانتهم للعبد تابعان لاعزاز الله واهانته له وسياق أشياء تنتظم في هذا السلك

وورد عنه صلى الله عليه وسلم ان الله اذا أحب عبدا (أى أراد به خيرا ووفقه) دعا جبريل وقال انى أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادى جبريل فى السماء ويقول ان الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الارض (واذا بغض عبدا) أى أراد به شرا أبعده عن الهداية (دعا جبريل فقال انى أبغض فلانا فابغضه فيبغضه جبريل ثم ينادى جبريل فى السماء ويقول ان الله يبغض فلانا فابغضوه فيبغضونه ثم توضع له البغضاء فى الارض) فيبغضه أهلها جميعا فينظرون اليه بعين الازدراء فتسقط مهابته من النفوس واعزازه من الصدور من غير ايذاء منه لهم ولا جناية عليهم فالعزيز من أعزه الله والذليل من أذله الله قال الامام الشافعى رضى الله عنه

اذا أكرم الرحمن عبدا بعزه * فلم يقدر المخلوق يوما يهينه
ومن كان مولاه العزيز أهانه * فلا أحد بالعز يوما يعينه

مطلب احفظ الله يحفظك الحديث

روى الترمذى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال كنت خلف النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا غلام انى أعلمك كلمات احفظ الله يحفظ احفظ الله تجده تجاهك (وفى رواية امامك أى معك) واذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله واعلم ان الامة لو اجتمعت على ان ينفعوك بشئ لم ينفعوك الا بشئ قد كتبه الله لك وان اجتمعوا على ان يضروك بشئ لم يضروك الا بشئ قد كتبه الله عليك رفعت الاقلام وجفت الصحف قال العلماء رحمهم الله قوله فى الحديث احفظ الله أى احفظ دين الله من التضييع والتبديل بأن تحفظ أوامره التى أوجبها ونواهيه التى حرمها فتقف عند أوامره بالامتثال وعند نواهيه بالاجتناب فلا يراك حيث نهاك فاذا أطعته بامتثال أوامره واجتناب نواهيه أحاطك بمعقبات من بين يديك ومن خلفك يحفظونك من أمر الله وحقيقة صيانة المحفوظ من الضياع أن لا تصل اليه أذية وضرر فيحفظك فى نفسك وأهلك ومالك ومصداق ذلك قوله تعالى من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة وما يصيب الانسان من نوائب ونوائب فانما هو بتضييعه

اوامر

أوامر الله وتعديه حدوده بشهادة قوله تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير فمن حفظ الله في صباه وقوته حفظه الله في كبره ومنعه بحوله وقوته وقد قيل ان القاضي أبا الطيب عاش مائة وستين سنة فلم يختل عضو من أعضائه فسئل في ذلك فقال لم أعص الله بعضو منها ويتعدى الحفظ الى ذريته كما في قوله تعالى وكان أبوهما صالحا وكان سعيد بن المسيب يقول لولده اني لازيد في صلاتي من أجلك رجاء أن تحفظ ثم يتلو وكان أبوهما صالحا وكان عمر بن عبد العزيز يقول ما من مؤمن صالح يموت الا حفظ الله عقبه وعقب عقبه وقد يتعدى الحفظ الى جيرانه وأهل ناحيته لقول ابن المبارك ان الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده والدويرات التي حوله انتهى وروايه غير الترمذي (تعرف الى الله) أي تقرب الى الله بلزوم الطاعات والانفاق في القربات والشكر على ما أولاك (في الرخاء) أي في سعة الرزق وصحة البدن (يعرفك في الشدة) بتفريج الهموم والغموم ويجعل لك من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا (واعلم أن ما أخطأك) مما قدر في الازل من خير أو شر (لم يكن ليصيبك) أي يصل اليك (وما أصابك) مما قدر في الازل من خير أو شر (لم يكن ليخطئك) اذ لا يصيب الانسان الا ما قدر عليه وهذا حث من النبي صلى الله عليه وسلم على التوكل على الله تعالى والرضى بما قدره ونفي الحول والقوة إذ لا حول ولا قوة الا بالله وورد عنه صلى الله عليه وسلم ان الله اذا أراد بعبده الشر وفي رواية شرا أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة أي لا يجازيه بذنبه في الدنيا حتى يجيء في الآخرة متوفر الذنوب وافيها فيستوفي ما يستحقه من العذاب وهذا الحديث له تتمة وهي إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وان الله تعالى اذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط وقال صلى الله عليه وسلم ان الله جعل عذاب هذه الامة في دنياها وقال بعضهم وقد جعل الله سبحانه وتعالى لقبضة السعادة أهلا ولقبضة الشقاوة أهلا فاذا تحرك صاحب قبضة السعادة جاءته العناية الازلية وسارت به على فلك التقريب الى ما فيه سعادته الاخروية واذا تحرك صاحب قبضة الشقاوة جاءته الوساوس الشيطانية وقطعته عن ادراك الرتبة العلية كل ذلك بمحض التقدير والارادة الكائنين في اللوح المحفوظ عن النقص والزيادة فالطاعة به والعصيان ولكنه لا يرضى بالمعصية لانسان

مطلب ان العمل الصالح من الاب ينفع عقبه وذريته من بعده

مطلب سياق محامد متفرقة الموضوع حالية الخبر والمسموع

اذا قدر الله الامور على امرئ * جرى ذلك المقدور حتما على العبد

فكم نصح المختار حقا لعمه * فجاءه القرآن انك لا تهدى

وعن بعضهم ما أوتى أحد بعد الايمان أفضل من الصبر على الاذى وعن عيسى صلوات الله وسلامه عليه من احتمل كلمة سفه كتب له عشر حسنات وقيل

اذا ما شجانى ناقص لا أجيبه * فانى ان جاوبته فلى الذنب

وقيل وجدت الرفق أبلغ فى العتو * ولم أر كالتواضع فى العلو

ومن بسط اللسان على عدو * كمن دفع السلاح الى العدو

وروى أبو هريرة رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال أتدرون ما المفلس قالوا يارسول الله المفلس فينا من لا درهم له قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاته وصيامه وزكاته وكان قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا وقال تعالى ولا تنازعوا فتفشلوا وقيل المخاصمة تكدر العيش وتعقب الندم وتمرض القلب وتذهب الحياء وتحسر عليك من كان يهابك وقيل جرح اللسان لا يبرأ وجمرة الحمية لا تطفأ ونار الحقد لا تخمد وعين العداوة لا ترقد فلا توغر عليك صدرا ولا تفعل ما يجلب اليك شرا فان قبيح الكلام سلاح اللئام وقيل

لا تنبش الشر فتبلى به * واحذر على نفسك من نبشه

مواقع البغى لها مصرع * تنكس السلطان عن عرشه

وسب رجل رجلا فلم يلتفت اليه فقال ياهذا اياك أعنى فقال وعنك أعرض وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال مكارم الاخلاق من أعمال الجنة وقال صلى الله عليه وسلم سب المؤمن فسوق المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى هاهنا وأشار بيده الى صدره حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله رواه مسلم ونهى صلى الله عليه وسلم ان يستهزئ الرجل الغنى بالفقير وقال تستهزئ به ملائكة الله يوم القيامة وقيل

أحب مكارم الاخلاق جهدى * وأكره أن أعيب وان أعابا

وأصفح عن سباب الناس حلما * وشر الناس من يهوى السبابا

وقيل خاصمنى من سكت عنه * فظن ان ليس لى لسان

فقلت ما أنت لى بخصم * وانما خصمى الزمان

وقيل ان الضرورة للانسان حاملة * على خلاف الذى يهوى ويختار

ومن أمثال العرب من غربل الناس نخلوه ومعناه من فتش على أحوالهم وأمورهم جعلوه نخالة وقيل

لا تهتكن من مساوي الناس ما ستروا * فيهتك الله سترا من مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم اذا ذكروا * ولا تعب أحدا منهم بما فيكا

وقيل قبيح على الانسان ينسى عيوبه * ويذكر عيبا في أخيه قد اختفى
فلو كان ذا عقل لما عاب غيره * وفيه عيوب لو رآها بها اكتفى

وروى عنه صلى الله عليه وسلم الحياء خير كله وروى عنه أيضا الحياء حسن ولكنه من النساء أحسن وقال بعضهم من الادب ترك الادب عند من لا يحتشمك ولا يحترمك قيل لبعضهم من أدبك فقال لم يؤدبني أحد وانما رأيت جهل الجاهل فتجنبته ورأيت أدب العاقل فأحببته وسلكته ويقال شخص بلا أدب كلفظ بلا معنى وجسد بلا روح وقيل من لا أدب له لا علم له وقيل للاحنف بن قيس ممن تعلمت الحلم قال من نفسي قيل له فكيف ذلك قال كنت اذا كرهت شيئا من غيري لا أفعله بأحد مثلي قيل ان الحلم أفضل خصال الملوك ولم ير على الاطلاق أحلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم روى انه لما انكسرت رباعيته في غزوة أحد وأدمي وجهه قال كيف تفلح أمة خضبت وجه نبيها اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون فشق ذلك على أصحابه فقالوا لو دعوت عليهم فقال اني لم أبعث لعانا ولكن بعثت داعيا ورحمة فهو نبي ما أحلمه وشفيع ما أعظمه وشفوق ما أشفقه وكريم ما أرفقه صلى الله وسلم عليه وزاده شرفا وكرما لديه وقال صلى الله عليه وسلم أتاني آت من عند ربي فخيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئا وقال صلى الله عليه وسلم أدبني ربي فأحسن تأديبي وعنه صلى الله عليه وسلم بعثت لاتمم مكارم الاخلاق وقيل لابن عباس رضي الله عنهما من أجود الناس ومن أحلمهم ومن أبخلهم ومن أسرقهم فقال أجود الناس من أعطى من غير طلب وأحلمهم من عفا عمن ظلم وأبخلهم من بخل بالصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم وأسرقهم من يسرق في صلاته

وأوصى حكيم ولده فقال يا بني ان أصعب ما على الانسان أن يكون فيه ستة أشياء أولها ان يعرف نفسه ويعلم عيبه ويكتم سره ويهجر هواه ويخالف شهوته وان يمسك عما لا يعنيه وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله أوصني فقال يا أبا هريرة أوصيك بست كلمات فيهن ستمائة كلمة

اذا اشتغل الناس بالفضائل اشتغل أنت بالفرائض واذا اشتغل الناس بالخلق اشتغل أنت بالخالق واذا اشتغل الناس بالعلم اشتغل أنت بالعمل واذا اشتغل الناس بالظاهر اشتغل أنت بالباطن واذا اشتغل الناس بعمارة الدنيا اشتغل أنت بعمارة الآخرة واذا اشتغل الناس بالعيوب اشتغل أنت بعيب نفسك وقال صلى الله عليه وسلم من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة رواه الترمذي عن أبي الدرداء وقيل

لا تلم المرء على فعله * وأنت منسوب الى مثله
من ذم شيئا وأتى مثله * فانما يزري على عقله

قال ابن المعتز النصح بين الملا تقريع كما قيل

تعمدني بنصحك في انفرادي * وجنبني النصيحة في الجماعة
فان النصح بين الناس ضرب * من التقريع لا أهوى سماعه
فان خالفتني طلبا لنقصي * فلا تغضب اذا لم أعط طاعة

وأوصى حكيم ولده فقال يابني تزود من الدنيا خمسة أشياء تبلغك للبعث وتونسك عند الوحدة كف الاذى وحسن الخلق والصدق والنصح والبر وورد عنه صلى الله عليه وسلم قال ان الدين النصيحة قلنا لمن يارسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم وروى عنه صلى الله عليه وسلم (انكم لن تسعوا الناس بأموالكم) أي لا يمكنكم ذلك (ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق) أي لا تسع أموالكم لعطائهم فوسعوا أخلاقكم لصحبتهم وكان صلى الله عليه وسلم يكرم أهل الفضل ويتألف أهل الشرف ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد بشره وخلقه ويتفقد أصحابه ولا يقول الا حقا وعنه صلى الله عليه وسلم اكرموا عزيز قوم ذل وغني قوم افتقر وقال الامام الشافعي لا علم الا مع التقى ولا أدب الا مع العقل وقال بعض العلماء العقول أربعة عقل الايمان بالاستقامة وعقل العلم بالاجتهاد وعقل الادب بصحبة الصالحين وعقل العيش بالتدبير وقال بعضهم ثمانية ان أهينوا فلا يلومون الا أنفسهم الجالس على مائدة لم يدع اليها والمتكبر على رب البيت وطالب الخير من أعدائه وطالب الود من اللئام والداخل بين اثنين في حديثهما والمستخف بالسلطان والجالس مجلسا ليس له أهلا والمقبل بحديثه على من لم يسمع منه وقيل

مطلب شرف النفس والمحافظة على أعزازها واكرام شريف القوم

بكل تداوينا فلم نر نعمة * أعز من النفس العزيزة والعقل

ونهى صلى الله عليه وسلم ان يدخل أحد الى طعام لم يدع اليه وقد ورد فى الحديث انه صلى الله عليه وسلم قال من دخل الى طعام لم يدع اليه دخل سارقا وخرج معيرا وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا تصغرهمتك فانى لم أر أضر بالرجل من صغر همته وقيل على قدر المرء تكون همته وقيمة كل امرئ همته

وكما فضل الله العالمين بعضهم على بعض فى الرزق وكثرة المال كذلك فرق بين العالمين فى العقول ومنحهم منه ماشاء من كثير وقليل فعقول الانبياء والملائكة اكثر من عقول العلماء وعقول العلماء اكثر من عقول العوام وعقول العوام اكثر من عقول النساء وعقول النساء أكثر من عقول الصبيان وقيل العاقل من نفسه فى تعب والناس منه فى راحة والجاهل عكس ذلك وقال الحارث بن اسد المحاسبي لكل شئ جوهر وجوهر الانسان العقل وجوهر العقل الصبر ومن كلامهم الصبر لا يتجرعه إلا حر وقيل

مطلب ان الله سبحانه وتعالى كما جعل التفاضل بين مخلوقاته فى الرزق جعله أيضا بينهم فى العقول والاحلام وذكر الحث على الصبر الجميل

سأصبر حتى يعلم الناس أننى * صبرت على شئ أمر من الصبر
وما أحسن الصبر الجميل مع التقى * وما قدر المولى على خلقه يجرى
ولو أن مابى بالجبال لهدمت * وبالنار أطفاها وبالريح لم يسر
ومن قال ان الدهر فيه حلاوة * فلابد من يوم أمر من المر

وقال بعض الملوك لوزيره ماخير مارزقه العبد قال عقل يعيش به قال فان عدمه قال أدب يتحلى به قال فان عدمه قال مال يستره قال فان عدمه قال موت يريح منه العباد والبلاد وقيل ليس الفتى من يفتخر بقومه وأهله وانما الفتى من يفتخر قومه بفضله فالدر لا تضره كثافة الصدف وملوحة البحر والشوك لا ينفعه شرب ماء المزن ولا مجاورة لطيف الزهر فالعاقل لا يفتخر بالنسب وانما يفتخر بنسب الادب فانما المرء ابن نفسه اذ بها يعلو ويسفل بين أبناء جنسه كما قيل

مطلب ما قاله العلامة المقريزى من ان لكل شئ غاية وغاية المعدن أن يصير ذهبا الخ وان الانسان الكامل هو الذى يحرص على بقاء ذكره الحسن

نفس عصام سودت عصاما * وعلمته الكر والاقداما
وصيرته ملكا هماما

وقيل رأيت العز فى أدب وعلم * وفى الجهل المذلة والهوان
كفى بالمرء ذما أن تراه * له وجه وليس له لسان

قال المقريزى فى رسالة له ان لكل شئ غاية فغاية المعدن أن يصير ذهبا وغاية النبات النخلة وغاية الحيوان الانسان وغاية الانسان أن يكون عالما وغاية العالم أن يكون كاملا فى وقته باقيا ذكره

وقيل الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم وقيل عقول الناس على قدر أزمنتهم فالكامل هو الذى يحرص على بقاء ذكره الحسن قال الله تعالى حكاية عن سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام واجعل لى لسان صدق فى الآخرين وقد منّ الله تعالى على نوح عليه الصلاة والسلام بقوله وتركنا عليه فى الآخرين ومعناه تركنا عليه ثناء حسنا فى كل أمة ومنّ الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بقوله وانه لذكر لك ولقومك قال ابن عباس رضى الله عنهما يعنى ان القرآن الشريف شرف لك ولقومك وقال تعالى ممتنا على نبيه ورفعنا لك ذكرك أى اذا ذكرت ذكرت معى وعن نبى الله سليمان ابن داود عليهما الصلاة والسلام الذكر الجميل خير من الرائحة الطيبة والانسان يوم يموت خير من يوم يولد لان الرائحة الطيبة قد لا تبلغ ربع ميل والثناء الحسن والصفات الجميلة قد تبلغ أقصى الآفاق وذلك ان الانسان مادام حيا يزهد فيه نظراؤه فان النفوس كأنها ظافرة به ومن شأن المرء أن يزهد فيما ظفر به لانه فى يده وقد أمن من فوته وان يحرص على طلب ماغاب عنه ويرغب فى تحصيله فاذا مات الانسان فقد فات فتلهج الالسنة حينئذ بنشر أخباره وآثار فضله ونشر مآثره واذاعة محاسنه حتى كان موته سببا لاشهار فضائله أكثر من اشهارها فى حياته كما قيل

مطلب ما يقال من ان يوم وفاة المرء خير من يوم ولادته

المرء مادام حيا يستهان به * ويعظم الرزء فيه حين يفتقد

وقيل وماينفع الانسان مما يحوزه * اذا فارق الدنيا سوى طيب ذكره

وقيل وما تنفع الآداب والعلم والحجا * وصاحبها عند الكمال يموت

وقيل وللخير أهل لم تكن أقعدتهم * عن الخير فيمن أقعدته الطبائع

وللشر أهل قد تشير اليهم * على كل حال بالاكف الاصابع

فالقول بأن يوم وفاة المرء خير من يوم ولادته انما يراد به أن الانسان حصل على الغاية وغاية الانسان إما عالم باق أو جاهل غير متبع فولادة الانسان انما هى ليكون له صدق فى الآخرين بحسن السيرة فان الفضائل كانت فيه وقت ولادته بالقوة فاذا صارت له الفضائل بالفعل استحق الثناء عليه أيام حياته وكثر انتشار فضائله بعد مماته وانتشارها بعد مماته حياة باقية يتوجه اليها الصالحون ويرغب فيها العارفون فيوم كمال الغاية المطلوبة والفضيلة المتوجه اليها أكمل من يوم ولادته

ومما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهان خمسا خسر خمسا من استخف بالعلماء خسر الدين ومن استخف بالامراء خسر الدنيا ومن استخف بالاقارب خسر

المروءة

المروءة ومن استخف بالجيران خسر المنافع ومن استخف بأهله خسر طيب عيشه قال الامام القسطلانى رحمه الله اذا ظهر الجاهل واستقل بالعالم وصدق الكاذب واتمن الخائن واستحلت العلماء الرخص واستحل الناس الحرام من تلقائهم فقد محى الورع وانقطع الزهد ووجب الاعتزال

مطلب استحباب دعاء التلميذ لاستاذه ولوالديه حضورا أو غيبة

(رجع) وكذلك يدعو التلميذ لاستاذه ولوالديه وكذلك يفعل كلما شرع فى قراءة درس وتكراره أو مطالعته أو مقابلته فى حضور أستاذه أو فى غيبته واذا فرغ من الدرس دعا لاستاذه أيضا ويدعو الاستاذ للتلميذ أيضا كما دعا له وان ترك التلميذ الاستفتاح بما ذكر جهلا أو نسيانا نبهه عليه وعلمه إياه وذكره فانه من أهم الادب وقال بعضهم

علم العلم من أتاك لعلم * واغتنم ما حييت منه الدعاء
وليكن عندك الفقير اذا ما * طلب العلم والغنى سواء

وقيل

وكم من جاهل أمسى أديبا * بصحبة عالم وغدا إماما
كماء البحر مر ثم تحلو * مذاقته اذا صحب الغماما

وقيل من لم يحتمل ذل التعليم ساعة بقى فى ذل الجهل أبدا ومما ينسب للامام الشافعى رضى الله عنه

فان يسر الله الكريم بفضله * وصادفت أهلا للعلوم والحكم
بثثت مفيدا واستفدت ودادهم * وإلا فمخزون لدى ومكتتم
ومن منح الجهال علما أضاعه * ومن منع المستوجبين فقد ظلم

مطلب ما يحق أن يحزن الانسان على فقده من سائر العالم على اختلاف طبقاته

وقال صلى الله عليه وسلم آفة العلم النسيان واضاعته أن تحدث به غير أهله ولبعضهم

اذا شئت أن تبكى فقيدا من الورى * وتندبه ندب النبى المكرم
فلا تبكين إلا على فقد عالم * يبالغ فى التعليم للمتعلم
وفقد امام عادل صان ملكه * بأنوار حكم الله لا بالتحكم
وفقد شجاع صادق فى جهاده * وقد نشرت أعلامه للتقدم
وفقد ولى حافظ الود والوفا * مطيع لرب العالمين معظم
وفقد سخى لا يمل من العطا * يفرج هم الكرب عن كل معدم
وفقد أخ يفديك حبا بنفسه * ويفصيك بالمجهود عن كل مؤلم
كذا زوجة ترعى أمانة بعلها * ولو غاب عنها مدة الدهر أو عمى

فهم سبعة يبكي عليهم وغيرهم * الى حيث ألقت رحلها أم قشعم

قال بعضهم فان موت العلماء من المصايب الكبرى والنكائب العظمى إذ هم أقمار الدنيا وشموسها و بذهابهم تخسف الاقمار والشموس و بموتهم تقل العلوم وتدرس الرسوم فما ورد من ذلك قوله تعالى أولم يروا أنا نأتي الارض ننقصها من أطرافها قالوا هو موت العلماء وورد عنه صلى الله عليه وسلم ان الله لا يرفع العلم انتزاعا وانما يرفعه بموت أهله ومن ذلك ما روى من قوله صلى الله عليه وسلم ان مثل العلماء في الارض كمثل النجوم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر فاذا النجوم انطمست يوشك أن تضل الهداة وعنه صلى الله عليه وسلم من لم يحزن لموت العالم فهو منافق وقوله صلى الله عليه وسلم خيار أمتي علماؤها وخيار علمائها حلماؤها

مطلب تأكيد احترام العلماء ومن فيه نوع فضيلة بنحو تقبيل اليدين والقيام وغير ذلك من الآداب المستحسنة الجميلة

وقال صلى الله عليه وسلم وقروا من تعلمون منه العلم ووقروا من تعلمونه العلم رواه البخاري في تاريخه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فمن ذلك تبجيلهم وتعظيمهم عن غيرهم ومنه قضاء مصالحهم والاهتمام بها وقبول شفاعاتهم ومنه اطعامهم الطعام والقيام لهم وتقبيل أيديهم وأيدي غيرهم من الصلحاء اجلالا لهم وتعظيما فقد قال النووي رحمه الله يستحب تقبيل أيدي العلماء والمشايخ أهل الفضل ومن يتلمح منهم آثار الخير والبركة والصلاحية والتبرك بهم والتماس دعواتهم الصالحة ونحو ذلك مما هو مطلوب ويستحب لهم القيام أيضا فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم نزلوا الناس منازلهم وقام صلى الله عليه وسلم لصفوان بن أمية لما قدم عليه والى عدي بن حاتم قال السهيلي وليس معارضا الحديث من سره أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار لان هذا الوعيد انما توجه للمتكبرين والى من يغضب أن لا يقام له وكان صلى الله عليه وسلم يقوم لفاطمة رضي الله عنها وكانت تقوم له صلى الله عليه وسلم

فحق المعلم أن يجري متعلميه مجرى بنيه فانه لهم في الحقيقة أشرف الابوين وأبو الافادة أعظم حقا من أبي الولادة فيوقرهم كما يوقر أولاده و يوقرونه كما يوقرون آباءهم كما قال الاسكندر وقد سئل أمعلمك أكرم عليك أم أبوك فقال بل معلمي لانه سبب حياتي الباقية ووالدي سبب حياتي الفانية فهو أحق بالتوقير من الأب وقيل

اذا أفادك بعض الناس فائدة * من العلوم فواظب شكره أبدا

وقل فلان جزاه الله صالحة * أفادنيها وألغ الكبر والحسدا

فالحر يكثر من ذكر المفيد له * علما ويذكره ان قام أو قعدا

وعلى المفيد أن يعبر للمستفيدين بعبارة واضحة مفصلة لاجل ان يفهموها فقد كان صلى الله عليه وسلم اذا تكلم تكلم بكلام مفصل مبين يعده العاد قالت عائشة رضى الله عنها ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد سردكم هذا كان يحدث حديثا لو عده العاد لاحصاه وكان يعيد الكلمة ثلاثا لتفهم عنه وذكر البخارى رضى الله عنه عند قوله باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية ان لا يفهموا عن معروف عن أبى الطفيل عن على رضى الله عنه قال حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله وعلى المفيد أن يعامل المستفيدين بالارشاد والشفقة ويهتم بمصالحهم ويصبر على جفائهم وسوء أدبهم ويعذرهم فى قلة أدبهم فى بعض الاحيان فان الانسان معرض للنقصان لاسيما اذا كان حديث السن كالصغير وعليه أن يصرفهم عن الرذائل الى الفضائل بلطف فى المقال وتعريض فى الخطاب والتعريض أبلغ من التصريح قال الغزالى آفة العلم الخيلاء فلا يليق العالم أن يتعزز بالعلم ويستعظم نفسه ويستحقر الناس وينظر اليهم نظره الى البهائم وقيل العلم حرب للمتعالى كما ان السيل قاطع للمكان العالى

مطلب ان العالم لا ينبغى له ان يكون محبا للرياسة والتعظيم وانتقاص غيره وان لا يمدح نفسه

قال بعضهم لا ينبغى للعالم حب الرياسة والتعظيم والتسارع الى نبذ من تلوح عليه شواهد العلم بالقصور ويلتمس بكثرة الانتقاد والعثرات ويستر رسوم الحسنات ببعض السقطات وربما رأى بعضهم استحقاقه العلم بالتوارث وقد قال الله تعالى ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وقال تعالى وربك يخلق ما يشاء ويختار أى للفضائل والكمالات وقد نص القرافى على ان ذلك من البدع المحرمة وقيل

وما عبر الانسان عن فضل نفسه * بمثل اعترافه الفضل فى كل فاضل
وان أخس النقص أن يتقى الفتى * قذى النقص عنه بانتقاص الافاضل

قال بعضهم وينبغى له أيضا ان لا يمدح نفسه ولا يزكيها ولا يفرح بمدح الناس له ولا بثنائهم عليه فقد قال تعالى فلا تزكوا أنفسكم أى لا تمدحوها وكان الحسن البصرى يقول رب هالك بالثناء عليه ورب مستدرج بالاحسان اليه وقيل لحكيم ما الصدق القبيح قال ثناء المرء على نفسه الا ان ينوى المادح التحدث بنعمة الله تعالى قال تعالى وأما بنعمة ربك فحدث أو ينوى به اعلام حاله من العلم والعمل ليقتدوا به وليأخذوا عنه وليعطوه حقه ويدفعوا عنه الظلم ونحو ذلك فلا يكون مدحه لنفسه مذموما حينئذ وينبغى له أيضا ان يتمسك بالسبب الاقوى والحبل المتين والزاد الموصل الى القرب من

رب العالمين الذي ذكره الله في محكم الكتاب بقوله وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الالباب اذ التقوى رأس كل خير والامان من كل ضير وقد مدح الله المتقين في آيات كثيرة ووصفهم بأوصاف جميلة وأثنى عليهم بأشياء جليلة وكذلك نبيه صلى الله عليه وسلم في أحاديث شهيرة فمن الآيات قوله تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم وقوله تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين ولما نزل قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته تحرجت الصحابة يعني حصل لهم حرج وضيق في أنفسهم وشق ذلك عليهم فأنزل الله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم فاطمأنوا بذلك ومعنى اتقاء الله حق تقاته ان يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ومن الاحاديث قوله صلى الله عليه وسلم من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه يعني من قصر في العمل حتى تورط في الامور المهلكة لم يكد ينفعه نسبه ولا يعتمد عليه بل يقول أنا ابن العالم الفلاني وابن الشيخ الفلاني والشريف الفلاني معتمدا عليه تاركا لما أمر به اذ لم ينفعه ذلك يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم ونهى صلى الله عليه وسلم ان يفتخر الرجل بآبائه وأجداده لانهم قد صاروا الى ما قدموا من العمل وقيل

اذا افتخرت بآباء مضوا زمنا * قالوا صدقت ولكن بئس ما ولدوا

وقيل وليس فخار المرء الا بنفسه * وان عد آباء كراما ذوي نسب

ولا ينفع ذلك الا مع العلم والعمل

قال بعض العلماء رضي الله عنه ما ثم أنفع لاولاد العلماء والصالحين من الدعاء لهم بظاهر الغيب مع تفويض أمرهم الى الله تعالى وذلك لان أحدهم يتربى في الدلال على الدوام مع مساعدة أمه ان كانت ويكتفي بتعظيم الناس له بحكم التبع لابيه فلا يصير عنده داعية الى اكتساب الفضائل غالبا ويقول في نفسه الذي كنت اتعب في تحصيله من الجاه بالاشتغال بالعلم والرياضة قد حصل لي بواسطة والدي بخلاف أولاد العوام والفلاحين فان أحدهم يفتح عينه على الكد والتعب والاهانة فيصير يتفكر في عمل حيلة تعتقه من تلك الاهانة فيلهمه الحق ان يشتغل بالعلم والقرآن فلا يزال كلما عظمه الناس يزداد رغبة في العلم والمجاهدة حتى يصير شيخ الاسلام وقال صلى الله عليه وسلم (ويل للعالم من الجاهل) ويل كلمة تقال لمن وقع في هلكة ولا يترحم عليه بخلاف ويح أي حيث لم يعلمه معالم الدين ويرشده الى طريقه المبين مع انه مأمور بذلك (وويل للجاهل من العالم) حيث أمره بمعروف ونهاه عن منكر فلم يأتمر بأمره ولم ينته بنهيه اذ العالم حجة

الله

الله على خلقه قال الشافعي العلم جهل عند أهل الجهل كما ان الجهل جهل عند أهل العلم وينبغي له أيضا ان يتخلق بالاخلاق الحميدة والمحاسن الشريفة التي ورد الشرع بها والشيم المرضية والخلال الزكية التي أرشد اليها من الزهد في الدنيا والتقلل منها وعدم المبالاة بها وبأهلها والسخاء والجود والكرم ومكارم الاخلاق ومحاسن الآداب وطلاقة الوجه في غير خروج الى حد الخلاعة والصبر والتقوى عن دنيء الاكتساب وان يكون ذا ورع صادق قال الحكماء عالم بلا ورع كارض بلا نبات وان يكون ملازما للخشية من الله تعالى قال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وقال ابن عطاء الله في حكمه خير العلم ما كانت الخشية معه وان يكون مهذب الاخلاق ذا نفس مرضية وخلق حسن وقيل

يامن تقاعد عن مكارم خلقه * ليس التفاخر بالعلوم الزاخره
من لم يهذب علمه أخلاقه * لم ينتفع بعلومه في الآخرة

وان يكون مكثرا من الخشوع والسكينة والوقار والخضوع متجنبا للضحك والاكثار من المزاح ملازما على الوظائف الشرعية الواردة عن خير البرية كتنظيف الاوساخ والشعور التي ورد الشرع بازالتها كقص الشارب وتقليم الاظفار وتسريح اللحية ونتف الابط وحلق العانة وازالة الروائح الكريهة متجنبا للملابس الرثة المكروهة المبتذلة فقد نهى صلى الله عليه وسلم عن الشهرتين في اللباس المرتفعة جدا والمنخفضة جدا قال النووي رحمه الله تعالى كانوا يكرهون الشهرتين الثياب الجياد والثياب الرذلة اذ الابصار تمتد اليهما وبهذا ورد الحديث فلبس المرقعات أمر مكروه شرعا وربما يكون حراما اذا قصد اظهار الزهد للطلب وان يكون تاركا للشهرة محبا للخمول فانه أحسن الخصال المفضلة وان يكون متواضعا لله تعالى ومن تواضع لله رفعه وقد رفع الله المتواضعين وأثنى عليهم ووصفهم في كتابه العزيز بأوصاف جميلة ومن المعلوم ان النبي صلى الله عليه وسلم كان سيد المتواضعين ورأس المتأدبين وقد أمره الله تعالى بالتواضع وحسن الخلق ومكارم الاخلاق فقد قال تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين والآيات والاحاديث والاشعار في فضل التواضع والرفق ونحوهما كثيرة وما أحسن ما قيل

ولا تمش في الارض الا تواضعا * فكم تحتها قوم هم منك أرفع
وان كنت في عز وجود ومنعة * فكم مات قوم هم منك أمنع

وقال آخر تواضع تكن كالنجم لاح لناظر * على صفحات الماء وهو رفيع

ولا تك كالدخان يعلو بنفسه * الى طبقات الجو وهو وضيع

وليحذر كل الحذر من الحسد والكبر والرياء والعجب وان يكون تعويله فى سائر أموره صلى الله تعالى منقطعا اليه عن الخلق وعن التعلق بهم غير ملتفت لما فى أيديهم ويبنغي ان يرفق بمن يقرأ عليه من المستفيدين ويعلمهم برفق لقوله صلى الله عليه وسلم ما كان الرفق فى شيء إلا زانه وما كان العنف فى شيء الا شانه وان يرحب بهم ويحسن اليهم بحسب حاله فقد ورد عن أبى هارون العبدى قال كنا نأتى أبا سعيد الخدرى رضى الله عنه فيقول مرحبا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الناس لكم تبع وان رجالا يأتونكم من أقطار الارض يتفقهون فى الدين فاذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا رواه الترمذى وابن ماجه وغيرهما وينبغي أن يبذل لهم النصيحة فقد قال صلى الله عليه وسلم الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم رواه مسلم ومن النصيحة لله ولكتابه اكرام قارئه وطالبه وارشاده الى مصلحته والرفق به ومساعدته بما أمكن

مطلب ان ما يفعله معلمو القرآن الشريف من شدة ضربهم للاولاد خروج من حد الشرع وانه ينبغى للمعلمين أن يأذنوا للاولاد فى بعض الاوقات باللعب

وأما ما يفعله معلمو القرآن الشريف وشدة تعنفهم وضربهم للاولاد الصغار المبتدئين فى التعليم فهو خروج عن حد الشرع ويترتب على ذلك ان الاولاد يمتنعون من الكتابة والقراءة لما يرونه من ذلك فلو عاملوهم بالرفق والحيلة فى التعليم لما امتنعوا من ذلك خصوصا وانهم يفارقون اللعب الى الحبس والضيق وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم علموا ولا تعنفوا فان العلم خير من العنف وروى عنه صلى الله عليه وسلم البركة فى أكابرنا فمن لم يرحم صغيرنا ويجل كبيرنا فليس منا (أى ليس متبعا هدينا وطريقتنا) قال بعض العلماء وينبغى للمعلمين ان يأذنوا لهم فى بعض الاوقات باللعب ويكون لعبا جميلا غير متعب لهم ليستريحوا من كلفة الادب كما سيأتى

وينبغى للعالم أن يتألف قلوب الطالبين ويتلطف بهم ويحرضهم على التعليم ويحثهم عليه وينبههم ان غفلوا وينبغى ان يذكرهم فضيلة ذلك ليكون سببا لنشاطهم وزيادة فى رغبتهم فى الخير ويزهدهم فى الدنيا ويصرفهم عن الركون اليها والاغترار بها ويخبرهم بأن الاشتغال بالقرآن وسائر العلوم الشرعية هو طريقة الحازمين وعباد الله العارفين وان ذلك رتبة الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

وينبغى له أيضا ان يحب لهم ما يحب لنفسه وان يكره لهم ما يكره لنفسه لحديث الصحيحين انه صلى الله عليه وسلم قال لا يؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه وينبغى ان يكون معترفا بنعم الله تعالى عليه التى من جملتها العلم الذى صار به من أفضل الخلق بل

هو

هو أجلها وأفضلها فلا يغفل عن سؤال الله تعالى إدامة نعمته شاكرا له آناء الليل وأطراف النهار اذ الشكر قيد النعمة وعقالها مستلزم للزيادة منها قال تعالى لئن شكرتم لازيدنكم ولانه أدوم للنعمة عليه لئلا تنفر عنه فلا تعود اليه كما قال صلى الله عليه وسلم قلما نفرت النعمة عن قوم فعادت اليهم ولهذا قال بعض الحكماء اعلموا ان صحائف الدهر مقلدة بالشكر والذم واذا كان كذلك فاكرموا من له بيت في الاصل ومن له قدر في المروءة ومن له مكانة في العلم ولا يغرنكم سوء حاله وانقلاب الزمان به فان الدهر يجبر كما يكسر ويكسر كما يجبر وما أعطى الدهر شيئا بيمينه إلا واسترده بشماله كما قيل

الدهر لا يبقى على حالة * لابد ما يقبل أو يدبر
فان تلقاك بمكروهه * فاصبر فان الدهر لا يصبر

وقيل قل للذي بصروف الدهر عيرنا * هل عاند الدهر الا من له خطر
اما ترى البحر يعلو فوقه جيف * ويستقر بأقصى قعره الدرر
فان تكن نشبت أيدي الزمان بنا * ومسنا من تمادي بؤسه الضرر
ففي السماء نجوم ما لها عدد * وليس يكسف الا الشمس والقمر

قال بعضهم وأما ما يطلب من المتعلم فأمور كثيرة أيضا اذ هو تابع له فما يطلب من المتعلم ان يكون متأدبا مع الله تعالى ومع أستاذه اذ لا شيء أحسن من الادب في حق المتعلم فقد قال صلى الله عليه وسلم أدبني ربي فأحسن تأديبي وقال علي رضي الله عنه لا شرف مع سوء الادب وأوصى حكيم ولده فقال أوصيك بخمس خصال الاولى لا تعاند من فوقك الثانية لا تقل ما لا تعلم الثالثة لا تتعاطى ما لا تنال الرابعة لا تخالف بلسانك ما في قلبك الخامسة لا يخالف قولك فعلك وقيل الحاكم لا يعاند والقاضي لا يخاصم والشاعر لا يعادي وان يكون متواضعا للاستاذ محبا له معتقدا فيه سامعا لقوله مستطيعا لامره لما ورد من قوله صلى الله عليه وسلم اغد عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبا ولا تكن الخامسة فتهلك يعني مبغضا وان يكون بمنزلة العبد لاستاذه واستاذه بمنزلة المولى له وجاء في معلمي القرآن حديث مرفوع من علم عبدا آية من كتاب الله فهو مولاه أخرجه الطبراني من حديث أبي امامة ونحوه قول شعبة من كتبت عنه حديثا فأنا له عبد وان يكون مجدا في التعليم مشمرا عن ساعد الجد والاجتهاد قائما على قدم العناية والسداد فان ذلك من سبل الرشاد فلعله أن يظفر ببعض المراد فقد قيل اعط العلم كلك يعطك بعضه ولكل مجتهد نصيب والاجر على قدر المشقة وينبغي لطالب العلم ان يكون متأملا

مطلب ما يطلب من المتعلم

فى جميع الاوقات فى دقائق العلوم و يعتاد ذلك ولهذا قيل من تأمل أدرك ولابد من التأمل قبل الكلام حتى يكون صوابا فان الكلام كالسهم لابد من تقويمه بالتأمل قبل الكلام حتى يكون مصيبا وان يكون مستفيدا فى جميع الاحوال والاوقات من جميع الاشخاص قال صلى الله عليه وسلم الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها وينبغى ان لا يكون للمستفيد فتور فانه آفة وكان شيخ الاسلام برهان الدين رحمه الله يقول انما فقت شركائى لانه لم تقع لى الفترة فى التحصيل قيل وقت العلم من المهد الى اللحد وقيل انه لما أوجع الفقر والحرمان القاضى عبد الوهاب البغدادى المالكى رحمه الله تمنى الكفاف ولزوم العلم الى الممات فقال

يالهف نفسى على شيئين لو جمعا * لكنت حينئذ من أسعد البشر
كفاف رزق يقينى ذل مسألة * وخدمة العلم حتى ينقضى عمرى

والكفاف حالة متوسطة بين الغنى والفقر وقال صلى الله عليه وسلم ذكاء المرء محسوب عليه وقال بعضهم فى ذلك

اذا أبصرت ذا فضل فقيرا * فلا تعجب لفقر فى يديه
فقد قال الرسول مقال صدق * ذكاء المرء محسوب عليه

ومما ينسب للامام الشافعى رضى الله عنه

ومن العجيب من القضاء وصنعه * بؤس اللبيب وطيب عيش الاحمق
* وأحق خلق الله بالهم امرؤ * ذو همة يبلى برزق ضيق *
* ولربما مرت بقلبى فكرة * فأود منها اننى لم أخلق *

وقيل

وأنكد الناس عيشا من تكون له * نفس الملوك وحالات المساكين
أرى بعينى مالا تستطيل يدى * له وقد حازه من قدره دونى

مطلب فضل العلم على المال وأفضل أوقات تحصيل العلوم

وقال بعضهم لا يخفى فضل العلم على المال عند ذوى الكمال لان المال تصلح به دنياك والعلم تصلح به دنياك وآخرتك والمال تتركه فى هذه الدنيا قهرا والعلم يصحبك فى الدار الاخرى حتى لقد ورد فى الحديث المرفوع الى صاحب الوسيلة والدرجة العليا ان الناس يحتاجون الى العلماء فى الآخرة كما يحتاجون اليهم فى الدنيا والمال يشغلك عن الله وعبادته والعلم يحثك على مراقبته وطاعته

وأفضل أوقات تحصيل العلوم شرخ الشباب ووقت السحر وما بين العشاءين وينبغى أن

أن يستغرق جميع أوقاته فاذا مل علما اشتغل بعلم آخر وكان ابن عباس رضي الله عنه اذا مل من الكلام يقول هاتوا ديوان الشعر وقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه انه صلى الله عليه وسلم قال متعلم كسلان يعني لا يجتهد في طلب العلم أفضل عند الله من سبعمائة عابد مجتهد وقال صلى الله عليه وسلم ان من الذنوب ذنوبا لا يكفرها صلاة ولا صوم ولا جهاد الا الهموم في طلب العلم وينبغي للمستفيد ان يكون منقطعا تاركا لما يشغله من علائق الدنيا هاجرا لاخوانه وخلانه اذ هو الذي يتأتى له التحصيل من بين أقرانه فقد قال الخطيب لا ينال العلم الا من عطل دكانه وخرب بستانه وهجر اخوانه وقال بعضهم

شغلنا بكسب العلم عن مكسب الغنى * كما شغلوا عن مكسب العلم بالكثر

فكان لهم حظ من الجهل والغنى * وكان لنا حظ من العلم والفقر

مطلب تعريف الحظ والفرق بينه وبين النصيب وان الارزاق مقسومة لا تزيد بالتقوى ولا تنقص بالفجور

والحظ لغة النصيب وعرفا ما وافق الغرض من مال وعلم وجاه ورياسة ونحوها مما تألفه النفس وما لم يوافقها يسمى نصيبا كالعمى والجهل وقلة المال فكل حظ نصيب ولا عكس والحظوظ مما قدرها الله وقضاها في الازل فلا تعال لقضائه بدليل نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا يعني خلقنا هذا غنيا وهذا فقيرا وهذا عالما وهذا جاهلا وهذا ملكا وهذا مملوكا هذا عطاؤنا لا تبديل فيه ولا تغيير ولا نقص ولا زيادة ولا محو ولا اثبات وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم رفعت الاقلام وجفت الصحف وقضى ما هو كائن الى يوم القيامة وقيل

نحن قسمنا الرزق بين الورى * فأدب النفس ولا تعترض

وسلم الامر لاحكامنا * فكل عبد رزقه قد فرض

وقال أهل السنة والجماعة الارزاق مقسومة معلومة لا تزيد بتقوى المتقين ولا تنقص بفجور الفاجرين وقيل الدنيا يعطيها الله لمن يحبه ولمن لا يحبه

وقال بعضهم اعلم ان الله سبحانه وتعالى اغنى اشد البلاء على الافاضل لان الله تعالى يبغض الدنيا وحجبها عنهم ليكثر لهم الاجر في الدار الآخرة ويتفرغوا لطاعته ولا يشتغلوا بها فتحملهم على المعصية فان النعمة قد تكون سبب المعصية لقوله تعالى فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ولذلك قال بعضهم

قد ينعم الله بالبلوى وان عظمت * ويبتلي الله بعض الناس بالنعم

وقال بعضهم أحسن ما قيل في حكمة عدم اجتماع الفضل والمال لان ذاك لعزة الكمال لانه لو حواهما شخص لحوى الكمال برمته والله تعالى هو المنفرد بالكمال دون بريته وقال بعضهم في قدرة الله ان يجعل الجبال ذهبا فرد عليه بعضهم بقوله مسلم ذلك وأكثر منه كيف وقد عرض على نبيه صلى الله عليه وسلم ذلك فأباه لكن الابدع ما صنع الله اذ لو كانت الجبال كلها ذهبا لتعطل الوجود وترك الناس الزراعة وسائر وجوه المعيشة فيؤدي الى هلاكهم وهذا هو السر في انقسام الناس الى زاهد وحريص ووضع الامل والرغبة في الدنيا ولو كان الناس كلهم زهادا ولا مال لهم لتركوا المعاش والمتاجر والاسفار وجلب الامتعة من البلاد القاصية فلم ينتظم للناس معيشة فكان صنع الله أبدع صنع الله الذي اتقن كل شيء وأيضا فلو كانت الجبال ذهبا لاقتتلوا عن آخرهم

قال الامام علي كرم الله وجهه لا تحزن على شيء من أمور الدنيا فانها ستة مطعوم ومشروب وملبوس ومشموم ومركوب ومنكوح فأفخر طعامها العسل وهو بزاقة ذبابة وأفخر شرابها الماء يستوي فيه جميع الحيوانات وأفخر ملبوسها الديباج وهو نسيج دود وأفخر مشمومها المسك وهو دم غزال وأفخر مركوبها الخيل وعليها تقتل الرجال ومنكوحها النساء وهو مبال في مبال وقيل

أرى اللذات في الدنيا ثلاثا * كما قال الثقات من الرجال
فبزق ذبابة مع غزل دود * وأحسنها مبال في مبال

وقيل من آفات المال شغل القلب والحرص على الزيادة والخوف من الفوات وطمع قطاع الطريق فيه وحرصه من السرقة وذم على الدنيا فقال من صح فيها هرم ومن مرض فيها سقم ومن استغنى فيها فتن ومن افتقر فيها حزن ومن طلبها فاتته ومن تركها أتته وقال صلى الله عليه وسلم تعس عبد الدنيا يعني الذي يجمعها ولا يفعل منها خيرا كزكاة وصدقة وصلة رحم بل يكون حريصا عليها وقال عمر رضي الله عنه ما كانت الدنيا هم أحد الا لزم عليه أربع فقر لا يدرك غناه وهم لا ينقضي مداه وشغل لا ينفد أداه وأمل لا يدرك منتهاه وورد عنه صلى الله عليه وسلم تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم فان من كانت الدنيا أكبر همه أفشى الله ضيعته وجعل فقره بين عينيه ومن كانت الآخرة أكبر همه جمع الله له أمره وجعل غناه في قلبه وقيل

تقنع بما يكفيك واستعمل الرضى * فانك لا تدري أتصبح أم تمسي

فليس

فليس الغنى عن كثرة المال انما * يكون الغنى والفقر من قبل النفس

(رجع) وينبغي للمستفيد ان يكون مكبا على الاشتغال ساهرا هاجرا للمنام لان الليل مجمع الحواس ووقت الخلوة والمناجاة والنفس من طبعها الكسل والميل الى اللهو واللعب والتنعم والفتور عن الطاعات خصوصا عن الاشتغال بالعلم وتحصيله فان من المعلوم عند أهله المشهورين بنبله وفضله الملازمين لتحقيق مسائله وتدقيق دلائله انهم لا يلتذون بشئ أحلى منه فانه يحصل لهم به من الفرح والسرور والغبطة والحبور والنشأة والطرب مما لا يحصل لغيرهم ممن يتحرى سماع الآلات وطرب الانشادات ولذة المآكل والمشارب وغير ذلك وما أحسن قول القائل

سهري لتنقيح العلوم ألذ لى * من وصل غانية وطيب عناق

وصرير أقلامى على أوراقها * أحلى من الدوكاة والعشاق

وألذ من نقر الفتاة لدفها * نقرى لالقى الرمل عن أوراقى

أأبيت سهران الدجا وتبيته * نوما وتبغى بعد ذاك لحاقى

ولذا قال الامام أبو حنيفة رضى الله عنه لو علم الملوك لذة ما نحن فيه من العلم لقاتلونا عليها بالسيوف وينبغي للمستفيد ان لا يواجه استاذه بخلاف قوله وان كان هو الصواب رعاية للادب معه وان يكون فى حال البحث معه على غاية من السكينة والوقار والخضوع وان يحسن ظنه به لينتفع بما يستفيده وان يكون ضابطا لما يتعلمه مقيدا له فلا يتكل على حفظه فان الانسان محل النسيان وقيل قيدوا العلم بالكتابة وقال بعضهم فى الاجتهاد وتكرار الدراسة لما حفظه

خليلى لا تكسل ولا تهمل الدرسا * ولا تعدطوعا فى تكاسلها النفسا

ولا تترك التكرار فيما حفظته * فمن يترك التكرار لا بد أن ينسى

وأنشد بعض أهل الادب لابى بكر الخوارزمى

لا تصحب الكسلان فى حاجاته * كم صالح بفساد آخر يفسد

عدوى البليد الى الجليد سريعة * والجمر يوضع فى الرماد فيخمد

وكان أبو حفص الكبير رحمه الله يكتسب و يكرر واذا كان لا بد لطالب العلم من الكسب لنفقة العيال فليكتسب وليذاكر ولا يكسل وليس الفقر لصحيح العقل والبدن مانعا من ترك التعلم فانه لا يكون أفقر من الامام أبى يوسف رحمه الله ولم يمنعه ذلك من التفقه فمن كان له مال كثير فنعم المال الصالح وفى الحكمة من استغنى بمال الناس وليذاكر العلم

مطلب انه اذا كان لطالب العلم بد من الكسب فليكتسب

افتقر والعالم اذا كان طماعا لم يبق حرمة العلم ولا يقول بالحق ولهذا كان يتعوذ صاحب الشرع الشريف صلى الله عليه وسلم منه ويقول أعوذ بالله من طمع يدنى الى طبع وقيل

العلم بالتكرار والتأنى * يدرك لا بالترك والتمنى

ولا بد للمستفيد من المذاكرة والمطارحة والمناظرة مشاورة فينبغى أن تكون بالانصاف والتأنى والتأمل ويحترز عن الشغب والغضب والمماراة فان كانت نيته الزام الخصم وقهره فلا يحل ذلك وانما يحل ذلك لاظهار الحق والتمويه والحيلة فيها لا تجوز الا اذا كان الخصم متعنتا لا طالبا للحق

وقال صلى الله عليه وسلم من طلب العلم ليمارى به السفهاء أو يكاثر به العلماء أو يصرف به وجوه الناس اليه فليتبوأ مقعده من النار (أى فليتخذ لنفسه منزلا) يقال تبوأ الرجل المكان اذا اتخذه مسكنا وهو أمر بمعنى الخبر أو بمعنى التهديد أو بمعنى التهكم أو دعاء على فاعل ذلك أى بوأه الله ذلك ومن حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا تتعلم العلم لثلاث ولا تتركه لثلاث لا تتعلم العلم لتمارى أى تجادل به الناس ولا تباهيهم به بل تتعلمه ابتغاء وجه الله والتفقه فى دينه ولا تتركه لثلاث لا تتركه حياء فى طلبه ولا زهادة فيه ولا رضاء بجهالة بل ينبغى للانسان أن يتعلم العلم على قدر الضرورة والامكان ونهى صلى الله عليه وسلم عن مجادلة اليهود والنصارى وقال دلوهم فى دينهم بترك مجادلتكم إياهم يعنى صلى الله عليه وسلم انك ان جادلتهم وكذبتهم فانهم يكذبونك وفائدة المطارحة والمناظرة أقوى من فائدة مجرد التكرار لان فيه تكرارا وزيادة وقيل مطارحة ساعة خير من تكرار شهر ولكن اذا كانت مع منصف سليم الطبيعة واياك والمذاكرة مع مشغب غير مستقيم الطبع فان الطبيعة مسرية والاخلاق معدية والمجاورة مؤثرة وتفقه الامام أبو حنيفة رضى الله عنه بكثرة المطارحة والمذاكرة فى دكانه حين كان بزازا وبهذا تعلم ان تحصيل العلم والفقه يجتمع مع التكسب قيل لابن عباس رضى الله عنهما بم أدركت العلم قال بلسان سؤول وقلب عقول وقيل العلم مزرعة والمطالعة مادة والمذاكرة ثمر ولكل شئ آفة وآفة العلم النسيان وسبب النسيان العصيان وقال الامام الشافعى رضى الله عنه لا تخرج من علم الى غيره حتى تحكمه فان ازدحام الكلام فى السمع مضلة فى الفهم ولكن يبدأ منه بالاهم قال عبد الله بن قتيبة من أراد أن يكون عالما فليلزم فنا واحدا ومن أراد أن يكون أديبا فليتسع فى العلوم وهذا من احسن

مطلب ان فائدة المطارحة والمناظرة أقوى من فائدة مجرد التكرار

مطلب انه لا ينبغى للانسان أن يخرج من علم الى غيره حتى يحكمه

أحسن ما نتخذه مذهب والى محاسنه نميل ونذهب وقيل لا تدع الامر اذا أقبل وتطلبه اذا أدبر وقيل

اغتنم يومك هذا * انما يومك ضيف
وانتهب فرصة عمر * حاضر فالوقت سيف

وقد كان الامام الشافعى رضى الله عنه يجالس الصوفية فقيل له فى بعض الايام ما استفدت من هؤلاء يا إمام قال استفدت منهم قولهم الوقت سيف ان لم تقطعه قطعك وقولهم ان لم تشغل نفسك بالخير شغلتك بالسوء والضير وقيل عليك بالحفظ دون الجمع للكتب فان للكتب آفات تفرقها والماء يغرقها والفار يخرقها والنار تحرقها واللص يسرقها وقيل حفظ سطرين خير من حمل وقرين وفهم حرفين خير من حفظ سطرين فاذا تهاون فى الفهم ولم يجتهد مرة أو مرتين و يعتاد ذلك فلا يفهم الا اليسير وقال الامام مالك أهل المدينة ليس لهم كتب مات ابن المسيب والقاسم ولم يتركا كتابا ولم يكن عند ابن شهاب الا كتاب فيه نسب قومه

وقد كان أهل العصر الاول يتكلون على الحفظ فكانوا لا يدونون الحديث ولا يصنفون اتكالا على حفظهم ولذلك قال الحافظ ابن حجر رحمه الله قال العلماء كره جماعة من الصحابة والتابعين كتابة الحديث واستحبوا أن يؤخذ عنهم حفظا كما أخذوه حفظا لكن لما قصرت الهمم وخشيت الائمة من ضياع العلم بموت العلماء دونوه بأمر عمر بن عبد العزيز لما كتب الى الآفاق انظر واحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه وأول من دون الحديث ابن شهاب الزهرى على رأس المائة بأمر عمر بن عبد العزيز ثم كثر التدوين والتصنيف وحصل بذلك خير كثير وحينئذ فيطلب تدوين الحديث النبوى وتخريجه خوفا من ضياعه

مطلب ان أهل العصر الاول كانوا يتكلون على الحفظ فكانوا لا يدونون الحديث ولا يصنفونه اتكالا على حفظهم

وقال ابن الجوزى الامل مذموم الا للعلماء فلولا أملهم لما صنفوا ولا ألفوا وفى الامل سر لطيف لانه لولا الامل ما تهنى أحد بعيش ولا طابت نفسه أن يشرع فى عمل من أعمال الدنيا وانما المذموم منه الاسترسال فيه وعدم الاستعداد لامر الآخرة وليحذر كل الحذر من استفادة العلوم من الكتب وأخذها منها من غير استاذ يوقفه على معانيها و يبين له مبانيها لئلا يكون هناك قول ضعيف ولئلا يقع فى التصحيف والتحريف وقال بعضهم آلات العلم أربعة عقل رجاح ومرشد فتاح وكتب صحاح ومداد و إلحاح وهذا فى غير الحديث أما الحديث فيجوز نقله من الكتب المعتمدة للعمل والاحتجاج به

مطلب ان الامل مذموم الا للعلماء

كما هو مقرر فى مصطلح الحديث فقد قال الطبرى رحمه الله تعالى اذا وجدنا حديثا فى نسخة صحيحة جاز لنا روايته والحجة به وحكى أبو اسحاق الاجماع على جواز النقل من الكتب المعتمدة ولا يشترط اتصال السند الى مصنفها

ومما يروى ان عبد الملك بن مروان دخل المسجد الحرام فرأى حلق العلم والذكر فأعجب بها وكلما أشار الى حلقة وقال لمن هذه قيل لفلان وكلهم من أبناء الفرس الذين من اليمن المعبر عنهم بالابناء فرجع الى منزله وبعث الى أحياء قريش فجمعهم وقال لهم كا فيما قد علمتم أى جاهلية فمنّ الله علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم بهذا الدين حتى غلبكم أبناء الفرس فلم يردّ عليه أحد الا على بن الحسين رضى الله عنهما فانه قال ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ثم قال عبد الملك ما رأيت كهذا الحى من الفرس ملكوا من أوّل الدهر فلم يحتاجوا الينا وملكنا فما استغنينا عنهم ساعة وفى اللباب لابن الاثير الابناء يقال فى التعريف فلان من الابناء والنسبة اليه أبناوى وكل من ولد باليمن من أبناء الفرس الذين وجههم كسرى مع سيف بن ذى يزن وليس من العرب يسمونه الابناء وممن نسب بهذه النسبة طاوس بن كيسان ووهب بن منبه بن كامل اليمانى أبو عبد الله الابناوى بفتح الهمزة وسكون الموحدة بعدها نون ثقة من الثالثة وقال صلى الله عليه وسلم يا أيها الناس انما العلم بالتعلم وقال صلى الله عليه وسلم لعلى رضى الله عنه لان يهدى الله بك رجلا خير لك من حمر النعم وقيل تعلموا قبل ان تسوّدوا أى تصيروا سادة منظورا اليكم فلا يمكنكم التعلم وقال صلى الله عليه وسلم اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وفراغك قبل شغلك وغناك قبل فقرك وحياتك قبل موتك

وقد ذكر شيخ الاسلام زكريا الانصارى الشافعى رضى الله عنه فى رسالة له مشتملة على بيان تعلم العلوم وتعليمها وحصر أنواعها وبيان حدودها وفوائدها وسماها باللؤلؤ النظيم فى شروط التعلم والتعليم لا بأس بذكرها هنا للانتفاع بها فقال أما شروط تعلمها وتعليمها فاثنا عشر أحدها ان يقصد به ما وضع ذلك العلم له فلا يقصد به غير ذلك العلم كاكتساب مال أو جاه أو مغالبة خصم أو مكابرة ثانيها ان يقصد العلم الذى تقبله طباعه اذ ليس كل أحد يصلح لتعليم العلوم ولا كل من يصلح لتعلمها يصلح لجميعها بل كل ميسر لما خلق له ثالثها ان يعلم غاية ذلك العلم ليكون على ثقة من أمره رابعها ان يستوعب ذلك العلم من أوّله الى آخره تصوّرا وتصديقا خامسها أن يقصد فيه الكتب الجيدة

مطلب بيان تعلم العلوم وتعليمها وحصر أنواعها وبيان حدودها وفوائدها

الجيدة المستوعبة لجميع الفن سادسها أن يقرأ على شيخ مرشد أمين ناصح ولا يستبد بذلك بنفسه وذكائه سابعها أن يذاكر به الأقران والأنظار طلبا للتحقيق لا للمغالبة بل للمعاونة على الافادة والاستفادة ثامنها انه اذا حصل ذلك العلم لا يضيعه باهماله ولا يمنعه مستحقه (الخبر من علم علما وكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار ولا يؤتيه غير مستحقه) وان يثبت ما استنبطه فكره مما لم يسبق اليه لمن أتى بعده كما فعل من قبله فمواهب الله سبحانه وتعالى لا تقف على أحد تاسعها أن لا يعتقد في علم انه حصل منه مقدارا لا يمكن الزيادة عليه فذلك نقص وحرمان عاشرها أن يعلم ان لكل علم حدا فلا يتجاوزه ولا ينقص عنه حادى عشرها أن لا يدخل علما في علم آخر لا في تعلم ولا في مناظرة لان ذلك يشوش الفكر ثانى عشرها أن يراعى كل من المعلم والمتعلم حق الآخر خصوصا الاول لان معلمه كالاب بل أعظم لان أباه قد أخرجه الى دار الفناء ومعلمه دله على دار البقاء واعلم ان للاشتغال بالعلم آفات كثيرة فمنها الوثوق بالزمان المستقبل فيترك التعلم حالا اذ التعلم والتعليم في اليوم أفضل من غد وأفضل منه أمسه والانسان كلما كبر كثرت عوائقه ومنها الوثوق بالذكاء فكثير من فاته العلم بركونه الى ذكائه وتسويفه أيام الاشتغال ومنها التنقل من علم قبل اتقانه الى آخر ومن معلم الى آخر قبل اتقان ما بدأ به عليه فانه هدم لما قد بنى ومنها طلب الدنيا والتردد على أهلها والوقوف على أبوابهم ومنها ولاية المناصب فانها شاغلة مانعة كما ان ضيق الحال مانع أيضا

مطلب حصر أنواع العلوم وهى إما شرعية وإما أدبية وإما رياضية وإما عقلية

وأما حصر أنواع العلوم فهى إما شرعية وهى ثلاثة الفقه والتفسير والحديث الشريف وإما أدبية وهى أربعة عشر علما علم اللغة وعلم الاشتقاق وعلم التصريف وعلم النحو وعلم المعانى وعلم البيان وعلم البديع وعلم العروض وعلم القوافى وعلم قرض الشعر وعلم انشاء النثر وعلم الكتابة وعلم القراآت وعلم المحاضرات ومنه علم التواريخ وإما رياضية وهى عشرة علم التصوف وعلم الهندسة وعلم الهيئة وعلم التعليمى وعلم الحساب وعلم الجبر وعلم الموسيقى وعلم السياسة وعلم الاخلاق وعلم تدبير المنزل وإما عقلية وهى ما عدا ذلك كالمنطق والجدل وأصول الفقه وأصول الدين والعلم الالهى والعلم الطبيعى والطب وعلم الميقات وعلم النواميس والفلسفة والكيمياء وأما بيان حدودها وفوائدها فعلم الفقه علم بحكم شرعى مكتسب من دليل تفصيلى وفائدته امتثال أوامر الله ونواهيه وعلم التفسير علم يعرف به معانى كلام الله تعالى من الاوامر والنواهى وغيرهما وفائدته الاطلاع على عجائب كلامه سبحانه وتعالى وامتثال أوامره ونواهيه وعلم الحديث رواية

علم يشتمل على نقل ما أضيف الى النبي صلى الله عليه وسلم قولا أو فعلا أو تقريرا أو صفة وفائدته الاحتراز عن الخطأ في نقل ذلك وعلم الحديث دراية علم يعرف به حال الراوي والمروي من حيث القبول والرد وفائدته معرفة ما يقبل وما يرد من ذلك وعلم اللغة علم يعرف به أبنية الكلم ويقال علم ينقل الالفاظ الدالة على المعاني المفردة وفائدته الاحاطة بها لمخاطبة أهل اللسان والتمكن من انشاء الخطب والرسائل وعلم الاشتقاق علم يعرف به أصل الكلام وفرعه وفائدته التمييز بين المشتق والمشتق منه وعلم التصريف علم بأصول يعرف بها أحوال أبنية الكلم التي ليست باعراب وفائدته الاحتراز عن الخطأ في اللسان والتمكن من الفصاحة والبلاغة وعلم النحو علم بأصول يعرف بها أحوال أواخر الكلم اعرابا وبناء وغايته الاحتراز عن الخطأ في اللسان وعلم المعاني علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال وفائدته فهم الخطاب وانشاء الجواب بحسب المقاصد والأغراض جاريا على قوانين اللغة في التركيب وعلم البيان علم يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه وفائدته التمكن من مخاطبة أهل اللسان بذلك وعلم البديع علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة وفائدته معرفة أحوال الشعر وما يدخل فيه من المحسنات وغيرها وعلم العروض علم بأصول يعرف بها صحيح أوزان الشعر وفاسدها وفائدته لذي الطبع السليم ان يأمن اختلاط بعض البحور ببعضها وان يعلم ان الشعر المأتي به أجازته العرب أو لم تجزه ولغيره هدايته الى الفرق بين الاوزان الصحيحة والفاسدة في النظم وعلم القوافي علم يعرف به أحوال أواخر الابيات الشعرية من حركة وسكون ولزوم وجواز وفصيح وقبيح وفائدته الاحتراز عن الخطأ في القوافي وعلم قريض الشعر علم يعرف به كيفية النظم وترتيبه وفائدته تعرف كيفية انشاء الموزون السالم من العيوب وعلم انشاء النثر علم يعرف به كيفية انشائه وفائدته الاحتراز في الانشاء وعلم الكتابة علم يعرف به أحوال الحروف في وضعها وكيفية ترتيبها خطا وفائدته الاحتراز عن الخطأ في الكتابة وعلم القراآت علم بأصول يعرف بها أحوال ألفاظ القرآن الشريف من حيث النطق بها وفائدته معرفة ما يقرأ به كل من أئمة القراء والقرآن الشريف كلام الله تعالى المنزل على نبيه المكتوب بين دفتي المصحف وفائدته سعادة الدارين وعلم التصوف علم بأصول يعرف بها صلاح القلب وسائر الحواس وفائدته صلاح أحوال الانسان وعلم الهندسة علم يعرف به خواص المقادير الخط

والسطح

والسطح والجسم التعليمي ولواحقها وأوضاعها وفائدته معرفة كمية مقادير الاشياء وعلم الهيئة علم يعرف به الاجرام البسيطة من حيث كمياتها وكيفياتها وأوضاعها وحركاتها اللازمة لها وفائدته معرفة أعيان تلك الاجرام وكلياتها وكمية كل مقدار منها ومايلحقها والعلم التعليمي مايبحث فيه عن الاشياء صورة ومادة كالمقادير والاشكال والحركات وفائدته معرفة أعيان تلك الاشياء وكلياتها وكمية كل مقدار منها ومايلحقها وعلم الحساب علم بأصول يتوصل بها الى استخراج المجهولات العددية وفائدته صيرورة ذلك العدد عن الحيثية المذكورة معلوما باستعمال قوانينه وعلم الجبر علم بأصول يعرف بها استخراج كمية المجهول بمقدمة معلومة وفائدته صيرورة تلك المقادير المجهولة معلومة باستعمال قوانينها وعلم الموسيقى علم بأصول يعرف بها النغم وكيفية تأليف الالحان بعضها من بعض وفائدته بسط الارواح وقبضها ولهذا يستعمل في الافراح والحروب وعلاج المرضى وعلم السياسة علم بأصول يعرف بها أنواع الرياسات والسياسات المدنية الفاصلة بين الخصوم والانصاف بينهم وعلم الاخلاق علم يعرف به أنواع الفضائل وكيفية اكتسابها وأنواع الرذائل وكيفية اجتنابها وفائدته الاتصاف بأنواع الفضائل واجتناب اضدادها وعلم تدبير المنزل علم بأصول يعرف بها الاحوال المشتركة بين الرجل وزوجته وولده وخدمه وفائدته انتظام أحوال الانسان في منزله ليتمكن من كسب السعادة العاجلة والآجلة وعلم المنطق علم بأصول تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر وفائدته الاحتراز عن الخطأ في الفكر وعلم الجدل علم بأصول يعرف بها كيفية الادلة ودفع الشبه عنها وفائدته تحرير معرفة المباحث الفقهية والاصولية لتشحيذ الفكر وعلم أصول الفقه أدلة الفقه الاجمالية وطرق استفادة جزئياتها وحال مستفيدها وقيل معرفتها وفائدتها نصب الادلة على مدلولها ومعرفة كيفية الاستنباط منها وعلم أصول الدين علم بالعقائد الدينية عن الادلة اليقينية وفائدته معرفة ما يطلب اعتقاده والعلم الالهي علم بأصول يعرف بها أحوال الموجودات ومايعرض لها وفائدته ظهور المعتقدات الخفية والاعتقادات الباطلة والعلم الطبيعي علم يبحث فيه عن أحوال الجسم المحسوس من حيث انه معرض للتغيير وفائدته معرفة الاجسام الطبيعية البسيطة والمركبة وأحوالها ويفارق علم الكلام بأنه مبني على أصول الفلاسفة من أن الواحد لا يصدر عنه الا الواحد وان الواحد لا يكون قابلا وفاعلا معا وان الارادة ممتنعة وغير ذلك وأما علم الكلام فبني على أصول الاسلام من كتاب الله تعالى وسنة رسوله والاجماع

الذى لا يخالفهما وعلم الطب علم يعرف به أحوال بدن الانسان من صحة ومرض ومزاج واختلاط وغيرها مع أسبابها من المآكل وغيرها وفائدته استعمال أسباب الصحة كمية والعلم بها وعلم الميقات علم يعرف به كمية الأيام والليالى وأحوالها وفائدته معرفة أوقات العبادات وعلم النواميس علم يعرف به حقيقة النبوة وأحوالها ووجه الحاجة اليها والناموس يقال للوحى وللملك النازل وللسنة وفائدته بيان ثبوت النبوة وحاجة الانسان اليها فى معاشه ومعاده وعلم الفلسفة ويسمى عند بعضهم علم الاخلاق علم بأصول يعرف بها حقائق الاشياء والعمل بما هو أصلح وفائدته العمل بما اقتضاه العقل من حسن وقبيح ويتفرع على ذلك علوم أخر كعلم الارثماطيق وعلم المساحة وعلم البيطرة وعلم الفلاحة وعلم السحر والطلسمات وعلم الفراسة وعلم تعبير الرؤيا وعلم أحكام النجوم فعلم الارثماطيق علم يعرف به أنواع العدد وأحواله وكيفية تولد بعضه من بعض أى من حيث انه زوج أوفرد أومن زوج زوج أومن زوج فرد ونحوها وفائدته ارتياض الذهن بالنظر فى المجردات فى المادة ولواحقها وعلم المساحة استخراج مقدار أرض معلومة بنسبة ذراع أوغيره وفائدته العلم بمقدارها وعلم البيطرة علم بأصول يعرف بها أحوال الدواب من صحة أومرض وفائدته استعمال ما يصلح لها وعلم الفلاحة معرفة أحوال النبات من حيث تنميته بالسقى والعلاج وفائدته معرفة حاله من نمو أوغيره وعلم السحر والطلسمات علم بكيفية استعدادات تقتدر بها النفوس البشرية على ظهور التأثير فى عالم العناصر إما بلا معين أو بمعين سماوى والاول السحر والثانى الطلسمات وفائدتها تغيير الشئ من حال الى حال وعلم الفراسة معاينة المغيبات بالانوار الربانية بسبب قرب آثار الصور وفائدته الاخبار بما ظهر بالتفرس وعلم تعبير الرؤيا علم يعرف به الاستدلال من التخيلات الحلمية على ما شاهدته النفس حال النوم من عالم الغيب وحكته القوة المخيلة بمثال يدل عليه من عالم الغيب والشهادة وفائدته الاخبار بما ظهر بالاستدلال بما ذكر وعلم أحكام النجوم علم يعرف به الاستدلال بالاشكال الفلكية على الحوادث السفلية وفائدته العمل بما ظهر بالاستدلال بما ذكر واعلم ان بعض العلوم المذكورة قد يمكن دخوله فى بعض كعلم الفرائض فانه وان كان داخلا فى علم الفقه فقد أفرد على حدته وكعلم الارثماطيق فانه وان كان داخلا فى العلم التعليمى فقد أفرد على حدته ~~~ انتهى ما قاله العلامة زكريا الانصارى فى رسالته

وقال

وقال بعضهم تنحصر العلوم الرياضية فى أربعة الهندسة والهيئة والموسيقى والحساب
وقال بعضهم

ان علم الحساب علم رفيع * فيه عون اذ تشترى وتبيع
لم يضع قط درهم بحساب * وألوف بلا حساب تضيع

وقيل

ان الحساب من العلوم جليل * وعلى دقيقات الامور دليل
فاحرص على علم الحساب فانه * برياضة المتصعبين كفيل
لولا الحساب لعلم كل فريضة * لم يعلم التحريم والتحليل

وقال بعضهم العلم علمان علم اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم وعلم القلب فذلك العلم النافع والعلم النافع هو الذى يتبعه العمل وقال بعضهم ان الحكمة هى كلما دعت الى مكرمة أو نهت عن قبيح وهى ما قال فيها عليه الصلاة والسلام الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها وهى أيضا المرادة بقوله تعالى ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا فسرها العلماء بتفاسير كثيرة ترجع الى العلم النافع ولله در من قال

مطلب ان العلم علمان علم اللسان وعلم القلب وتعريف الحكمة

انما النفس كالزجاجة والعلم * سراج وحكمة الله زيت
فاذا أشرقت فانك حى * واذا أظلمت فانك ميت

وقيل العلم ان قارنته الخشية فلك والا فعليك وقيل الخير كثير وقليل فاعله

وأفضل العلوم علم دين الله وشرائعه فان به حفظ الايمان والاسلام اللذين هما من أجل ودائعه وأفضله علم العقائد الدينية فان به يهتدى المكلف الى المسالك السنية ويرتقى الى المراتب السنية والعلوم الواردة فى الكتاب والسنة منها ما يتعلق بافعال المكلفين ومنها ما يتعلق بأحوال المبدأ والمعاد ومنها ما يتعلق بالاخلاق من الزهد والصبر والرضى وحضور القلب فى العبادات ونحو ذلك من مكارم الاخلاق والاول منها اما أن يتعلق بافعال المكلفين بطريق القصص والاخبار ويسمى علم الوعظ والتذكير واما بطريق شرع الاحكام من الاقتضاء والتخيير فاما ان يكون البحث عنها بتمهيد قواعد كلية يتوصل بها الى استنباط الاحكام ويسمى هذا بعلم أصول الفقه أو باستنباط الاحكام الجزئية من أدلتها التفصيلية ويسمى بعلم الفقه وعلم الشريعة وعلم المذهب واما الثانى وهو المتعلق بالمبدأ والمعاد أى باحوالهما فان كان لاثبات العقائد الدينية فقط فيسمى بعلم الاعتقادات وعلم أصول الدين وان اعتبر مع ذلك الالزام على المكابرين فى الحق والمعاندين فى الدين يخص باسم علم الكلام وأما الثالث وهو المتعلق بالاخلاق

الباطنة فيسمى بعلم التصوف وعلم الرياضة ومكارم الاخلاق فهذه العلوم الستة أعنى علم التذكير والاصول والفقه والكلام والتصوف وهى العلوم الدينية التى يجب تحصيلها على كل مكلف الذى تضمنه قوله صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ومن أشكل عليه علم من العلوم فعليه ان يرجع فيه الى أهله فمن أشكل عليه شئ من تعلق الفقه رجع الى أئمة الفقه ومن أشكل عليه شئ من علوم الاحوال والرياضيات ودقائق الورع ومقامات المتوكلين يرجع الى أئمة الصوفية

مطلب انه يجب على طائفة من المسلمين ان يتفقهوا فى الدين

قال بعضهم ويجب على طائفة من الامة ان يتفقهوا فى الدين ليكونوا قدوة للمسلمين وحفظا للشرع من الضياع فاذا قامت به هذه الطائفة سقط فرض الكفاية عن غيرها والمراد بالدين دين الاسلام وقد جاء صلى الله عليه وسلم بالهدى والنور ومن ذلك ماشرعه الله على لسانه من التحليل والتحريم والوصايا والآداب وسير الاولين والآخرين وماقص من أحسن القصص فأين كان صلى الله عليه وسلم من الجانب الغربى اذ قضى الله الى موسى الامر قال الله عز وجل وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الامر ولما انقلبت المصاحبة وولى موسى عليه السلام هاربا وقوله تعالى وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وكانت الاخبار الماضية وهى غيب لا يعلمها الا الله عز وجل ثم من كان فيها فأخبره وعليه السلام بها وشهدت العلماء منهم بذلك كما قال عز وجل وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله أى انه لم يختلف خبره صلى الله عليه وسلم عن خبر التوراة والانجيل فكان هذا أمرا واضحا فى إعلام الله له بما كان من ذلك الغيب وكذلك ما كان غائبا عن أهل وقته مما علم به كقوله عز وجل واذ أسر النبى الى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فأحاط بالغيب من الوجوه الثلاثة الماضى كقوله اذ قضينا والمستقبل كقوله سيغلبون والحاضر كقوله نبأنى العليم الخبير فأحاط بالغيب من جميع جهاته

ومما استدل به الاكثرون على أفضلية الفقه على غيره من العلوم بعد معرفة الله تعالى قوله تعالى فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون لما كان نفر جميع المؤمنين لطلب التفقه غير ممكن قال الله تعالى فلولا أى فهلا نفر من كل فرقة منهم طائفة أى من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم لتحصل بهم الكفاية ليتفقهوا فى الدين ليتكلفوا الفقاهة فيه ويتحملوا المشاق لاخذها وتحصيلها ولينذروا قومهم ليجعلوا غرضهم ومرف همتهم فى التفقه

انذار

انذارقومهم وارشادهم ونصحهم فأوجب تعالى النفر فى طلب التفقه على البعض دون الكل لعدم امكانه ثم ينصرفون بعد التفقه راجعين الى أوطانهم فيعلمون غيرهم الذين لم ينفروا من أوطانهم وقد أثنى الله تعالى عليهم بأن جعلهم منذرين وقيل

فلولا العلم ماشرفت أناس * ولاعرفوا الحلال من الحرام
وأهل الله أهل العلم حقا * بما حفظوه من حسن الكلام

فالفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يرخص لهم فى معاصى الله ولم يؤمنهم عذاب الله ولم يدع القرآن رغبة عنه الى غيره

وقد جرت عادة الله تعالى فى خلقه على ممر الاعوام والدهور انه لايخلو زمن من الازمنة ولا قرن من القرون عن أئمة من العلماء الاعلام لاقامة شرائع الاسلام وتقرير الحدود والاحكام وأنه اذا انقرضت طائفة خلفتها أخرى ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتزال طائفة من أمتى قائمين بأمرى متظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله فسره البخارى بطائفة أهل العلم فالكتاب والسنة موجودان بين المسلمين ان شاء الله تعالى الى يوم الدين

وقد انتهى تدوين فروع الفقه الى أربعة كلهم عدول عدلهم العلماء وأخذوا عنهم أتباعهم الاحكام التى اجتهدوا فيها عن الصحابة والتابعين والعلماء مما استقر ذلك عمن ذكر وهؤلاء الاربعة هم الامام أبو حنيفة النعمان والامام مالك بن أنس والامام محمد الشافعى ابن ادريس والامام أحمد بن حنبل ولكل واحد من هؤلاء الاربعة أتباع قلدوا متبوعهم فيما ذكره فكل مجتهد وكل مقلد لمجتهد فيما صح عنه على خير حيث أراد الله به الخير وفقهه فى الدين وأما اختلاف الائمة فى بعض المجتهدات فللرحمة العامة المبعوث بها صلى الله عليه وسلم قال تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ويحسن هنا قول الشيخ الجعبرى رحمه الله فى الائمة حيث قال

بالشافعى بمحمد وبأحمد * وبمالك وابى حنيفة نقتدى
علماء دين الله جل جلاله * أنصار شرع الهاشمى محمد
الخلف منهم فى المذاهب رحمة * وتفسح فى الدين فاسمع واقتد
ما كان خلفهم عنادا فاستمع * قولى ودع قول اللئيم المعتدى
كل روى عن أحمد ماقد روى * عن ربه فالكل هاد مهتدى
أخذوا بقول الله جل جلاله * حقا وبالخبر الصحيح المرشد

نقدوا الصحيح من السقيم وبينوا * نهج الصواب لاهل سنة أحمد
فهم بدا نهج الهداية ظاهرا * فاسلكه ترشد للصواب وتسعد
فالله يرحمهم ويرضى عنهم * أهل الهداية والمقال الارشد

مطلب ان العلماء ورثة الانبياء وان العلم أفضل العبادات والعلماء أفضل الناس

وقال صلى الله عليه وسلم العلماء ورثة الانبياء وقال صلى الله عليه وسلم ان الانبياء لم يورثوا درهما ولا دينارا انما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر فالعلم أفضل العبادات وأشرفها وأكملها وأنفرها والعلماء أفضل الناس وأرفعهم قدرا وأحسنهم ذكرا والاحاديث والآثار المرغبة فى افادة العلم واستفادته كثيرة وكيف لا وهو أولى ماصرفت الهمة فى تحصيله وأعلى مادأب المكلف فى معرفة دليله ومدلوله وهو وان تنوع فرجعه الى علم ربوبية وعلم عبودية ومعرفة الله أولى بالتقسيم وهى السبب الاعلى والطريق المستقيم وروى البخارى ومسلم من حديث معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين قال الامام النووى رحمه الله وهذا من أقوى الادلة على الحكم على طالب العلم بأن الله تعالى أراده واصطفاه لان ارادة الله بالخير للانسان مغيبة عنا وهذا فيمن طلب العلم مريدا به وجه الله تعالى وأما اذا كان طلب العلم لغرض دنيوى كمال أو رياسة أو منصب أو جاه أو شهرة أو نحو ذلك فهو مذموم وقد قال تعالى من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب وقال صلى الله عليه وسلم من تعلم علما يريد به عرضا (وهو بالعين المهملة وفتح الراء متاع الدنيا وحطامها) من الدنيا لم يرح رائحة الجنة أى لم يجد ريحها أو لم يشمه وقوله لم يرح بفتح الياء والراء أصله يراح أى وجد الريح وحكى بعضهم ضم أوله وكسر الراء والاول أجود وعليه الاكثر وحكى ابن الجوزى ثالثة وهى بفتح أوله وكسر ثانيه من راح يريح وعبارة النهاية شاملة للغات الثلاث ونصها راح يريح وراح يراح وأراح يريح اذا وجد رائحة الشئ وعنه صلى الله عليه وسلم اذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قيل وما رياض الجنة يارسول الله قال حلق العلم وروى عن أبى ذر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياأباذر لان تغدو فتعلم آية من كتاب الله تعالى خير لك من أن تصلى مائة ركعة ولان تغدو فتعلم بابا من العلم عمل به أو لم يعمل به خير لك من أن تصلى ألف ركعة قال بعضهم وهو نهاية فى التحريض على نشر العلم وتعليمه للناس والتصدى لتعلم أحكام الدين وبيان جزيل الثواب للعلم وان كان ما يعلمه قليلا وقوله

صلى

صلى الله عليه وسلم لا حسد الا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته (بفتح اللام) فى الخير ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها الناس وقوله صلى الله عليه وسلم يا أيها الناس انما العلم بالتعلم وقال بعضهم أول العلم الصمت والثانى الاستماع والثالث الحفظ والرابع العمل والخامس نشره

قال بعضهم والمنكر لما وردت به الشرائع هو الذى كل ذهنه ووقف فهمه بسبب طربه من النظر فى علم المعقولات ثم لا يتقنه ولا يحققه فتختبط عليه الامور وتلتبس ولا يهتدى بشئ ولهذا ترى كثيرا ممن ينسب الى المعقولات عارض كثيرا من الاحاديث والسنن الثابتة وأنكرها وقال بخلافها كالفلاسفة وغالب أهل المنطق من الاسلاميين وذلك انهم لم يتقنوا المعقول كل الاتقان فخبطوا وظنوا أن الاحاديث النبوية تخالف القواعد العقلية فلم يسعهم الاردها أو تحريفها ليوافق المعقول بزعمهم ولو أتقنوا المعقول لعلموا أن الشرع لم يرد ما يخالف العقل البتة فكانوا يطبقون الاحاديث على المعقولات انتهى وكما يجب علينا الايمان والتصديق بكل ما جاءت به الرسل وان لم نفهم حكمته فكذلك يجب علينا الايمان والتصديق بكلام الائمة وان لم نفهم علته حتى يأتينا عن الشارع ما يخالفه وقال بعضهم كل علم لا يؤيده الكتاب ولا السنة فهو ضلال

وقال صلى الله عليه وسلم الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام اذا فقهوا بضم القاف أى مارسوا الفقه وتعاطوه أى ان أصول بيوتهم الشريفة تعقب أمثالها وتسرى كرم اعراقها الى فروعها ولا يكون فيه خيار بمجرد ذلك فلا خيار فى الاسلام الا بالفضل والتقوى فمن اتفق له مع ذلك أصل جيد شريف الاعراق كملت فضيلته وربما فضل عن غيره والسائحون فى قوله تعالى هم طلاب العلم والسياحة أمر عظيم فى تكميل النفس لانه يلقى أفاضل مختلفين فيستفيد من كل واحد فائدة مخصوصة وقد يلغ الاكابر من الناس فيستحقر نفسه فى مقابلتهم وقد يصل الى المدارس الكبيرة فينتفع بها وقد يشاهد اختلاف أحوال أهل الدنيا بسبب ما خلق الله فى كل طرف من الاحوال الخاصة بهم فتتقوى معرفته فالرحلة الى العلماء والانتقال عن الاوطان فى طلب العلوم واكتساب الفضائل والفوائد هى أمر واجب أو مستحب وحينئذ فمن لم يجد معلما يعلمه فى بلده أو وطنه ما يحتاج اليه من أمر دينه ومعاشه فليرحل وجوبا فى الواجب وندبا فى المندوب اقتداء بالسلف الصالح والخلفاء التابعين فقد رحل موسى الى الخضر عليهما الصلاة والسلام للاستفادة منه ورحل جابر بن

مطلب شرف السياسة وان الرحلة الى العلماء والانتقال عن الاوطان فى طلب العلوم أمر واجب أو مستحب

عبد الله الانصاري رضي الله عنه مسيرة شهر الى أنس بن عبد الله في طلب حديث واحد ورحل عتبة بن الحارث من مكة الى المدينة في مسألة واحدة ولا يخفى ما يحصل للانسان في غربته من الفضائل العظيمة والخصال الجسيمة وقيل

تغرّب عن الاوطان في طلب العلى * وسافر ففي الاسفار خمس فوائد
تفرّج هم واكتساب معيشة * وعلم وآداب وصحبة ماجد
وان قيل في الاسفار ذل وغربة * وقطع فياف وارتكاب شدائد
فموت الفتى خير له من حياته * بدار هوان بين واش وحاسد

ومثل بعضهم في معنى ذلك بمثالين أحدهما ان الماء الصافي الزلال اذا استقر في محل واحد من غير مرور ودثئ عليه من ماء آخر فانه يصير متغيرا منتنا الثاني ان البدر المنير لولا غربته وانتقاله من منزلة الى منزلة لم يحصل له الكمال والشرف وما أحسن ما قيل في معنى ذلك

كثرة المكث في المنازل ذل * فاغتنم سفرة بها تتغنى
ماجرى الماء فهو عذب زلال * واذا طال مكثه يتعفن

ومعلوم ان الغربة للانسان أفضل من الاقامة في بلده والله تعالى لا يزال في عون عبده غائبا كان أو حاضرا مقيما أو مسافرا وكان صلى الله عليه وسلم يقول للمسافر أستودع الله دينك وأمانتك وجاءه رجل فقال اني أريد سفرا فقال له زودك الله التقوى قال زدني فقال وغفر ذنبك فقال زدني فقال ويسر لك الخير حيثما كنت وتوجهت وذكر بعض الفضلاء انه لما حج وأراد الانفصال كان قد صحبه أفاضل من أهل العلم بمكة فخرجوا معه لوداعه وقالوا له تريد أن ترجع لهذا الموضع قال نعم قال اقرأ عند آخر رؤيتك هذا الموضع من سورة القصص قوله تعالى ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد فانك ستعود ان شاء الله تعالى قال فقرأتها فعدت وقرأتها أيضا فعدت وقرأتها وأنا راج ان أعود ان شاء الله تعالى ويقوى ما قاله هذا الفاضل ما رواه أبو الفرج ابن الجوزى في كتابه المسمى بانبعاث الساكن الى أشرف المساكن ان النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج مهاجرا من مكة الى المدينة أدركته في الطريق الوحشة فنزل عليه جبريل وقال قل ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد ولا يبالي الشخص بما يقاسي في الغربة من الهموم والمذلة وكسر النفس والاهانة

والاهانة وغير ذلك حيث كان متمسكا بالتقوى وقد أنشد الشيخ أيوب الشامي في ذلك حيث قال

زعم الذين تشرقوا وتغربوا * ان الغريب وان أعز ذليل
فأجبتهم ان الغريب اذا اتقى * مهما أحل به الركاب جليل

ثم لا فرق بين ان يكون غنيا أو فقيرا مالكا أو مملوكا فلا تحتقر لما هو فيه من الفقر والفاقة بل اعتبر فضله دون عيبه فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم ان الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم فلا عبرة بالظواهر كما قيل

يرى ظاهري للناس في حسن صورة * ولى كبد ما في على آلة السبك
ولى ظاهر يبكي العدو وباطن * مليح لو يدري حقيقته يبكي

وقال صلى الله عليه وسلم شدائد الدنيا أربعة أولها غربة ولو كانت ساعة وثانيها دين ولو كان حبة وثالثها سفر ولو كان فرسخا ورابعها سؤال ولو كان مقدار خردلة وقال بعضهم السؤال مر لما يترتب عليه من بذل الوجه الذي لا يعدله شئ في الدنيا ولهذا قيل

واذا السؤال مع النوال وزنته * رجح السؤال وخف كل نوال

قال العلماء رضي الله عنهم ما وجب عليك عمله من عبادة وغيرها وجب عليك العلم به فورا عند إمكانه وقال ابن عباس رضي الله عنهما كمالك من علم الدين (أي الشريعة) ما لا يسعك جهله أي ما لا بد لك من معرفته في اقامة واجبات الدين ويكفي في ذلك معرفة أحكامها الظاهرة ولا تجب معرفة دقائقها فالظاهرة نحو تعلم كلمتي الشهادة وفهم معناهما بحيث يجزم اعتقاده بذلك ولو عن تقليد وتعلم واجبات الطهارة والصلاة وتعلم الصوم بان يعلم ان وقته من الفجر الى غروب الشمس وان الواجب فيه النية والامساك عن المفطرات من أكل ونحوه وان ذلك مستمر الى رؤية الهلال أو تمام العدة وتعلم واجبات ما لزمه من الزكاة وتعلم كيفية الحج اذا عزم على فعله بان يعلم أركانه وواجباته وغير ذلك من دقائقه وفي الاثر من عبد الله تعالى بالجهل كان ما يفسده أكثر مما يصلحه وروى الطبراني في الاوسط ما عبد الله بشئ أفضل من فقه في دين ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد وقوله ولفقيه واحد أي وجوده وبقاؤه فان الفقيه يأمر الناس بالطاعة ويدعوهم الى سبيل الرحمن فيصلون الى السعادة الباقية والدرجات

الراقية وكل ذلك مخالف لمراد الشيطان فيكون العالم أشد عليه وأبغض اليه بخلاف العابد والمراد من الالف هنا المبالغة فى الكثرة وقال عمر رضى الله تعالى عنه تفقهوا قبل ان تسودوا بضم المثناة وفتح السين وتشديد الواو أى تجعلوا سادة ومعناه تعلموا العلم قبل أن تصيروا سادة منظورا اليكم فتستحيوا أن تتعلموا بعد الكبر فتبقوا جهالا وقيل قبل ان تتزوجوا وتشتغلوا بالزواج عن العلم وروى أيضا من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وانما أنا قاسم والله يعطى فاذا رأى ان الله أقامه فى طلب العلم كان ذلك دليلا على ان الله تعالى أراد به خيرا

مطلب تعريف الدين

وعرف بعضهم الدين بانه وضع الهى سائق لذوى العقول السليمة باختيارهم المحمود الى ما هو خير لهم بالذات فقوله وضع إلهى أى أحكام وضعها المولى وشرعها وبينها قال تعالى شرع لكم فى الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم الآيات واما وصف نبينا بكونه شارعا فباعتبار نقلها عن الله ولذلك يقولون نبينا هو الشارع المجازى والله هو الشارع الحقيقى واحترز بذلك عن وضع الخلق كآلات النجارة والقزازة وغير ذلك فلا تسمى دينا وقولنا سائق أى باعث خرج به الاوضاع الالهية غير السائقة كانبات الارض وامطار السماء وقولنا لذوى العقول خرج به ما يسوقهم وغيرهم من الحيوانات كالاوضاع الطبيعية التى تهتدى بها الحيوانات لمنافعها كنسج العناكب واتخاذ النحل بيوتا ومضارها كاجتناب المهاوى والمهالك وقولنا باختيارهم خرج به الاوضاع الالهية الاتفاقية كالحمية والعصبية وقولنا المحمود احترازا عن الاختيارى المذموم كالانهماك فى الدنيا والشهوات فلا يسمى دينا وقولنا الى ما هو خير لهم بالذات كالانهماك فى خدمة الله وطاعته ومحبته فان ذلك خير ذاتى يترتب عليه الفوز الاكبر غدا واحترز بذلك عن الخير لا بالذات كالانهماك فى تصحيح الابدان بالحكمة والعقاقير وغير ذلك فلا يسمى دينا وأجمع من هذا التعريف وأظهر منه قوله تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة وسمى دينا للتدين به ويسمى ملة أيضا وصراطا مستقيما قال تعالى اهدنا الصراط المستقيم أى الدين القيم الذى لا اعوجاج فيه فمن سب الدين أو الملة أو المذهب فانه يكفر لانها عبارة عن الشرع الشريف الذى شرعه الله لنا قال تعالى ثم أوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين

وقد فضل الله تعالى هذه الامة على سائر الامم بما خصهم به من الايمان والحكم والعلوم الشرعية خصوصا علم الشريعة والحقيقة قال تعالى وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس الآية وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ومعنى الوسط فى الآية الجزء الذى بين الطرفين والمعنى انهم وسط لتوسطهم فى الدين فلم يغلوا كغلو النصارى ولم يقصروا كتقصير اليهود ولكنهم أهل وسط واعتدال وقال الطبرى الوسط فى كلام العرب الخيار يقولون فلان وسط فى قومه وواسط اذا أرادوا الرفع فى حسبه وقال الزمخشرى قيل للخيار وسط لان الاطراف يتسارع اليها الخلل والاوساط محفوظة وقال تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس وهذه الآية مما استدل بها على أفضلية نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على جميع المخلوقات اذ حاصلها الاخبار بان أمته أفضل الامم ولاشك ان خيرية الامم بحسب كمالهم فى الدين وذلك تابع لكمال نبيهم الذى يتبعونه فتفضيل الامة من حيث انها أمة تفضيل للرسول الذى هم أمته وروى عن عمر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ان الجنة حرمت على الانبياء كلهم حتى أدخلها وحرمت على الامم حتى تدخلها أمتى وفى حديث عبد الله ابن بريدة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون من هذه الامة وأدل دليل على عظم شرفهم ورفعة رتبتهم وكمال فخرهم عند ربهم قوله تعالى اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا

مطلب ان الدين ثلاثة أشياء

وأما الدين فثلاثة ايمان واسلام واحسان فالايمان لغة التصديق بمعنى اذعان الحكم وقبوله وهو افعال مأخوذ من الامن لان حقيقته الامن من التكذيب والمخالفة وشرعا تصديق القلب بما علم ضرورة مجىء الرسول به من عند الله ولا يعتبر الامع التلفظ بالشهادتين من القادر وهل النطق بهما شرط لاجراء أحكام المؤمنين فى الدنيا أو جزء من مسماه قولان ذهب جمهور المحققين الى أولهما وذهب كثير من الفقهاء الى ثانيهما ولكن من صدق بقلبه واخترمته المنية قبل اتساع وقت الاقرار به فهو مؤمن عند الله تعالى والاسلام أعمال الجوارح من الطاعات كالتلفظ بالشهادتين والصلاة والصوم والحج ولكن لا تعتبر الاعمال فى الخروج عن عهدة التكليف الامع الايمان والتصديق والاحسان ان تعبد الله كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك كما فى

خبر الصحيحين المشتمل على بيان الايمان بان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر كله خيره وشره

وجملة أحكام التكليف خمسة واجب ومندوب ومحظور (أي حرام) ومكروه ومباح فالواجب يرسم بانه الذي يثاب فاعله امتثالا كالصلاة ويعاقب بمشيئة الله تعالى تاركه ويرسم المندوب بانه الذي يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه ويرسم المحظور بانه الذي يعاقب بمشيئة الله تعالى فاعله ويثاب تاركه امتثالا ويرسم المكروه بانه الذي يثاب تاركه ولا يعاقب فاعله ويرسم المباح بانه الذي ليس في فعله وتركه ثواب ولا عقاب وشرائط التكليف ثلاثة أحدها البلوغ والعقل وهو صفة يميز بها الحسن والقبيح ومحله القلب فلا تكليف على صبي ومجنون لرفع القلم عنهما وثالثها بلوغ دعوته صلى الله عليه وسلم الى توحيد الله تعالى قال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا

مطلب جملة أحكام التكليف خمسة

وجملة أركان الايمان أي أجزائه التي تتركب منها ماهيته ثمانية يجب على المكلف أن يعلمها بأن يعتقد ويصدق بقلبه اعتقادا جازما ومعنى تصديقه العلم بأنه تعالى واجب الوجود بذاته وقدمه ووحدانيته وألوهيته وبصفاته وبرسله وبأن دين الاسلام حق وبأن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم صادقان فيما أخبرا به فلا يكفي الاعتقاد من غير علم اذ اعتقاد صدق الله ورسوله انما يصح بعد العلم بصدقهما في اخبارهما وانما يكون كذلك بعد العلم بأنه حي بعد العلم بأنه فاعل الى آخر الصفات الآتية الاولى ان الله حي لقوله تعالى لا اله الا هو الحي القيوم ولانه لا يجوز وجود شيء من الامور الموجودة من غير حي الثانية ان تعتقد أن الله تعالى عليم بالجزئيات والكليات لقوله تعالى أنزله بعلمه ولقوله تعالى عالم الغيب والشهادة ولأن الافعال المشاهدة لا تحصل من جاهل مع أن الجهل نقص الثالثة ان تعتقد ان الله قادر على كل شيء لقوله تعالى ان الله على كل شيء قدير الرابعة ان تعتقد انه متكلم بكلام نفسي أزلي قائم بذاته من غير حرف ولا صوت ولا انتهاء لقوله تعالى يريدون أن يبدلوا كلام الله ولقوله تعالى وكلم الله موسى تكليما فالكلام المشتمل على الحرف والصوت دال على الكلام النفسي القائم بالذات اتصف به المولى وأسمعه نبيه موسى بهذا الوصف من غير حرف ولا صوت والكلام صفة عبر عنها بالنظم المعروف المسمى بالقرآن غير مخلوق بمعنى انه موجود أبدا وأزلا مكتوب في مصاحفنا بأشكال الكتابة وصور الحروف الدالة عليه محفوظ في صدورنا مقروء بألسنتنا بحروفه الملفوظة المسموعة

مطلب أركان الايمان التي يجب على المكلف أن يعلمها

الخامسة ان تعتقد أنه تعالى سميع من غير جهة قرب ولا بعد سواء فى ذلك السر والجهر لا تختلف عليه الاصوات ودليل ذلك قوله تعالى قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وان عدم السمع نقص والسمع صفة أزلية تحيط بالمسموعات السادسة ان تعتقد أنه تعالى بصير من غير حدقة ولا جارحة والابصار صفة أزلية تحيط بالمبصرات فالله مبصر للاشياء بلا واسطة السابعة ان تعتقد أنه تعالى مريد لكل واقع فى العالم من خير وشر وطاعة ومعصية وان كان لا يرضى المعصية من خلقه والارادة صفة تخصص أحد طرفى الشئ من الفعل والترك بالوقوع ومذهب محققى أهل السنة أن الارادة والمشيئة غير الرضى والمحبة لقوله تعالى ولا يرضى لعباده الكفر مع قوله تعالى ولو شاء ربك مافعلوه الثامنة ان تعتقد أنه تعالى باق أى واجب الوجود لذاته بغير زمان ولا نهاية بمعنى انه لا يسبقه قدم ولا يلحقه عدم فهذه الصفات الثمانية للذات المقدس قديمة لانها قائمة بذاته لازمة له وقد نظمها بعضهم فى قوله

حياة وعلم قدرة وارادة * كلام وإبصار وسمع مع البقا
صفات لذات الله جل قديمة * لدى الاشعرى الحبر ذى العلم والتقى

وأعمها العلم والكلام لتعلقهما بكل واجب وجائز ومستحيل وتعلق القدرة والارادة بالممكنات دون الواجبات والمستحيلات ويتعلق البصر بجميع الموجودات قديمها كرؤيته تعالى ذاته وصفاته وحادثها كرؤيته تعالى ذوات خلقه وصفاتهم وكل صفة من صفاته تعالى متحدة لا تعدد فيها وأما قوله تعالى وسع كل شئ علما فمن مجاز التشبيه لان علمه تعالى واحد لا تعدد فيه ولا سعة وانما الاتساع من حيث كثرة التعلقات بالمعلومات فيجب تنزيهه تعالى عن كل نقيصة ذاتا وصفات إذ له الكمال المطلق فيهما وقد وصف نفسه بالأعلى لعلوه فيهما إذ ذاته أعلى الذوات قدرا وشرفا وكذا كل صفة له ووصف نفسه بالوحدانية لتوحده فلا شبيه له ولا نظير قديم لا يسبقه قدم أبدى لا يلحقه عدم لانه لا أول له ولا آخر له لانه تعالى خالق العالم ولانه لو لم يكن قديما لكان حادثا وهو باطل ولا تجوز عليه التغيرات ولا تحل به الحادثات تعالى عن الجهة والحلول والهبوط والصعود والقيام والقعود ليس بمتحرك ولا ساكن ولا منفصل عن العالم منزه عن الجسم والتحديد والتقسيم فلا دهر يخلقه ولا قهر يلحقه ولا شئ يستره ولا كشف يظهره ولا عد يجمعه ولا ضد يمنعه ولا حد يقطعه ولا كون يحصره ولا عون ينصره ولا يتقيد بزمان ولا يحويه مكان ولا يتصور فى الاوهام ولا يتكيف فى الاذهان

ولا يشغله شان عن شان ولا يطرأ عليه نسيان ولا يحمله شيء من مخلوقاته ولا يعزب عن علمه شيء من معلوماته لا تأخذه سنة ولا نوم ولا يتوجه عليه عتب ولا لوم تعالى عن الظلم والجور في شيء من أفعاله وعن التناقض في شيء من أقواله لا اعتراض عليه في تصرفه في مخلوقاته بما أراده في الازل من تقديراته منزه عن الاغراض في الافعال والاحكام أفعاله لا تعالل وكلماته لا تبدل لا يجب عليه شيء يثيب من يشاء بفضله ويعذب من يشاء بعدله وقال الامام الامام اللقاني

فان يثبنا فبمحض الفضل * وان يعذب فبمحض العدل
وقولهم ان الصلاح واجب * عليه زور ما عليه واجب
ألم يروا إيلامه الاطفالا * وشبهها فحاذر المحالا

له الافضال بالنعم على مستحق النعم لا قبح في شيء من أفعاله كلها حسنة خيرها وشرها نفعها وضرها قليلها وكثيرها لا حق لاحد عليه وله الحق على غيره له إيلام الاطفال والدواب يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض عليه ومن اعترض زاد شقاؤه واشتد بلاؤه وعظم عناؤه ليست الربوبية مقيدة بمصالح العبودية اذ لا حجر للعباد على ربهم حتى لا يفعل الا ما يصلحهم لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية وقد اجتمعت صفاته الثبوتية والسلبية جميعها في ضمن سورة الاخلاص فقل هو الله أحد نفي الكثرة والعدد لقوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ولانه لو كان معه غيره لما استقام الخلق والامر اذ قد يريد أحدهما ايجاد شيء والآخر نفيه فلا بد أن يكون أحدهما مقهورا والمقهور لا يكون خالقا ولا غالبا فلا يكون إلها الله الصمد نفي الشريك والمعين لم يلد ولم يولد نفي العلة والمعلول ولم يكن له كفوًا أحد نفي الشبيه والمثيل ومن قال لك ما ذات الله فقل له ليس كمثله شيء وهو السميع البصير لان المتماثلين يجري على أحدهما ما يجري على الآخر فلو شابهه غيره وجرى على غيره الحدوث وصفات النقص لجرى ذلك عليه أيضا فلا يكون إلها ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض لان هذه الامور تلزمه الحدوث وصفاته النقص والله تعالى بخلاف ذلك ولا زمان له ولا مكان وقيل البحث عن ذات الله اشراك والكف عن ذات الله ادراك ومن قال ما فعل الله فقل له كل يوم هو في شان لا يشغله شأن عن شأن ولا تشغله الاشياء عن الاشياء يدبر الامر يفصل الآيات لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ولا يجري في العالم أمر الا بارادته وحكمه لقوله تعالى وما تسقط من ورقة الا يعلمها الآية وانه لو جرى في العالم أمر بغير ارادته لكان

مقهورا

مقهورا مجبورا وذلك نقص وان تعتقد انه مثيب لعباده الصالحين ومعاقب للمذنبين لقوله تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وقال من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ولان الثواب والعقاب لولم يثبتا لفعل من شاء ماشاء وبطل الامر والنهي والعبادة وكل ماخطر ببالك مما يمتنع على ربنا فهو باطل والله بخلاف ذلك يعني ان ماهجس بالبال أي الذهن من تصور كيفيته تعالى وتشبيهه بشئ من الخلق ذاتا أو صفة فهو باطل أوجبه قصور العقل والمعرفة فان الله بخلاف مايخطر في الاذهان وفوق ماتنتهي اليه العقول ماوحده من كيفه ولا أصاب حقيقته من مثله ظهر فبطن وبطن فعلم ولطف فجل تعالى الله عما يقوله المبطلون علوا كبيرا وما سمعته مما يوهم جارحة كنحو يد الله فوق أيديهم وكل شئ هالك الا وجهه فهو من المتشابهات التي نؤمن بها ونكل علمها الى الله تعالى مع القطع بالتنزيه عن ظاهرها الاستحالتها عليه سبحانه وتعالى ونؤولها على مايليق بجنابه المقدس وكذا يجب الايمان بانبيائه ورسله أي يجب علينا الجزم واليقين بانبيائه ورسله وهم قوم خصوا بنفوس قدسية حصلوا بها على المطالب دون اشتغال بالمبادي الموصلة فالنبوة والرسالة بفضل الله تعالى لا بالاكتساب قال الامام اللقاني

ولم تكن نبوة مكتسبة * ولو رقى في الخير أعلى عقبه
بل ذاك فضل الله يؤتيه لمن * يشاء جل الله واهب المنن
وأفضل الخلق على الاطلاق * نبينا فمل عن الشقاق

والنبي انسان أوحي اليه بشرع وان لم يؤمر بتبليغه والرسول انسان أوحي اليه بشرع وأمر بتبليغه والشرع ماشرعه الله من الاحكام للعباد لقوله تعالى فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله أي لكتابه والرسول مدة حياته وبعد موته الى سنته أي اكشفوا عليه منهما فالكتاب والسنة هما البينات والهدى اللذان أنزلهما الله تعالى قال تعالى حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم الآية وقال جل ذكره وتقدست أسماؤه حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون والسنة أقوال نبيه عليه الصلاة والسلام وافعاله وذلك وحي منزل واذا تأملت فواصل القرآن وجدتها كلها لاتخرج عن المناسبة كقوله تعالى فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر لايجوز التبديل بينهما ونهى صلى الله عليه وسلم عن انتهار السائل قال صلى الله عليه وسلم ردوا السائل ولو بشق تمرة ولو بمثل رأس الذباب فلك أجرها مرتين وروى ان

اعرابيا سمع شخصا يقرأ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله غفور رحيم بدل قوله تعالى والله عزيز حكيم فقال ما ينبغي ان يكون كلام الله تعالى هكذا فقيل له ان القارئ غلط والقراءة والله عزيز حكيم فقال نعم هكذا يكون فانه لما عز حكم

مطلب وجوب الايمان بالبعث والنشور والجنة والنار وغير ذلك

وكذا يجب الايمان بالبعث والنشور لقوله تعالى كذلك يحيي الله الموتى ولقوله تعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن وقوله تعالى واليه النشور ولانه لو لم يكن بعث ولا نشر لما كان أمر ونهي ولفعل كل من شاء ما شاء وقيل

فلو انا اذا متنا تركنا * لكان الموت راحة كل حي

ولكنا اذا متنا بعثنا * ونسأل بعده عن كل شي

وكذا يجب الايمان بالجنة والنار والا لما كان أمر ونهي وكذا يجب الايمان بالصراط وبالميزان القسط لقوله تعالى ونضع الموازين القسط ليوم القيامة وبالحوض والشفاعة لقوله تعالى انا أعطيناك الكوثر فسره النبي صلى الله عليه وسلم فقال هو حوض آنيته أكثر من عدد نجوم السماء من شرب منه لم يظمأ بعده أبدا ونؤمن بالقرآن وانه كلام الله غير مخلوق وانه معجز لجميع البشر انسهم وجنهم مفترقين أو مجتمعين قال تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا قال السنوسي رحمه الله وأفضل المعجزات القرآن العظيم الذي لم تزل آياته تقرع اسماع البلغاء وتحرك لطلب المعارضة على سبيل التعجيز حمية الالسن المتوقدي الفطنة الاقوياء المعارضين الخائضين في كل فن من فنون البلاغة طولا وعرضا بحيث لا تفلت من معارضتهم أمنع كلمة وان لم يعرض فيها بعجزهم فكيف وهم يسمعون في تعجيزهم صريح قوله تعالى فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ثم تنزل معهم فقال تعالى فأتوا بسورة من مثله ومع ذلك لم تتحرك أنفسهم ومن عادتهم لا يتمالكون معها عند ورود أدنى عارض يقدح في مناصبهم وان كان ذلك حتف أنفسهم فكيف بما هو من نوع البلاغة التي هي كلامهم وتدب فيهم دبيبا حتى انهم بها في كل واد يهيمون ومن لم يستح منهم وانتدب لمعارضة هذا الامر الالهي كمسيلمة الكذاب افتضح وأتى بمضحكة يتضاحك منها الى قيام الساعة ولو انهم نقل اليهم القرآن نقل غيره من الكلام نقل احاد لامكن الاعتذار عنهم بعدم الوصول كلا بل امتلأت بجملته وبصحفه واشادة أمره الارض كلها سهلها وجبلها بدوها وحضرها برها وبحرها مؤمنها وكافرها وانسها

وجنها

وجنها وتطاولت أزمنته على تلك الصفة قريبا من تسعمائة سنة أفيستريب عاقل بعد هذا فى كونه من عند الله جل وعلا صدق به نبيه صلى الله عليه وسلم هذا مع مافيه من الاخبار قبل الوقوع بالغيوب المطابقة ومحاسن علوم الشريعة المشتملة على مالا يقدر البشر على ضبطه من المصالح الدنيوية والاخروية وتحرير الادلة والرد على المخالفين بالبراهين القطعية وسرد قصص الماضين وتزكية النفس بمواعظ يغرق فى أدنى بحارها جميع وعظ الواعظين هذا كله على يد نبى أمى ماخط قط كتابا ولا حصلت له مخالطة لذى علم يمكن بها تحصيل أدنى شئ من ذلك علم ذلك كله بالضرورة وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون ثم هذا الى ماله من المعجزات التى لاتحصى ثم الى ماجبلت عليه ذاته الكريمة من الكمالات التى كادت ان تفصح بل أفصحت قبل بعثه برسالته خلقا وخلقا ثم مع ذلك كله أكد الله تعالى صدقه بذكر اسمه بجميع وصفه فى الكتب الماضية قال الله تعالى الذين يتبعون الرسول النبى الامى الآية وأطلق ألسنة الاحبار قريبا من مبعثه بجميع ذلك حتى انه سبحانه بفضله مما أكد به زوال اللبس عن نبوته ان منع العرب قبله من التسمى باسمه الخاص به الا اناسا قليلين تسموا قريبا من مولده باسمه رجاء حصول النبوة لهم لما سمعوه من الاحبار ثم من عظيم فضل الله تعالى فى ازالة اللبس عن نبوته انه لم يطلق لسان أحد من أولئك الذين تسموا باسمه بدعوى النبوة فاذا وقفت لعلم هذا كله حصل لك العلم ضرورة بصدق رسالة نبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم فوجب الايمان به فى كل ماجاء به عن الله سبحانه وتعالى جملة وتفصيلا كالحشر والنشر لعين هذا البدن لا لمثله اجماعا

مطلب أمور الدين

وأما أمور الدين فهى امتثال المأمورات وهو ان تمتثل لكل ما أمر الله ورسوله به من فرائض وسنن وأحكامهما والعمل بهما من غير تهاون ولا تقصير واجتناب المنهيات وهى كل مانهى الله ورسوله عنه ورضاء بقضاء وقدر وهو أن ترضى بما قدره الله تعالى عليك من خير أوشر والمقدر هو الذى يأتى المرء على رغم انفه من غير اختياره فتؤمن بذلك وترضاه فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يرض من ربه بوعده ووعيده فهو كافر قال الله عز وجل (ومن الناس من يعبد الله على حرف) أى طرف وجانب من الدين (فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين) وقال بعضهم أمور الدين أربعة صحة العقل

وصدق القصد ووفاء العهد وحفظ الحد فصحة العقل معرفة الله تعالى وصدق القصد الاخلاص لله تعالى ووفاء العهد امتثال أوامر الله تعالى وحفظ الحد هي ترك المعاصي

فينبغي لمعلم التلامذة ان يعلمهم أولا عقائد التوحيد لان أول واجب على الانسان معرفة ربنا جل وعلا ومعرفة أحكام عبادته قال الله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون أي ليعرفون ولاجل ان تتمكن من قلوبهم في حال صغرهم وهي خالية بحيث اذا ورد على قلبهم شيء يخل بالعقيدة الايمانية لا يتغير كما قال الشاعر

أتاني هواها قبل ان أعرف الهوى * فصادف قلبا خاليا فتمكنا

وحينئذ فالاشتغال به مقدم على كل الواجبات اذ بمعرفته تنقذ المهج من أليم المهلكات فالسعيد من وفق لتحقيق عقائد ايمانه لما يراه بعد الموت من النعيم والسرور وبواضح برهانه

قال ابن حجر اعلم ان الله تعالى أرسل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بالشريعة المطهرة والحنيفية السمحة الى كافة الخلق فكان ذلك سببا لسعادتهم وموجبا لصلاح معاشهم ومعادهم وكان ذلك على فترة من الرسل ليس للناس شرائع ولا أحكام ولا علم بالتوحيد ولا أمر شرعي يحفظ دماءهم وأموالهم فكانت شريعته جامعة لها ولغيرها من الحكم التي لا تحصى والنعم التي لا تستقصى وكان العلماء هم القائمين بعده صلى الله عليه وسلم بتقرير تلك الاحكام والشرائع وتدوين العلوم والمسائل التي استمدوها منه صلى الله عليه وسلم ووصلت اليهم بالطرق الصحيحة والاسانيد المتصلة وكانوا هم الوارثين لتلك المرتبة بعده صلى الله عليه وسلم والمستحقين لها دون غيرهم لكونهم نشروا الشريعة لاربابها وعلموها الطلابها ولم يكتموها عنهم لما ورد من قوله صلى الله عليه وسلم علماء أمتي كانبياء بني اسرائيل أي مقررين ومؤكدين ومبينين لما جاء به صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى وآمرين الامة به كيوشع بن نون عليه السلام فانه كان مقررا لشريعة موسى عليه السلام وآمرا بالعمل بما في التوراة وهو نبي ليس بمرسل لما ورد من قوله صلى الله عليه وسلم ما آتى الله عالما علما الا أخذ عليه الميثاق ان لا يكتمه فنشروا العلوم عملا بقوله صلى الله عليه وسلم وردوا عن سنته المطهرة كلام الملحدة والمبتدعة وغيرهم وبذلك صاروا أعظم الناس قدرا وأكملهم فخرا وأتقنوا الاصول وأسسوها واشتغلوا بالفروع

بالفروع ودونوها واستنبطوا المسائل الفقهية وأثبتوها وصارت قريبة المأخذ سهلة المراجعة وحينئذ فليجد طالبها التعليم والمطالعة

وقد روى أن أبا اسحاق الاسفرايني رحمه الله صعد فى زمن هيجان المبتدعة الى جبل لبنان لاولياء الله تعالى فوجدهم هناك يتعبدون فقال لهم هربتم الى هذا الموضع تتعبدون وتركتم أمة النبى صلى الله عليه وسلم فى أيدى المبتدعة فقالوا له أيها الاستاذ لاقدرة لنا على مخالطة الخلق وأنت الذى أقدرك الله على ذلك فأنت أهله فرجع رضى الله عنه واشتغل بالرد على المبتدعة وألف كتابه الجامع بين الجلى والخفى اه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاخير فى العيش الا مستمع واع أو عالم ناطق أيها الناس انكم فى زمان هدنة وان السير بكم لسريع وقد رأيتم الليل والنهار كيف يبليان كل جديد ويقربان كل بعيد فقال له المقداد رضى الله عنه يارسول الله ما الهدنة قال دار بلاء وانقطاع واذا التبست عليكم الامور كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فانه شافع مشفع وشاهد مصدق فمن جعله أمامه قاده الى الجنة ومن جعله خلفه ساقه الى النار واذا علمت ذلك فالعلوم الشرعية أهم العلوم كلها والاشتغال بها من أفضل الواجبات للحاجة اليها والاضطرار الى معرفة الحلال والحرام والمشتبه منهما ولذلك كان أهلها أفضل من غيرهم فأما المفسرون فاشتغلوا بتفسير كلام الله تعالى وفهم معانيه وأحكام آياته ومبانيه وتبيين مطلقه من مقيده ومبينه من مجمله ومحكمه ومتشابهه وقصصه ومواعظه ومنسوخه وناسخه فهم اساس الدين وأما الفقهاء فانهم فضلوا على أصحاب الحديث بما خصوا به من الاستنباط فى فقه الحديث والتعمق بدقيق النظر فى ترتيب الاحكام وحدود الدين والترتيب بين الناسخ والمنسوخ وغيرها فهم حكام الدين وأما أصحاب الحديث فانهم تعلقوا بظاهر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لان الله تعالى يقول وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واشتغلوا بسماعه ونقله وتدقيقه وتمييز صحيحه من سقيمه فهم حراس الدين ثم ان الفقيه اذا اشتغل بالعبادة واعتزل الناس ولم يشتغل بالتعليم فان كان الناس مستغنين عنه بغيره فذلك ظاهر وان لم يكونوا كذلك بل كانوا محتاجين اليه فالافضل فى حقه التعليم فان الله تعالى اذا فتح على قلب عبد مواهب العلوم التى هى أخص صفاته ولم ينفع بها غيره فهو كالخازن لانفس خزائنه لانه حينئذ يكون كاتما للعلم المنهى عن كتمانه فلا يليق به الاعراض عن المحتاجين والاشتغال عن الانفاق على من أكرمه الله تعالى عليهم من العباد وأحوجهم

اليه فلا يشتغل بعبادة ولا صلاة نافلة بل يشتغل بالتعليم لانه أفضل من ذلك كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم طلب العلم أفضل من صلاة النافلة ولان النفع المتعدى الى الغير أفضل من النفع القاصر وان كان كل منهما عبادة وقد قال صلى الله عليه وسلم خير الناس من ينفع الناس فذو العقل الحاذق والملكة القوية من وفقه الله تعالى لانفاق أوقاته فى تحصيل العلم واستفادته واقداره على استنباطه وافادته اذ العقل أس العلم ومنبعه ولذا وقع الخلاف بين العلماء هل العقل أفضل أم العلم فمن قائل بالاول ومن قائل بالثانى وقد ورد فى فضل العلم الآيات الكثيرة والاحاديث والآثار الشهيرة فمن الآيات قوله تعالى هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون وقوله تعالى وقل رب زدنى علما وقوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وان من زاد علما فقد بلغ مناه وأرغم أعداه وعلا قدره بين الانام وتكامل فخره بين الخاص والعام وطاب له عيشه وصفا له المورد الاهنى وارتقى الى المقام الاسنى وظفرت يداه بالسعادة فى الدنيا والاخرى وأما الاحاديث والاخبار فكثيرة لا تحصى ولا تستقصى فاذا أخذ الفقيه حظه من الفقه وصار حظا وافرا فينبغى له أن لا يكون عليه مقتصرا وقاصرا بل ينظر بعد ذلك فى العلوم ذات الترغيب والترهيب لعله أن يكون له منها حظ ونصيب ثم فى كلام الحكماء الذين انجلى عن قلوبهم الخبث وقاذورات الدنيا وارتفع الغطاء عنها حتى اتضح لهم حلية الحق عيانا ثم فى شمائل السلف الصالحين الذين بذكرهم تتنزل الرحمة من رب العالمين

وكان شيخ الاسلام زكريا الانصارى رضى الله عنه يقول اذا لم يكن للفقيه علم بأحوال القوم واصطلاحاتهم فهو جاف وقال الامام مالك رضى الله عنه اذا كانت العلوم منحا الهية ومواهب اختصاصية فليس بمستبعد أن يدخر لبعض المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين فاياك أن تحتقر من من الله عليه بمحبة القوم ومطالعة كتبهم ويقول ما بقى فى هذا الزمان من يفهم كلامهم فقد سمعت ما قاله الامام مالك رضى الله عنه وقال بعضهم لا يعترض على الجنيد والحلاج وأشباههم من المتقدمين والشيخ محيى الدين بن العربى وابن الفارض ونحوهما من المتأخرين رضى الله عنهم وان كانوا قد شطحوا وباحوا وتكلموا بأشياء خارقة مما لا قدرة للجاهلين على سماعها ولا سبيل اليها بل يسلم اليوم أحوالهم فى الاقوال والافعال وحاشاهم ان يصدر منهم قول أو فعل مخالف لقواعد الشريعة بل ولا يحفظ عنهم هفوة ولا يصدر منهم زلة بل لم يزالوا خائفين واقفين على قدم الخوف

الخوف بالذل والانكسار وما أحسن قول بعضهم من لم يعرف مصلحتنا الا يصوز له الخوض فى طريقتنا فالاولى التغافل عن أمورهم وأحوالهم وأفعالهم وأقوالهم فان من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه ويحمل مايراه منهم على أحسن محمل والتسليم أسلم ويؤوّله على مايليق به المقام

مطلب ان أولى مايثمر لهساعد الجد والعناية علم الحديث

وقال بعضهم ان العلوم وان تفاوتت أقدارها وعظمت لدى النفوس أخطارها فعلم الحديث خرمن بينها بأن يشمر له ساعد الجدّ والعناية اذ هو مع انتشاره يحتاج لاتقان الرواية قبل الدراية وقد بذل السلف الصالح فى ذلك هممهم العلية وأفكارهم الالمعية حتى تميزت الاحاديث الصحيحة من الضعيفة وبلغوا بذلك المراتب الرفيعة الشريفة فجزاهم الله عن احياء سنته صلى الله عليه وسلم الجزاء الوافى وأعطاهم الخير الكثير الشافى

جزى الله أصحاب الحديث مثوبة * وبوأهم فى الخلد أعلى المنازل
فلولا اعتناهم بالحديث وحفظه * ونفيهم عنه ضروب الاباطل
وانفاقهم أعمارهم فى طلابه * وبحثهم عنه بجدّ مواصل
لما كان يدرى من غدا متفقها * صحيح حديث من سقيم وباطل
ولم نتبين ما كان فى الذكر مجملا * ولم ندر فرضا من عموم النوافل
فحبهم فرض على كل مسلم * وليس يعاديهم سوى كل جاهل

وروى عكرمة مولى ابن عباس رضى الله عنهما قال سمعت على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اللهم ارحم خلفاى قلنا يارسول الله من خلفاؤك قال الذين يأتون من بعدى يروون أحاديثى وسنتى ويعلمونها الناس وقال صلى الله عليه وسلم يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين فهذه شهادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم أعلام الدين وأئمة المسلمين لحفظهم الشريعة من التحريف والانتحال الباطل وردّ تأويل الجاهلين

وسئل الامام مالك هل يقدم فى الاحاديث أو يؤخر والمعنى واحد قال أما ما كان من قول النبى صلى الله عليه وسلم فانى أكره ذلك وما كان من غير قوله فلا أرى به بأسا اذا اتفق المعنى وقيل للامام مالك أرأيت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم تزاد فيه الواو والالف والمعنى واحد قال أرجو أن يكون خفيفا وشدد غيره لان المعنى يختلف بذلك

غالبا وقال الامام مالك لا يؤخذ العلم عن أربعة ويؤخذ عمن سواهم لا يؤخذ عن مبتدع يدعو الى بدعته ولا عن سفيه معلن بالسفه ولا عمن يكذب فى أحاديث الناس وان كان يصدق فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ولا عمن لا يعرف بهذا الشان وقال بعضهم من جالس أهل البدع تعلق قلبه بشئ مما يسمع وقيل لا تمكن زائغ القلب من أذنك ورُوى عنه صلى الله عليه وسلم أبى الله أن يقبل عمل صاحب بدعة حتى يدع بدعته وهذا اذا كانت البدعة محرّمة

وقال صلى الله عليه وسلم (من أحدث) أى اخترع وأتى من قبل نفسه بأمر حادث وهو المسمى بالبدعة (فى أمرنا هذا) أى فى ديننا وشرعنا (ما ليس منه) أى ما ليس له فيه مستند من الكتاب والسنة سواء كان ذلك الامر الحادث قوليا أو فعليا أو اعتقاديا (فهو ردّ) أى مردود على فاعله لبطلانه فكأنه قال غير معتد به ولا معول عليه وهو عام مخصوص بالحادث الذى دل الشرع على حرمته ورواية الامام مسلم (من عمل عملا) أى أحدثه هو أو غيره وعمل به (ليس عليه أمرنا) أى لا يرجع الى دليل شرعنا (فهو ردّ) أى مردود وقد قسم ابن عبد السلام الحوادث الى الاحكام الخمسة فقال والبدعة فعل ما لم يقع فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم وتكون واجبة كالاشتغال بعلوم العربية المتوقف عليها فهم الكتاب والسنة ومحرّمة كالاشتغال بمذهب أهل البدع كالقدرية والجبرية المخالفين لمذهب أهل السنة وتكون البدعة مندوبة كاحداث الربط وبناء القناطر وتكون البدعة مكروهة كزخرفة المساجد وتزويق المصاحف وقال المتولى من الشافعية لا يكره ذلك لما فى ذلك من اعزاز الدين وتعظيمه وتكون البدعة مباحة كالتوسع فى المأكل والمشرب والملابس الفاخرة وغير ذلك ومن البدع المباحة أيضا اتخاذ المناخل للدقيق لان أول شئ أحدثه الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخاذ المناخل لان تليين العيش واصلاحه من المباحات ومن البدع المباحة الاكل بالملاعق وقد حضر الامام أبو يوسف صاحب الامام أبى حنيفة رضى الله عنهما مائدة الخليفة هارون الرشيد فطلب الملاعق فقال له أبو يوسف يا أمير المؤمنين قد قال جدك ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (ولقد كرّمنا بنى آدم) أى جعلنا لهم أصابع يأكلون بها ولم نجعلهم كالدواب تأكل بأفواهها فردّ الخليفة الملاعق وأكل بأصابعه فتبين من معنى الحديث الامر باتباع ما جاء به الشرع والتحذير من الابتداع وحينئذ فالبدعة خاصة بالحادث المذموم ورُوى عن ابن مسعود أنه قال عمل قليل فى سنة

خير من عمل كثير فى بدعة وعن أنس أنه قال اذا مات صاحب بدعة فقد فتح فى الاسلام فتح وأخرج الطبرانى عن عبد الله بن بشير أنه قال من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الاسلام وقيل من صح ايمانه يهد الله قلبه لاتباع السنة وورد عنه صلى الله عليه وسلم من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة وكان ابن عباس رضى الله عنه حبر الامة ومن الراسخين فى العلم بدعاء النبى صلى الله عليه وسلم له بالتفقه فى الدين وبعلم التأويل والحكمة وكان ابن عباس يفتى على عهد سيدنا عمر وعثمان رضى الله عنهما الى أن مات رضى الله عنه

وكتب أبو عمرو فى بعض رسائله من كان من العلم محروما لم يكن من الزلل معصوما فالعلم دعامة الاسلام والعلماء سرج الانام

وقال أمير المؤمنين على كرم الله وجهه قيمة كل امرئ ما كان يحسنه أقل الناس قيمة أقلهم عقلا ثمرة الادب العقل الراجح وثمرة العلم العمل الصالح وقيل كل شئ اذا كثر رخص الا العقل فانه كلما كثر غلا وفى هذا المعنى شعر

العقل أحسن معقل فاهرع الى * أبوابه العليا تنل كل العلا
واعلم بأن الشئ يرخص كثرة * والعقل ان كثرت حواصله غلا

وقال بعضهم

رأيت العقل لم يكن انتهابا * ولم يقسم على قدر السنينا
فلو أن السنين تقسمته * حوى الاباء أنصبة البنينا

وقيل

ما وهب الله لامرئ هبة * أفضل من عقله ومن أدبه
هما جمال الفتى فان فقدا * ففقده للحياة أجمل به

روى الثعالبى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال خير الناس وخير من يمشى على جديد الارض المعلمون كلما خلق الدين جددوه أعطوهم ولا تستأجروهم فان المعلم اذا قال للصبى قل بسم الله الرحمن الرحيم فقال الصبى بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله براءة للصبى وبراءة لوالديه وبراءة للمعلم من النار وقد اختلف فى جواز أخذ الاجرة على تعليم القرآن فالجمهور على الجواز متمسكين بقوله صلى الله عليه وسلم أحق ما أخذتم عليه اجرا كتاب الله تعالى وورد عنه صلى الله عليه وسلم خيركم من تعلم القرآن وعلمه وكون الاحاديث المانعة لهذه ليس فيها ما تقوم به الحجة فلا تكون معارضة لما صح عن

مطلب ان خير الناس وخير من يمشي على الارض المعلمون

قيس بن أبي حازم قال رأيت خالد بن الوليد رضي الله عنه يوم اليرموك يرمي بين الهدفين ومعه رجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أمرنا ان نعلم أولادنا الرمي والقرآن رواه الطبراني وقال الشاعر

ان المعلم والطبيب كلاهما * لم ينصحا اذا لم يكرما
فاصبر لدائك ان جفوت طبيبه * واصبر لجهلك ان جفوت معلما

وكان العارف بالله تعالى ابن عراق المدني يعلم تلامذته دعاء لحفظ القرآن فيحفظونه اذا لازموا الدعاء به وهو

كلام قديم لا يمل سماعه * تنزه عن قولي وفعلي ونيتي
به أشتفي من كل داء ونوره * دليل لقلبي عند جهلي وحيرتي
فيارب متعني بسر حروفه * ونور به سمعي وقلبي ومقلتي

وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال نزل القرآن على تسعة أحرف حلال وحرام ومحكم ومتشابه وبشير ونذير وقصص ومواعظ وأمثال فاحلوا الحلال وحرموا الحرام واعملوا بالمحكم وآمنوا بالمتشابه واعتبروا بالامثال وقيل

الا انما القرآن تسعة أحرف * أتيت بها في شعر بيت بلا خلل
حلال حرام محكم متشابه * بشير نذير قصة عظة مثل

وكان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم على قدر الحاجة فكان أمد نزوله عشرين سنة بقدر نبوته وقيل في ثلاث وعشرين سنة مدة الوحي بمكة ثلاث عشرة سنة وبالمدينة عشر سنين ومن شعائر الاسلام قراءة القرآن والصلوات والجماعة والمساجد والمحاريب في زماننا أكثر اذ النبي صلى الله عليه وسلم خرج من الدنيا والاسلام لم يبلغ غير جزيرة العرب وقال صلى الله عليه وسلم أبنوا المساجد واخرجوا القمامة منها فمن بنى لله مسجدا بنى الله له بيتا في الجنة وعاش صلى الله عليه وسلم ثلاثا وستين سنة فاربعون مضت في التعبد والباقي ثلاث وعشرون سنة في النبوة والرسالة وصلاة الخمس المفروضات افترضت بعد اثنتي عشرة سنة من النبوة ومن قبل كان يسبح ويهلل وقال صلى الله عليه وسلم أدبوا أولادكم على ثلاث حب نبيكم وحب آل بيته وعلى قراءة القرآن فان حملة القرآن في ظل الله يوم لا ظل الا ظله والمراد بآل البيت فاطمة وعلي والحسن والحسين رضوان الله عليهم أجمعين ويدل له حديث عائشة رضي الله عنها قالت خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود فجلس فأتت فاطمة

مطلب ان من شعائر الاسلام قراءة القرآن والصلاة

فأدخلها

فأدخلها فيه ثم جاء علي فأدخله فيه ثم جاء الحسن فادخله فيه ثم جاء حسين فادخله فيه ثم قال انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا وقال اللهم أهل بيتي وخاصتي أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ثم قال أنا حرب لمن حاربهم وسلم لمن سالمهم وعدو لمن عاداهم والرجس السوء وقال مجاهد الشك ودلت هذه الآية أيضا على نبوته صلى الله عليه وسلم وعلى فضل أهل الكساء رضي الله تعالى عنهم لاشتمالها على غرر من مآثرهم والاعتناء بشأنهم وقال بعضهم في ذلك

ان النبي محمدا ووصيه * وابنيه وابنته البتول الطاهرة
أهل العباء فانني بولائهم * أرجو السلامة والنجا في الآخرة

وقد انقرض نسله صلى الله عليه وسلم الا من فاطمة رضي الله تعالى عنها طاب أصلها أما وأبا وانتشر نسله الشريف منها من جهة السبطين ويقال لاولهما حسني والثاني حسيني ثم ان للشرفاء حقوقا على غيرهم من الناس كما ان للناس حقوقا عليهم فالحقوق التي على الشرفاء لغيرهم من الناس ان لا يفخروا بشرفهم على غيرهم لان فخرهم على الغير قد يؤدي من ضعف دينه الى عداوتهم وبغضهم والبحث عن عوراتهم وذلك ممنوع لانه يؤدي الى الاستخفاف بحقه عليه الصلاة والسلام وقد قال تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم وقد قال عليه الصلاة والسلام ان من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه قال الماوردي يعني ان الفضل والكرم بالعمل لا بالنسب وقد يؤدي فخر الشريف بنسبه أو بسببه لغيره المفخور عليه الى الايذاء فيكون قد فتح الذريعة اليه فليحذر الشريف على نفسه وعلى المسلمين جهده وليأخذ نفسه بالصبر والاحتمال ومن حقوق الناس لهم أن يؤثروا رضى الاشراف على أهوائهم بما يجب من التبجيل والتعظيم عند الحضور معهم لما انهم بعض رسول الله صلى الله عليه وسلم وان يبغضوا من يؤذيهم لانه يؤذيه صلى الله عليه وسلم وان يريدوا لهم التقدم بفضيلة نسبهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وان يخلصوا لهم المودة ويوازروهم وينصروهم أحياء وأمواتا ويذبوا عن أعراضهم ويضربوا عن مساوي ذي المساوي منهم صفحا وان ينشروا محاسنهم ويتوسلوا بجاههم الى الله ورسوله لانهم سلالة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال تعالى قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى أي بان تودوا قرابتي ولقد أحسن من قال

رأيت ولائي آل طه فريضة * على رغم أهل البعد يورثني القربى

فاطالب المبعوث أجرا على الهدى * بتبليغه الا المودة فى القربى

مطلب ذكر أولاده صلى الله عليه وسلم

وينبغى للانسان ان يعرف أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحفظهم لان النبى صلى الله عليه وسلم سيدنا وعار على الانسان ان لا يعرف أسماء أولاد سيده وهم سبعة القاسم وبه كان يكنى وزينب وهى أكبر بناته ورقية وفاطمة وهى أصغر بناته ولدت قبل النبوة بخمس سنين وتوفيت بعده عليه الصلاة والسلام بستة أشهر وتلقب بالزهراء وكانت أحب أولاده اليه صلى الله عليه وسلم فكانت اذا دخلت عليه قام لها اجلالا وأم كلثوم ولا يعرف لها اسم وانما تعرف بكنيتها وعبد الله وهو الملقب بالطيب والطاهر وولد بعد المبعث وتوفى بمكة ولما توفى قال العاص ابن وائل قد انقطع ولد محمد فهو أبتر فأنزل الله عز وجل ان شانئك هو الابتر وولد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ابراهيم فى طيبة ولما مات بكى عليه صلى الله عليه وسلم وقال البكاء من الرحمة والصراخ من الشيطان وقال من لا يرحم لا يرحم وخسفت الشمس يوم موته فقال الناس لموت ابراهيم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فاذا رأيتم ذلك فافزعوا الى الصلاة وسبب ذلك اذا أراد الله ان يرى عباده آية يخوفهم بها أظهر لهم من عظمته وكل أولاده صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها الا ابراهيم فانه من مارية بنت شمعون القبطية ومات جميع أولاده صلى الله عليه وسلم فى حياته الا فاطمة فبعده بستة أشهر كما سبق ولم يكن له صلى الله عليه وسلم أولاد من غيرها وقد نظم بعضهم عدة أولاده صلى الله عليه وسلم

فأول ولد المصطفى القاسم الذى * به كنى المختار فافهم وحصلا
وزينب تتلو ورقية بعدها * وفاطمة الزهراء جاءت على الولا
كذا أم كلثوم تعد وبعدها * فى الاسلام عبد الله جاء مكملا
وكلهم كانوا أتوا من خديجة * وقد جاء ابراهيم فى طيبة تلا

رجع قال بعضهم وينبغى للعالم ان يكون متأنيا غير مبادر بالاستعجال بالعقوبة ولا يؤاخذ أحدا بأول ذنب يصدر وبزلة تندر لان العصمة من الخلق لمن سوى الانبياء مفقودة وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم ان الله رفيق يحب كل رفيق يعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف

وقال

وقال بعضهم يسن للمؤدب ان يأمر الصبيان بالصلاة لسبع ويضربهم على تركها العشر ويأمرهم ببر الوالدين والانقياد لامرهما بالسمع والطاعة والدعاء لهما وتقبيل أيديهما عند الدخول اليهما ويؤدبهم على اساءة الادب والفحش من الكلام ونحو ذلك من الافعال الخارجة عن قانون الشرع مثل أنواع القمار ونحو ذلك

وقال بعضهم لا ينبغي للمؤدب ان يستخدم أحد الصبيان في حوائجه وأشغاله التي فيها عار على آبائهم ولا يرسله الى داره وهي خالية لئلا تسلك اليه التهمة قال بعضهم ويشترط في السائق لهم ان يكون أمينا ثقة عاقلا غير بذي اللسان لانه يتسلم الصبيان في الغدو والرواح ولاجل ان تكون تربية المعلمين بالاخلاق الحسنة سارية للمتعلمين واما اذا كانت أخلاق المعلمين سيئة فتسري الى المتعلمين لان الطباع سراقة

وقال بعضهم يجوز للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر والمؤدب أن يقول لمن يخاطبه في ذلك الامر ويلك أو ياضعيف الحال ويا قليل النظر لنفسه ويا ظالم نفسه وما أشبه ذلك بحيث لا يتجاوز الى الكذب ولا يكون فيه لفظ قذف لان الغرض به التأديب والزجر وليكون الكلام أوقع في النفس لما روي عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بدنة قال اركبها قال انها بدنة قال اركبها قال انها بدنة قال في الثالثة اركبها ويلك ولقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه لابنه عبد الرحمن لما لم يجده عشي أضيافه ياغنثر وقال بعضهم من يأمر بالمعروف يحتاج الى خمسة أشياء أولها العلم لان الجاهل لا يحسن الامر بالمعروف وثانيها أن يقصد به وجه الله تعالى واعزاز الدين وثالثها الشفقة على الذي يأمره فيأمره باللين والتودد ولا يكون فظا غليظا لان الله تعالى قال لموسى وهارون حين بعثهما الى فرعون فقولا له قولا لينا رابعها أن يكون صبورا حليما لان الله تعالى قال في قصة لقمان وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك وخامسها أن يكون عاملا بما يأمر به لكيلا يعير به ويدخل تحت قوله تعالى أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وقال في آية أخرى لم تقولون مالا تفعلون الآية وقوله تعالى في سورة آل عمران ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر قال الكشاف في تفسير هذه الآية انما أورد من التبعيضية لانه لا يصلح كل أحد للامر بالمعروف والنهي عن المنكر وانما يصلح لذلك من عمل بالمعروف ونهى عن المنكر وعلم كيفية ترتيبهما فلا يتغلظ في مقام اللين ولا يلين في مقام التغليظ

وقد ذكر ابن الجوزي في كشف مشكل الصحيحين عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه وقال شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يعلم أهل الصفة القرآن وهو أحد النقباء الاثنى عشر وهو كان يعلم ذلك بالمدينة والنبي صلى الله عليه وسلم فيها والصفة هي مكان مرتفع في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس فيه فقراء الصحابة الذين تزهدوا في الدنيا وانقطعوا الى الله تعالى وهم الذين ذكرهم الله تعالى بقوله للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم الآية

مطلب ما يجب حفظه من القرآن

وقال بعضهم حفظ شيء من القرآن بقدر ما تجوز به الصلاة فرض عين على المسلمين وحفظ فاتحة الكتاب وسورة واجب على كل مسلم وحفظ جميع القرآن على سبيل الكفاية على الامة وورد عنه صلى الله عليه وسلم ان الله يريد العذاب بأهل الارض فاذا سمع تعليم الصبيان الحكمة صرف ذلك عنهم قال مروان يعني بالحكمة القرآن وقد ورد في الآثار ما يدل على ان أول دار فتحت للقراء بالمدينة المشرفة ولا مانع من ان تعتبر انها أول مدرسة فتحت في الاسلام فقد قال الواقدي ان عبد الله بن أم مكتوم قدم مهاجرا الى المدينة فنزل دار القراء ولعل عبادة بن الصامت كان يعلم فيها القرآن والكتابة وكذلك عبد الله بن سعيد بن العاص كان يعلم الكتابة في المدينة كما سيأتي قريبا فلعله أيضا كان من جملة من يعلم في هذه الدار وكذلك الاسرى الذين كانوا يفدون أنفسهم بتعليم كل واحد منهم الكتابة لعشرة من أبناء الانصار كما سيأتي

مطلب من بعثه صلى الله عليه وسلم الخ يعلم القرآن

وأما من بعثه صلى الله عليه وسلم الى الجهات يعلم الناس القرآن فمنهم مصعب بن عمير رضي الله عنه ففي سيرة ابن اسحاق ولما انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم القوم يعني الذين بايعوه في العقبة الاولى وهم اثنا عشر بعث معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام ويفقههم في الدين وكان يسمى المقرئ بالمدينة ومنهم معاذ بن جبل فانه أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مكة يفقه الناس في الدين ويعلمهم القرآن وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا قاضيا الى الجند في اليمن يعلم الناس القرآن وشرائع الاسلام ويقضي بينهم وجعل اليه قبض الصدقات من العمال الذين في اليمن ومنهم عمرو بن حزم بن زيد الخزرجي من بني مالك على نجران وهم بالحارث بن كعب وهو ابن سبع عشرة سنة ليفقههم في الدين ويعلمهم القرآن ويأخذ صدقاتهم وذلك سنة عشر بعد ان بعث اليهم خالد بن الوليد فأسلموا

وممن كان يعلم الكتابة عبد الله بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وكان اسمه في الجاهلية الحكم فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله وأمره أن يعلم الكتابة بالمدينة وكان كاتبا محسنا وخرج أبو داود رحمه الله عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال علمت ناسا من أهل الصفة الكتاب والقرآن وأهدى الي رجل منهم قوسا فقلت ليست بمال وأرمي عليها في سبيل الله ولآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأسألنه فأتيته فقلت يارسول الله رجل أهدى الي قوسا ممن كنت أعلمه الكتاب والقرآن وليست بمال وأرمي عليها في سبيل الله قال ان كنت تحب ان تطوق طوقا من نار فاقبلها قال السهيلي في الروض الأنف في الكلام على غزوة بدر انه كان من الاسرى يوم بدر من يكتب ولم يكن في الانصار أحد يحسن الكتابة فكان منهم أي من الاسرى من لا مال له فيقبل منه ان يعلم عشرة من غلمان الانصار الخط فاذا حذقوا فهو فداؤه

قال بعض العلماء وينبغي للمعلم ان يرغب المتعلمين في التحصيل ويدلهم على مكانته ويصرف عنهم الهموم المشغلة لهم ويهون عليهم مؤنته ويذاكرهم بما حصله من الفوائد والغرائب وينصحهم في الدين فبذلك يستنير قلبهم ويزكو علمهم وينبغي للمتعلم ان يكون جلوسه بين يدي المعلم ويحضر كتابه الذي يقرأ منه معه ويحمله بنفسه ولا يضعه حال القراءة مفتوحا بل يحمله بيديه ويقرأ منه ولا يقرأ حتى يستأذن استاذه ولا يقرأ عند شغل قلب استاذه أو ملله أو غمه أو غضبه أو تعبه وكذلك اذا رأى استاذه قد أتعبه الوقوف اقتصر ولا يحوجه الى قوله اقتصر وان لم يظهر له ذلك فان أمره بالاقتصار اقتصر حيث أمره ولا يستزيده واذا عين له قدرا فلا يتعداه وكذلك ينبغي للمعلمين ان يأذنوا في بعض الاوقات للمتعلمين باللعب ويكون لعبا جميلا غير متعب لهم ليستريحوا من كلفة الادب

وهذه الرياضة تروح النفس وتحرك الحرارة الغريزية وتحفظ الصحة وتنفي الكسل وتطرد البلادة وتبعث النشاط وتزكي النفس فان النفس تمل من الدؤوب في الجد وترتاح الى بعض المباح من اللهو وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا حنظلة ساعة وساعة وكان نبينا صلى الله عليه وسلم قد جزأ نهاره ثلاثة أجزاء جزء لله وجزء لاهله وجزء لنفسه ثم جزأ جزءه بينه وبين الناس وكان يستعين بالخاصة على العامة وكان يقول أبلغوني حاجة من لا يستطيع ابلاغي فان من بلغ حاجة من لا يستطيع ابلاغها أمنه الله يوم الفزع

الاكبر وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه روحوا القلوب فانها تمل كما تمل الابدان وكان صلى الله عليه وسلم يقول يا بلال روحنا وفى الزبور أوحى الله الى داود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام يا داود ان العاقل لا يخلو من أربع ساعات ساعة يناجى فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يمشى فيها الى الاخوان الذين يخبرونه بعيوبه وساعة يخلى فيها نفسه بين لذاتها الحلال وعن على رضى الله عنه سلوا هذه النفوس ساعة بعد ساعة فانها تصدأ كما يصدأ الحديد وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول اذا فاض من عنده فى الحديث بعد القرآن والتفسير أحمضوا أى اذا مللتم من الفقه والحديث وعلم القرآن فخذوا فى الاشعار وأخبار العرب كان الابل اذا ملت ما حلا من النبت رعت الحمض وهو ما ملح منه ومنه قول الزهرى هاتوا من أشعاركم فان للاذن مجاجة وللنفس حمضة أى انها تشتهى الشئ بعد الشئ كما تفعل الابل انتهى وهذا كله ما لم يكن دائما متصلا كما قال على ساعة بعد ساعة واما ان كان ذلك عادة الرجل حتى يعرف به ويتخذه ديدنا ويطرف به الناس ويضحكهم فذلك مذموم غير محمود دال على سقوط المروءة ورذالة الهمة وقد عد هذا النوع الفقهاء فيما يقدح فى عدالة الشاهد قال بعضهم وفيه من الفقه جواز المزح فى بعض الاحايين ما لم يكن سفها واباحة الدعابة مع الاهل وبسط الوجه واللسان مع جميع الناس بالكلام الحلو السهل فهو من أحسن العشرة وقال صلى الله عليه وسلم ويل للذى يحدث فيكذب أى فى حديثه ليضحك به القوم ويل له ويل له كرره إيذانا بشدة هلكته وذلك لان الكذب وحده رأس كل مذموم وجماع كل فضيحة فاذا انضم الى استجلاب الضحك الذى يميت القلب ويجلب النسيان ويورث الرعونة كان أقبح القبائح ومن ثم قال الحكماء ايراد المضحكات على سبيل السخف نهاية القباحة وقيل لا مروءة لكذاب ولا كرم أعز من التقى ولا شفيع أنجح من التوبة ولا لباس أجمل من العافية والتقوى امتثال المأمورات واجتناب المنهيات وقد ورد فى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم ابن آدم اذا أصبحت معافى فى جسدك آمنا فى سربك (أى فى نفسك) عندك قوت يومك فعلى الدنيا العفاء

وقال الرشيد النوادر تشحذ الاذهان وتفتق الآذان وقال الشاعر

أروح القلب ببعض الهزل * تجاهلا منى بغير جهل
أمزح فيه مزح أهل الفضل * والمزح أحيانا جلاء العقل

وأحسن ما قيل فى المزح قول أبى الفتح البستى رحمه الله

أفد طبعك المكدود بالجد راحة * يجم وعلله بشئ من المزح
ولكن اذا أعطيته المزح فليكن * بمقدار ما تعطى الطعام من الملح

وقد كان عليه الصلاة والسلام يمزح ولا يقول الا حقا ومن مزحه صلى الله عليه وسلم ان جاءه رجل فقال يا رسول الله احملني على جمل فقال لا أحملك على ولد الناقة قال لا يطيقني فقال له الناس ويحك وهل الجمل الا ولد الناقة وقال صلى الله عليه وسلم لامرأة من الانصار الحقي بزوجك ففي عينيه بياض فسعت المرأة نحو زوجها مرعوبة فقيل لها ما دهاك قالت النبي صلى الله عليه وسلم قال ان في عيني زوجي بياضا فقال نعم والله وسوادا وأتته أيضا عجوز أنصارية فقالت يا رسول الله ادع الله ان يدخلني الجنة فقال يا أم فلان ان الجنة لا يدخلها عجوز فولت المرأة تبكي فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لها اما قرأت قوله تعالى انا انشأناهن انشاء فجعلناهن ابكارا عربا أترابا وقالت عائشة رضي الله عنها سابقت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته فلما كثر لحمي سابقته فسبقني فضرب بكفي وقال هذه بتلك وعنها رضي الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل وأنا ألعب مع صويحباتي فاذا رأين رسول الله صلى الله عليه وسلم سعين فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أنتن ولا يعيب على وقال على ابن أبي طالب رضي الله عنه لا بأس بالمفاكهة يخرج بها الرجل من حد العبوس وروى عن الصحابة رضوان الله عليهم انهم كانوا يتحادثون ويتناشدون الاشعار فاذا جاء ذكر الله انقلبت حماليقهم كانهم لم يعرفوا أحدا وسئل النخعي هل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون قال نعم والايمان في قلوبهم مثل الجبال الرواسي وكان نعيمان ابن عمرو الصحابي من أولع الناس بالمزاح وكان بدويا قيل انه ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم انه يكثر المزاح والضحك فقال دعوه فانه يدخل الجنة وهو يضحك فمن مزاح نعيمان ما روى انه أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم جرة عسل اشتراها من اعرابي بدينار وجاء الاعرابي الى باب النبي صلى الله عليه وسلم فقال خذ الثمن من ههنا فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم ذلك قال لنعيمان ما حملك على ما صنعت قال أردت برك ولم يكن معي شئ فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم وأعطى الاعرابي ثمنه وكذلك باع نعيمان سويبط بن حرملة من الاعراب بعشر قلائص فسمع أبو بكر فأخذ القلائص وردها واسترد سويبطا فضحك النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه منه حولا كاملا وكان سالم بن عبد الله يقول ترك الضحك من العجب وأعجب منه الضحك من غير سبب وكان

بالمغرب وراق فكتب مصحفا فى أسبوع فقيل له فى كم كتبته فقال فى سبعة أيام وما مسنا من لغوب فشلت يده وهذا ممن أدركه الخذلان وسلب التوفيق فاستعمل الهزل فى موضع الجد وتخطاه أن يتدبر قوله تعالى ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن وفى الخبر اياكم والمزاح فانه يذهب بهاء المؤمن ويسقط مروءته ويجر غضبه وهذا يحمل على من يكون ديدنه قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه من كثر ضحكه قلت هيبته ومن مزح استخف به ومن اكثر من شئ عرف به وقيل لكل شئ بذر وبذر العداوة المزاح

قال ابن المعتز رحمه الله المزح يأكل الهيبة كما تأكل النار الحطب وقيل المزح يذهب البهاء ويجرئ عليك السفهاء وتركه يقبض المؤانسين ويوحش المخاطبين وقيل

لا تحمل الهزل دأبا فهو منقصة * والجد تعلو به بين الورى القيم

ولا يغرنك من ملك تبسمه * ما تسحب السحب الا حين تبتسم

قال الامام الشافعى رضى الله عنه الانبساط مع الناس مجلبة لقرناء السوء والانقباض عنهم مكسب العداوة فكن بين المنقبض والمنبسط وقيل فى المثل لا تكن رطبا فتعصر ولا يابسا فتكسر وكان ابن الماجشون ينشد

انما للناس منا * حسن خلق ومزاح

ولنا ما كان فينا * من فساد وصلاح

والمزح الدعابة والممازحة المفاكهة وعن زيد بن ثابت انه كان من أفكه الناس فى أهله وأصمتهم اذا جلس مع القوم وكان مالك بن أنس من أحسن الناس خلقا مع أهله وولده وكان يقول يجب على الانسان ان يتحبب الى أهل داره حتى يكون أحب الناس اليهم وحديث أم زرع مشهور ودقيق الكلام سيد عليه وفسره القاضى عياض بجباء فى سفر صغير وأما حديث خرافة فخرج الترمذى فى الشمائل عن عائشة قالت حدث رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة نساءه حديثا فقالت امرأة كأن الحديث حديث خرافة فقال أتدرون ما خرافة قالوا الا قال ان خرافة كان رجلا من عذرة أسرته الجن فى الجاهلية فمكث وهو فيهم ثم ردوه الى الانس فكان يحدث الناس بما رأى فيهم من الاعاجيب فقال الناس حديث خرافة فهذا من حسن خلقه صلى الله عليه وسلم

*(الفصل

(الفصل الثالث)

(فى محبة الامهات لابنائهن وبناتهن وما يتعلق بذلك من التوسعة على العيال وحسن التأهيل)

هذه المحبة من الامهات وما يصحبها من شدة الشفقة والرأفة سر إلهى أودعه الله تبارك وتعالى فى قلوب الامهات من خلقه جميعا من درجة الانسان الى آخر درجات الحيوان فالام دائما تحنو على المولود بما أودع فيها من السر الالهى وقد اودعت الحكمة الالهية فى مهد الطفل مالا يعد ولا يحصى من الانعام والاحسان وأكثرت فيه من الخير العميم والفيض الجسيم والشفقة والرأفة والرحمة والكرامة الالهية حيث ان الولد اول وضعه عند ثدى أمه يجد اللبن الجيد الغذاء الملائم لمعدة الصبى وقد جعل الله سبحانه وتعالى فم الطفل بمجرد ولادته انيسا لامه ونديما لها تأنس به بدون ان يؤذيها لخلوه عن الاسنان التى لو خلق بها لجرحت ثدى أمه حين الرضاع وآست عليها فكلما كبر الطفل غزر اللبن وصار مادة مغذية كافية له فاذا فطم الطفل وانفصل عن الرضاع نشف ما فى الثدى من غزير اللبن

وقد اقتضت الحكمة الالهية ان الام يعتريها فى مدة رضاعها لولدها وهن وضعف وان قوتها تعود لها عقب الفطام دفعة واحدة فتقدر على ان تتحمل ما لا يستطيع ان يتحمله الرجل القوى الشديد فى تربية الطفل بعد الفطام فتتعهد شؤون ولدها وتربيه فى صغره حتى يكبر وتقوم أوده بالقيام بضرورياته فتتعهد أحوال ابنها آناء الليل وأطراف النهار وتؤدى له جميع ما يحتاج اليه وقد جعل الله سبحانه وتعالى فى المرأة الحاضنة لولدها خفة كاملة وسرعة حركة شاملة لم تكن تعهد فيها قبل الولادة فانها تلمس طفلها الضعيف البدن لمسا خفيفا بدون أن تؤلمه ولا ان تؤذيه فى عضو من أعضائه الضعيفة وقد ألهمها الله تعالى انها تؤمل من طفلها ان يكون زينة الحياة الدنيا فاذا بكرت المرأة بمولود فكل شئ فى زمن الرضاع يؤذيها من صوت أو غيره فتتأذى من كل شئ وتحب خفيف المأكل والمشرب وتجتنب المغلظات وتحب رقيق الملبس ووطئ الفراش ويخشى عليها من هبوب النسيم وأما عقب الفطام فانها لا تتكلف شيئا فقد يكفيها رغيف خبز ولو من الخشكار وثوب ولو من القماش الصفيق وحصير من الحلفاء وتقوى على تحمل الرياح والامطار فلا تتأذى بشئ من ذلك ومع هذا فقد لا تملك من الدنيا عند وضعها الا اللبن التى تسقيه لولدها والكساء الذى تلف ابنها فى طرف منه فلا يوجد

أحد فى الدنيا اذا تذكر رأفة أمه به وما اعتراها من المشقة فى تربيته وتلطفها معه ونصيحتها اياه وتأديبها له الا أثر ذلك فى قلبه كل التأثير حتى ان الانسان اذا تذكر أمه من حيث انها ولدته بقطع النظر عن حسن صنيعها فى تربيته حن قلبه اليها وعظم حبه لها وازداد ودها فى قلبه فمحبة الام تدوم وتعظم أكثر مما عداها من المحبة الطبيعية التى خلقها الله فى قلوب الناس

وللرضاع تأثير ظاهر فى الاولاد فقد قال صلى الله عليه وسلم الرضاع يغير الطباع وقال لا تسترضعوا الحمق فان اللبن يعدى ويروى ومعناه ان المرضعة اذا أرضعت غلاما نزعت اليه أخلاقها فيشبهها ولذلك تختار المرضعة العاقلة صحيحة الحواس ظاهرا وباطنا معتدلة المزاج عظيمة الثديين وتتغذى الحلو والسمين والسمك والرطب واما محبة الوالد لاولاده فهى ناتجة عما يعلمه الاولاد من أن أباهم اهتم بتربيتهم وعودهم على حسن الافعال وطيب الاخلاق ليتأهلوا لنفع الاوطان واعانة الاخوان والخلان فشفقة الوالد على ولده بهذا المعنى فضيلة من الفضائل العظيمة وبركة من البركات الجسيمة والاجداد فى ذلك كالآباء فالاصل متى عود الفرع على العوائد الحسنة والاخلاق المستحسنة وفقهه مما يجلب له أنواع الراحة وأنفق عليه ماله وجاهه تذكر الابن دائما فضل أبيه وشكر له صنيعه فما يصطنعه الآباء فى زمان شبوبيتهم لاولادهم من المنافع يجدونه عند شيخوختهم واحتياجهم اليهم فتكون الاولاد أعوانا وأنصارا لآبائهم وقت الهرم وكثيرا ما تكفى الابناء الآباء جميع ما يحتاجون فى حال الكبر ويخففون عنهم أثقال الهرم التى لا بد منها ويستحب التوسعة على العيال لاسيما فى يوم عاشوراء من المحرم وفى الايام الفاضلة والعيدين قال صلى الله عليه وسلم من وسع على عياله يوم عاشوراء وسع الله عليه السنة كلها قال سفيان انا جربناه خمسين سنة فوجدناه كذلك

ومن الممدوح تسمية الولد محمدا أو أحمد فانهما من أحب الاسماء قال صلى الله عليه وسلم سم ابنك محمدا يكثر خير بيتك وقال صلى الله عليه وسلم أفضل الاسماء ما عبد وما حمد وقال صلى الله عليه وسلم اذا سميتم الولد محمدا فأكرموه ووسعوا له فى المجالس ولا تقبحوا له وجها وقال مالك سمعت أهل مكة يقولون ما من بيت فيه اسم محمد الا نموا ورزقوا وقال صلى الله عليه وسلم أحب الاسماء الى الله عبد الله وعبد الرحمن وأصدقها حارث وهمام ويسن كنية أهل الفضل من الرجال والنساء ومخاطبتهم بها فيكنى الانسان ذكرا أو أنثى

بابى

بأبي فلان وأم فلانة سواء كان له ولد أم لا وسواء الصغير والكبير والاولى ان يكنى بأكبر أولاده والادب ان لا يذكر الانسان كنيته في كتابه أو خطابه الا ان كان لا يعرف إلا بها أو كانت أشهر من اسمه ولا يجوز التكنى بأبي القاسم لمن اسمه محمد فاعتناء الآباء بالابناء إعانة للابناء على بر الآباء وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله والدا أعان ولده على بره وقال بعض العلماء انما سمي الابرار أبرارا لانهم بروا الآباء والابناء وقال الاحنف أولادنا ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا ونحن لهم أرض ذليلة وسماء ظليلة وبهم نصول على كل جليلة فان طلبوا فأعطهم وان غضبوا فأرضهم يمنحوك ودهم ويحبوك جهدهم ولا تكن عليهم ثقلا فيملوا حياتك ويحبوا مماتك ويكرهوا قربك وكما يجب تربية الاولاد تندب تربية الاقارب بل وغيرهم فقد ربى النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وزوجه ورفعه ونصره

مطلب ان اعتناء الآباء بشأن الابناء فيه اعانة للابناء على بر والديهم

ثم ان الاعتناء بشأن البنات من الآباء فيه جزيل الثواب فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن اليهن كن له سترا من النار وفي رواية من عال ثلاث بنات تكفلهن ورحمهن وترفق بهن فهو معي في الجنة وقيل

أحب البنات فحب البنا * ت فرض على نفس كريمه

وان شعيبا لاجل ابنتيه * أخدمه الله موسى كليمه

قال اسحاق بن خلف المعروف بابن الطبيب في ابنة أخت له كان رباها يتيمة تسمى أميمة

لولا أميمة لم أجزع من العدم * ولم أجب في الليالي حندس الظلم

وزادني رغبة في العيش معرفتي * ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرحم

أخشى فظاظة عم أو جفاء أخ * وكنت أبكي عليها من أذى الكلم

اذا تذكرت بنتي حين تندبني * فاضت لعبرة بنتي عبرتي بدم

وقال صلى الله عليه وسلم خير بيوتكم بيت فيه يتيم مكرم وورد عنه صلى الله عليه وسلم خيركم خيركم لنسائه وبناته وورد عنه صلى الله عليه وسلم ان الله يحب أبا البنات الصابر المحتسب وورد عنه صلى الله عليه وسلم لا تكرهوا البنات فانهن المؤنسات الغاليات وورد عنه صلى الله عليه وسلم من يمن المرأة تبكيرها بالانثى

ومن أحسن الاحسان الى البنات تزويجهن الى من هوينه وأحببنه قال زيد بن عمرو كان فينا رجل له ابنة شابة وكان له ابن أخ يهواها وتهواه فمكثا بذلك دهرا ثم ان

مطلب ان من أحسن الاحسان تزويج البنات لمن أحببنه

الجارية خطبها بعض الاشراف وأرغب في المهر فأتم أبو الجارية واجتمع القوم للخطبة فقالت الجارية لأمها يا أماه ما يمنع أبي أن يزوجني من ابن عمي قالت أمر كان مقضيا قالت والله ما أحسن ذلك رباه صغيرا ثم يدعه كبيرا ثم قالت أي أماه اني والله منه حامل وا كتمي ان شئت أو فبوحي فأرسلت الأم الى الاب فأخبرته الخبر فقال ا كتمي هذا الامر ثم خرج الى القوم فقال يا هؤلاء اني كنت أجبتكم وانه حدث أمر عسى أن يكون فيه الاجر واني أشهدكم اني زوجت ابنتي فلانة من ابن أخي فلان فلما انقضى ذلك قال الشيخ ادخلوها فقالت الجارية هي بالرحمن كافرة ان دخلت عليه الا بعد سنة تبين نفي حملها قال فما دخل بها الا بعد الحول قال فعلم أهلها انها احتالت على أبيها

ثم ان الاولاد الناشئين عن آبائهم وأمهاتهم اذا حسنت تربيتهم وحسنت المحبة من الآباء لهم وحسن برهم لآبائهم كان في الغالب بينهم محبة ووداد بعضهم لبعض واتحاد والتئام وانتفت الغيرة منهم للتسوية بينهم في التربية والتآلف فيشبون عادة على محبة بعضهم لبعض وتسمى هذه المحبة بالمحبة الاخوية

(الفصل الرابع في المحبة الاخوية)

متى صح الود بين الآباء والامهات وصحت تربية البنين والبنات بسلوك الآباء طريق العدل والانصاف في تسوية أبنائهم وبناتهم في تقويم أودهم شب الاخوة على التحابب والتواد بعضهم لبعض فهذه محبة الاخوية وهي فضيلة من الفضائل العظيمة لانها عبارة عن وجود الوفاق والاتحاد بينهم فهذه الفضيلة تكسب العائلة قوة وأمنا وحفظا وصونا فان اجتماع الاخوة المتحابين تعاون على الاجنبي فيحمي بعضهم بعضا من عدوهم فلا يصاب أحد الاخوة بضيم مادام اخوته انصارا له وعند الضرورة المعاشية يعين بعضهم بعضا ويساعد الأخ أخاه اذا جار عليه الزمان وحاربته صروف الحدثان فباتحاد الاخوان يثبت قدم العائلة ويرسخ أساسها ويكون له صورة وجود قوي في خارج الاعيان بخلاف ما اذا بغض الاخوة بعضهم بعضا ووقع بينهم التحاسد والمشاحنة وصار أمر كل منهم موكولا على حدته لقوة نفسه لا ناصر له ولا معين من اخوته فانه بهذه المثابة يصير عرضة لجميع مكاره العزلة والانفراد والضعف الشخصي المترتب على عدم الاتحاد وهذا معنى ما ينسب لبعض العقلاء من ملوك التركمان أرباب الحكمة والامثال في قديم الزمان وذلك ما يحكى ان خاقانا من خواقين التركمان كان مريضا في فراشه وقد أيس من حياته فأحضر أولاده بين يديه وأحضر حزمة من الرماح لديه

وامرهم

وأمرهم أن يحطموها بأيديهم فعجزوا عن ذلك مع كونهم في عنفوان الشباب ونضارة الاهاب أقوياء العروق والاعصاب ولم تؤثر فيها أيديهم شيئا فأخذها الخاقان وفرقها من بعضها رمحا رمحا فصار يحطم بأطراف أصابعه كل واحد منها حتى كسر الجميع ثم قال لاولاده انظروا الى فضل الاجتماع وثمرته فاذا اجتمعتم عصبة واحدة كالحزمة الواحدة فلا غالب لكم من أعدائكم واذا تفرقتم تحطمتم كالقناة

وكان بعض نساء العرب يفضل الاخ على الزوج والابن قيل لامرأة كان أمر الحجاج زوجها وابنها وأخاها اختاري أيهم شئت فقالت الاخ فان الزوج موجود والابن مولود والاخ مفقود فقال الحجاج قد عفوت عنهم بحسن كلامها فلولا انها ذات نسب ما نطقت بهذا الكلام

مطلب ان بعض نساء العرب كان يفضل الاخ على الزوج والابن

وحزن متمم بن نويرة على أخيه مالك لما قتل في الردة ورثاؤه له بقصائد طنانة رنانة يدل أبهر دلالة على المحبة الاخوية وقوله فيه حين قتل فتى ولا كمالك مما تضرب به الامثال أي فتى ليس له مثيل وكذلك بكاء الخنساء على أخيها صخر مما سارت به الركبان وكذلك محبة أمه له وحزنها عليه في مرضه وسآمة زوجته من طول علته مما أطنبت فيه السير هو للفرق بين الام والزوجة عبرة لمن اعتبر وذلك ان صخر بن عمرو أخا الخنساء لما طعنه أبو ثور الاسدي طعنة في جنبه مرض منها حولا كاملا حتى مله أهله أي زوجته فسمع امرأة تقول لامرأته سلمى كيف بعلك فقال لا حي يرجى ولا ميت فينعى لقد لقينا منه الامرين فقال صخر

أرى أم صخر لا تمل عيادتي * وملت سليمى مضجعي ومكاني
فأي امرئ ساوى بأم حليلة * فلا عاش الا في شقا وهوان

فلما طال به البلاء نتأت قطعة من جنبه في موضع الطعنة فقطعوا ذلك الموضع فيئس من نفسه فمات فصارت أخته الخنساء ترثيه وتبكيه دائما فمن ذلك قولها

تذكرني طلوع الشمس صخرا * وأذكره بكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي * على اخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن * أسلي القلب عنه بالتأسي

وما حكاه الجاحظ عن أخت ملك الخزر يفيد نصيحة الاخوات لاخوتهم فقد قال الجاحظ حدثني حميد بن عطاء قال كنت عند الفضل بن سهل بدار الخلافة ببغداد وعنده رسول ملك الخزر وهو يحدثنا عن أخت ملكهم قال أصابتنا سنة احتدم شواظها علينا بحر

المصايب وصنوف الآفات ففزع الناس الى الملك فلم يدر ما يجيبهم به فقالت أخته أيها الملك ان الخوف لله خالق لا يخلق جديده وسبب لا يمتهن عزيزه وهو دال الملك على استصلاح رعيته وزاجره عن استفسادها وقد فزعت اليك رعيتك بفضل العجز عن الالتجاء الى من لا تزيده الاساءة الى خلقه عزا ولا ينقصه العود بالاحسان اليهم ملكا وما أحد أولى بحفظ الوصية من الموصى ولا بركوب الدلالة من الدال ولا بحسن الرعاية من الراعى ولم تزل فى نعمة لم تغيرها نقمة وفى رضى لم يكدره سخط الى ان جرى عند القدر بما عمى عنه البصر وذهل عنه الحذر فسلب الموهوب والواهب هو السالب فعد اليه بشكر النعم واستعذ به من قطيع النقم فتى تنسه ينسك ولا تجعلن الحياء من التذلل للعز المذل سترا بينك وبين رعيتك فتستحق مذموم العاقبة ولكن مرهم ونفسك بصرف القلوب الى الاقرار له بكنه القدرة وبتذلل الالسن فى الدعاء بمحض الشكر له فان المالك ربما عاقب عبده ليرجعه عن سيء فعل الى صالح عمل أو ليبعثه على دائب شكر ليحرز به فضل أجر فأمرها الملك ان تقوم فيهم فتنذرهم بهذا الكلام ففعلت فرجع القوم وقد علم الله منهم قبول الوعظ فى الامر والنهى فحال عليهم الحول وما منهم مفتقد نعمة كان سلبها وتواترت عليهم الزيادات بجميل الصنع فاعترف لها الملك بالفضل فقلدها الملك فاجتمعت الرعية لها على الطاعة فى المكروه والمحبوب

وقد خلق الله الناس أطوارا فطائفة للعبادة وطائفة للسياسة وطائفة للفقه والسنة وطائفة للبأس والنجدة ورجوعة بين ذلك يغلون السعر ويكدرون الماء

وكان العلامة الصالح المعمر الشيخ عبد الله بن حزام أبو الطوع الفيومى المالكى يأتى اليه أحد العوام فيقول له حاجتى فى بلد كذا فقم معى حتى أقضيها فيطيعه ويذهب معه الميلين والثلاثة ويقضيها له وقد تكرر ذلك منه وكان له فى كل يوم صدقات على الفقراء والمساكين يفرقها عليهم بيده ولا يشمئز وكان الذى على نسقة العلامة الشيخ سليمان الفيومى رحمهما الله

وقال الامام على كرم الله وجهه من كانت له الى حاجة فليرفعها الى فى كتاب لاصون وجهه عن المسألة فوقف اعرابى للامام على رضى الله عنه وقال ان لى اليك حاجة رفعتها الى الله قبل ان أرفعها اليك فان أنت قضيتها حمدت الله وشكرتك وان أنت لم تقضها حمدت الله وعذرتك فقال خطها فى الارض فخط انى فقير فدفع اليه حلة فلما تسلمها أنشد

كسوتنى

كسوتني حلة تبلى محاسنها * فسوف أكسوك من حالى الثنا حللا
ان الثناء ليحيي ذكر صاحبه * كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في عرف بدأت به * فكل شخص سيجزى بالذى فعلا

و روى عنه صلى الله عليه وسلم ان لله عبادا خلقهم لحوائج الناس و روى عنه أيضا من مشى فى عون أخيه فله ثواب المجاهدين و روى عن أبى هريرة رضى الله عنه ان لله ملائكة سائحين فى الارض فاذا أرادوا رجل يتكلم مع رجل فى قضاء حاجة وقفوا عندهما فان قضاها بسطوا أيديهم ودعوا له بالمغفرة والهداية وأمنوا على بعضهم
وكان صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة وهو لا يسأل فى شئ الا أعطاه وكان اذا دخل رمضان أطلق كل أسير وأعطى كل سائل وكان جوده صلى الله عليه وسلم بجميع أنواع الجود من بذل العلم والمال و بذل نفسه فى اظهار دينه وهداية عباده وايصال النفع العميم بكل طريق من اطعام جائعهم ووعظ جاهلهم وقضاء حوائجهم وتحمل أثقالهم ولم يزل صلى الله عليه وسلم على هذه الخصال الحميدة منذ نشأ ولهذا قالت له خديجة رضى الله عنها فى أول بعثه لما عاد اليها وأخبرها الخبر وقت رجوعه من غار حراء بعد ما غطه جبريل عليه السلام لما أمره بالقراءة وحصل له الجهد من ذلك والله لا يحزنك الله أبدا انك لتصل الرحم وتقرى الضيف وتحمل الكل وتعين على نوائب الدهر وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم من لم يحمل هم المسلمين فليس منهم وفى لفظ من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم أى علامة من يحمل همهم ان يكون حاله كحال صاحب الاولاد يوم موت أعز أولاده أو أخوانه وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه اذا حصل للناس هم يخلع ثيابه ويلبس ثوبا قصيرا لا يكاد يبلغ ركبتيه ثم يرفع صوته بالبكاء والاستغفار وعيناه تدمعان حتى يغشى عليه وكان اذا نزل بالمسلمين بلاء لا يضحك قط وكذلك عمر بن عبد العزيز وسفيان الثورى وعطاء السلمى حتى يرتفع ذلك البلاء وكان الشيخ على الخواص اذا نزل بالناس بلاء لا يتكلم ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام حتى ينكشف روى ان موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قال يارب دلنى على أحب الخلق اليك فقال ياموسى أحب الخلق الى من اذا سمع ان أخاه المؤمن شاكته شوكة حزن لما كانها شاكته هو وقيل لا يصلح لصحبة الامراء الا رجال الرحمة واما رجال النقمة فلا يصلحون لصحبة الولاة لانهم يمقتونهم ويهلكونهم ولولا رجال الرحمة وشفاعتهم فينا لنزل علينا العذاب فأهلكنا السوء ما نفعله ومن أعان ظالما سلطه الله عليه ومن

طلب رضاه بسخط الله أسخط الله وأسخطهم عليه ولا يحيق المكر السيء الا بأهله وقال الشيخ على الخواص أعرف جماعة من أرباب الاحوال يقيمون دائما في مواضع المعاصي فيشفعون في اهل هذه المعاصي كلما عصوا أوكلما أصروا إما ان يغفر الله لهم واما ان يتوبوا عقب ذنب ولا يصروا وقال تقي الدين بن حجة

وأسعد العالم عند الله * من ساعد الناس بفضل الجاه
ومن أغاث البائس الملهوفا * أغاثه الله اذا أخيفا
وان من خلائق الكرام * رحمة ذى البلاء والاسقام

وقد ورد ان موسى عليه الصلاة والسلام لما رعى الغنم لم يضرب واحدة منهن بعصاه انما كان يهش بها فقط وكان لا يجيعها ولا يؤذيها بعطش وجاء بها مرة الى نهر ليسقيها فوجد فيها شاة عرجاء لا تقدر على الوصول الى الماء فحملها ونزل بها فسقاها فلما رأى الحق منه قوة شفقته على غنمه بعثه الله نبيا وكليما راعيا لبنى اسرائيل وناجاه بالتوراة وغيرها فمن رحم رعيته وشفق عليه اصطفاه الله من بين الخلق وقال صلى الله عليه وسلم كما تكونوا يولى عليكم وقيل أعمالكم عمالكم

ونهى صلى الله عليه وسلم ان يعذب أحدكم دابته بأن يحملها ما لا تطيق أو يتعبها في الاشغال أو يعذب كلبه أو قطه بالجوع أو بالنار أو نحو ذلك فان الله تعالى لا يعذب أحدا بالجوع ونهى عن أكل الكلاب وثمنها ودية الكلب السلوقي ان يكون درهما ودية كلب الغنم كبش ودية كلب الزرع فرق من طعام ونهى عن تحريق خشاش الارض فانه ما خلق الله شيئا عبثا

وماذكرناه من خطبة ملكة الخدرا التي يظهر انها مترجمة بالعربية يفيد ان في نساء الاعجام من الفصاحة في لسانهم والبلاغة فيه مثل ما يوجد في نساء العرب فان لنساء العرب فصاحة وبلاغة قل أن توجد في الرجال وروى الاحنف بن قيس قال سمعت كلام أبي بكر حتى مضى وكلام عمر حتى مضى وكلام عثمان بن عفان حتى مضى وكلام على بن أبي طالب حتى مضى فلا والله ما سمعت فيهم أبلغ من عائشة رضى الله عنها وكان صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يلاطفها بقوله يا حميراء تصغير حمراء ومعناها البيضاء وفي القاموس الاحمر ما لونه الحمرة والبياض

وقال معاوية بن أبي سفيان ما رأيت أبلغ من عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ما غلقت بابا قط وأرادت فتحه إلا فتحته ولا فتحت بابا وأرادت غلقه الا اغلقته وروى الشعبي

مطلب في فصاحة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وبعض صفاتها

عن شبرمة قال لما كان يوم الجمل لغط الناس في عسكر عائشة رضي الله عنها فالتفتت ثم أشارت ان كفوا فكانما قطعت الالسن في الافواه ثم قالت أيها الناس ان لي عليكم حق الامومة وحق الصحبة فلا يتهمني منكم الا من عصى ربه قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سحري ونحري وانا احدى نسائه في الجنة وله حصنني ربي عز وجل من كل بضع وأبي ثاني اثنين وأول من سمي صديقا قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنه راض وقلده رهق الخلافة فرقد النفاق وأطفأ واقدة المشركين حين اضطرب حبل الدين وأنتم يومئذ جحظ العيون تسمعون الصيحة وتدعون الدعوة فقام بحق الله حتى قبضه الله اليه واني أقبلت أطالب بدم الخليفة المنتهكة منه الحرم الاربع حرمة الخلافة وحرمة الصحبة وحرمة الاسلام وحرمة البلد الحرام فمن ردنا بالحق تابعناه ومن ردنا بالباطل قاتلناه انتهى وكانت عائشة رضي الله عنها تصوم الدهر كله ولا تفطر الا يوم الاضحى ويوم الفطر وتوفيت رضي الله عنها ليلة الثلاثاء لتسع عشرة خلون من شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وهي ابنة ست وستين سنة وأوصت ان تدفن بالبقيع مع صواحباتها وصلى عليها أبو هريرة وروت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألفا ومائتي حديث وروى عنها خلق كثير من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم

وما تقرر من اتحاد الاخوة يقال مثله في اتحاد الاخوان ففي الحديث الشريف المرء كثير بأخيه كما قيل

ماضر من كان له صاحب * يقدر أن يصلح من شانه
فانما الدنيا بسكانها * وانما المرء باخوانه

وقال تقي الدين بن حجة

فانما الرجال بالاخوان * واليد بالساعد والبنان
لا يحقر الصحبة الا جاهل * أو مائق عن الرشاد غافل
وموجب الصداقة المساعدة * ومقتضى المودة المعاضدة
لاسيما في النوب الشدائد * والمحن العظيمة الاوابد

مطلب انه ينبغي للشخص ان يختبر من يريد اتخاذه صاحبا بواحدة من ثلاث خصال

وقال بعضهم اختبر من تريد اتخاذه صاحبا من الرجال بواحدة من ثلاث خصال الاولى ان تنظر كيف كان مع اخوانه وأهل عشيرته الذين سبقوك الى مودته وصحبته فان رأيته فرقهم وجفاهم وتركهم فتباعد عن صحبته واعلم انه لا جديد لمن لا خلق له قال الشاعر

اذاما أردت إخاء امرئ * فسل كيف كان لاخوانه
فامارغبت فأحببته * وإما ترغبت عن شأنه

الثانية ان تنظر كيف صلته لرحمه موجودها ومفقودها لاسيما أبويه اللذين هما السبب القريب فى كون نفسه ووجودها فان وجدته لاحد أبويه منازعا ففرّ منه فرارك من العيب والعار واعلم ان الله قاطعه عن كل خير وان مصيره الى النار ولعمرى ان قاطع الرحم أخبث من قاطع الطريق فكيف يطمع العاقل أن يكون له من ذلك العدوّ خير صديق ومن كان قاطعا لرحم الانساب كيف يرجى وصله لرحم الاصحاب الثالثة أن تغضب من تريد اتخاذه صاحبا وحميما فان الغضب يظهر لك من أخلاقه ما كان مكتوما

وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أخبرتقله وقيل احذر الصاحب الصاخب والقسيب النشيب وعليك بالخليل الجليل الاثيل الاصيل النبيه النبيل الذى يتباعد منك عند وضع الموائد ويتفقدك فى أوقات الشدائد ويستر ما بدا من عيبك ويحفظك فى حضورك وغيبك ويعينك اذا عثرت ويفهم ما فى ضميرك من عينك اذا نظرت ويغار عليك من خياله ويفديك بنفسه وبماله كما قال الشاعر

ان أخاك الحق من كان معك * ومن يضر نفسه لينفعك
ومن اذا ريب الزمان صدعك * شتت فيك شمله ليجمعك

واحذر أن تتخذ صاحبا من السفل وهو من يصحبك للاغراض والعلل فانه متى انقطعت علته تبعتها خلته واياك ووضع أمانة الاسرار فى خزائن صدور الاشرار فانهم أنم من الزجاج على الشراب ومن المشيب على الخضاب بل أنم من جرس ومن جوزتين فى مخلاة فرس واسمع قول بعض الحكماء الذى لا يضل من يسمعه سر المرء من دمه فلينظر أين يضعه واحذر الشره فانه يهدم الشرف وربما عجز صاحبه عند تلافى التلف وانظر الى من هو تحتك فى الدنيا والى من فوقك فى الدين وازهد فى النعيم الفانى تفز بالنعيم الباقى أبد الآبدين

وقال الامام على كرم الله وجهه عليكم باخوان الصدق ومجانبة القرين السوء فان اخوان الصدق زين فى الرخاء وعدّة عند البلاء وقيل

اجعل

أجعل قرينك من رضيت فعاله * واحذر مقارنة القرين الشائن

وقيل

تجنب قرين السوء واصرم حباله * وان لم تجد منه محيصا فداره
وأحبب حبيب الصدق واترك مراءه * تنل منه صفو الود ما لم تماره

وقال بعضهم ان العقل فى ستة أشياء مؤاخاة الاكفاء ومداراة الاعداء والحذر من السقطة والتيقظ من الورطة وتجرع الغصة ومعاجلة الفرصة

ولا شك ان المخالطة تؤثر والطباع سراقة ولذلك قيل لا يصحب الانسان الا نظيره وان لم يكن من بلده فصحبة الاخيار تورث الفلاح والنجاح ومجرد النظر الى أهل الصلاح يؤثر صلاحا والنظر الى الصور يؤثر أخلاقا وعقائد مناسبة لخلق المنظور اليه وعقيدته كدوام النظر الى المحزون يحزن والى المسرور يسر والجمل الشرود يصير ذلولا بمقارنة الذلول فالمقارنة لها تأثير فى الحيوان بل فى النبات ففى النفوس أولى

وقال عبد الله بن جعفر لذتى فى ثلاث يد أصطنعها أو حاجة أقضيها أو صديق استفيده

وقال بعض الحكماء لقاء الاخوان جلاء الاحزان وبالجملة فيجب فى جميع الامور أن يجرى الجمهور على التخلق باخلاقه صلى الله عليه وسلم فهى نور على نور قال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قلت لعائشة أم المؤمنين رضى الله عنها صفى لى خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت اما تقرأ القرآن كان خلقه القرآن ومعنى هذا أن القرآن يجمع كل فضيلة ويحث عليها وينهى عن كل نقيصة ويباعد عنها مثل قوله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وكما فى قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى الآية قال بعضهم ان هذه الآية الشريفة أجمع آية فى كتاب الله تعالى للخير والشر وقال ابن مسعود رضى الله عنه أعظم آية فى كتاب الله تعالى الله لا اله الا هو الحى القيوم الآية وأجمع آية فى كتاب الله تعالى للخير والشر ان الله يأمر بالعدل والاحسان الآية وأكثر آية فى كتاب الله تعالى تفويضا ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب الآية وأشد آية فى كتاب الله تعالى رجاء قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الآية وما من شئ يحتاج اليه الناس من أمر دينهم مما يجب أن يؤتى ويترك الا وقد اشتملت عليه هذه الآية

(خاتمة حسنى)
(فيما يتعلق بحفظ الصحة التي هي للانسان أعظم منحة وفي شذرة)
(من كلامه صلى الله عليه وسلم وفيها فصلان)
(الفصل الاول)
(فيما يتعلق بحفظ الصحة التي هي للانسان أعظم منحة)

كانت العرب في قديم الزمان جل طعامهم التمر واللبن واللحم والخبز فمنهم من كان يقتصر على التمر واللبن ومنهم من كان يقتصر على الخبز فكان في العرب عبد الله بن حبيب العنبري سيد بني العنبر في زمانه يسمى آكل الخبز لانه كان لا يأكل التمر ولا يرغب في اللبن فكان بنو العنبر اذا تفاخروا قالوا منا آكل الخبز وكان الخبز عندهم كالفالوذج عند الاعجام ثم صار الفالوذج عند العرب أشرف طعام وقع اليهم حتى ان عبد الله بن جدعان من أشراف العرب أول من أطعم الناس هذا الطعام فمدح بذلك واشتهر به وأما الثريد الذي هو الخبز مع اللحم فكان عند أشراف قريش عاما يضاهي الفالوذج وغلب عليه هاشم حين هشم الثريد لقومه وأطعمهم في المحل فمدح به في قول الشاعر

عمرو العلا هشم الثريد لقومه * ورجال مكة مسنتون عجاف

وقال آخر لا أحد كهاشم وان هشم * كلا ولا كحاتم وان حتم

فالثريد عند العرب هو أوفق للصحة من سائر الاطعمة وقال صلى الله عليه وسلم فضل الثريد على الطعام كفضل عائشة على النساء ضرب صلى الله عليه وسلم المثل بالثريد لانه أفضل طعامهم ولانه مركب من خبز ولحم ولا نظير له في الاطعمة لانه جامع بين الغذاء واللذة والقوة وسهولة التناول وقلة المؤنة في المضغ وسرعة المرور في الحلقوم والصواب ان الحاجة للخبز أعم واللحم أفضل وهو أشبه بجوهر البدن من كل ما عداه وخص صلى الله عليه وسلم المثل بالثريد ايذانا بأن عائشة جمعت من حسن الخلق وحسن الحديث وحلاوة المنطق وفصاحة اللهجة وجودة القريحة ورزانة الرأي ورصانة العقل والتحبب الى البعل ومن ثم عقلت عنه ما لم يعقل غيرها من نسائه وروت عنه ما لم يرو مثلها من الرجال والنساء

ولم يزل الثريد عند عرب الارياف مستحسنا ولو أن أشكال الاطعمة تنوعت الى ما لا نهاية له الان فالائق بالاطفال والصبيان حفظ الصحة بعدم تعويدهم على الجشع والنهم فلا ينبغي أن يمكن الصبي من جميع ما يطلبه من المآكل فانه يكون كالمستغيث من الجوع

الجوع بما يقتله فان الصبي كلما اشتهت نفسه شيئا وظفر به كأنه وجد تمرة الغراب كما يحكى ان بعض العرب دخل على أهله وهو جائع عطشان فبشروه بمولود وأتوه به فقال والله ما أدري أآكله أم أشربه فقالت امرأته هو غرثان فأطعموه وأسقوه فلما طعم وشرب قال كيف الطلا وأمه فأرسلها مثلا يضرب لمن ذهب همه وتفرغ لغيره وبالجملة فينبغي تعويد الصبي على عدم النهم وتقليل الطعام ومن الامثال أقلل طعامك تحمد منامك لان كثرته تورث الآلام المسهرة والامراض المنفرة

ومن المعلوم ان المرض أمر مقلق شاق على النفوس ومع ذلك فالصغار لاسيما تلامذة المكاتب من غلمان وبنات يجدون فيه بعض راحة حيث ان الصغير المريض لا يذهب الى محل التعليم ولا يكلف بحفظ درس ولا غيره واذا احتاج الى دواء كريه للنفس ليشربه فان الغالب ان يحلى له بأنواع الحلوى التي يميل اليها الصبي بالطبع يروى ان بعض أبناء الملوك دخل على المبرد وعنده سلة حلوى قد أعدها لبعض إخوانه فوجد ابنه الفرصة في اشتغال أبيه مع الداخل اليه فأقبل يأكل منها فنظر اليه المبرد فأنشده

الناس في غفلاتهم * ورحى المنية تطحن

وقد جرت العادة ان المريض يواسيه أهله ويلاطفونه أيام مرضه فالصغار الذين يميلون الى راحة أنفسهم عادتهم أن يألفوا المرض ولا يكترثون به لعدم تفكرهم فيما يحصل لاهليهم من التألم بذلك بخلاف الصبيان الذين تحسن آباؤهم تربيتهم فانهم يتفكرون في أن قلوب آبائهم تضطرم بنار القلق والحيرة عند مرضهم وانهم لا يذوقون الراحة ولا يتلذذون بالنوم فهم دائما يحرصون على حفظ الصحة واجتناب أسباب الامراض ولا يعرضون أنفسهم لذلك شفقة على آبائهم

وقد جرت العادة كذلك ان المرء قليل الاولاد اذا كان له ولد بلغ من العمر في السن أربع سنوات يعز على أبيه وأمه فيربى في الدلال والدعابة يعني يتعود أن يفعل كما يشاء من السفه بدون ان ينهاه مربيه فينشأ هذا الولد على الاستعداد على أنواع التلف الصادر عن الغفلة وعدم النصيحة فيكون هذا الولد لاتجريب عنده في شيء من العيشة ويكبر بدون أن يعلم شيئا من أحوال الدنيا فمثله كمثل الجيش الذي يحاول الانتصار على عدوه فيحتاج في ذلك الى قائد شجاع همام يكلفه التكليفات الشاقة حتى ينتصر على أعدائه فمثل هذا الصبي يحتاج الى مؤدب يسلك معه في التربية سبيل الجد

فنفرض ان هذا الصبي صار قوي الرأس كالبغل الحرون وكثير الهذر في الكلام

كالبيغاء وسمين الجسم بحجر والقصاب فلا شك من منظره انه متسلط عليه داء النهمة وانه نهم لا يشبع وان همه من الدنيا ليس الا مل ء بطنه وانها صنمه المعبود له لا يعرف سوى أداء حقها بأ كثر ما تستحقه من الطعام

فكثيرا ما يصاب هذا الصبي بداء عدم الهضم والتهاب المعدة ويعالج منه حتى يشفى ثم يعود الى عادته وتضرم في جوفه النهامة ولا يستطيع أبواه ان يصحاه على ترك الا كثار من الطعام والشراب حتى ان الحكيم اذا نصحه وقال له ان كثرة الا كل تضر بالبدن قال له ان في ذلك لذة وراحة وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه حسب الآدمي لقيمات يقيمن صلبه فان غلبت الشخص نفسه فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس وورد عنه صلى الله عليه وسلم البطنة تذهب الفطنة وقال صلى الله عليه وسلم البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعودوا كل جسم ما اعتاد وقيل ان رجلا سأل رجلا في مرض موته فقال أوصني فقال ان شئت جمعت لك علم العلماء وحكم الحكماء وطب الاطباء في ثلاث كلمات أما علم العلماء فان سئلت عما لا تعلم فقل لا أعلم وأما حكم الحكماء فاذا كنت جليس قوم فكن اسكتهم فان أصابوا كنت من جملتهم وان أخطأوا سلمت من خطأهم وأما طب الاطباء فاذا أكلت طعاما فلا تقم الا ونفسك تشتهيه فانه لا يلم بجسدك غير مرض الموت

قال بعضهم والا كل على ثلاث مراتب فرض وهو قدر ما يندفع به الهلاك ويمكن معه الصلاة قائما ومباح وهو أدنى الشبع بنية أن يقوى على العبادة وحرام وهو ما زاد على ذلك الا للصوم في غد أو لموافقة الضيف ومن سنن الا كل غسل اليدين قبله وبعده والتسمية قبله والشكر بعده ومن اشتد جوعه وعجز عن كسب قوته يجب على من علم بحاله اطعامه وان لم يعلم به أحد يجب عليه أن يسأل ويعلم بحاله فان لم يفعل حتى مات كان كقاتل نفسه ومن له قوت يوم لا يحل له السؤال ويباح له الاخذ وينبغي أن لا يجمع الانسان بين حارين كاللحم والبيض ولا باردين كالسمك واللبن ولا بين رطبين كالفواكه واللبن ولا بين يابسين كالدخن والعدس ولا يأكل شيأ شديد اللزوجة يصعب على الاسنان قطعه فهو أصعب على المعدة أن تهضمه ولا يشرب عقب الا كل بسرعة حتى يسكن الطعام في معدته فكل ذلك مضر وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أصل كل داء البردة وهي إدخال الطعام على الطعام وقال صلى الله عليه وسلم لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فان القلب كالزرع يموت اذا كثر عليه الماء

والا كل

والاكل بقدر يفرح القلوب ويصلح الجسم ويزيد في الحفظ ومن قال الغذاء زاد نشاطه في الغداء فارفع يدك عن الطعام وأنت تشتهيه فان الشهوة تبطل بعد ساعة وقال الاحنف بن قيس اختارت الحكماء من كلام الحكمة أربعة آلاف حكمة ثم اختاروا منها اربعمائة كلمة ثم اختاروا منها أربعين كلمة ثم اختاروا منها أربع كلمات الاولى أن لا تثق بالنساء الثانية لا تحمل معدتك ما لا تطيق الثالثة لا يغرنك المال وان كثر الرابعة يكفيك من العلم ما تنتفع به وقال أيضا ثلاثة لا ينبغي للعاقل أن يتركهن عمل يتزود به لمعاده وصنعة يستعين بها على أمر دينه ودنياه وطب ايذب به الداء عن جسده وعن نفسه

قال الحكماء الاصلح في كل يوم وليلتين ثلاث أكلات وقت البرد وقال بعضهم كل يوم وليلة أكلة وهي عند افطار الصائم ولا بأس بما قد تعود الناس عليه من الغداء والعشاء بكرة وعشية مع القدر اليسير من الطعام وليجد مضغه حتى يسهل على المعدة ويبدأ بسم الله ويختم بالحمد لله ويأكل مما يليه هذا هو الحال الاصلح وقال أفلاطون راحة الجسم في قلة الطعام وراحة اللسان في قلة الكلام وراحة الروح في قلة المنام وراحة القلب في قلة الاهتمام وقال بعضهم

جميع الطب في بيتين حقا * وحسن القول في قصر الكلام
فأقلل ان أكلت وبعد أكل * تجنب فالشفاء في الانهضام
وليس على النفوس أشد تعسا * من ادخال الطعام على الطعام

روى عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب فان الله يطعمهم ويسقيهم وروى أبو سعيد قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان أخي استطلق بطنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اسقه عسلا ثم جاء فقال اني سقيته عسلا فلم يزده الا استطلاقا فقال له ثلاث مرات ثم جاء الرابعة فقال اسقه عسلا فقال لقد سقيته فلم يزده الا استطلاقا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق الله وكذب بطن أخيك فسقاه وبرئ

وقال بعضهم الادوية من جنس الاغذية فمن غالب أغذيتهم مفردات كاهل البوادي فأمراضهم قليلة جدا وطبهم بالمفردات ومن غالب أغذيتهم مركبات كأهل المدن يحتاجون الى الادوية المركبة وسبب ذلك ان امراضهم في الغالب مركبة

ولنذكر هنا محاورة طبيب مع صبي منهم وهو أن ذلك الطبيب عاد ذات يوم من

الايام صبيا متعودا على المرض بالتخمة واكتساب الآلام وكان هذا الصبي دائما تظهر منه السخافة وخفة العقل فوجده طبيبه على خلاف عادته متصفا باللطافة والظرافة وفي يده كيس مكلل باللؤلؤ والمرجان والصبي بهذا الكيس الظريف المملوء من النقود جذل فرحان فقال له الطبيب هل كيسك المملوء من الدراهم والدنانير يسع شيأ زيادة عما فيه من قليل أو كثير فقال الصبي حيث هو بالدراهم ملآن فكيف يسع ما يدخله الآن فقال الطبيب اذا أعطيت شيأ من المال له بال فهل تقدر أن تدخله في الكيس على هذا الحال فقال الصبي ليس فيه محل خال فادخال ما يزيد على ما فيه من المحال فقال الطبيب لو أردت أن تضع فيه الدراهم الزائدة بشدة القوة والعنفوان لفزت بهاان وجدت لها فيه مكان وساعدك الامكان والا تلف الكيس وتمزق وتفتق وتخرق فجرب لتعرف وتعلم لتنصف فقال له الصبي تجربتي لوضع الدراهم الزائدة في مثل هذا الكيس الظريف المرصع باللؤلؤ تكون مضرة وبدون فائدة فقال له الطبيب الحق معك ولكن أخبرني بصورة حضورك في مجلس المائدة اذا طلبت القدح للشراب هل تملؤه لنفسك بنفسك أو يملؤه لك بعض الاقارب والاحباب فقال انا الذي أملؤه لنفسي وأشربه بدون ان يكون أحد يقربه فقال الطبيب اذا قدحك امتلا هل تستمر على صب الماء فيه على الولا واذا صببت عليه الماء ماذا يصيبه وماذا يكون نصيبه فقال الصبي يسقط الماء الزائد على السماط ويحصل لاهل المجلس الانقباض بعد الانبساط فقال له الطبيب اعلم أيها الصبي ان معدتك ككيسك أو قدحك في ملائها وزدت عليها شيئا فقد أتلفتها وهي أعظم منهما فاذا أكلت أزيد من ملء بطنك أضعفت معدتك التي داؤها عضال ينتج عنه جميع الاوجاع والاوحال وربما كانت التخمة سببا لقصر الاعمار والآجال ومع نصيحة الطبيب لهذا الصبي السفيه واقناعه بالشواهد القوية لم تنفعه الوصية والا كان يتبع نصح طبيبه ويقتفيه قال الطبيب المذكور اتفق لي ذات يوم من أيام المواسم التي تفرح فيها الصبيان وتتعب منها الشيوخ من كثرة آلام الولائم انى كنت نائما عقب تعب ونصب فأيقظني أبو ذلك الصبي فجأة بدون ان أبلغ من نعاسي الارب ودموعه تسيل على خده مع شدة حزنه ووجده وقال ان ابني به خناق قبيح وانه من شدة الوجع يبكي ويصيح وان أهل المنزل في غاية من الحزن والغم لما ألم بهذا الولد من الالم فاسرعت بالقيام لانظر ما بهذا الصبي من الآلام وآمر له من العلاج بما يلائم

بلاثم فذهبت اليه للعيادة فلم أجد به سوء الهضم كالعادة بل وجدت به حمى ثقيلة لا تطاق وانه من الخطر يتحمل جميع المشاق فبالسؤال عن السبب وجدانه لم يكتف من أكل الملبس والحلوى في جميع يومه بالأرب ولكن أثقل معدته بجزء وافر من الفطير والكعك الناعم النضير فرأيت جميع أعضائه ترتعش من الحمى الباطنة التي حرارة نارها في جميع بدنه كامنة لاسيما وقد تمكنت من رأسه كل التمكين حتى كان بها تنورا يوقد في كل حين فبهذا احمرت منه العينان ويبس منه اللسان ونشف الاهاب وماهذا الا لاصابة معدته بالالتهاب وهو حريق لا يحمله الشيوخ فضلا عن الشباب فوجب على أن أمرله بعلاج صعب يليق بقساوة الطبيب فأمرت بأخذ الدم بالدود الكثير والحراريق العديدة وأشربة العقاقير فما اجتنبه بجميع أنواع الادوية الصعبة وكان غنيا عن ذلك لو أزمع من ذنب النهامة توبة فكان هذا الداء عقوبة له على اتباع هوى بطنه ولاهله على تمكينهم له من كل ما يشتهيه بدون نظر الى خوفه وأمنه ومع ذلك فهم في غاية من القلق والنكد جزاء لهم على ما عودوا عليه هذا الولد وبهذا كله لم يتأثر الصبي بحزن أبيه وأمه ولا يحب غير امتلاء بطنه وفي هذه الحادثة المشئمة ابتليت بطنه بسائر العلاجات من الحمية التامة والحراريق واللبخات وامتنع عن الاكل والشرب حتى خشينا ان المرض لا ينتهي الا بأجله وان هذا جزاء انهماكه على الاكل وقبيح عمله ولكن الحق سبحانه وتعالى أخذ بيد أبيه وأمه وبحسن المعالجة تناقص المرض الحادث من السفاهة ورجع الصبي بعد مدة مديدة الى درجة النقاهة بعدما أحزن العائلة ولولا تعويدهم له على الاكل لكانوا أغنياء عن هذه الغائلة وهذا ما وقع لاحد أطباء أوربا ونظيره ما وقع لطبيب العرب العرباء لصبي مملك عن الرياضة ومن المعلوم ان الرياضة بعد القناعة في الطعام والشراب وغيرهما من أحسن ما يحفظ به الانسان صحته ويصون به قوة بدنه بما يرى فيه مصلحته وان الكسل والبطالة يورثان في المعدة الضعف وفي البدن والاعضاء الحسية والمعنوية الكلالة بخلاف العمل والحركة فهما أصل اليمن والبركة فيحفظان قوى الابدان وينعشان عقل الانسان ويقيان المرء من كثير من الامراض ويمنعان الادراك من أن تتطرق اليه الاعراض يروى انه كان للملك من ملوك العرب صبي يهواه حيث لم يكن له من الاولاد سواه فأصيب بمرض عضال عجز عن تشخيصه الاطباء مع ما أنفق الملك على علاجه من الاموال وكان هذا

الولد لا يحس بألم شديد من هذا الداء واغا فيه ذبول بالغ لا يستطيع معه الحركة فكأنما الضعف أثر السقم في بدنه وانتهكه فكان لا يتحرك في فراشه ولا يذوق الراحة في معاشه كثير القلق شديد الارق تعطلت قواه الهاضمة ففقد الايناس ولا يألفه من حوله من الناس ومع أن بنيته الطبيعية كانت عظيمة الاساس كان يحس على ممر الاوقات بضعفها كمال الاحساس وسبب ذلك انه كان متعودا من صغر سنه على الدعة وعدم النشاط ولا حظ له في الالعاب التي لاقرانه في سنه سنة متبعة فلعدم ترويضه من صغر سنه على تحريك الاعضاء أدى به السقم الى هذا الحال وأفضى وكان أبوه عن ترويضه قد أغضى

فلما عجزت عن علاجه الاطباء وأخبر أباه عن حكيم ماهر خارج المدينة بعض الاحباء وانه من أشهر حكماء العرب العرباء أحضره الملك بديوانه ووعده بمكافأة عظيمة تليق بمكانته ومكانه اذا كانت مداواة ابنه في امكانه فشخص في الحال هذا الطبيب مرض هذا الصبي الامير وعلم بالاستفهام عن حقيقته انه الى الآن ليس بخطير ووعد الملك أن يحضر ثاني يوم بدواء نافع لداء هذا الصبي قاطع فحضر في اليوم الثاني بالديوان ومعه كرة وصولجان وقال للصبي هاك هذا الصولجان وتلك الكرة فقد دهنتهما لك بمنقوع بعض العقاقير المعتبرة مما فيه خاصة بشفاء دائك خاصة ففي كل يوم قبل الاكل في الصباح والمساء تروض بتحريك يديك في الايام الاوائل في داخل رحبة الديوان والمنازل ثم اذهب الى الخلاء مقدار ساعة كل يوم واضرب بيديك الكرة بالصولجان ومتى انقلبت فاجر وخذها من الميدان وهلم جرا فهذا الدواء يثمر الشفاء عن قريب بشرط ان يسمع المريض وصية الطبيب فعمل الصبي بما أوصاه به طبيبه فكان له فيه من تعجيل الشفاء حظه ونصيبه فما مضت عليه أيام قلائل الا وجد من علامات الشفاء اعظم دلائل حيث عادت اليه لذة الطعام والمنام وبعد مضي نصف شهر رجعت اليه قواه كالمرغوب والمرام وبعد شهر اكتسى بحلة الصحة التامة ووجد في الرياضة التي أوصاه بها الحكيم المنفعة العامة ولما شاهد الملك ان ابنه عاد اليه كمال الصحة وان الطبيب بذل في العلاج نصحه أراد أن يكافئه بما وعده من الاكرام ويرضيه بما يستحقه من الاتحاف والانعام فقال له الطبيب اعلم أيها الملك ان معارفي ليست هي التي أفادت ولدك الشفاء ولا استعملت في علاجه أدوية عجيبة ولا عقاقير غريبة بل دهنت الكرة والصولجان بمنقوع حشائش وهو أرخص دهان جنيتها من الغياض واقتطفتها

من

من الرياضة دون كلفة بل بمجرد الاتفاق والصدفة فالفضل للرياضة التي أذهبت البطالة والكسل فليكن عليها في ديوانك الشريف كمال العمل وهي تمام الامل

(الفصل الثاني في شذرة من كلامه صلى الله عليه وسلم)

أما كلامه صلى الله عليه وسلم فبحره طام لا تنفد مداد عبابه الاقلام وأعجز الخاص والعام من الاعلام فلنذكر جملة من كلامه صلى الله عليه وسلم تحث على كل فضل * قال صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ مانوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه * وقال الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله تعالى في ارضه محارمه ألا وان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب * وقال ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس * وقال من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه * وقال أجملوا في طلب الدنيا فان كلا ميسر لما خلق له * وقال كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور *وقال كما تدين تدان *وقال لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك *وقال لا يغني حذر من قدر *وقال يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا *وقال استفت قلبك وان أفتوك *وقال احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله واعلم ان الامة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك الا بشئ قد كتبه الله لك وان اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يضروك الا بشئ قد كتبه الله عليك رفعت الاقلام وجفت الصحف وفي رواية احفظ الله تجده أمامك تعرف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك واعلم ان النصر مع الصبر وان الفرج مع الكرب وان مع العسر يسرا *وقال الخلق كلهم عيال الله وأحبهم اليه انفعهم لعياله * وقال الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء * وقال من سعادة المرء حسن الخلق ومن شقاوة المرء سوء الخلق * وقال ان الدين يسر ولن يشاد الدين أحد الا غلبه فسددوا

وقاربوا وبشروا واستعينوا بالغدوة وشيء من الدلجة * وقال أفضل الاعمال أن يسلم الناس من لسانك ويدك وماعظمت نعمة الله على امرئ الا عظمت مؤنة الناس عليه * وقال أد ما افترض الله عليك تكن من أعبد الناس واجتنب ماحرم الله عليك تكن من أورع الناس وارض بما قسم الله لك تكن من أغنى الناس * وقال ان الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم * وقال ان الله تعالى يقبل توبة العبد مالم يغرغر * وقال ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى اذا لم تستح فاصنع ماشئت * وقال اياكم والظن فان الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك * وقال أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك * وقال الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف * وقال جبلت القلوب على حب من أحسن اليها وبغض من أساء عليها * وقال المرء مع من أحب * وقال من تشبه بقوم فهو منهم * وقال من أحب شيئا اكثر من ذكره * وقال ألا انبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من انفاق الذهب والورق وخير لكم من ان تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ذكر الله * وقال الايمان بضع وسبعون شعبة فأفضلها قول لا اله الا الله وأدناها إماطة الاذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان * وقال الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك * وقال أفضل الجهاد كلمة حق تقال عند سلطان جائر * وقال أشد الناس بلاء الانبياء ثم الامثل فالامثل يبتلى الرجل على حسب دينه فان كان في دينه صلبا اشتد بلاؤه وان كان في دينه رقة ابتلى على قدر دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الارض وما عليه خطيئة * وقال سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله امام عادل وشاب نشأ في عبادة الله ورجل قلبه معلق بالمسجد اذا خرج منه حتى يعود اليه ورجلان تحابا في الله فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من خشية الله تعالى ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فأبى عنها وقال اني اخاف الله رب العالمين ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ماتنفق يمينه * وقال آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا أوعد أخلف واذا ائتمن خان * وقال أحسنوا جوار نعم الله لا تنفروها فقلما زالت نعمة عن قوم فعادت اليهم * وقال مفاتيح أرزاق العباد بازاء

العرش

العرش فمن كثر كثر له ومن قلل قلل له *وقال ما جعل الله وليا الا على السخاء وحسن الخلق *وقال عن الله عز وجل من آذى لي وليا فقد آذنته بالحرب *وقال أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وان تأمر عليكم عبد وان من يعش فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ واياكم ومحدثات الامور فان كل بدعة ضلالة *وقال أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه *وقال يأتي على أمتي زمان القابض على دينه كالقابض على الجمر *وقال ان الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر وقال بشر المشائين في الظلم الى المساجد بالنور التام يوم القيامة *انتهى

---

*(قال مدير هذه الطباعه * على فهمي رافع رفاعه)*

تم بحمد الله على أحسن نسق وأجل اسلوب هذا الكتاب الآتي
في تربية البنين والبنات بالمطلوب والمرغوب وهو مأثرة من مآثر
مؤلفه الوالد رحمه الله وأثابه الثواب الاكمل جزاء له على هذه
المحامد جاء مثنيا بلسان الحال والمقال على حضرة الخديو
الاعظم صاحب الفضل والافضال معترفا بقصور
التبييض والتحرير لنجل المؤلف الفقير
أحسن الله له تمام نعمة الخاتمة بفضله
كما أتمها على أبويه من قبله
بجاه محمد الحبيب
انه سميع
مجيب
وصلى الله على سيدنا محمد وآله عدد كمال الله وكما يليق بكماله

(طبع)
(بمطبعة المدارس الملكية سنة ١٢٩٢ هجريه)

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٧٦٣٥ / ٢٠٠٢

